دراسات نقدية متنوعة

دراسات نقدية متنوعة

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

منشية الصدر - القاهرة

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

مع كتاب "محمد رسول الحرية" لعبد الرحمن الشرقاوى

عبد الرحمن الشرقاوى (١٠ نوفمبر١٩٢١ - ٢٤ نوفمبر١٩٨٧) شاعر وصحافى وكاتب سياسى ومؤلف مسرحى وقصاص ومبدع تراجم لعدد من الرموز الإسلامية أهمها وأولها صدورا "محمد رسول الحرية. وهو مصرى الجنسية.

وقد قرأت له "محمد رسول الحرية" فى شبابى الأول فى طبعة كتاب "الهلال"، ولاحظنا أنا وزملائى الذين قرأوه مثلما قرأته النكهة اليسارية الواضحة فى الكتاب وحرص الشرقاوى على عدم نسبة ما يقوله الرسول من آيات القرآن إلى مصدره الإلهى كما سأوضح بعد قليل وامتناعه عن وصف محمد عليه السلام بالنبوة وكذلك عن الصلاة والسلام عليه على طول الكتاب وعرضه. ولكنى رغم ذلك قد استمتعت بقراءة الكتاب أيما استمتاع، وعند قراءتى له هذه المرة شعرت بمتعة كبيرة رغم انتقادى للكتاب وصاحبه فى أشياء شديدة الأهمية، وبخاصة أن أسلوب الشرقاوى أسلوب أدبى قوى محكم جميل ومثير بما فيه من الشحنات الوجدانية وخال من الأخطاء اللغوية، اللهم إلا هَنَاتٍ قليلةً. وأنا من الذين ينتشون من قراءة ما يخالف آرائى ومعتقداتى، إذ يحرك هذا النوع من الكتابات عقلى ويَدْفِق فيه حيوية عظيمة ويستفز قدراتى الفكرية ويدفعنى إلى القراءة حول الموضوع الذى تدور عليه هذه الكتابات والتعمق فى دراسته والرجوع إلى ما سبق لى أن قرأته عنه قبلا، وبالذات فى فترة الشباب. وقد سئلت فى إحدى الندوات العربية المشباكية قبل ليال عن موقفى من كتب المستشرقين التى تهاجم الإسلام، فكان جوابى أنى أنتشى بقراءة تلك الكتب للأسباب المذكورة آنفا. وأزيد الآن أنه لو كان الشيطان نفسه يؤلف كتبا

لكنت أول الطائرين لقراءتها والمنتشين بما فيها من أفكار إبليسية والشعور بالبهجة وأنا أهدم حججه بل شبهاته هدما، غير مانع هذا إياى من الإشادة بما فى كتب أبى الشياطين من أسلوب جميل وشكل فتان هما وسيلته إلى ترويج فكره الخبيث. فهذا شيء، وذاك شيء آخر.

وكتاب "محمدرسول الحرية" هو كتاب فى السيرة المحمدية، لكن صاحبه يؤكد أنه كتبه على غرار مختلف عن كتب السيرة النبوية السابقة وأنه يتوجه به إلى غير المسلمين كما يتوجه به إلى المسلمين، لكنه جرده من المعجزات ومن الدفاع عن صدق النبى فى إعلانه النبوة... قال: "لقد أردت أن أقول لهم ان السيرة ليست فى حاجة الى كتاب جديد يتحدث عن عصر النبوة أو يدافع عن صدق الرسالة أو يؤكد معجزات النبى. لسنا فى حاجة الى كتاب جديد عن الدين يقرأه المسلمون وحدهم ولكننا فى حاجة الى مئات من الكتب عن التطور الذى يمثله الاسلام. كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين تصور العناصر الإيجابية فى تراثنا، وتصور ما هو إنسانى فى حياة صاحب الرسالة. إننا بحق فى حاجة إلى مئات من الكتب يقرأها الناس كافة: الذين يؤمنون بنبوة محمد والذين لا يؤمنون. إننا دائمًا فى حاجة إلى إعادة تقييم تراثنا، إلى إحياء ما هو إنسانى فيه ونشره على العالم، إلى تصوير القدر المشترك المتفق عليه بين الجميع من دور أصحاب الرسالات، أى الى تصوير الجانب الدنيوى الذى أصبح ميراثًا مشتركًا لكل الناس مهما تختلف دياناتهم وفلسفاتهم وآراؤهم. وأنا أعرف أن من الناس من يجحد دور الإسلام ومحمد، ومن يتهم الإسلام بأنه حركة رجعية، ومن يتهم محمدًا بأنه أرستقراطى من أشراف مكة كان يطلب ملك الحجاز، وأنه جاء لينظم العبودية وليحتال على المجتمع ببعض إصلاحات

تخفف الضغط عن الفقراء ليؤخر ثورتهم، وأنه جاء ليضطهد اليهود. ومثل هذه الآراء ينشرها كتّاب كثيرون فى العالم بأكثر من لغة.

وعلى الرغم من أننا نملك آلاف الأدلة على فساد هذه الآراء ونملك من حقائق التاريخ الثابتة ما يقطع بأن للإسلام دوراً تقدميا وتحريريا لم يزل يؤثر فى تاريخ البشرية ومستقبلها، وأن محمدا كان رسولا يبشر بالحرية والإخاء الانسانى، وأنه عامَلَ اليهود بصبر ورحمة وحكمة لم يعرفها التاريخ من قبل ولا من بعد، على الرغم من كل هذا فقد عدل كثير من كتابنا عن مناقشة هذا كله، ودارت معظم الكتابات فى السيرة حول النبوة والمعجزة، حول الرسول لا الرجل. ولكننا حين نناقش من لا يؤمن بالجانب الدينى يتحتم علينا أن نناقشه بمنطقه لا بمسلماتنا وعقائدنا. إنهم يناقشون الرجل والتعاليم فلا يجب إذًا أن نتحدث عن شيء آخر. لا يجب أن نواجههم بالنبي حين يتحدثون عن الرجل!

فلنواجههم بالرجل، وإن فى حياته لثروة لا تنفد من الإباء والرحمة والحب والحكمة والبساطة والقدرة الخارقة على التنظيم والإبداع وكسب القلوب. أكنا نخاف من الحديث عن الرجل لأن فى مجتمعاتنا كثيرًا من الذين لا تروق لهم الحياة إلا إذا نصبوا فيها الفخاخ؟ أكنا نتهيب الذين يؤذيهم أن يجتهد الناس ليعالجوا فتح أبواب جديدة إلى المعرفة؟ أكنا نخشى من الاتهام بالكفر والخروج على الدين وعدم الاعتراف بالنبوة؟ ولكن من هو هذا الذى يملك أن يفتش فى قلب انسان ليناقش معتقداته وايمانه؟ أحرام على أن أكتب لغير المسلمين عما فى حياة محمد النبى من روعة وبطولة وإنسانية وخطر؟

ولكن نشر الصفحات الجليلة فى تراثنا أمام الناس كافة مهما تختلف عقائدهم ودياناتهم، ولكن هذا العمل ليس مجرد عمل أدبى بل واجب قومى

ومسؤولية فنية يجب أن ينهض بها من يشعر فى نفسه بالاستعداد لها. ولقد حاولت أن أنهض بدورى المقسوم فى هذه المسؤولية، فقدمت هذا الكتاب الذى اخترت له الشكل القصصى لا شكل البحث. إنها لمحاولة أقدمها أولًا إلى غير المؤمنين بمحمد، راجيًا أن يتناول القارىء، مهما تكن عقيدته، هذا الكتاب بنفس الروح التى كتبته بها".

ولكن ما المانع فى أن نكتب عن عظمة محمد النبى والرسول بالطريقة التى تفتح العقول والقلوب للإقرار بنبوته ورسالته فنهدم الحاجز الذى أقامه الشيطان أو الجهل بين البشر الذين لا يؤمنون به صلى الله عليه وسلم وبين الدخول فى دينه، فإن لم يدخلوا فى دينه فلسوف تتأثر أفئدتهم بعظمته صلى الله عليه وسلم؟ ونحن حين نكتب عن محمد فإننا لا نكتب عنه كإنسان عادى بل كإنسان نبى ورسول. إننا لا نتسول الإعجاب به عليه السلام من الآخرين، بل نريد أن نقيم الحجة على من يكفر أو لا يبالى به كصاحب رسالة سماوية. إننا فى كتابتنا عن محمد النبى لا نكره أحدا على الإيمان بنبوته ورسالته بل ندعو الآخرين إلى الإيمان بها بملء حريتهم ونقدم لهم الدلائل على أنه رسول الله وعلى النحو الذى يفهمه عصرنا هذا. أما من لا يفتح قلبه لنور الحق والعظمة المحمدية فشأنه وذاك. سوف نشعر بكل تأكيد بالأسف على ذلك، لكننا لا نتعدى الأسف بأى حال. وهذا موقفنا، ولا نظن إنسانا عاقلا يمكن أن يتخذه تكأة للهجوم علينا مثلما لا نفكر نحن من جهتنا فى إكراه أحد على الدخول فى الإسلام. ولا ريب أن من يعجبون بمحمد دون أن يؤمنوا به نبيا ورسولا أفضل ألف مرة ممن لا يعتقد نبوته ورسالته ويكرهه أو لا يوليه حقه من الإعجاب ويعاديه ويهاجمه هو ودينه أو يتطاول عليه ويتجاوز حدوده معه كما يصنع كل وغد أثيم زنيم.

كذلك اشتكى الشرقاوى فى مقدمة الكتاب ممن اتهموه فى دينه، وحمل عليهم، وإن أبدى لامبالاته بهم. وأحسب أنهم قرأوا ما كتبه فى السيرة النبوية فى ضوء ما يعرفونه عن يساريته من ناحية، ومن ناحية أخرى فى ضوء ما كتبه فى تحليل بعض الأمور تحليلا ماديا على أسلوب اليساريين المتطرفين ومن لف لفهم كالقول بأن الرسول (الرسول لا الله) قد حرم الخنزير على أتباعه نكاية فى اليهود، الذين كان يتاجرون فيه، فأراد أن يضربهم فى مصالحهم التجارية. أى أن المسألة هى مسألة نزاع على الأموال والأمور المادية فقط كما جاء فى الصفحات ٢١٦- ٢١٩ مثلا.

ليس هذا فحسب، بل نسى الشرقاوى كذلك أو تناسى أن اليهود لا يأكلون الخنزير ولا يتاجرون فيه بمقتضى كتابهم المقدس، وهم يتشددون فى ذلك أيما تشدد. وعلى كل حال فلم نسمع أو نقرأ أن الخنزير كان جزءا من حياتهم فى المدينة سواء كطعام أو تجارة. ومرة ثالثة ليس هذا وحسب بل إن الشرقاوى على طول كتابه وعرضه لم يَعْزُ شيئا من نصوص القرآن إلى السماء ومصدره الإلهى بل كان يقول مثلا: فقال محمد كذا وكذا/ فنطق محمد بكيت وذيت/ تلا محمد تعاليمه. أنذرهم محمد بعذاب الحريق، وإنه لعذاب غليظ يصهر به ما فى بطونهم والجلود/ ومضى محمد يحض أصحابه أن يمتنعوا عن الخمر. فمهما يكن فيها من منافع فإن فيها لإثما كبيرا/ ولم يكد محمد يعلن هذا الموقف (يقصد: يقرأ آيات "الشهر الحرام بالشهر الحرام..." وكأن القرآن كلامه)/ (وعند فك كثير من أسرى قريش ومجيء الأخبار بأن قريشا تستعد للانتقام من هزيمتها فى بدر) انقطع النبي يفكر، وخرج إلى أصحابه يقول إنه إنما أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر، فما كان له أن يترك لقريش أسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى. ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن

فى الأرض. ولكنه على كل حال لا يستطيع أن يطبق على الأسرى قاعدتين مختلفتين. فليقبل الفدية إذن فيمن بقى (ص١٨٢)/ (عند اختلاف المسلمين الحاد حول توزيع الغنائم)وخرج محمد يصيح فى الناس مغضباً: إنكم لأولى الناس ببعض. فليكن الحب هو ما يحكم بينكم لا المنافسة على عَرَض الدنياء. فإنكم إذا لم تجعلوا بعضكم أحباء بعض وأولياء بعض، إن لم تجعلوا الصفاء دستوركم، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير (ص١٨٣).

والمثال التالى أشدّ: "وارتفع صوت آخر: إن بيوتنا عورة فليأذن لنا أن نخرح فنرجع إلى دورنا، فإنها خارج المدينة. وارتفع صوت آخر حاسم: إنهم لينافقون، فأذن لنا أن نقطع رقابهم. ولكن محمدًا لم يحب أن يستكره أحدًا على القتال. فما جدوى أن يخوض المعركة بجنود كارهين؟ وأدرك أن الخوف يسيطر على بعض القلوب فأذن لمن يريد أن يعود الى بيته. فهذا أن يعود خير من أن يبقى فى الصفوف ليشيع الانهزام. ولْيَثْبُتْ فى الصفوف من يجد فى نفسه القدرة على مواجهة الخطر والرغبة الصادقة فى الاستشهاد دفاعًا عما يؤمن به! وهمهم لنفسه وهويتقدم الصفوف: عفا الله عنك لم أذنت لهم! ولكنه عاد فرأى الخير فى تخليص صفوفه من العناصر الخائرة. تم أخذ يتلو عليهم: وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقَام لكم فارجعوا ويستأذن فريقٌ منهم النبي يقولون: "إن بيوننا عورة"، وما هى بعورة. إن يريدون الا فرارًا *... * قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتَّعون الا قليلا * قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لاخوانهم: "هلم إلينا" ولا يأتون اليأس الا قليلا". واضح أن القرآن،

حسبما هو ظاهر بين، انعكاس لما يدور فى ذهن محمد عليه السلام، والصياغة تدل على أنه كلامه هو ذاته لا وحى سماوى (ص٢٥٦).

وعند الكلام عن صدر سورة "التحريم" نقرأ: "وخرج هو إلى زوجاته بعد أن أضناه النوم على الحصير الجاف يعلن أنه لن يحرّم مارية على نفسه ابتغاء مرضاتهن!" (أى مرضاة زوجاته/ ص٣٠٤). وواضح هنا أيضا أن القرآن هو كلام محمد لا رب محمد. وهذا ما يفهم من الكلام، ولم نأت بشىء من عندياتنا.

وحين صلى محمد عليه السلام على ابن أُبَىٍّ زعيم المنافقين فى المدينة: "اقترح عمر أن تقطع رؤوس زعمائهم وفى طليعتهم عبد الله بن أبى. ولكن عبد الله بن أبى كان قد مات. وأمام الموت سقط الغضب وزالت الانفعالات، فلا عتاب بعد ولا عقاب. وأقبل محمد يصلى على جثمان عبد الله بن أبى، وعمر يحتج فى عنف. وأسكته محمد، ولكنه خرج إلى الناس بعد عدة أيام يأمرهم ألا يصلوا على أحد مات بعدُ من المنافقين والمتخاذلين أو الذين دخلوا الاسلام ليثبوا إلى الغنى والجاه والسلطة" (٣٤٧)... فالشرقاوى إذن هو الذى عرّض نفسه للقيل والقال والاتهام، إذ رأى بعضٌ أن المسألة ليست سهوا أو نسيانا أو حتى عدم اهتمام بتلك النقطة، وإنما هى أمر أبعد من ذلك وأنها تنبئ عما يجتنّ فى الضمير.

وقد قرأت على المشباك (الإنترنت)مقالا منشورا فى "أهرام" الجمعة بتاريخ١٩ يناير ٢٠١٨ عنوانه " عبدالرحمن الشرقاوى- ما الحياة إلا ثورة من أجل الحرية والعدل" يدافع فيه صاحبه محسن عبد العزيز عن الشرقاوى فى نهجه هذا الذى انتهجه فى ترجمته للرسول عليه الصلاة والسلام. ومنه أنقل هذه السطور: "هل يمكن أن تقنع أحدا بعقلانية الإسلام وإنسانية الرسول

وسمو رسالته بعيدا عن الغيبيات، وأن تقدم نبينا محمد كبشر يخطئ ويصيب، يفرح ويحزن، ينتصر فى الحرب وينهزم؟ إذا فكرت قليلا وكانت إجابتك: نعم فسوف أقول لك: هذا ما قام به كاتبنا الراحل الكبير عبدالرحمن الشرقاوى فى كتابه "محمد رسول الحرية " قائلا: "أردت أن أصور قصة إنسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم، وكونتْ تعاليمه حضارة زاهرة أغنت وجدان العالم لقرون طويلة. إننى أدعو إلى قصة إنسان رائع البطولة ناضل، على الرغم من كل الظروف، ضد القوى الغاشمة من أجل الإخاء البشرى ومن أجل الحرية وكبرياء القلب المعذب، ومن أجل الحب والرحمة، ومستقبل أفضل للناس جميعا بلا استثناء: الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون على السواء. إنه ميراثهم جميعا!". رغم هذا الكلام الرائع الذى ذكره الشرقاوى فى مقدمة كتابه إلا أن هناك من لم يعجبهم هذا الكتاب الذى يخاطب العقل ويشهد بعبقرية ونبل نبى الإسلام. فقد غضب الأزهر ورجال الدين وتمت مصادرة الكتاب!

وأرسل الشرقاوى برقية إلى الرئيس جمال عبدالناصر عام١٩٦٢ يقول فيها: لَأَنْ تضعنى فى السجن الحربى أفضل من مصادرة كتابى: "محمد رسول الحرية". وطلب عبدالناصر نسخة من الكتاب، وقرأه وأمر بالإفراج عن الكتاب فورا، وأرسل له رسالة تهنئة وتقدير. كان الكتاب أول صرخة عقلية من الشرقاوى ضد الغيبيات سلك خلاله منهجا روائيا، مازجا الواقع بالمتخيل مع عمق فى التحليل، ليقدم "محمد رسول الحرية" كعَلَمٍ ورمز للبطولة الإنسانية الحالمة بالعدالة والتقدم والخلاص للإنسان المقهور، رافضا الأكاذيب والهالات غير العقلية فى مسيرة الرسول وكاشفا الدوافع الخفية والاجتماعية والإنسانية وراء دعوته لتحرر الإنسان. وطوال الكتاب كان الشرقاوى يجرى

القرآن على لسان الرسول طبقا للموقف الذى يقال فيه ليؤكد بشرية الرسول وإنسانيته وتضحياته فى سبيل دعوته للحرية والعدل".

وفى هذا المقال الذى يدافع فيه صاحبه عن الشرقاوى رفض واضح لما سماه المقال: "الغيبيات". ونحن لو رفضنا الجانب الغيبى فى شخصية الرسول وحياته ماكان نبيا ولا رسولا. ولست أدرى معنى هذا الإصرار على تجاهل نبوة محمد ورسالته واتصاله بالسماء. إن معنى هذا هو إنكار الوحى. وهل كان محمد ليكون ما كان لو أنه لم يكن صاحب رسالة سماوية؟ لقد كان مصيره أن يظل تاجرا فى مكة لا يسمع به أحد خارجها بل ولا يأتى أحد على سيرته فيها بعد موته. إن الذى جعل محمدا مشهورا إلى هذا الحد ومبجلا إلى هذا الحد ومحبوبا إلى هذا الحد وتعرض للأذى والعدوان فى أول أمره إلى هذا الحد ودفع الشرقاوى وغيره للاهتمام به والكتابة عنه إلى هذا الحد ويهاجمه المستشرقون والمبشرون والصهاينة، والشيوعيون الأوساخ من العرب وغير العرب، وعُبّاد البشر والبقر والأوثان المادية والفكرية هو شىء واحد: أنه نبى رسول. فكيف نتصور أن إلغاء الجانب الغيبى، جانب الوحى والنبوة والرسالة والإيمان بالله سبحانه وبيوم الحساب والجنة والنار، هو الذى سيجعل لمحمد قيمة؟ ترى أية قيمة تبقى لتاجر مكى قد انتهى أمره بين قومه أنفسهم بمجرد موته؟ دعونا بالله من هذا الالتفاف.

ثم هل عبد الناصر مفكر وناقد أدبى؟ لا بكل يقين. هذه ليست وظيفته. إن مناقشة هذه القضية إنما تكون بين العلماء والنقاد والكتّاب. ومنصب رئيس الجمهورية لا علاقة له بمثل تلك الأمور. واضح أن ثم نسيانا لمجلس الشعب. وواضح أيضا أن هناك من يرى فى رئيس الجمهورية شبه إله. فهو يرسل للسجن الحربى من يريد، ويأمر بالإفراج عن هذا الكتاب أو ذلك الفلم أو تلك

المسرحية عندما يريد... وهلم جرا. وما دمنا بصدد الحديث عن السجن الحربى، وكان الشرقاوى عاشقا للحرية حتى لقد حصر أمر محمد فى هذا النطاق، إذ سماه: "رسول الحرية"، فلماذا ياترى لم يتوجه إلى رئيس الجمهورية بإطلاق سراح الكتّاب والعلماء والأدباء الموجودين فى السجون لا لشىء سوى أن لهم مواقف وآراء لا تمشى مع ما يراه الرئيس؟ إننى على المستوى الشخصى لست مع مصادرة الكتب إلا إذا مست أمن الوطن والشعب مسا واضحا.

وطول عمرى أرانى أقرأ لكل الكتّاب والأدباء ولم أهمل يوما كتابا لأى سبب مهما كانت عداوته لدينى أو رسولى أو قرآنى أو وطنى، وأعيد النظر، كلما قرأت شيئا يخالف ما أعتقده، فيما يستكن فى عقلى من أفكار أنا مقتنع بها، فإن وجدت لدىّ شيئا لا بد من التخلى عنه وإهماله خلعته عن عقلى غير آسف، وإن ظللت مقتنعا بما لدىّ بقيت متمسكا به معتزا راضيا. وكل ما أفعله إزاء أى كتّاب لا يروق لى هو تحليله والنظر فى محتوياته بعمق وتقليب الرأى فيه على كل وجوهه وإبداء حكمى عليه مطمئنا أن الله سبحانه سوف يأجرنى حتى لو أخطأت الحقيقة، إذ فى الإسلام يُؤْجَر المصيب والمخطئ كلاهما ما دام كل منهما مخلصا فى نيته وغرضه واجتهد كل وسعه ولم يتخذ العناد مركبا وسلم بما ظهر له أنه الحق الذى يبحث عنه. وقد طبقت هذا على النبى والقرآن والألوهية فى كتبى المختلفة دون أى تحرج، ورغم إيمانى العميق بكل هذا فإنى لم أفكر يوما فى الدعوة إلى إكراه أحد على ترك ما يؤمن به أو يقول إنه يؤمن به بل كل ما أصنع هو الرد عليه وتحليل أفكاره بالتفصيل والعمق الشديد والنظر إليها من سائر الجوانب. وإنى لأستمتع بهذا العمل أيما

استمتاع ولا أجد لحياتى معنى ولا بهجة لو كان قُدِّرَ لى مصير آخر غير ما أنا عليه.

إن الشرقاوى يقول ببشرية محمد. لكن هل هناك من شاحّ فى هذا يوما من الأيام؟ إنه يستشهد بقوله تعالى فى أواخر سورة "الكهف": "قل إنما أنا بشر مثلكم"، ووضع هذه الكلمات على صفحة الغلاف، ونحن أيضا نستشهد بهذه الآية الكريمة التى تجعل من محمد عبدا لله سبحانه، وليس إلها أو ابنا لله أو وسيطا حاجزا بين الله والبشر. ولكننا لا نقف عند هذا الجزء من الآية بل نمضى فنقول كما أمره الله سبحانه أن يقول: "إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلَّ...". فهو بشر، إِى نعم، لكنه بشر نبى رسول. عبد من عباد الله، إى نعم، لكنه عبد يوحَى إليه من السماء لا عبد عادى. هذا هو وضع القضية الحقيقى. وأرى أن من وقفوا ضد ما كتب الشرقاوى فى هذا الكتاب قد فعلوا ذلك لأنه، رغم رفضه لمن درسوا محمدا على أنه تاجر أو راغب فى نهوض قومه... إلخ، لم يخالفهم فى أنه ليس نبيا رسولا قد أمره الله بتبليغ وحيه إلى البشر، ولكنه خالفهم فى اللافتة التى يرفعها، وهى لافتة الرغبة فى نشر الحرية. فالموقف المبدئى بين الشرقاوى ومن أنكر عليهم ممن ترجموا لمحمد عليه الصلاة والسلام واحد، ولكن اللافتات تختلف.

وثم مقال آخر لماهر حسن فى "المصرى اليوم" بتاريخ١٩ أكتبور ٢٠٢١، وعنوانه "ذاكرة الكتب- عبد الرحمن الشرقاوى وكتابه: محمد رسول الحرية" جاء فيه: "كانت الضجة التى أثارها كتاب عبد الرحمن الشرقاوى: "محمد رسول الحرية " هائلة إثر صدور طبعته الأولى سنة١٩٦٢، ولاقى هجوما كبيرا منذ نشره مسلسلا بجريدة "المساء " أوائل الستينيات، واشتد الجدل حوله فى السبعينيات، ووجهت للشرقاوى الكثير من التهم لدرجة مطالبة بعض

المتشددين بإعدامه وإحراق كتبه، ورأى بعض رجال الدين فى الكتاب خروجا عن المتداول والمستقر بأن عظمة الرسول تدلل عليها معجزاته وليست إنسانيته أو تعامله مع الناس، ونسوا أن الصحابة كانوا يسألونه بين أمر وآخر بقولهم: "أهو الرأى أم الوحى؟ "، أى أنه كان يقبل بالرأى والرأى الآخر، فضلا عن مقولته الشهيرة: "أنتم أعلم بشؤون دنياكم"، ولم يقل: أنا النبي وعليكم بالطاعة العمياء لأوامرى".

ومرة أخرى نقول: نعم إن محمدا بشر مثلنا. لكن لا يصح أن ننكر أو نتجاهل أو نضيق بمن يقول إنه رغم بشريته كان نبيا رسولا يوحى إليه من لدن رب العالمين. والصحابة الذين كانوا يقولون: "أهو وحى أنزله الله أم هو الحرب والرأى والمكيدة؟" كانوا واعين طول الوقت بأنه يتلقى الوحى من الله بل كانوا يضعون الوحى قبل الرأى والمكيدة، وإلا فلم كانوا يجتمعون به دائما ويتبعونه فيما يقوله ويدعوهم إليه ويأتمرون بأمره وينتهون عما ينهاهم عنه إلا لأنهم كانوا يرون فيه نبيا رسولا؟ للمرة الثانية نقول: وما الذى يضر من يكتب عنه عليه السلام من القول بأنه نبي؟ هل فى هذه الكلمة أو فى العقيدة التى وراءها شوك يشوكهم وينغص نفوسهم؟ ترى ما الحكاية بالضبط؟ فلنكتب عن نبوته وعن مبادئه التى أتى بها: فإن آمن به الناس نبيا رسولا فبها ونعمت، وإن آمنوا بأنه بشر عظيم جاء الناسَ بتلك القيم والمبادئ من عندياته فهم وما يؤمنون به. ولم نخسر نحن ولا خسروا هم شيئا. اما إهمال نبوته منذ أول الطريق فهو إلقاءٌ للسلاح الذى ندافع به ونقاتل فى حرب الثقافات والأفكار، وتنازلٌ عن أهم ما فى أيدينا دون داع سوى داعى السذاجة أو الخبث.

ومما يلاحظ على تلك السيرة التى فى أيدينا أن كاتبها لم يهتم فى بدايتها بالكلام عن بلاد العرب: تاريخها وجغرافيتها وعاداتها وتقاليدها وأديانها وثقافتها ونظامها السياسى وغير ذلك مما يتطرق إليه كثير من كتّاب السيرة النبوية فى العصر الحديث قبل الدخول فى السيرة ذاتها. وبالمثل لم يهتم الشرقاوى بتتبع سلسلة نسب رسولنا الكريم إلى عدنان إن لم يكن إلى إبراهيم، بل إن بعضهم ليندفع فى هذا الطريق حتى يبلغ آدم نفسه. أما الشرقاوى فهو عملى فيما يبدو لا يريد تضييع وقته بل يحب الدخول فى ترجمة شخصية محمد عليه الصلاة والسلام. ولست أبدى هذه الملاحظة على سبيل الانتقاد، فلكل كاتب أن يبدأ من النقطة التى يريد، وكل ما هنالك أننى أسجل ملاحظة ليس إلا أقارن فيها بين طريقة كاتبنا وطريقة طائفة أخرى من كتّاب السيرة. وكل مصيب، ولا حرج على أحد. والمهم أن يكتب كلاما علميا قدر الاستطاعة.

وفى المقدمة التى كتبها الشرقاوى لكتابه يذكر أنه قد صاغ السيرة فى أسلوب قصصى مؤكدا أن هذا نهج جديد. وبطبيعة الحال لا يصح أن نتوقع من هذا الكلام أن تكون ترجمة حياة النبى الكريم فى الكتّاب الذى فى أيدينا قد كتبت على شكل رواية أو قصة حسبما يفهم الفاهمون كلام الكاتب. ربما يصح القول بأن الشرقاوى ساقها على هيئة حكاية. والحكاية شىء، والقصة شىء آخر. الحكاية هى مجرد سرد لما حدث دون أن يتدخل المبدع فى هذا العمل بالتقديم والتأخير والحذف والإضافة ومزج الواقع بالخيال، بالإضافة إلى تصوير الشخصيات تصويرا مقنعا، وإيراد الحوارات متسقة مع شخصيات قائليها ومعبرة عن مستواهم الفكرى والاجتماعى ومهنهم... إلخ، وأن يكون للعمل بناء فنى، وهذا أهم عنصر فى الإبداع القصصى، وأن تكون للعمل القصصى بداية ونهاية وغاية تصل إليها الأحداث على سبيل العلية يضعها المبدع

فى ذهنه قبل أن يخطط حرفا فى عمله. ومن ثم كنت وما زلت أستغرب كيف جرؤ د. عبد المحسن طه بدر على وضع كتاب "الأيام" للدكتور طه حسين، وهو سيرة ذاتية بامتياز، فى كتابه: "تطور الرواية العربية فى مصر" بوصفه رواية. إن ذلك يفتح الباب على مصراعيه لدخول أى شىء تحت بند هذا الجنس الأدبى فتتميع الحدود.

وهذا الذى ذكرتُه قبلا من خصائص العمل القصصى غير متوفر على ذلك النحو فى الكتاب، وبالذات البنية القصصية والغاية التى يضعها الكاتب نصب عينيه من قبل شروعه فى عمله وتكون عادة من صنع خياله وتدبيره، ومن ثم قلنا إن عمل الشرقاوى مجرد حكاية لا قصة ولا رواية. وهنا نتوقف لنقول إن السير، ذاتية كانت أو غيرية، تقوم عادة على أسلوب الحكاية، اللهم إلا إذا شاء الكاتب أن يجعلها تحليلا لشخصية المترجم مثلا كما صنع العقاد فى "عبقرية محمد" وغيرها من العبقريات. وعلى هذا فالشرقاوى لم ينتهج هنا نهجا جديدا تماما على عكس ما ادعى. ومن هنا كان كلام الشرقاوى فى مقدمة "على إمام المتقين" أقرب إلى المراد، إذ قال: "ما أردت بهذا الكتاب إلا أن أصطنع شكلا فنيا أقرب إلى الفن القصصى أعتمد فيه على حقائق التاريخ الثابتة لأعرض مبادئ الإسلام وقيمه من خلال تصوير فنى للإمام على رضى الله عنه". فهو لم يقل إنه كتب سيرة علىّ فى شكل قصصى بل اعتمد "شكلا فنيا أقرب إلى الفن القصصى".

ومع هذا فأهم ما صنع الشرقاوى فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام هو الأسلوب الأدبى الذى يرتقى إلى أجواء الشاعرية فى كثير من الأحيان، وإن أخذنا عليه أشياء سوف تتكشف لنا تباعا. ومن ذلك أسلوب السرد الذى يتصرف فيه الشرقاوى على نحو مخالف لكتب السيرة الاعتيادية. فكيف وقع

السرد فى الحكاية التى نحن بصددها؟ لقد بدأت باستخدام ضمير الغائب، أى السارد العليم بكل شىء فى حكايته. لكننا نفاجأ فى بعض الأحيان بالسارد يتوجه بالخطاب إلى الشخص الذى يكون بصدد الحديث عنه مثلما فعل فى النص التالى عندما تغير بغتة اتجاه السرد من استعمال ضمير الغائب لعبد الله بن عبد المطلب إلى استعمال ضمير المخاطب وكأن بطل الحكاية واقف إزاءه فهو يخاطبه مخاطبة الصديق لصديقه، لينتقل السرد مرة أخرى من مخاطبة البطل إلى تركه يتكلم هو عن نفسه وعمن وعما حوله فى مناجاة ذاتية، وإن كان قد استخدم فى تلك المناجاة الذاتية ضمير المخاطب كأنه يتوجه بالكلام إلى سواه: "وخرج عبد الله يطلب رزقه ليعود إلى زوجته آمنة فيملأ بيتها بالخير الوفير، ويستقبل المولود الجديد. ليكن غلامًا يشد ساعدك يا عبد الله، ويسعى معك فى رحلة الشتاء والصيف! وليكن له إخوة عشرة تستقوى بهم فى قريش! لكم كنت تريد أن تقيم مع زوجتك آمنة حتى تضع ولدها، ولكنها توشك أن تضعه وأنت ما تزال فى البلد النازح! لشد ما يعبث بك القضاء! ولكنها إرادة آلهة الكعبة! (حيرتنا معك يا شرقاوى! أهو القضاء أم إرادة الآلهة؟) عندما كنت صغيرًا (الحكاية كلها لا تزيد عن أشهر. فكيف يكون صغيرا قبل ذلك الوقت القصير بالنسبة لسنه آنذاك؟) أوشكت أن تُذْبَح ليرضى كبير الآلهة عنك وعن أبيك. ولكن الآلهة قبلت فيك مائة بعير. مائة بعير افتدت حياتك. ولو أنها لديك الآن لأصبح لك فى قريش شأن آخر ولما اضطرتك الحاجة إلى أن نترك زوجة وحيدة تضع لك طفلك الأول وأنت بعيد! وها أنت ذا تضرب فى الأرض من أجل الرزق بعيدًا عن مكة، البلد الذى ولدت فيه واخترته للحياة، وتتمنى أن تستلقى تحت ترابه بعد عمر طويل حافل! ولكن مكة الآن بلد يغشاه الوباء. لتنقذ الآلهة مولودك من هذه الغاشية! جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشة الذى أراد أن يستولى على مكة ويهدم الكعبة. ألم يسمع

أبرهة أساطير الأولين؟ ألم يسمع ما يقوله الرواة فى طول الجزيرة وعرضها عن أبطال كانوا أشد منه بأسًا حتى لقد أخافوا الجن وشقوا الظلمات بسيوفهم وسيطروا على الريح ثم استكبروا على آلهة الكعبة فطاردتهم اللعنة، وقُضِىَ عليهم أن يعيشوا فى التيه مئات السنين؟ ولكن أبرهة لا يعى وإنه ليستعلى على الدنيا بحيوان ضخم اسمه الفيل تجفل الخيل منه. ويفر من أمامه الشجعان. وإنه ليقرع أبواب مكة يتقدمه هذا الفيل! لكم كان أبوك عبد المطلب حكيما يا عبد الله! هو حكيم ولا يخطىء أبدًا. أبوك الشيخ هذا تداعت قريش كلها الى القتال، فأدرك عبد المطلب أنهم لا قِبَلَ لهم بجبش أبرهة وبالفيل، فناداهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم إلى شعاب مكة حتى يزول الكرب، أما الكعبة فلها أرباب تحميها. وفى قصص الأولين عبرة! ولم يكد أبرهة يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة، فإذا برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى، ومعهم أبرهة نفسه، وما أغنى عنهم الفيل... وهكذا". وفوق ذلك فعبد المطلب، حسبما نقرأ فى كتب السيرة، لم يقل إن للبيت (أو الكعبة) أربابا تحميه كما جاء فى كلام الشرقاوى بل قال: "إن للبيت ربا يحميه". لكن الشرقاوى حريص، وإن لم يكن بارعا بما فيه الكفاية، على مثل هذه النخسات!

وكما جعل كاتبُنا الساردَ يوجه الكلام إلى عبد الله بن عبد المطلب ها هو ذا الكلام يتجه إلى ابن عبد الله محمد، ولكن مِنْ عَلُ، إذ يناديه صاحب الخطاب بـ"يا ولدى...". وهو أسلوب غير لطيف، إذ الواقع أن السارد هو فى حقيقته المؤلف مهما تغير الضمير الذى يروى لنا الحكاية. فماذا يريد الشرقاوى بهذا؟ أيريد أن يضع نفسه فى مرتبة أعلى من مرتبة محمد؟ فلنقرأ من بداية الفصل الرابع من الكتاب (ص٤٧): غريب أنت يا ولدى فى هذا التيه

الضارى الذى يتنفس باللعنة والأكذوبة والمنكر، شارد حزين لا تنفك تتأمل فى السموات والأرض ووجوه الرجال والنساء والأطفال. ما تكاد تضحك مستمتعًا بحياتك الجديدة المطمئنة مع المرأة الجميلة النقية الحكيمة التى اختارتك للحياة والموت حتى ينبثق من أغوار نفسك فجأة خاطر مبهم، فإذا ابتسامتك الآسرة تفيض على شفتيك، وإذا بنظراتك تخترق الصمت ويداك الكبيرتان تلوّحان فى السكون، وينتفض العرق النافر من جبينك العريض الناصع وتضيء ملامحك الحادة بشعاع رهيب وكأن نورا من الغيب يغشاك، فيبدو وجهك المتورد معذبا مُضْنًى على الرغم من كل شيء! أشاعر أنت يا بنى يأتيك هاجس من الخفاء؟". وهناك مثال آخر فى بداية الفصل العاشر (ص١١٣): "طريد أنت يا ولدى، مسكين كالمبشرين الأوائل". وانظر ص٢٢٣ أيضا. وهذه مجرد أمثلة.

وفى ص ٨٩ وما بعدها نسمع خواطر عمر التى تدور فى عقله وقلبه حين توشح سيفه ووضع درعه عليه ومضى تجاه دار الأرقم بن أبى الأرقم ليقضى على النبى عليه السلام. وهذه الخواطر هى عبارة عن مناجاة بينه وبين نفسه حول النبى وحمزة والدين الذى جاء به محمد والقتل الذى ينتوى أن ينزله بمحمد: "أما عمر بن الخطاب فقد خرج من داره بعد قليل متوشحا سيفه إلى بيت الأرقم عند الصفا حيث يلقى محمد فيقتله أمام أتباعه وأمام عينى حمزة بن عبد المطلب. فليبارزه حمزة بعد هذا. فليقتل هو حمزة، أو فليقتله حمزة. فهذا شيء لا يجب أن يفكر فيه. المهم هو أن يقتل أبا القاسم محمد بن عبد الله! كان ما برح يفكر فيما صنعه محمد، والألم المبهم يزحف إلى قلبه، وصورة جارته العجوز التى رحلت تختلط بصور الذين هجروا مكة وتزحف على حلقه بشعور غامض حزين كالغصة التى تسد الحلق فجأة".

ومن ذلك الوادى المناجاة الشخصية للنبى أيام الإفك، تلك المناجاة المفعمة بالعبارات البلاغية وتحليل النفوس تحليلا بلغة عاطفية مجنحة (٢٣٩ وما بعدها): "وتفقد محمد بيوت نسائه فلم يجد عائشة. أين راحت؟ إنها لم تعد مع الركب. ودب الخوف على عائشة فى كل القلوب حذر أن تكون قد ذهبت لبعض حاجتها فى تلك الليلة، فافترستها وحوش الصحراء! وفى الصباح التالى أقبل على المدينة فتى جميل اسمه صفوان يسحب جمله ويدخل المدينة بعائشة! ونظر عبد الله بن أبى إلى من حوله وابتسم. كان ما يزال يتحسس عنقه التى أفلتت من حد السيف منذ حين!

وهمس عبد الله: العار! وإذًا فقد كانت عائشة مع صفوان! تخلفت عن الركب لتقضى ليلتها مع صفوان. لماذا يبتلى محمد على طيبته بزوجة تعشق رجلا غيره. تعشق رجلا غيره يا عبد الله؟ أجل. تعشق رجلا غيره يا رجال! وانطلق عبد الله بن أبى يتكلف الإشفاق على محمد ليملأ المدينة بالطعن فيه. عائشة غيرى أفسد قلبها الزواج من بنت الحارث التى تفوقها جمالًا وشبابا. ولهذا رأت أن تبحث عن رجل آخر أكثر شبابًا! وهكذا وقع محمد الزوج ضحية لطيش زوجة غيور تعبث بسمعته وشرفه وتدس على فراشه رجلا آخر وتستنبت له وصمة عار حيث يجب أن يضع أكاليل الغار!

وأوشك عمر، حين سمع بما يشبعه عبد الله بن أبى، أن يذهب إليه فيقتله ويريح الناس منه، وذهب إلى صديقه محمد يستشيره، ولكن هما ثقيلًا كان يحنى رأس محمد، فما يستطيع أن يرفع عينيه بعد فى عينى أحد. حتى أعز الأصدقاء أبى بكر وعمر! ولم يعلم محمد على عانشة من سوه قبل هذا وما عرف فى صفوان الغدر. ولكن أكان مخدوعًا طوال حياته الماضية معها؟ أيجب عليه أن يشعر بوطأة العار فى نفس اليوم الذى شهد عودته الى المدينة مظفرًا يحمل

إلى الناس بشائر المستقبل المليء بالكبرياء والأمن. لو أن عبد الله بن أبى هو الذى يختلق الشائعة لتلقفته سيوف رجال يغضبون لمحمد، ولكان سيف ابن عبد الله هو أول هذه السيوف الثائرة. ولكن عائشة تخلفت عن الركب ليلة وعادت فى الصباح مع صفوان بعد ليال عانت فيها من الغيرة. هذا كله حق! وها هى ذى أخت زينت بنت جحش تنتقل من بيت إلى بيت تتحدث عن خيانة عائشة! سنحت الفرصة لأخت زينب! وعليها أن تنتهزها لتطرد من قلب محمد المنافسة الوحيدة من بين كل زوجاته لأختها زينب بنت جحش!

وحتى أقرب الناس إلى عائشة يؤكد أنها خانت زوجها مع صفوان. مسطح ربيب أبى بكر أحد المهاجرين المجاهدين، يؤكد هذا هو الذى كان يجب عليه أن يدافع عن عائشة! لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه دفاعًا عنها. والشاعر حسان بن ثابت الذى تعود فى الليالى السود أن يحشد كل طاقته الشعرية ويشهرها فى وجه أعداء محمد، حسان بن ثابت هو الآخر يصدق ما يقال عن عائشة ويردده ويوشك أن يشهر عليها شعره! وعائشة لا تعرف شيئًا مما يقال عنها، فهى فى بيتها خلف الحجاب لا يجسر أحد على أن يبلغها ما يقال فى المدينة. لقد عادت من غزوة بنى المصطلق مريضة. كانت غيرتها من بنت الحارث قد ثقلت عليها فأنهكتها. وفى المدينة يقولون عن مرضها: عاودتها صحوة الضمير فلم تعد تحتمل جريمتها.

ومحمد يدخل عليها ويخرج ويسأل عنها، ولكنه لا يجد رغبة حتى فى النظر إليها. وتشعر هى بجفائه الغريب فتسأله أن يأذن لها فتنتقل إلى أمها لتمرضها، وتقيم عند أمها أسابيع فتنقه من أوجاعها وتلزمها أم مِسْطَح، التى تخدم فى بيت أهلها. وتخرجان يومًا لقضاء حاجة فتتعثر أم مسطح فى ثوبها فتقول: "تعس مسطح"، وترد عليها عائشة منكرة: "بئس لعمر الله ما قلت عن رجل من

المهاجرين شهد بدرا"، فتقول لها أم مسطح: أوما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ أخبرتها أم مسطح بما يقوله عنها مسطح وابن أبى وأخت زينب بنت جحش وحسان بن ثابت ورجال ونساء آخرون من المهاجرين والأنصار! فمضت عائشة الى أمها تبكى: "يغفر الله لك! تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا؟ فقالت أمها: أَى بنية، هوِّنى عليك! فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها وأكثر الناس. ولم يعد فى المدينة بيت واحد لا يشغله حديث عائشة وصفوان. ومحمد يروح ويجيء بينهم مرهقًا بإحساس الزوج المخدوع، وهو الذى يحمل إليهم تعاليم الأمانة وتقاليد جديدة عن شرف العلاقات الإنسانية! لكم يبدو كل هذا فادحًا ومثيرًا!. الأوس والخزرج والمهاجرون ثم يهود بنى قريظة كلهم يتحدثون عن خيانة عائشة!

كل هذا وقريش تستعد لمعركة تسحق بها قوات محمد. فتخرج الوفود من قريش إلى غطفان وهوازن تعقد المعاهدات والأحلاف عسى أن تستعيض قريش بالحلفاء الجدد عن بنى المصطلق. لا شيء غير الاستعداد للحرب القادمة يشغل قلوب الرجال والنساء فى مكة حتى ليدخل الرجل إلى داره فيشحذ سيفه ويأمر امرأته أن تحسن علف فرسه أو جمله لينصره يوم يلتقى الجمعان. أما فى المدينة فما من رجل يدخل الى بيته إلا سأل امرأته. "أكنتِ فاعلة ما فعلته عائشة؟ وإذ تقول الزوجة: لا والله ما كنت لأفعله. فيجيب الزوج: فعائشة خير منك، وهى لا تفعله. ولقد يجيب زوج آخر: ولكن عائشة فعلته، ولستِ بخير منها. كم من رجل يظن بامرأته الفاحشة وأخْذ المثل من عائشة!

إنها فعلتها. إنها لم تفعلها. لَإِنْ كانت قد فعلتها فهذا الدين الجديد لم يحمل شيئا من النور إلى قلوب النساء. وما ينبغى لرجل فى المدينة أن يطمئن إلى

امرأة بعد. وليس للرجال أن يخرجوا ويتركوا نساءهم، وليس لهم أن يأخذوا النساء معهم. ما الحيلة بعد؟ كل شيء باطل وجنون! والرجال فى مكة مشغولون بحديث آخر، بالاستعداد لحملة لم يعرفها العرب من قبل تضم كل القبائل والأحزاب المعادية لمحمد، وتزحف إليه فى مدينته لتهدها عليه! والعباس بن عبد المطلب يرسل من مكة يحذر محمدًا من هذه الغزوة القادمة، فهى ليست كالغزوات التى سبقت! ولكن محمدًا لا يستطيع أن يحدث أحدًا من صحابه بما أرسله العباس. فكلهم، وهو نفسه، يشغله حديث خيانة عائشة! وما من واحد فيهم يستطيع أن يفيق من وطأة الغاشية التى دهمتهم. وكلما هدأ الحديث حول عائشة وصفوان أثاره ابن أبى واليهود! ربما زحفت عليهم قريش فجأة وهم مشغولون بمناقشة شرف محمد!

وأبو بكر كاسف لا تجف له دمعة، وعمر حزين لا يعرف ماذا يصنع، وعلى ينصح بطلاق عائشة، فالنساء غيرها كثير. ولكن فليسأل جاريتها أولا إن كانت تعرف عنها من سوء. ويسال محمد جارية عائشة فتقسم أنْ ليس لها ما تأخذه على عائشة إلا أنها تنام أحيانا عن العجين فيأكله الدجاج. فهى مدللة، وهى بعد ما تزال صغيرة لم تبلغ العشرين! ويسأل محمد زوجاته جميعًا عن عائشة، وهن ضرائرها، وسيجدن الفرصة سانحة للتخلص منها لو كن يعرفن عنها ما يثير الشك. وبدأ بزينب بنت جحش، التى تقاسمها فى المنزلة عنده، فتقول فى عائشة خيرًا. ما بال أخت زينب إذا تؤكد خيانتها؟ ويسأل الزوجات الأخريات فلا يقلن إلا خيرا.

ويتجه هو إلى عائشة فى بيت أبيها. وكان لا يكلمها بل يكتفى بالسؤال عنها: كيف تيكم؟ وهناك يلقى عائشة بين أبيها وأمها. ويعدل بنظراته عن صديقه أبى بكر. لقد خاضا لحظات التجربة الحالكة معا. وفى الأيام الداجية من الأزمات

كان كل من الصديقين يرى فى عينى أخيه شعاعًا مواسيا معزيًا يعكس نور المستقبل، ولكنهما الآن لا يستطيعان! الرأس منكس تحت ثقل المحنة، وعلى القلب جبل من الهموم. ويقول محمد لعائشة: إن كنتِ قد قارفتِ سوءًا مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده. وتنتظر عائشة أن يجيب عنها أبواها، ولكنهما لا يستطيعان! وبكت وعادت تستنجد بأبيها وأمها أن يجيبا عنها زوجها، فقالا لها: والله ما ندرى بماذا نجيبه. ومن خلال دموعها قالت لزوجها: والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا. والله إنى لأعلم لإن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، لأقولن ما لم يكن! ولإن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى! ولكنى سأقول كما قال أبو يوسف عليه السلام: فصبر جميل. والله المستعان على ما تصفون. وانفجرت دموع أبى بكر وزوجته، واختلط بكاؤهم جميعًا. ما بال الحقيقة لا تبين؟ ما بال كل العقول لا تستطيع أن تخترق الضباب الرهيب الذى تستلقى وراءه الحقيقة مسكينة خائرة؟ لإن كانت بريئة فلماذا لاتظهر البراءة ناصعة قاطعة كما جاء الاتهام ناصعا فى وضح النهار؟

وتأتى الرسل من جديد أن قريشا نجحت فى عقد الأحلاف، وأن جيشها وجيوش الأحزاب تتأهب للخروج. ويهود بنى قريظة ينسجون إشاعات جديدة عن علاقات سابقة مع غير صفوان. فمن يدرى؟ لقد كشفت الصدفة وحدها فضيحة صفوان! وأقبل على المدينة وفد من بنى غفار يقودهم أبو ذر الغفارى، الذى عرفه محمد فى مكة قديمًا. وأعلن أبوذر أنه سيقيم فى المدينة إلى جوار محمد. ولم يكد يستقر به المقام ساعة حتى سمع ما يقال عن عائشة. وصاح أبو ذر فى الذين يتحدثون عن عائشة وصفوان: إنها لمحنة جديدة يثيرها

أعداء محمد ليطعنوه فى عرضه أيضًا! لا تنشغلوا بهذا أيها الناس. استعدوا لما تعده لكم قريش وحلفاؤها. ولم يحفل أحد بما يقوله أبو ذر.

ولكن محمدًا قرر أن يواجه بنفسه الموقف لينقذ المدينة وأهلها وسمعة دعوته من هذا الحديث الذى يشغل الناس عن الاستعداد لمواجهة الحرب القادمة. ووقف محمد فى المسجد يقول: أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيرا. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى. وعندما فرغ محمد من كلامه مضى رجال يرددون ما سمعوه عن صفوان وعن عائشة. لقد روت عائشة لكثير من الزوجات من خلال دموعها: قمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش. فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى، فلمست صدرى، فإذا عقد لى قد انقطع. فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه. ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب. فيممت منزلى الذى كنت به، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى. فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش، فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفنى حين رآنى، وكان رآنى قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمّرت وجهى بجلبابى. ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه. وهوى حتى أناخ راحلته، فوطىء على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة. وظل رجال يرددون حديث عائشة الذى سمعوه من زوجاتهم مؤكدين براءتها مستشهدين بأن صفوان هذا لا أرب له فى النساء،

فقد ظل يقسم للناس: والله ما كشفت كتف أنثى قط. ولكن بعض الموجودين فى المسجد رفضوا أن يصدقوا هذا الحديث، وهمهم رجال من شيعة عبد الله بن أبى من الخزرج: هذا كلام لا نعقله. إن هو الا تعلات! وانتظر محمد أن يواجهه أحد الذين يخروضون فى عرضه، ولكن أحدًا لم يتكلم. وأخيرًا قام رجل من الأوس يقول: إن يكونوا من الأوس نَكْفِكَهُمْ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك. فوالله إنهم لأهل لأن نضرب أعناقهم. وإذ ذاك هب سعد بن عبادة سيد الخزرج. حتى سعد بن عبادة الشيخ الصالح الحكيم كان يؤمن بخيانة عائشة! وكان يجلس فى المسجد إلى جوار عبد الله بن أبى. وقال سعد لرجل الاوس: كذبت لَعَمْرُ الله لا نضرب أعناقهم. أَمَا والله ما قلتَ هذه المقالة إلا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج. لو كانوا من قومك ما قلت هذا. فرد عليه رجل الأوس: كذبت أنت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين! وقام جماعة من الخزرج يناصرون ابن عبادة، وقام جماعة من الأوس، وتساور الناس، وأوشكت أن تدور بينهم معركة، ومحمد يصرخ فيهم أن يهدأوا وألا يحمل واحد منهم السلاح فى وجه أخيه. وخرج مغضبا، والناس ما زالوا يتشاتمون بينما كانت رسل يهود بنى قريظة تخرج خفية إلى قريش تحمل شروط حلف جديد سرى بين يهود بنى قريظة وقريش.

واعتكف محمد أيامًا لا يكلم أحدًا ولا يكلمه أحد إلا رسول عمه العباس الذى حمل اليه نبأ زحف جيوش قريش وحلفائها، وكل تفاصيل عددها وعدتها. ولَعَائِشَةُ فى بيتها تبكى بين أبويها. مقرحة العين ساهدة لا تكتحل بنوم ولا يرقأ لها جفن إذ بامرأة من الأنصار تستأذن عليها، فتجلس معها تبكى هى الأخرى! ودخل عليها زوجها يسألها أن تعترف وتتوب إن كانت قد ألمت

بذنب وقال لها إن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه. أهو أيضا يشك فيها ويصدق ما أشاعه عنها ابن أبى واليهود؟ ولكنها ظلت تبكى حتى لتظن أن البكاء فالق كبدها. وعادت تقول: "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون". وظلت تمنى النفس وتدعو الله أن يرى فيها زوجها رؤيا تبرئها. ولكن زوجها ما رام محله ولا خرج أحد من أهل البيت، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء وهو يستقبل القرآن حتى إنه لينحدر منه العرق مثل الجُمَان وهو فى يوم شاتٍ. وبعد قليل ذهبت البرحاء عنه. فضحك لأول مرة منذ أيام طويلة ونظر اليها قائلا: يا عائشة، أما الله فقد برّأك. فقالت لها أمها: قومى إليه. فقالت عائشة: لا أقوم اليه. وطلب منها أبوها أن تخفّ إلى زوجها فتشكره، ولكنها ردت عليه من خلال دموعها: لا أنت ولا صاحبك. فإنى لا أحمد الا الله عز وجل. وخرج محمد الى الناس يتلو عليهم: "إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم. لا تحسبوه شرا لكم، بل هو خير لكم. لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم، والذى تولى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا: هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء. فإذْ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا، وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا. سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات، والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة. والله يعلم، وأنتم لا تعلمون". "إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعِنوا فى الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم".

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، حتى إذا أفاض مسطح فى الحديث ضد عائشة مع من أفاض امتنع أبو بكر عن الإنفاق عنه. ولكنه سمع محمدا يتلو: "ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم. والله غفور رحيم". فقال أبو بكر "بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى. فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا. أما عائشة فلم تكد تسمع هذه الآيات من القرآن حتى بكت من الفرح. وأخذت تقول: والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يُتْلَى. لشأنى فى نفسى كان أحقر على من أن يتكلم الله فى بأمر.

وأما الذين أفاضوا فى القول ضد عائشة وصفوان فقد تخاذلوا من الندم إلى أغوارهم، وأسرعوا إلى محمد يعلنون التوبة معتذرين عما كان منهم إلا عبد الله بن أبىّ، وأنشأ حسان بن ثابت قصيدة يمدح فيها فضائل عائشة. على أن محمدًا طالبهم بأن يكفوا عن الاعتذار. إنه ليعفو عن كل طعنة فى عرضه، وما ينبغى لهم أن يشغلوا الآن بغير الاستعداد لمواجهة قريش والأحزاب".

فانظر إلى تتبع الخوالف للمناجاة الذاتية التى تدور فى نفس الرسول الكريم وحيرته فى تلك الظروف التى تدير العقل بل تفقد الشخص عقله. كما يتتبع نفوس الأشخاص المتصلين بهذا الموضوع تتبعا دقيقا مسجلا كل خاطرة مهما تكن صغيرة تخطر لأى منهم، ويتقصى الاضطراب الذى دخل كل نفس وأصابها وعكر صفوها واجتاح هدوءها وسكينتها. ولا ينبغى أن نهمل عامل التصوير الحى للمشاهد والوقائع فى تلك الحادثة وأثرها فى تحويل السيرة من عمل علمى تاريخى إلى عمل أدبى. إن الشرقاوى يصور المناظر تصويرا مشوقا

ويضعها أمام أبصارنا وكأننا أمام مشهد سينمائى مما لا نجده، على الأقل بهذا الشكل، فى كتب السيرة.

ومن هذا الباب أيضا تصوير مشهد المسايفة بين حمزة ونوفل بن خويلد فى بدر: "ثم لمح (حمزة) نوفل بن خويلد يقاتل المسلمين ويثخن فيهم، ويدهس بفرسه جثث الضحايا حتى لقد أوشك أن يثير الرعب فى قلوب المسلمين، فأسموه: الشيطان. فيندفع حمزة إلى نوفل بن خويلد، ونوفل على فرسه خلف الدروع والزرد، ورأسه فى الدرقة. ويلكز نوفل فرسه ليدهم حمزة، ولكن حمزة يثب بعيدًا ويستدير ويضرب الفرس فيوقعه، ثم يتفادى ضربة من سيف نوفل. والمسلمون وأعداؤهم على السواء ينظرون ويترقبون فى لهفة نتيجة هذا الصراع الرهيب. ثم يكر حمزة على نوفل ويسدد سيفه إلى عنقه، ويخلُص حد السيف من بين الحديد والزرد، ويطير رأس نوفل. وهكذا انتصر حمزة على شيطان قريش، فاطمأنت قلوب كثيرة، وتدفق المسلمون بصدور حاسرة لا دروع عليها، ورؤوس مكشوفة يشدون على أعدائهم المدرعين. وريعت قريش فتراجعتْ" (ص١٧٦-١٧٧). ولا يكتفى الشرقاى بهذا بل نسمع السارد يناجى حمزة مبديا إعجابه به وبإنجازه العظيم فى هذا القتال الذى جندل فيه بعضا من كبار قريش فى بدر: "ما أروعك يا حمزة! أنت الذى قدت هذه الفئة القليلة إلى النصر المحقق. أنت وحدك وقفت شامخًا صامدا تمنع قريشًا عن الماء، وجعلت همك أن تصرع الأقوياء من فرسان العدو. وعندما سقط الشجعان منهم سقطت همة الآخرين. إن بعض الفارين من رجال قريش ليتساءلون: من الرجل المعلم بريشة نعامة فى صدره يحجب وجهه دائمًا غبار المعركة؟ فيقول واحد منهم: إنه حمزة بن عبد المطلب. ويتنهد الباقون فى

حسرة: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل! حقًا لقد فعلتَ بهم الأفاعيل. كنت أنت وحدك جيشا بأسره!" (ص١٧٧).

ومن العوامل أيضا التى حولت السيرة فى يد الشرقاوى إلى عملٍ أدبيٍّ شاعريٍّ عاملُ اللغة. إنها لغة محكمة تسرى النفثات الوجدانية فى جنباتها بقوة فى كثير من الأحيان. وهو لا يدخل فى جدل حين يكون الموضوع يستدعى الدفاع عن قضية تتصل بمحمد والدين الذى جاء به بل يترك لسرد الوقائع وتصوير المواقف والشخصيات الحديثَ عما يريد تقريره فى النفوس. فمثلا حين كان محمد الصبى مع عمه فى قافلة التجارة القرشية المتجهة إلى الشام ألفينا الشرقاوى يورد لقاء راهب نصرانى به وتناول الصبى طعام الراهب مع رجال القافلة على النحو التالى: "عاد إلى مكة مع القافلة بعدما التقى براهب نصرانى فى الطريق. لقد أعجب به الراهب وأثنى عليه ودعاه إلى طعامه مع الكبار حين حاول الكبار أن يؤخروه. عاد يرعى الغنم ويطوف بالكعبة، والأيام تتقدم به إلى أول الشباب".

فانظر إلى الطريقة التى تناول بها الموضوع، موضوع التقائه بالراهب بحيرا، الذى اتخذ منه كثير من المستشرقين والمبشرين فرصة افترصوها للكيد لسمعة محمد ودينه والكتاب الذى نزل عليه من السماء، فزعموا أنه أخذ هذا كله من بحيرا فى ذلك اللقاء. إن كاتبنا لم يحاول الدفاع عن الرسول وتفنيد التهمة السخيفة التى وجهها المجرمون إليه بل اكتفى بالإشارة إلى سن محمد الصغيرة أوانئذ بما يعنى أن صاحب هذه السن الغضة لا يمكن أن يكون مطمعا لبحيرا أو لغيره ليعلمه النصرانية فى ذلك الوقت الخاطف الذى قضاه محمد والقافلة فى ضيافة الراهب إن صحت الرواية أصلا.

ولو أراد الشرقاوى الرد على تلك الفرية لاتسع القول واستغرق الصفحات. لقد اتهم المستشرقون نبى الإسلام عليه أفضل الصلاة وأعطر السلام أنه قد تعلم أشياء من بَحِيرا. بل إن بعضهم يزعم كذبًا أنه عليه السلام قد سكن مع هذا الراهب أثناء إحدى رحلاته إلى الشام، وهو ما يدلك على أسلوب القوم فى محاربة الإسلام، إذ إن السيرة واضحة تمام الوضوح هنا، وليس فيها كلام عن ذلك على الإطلاق. وقريش نفسها، وقد كان منها من حضر واقعة اجتماع بحيرا بالصبى محمد، وهم رجال القافلة، إن صحت الرواية أصلًا، لم تتهم الرسول بذلك، فكيف يأتى الأوروبيون بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا فيتخيلون ويزعمون؟

إن واشنجتن إرفنج مثلا يفسر اهتمام بحيرا بالصبى محمد بأنه كان يريد تنصيره حتى إذا ما رجع إلى قومه قام هو بدوره بتحلية النصرانية فى عيونهم. لقد كان عمر محمد حينئذ اثنى عشر عامًا! ومع ذلك يزعم إرفنج هذا الزعم السخيف، وكأن لم يكن فى القافلة العربية، التى تقول الرواية إنها حطت رحالها قريبًا من صومعة بحيرا، رجال يمكن هذا الراهب أن يتوجه إليهم بدعوته. ولقد سفّه توماس كارلايل صاحب كتاب "عبادة البطولة والأبطال" احتمال أن يتعلم صبى فى هذه السن من راهب يتحدث لغة أجنبية شيئًا ذا بال. ومع ذلك كله فإن السيرة لم تتحدث عن أى تعليم بين بحيرا ومحمد. ثم فلنفترض أن بحيرا قد لقنه (بأية لغة؟ لا ندرى) أشياء من النصرانية، فأين كان بحيرا يوم ادّعى محمد أنه أتى بدين جديد يخطّئ فيه دين بحيرا؟ لماذا لم ينْبَرِ بحيرا أو غيره ليكشف زيف هذا النبى ويبين المصدر الحقيقى لما يزعم أنه وحى من السماء؟ أكانت الدولة البيزنطية أو الدويلات العربية على حدودها تسكت على محمد وعلى مزاعمه ورسائله التى أرسلها إلى هرقل وغيره من ملوك

العالم المحيطين بالجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام فلا تحاربه أو تحارب خلفاءه بهذه الورقة؟ إن ذلك لغريب! بل أكانت قريش متمثلة فى رفقاء الرحلة لتتركه دون تشنيع وهجو وإطلاقٍ للشائعات فى كل مكان لتدمير الدين الجديد والرجل الذى أتاهم به؟

على أن اللغة المحكمة القوية الشاعرية فى الكتاب لا تخلو من بعض الهَنَات كما سبق القول. ومن هذه الهنات قول الشرقاوى مثلا: "فى الرحاب الشاسع من أرض مكة" (ص٣١). و"الرحاب" جمع "رحبة" وليست مفردا مذكرا، وعلى هذا لا نقول: "الرحاب الشاسع" بل "الرحاب الشاسعة/ الشاسعات". ومن الممكن مع هذا أن تكون التاء التأنيثية قد سقطت من آخر الصفة: "الشاسع" على يد الطابع لا المؤلف. من الممكن!

ومن تلك الهنات أيضا أنه، فى بعض الأحيان"، يقول مثلا إن "الناس ضربوا بعضهم" بدلا من "ضرب بعضهم بعضا"، وهو التركيب الذى نقابله فى الكتاب أيضا، ولا ندرى كيف لم يجر عليه الشرقاوى من أول الكتاب إلى آخره. وهذه بضعة أمثلة على هذا التركيب العامى: "ويلتصقون ببعضهم فى البيت الحرام/ ص٥٣"، "نرفع سلاحنا على رقاب بعضنا/ ص٨٩- ٩٠"، "رجال من المهاجرين يعتدون على حدود بعض/ ص١٥٨"، "إنكم لأولى الناس ببعض/ ص١٨٣". وهذه أيضا أمثلة من التركيب السليم: "فمضوا يهنئون بعضهم البعض بالنصر/ ص١٧٩"، "وتحدث بعضهم إلى بعض عن الأمر/ ص١٨٣"، "وانطلقوا يتحدثون ويداعب بعضهم البعض/ ص٢٣٠".

ومن هذه الهنات كذلك تنوينه "شبعانًا" (ص٦٢) رغم كونها ممنوعة من التنوين لوصفيتها وانتهائها بألف ونون زائدتين، وقوله: "صحب (الرسولُ) غلامَه زيدَ بنَ حارثة إلى الطائف/ ص١١١"، والصواب "اصطحب" لأنه

عليه السلام هو الذى أخذ زيدا معه لا العكس. ومنها "وأعلن أبو ذر أنه لَيؤمن بكل هذه التعاليم/ ص١٠٩"، "وأن معها الآن لَحلفاءَ جُدُدًا/ ص٢٩٩"، "فأعلن أنها لَمُعْجِزات النبوة/ ص٣٤١". ووجه الصواب فى هذا التركيب واحد من اثنين: فإما حذفنا اللام الداخلة على خبر "أن" وإما كسرنا همزة "أنّ" إلى "إنّ". أما الجمع بين فتح همزة "أَنَّ" ودخول اللام على خبرها فى ذات الوقت فهذا فى حدود علمى لا يصح.

ومن تلك الهنات كذلك قوله: "عليهم ألا يخوضوا الحرب مهما يَلْقَوْنَ/ ص١٤٧"، والصواب "مهما يَلْقَوْا". ومنها "حتى ليوشكوا/ ص١٥٠". وصوابه "حتى ليوشكون" بالنون لأن اللام تحول دون نصب المضارع. ومنها "تقدم خالد بنفسه الى المرأة ليؤكد لرجاله أنها مثلُهم من لحم ودم لا روحًا خالدةً/ ص٣٢٤"، وتصويبها هو "لا روحٌ خالدةٌ" لعطفها على "مثلُهم" المرفوعة على الخبرية لـ"أَنَّ". وغلطة أخرى: "سيخرج محمد ذات يوم مع صحبه فيَلْقَوْا قريشا/ ص١٦٥"، والصواب "فيَلْقَوْن" لعطفه على "سيخرج"، وهو مضارع مرفوع، فيُرْفَع مثله. وغلطة أخرى أيضا: "... وأن فيهم أبا جهل وعمرو بن هشام... وآخرون/ ص١٧٠"، والصحيح "وآخرين" للعطف على "أبا جهل..."، وهو منصوب لكوه خبر "أن" متأخرا، والمعطوف يأخذ الحكم الإعرابى للمعطوف عليه حسبما نعرف كلنا. ثم غلطة أخرى كذلك: "وما كان له (أى للرسول) أن يتزوج امرأة متبنِّيه/ ص١٩٢"، والصواب "امرأة متبنّاه"، وهو زيد بن حارثة، وكان الرسول مُتَبَنِّيَه، فالرسول هو المتبنِّى، وزيد هو المتبَنَّى. فإذا أضيفت "متبنًّى" إلى الهاء كانت "متبنَّاه" بصيغة اسم المفعول. وزوجة متبناه هى زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول، التى تزوجها عليه السلام بعد طلاقها

من زيد. وتذكرنا هذه الصيغة هنا بكلمة "مُبْتَلِ" فى أغنية "من غير لِيه!"، التى يغنيها محمد عبد الوهاب من قلم حسين السيد.

وفى لغة الشرقاوى كثير من العبارات والتراكيب والمفردات القديمة الجزلة التى تملأ الفم لقوتها وعراقتها وجلالها وعبقها التاريخى، وبعضها قرآنى ونبوى. وهذه أمثلة على ذلك: "قال رجال فى المدينة/ ص١٤٩" (فى القرآن: "وقال نسوة فى المدينة")، "أم يريدون كيدا؟/ ص١٦٤" (فى القرآن: "أم يريدون كيدا؟ فالذين كفروا هم المَكِيدُون)، "ما بال رجال المدينة لا يغضبون؟/ ص١٦٤" (فى حديث النبى عليه السلام: "ما بال أقوام...؟")، "ويسقط فرسان قريش دون الماء (فى الأسلوب العصرى: لم يستطيعوا بلوغ الماء)- أرتال الفرسان (صفوف الفرسان)/ ص١٧٥"، "خَلَصُوا نَجِيًّا (اختلَوْا بأنفسهم ليتناجَوْا فيما بينهم)/ ص٢٢٠)"، "قرر أبو سفيان ألا يحارب من عامه هذا (ألا يحارب فى ذلك العام)/ ص٢٣٠"، "تُزْرِى على أبى سفيان (تعيبه وتنال من كرامته)/ ص٢٣١"، "أذَّن بالناس أن ينزلوا فلْيشربوا (نادى فى الناس أن ينزلوا ويشربوا)/ ص٢٧٦"، "ولَهُوَ يوقّع الصلح إذْ برجل مصفَّد يرسُف فى الحديد (وبينما كان يوقع الصلح إذا برجل مقيد القدمين يمشى بصعوبة متقارب الخطا...)/ ص٢٨١"... ومع هذه الجزالة والعتاقة قابلتنى فى الكتاب عبارة عامية مصرية فُصِّحَت فصارت "ما فى القلب فى القلب/ ص٢٢٨. وأصلها "اللى فى القلب فى القلب" بمعنى أن العلاقات الطيبة ظاهريا لا تعنى أن القلوب قد صفت بل هى على ما كانت عليه لم تتغير".

كذلك يستخدم الشرقاوى فى كتابه ألفاظا وعبارات ومصطلحات عصرية كـ"اقتصاديات الدولة، الثقافة، المثقفون، الحضارة، حرب الشائعات، الحرب الباردة، يحمل (فلان) مسؤولية التنوير، يلقى عليها درسا (أى ينبهها بالعقاب

حتى لا تفعل ذلك كرة أخرى)، قُوَى الظلام (قوى التخلف والاستبداد الفكرى)". وقد تكرر وصفه لهذا الصحابى أو ذاك بأنه مثقف واسع الثقافة. بل لقد استعمل هذا الوصف لبعض زوجات الرسول. وهو أمر طريف ومنعش، إذ تستخدم هذه الكلمة هنا فى سياق جديد لم يعهد القارئ ورودها فيه: "فليس الأراذل والعبيد والبغايا والمستضعفون هم الذين اعتنقوا هذه التعاليم وحدهم، ولكنْ هناك أيضًا تجار كبار طيبون وسادات فى قومهم ومثقفون كبار، مثقفون لم تعرف قريش مثلهم، كلهم آمنوا بمحمد هم ونساؤهم بنات الأسر الكبيرة العريقة فى قريش" (ص٧٤)، "وما زال أبو بكر بصحبه من مثقفى مكة وسادتها حتى اقتنع عثمان بن مظعون، وهو من حكماء قريش وكبار أغنيائها، واقتنع الأرقم بن أبى الارقم. وبلغ عدد الذين اقتنعوا بتعاليم محمد نحو أربعين رجلا وامرأة منهم العبيد والأجراء والصعاليك والبغايا والجوارى والضعيفات والذين طحنتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة والمثقفون وبعض التجار الأغنياء" (ص٨٤)، "لقد صبر محمد كثيرا عليهم، ولكنه لن يصبر على صدهم الشعراء عنه. إلا الشعراء! فهو رجل يمجد الثقافة والمثقفين ويعرف خطر الشعراء، ويتمنى أن يعتز بهم وينتصر. وإنه ليعامل حسان بن ثابت برعاية خاصة لا يعرفها أقرب الناس إليه" (ص١٥٥)، "هند بنت أمية... استشهد زوجها بعد أن ترك لها مع الأسى والدمع المتصل ولدهما سلمة. وكانت فى الثلاثين جميلة مثقفة بكل جمال تلك السن وبكل النضج الذى تمنحه الثقافة. لكم تشبه فى جلالها وشموخها زوجته العزيزة الراحلة خديجة!" (ص٢١٨)...

وبالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لا نجده يقول عنه إلا "محمد"، ولا "رسول الله" أو "نبى الله" أبدا ولا "صلى الله عليه وسلم" ولا "عليه

السلام". وهو مهتم جدا بإبراز الجوانب الحضارية العملية فى الإسلام، فنراه يلح على قيم العمل والإنتاج والسعى فى طلب العلم إلحاحا. وهو كثير الحديث عن الطبقية واستغلال الأغنياء للفقراء والرغبة فى الحصول على كل شىء إن أمكن. كذلك نراه قد كرر الحديث عن ارتياد النبى عليه السلام للبلاد واطلاعه على أحوالها الدينية ومقابلة رجال دينها ومعرفته بطوائفهم ومذاهبهم، وكأن الرسول كان يزور هذه البلاد بوصفه أستاذا زائرا أو باحثا يجمع مادته العلمية لا تاجرا ينشغل ببضاعته وتسويقها واستيراد الطارف المطلوب فى بلاد العرب منها... وهكذا حتى لقد سمع بهيباتيا الفيلسوفة المصرية التى قتلها الجماهير بتحريض من القساوسة والرهبان النصارى. وهذا عجيب. ولا أدرى إلام يقصد الشرقاوى بمثل هذه الأشياء. والحمد لله أنه لم يقل إن رجال الدين النصارى قد رشحوا محمدا لنيل درجة الدكتوراه الفخرية فى فلسفة الأديان! وتبحث عن نأمة من تلك الأمور فى كتب التاريخ والسيرة فلا تجد شيئا منه مطلقا. بل نحن لم نسمع بهيباتيا هذه إلا بعد صدور "عزازيل" ليوسف زيدان وحديث روايته (المتهم من قبل بعض الكتاب بأنه أخذها عن كاتب بريطانى) عن تلك الفيلسوفة المصرية الجميلة ومقتلها الشنيع على أيدى الجماهير بناء على تحريض رجال الدين النصارى عليها.

وهذه سطور مما كتبه الشرقاوى فى "محمد رسول الحرية" حول هذا المضمار، والحديث فيها عن حلم تغيير أوضاع العالم لدى محمد التاجر الذى يتنقل ببضاعته هنا وهناك، ويطلع خلال تلك الأسفار على أوضاع جديدة. يقول الشرقاوى (ص٥٣ فصاعدا): "كل هذا شائنٌ وزرى ومهينٌ، ويجب أن ينبو عنه المجتمع. كل هذا لا ينفع فيه ترميم أو إصلاح، وإنما يجب أن يهدم كله دفعة واحدة ليبنى من جديد. لا بد من ثورة جائحة تجتث الربا والهوان

والزراية والبغاء وصلف المتكبرين، ثورة تقيم العدالة، وتحرر الانسان من السيطرة والخوف، وتحرر العقول والقلوب من الإذعان لأصنام الكعبة ولقوى الخفاء، وتضع أساسا للتعامل بين الرجل والمرأة، بين الانسان والانسان. ولكن كيف السبيل؟ لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبى بكر بن قحافة فى هذا كله. ولقد رحلا معا وعانيا معا، وشاهدا الرهبان والكهان فى بلاد بعيدة، وسمعا معا من الأخبار، واعتزلا الأصنام معا، وسلكا بالعدل والصدق والأمانة، وبكيا معا على ما لاقاه المبشرون الأوائل، ونأيا عن الرجال والنساء يطوفون عراة حول الكعبة ويلتصقون ببعضهم فى البيت الحرام، وحَلَمَا طويلا بالخلاص.

والقوافل تمضى من مكة إلى بلاد الروم واليمن، وفى أسواق مكة تجار من مصر والهند والشام وأواسط آسيا. وتسرى فى الأسواق حكايات كثيرة غريبة. فتجار مصر يحكون عن أستاذة فى الإسكندرية كانت تعلم فى جامعتها الحكمة وتدعو الناس إلى أن يفكروا بعقولهم، فالتف حولها الطلاب مكبرين دعوتها وسيرتها، وهى إذ ذاك فى الخامسة والأربعين، جميلة أنيقة وحيدة. ولكن الكهنة والقساوسة الذين يثرون من سلطانهم على القلوب أدركوا أن هذه الأستاذة الجميلة تريد أن تحطم سلطانهم وتسخر من وساطتهم لتحرمهم مصدر غناهم، فلن يبقى لهم جاه ولا مال إن انطلقت العقول تفكر وتحدد خطوات الرجال والنساء. وحاول الكهنة أن يشوهوها وان يؤذوها فى شرفها فلم يستطيعوا، فقد كانت على جمالها الباهر عفيفة جدا فى مجتمع تندر العفة فيه، يقظة لكل دسيسة، ففشلوا فى الكيد لها. وإذ لم يستطيعوا عليها سبيلاً اقتحموا دارها فقتلوها.

هكذا يخمد صوت العقل فى مصر التى تدين بإله واحد، وتؤمن بالمسيح وتحمل تراث مبشر قديم نادى بالتوحيد وأقام لإلهه الواحد مدينة أسماها: أخناتون! وفى بلاد أخرى كان من يحمل فى رأسه أفكارا يحكم عليه بالعذاب أو بالضياع فى الصحراء. ومن بلاد الروم يروى القادمون عن ظهور مبشرين قد عثروا على دعوة عندهم فأحيوها، وكانت الدعوة تقول إن العالم واحد متحد، وهو قديم أزلى لم يخلقه إنسان ولا إله من الآلهة، وقد كان هذا العالم وسيظل إلى الأبد شعلة حية تتقد وتنطفئ حسب قانون معين، وأن على العقل أن يكتشف هذا القانون. وفى بلاد الفرس يُلْقَى إلى النار من يدعو إلى إله غير النار. وهنا فى الكعبة يحكم بالموت أو بالتيه أو بالهوان على من يقاوم سلطان المستفيدين من أصنام الكعبة. والذين يملكون هذا الفضاء عشرة أو عشرون من كبار المرابين فى قريش، وما بينهم واحد لا يعيش فى الخطيئة. وهم يقضون فى مصائر عشرات الالاف من الرجال والنساء والأطفال. ما جدوى الاصلاح فى مثل هذا العالم إذن؟ لا بد من طفرة، ثورة عارمة تبنيه من جديد. وقد تهيأت لها الآن قلوب الجميع، إلا الذين يفيدون من فساد الأوضاع، وهم قليل. ومحمد إذ ذاك فى قومه رجل حسن السمعة لم يعرف عنه أحد من سوء، أمين صادق حتى لو أنه صرخ فى الناس أن خيلا قادمة، وهم لا يرون شيئا، لكذبوا أعينهم وصدقوه!".

وقد استطاع الكتاب إثارة التشوق والفضول لدى قارئ الكتاب لما فيه من أسلوب محكم حار منعش ومن خيال طليق فى كثير من المواضع ومن تحليل جديد وُفِّق الكاتب فيه أحيانا، وجافاه الحظ فيه أحيانا أخرى لتركه خيالاته فى تلك الأحيان دون رقيب أو عتيد محاولا إلباس الإسلام ثوب الاشتراكية إن لم تكن الشيوعية.

وعلى الناحية الأخرى يلفى القارئ فى كتاب الشرقاوى طائفة من المآخذ الفنية منها على سبيل التمثيل مشهد مصاحبة النبى عليه السلام للرجل الغريب الذى ابتاع أبو جهل منه بضاعة ثم رفض أن يؤدى إليه ثمنها، ولم يرض أحد من قريش مناصرة التاجر المسكين بل دلوه على النبى سخرية منهم به واستهزاء بشخصيته لما يعلمون من بغض أبى جهل له وحرصه على إيذئه ويقينهم بأن الرسول سوف يعتذر عن نصرة الرجل أو يرده أبو جهل عن باب بيته محقورا مدحورا. لكن الرسول قام مع الرجل ودق باب الشارى الظالم المتجبر، فخرج إليه، وما إن سمع الرسولَ يقول: "أعط هذا الرجل حقه" حتى دخل وأحضر المال وأعطاه الرجل. لقد كان ينبغى أن يعلل لنا الشرقاوى سر استجابة أبى جهل لأمر الرسول له بتأدية ثمن البضاعة دون أية مماحكة على عكس ما كان متوقعا تمام المعاكسة.

كما غلبت على أسلوب الكاتب النزعة العاطفية والاهتمام بأن تكون اللغة أدبية تسودها المبالغة حتى لتتوارى الحقائق التاريخية أو يتم تحويرها بل تحريفها فى غمرة الاندفاعة العاطفية تلك. ويلمس القارئ هذا منذ أولى فقرات الكتاب، الذى يبدأ بواقعة نجاة عبد الله بن عبد المطلب من نذر الذبح على ما هو معروف لنا من وقائع السيرة النبوية.

وأول ما نقف عنده هو الفقرات الأولى من الكتاب حيث يقول الأستاذ الشرقاوى عن عبد الله والد الرسول بعد نجاته من التضحية به تنفيذا للنذر الذى نذره عبد المطلب قبلا فى الحكاية المشهورة (ص١٣ فَتَالِيًا): "ها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى بعد نضال طويل مع المصير! لكأنه يولد فجأة من جديد بكل فتوته وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم وأمله المعذب فى الخلاص! لم تكن له حيلة فى كل ما حدث، ولا حيلة لرجل فى

مكة على الاطلاق لأن المصادفة وحدها هى التى تخط أقدار الرجال والنساء. ومن وراء هذه المصادفة العمياء يقف تمثال أصم اسمه مناة. إلهة بلا قلب هى التى تملك القضاء. وإلى جوارها يتشامخ تمثال هُبَل رب الأرباب، رب المصادفة والمصير والقدرة، وشيخ مناة نفسها، وشيخ زميلتيها اللات والعزى! أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الأرباب؟ أيملك هو، عبدالله بن عبد المطلب، أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التى تحرس الكعبة منذ القدم والتى يستمد منها أبوه عبد المطلب مبرر وجوده، والتى ما زال يمتثل لها مع أبيه كل الملإ من قريش؟ على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعدما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهة الرهيبة التى تجرؤ على أن تحرم فتى فى مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة! وإنه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب ليمضى معه إلى الدار بعد أن وُهِب الحياة مرة أخرى، وكأنه يوسف، الذى سمع قصته من فلسطين فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل! لكأنه يوسف يرتمى فى أحضان أبيه الصابر المضنَى بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل المشرد فى أرض الغربة! وعبد الله إذ ذاك هو أصغر ولد عبد المطلب وأحبهم اليه. وكان عبد المطلب، قبل أن يرزق الولد، قد تعرض لبلاء كثير، وما من ولد يسانده، حين همّ بان يحفر بئر زمزم. خاصمته قريش فى البئر وأزرت عليه، ولكنه استمر بحفر البئر وحده حتى تفجر الماء منها كما كان على عهد اسماعيل. وبلل عبد المطلب جبينه من الماء واتجه إلى آلهة الكعبة فنذر لَإِنْ رضيت عنه الآلهة ووُلِدَ له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى منعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة شكرانا وقربى!

فلما بلغ بنوه عشرةً بمولد عبد الله، وأدرك أصغرُهم عبدُ الله مبلغَ الرجال، وتيقن عبد المطلب أن ولده مانعوه، جمعهم ليخبرهم بنذره ودخل

بهم على هبل كبير آلهة الكعبة، وبدأ يجرى القرعة بضرب القداح لينحر أحدهم وفاء بالنذر. وخرج القِدْح على الفتى عبد الله أصغر ولد عبد المطلب وآثرهم لديه. ولم يستطع الشيخ أن يصنع شيئًا، وقام إلى عبد الله ليذبحه تحت قدمى هبل نخف إليه بنوه يحاولون أن يستخلصوا دم أخيهم. ولكن عبد المطلب زجر بنيه جميعًا ودفعهم بيده وهو يحذرهم من الاعتراض على قضاء الآلهة! وتدافع إليه بعض صحابه الذين كانوا يجلسون فى رحاب الكعبة وألحوا عليه أن يتمهل لعلهم أن يَرَوْا رايا ينقذ رأس الفتى عبد الله، ويرضى هبل. ولكن عبد المطلب لم يصغ اليهم فانطلق صوت حانق فى وجه عبد المطلب: لَإِنْ فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه. فما بقاء الناس على هذا؟

كان هذا الاحتجاج نفسه يصرخ فى أعماق كل الآباء الذين التقوا بعبد المطلب ينصحونه ألا يذبح ابنه إرضاءً لهبل، وعرضوا عليه أن يفتدوا عبد الله بالمال. ولكن لا! الولد يجب أن يذبح تحت قدمى هبل ما دام القدح قد خرج عليه! كم من الصرخات تدوى الآن فى أعماق عبد الله! إنه ليرفض هذا القضاء، ويرفض أباه، ويرفض هبل نفسه! ولكنه لا يقوى بعد على الكلام! وطال الجدل بين عبد المطلب وبين صحابه، فاقترح أحدهم أن يرحلا الى عرافة يثرب فيسألونها قبل أن يذبحوا عبد الله عسى أن تقضى بأمر لهم فيه فرح! وغَدَوْا عليها من اليوم التالى، فسألتهم عن دية الرجال فيهم، فأجابوها: عشرا من الإبل. فقالت لهم: ارجعوا إلى بلادكم ثم قرِّبوا صاحبكم من هبل وقرِّبوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح: فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم. وعادوا الى مكة مستبشرين،

وعاد عبد المطلب يضرع وهو قائم عند هبل، وقد قدم ولده عبد الله وعشرا من الإبل. وضربوا القداح، فخرجت على عبد الله، فزادوا الإبل عشرا، وعبد المطلب يدعو، والقداح تضرب من جديد، فيخرج القدح على عبد الله أحب ولده إليه، فتزاد الابل عشرًا أخرى، والقداح تضرب، وعبد المطلب قائم يدعو حتى بلغت الإبل مائة، فخرج القِدْح على الإبل!

ودوت فى أرجاء الكعبة رنة فرح بنجاة عبد الله، وقام عبد الله يحملق فى أبيه وإخوته والرجال والأصنام وكل ما حوله كأنه يرى العالم لأول مرة. وصاح عبد المطلب فى نشوة: انحروا الإبل المائة جميعا واتركوها للآكلين لا يُصَدّ عنها إنسان ولا سبع! وينطلق عبد المطلب آخذًا بيد ولده عبد الله. وها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى بعد نضال طويل مع المصير".

هذا نص ما كتبه عبد الرحمن الشرقاوى. ولكن جاء فى الحديث: "حضَرْنا مجلِسَ مُعاويةَ بنِ أبى سُفْيانَ، فتَذاكَرَ القَومُ إسْماعيلَ وإسْحاقَ بنَ إبْراهيم، فقالَ بَعضُهم: الذَّبيحُ إسْماعيلُ. وقالَ بَعضُهم: بل إسْحاقُ الذَّبيحُ. فقالَ مُعاويةُ: سَقَطْتُم على الخبيرِ. كنّا عندَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَأتاهُ أعْرابى فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، خلَّفْتُ البِلادَ يابِسةً، والماءَ يابِسًا. هلَكَ المالُ وضاعَ العيالُ، فعُدْ على بما أفاءَ اللهُ عليكَ يا ابنَ الذَّبيحَينِ. قالَ: فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ ولم يُنكِرْ عليه، فقُلْنا: يا أميرَ المؤمنينَ، وما الذَّبيحانِ؟ قالَ: إنَّ عبدَ المُطَّلِبِ لمّا أمَرَ بحَفْرِ زَمْزَمَ نذَرَ للهِ إنْ سهَّلَ اللهُ أمْرَها أنْ يَنحَرَ بَعضَ ولَدِه، فأخْرَجَهم، فأسْهَمَ بينَهم، فخرَجَ السَّهمُ لعَبدِ اللهِ، فأرادَ ذَبْحَه، فمنَعَه أخْوالُه من بَنى مَخْزومٍ، وقالوا: أرْضِ ربَّكَ، وافْدِ ابنَكَ. قالَ: ففَداه بمائةِ ناقةٍ. قالَ: فهو الذَّبيحُ، وإسْماعيلُ الثانى".

ففى نص الشرقاوى أن نذر عبد المطلب كان للأصنام، أما فى الحديث فقد توجه عبد المطلب إلى ربه بالنذر. كما أنه فى الحديث لم يتوجه إلى عرافة

يثرب أو غير يثرب. وهل كانت مكة بلا عرافات حتى يتجشم عبد المطلب هو ومن معه كل تلك المسافة بين مكة ويثرب؟ كذلك لم تكن هناك قداح ولا يحزنون بل اقترح عليه أصهاره منذ البداية أن يفدى ابنه بمائة من الإبل. هكذا بكل بساطة.

فمن الواضح أن ما كتبه الشرقاوى لا يتناغم مع ما جاء فى الحديث، لكنه يتناغم أكثر مع رواية السيرة. والغريب أن تقول كتب السيرة إن الذى منع عبد المطلب من نحر عبد الله رجالات قريش. أليس هؤلاء الرجال هم الذين نازعوه فى حفر زمزم وتركوه يحفرها وحده؟ فما بالهم اليوم، وقد رزق بعشرة بنين بعد أن لم يكن له ولد وقت الحفر، ينسَوْن خصومتهم له وينسَوْن ما هو فيه من منعة ويحضونه على عدم نحر ابنه؟ لقد كان عكس ذلك هو المتوقع. وفى السيرة أيضا أنهم كانوا إذا أرادوا حفر بئر ضربوا بالقداح، بيد أننا ننظر فلا نرى لا عبد المطلب يضرب بالقداح عند تفكيره فى حفر زمزم ولا رجالات قريش يعرضون عليه التحاكم إلى القداح. لا بل زادوا فأخبروه أنهم سوف يفدون ابنه بالمال مهما غلا. أليس هذا غريبا على قوم كارهين لحفره بئر زمزم وانفراده بهذا الشرف دونهم؟ ولعلنا لم ننس أن عبد المطلب حين غزا الأحباش مكة ليهدموا كعبتها قد استغاث بالله ولم يفكر فى اللجوء إلى الأصنام، إذ أمر قريشا بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرّة الجيش ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قومه يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمّ إن العبد يمـ ـنع رحله، فامنع حَلَالَكْ
لا يغلبنّ صليبُهم ومِحَالُهم غدوًا مِحَالَكْ

إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأْمُرْ ما بـــدا لكْ

كما جاء فى سيرة ابن هشام. فكيف يلوذ بالأصنام لتخرجه من الحيرة التى هو فيها عند عزمه على نحر ابنه؟ ومعروف أن كتابة السيرة لم تكن تخضع للضوابط التى يخضع لها الحديث. ومن ثم لقد كان على الشرقاوى أن يرجح الأخذ بالحديث ما دام يضع فى ذهنه كتابة ترجمة للرسول عصرية تخاطب إنسان عصرنا هذا وتجعله يقبل على محمد بدلا من النفور منه. فهل مما يتسق مع هذه الغاية أن نأخذ برواية السيرة ونهمل رواية الحديث؟ إن الأخذ بالحديث ليتماشى مع المنطق ويرضى الضمير أفضل من السيرة. إلا أن كاتبنا آثر تبنى الخرافة على المنطق والعقل، بينما فى أمور المعجزات أخذ بالتفسير المادى للأحداث وتصرفات الأشخاص. عجائب!

ثم إن هبل وثلته لم يكونوا هم المتحكمين فى مصائر البشر كما يقول الشرقاوى مرارا، بل الخرافات التى تسكن عقول البشر. أما الأصنام فلا تعقل ولا تفكر ولا تتحرك ولا تسمع ولا تتكلم. كما أن هبل وجماعته لم يكونوا وراء نذر عبد المطلب ذبح ابنه بل عبد المطلب نفسه. كذلك لم يكن هبل وبقية الأصنام هم الذين اقترحوا على عبد المطلب الحل السعيد بل عرافة يثربية. فكيف يلح الشرقاوى على أن هبل وسائر أصنام الكعبة كانوا يتحكمون فى مصائر البشر هناك؟ ولكن كيف يتمشى ذلك مع ما جاء فى حكايتنا هذه حين أراد عبد المطلب أن يفدى ابنه عبد الله، فهاج أهل مكة وضغطوا عليه كيلا ينفذ نذره، بما يعنى أنهم لم يكونوا يستسلمون للمصير الذى ترسمه لهم الأصنام؟

ولنصدق جدلا ما قاله عن سلطان الأصنام على الناس هناك إلى هذا الحد الذى صوره فى كلامه، فهل كان الناس فى مكة لا يقتربون من

زوجاتهم مثلا إلا إذا استشاروا هبل وزمرته؟ هل حين ينزل لهم طفل من بطن أمه يذهبون فيستفتون هبل والهبليين فى أمر الإبقاء على حياته أو وأده؟ هل كان تجار القوافل مثلا يعلقون سفرهم على موافقة هبل أو رفضه؟ وهل كانوا إذا أرادوا تزويج ابنهم استشاروا هبل؟ وهل كان أهل الفتاة المراد خِطْبَتها يعلقون موافقتهم أو رفضهم للخاطب على القداح وحكم الأصنام؟ وهل عندما أتاهم محمد برسالته راحوا فسألوا هبل: أيؤمنون به أم يردون دعوته؟ ليس هناك أى ذكر لشىء من هذا فيما بلغنا من أخبارهم أوانئذ. واضح بل ساطع أن الشرقاوى فضل الأخذ بالكلام العاطفى المدندش على كلام المنطق الذى يقبله العقل راميا بذلك خلف ظهره ما كان قد ذكره فى مقدمة كتابه.

ولكى يقتنع القارئ أكثر وأكثر بما قلته له عن تهافت كلام الأستاذ الشرقاوى أحيانا أحيله إلى النص التالى من كلامه هو نفسه بعد قليل من نصه السابق: "وإذ كانت مكة فى واد غير ذى زرع فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة، وأصبحت يوما بعد يوم مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية. وأقيم بناؤها الروحى والدينى على أساس البيع والشراء والربح، وأصبح التجار الكبار فيها هم الحاكمون. التجار الكبار هم الملأ الأعلى. فهم ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التى تصون لهم مصالحهم فى المعاملات. وهكذا قضوا بأن من مات فى مكة من التجار الأغراب ورثته مكة، ورثه الذين كانوا يتعاملون معه فى مكة من تجار قريش! أصبحوا هم المالكون وهم الوارثون! وقضوا على من يستدين أن يقدّم الى دائنه رهنا عزيزا عليه" (ص١٨).

إذن فليست الأصنام هى التى تتحكم فى أحوال الناس فى مكة بل كبار التجار. وإذن فما كتبه عن عبد الله والد الرسول عليه السلام وكيف أن

الأصنام وكبيرهم هبل هو الذين يوجهون مصائر الناس ويحددونها هو كلام فارغ طبقا لهذا النص. وهكذا يرى القارئ أن النزعة العاطفية عند المؤلف هى المسؤولة عن ذلك التهافت الفكرى والتناقض فى الأقوال حتى بين المتقارب بل المتعاقب منها كما رأينا آنفا وكما فى الفقرات التالية التى تحكى ما وقع عقب ذلك لا تفصل بين الواقعتين فاصل.

قال الشرقاوى (ص١٦-١٧): "ولم يكد عبد الله يمضى فى طرقات مكة مثقل الرأس بأحلام الخلاص، ونظراته تتأمل فى نهمٍ كل ما أوشك أن يحرم منه، حتى لاحت له امرأة شابة بديعة الجسد فاخرة الثياب بوجه كفلقة القمر! وتأملته المرأة الصغيرة فى إقباله على الحياة التى عاد إليها الآن، وحاولت بلا جدوى أن تقتنص نظراته التى يسطع فيها وهج الشوق إلى المستقبل. وهج غريب آسر. وتخففت من بعض ثوبها فبانت استدارة كتفيها ونصاعة نحرها، وتقدمت إلى عبد الله، ونظراتها تقرأ على وجهه وفى أغوار عينيه سرا غامضًا حبيبا مؤسياً ينزع بها اليه. وابتسمت وهى تعترض طريقه وسألته: إلى أين يا عبد الله؟ فقال لها وهو لم يفق بعد من كل ما مر به فى الكعبة: أنا أذهب مع أبى. فقالت وهى لا تحفل بوجود أبيه: لك مثل الإبل التى نُحِرَتْ من أجلك إن تزوجتنى الآن.

وتأملها عبد الله فى حيرة، وقد بدأ يستعر فى أطوائه شغفه بطيبات الحياة التى أوشك أن يحرم منها! من تكون هذه المرأة التى تتعرض له فى الطريق وتدعوه اليها جهارًا دون أن تستحى من أبيه؟ ليست هى من هذا الصنف من النساء الذى يتعرض للرجال فى طرقات مكة. إن وجهها وما على جسدها من الثياب والجوهر وطريقتها فى الكلام وكل شيء فيها ينطق بأنها امرأة واسعة الغنى وذات إباء، ولكن ما فى عينيها الواسعتين الهادئتين حيث تطفو العفة

والطيبة تلتمع جذور متقدة من الحساسية المرهفة والهيام الأنثوى واللهفة أيضا. وبهاتين العينين العامرتين سألته ألا يرفضها فيحرجها. ولكن أباه جذبه من يده واندفع فى طريقه، فقال عبد الله وهو يتبع أباه: وأنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه. وانطلق وراء أبيه. وأوشك أن يستأذنه فى خِطْبَة المرأة التى تعرضت له، فهى امرأة صغيرة جميلة لم يعلم أحد عنها من سوء، وإنها لتقدم اليه مائة من الإبل. ولكن أباه كان قد قرر، منذ رأى إقباله على تلك المرأة، أن يخطب له فتاة بكرا من بنات أصحابه، فقد كبر الولد وهو جدير بعدما استرد نفسه من أظفار الموت بأن يحيا شبابه بكل ما فى أعوامه السبعة عشر من عنفوان. وبدلا من أن يعود عبد المطلب بابنه الى البيت عدل عن طريقه ومضى الى دار وهب بن مناف سيد بنى زهرة فخطب ابنته آمنة لابنه عبد الله، ووافق وهب، وتزوج عبد الله وآمنة فى نفس اليوم. كان عبد الله قد جاوز السابعة عشرة بقليل، وآمنة أصغر منه بنحو عامين.

وفى صباح اليوم التالى خرج عبد الله من عند زوجته آمنة بنت وهب واتجه الى الكعبة. وفى الطريق إلى الكعبة قابل الحسناء التى عرضت عليه نفسها بالأمس. ونظر اليها فلم تكلمه، وابتسم فأعرضت مغضبة. فقال لها: مالك لا تعرضين على ما كنت عرضت بالامس؟ فأجابته بجفوة: فارقك النور الذى كان معك بالامس، فليس بى لك اليوم حاجة. وانصرف عنها وهى تهمهم:

فلما قضتْ منه أمينةُ ما قضتْ   نبا بصرى عنه وكَلَّ لسانى"

هذا ما ذكره الشرقاوى. والآن تعالَوْا لنحلّل ما كتبه الشرقاوى القصاص والمسرحى والشاعر والسياسى والكاتب الصحفى المصرى المشهور. وهو كلام مضحك بل يبعث على القهقهة وفحص الأرض بالقدمين. وأول شىء هو: من

تلك المرأة؟ لا أحد قد أجاب على هذا السؤال. ويبدو أن الأرض قد انشقت فطلعت منها تلك المرأة ثم عادت فانشقت وابتلعت المرأة، وانتهى أمرها فلم يعد أحد يتذكرها أو يأتى لها على سيرة. لقد كان ثم دور يحتاج إلى امرأة لعوب، فظهرت امرأتنا وقامت بالدور، وانفض السامر وانصرف الجمهور ونُسِيَ كل شىء.

على أن المسرحية السخيفة لم تنته فصولها، إذ صور الشرقاوى فتاته وكأنها نجمة من نجوم السكس فى هوليوود. فهى تتصدى لعبد الله، وكأن عبد الله لم يكن بين يديها قبل ذلك ليل نهار فى ذلك البلد الصغير الذى يعرف فيه كل شخص كل شخص آخر. ولا تكتفى بالتصدى بل تكشف كتفها لكى يكون الإغراء يليق بهوليوودية أصيلة. ترى هل هناك امرأة عربية فى ذلك السياق تقدم على هذا؟ وزيادة على هذا نرى الكاتب لا يفكر فى التناقض الأبلق فى شخصيتها، إذ هى لعوب ذات دلال وغنج وجرأة غريبة وهيام أنثوى وبراعة فى اللعب بقلوب الرجال لا تستحى، وفى نفس الوقت يؤكد المؤلف عفتها وطيبتها وهدوءها وحساسيتها. كيف ذلك؟ علم هذا التناقض الصارخ لدن علام الغيوب! ثم من أين لها بمائة من الإبل تتصرف فيها بهذه الأريحية دون الرجوع إلى أهلها أو المبالاة بهم؟ وعبد المطلب، كيف فكر وهو راجع من الكعبة فى تزويج ابنه والذهاب فى الحال، دون تفكير أو تروٍّ، لدار والد آمنة، وإتمام الخطبة فى التو واللحظة ودخول عبد الله فى تلك الليلة. يقيناً لو كانت شروة طماطم لاستغرقت وقتا أطول من ذلك وأخذا وردا. أليس كذلك؟ إن هذا هو ما يقولونه فى التعبير المصرى العامى: سمك! لبن! تمر هندى! وكأن هذا كله لا يكفى، إذ رأينا عبد الله يترك زوجته فى اليوم التالى ويخرج من البيت مخلفا إياها وحدها فى ملابس العرس، التى لا أدرى كيف جهزوها لها

وزفوها لزوجها ودعوا المعازيم وطبخوا الطعام وأعدوا الشراب فى ساعات قلائل. ألا إن هذا لفلم هندى عجيب تم سلقه وعرضه بالتصوير السريع. ومع هذا فيا قارئى الكريم، ما زال فى جَعْبة الحاكى من المضحكِ الجديدُ. ذلك أن عبد الله، وقد خرج لتوّه من لدن عروسه التى دخل بها منذ ساعات (ليلا)، ما إن رأى فتاة الأمس حتى رغب فى الاقتران بها. ولم لا، والخطبة والزواج والدخول بالعروس ودعوة المعازيم وتجهيز الطعام والشراب يتم فى عدة ساعات من الزمن؟ كيف بالله فكر عبد الله فى الزواج بثانية فى صبيحة بنائه بزوجته الأولى؟ وأين قوله إنه مع ما يفعله والده، ولن يتركه أبدا؟ ثم من يا ترى سمع الفتاة وهى تهمهم وحفظ بيت الشعر الذى همهمت به وسجله لنا؟ سيسارع المتعجلون قائلين إن الرواى هنا هو الراوى العليم بكل شىء. وفاتهم أن الشرقاوى يكتب تاريخا لا قصة أدبية من حقه التزيد فيها وتَرْك خياله يصول ويجول كما يشاء، فلزمه الالتصاق بالتاريخ، وبخاصة أنه يكتب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقبل ذلك كيف رفضت الفتاة أن تتزوجه صبيحة زيجته الأولى؟ لقد كان الأحرى بها أن تستميت فى أخذه من آمنة حتى تشعر بنشوة فوز المرأة حين تأخذ رجلا من زوجته ولو صارت لتلك الزوجة ضَرَّة؟ سيقال إن النور فارقه. والرد: وهل كانت تلك الهُولِيوُودِيَّة تبحث عن النور أم عن الفتى الشاب؟ إنها لم تكن لَزِيمَة مسجد تتبتل وتصلى وتصوم وتسبح الله وتمجده ليل نهار كى تبحث عن النور. ثم أى نور ذلك؟ إن الوجوه لا تشع نورا، وإنما هى صباحة الوجه أو التماعه شرفًا وبهجة، فكيف تفارق تلك الصباحة والالتماعة وجه عبد الله؟ أكان البارحة شريفا بانتسابه إلى عبد المطلب مبتهجا بنجاته من الذبح، واليوم لم يعد ينتسب إلى عبد المطلب وأصبح مع طلوع النهار مكتئبا لتلك النجاة يتمنى لو كانوا نحروه؟ ما هذا الكلام الذى لا يدخل المخ؟ ثم كيف تحولت آمنة فى بيت الشعر إلى أمينة؟ ومرة أخرى:

من يا ترى تلك الفتاة العجيبة؟ أتراها كانت جنية تدلت من الهواء يوم نجاة عبد الله وزواجه، وارتفعت إلى طيات الأثير يوم الصباحية؟

سيقول القارئ إنك تحمّل الشرقاوى مسؤولية ما رواه الرواة عن ذلك الموضوع؟ وجوابى هو: أن الشرقاوى لم يكتف بما جاء فى الرواية الموجودة فى السيرة بل أضاف إليه بعض التحبيشات المثيرة ككشف البنت الهوليودية كتفها وحديثه عن هيامها الأنثوى وعفتها وطيبتها رغم ما فى ذلك من تناقض أبرزناه آنفا. ثم ألم يقل الشرقاوى إنه يكتب سيرة الرسول للعالم كله لا للعرب فقط بل ربما للعالم كله دون العرب، وإنه سوف يترك الكلام عن معجزات ابن عبد الله؟ فكيف ترك معجزات الابن وأمسك بالخرافات المعزوّة للأب؟ أما أنا فأضرب صفحا عن الحكاية كلها ولا أستطيع قبولها فضلا عن هضمها، سواء منها ما اشترك بين رواية السيرة ورواية الشرقاوى أو ما انفرد به سيادته. الحق أننا ينبغى لنا التخلص من عقولنا ومنطق البشر إذا شئنا أن نصدق هذه الحكاية. وكم فى السيرة رغم دورانها على حياة سيد البشر وشخصيته من خرافات وأحداث منفلتة الزمام. بل كم فى الأحاديث المنسوبة إليه صلى الله عليه وسلم من مبالغاتٍ وأكاذيبَ ومفترياتٍ التاريخُ برىءٌ منها كل البراءة.

وبعد ذلك نسمع عبد الله وهو يناجى نفسه ويذكر ما حدث بمكة لدن محاولة الأحباش غزوها رغم أنه كان قد فارق مكة مع القافلة المتجهة إلى الشام. ومن الواضح أنه، حسب الشرقاوى، كان على علم تام بما حدث بتفاصيله. ترى كيف عرف؟ هل كان معه هاتف محمول، وكانت آمنة تتصل به كل يوم عدة مرات تنبئة بنبإ أم القرى وبيتهما وما صنعه عبد المطلب لدى رؤيته جيش أبرهة. ودعنا من أنه يعزو اندحار الجيش الأبرهى لتفشى الجدرى قبل ذلك فى المدينة. وهو ما لا يتسق مع ما قاله القرآن. فالقرآن

يعزو هزيمة الأحباش إلى أن الله أرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل جعلتهم بمشيئة الله كعصف مأكول. ومعنى هذا أن كارثة الحبش لم تكن جراء جدرى كان متفشيا فى مكة، وعرفها عبد الله وهو فى بلاد غير البلاد مما يستحيل حصوله فى تلك الأيام.

لقد أراد الأستاذ الشرقاوى أن يتجنب القول بالمعجزة، وهو حر فى ذلك، فكل إنسان ومعتقده. لكن لا ينبغى قلب الأوضاع ونسبة ما نزل بالأحباش وتفشى المرض القاتل فيهم إلى جدرى فى مكة لم يكن له وجود إلا فى خياله. لقد انتشر المرض البشع بين الأحباش ومنعهم من تنفيذ خطتهم الشنيعة، ولم يكن هناك جدرى فى مكة بل، طبقا لكتب التراث، انتشر الجدرى بعد هلاك الحبش لا العكس. جاء مثلا فى "الاشتقاق" لابن دريد خلال حديثه عن سويبط بن سعد ضمن رجال عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ما يلى: "زَعَمَ أهلُ السِّرة أنَّه (أى نبات الحرمل) لم يُعْرَف فى بلاد العرب حتَّى رُمِيَت الحبشةُ عامَ الفيل، فلمَّا انقضى أمرهم أصابَ الناسَ الجُدرى والحَصْبة، فكانوا يعالجونه بُمَرار الشَّجر: الحنظل، والحَرْمَل، والعُشَر...". وفى "البداية والنهاية" لابن كثير: "وقال فى قوله: "طَيْرًا أَبَابِيل" قال: طير خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم، وما رؤى الجدرى قبل يومئذ، وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعده".

وفى "السيرة النبوية" لابن هشام: "أرسل الله تعالى عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا... فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب

أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنامله أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. قال ابن إسحاق: حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام وأنه أول ما رؤى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعُشَر ذلك العام".

فلم يقل أحد إنه كان هناك جدرى فى مكة وإن أبرهة وجيشه قد التقطوا العدوى من أهل مكة طبقا لكلام الشرقاوى، الذى لا يقوم على أساس تاريخى ولا على ما قالته سورة "الفيل". وقد قال محمد عبده فى تفسير تلك السورة فى ضوء ما قيل من أن الذى أصابهم هو داء الجدرى والحصبة: "وقد بيَّنت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فِرَق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وإن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يُعَد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بـ"الميكروب" لا يخرج عنها، وهو فِرَق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها، ولا يتوقف ظهور أثر قُدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها.

فلله جند من كل شىء، وفى كل شىء له آية... تدل على أنه الواحد". وسواء علينا أوافقنا الشيخ محمد عبده فى كل ما قال أو فى بعضه أم خالفناه فيه جميعا فإنه رحمه الله لم يقل خلال تفسيره للسورة المذكورة قط إنه كان فى مكة قبل الهجوم الحبشى عليها جدرى منتشر التقطه الأحباش. والشيخ معروف بانفتاحه على التفسير العلمى للقرآن الكريم حسبما يتضح من حديثه هنا، ومع هذا لم يقل بإصابة العدوى للحبش على الإطلاق. لماذا؟ لأنه لم يكن هناك جدرى قبل الهجوم. معنى ذلك أن الشرقاوى لا يكتفى وحسب بإدارة وجهه للتفسير الإعجازى لهلاك الأحباش على مشارف مكة بل يزيد على ذلك اختراعه تاريخا من لدنه وليد الخيال والعناد. وكان من الممكن أن يقول إن أبرهة قد هُزِم وارتد عن مكة بعدما ظهرت به بثور وقروح كانت سببا فى هلاكه. وبذلك يرضى ما فى نفسه من إنكار المعجزة ولا يخالف التاريخ بدلا من هذا الاختلاق العجيب غير المقبول.

ومن ذلك أيضا إطلاقه العِنَان لخيالاته الجامحة لدن إعلان أبى طالب السفر فى تجارة إلى الشام مع قافلة قريش وتعلق محمد به ورغبته فى مصاحبته. إنه تعلق الصغير اليتيم بعمه الذى يكفله ويعوضه عن أبيه، ومن ثم يريد مرافقته حتى لا يحرم من حنانه واهتمامه طوال مدة السفر. وهذا هو الطبيعى لمن كان فى سن محمد آنذاك، وبخاصة إذا كان يتيما، فضلا عن أن كتب التاريخ والسيرة لم تقل سوى هذا. لكن الشرقاوى يصور لنا الرسول فى صورة يسارى متطرف لا طفل صغير، فهو يذكر أنه قد ضاق بمكة لما يسودها من تفاوت طبقى وما يترتب على هذا التفاوت من مخاز ومآس. بيد أننا نقرأ أحاديث رسول الله فلا نجد شيئا من هذا. وإن دل ذلك على شىء إنما يدل على أن كاتبنا يخلع عباءته اليسارية على محمد الصغير. وهل كانت الشام تعيش

فى بحبوحة الحب والتعاضد بين فقرائها وأغنيائها حتى يهرب محمد إليها من التفاوت الطبقى المكى؟ ثم ألن يعود محمد إلى هذا الجو الطبقى الموبوء كرة أخرى؟ أم تراه سيعرض على عمه فى الشام البقاء هناك فى الجنة الموعودة؟ أم هل كان عمه فى مكة يمسك سوطا يلهب به ظهور الأغنياء الظلمة فيلزمهم سلوك التعاطف مع الفقراء ويحزهم للنزول لهم عن نِصْف ما يملكون، ونِصْف نسائهم كذلك فوق البيعة، ومن هنا خشى محمد أن غياب العم سوف يعطى المترفين الفرصة للعودة إلى استغلالهم وتجبرهم وغطرستهم وشحهم وتهتكهم؟

وهاك مثالا ثالثا لإطلاقه العنان لخياله فى أمور تاريخية لا قصصية مخترعة. ففى الليلة التى أزمع النبى عليه السلام الهجرة هو والصِّدِّيق تقول كتب السيرة إن الرسول خرج فى جنح الليل على الشبان المتجمعين أمام باب داره كى ينقضوا عليه ويقتلوه حتى لا ينتقل إلى يثرب ويحاربهم من هناك مع أهلها، فقرأ عليهم قوله تعالى: "وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون"، فألقى الله على عيونهم النعاس، فلم يشعروا به حتى طلعت الشمس، وكان قد غادر مكة وصار فى أمان منهم. هذا ما تقوله كتب السيرة والتاريخ، لكن الشرقاوى، كعادته فيما يدخل فى باب المعجزات، لا يأخذ بهذا الخبر. وكما قلت وأقول: هو حر فى هذا، لكن كان عليه ألا يخترع ما لم يقله التاريخ، إذ كتب أن محمدا قد خرج به أبو بكر من فجوة فى ظهر داره (ص١٢٩). فهل كان عند المؤلف خريطة لداره تقول إن فى ظهرها فجوة يستطيع الرسول وصاحبه النفاذ منها؟ وهل هذا فعلا هو ما تم؟ فكيف عرف يا ترى؟ بل كيف خرج به أبو بكر أصلا، وأبو بكر لم يكن فى ذلك الوقت فى بيت الرسول عليه السلام طبقا للروايات التى وصلتنا؟

وهذا ما وردنا فى تاريخ الطبرى: "قال أبو جعفر: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ حفنة من تراب... وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم، وهو يتلو هذه الآيات من "يس": "يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم " إلى قوله: " وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون" حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات، فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا. قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا وانطلق لحاجته. أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يَطَّلِعون فيرون عليًا على الفراش متسجيًا ببُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام على عن الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا. فكان مما نزل من القرآن فى ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك. ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين"، وقول الله عز وجل: "أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون؟ * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين"...". وكما ترى فرواية السيرة والتاريخ أشد جاذبية مما صنع الشرقاوى فى كتابه وأمتع وأجدر بأن تفعله السماء إكراما لخاطر النبى الكريم. ولقد كان فى مستطاع الشرقاوى أن يقول ببساطة: وسهل الله (إن ساغ فى نفس مؤلفنا ذلك) للنبى (أو "لمحمد" كما يحب أن يقول عنه) الخروج من بيته

دون أن يشعر به المتربصون على بابه، وينتهى الأمر. ومع هذا فلكل وجهة هو مولّيها.

وبالمثل حين كان النبى والصديق فى غار ثور واقترب من مخبئهما المطاردون القرشيون، وأحس أبو بكر بالقلق خشية أن ينظر أحدهم داخل الكهف فيراهما ويقبضوا عليهما لم يشأ الشرقاوى لمس هذا الموضوع على الإطلاق بل اكتفى بالقول بأنهما "ظلوا (ظلا) ثلاثة أيام على هذه الحال حتى إذا يئست قريش من العثور عليهما فى كل الدروب والطرق الخفية المؤدية إلى يثرب خرجا معا إلى الفضاء العريض يخوضان معا فى الصحراء المترامية إلى المصير الغامض".

ومما تظهر فيه عاطفيته المسرفة وخياله الغالى أيضا قوله عن ورقة إنه اعتنق المسيحية وعاد إلى قومه ليحدثهم عن إله واحد لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيدى ولا يخدم بأيدى الناس لأنه لا يحتاج إلى شىء... إلخ. والرد على هذا هو: وماذا نقول فى تماثيل المسيح ابن الله، والعذراء أم الرب، والصلبان فى كنائس النصارى؟ وماذا نقول فى القرابين التى تقدم للرب هناك؟ وأين نجد يا ترى هذا الكلام المنسوب لورقة فى أحاديثه؟ على كل حال سوف ينقلب الشرقاوى على كلامه هذا ويصرح بما اعترى النصرانية من وثنية (ص٦٩).

وعلى الناحية الأخرى نرى الشرقاوى يَعَضّ بنواجذه على الرواية التالية عن النبى عليه السلام قبل البعثة، وكأنه يريد الإساءة إليه. فها هو ذا زيد بن عمرو بن نفيل يستنكف أن يمد يده إلى طعام ذبح تحت قدمى صنم من الأصنام، بينما محمد لا يأبه لاستنكاف زيد ويأكل من الطعام المذبوح على النصب ولا يحذو حذوه. أفلو كان هذا صحيحا فهل كان الرسول ليمدح زيدا

بعدما صار نبيا، وقد تفوق عليه رغم أن زيدا لم يكن نبيا؟ وهل كان القرشيون ليسكتوا على ذلك التصرف من محمد وتقريعه مع هذا لهم لعبادتهم الأصنام ونحرهم على النصب؟ لقد كانوا أحرياء أن يقولوا له: هل نسيت يا محمد أنك كنت تشاركنا طعام الأنصاب حتى أمس؟ فما الذى جد حتى تنقلب من النقيض للنقيض وتذهب فتقرعنا ولا يعجبك أسلوب عيشنا وذبحنا؟

وفى البخارى "أن النَّبي ﷺ لَقِي زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ بأَسْفَلِ بَلْدَحٍ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ على النَّبي ﷺ الوَحْي، فَقُدِّمَتْ إلى النَّبي ﷺ سُفْرَةٌ، فأبى أنْ يَأْكُلَ منها، ثُمَّ قالَ زَيْدٌ: "إنِّي لَسْتُ آكُلُ ممَّا تَذْبَحُونَ على أنْصابِكُمْ ولا آكُلُ إلَّا ما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه"، وأنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرٍو كانَ يَعِيبُ على قُرَيْشٍ ذَبائِحَهُمْ ويقولُ: الشَّاةُ خَلَقَها اللَّهُ، وأَنْزَلَ لَها مِنَ السَّماءِ الماءَ، وأَنْبَتَ لَها مِنَ الأرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَها على غيرِ اسْمِ اللَّهِ؟ إنْكارًا لِذلكَ وإعْظامًا له". وفى هذا الحديث، كما نرى، يرفض النبي الأكل مما ذبح على الأنصاب قبل أن يرفض زيد بعده.

وثم حديث آخر فى "المستدرك" للحاكم "أنَّ سَعيدَ بنَ زَيد سأَلَ رَسولَ اللهِ ﷺ، عنْ أبيهِ زَيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ أبي زَيدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ كانَ كما رأَيْتَ وكما بلغَكَ، ولو أدركَكَ لآمَنَ بكَ، فاستَغْفِرْ له. قالَ: نعمْ. فاستَغْفَرَ له: فإنَّه يَجيءُ يومَ القيامةِ أُمَّةً وَحدَه. فكانَ، فيما ذَكَروا، يَطلُبُ الدِّينَ، وماتَ وهو فى طلَبِه". أفلو كان زيد بن عمرو بن نفيل أكثر تحرجا من النبي بالنسبة إلى طعام النُّصُب أكان ابنه سعيد يسأل هذا السؤال، ويرى أن مكانة أبيه لا تبلغ مكانة النبي حتى إنه لو كان حيا بعد بعثة النبي لآمن بدعوته وكان من أتباعه؟ أم هل كان سعيد يروى الحديث التالى: "سأَلْتُ أنا وعمرُ بنُ الخطّابِ رسولَ اللهِ ﷺ عن زيدِ بنِ عمرٍو، فقال: يأتى يومَ القيامةِ أمَّةً وحدَه"؟

وحين يأتى دور جبريل وظهوره لرسول الله فى الغار يخبرنا كاتبنا بأن محمدا رأى فى المنام كائنا يقول له إنه رسول الله. وكان قد سبق ذلك كلام طويل من المؤلف عن تأملات محمد لا فى السماوات والأرض والنفس بل فى أحوال العالم كله اجتماعيا وسياسيا ودينيا وفلسفيا. ولم لا وقد كان يسمع فى رحلاته التجارية خارج الديار كل شىء عن كل شىء: عن دين الفرس وأوضاع الروم وتاريخ مصر بما فى ذلك هيباتيا الجميلة الفيلسوفة العالمة الواسعة الثقافة والأفق الفكرى والتى حرض القساوسة عليها الجماهير حتى قتلوها قتلة شنيعة؟ فانظر إلام يهدف الشرقاوى؟ وماذا يريد أن يقول؟ وحتى حين شرع محمد يدعو الناس بدعوته الجديدة لم يكن ذلك بناء على ظهور جبريل له يؤكد ما قاله له من قبل بل كان نتيجة تأملاته وتفكيره المضنى على مدى شهور وشهور. ومؤلفنا يؤكد هذا بملء الفم: لقد "أعدَّت الحياة له مكانًا وانتظرته. هيأت الظروف الاجتماعية محله، فكان من الضرورى أن يقبل ليملأ مكانه المرتقب مسلحًا بفهم كامل لطبيعة دوره، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت، وبإدراك كامل لحاجات البشر المعذبين: حاجتهم إلى أسلوب فى العلاقات أكثر عدلا وانسانية، وحاجة وجدانهم إلى قيم روحية جديدة. وهكذا أقبل أبو القاسم محمد بن عبد الله من أغوار تأملاته، من قاع مجتمعه، طيبًا متواضعًا كالمساكين. وهو يملك مع ذلك من الصرامة والشجاعة والقدرة المبدعة ما يفرض هيبته على الذين يضربون فى الأرض بصلفهم ويتشامخون بمالهم ونفرهم، ولو أنهم على أية حال لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولًا.

كانت قوة التجار والمرابين الأغنياء قد ألصقتهم بأصنام الكعبة، وكان التصاقهم بهذه الأصنام يمنحهم مزيدًا من القوة والغنى. فهى تحمى الآخرين، وإليها يحج العرب كافةً ثلاثة أشهر من كل عام: يقدمون الهدايا والقلائد

والأموال إلى الأصنام، أى إلى الذين يحكمون باسم الأصنام. وخلال هذه الأشهر يستثمر هؤلاء الأغنياء أموالهم فى البيع والشراء والربا فيربحون ويربحون. وهذه الأصنام بَعْدُ هى التى تمنح المُلَّاك كل سلطانهم على الأُجَرَاء والمُعْدِمين والعبيد وأبناء السبيل. وواجه محمد هذا كله بأن الأصنام ضلال وأنها لن تغنى شيئا وأنها لا تملك للإنسان نفعًا ولا ضرًّا. وأن الامر كله لإله واحد لا يحتاج إلى وسطاء، إله واحد أحد خالدًا آبدًه لم يلد ولم يولد. وليس شيء كفؤا له ولا أحد.

وهذا الإله أكبر من أن يحده مكان كالكعبة ولا حتى مكة نفسها، فهو فى كل مكان. ليست له صورة، وهو الذى خلق كل شيء، وهو وحده الجدير بأن يعبد. يستوى عنده العبيد والأشراف، الفقراء والأغنياء، الرجال والنساء. هو الذى يحى ويميت، وسيبعث الناس فى يوم معلوم بعد الموت ليحاسبهم على ما صنعوا فى الحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا الا لهو ومتاع وغرور، وهى الى زوال. وهذا الإله الواحد لا يرضى الزنا ولا الربا ولا القتل ولا كبرياء سائر الأشياء. وهو يلعن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الفقراء، وسيحمى على هذه الكنوز فى النار، عندما يبعث الناس بعد الموت، فيكوى بها جباه الذين كنزوها وجنوبهم وظهورهم، وسيحرق أجساد الذين يعيثون بحقوق الآخرين ويستضعفونهم، فإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون.

أما المساكين الذين يُمْتَهَنون اليوم فلهم شأن آخر بعد الموت، فقد أعدت لهم جنات فيها حدائق وأعناب وكواعب أتراب إذا هم هجروا الفاحشة ولم يسرقوا ولم يكذبوا ولم يقتلوا، وإذا هم أَدَّوُا الأمانات إلى أهلها ولم يكرهوا فتياتهم على البغاء وفاءً لديون المرابين، وإذا هم نبذوا الأصنام وتحرروا من سلطانهم على قلوبهم وعبدوا الإله الواحد الأحد الذى ليست له صورة ولا

يحدّه مكان أو زمان، والذى بعث محمدًا رسولًا إلى كل الناس بشيرًا بجنة خالدة، ونذيرًا بنار خالدة. إنه إله غير ما عرفوا. فإله محمد لا يريد وساطة ولا مالًا ولا قلائد، ولا سبيل إليه بحسبٍ أو بغِنًى. فما الإنسان عنده غير سيرته الصالحة، غير صدقه وشجاعته وحسن معاملته وغير فضائله. ذلك أنه غنى عن العالمين وأنه ليس للانسان الا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرَى. بهذا التصور الجديد للحياة والموت، وبهذه القيم الروحية الجديدة، واجه محمد ضلالات قومه، واهتزت الحياة المتموجة فى مكة" (ص٦٧- ٦٨).

والشرقاوى هنا يخلط الأمورخلطا، وكأن محمدا بَشَّر بكل هذا مرة واحدة. وهذا غير صحيح، فقد تدرج بهم خطوة خطوة حتى انتهى من كل ذلك بعد ثلاث وعشرين سنة. إن الشرقاوى لا يفرق بين مكى ومدنى بل دعا "مُحَمَّدُهُ" إلى كل شىء دفعة واحدة. كما أن المساكين عنده هم الذين كانوا يكرهون فتياتهم على البغاء لا الأغنياء أصحاب دور اللحم البشرى الأنثوى. والجنة ليست لكل من يتبع الدين الجديد ويلتزم بالتقى والصلاح والعفاف وسائر القيم الإسلامية بل للمساكين من البشر فقط.

وعند حديثه عن وضع المرأة فى الدين الجديد وأنها كالرجل خلقها الله هى وهو من نفس واحدة، و"ليست... كما كانت تزعم التقاليد ثمرة الخطيئة فى الأرض وممثلها ووحيها وأداتها" (ص٧١). وهو كلام عجيب، فلم نسمع أن العرب كانوا يرون المرأة ثمرة الخطيئة فى الأرض وممثلها ووحيها وأداتها. إن ذلك هو حكم كِتَّاب اليهود والنصارى عليها لا تقاليد العرب. فلماذا لا يقولها الشرقاوى واضحة مستقيمة دون لف أو دوران؟ وهو فى أثناء هذا كله لم يذكر نزول أى وحى بأى شىء منه من السماء.

وهذا مثال على الطريقة التى يلجأ إليها الشرقاوى بدلا من القول بأن القرآن كان يتنزل بكذا وكذا من الآيات والسور. فحين جمع النبى عليه السلام فى أوائل الدعوة بنى هاشم ليعرض عليهم الإسلام فيؤمنوا به، وانبرى عمه أبو لهب قائلا: تبا لك يا محمد! ألهذا جمعتنا؟ يورد الشرقاوى الحكاية على النحو التالى: "على جبل الصفا خارج مكة وقف محمد ومن حوله بنو هاشم جميعا وبعض الرجال والنساء الذين آمنوا بتعاليمه. كان بنو هاشم يتساءلون: ماذا يريد محمد؟ لاى أمر جمعهم؟ وقال لهم بأعلى صوته من فوق قمة الصفا: إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله. وانفجر أبو لهب وهو يلوح بيديه فى وجه محمد بحنق وفظاظة: "تبًّا لك سائر يومك! ألهذا جمعتَنا؟ تبا له؟ تبا لمحمد؟ ووجم الجميع فى انتظار ما يقول محمد. أيسكت محمد على أبى لهب وإهانته وتلويحه بيديه؟... أيسكت محمد على هذه الاهانة إشفاقا من أبى لهب وزوجته؟ أم عسى أن يجاملهما لأن ابنهما زوج لابنته رقية؟ ولكن لا. لا مهادنة بعد! وما كان لمن يريد أن يفرض الحق على الفوضى، ما كان له أن يسكت على إهانة أو أن يهادن. إن هيبة التعاليم لتمتحن الآن. أتراه يخشى صلف أبى لهب وسطوة أبى سفيان؟ ماذا تقول يا أبا لهب؟ اسمع إذن. لن يسكت محمد بعدُ على من يرفضه. لن يقبل من أحد حتى من عمه هذا الازدراء عليه وعلى ما جاء به من تعاليمه. سيخوض غمرات الصراع مع كل المستكبرين. فاسمع يا أبا لهب. اسمع إذًا سمعت الرعد. تبا لك أنت! تبا لك سائر يومك، وسائر حياتك! تبت يدا أبى لهب وتب!". ولا أظننى بحاجة إلى أن أقول إن الأمر قد سيق بحيث تكون سورة "المسد" انفعالا من محمد يرد بها الشتيمة بمثلها بعد تروٍّ وتفكيرٍ فى المصادر والموارد وليست قرآنا نزل به جبريل

من السماء بعيدا عن حسابات الربح والخسارة التى أدارها محمد فى عقله قبل الرد على عمه.

كذلك صور الشرقاوى الأمر فى مكة على أنه اصطفاف لطائفتين متقابلتين هما الأغنياء والفقراء، مع أن الشرقاوى أعلن قبل هذا أن عددا غير هين من كبار مكة وأغنيائها وتجارها وذوى البأس فيها قد دخل فى الإسلام. ثم إن كبار قريش المشركين إنما يزعجون محمدا من خلال عبيدهم وفقرائهم التابعين لهم. ولعلنا لم ننس ما صنعه العبيد والسفهاء والصبيان برسول الله فى الطائف حين فكر أن يذهب فيدعو إلى الدخول فيما رفضت غالبية أهل مكة الدخول فيه. وبعد سطور سوف نقرأ فى الكتاب بقلم الشرقاوى نفسه أن أم جميل زوجة أبى لهب كانت تؤذى رسول الله ولكن بأيدى عبيدها وجواريها وأن الملأ من قريش كانوا يغرون السفهاء بالتعرض لرسول الله والصياح به كلما مشى فى طريق بأنه كاذب وساحر وكاهن. هذه هى الحياة وأوضاعها كما خبرناها، ولا يمكن أن تكون غير ذلك. والقول بأن الأغنياء سيئون كلهم، بينما الفقراء جميعا ملائكة أطهار هو تبسيط مخل وسذاجة سخيفة واندفاع مع ما يقوله ماركس فى هذا الصدد. أى أن فى الأغنياء طيبين وشريرين، وفى الفقراء طيبين وشريرين. وفى القرآن الكريم كلام عن دخول المتبوعين والتابعين النار معا لا فرق بين فقير وغنى. لكن يبدو أن العرق اليسارى لا يكف عن النبض ويهتبل كل سانحة للإعلان عن نفسه.

هذا، وقد فات الشرقاوى نقطة ما فى حكاية أبى لهب وسورة "المسد"، إذ عقب الواقعة المذكورة آنفا طلق عتبة بن أبى لهب رقية بنت الرسول عليه السلام انتقاما من أبيها، فيقول الشرقاوى تعقيبا على هذا: "وما هى إلا أيام حتى تزوجها عثمان بن عفان". أى دون أن تعتدّ عدة المطلقة بل انتظرت

عدة أيام ليس إلا. قد يقال إن آيات العدة لم تكن قد نزلت بعد. لكن أليس هناك شيء اسمه اللياقة والذوق الاجتماعى يمنع المرأة فى ذلك المجتمع من تزوج رجل جديد بعد طلاقها من زوجها السابق ببضعة أيام؟

وثم خطأ تاريخى أبلق لا أعرف كيف وقع فيه الأستاذ الشرقاوى، وهو قوله إن مسلما متشددا لعن حسان أمام النبى لأنه يشرب الخمر، فدافع عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ونهى اللاعن عن لعنه. والحق إن هذه الحكاية ليست عن حسان بل عن نعيمان، وكان رجلا ذا دعابة وخفة ظل، لكن الرسول شهد له بالإيمان رغم ضعفه الشديد أمام الخمر ورغم تعرضه للحد فيها مرات مما دفع بعض الصحابة إلى أن يلعنوه، فنهاهم عليه السلام عن ذلك وشهد لنعيمان المسكين بأنه يحب الله حسبما جاء فى كتاب "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب" لابن عبد البر من باب التمثيل ليس إلا.

وثم خطأ تاريخى آخر، إذ كتب مؤلفنا ما يلى: "أرسلت قريش فيمن أرسلت إلى النجاشى عمرو بن العاص، وابن الوليد الفتى القرشى الجميل الشجاع الذى حاولت أن تعطيه لأبى طالب فى مقابل ابن أخيه محمد (يقصد عمارة بن الوليد أخا خالد)، وصحب (اصطحب) عمرو بن العاص فى رحلته زوجة دخل عليها منذ قليل، وهى امرأة جميلة فاتنة للألباب لعوب لم يكن عمرو يطيق أن يبتعد عنها. وفى الطريق إلى النجاشى رأت المرأة ابنَ الوليد وتحدثت اليه، فشغفها حبًّا. وذات ليلة هجرت زوجها عمرو بن العاص وارتمت فى فراش ابن الوليد، ولم تعد إلى عمرو إلا بشرط أن تتردد بينه وبين ابن الوليد. وسبقت أنباء هذه الفضيحة إلى النجاشى وإلى المهاجرين، فلم تنفع حيلة عمروبن العاص، ورد النجاشى الرسل إلى قريش خائبين وظل على كرمه مع المهاجرين اليه. أما المسلمون فى قريش فقد تلقوا عمرو بن العاص بالسخرية

وعلّموه أن الاسلام وحده هو الذى كان يمكن ان يعصم امرأته ويعصمه من مثل هذا الهوان!".

وقد تتبعت هذا الكلام فى عدد من كتب السيرة والتاريخ والأدب فلم أجد له أثرا، بل كل ما فيها هو أن عمارة سكر ذات ليلة فى السفينة التى تقلهما إلى الحبشة وطلب من زوجة عمرو قبلة، فقال عمرو لها: أعطى ابن عمك القبلة. ثم ما إن أمكنته الفرصة حتى دفع عمارة فى البحر فكاد أن يغرق، لكنه نجا. ثم أغراه بالتردد إلى زوجة النجاشى، وأعلم النجاشىَّ بذلك وقدم له الدليل، فما كان من النجاشى إلا أن سلط عليه السواحر، ففقد عقله وهام مع الوحش هناك ولم يعد إلى أهله مع العائدين. ثم رواية أخرى تقول إن عمارة لم يقبّل زوجة عمرو بل انتقم هذا منه حين رآه يحاول إغواءها، وهى تصده عنه... المهم أن قضاء امرأة عمر ليلة فى فراش عمارة، وأنها اشترطت على عمرو أن تكون له ولعشيقها مناصفة وأن هذا هو سبب فشلهم لدى النجاشى فلم يسمع لهم كلاما وردهم خائبى المسعى من أجله، هو كلام لا أعرف له أصلا. وهذا شىء يؤخذ على الأستاذ الشرقاوى.

ولعله أراد أن يشوه صورة ابن العاص وأخلاقه على هذا النحو البشع انتصارا لعلى بن أبى طالب، الذى انحاز عمرو مع معاوية ضده أثناء خلافته. ونحن نحب عليا أشد الحب. نحبه لسبقه إلى الإسلام ولمبيته ليلة الهجرة فى فراش النبى وتعريضه نفسه للخطر، إذ كان من الممكن أن يقتله المتربصون بالنبى على باب داره فى تلك الليلة، ونحبه لبطولته التى نافح بها عن دين الله فى عدد من المواقع الحاسمة فى تاريخ الإسلام وصراعه مع الوثنية، ونحبه لكونه زوج فاطمة رضى الله عنها ووالد الحسن والحسين حِبَّىْ نبينا عليه السلام، ونحبه لتفقهه فى الدين، ونعرف أن معاوية قد شغب عليه وسبب له

الاضطرابات المزعجة أثناء خلافته وأنه، بعد استتباب الأمر له، قلب الخلافة الراشدة من الشورى إلى التوارث الأسرى فجعلها كسروية. نحن مع علىّ كرم الله وجهه، لكن التاريخ قد جرى خلاف ما نهوى، بيد أننا لا يمكن أن نفترى على ابن العاص مثل هذا الافتراء حبا فى ابن أبى طالب رضى الله عنه. ولعمرو بلاء فى الإسلام لا يمكن نكرانه، لكن هذا البلاء لا يجعلنا نغضى الطرف عما صنعه هو ومعاوية لإشاعة الاضطراب فى حكم علىّ. والصحابة ليسوا ملائكة على كل حال. ونحن المصريين مدينون لعمرو فى دخول الإسلام بلادنا وصيرورتها أمة مسلمة، ولولا هذا كله ما كنت أنا أستاذا بالجامعة أحاضر طلابى فى الأدب العربى ولغته والتفسير والحديث والفكر الإسلامى والترجمة عن المستشرقين وتحليل أفكارهم، وأضع الكتب فى الرد على كارهى دين محمد من مستشرقين ومبشرين وملاحدة محليين وعملاء فاسدين مفسدين. أما فى الصراع بين معاوية وعلى فأنا مع الأخير لكنى فى نفس الوقت ضد توريث الحكم فى أية عائلة أو طائفة لا من بنى أمية ولا من بنى هاشم ولا من بنى العباس ولا من بنى عثمان ولا من بنى محمد على ولا من بنى العسكر فى أى مكان بالعالم الإسلامى.

وإليكم خطأ تاريخيا آخر وقع فيه الشرقاوى هو قوله إن المسلمين فى حجة الوداع قد تهامسوا قائلين، وهم يشاهدونه وينصتون إليه حين كان يخطب فيهم: إن فى وجهه نورا من الغيب، ويده تمس الصخر فيتفجر منه الماء. فسمع الرسول هذا المديح ونهاهم عنه...؟ (ص٣٥٥- ٣٥٦)، وهذه أول مرة أسمع فيها ذلك. فهل وجد كاتبنا هذه الرواية فى مرجع لا نعرفه؟ أم هل هى من بنيات خياله؟ لكن هل يصح إدراج مثل هذا الكلام الخيالى فى سيرة النبى عليه السلام؟ إن نقاد الأدب يتحدثون عن التاريخ كمادة من مواد

الإبداع الأدبى فى المسرحيات والقصص والشعر، ويقولون إن من حق المبدع فى هذه الحالة أن يفسر التاريخ على النحو الذى يخدمه فى توصيل رسالة معينة إلى جمهوره مثلما جعل شوقى كليوباترة فى مسرحيته عنها حاكمة مصرية وطنية، وليست تلك المرأة اللعوب التى تحدث عنها الغربيون. لكن هل الحرية التى تمنح للشاعر فى هذه الظروف هى حرية مطلقة؟ وبصرف النظر عن الإجابة على هذه الأسئلة فإننا لسنا هنا أمام عمل إبداعى من صنع الخيال، بل أمام السيرة النبوية التى لا يصح فيها إضافة أشياء إليها ليست جزءا منها. ثم إن الكاتب نفسه لم يقل بهذا بل كل ما صرح به هو أنه اتخذ فى كتابة السيرة هنا الشكل القصصى.

ومن الحوادث التاريخية التى قدم لها الشرقاوى تفسيرا لا أذكر أنى قرأته عند أحد قبلًا حادثة هدم العزى فى بطن نخلة وخروج شيطانة منها ناشرة شعرها وتَصْرِف على أسنانها: "واستطاع خالد أن يقتحم بفرسانه وادى نخلة ودخل معبد العزى فحطم تمثالها الكبير. واذ ذاك برزت له من وراء التمثال امرأة عارية تصرخ وتولول. وذعر جنود خالد وفروا، فهذه هى روح العزى خرجت تنتقم وتصيب من يتعرض لها بالبرص! إنها لا تموت! وعبثا حاول خالد أن يحرر قلوب المسلمين الجدد من سيطرة تقاليد الوثنية! عبثا حاول أن يقنع فرسانه بأن هذه التى برزت عارية إنما هى امرأة، امرأة تعبد عارية. وهى من أجل ذلك ليست أخطر شأنًا من نساء يبعن المتاع فى بيوت عرفوها قبل الفتح فى مكة كانت تخفق عليها الرايات! وتقدم خالد بنفسه الى المرأة ليؤكد لرجاله أنها مثلهم من لحم ودم لا روحًا خالدة، امرأة يمارس معها كهنتها عبادة الجسد! وضربها خالد بسيفه، فسال الدم منها، وماتت كما يموت كل النساء!".

أما فى "الأصنام" لابن الكلبى فهذا ما نجده: "كانت العزى شيطانةً تأتى ثلاث سَمُرَاتٍ ببطن نخلة. فلما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد، فقال له: اِيتِ بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمراتٍ، فاعضد الأولى! فأتاها فعضدها. فلما جاء إليه عليه السلام قال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية! فأتاها فعضدها. ثم أتى النبى عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثالثة! فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشةٍ شعرها، واضعةٍ يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دبية بن حرمى الشيبانى ثم السلمى، وكان سادنها. فلما نظر إلى خالدٍ قال:

أَعزَّاءُ، شدِّى شدةً، لا تكذبى، على خالدٍ! ألقى الخمار وشمِّرى!

فإنك إلا تقتلى اليوم خالدًا تبوئى بذلٍّ عاجلًا وتنصرى

فقال خالد:

يا عزّ، كفرانك لا سبحانك! إنى رأيت الله قد أهانك!

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هى حممة. ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن. ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فأخبره. فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب! أما إنها لن تعبد بعد اليوم".

وواضح الفرق بين رواية ابن الكلبى فى "الأصنام" وأسلوب الشرقاوى فى حديثه عن نفس الموضوع. إن الشرقاوى لا يتحدث عنها أبدا بوصفها شيطانة ولا أنها كانت تختفى وراء ثلاث نخلات بل كانت تختبئ خلف الوثن، وإنما هى امرأة عادية كأية امرأة أخرى. لكنها تتصرف على نحو توهم به أنها على اتصال بالجن والشياطين وأنها روح العزى. ونلمس من تصرفات مرافقى خالد أنهم كانوا يعتقدون فيها ذلك الاعتقاد قبل إسلامهم وظل رسيس منه راسبا

فى أعماق نفوسهم، بيد أن رد فعل خالد كان حاسما قاصما، إذ حينما انكشفت بعد هدم الوثن عاجلها بالسيف كى يرى مَنْ حوله أنها إنسانة عادية تموت كما يموت النساء الأخريات دون أية مشاكل. والحق أن تصوير الشرقاوى للمشهد تصوير حىٌّ وحارٌّ على قِصَره النسبى. وقد اختتمه بأن المرأة كانت تمارس الجنس مع سادن الوثن فيما أسماه: عبادة الجسد. وهو ما يذكرنا مثلا بما يقال عن ممارسة الجسد فى بعض المعابد الهندية، وبما يقع بين الرهبان والراهبات فى الأديرة النصرانية بعيدا عن أنظار الناس. لكنى لا أستطيع أن أتذكر قراءتى لشىء من ذلك عن المعابد الوثنية فى بلاد العرب. فإن صحت ملاحظتى هذه يكن كلام الشرقاوى هذا اختراعا غير مقبول رغم أنى، على المستوى الشخصى، لا أستبعده.

أما الخطأ التالى فهو خطأ جغرافى، إذ يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم (قال الشرقاوى: "محمد" فقط من غير نبوة أو صلاة وتسليم) بعد بسط سيطرته على بلاد العرب عين عمالا للصدقات مسؤوليتهم جباية الزكاة وتوزيعها من اليمن فى أقصى الجنوب إلى نجران على حدود بلاد الرومان (ص٣٣٩). وبلاد الرومان، أو على نحو أدق: البلاد التى كان يحتلها الرومان، وهى بلاد الشام، تقع فى شمال الجزيرة العربية. ومعنى ذلك أن نجران، حسب خريطته، تقع فى الشمال لا فى الجنوب، أى عكس موقعها قريبا من اليمن فى الجنوب.

هذا، ولا ينبغى، قبل أن نلملم كتبنا وأوراقنا ونضع القلم جانبا، أن يفوتنا ما يلقانا فى هذا الكتاب من تأملات وتحليلات لأوضاع الحياة تعليقا على بعض الأحداث وطبيعة بعض الشخصيات. وسأكتفى هنا بمثالين لا غير: فأما الأول فهو حديث الشرقاوى (ص٢١٢) عن النوايا الطيبة التى كانت وراء عفو الرسول عن بعض من وقعوا من المشركين فى يده ثم عادوا للتأليب

عليه وعلى أتباعه وشاركوا فى عدوان جديد على الإسلام، وهو ما كلف المسلمين الكثير: "النوايا الطيبة لا يجب أن تفتح الطريق الى بيتك أمام اللصوص. فلقد أوشك رأسك أن يسقط يا محمد، ولئن سقط رأسك الآن لانقلبوا على أعقابهم ولسقطت راية الدعوة الجديدة!.. ما زال عليك أن تقول الكثير وأن تعمل الكثير لتحرر الانسان من سيطرة المصير! ومن أجل ذلك ينبغى أن تكون فضائلك هى الأسوار المنيعة التى تحميك لا نقط الضعف فيك! الشرير دام يتسول الحماية فى ظل الفضيلة، عندما يعجز عن قهر القيم الفاضلة! إن واجب الأخيار أن يدركوا هذا وألا يسمحوا للشرير بأن يخدعهم، فإنه إنما يلتمس العفو، لا لينضم إليهم جنديا من جنود القيم الشريفة، بل ليضرب الراية التى يتحركون تحتها حين يجيء الوقت! وعلى الذين يناضلون من أجل تحرير القلب والعقل والوجدان أن يدركوا جلال مسؤوليتهم التاريخية! فلو لم يرق بعض الأنصار فى معركة أحد. لضراعة هند بنت عتبة. لولم يتركوها تنجو بحياتها وصاحباتها لما قتل حمزة! لقد كان العبد وحشى لا يعرف من هو حمزة، ولا يعرف حتى لماذا يجب عليه أن يقتل حمزة. ولكن هند هى التى أغرته، وهى التى أخذته من يده وهيأت له المخبأ وراء شجرة ليغتال حمزة سيد الفرسان! وانطلقت هند بعد هذا هى وصاحباتها يستنفرن الرجال الهاربين. وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد فاجأ المسلمين من وراء ظهورهم فقد كان جيش المسلمين قادرا على أن ينتصر على فرسان خالد. لو لم تذهب هند وصاحباتها إلى أبى سفيان وعكرمة، اللذين كانا يفران بقلب جيش قريش وجناحه تستصرخهما أن يعودا لتطويق المسلمين! ليتعلم المسلمون جميعا أنه فى مثل معارك المصير لا تهاون بعد ولا رحمة. إن هذه الرحمة المخدوعة كلفتهم حياة حمزة، والنصر أيضًا! ومع ذلك فالرماة الذين تركوا أماكنهم ليتحملون جزء كبيرًا من مسؤولية الهزيمة وإن عبدالله بن أبى ورجاله الثلاثمائة ليتحملون

بفرارهم قبل المعركة مسؤولية دماء سبعين شهيدًا من المسلمين! أيها الرماة، لماذا تركتم أماكنكم قبل أن يصدر إليكم الأمر؟ لقد رأيتم الغنائم والسبايا فطارت عقولكم! عصيتم: منكم من يريد الدنيا على الرغم من كل التعاليم! فلتتحملوا أنتم مسؤولية هذا العصيان! ولكن محمدا آثر أن يعفو عنهم من بعد ما رأى ندمهم ودموعهم. مهما يكن من شيء فيا أهل المدينة، لا تيأسوا بعد. تلك الأيام نداولها بين الناس. ولتعتبروا من كل ما كان. وخرج محمد من وراء بابه الذى كان قد أغلقه عليه، فأعطى سيفه لابنته فاطمة، وقامت تغسله مما علق به من الدماء التاس "فلا تهنوا ولا تحزنوا".

وأما المثل الثانى فها هو ذا، والكلام فيه عن الأخلاق فى مواجهة من لا أخلاق لديهم: "ما أفظع أن يُكْتَب على الفكر أن يواجه قوى غاشمة بلا أخلاق! الحياة نفسها تتحول الى مجاهل من أشواك تسكنها العقارب والافاعى الهائلة. كيف يواجه الانسان هذا كله، وما يملك من سلاح أقوى من الكلمة؟ بأية كلمات يجتاز الإنسان طريق الشوك حيث تقوم دولة الزواحف الرهيبة السامة، وتقهقه مروغة ساخرة من عجز الانسان تجلجل فى الآفاق العقيمة الخرساء! أيجب على الانسان أن يبكى تكفيرا عن عجزه؟ ثم ماذا بعد البكاء؟ لكم بكينا فى اللالى السود من الزمن القديم وحلمنا بان يسود الانسان وأن يطهر الأرض من كل ما يروعه! وكابدنا وهاجرنا مع صحاب أعزاء وواجهنا الموت معا، والنصر معاً، والهزيمة معا، ثم عدنا نبنى بأيدينا حضارة وارفة يتغنى فيها القلب بالعدل والمستقبل! وعادت الزواحف الرهيبة السامة تهدد الانسان، وضحكات المسوخ تنطلق فى سخرية، والقوة التى تعرت عنها الأخلاق تتبجح وتتحايل وتتحدى وتعبث بكل ما هو رائع وجليل ونبيل من أحلام القلب المضنى! وإلا فما بال قريش فى مهرجان انتصارها تغرى جارتها الصغيرة، فتأتى

وفود الرعاة من هذيل إلى المدينة تطلب رجالا يفقهونهم فى الاسلام، ويخرج الرجال المسلمون، رجال من أفضل صحابك يا محمد، فإذا بقبيلة هذيل تسلمهم لقريش، وتقبض عن كل رأس ثقله من الفضة، وتتحول رأس أحد صحابك، الرأس التى امتلات بالحكمة والرحمة واحترام الآخرين، الرأس التى عمرتها ذات يوم أحلام لا نهاية لها بعالم يسوده الحب وترتفع فيه على الهامات أغصان الريحان والزيتون بدلًا من السيوف، إذا بهذه الرأس نفسها تقطع ويمثَّل بها، وتشرب فيها امرأة فاجرة من قريش خمرها وضحكات المسوخ المخيفة تدوى من بعيد، وتغمر الهضاب والسهول والرمال الشاسعة مجلجلة بالسخرية منك يا محمدا؟ ولكن صوتًا عظيمًا يرتفع فوق جلجلة هذه الضحكات، صوت عظيم رائع يخترق كل الأماد يؤكد أن اليقين أقوى من السخرية وأروع من الموت!" (ص٢٢٤).

ومعروف أن الشرقاوى كان يساريا شيوعيا على الأقل فى فترة هامة وطويلة من حياته. ومن هنا أحببت أن أسوق وأناقش موقفه من السحر عامة وفى موضوع روايات سحر الرسول على يد يهود بوجه خاص. والعقلانيون يرفضون السحر بمعنى تحويل سمات الشىء أو طبيعته إلى وضع آخر ولا يعترفون بشىء منه، وإنما هو خفة يد تُتَعَلَّم ويُوهَم بها الأغرار والجهلاء أنها سحر. وكان محمد عبده ينكر أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد سُحِر. وأنا من هذا الرهط الذى ينكر سحر الرسول عليه السلام. قال الشرقاوى خلال حديثه عن بعض انتصارات الإسلام وكيف أحسها اليهود نارا تحرق قلوبهم الحاقدة (ص١٦١): "ورأت اليهود موجة نشاط جديدة تهز القلوب فعادت تكيد. وكان من رجال يهود ونسائها من يقوم بأعمال السحر، وللسحر إذ ذاك سلطان مخيف على بعض العقول، وصنعت امرأة يهودية سحرًا يقعده من

الخروج ويمنعه من النساء. ولقد ضاق هو بهذا السحر ولكنه تحداه، وخرج يقود احدى السرايا وعاد إلى المدينة كما تعوَّد، ساخرا بهذا السحر. غير أنه امتنع عن النساء: فاما سودة الزوجة الكهلة فقد صبرت للأمر عدة شهور، وأما عائشة زوجته الجدبدة الشابة فقد احتملت هذه الشهور ثم طالبته بأن يصنع شيئا يبطل به هذا السحر. وكان هو يدللها ويصطفيها ويتركها تتكئ بذقنها على كتفه أمام الناس، وشعرها بلمس خده، وهى ترى معه ألعاب الأحابيش فى ساحة المسجد، وكان يثق أن اليهود إنما يشغلونه بهذا الأمر فى وقت حرج بالنسبة إلى دعوته وأنه على أية حال سيشفى، فما هذا الوهم الذى ألقوه فى نفسه؟ ولكن عائشة ألحت عليه أن يلتمس الطب أو ما يبطل هذا السحر، وأن يعاقب الذين صنعوه. وكان هو لا يريد أن يشغل أحدًا بغير الاستعداد لاستقبال قريش وحلفائها إن بدأ العدوان على المديئة أو تجارتها. إنه فى المرحلة الحرجة ليحرص على أن يسد كل الثغرات فى جبهته الداخلية، وأن يشد الصفوف لتتماسك، فقال لعائشة: أكره أن أثير على الناس شرا".

وفى هذا الموضوع نرى الشرقاوى وكأنه يمسك العصا من المنتصف: فمن ناحية يؤكد أن السحر لا حقيقة له، إلا أن بعض الأشخاص يرى عكس ذلك. ثم يقول إن النبى ضاق بسحر اليهود له لكنه تحداه. ومع هذا يكمل الشرقاوى كلامه بأنه صلى الله عليه وسلم امتنع عن إتيان النساء. ثم بعد قليل نراه يكتب أنه عليه السلام كان يردد أنه سوف يشفى... إلخ. وأخرج من هذا بأن الشرقاوى لم يكن يؤمن بالسحر، لكنه يصم النبى جمجمةً بأنه كان يعتقد فى السحر.

وأما أنا فها هو هذا رأيى فى المسألة المطروحة: "هناك حديث يقول إن أحد اليهود قد سحر النبى عليه السلام وخَيَّلَ إليه بسحره أنه يأتى زوجاته بينما

فى الحقيقة لم يكن يأتيهن. وقد فندت هذا النص تفنيدا تاما وبينت أنه لا يمكن أن يكون. لكن المسلمين بما أصابهم من خبل فى القرون الأخيرة صاروا يؤمنون بتأثير السحر والعين إيمانا عجيبا. وملخص القصة طبقا لمن زيفوها ونسجوها من الأكاذيب والأباطيل هو أن رجلا من اليهود قد سحر النبى عليه الصلاة والسلام حتى لقد كان يتوهم أنه يأتى نساءه دون أن يأتيهن. وبادئ ذى بدء أسوق الحديث الخاص بذلك، وهو من رواية البخارى: "كان رسولُ اللهِ سُحِرَ حتى كان يَرَى أنه يأتى النساءَ ولا يأتيهِنَّ. قال سفيانُ: وهذا أشدُّ ما يكونُ من السِّحْرِ إذا كان كذا. فقال: يا عائشةُ، أَعَلِمْتِ أن اللهَ قد أفتانى فيما استفتَيْتُه فيه؟ أتانى رجلانِ: فقعَد أحدُهما عند رأسى، والآخَرُ عند رِجْلى، فقال الذى عند رأسى للآخَرِ: ما بالُ الرجلِ؟ قال: مَطْبوبٌ. قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بن أعْصَمَ (رجلٌ من بنى زُرَيْقٍ حَلِيفٌ ليَهُودَ كان منافقًا). قال: وفيمَ؟ قال: فى مُشْطٍ ومُشَاقَة. قال: وأينَ؟ قال: فى جُفِّ طلعةٍ ذكَرٍ تحت رَعُوفَة فى بئرِ ذَرْوانَ. قالتْ: فأَتى النبى البئرَ حتى استخرجه، فقال: هذه البئرُ التى أُرِيتُها، وكأن ماءَها نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وكأن نخلَها رُؤوسُ الشياطين. قال: فاستُخْرِجَ. قالتْ: فقلتُ: أفلا (أى تنَشَّرَتْ)؟ فقال: أمَا واللهِ فقد شفانى اللهُ، وأكرَهُ أن أُثِيرَ على أحدٍ من الناسِ شَرًّا".

وهناك، كما هو معروف، من ينكر وقوع السحر للنبى لأنه يناقض رد القرآن على متهميه بالسحر، إذ كانوا يقولون: "إنْ تتَّبعون إلا رجلا مسحورا". وأنا معهم فى إنكار السحر، وأرى أنه لا يليق بنبوته أن يكون أعداؤه قد تسلطوا عليه بالسحر حتى وصل إلى تلك الحالة التى تثير الشفقة والرثاء من جانب محبيه، والشماتة والابتهاج من جانب شانئيه، ويظهر فيها عاجزا لا يمكنه هو أو غيرَه أن يصنع إزاءها شيئا. بل إنه ليبدو وكأنه غير واع بالأمر أصلا.

وهذه معضلة أخرى أنكى وأشد. وفوق هذا ففى النص أشياء جديرة بالملاحظة: فمثلا تقول القصة إنه عليه السلام بعد أن سُحِرَ كان يرى أنه يأتى نساءه ولا يأتيهن. ولا أدرى كيف يكون ذلك. لو قيل إنه كان يريد إتيانهن لكنه لا يستطيع لكان الكلام مفهوما بغض النظر عن موافقتنا على صحته أو لا. أما القول بأنه كان يرى أنه يأتيهن لكنه لا يأتيهن فأمر لا يقبل التصور أساسا.

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل هناك روايات أخرى تقول إن شعر رسول الله قد تساقط، وكان يخيل له أنه يأتى الشىء ولا يأتيه، وإنه كان يذوب ذوبانا، واستمر ذلك مدة. ومعناه أن أحواله كلها قد اضطربت، والعياذ بالله، وكأن النبوة لعب عيال يستطيع اليهود الأدناس أن يؤثروا فى صاحبها كل هذا التأثير الشنيع، وهو الذى أدبهم الأدب الشرعى وأراهم حجمهم الصحيح وجعلهم يمشون على العجين فلا يلخبطونه أبدا، وطهَّر منهم ومن إجرامهم وتآمراتهم وفتنهم بلاد العرب.

ثم تمضى القصة، كما رأينا، قائلة إن مَلَكَيْن قد أتياه وهو نائم، فسأل أحدهما الآخر: ما بال الرجل؟ وكأن ملكين قد أرسلهما الله لمعالجة رسوله يمكن أن يجهلاه إلى هذا الحد فلا يعرفا أنه رسول الله بل مجرد رجل من ملايين نكرات الرجال. إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا تخيلنا أن الملكين كانا مُدْلِجَيْن ذات ليلة على غير هدى فصادفا رجلا مجهولا نائما تحت شجرة، فقالا ما قالا. كذلك نفهم من القصة أن أحدهما لم يكن يعرف ماذا أصاب الرسول، إذ يسأل زميله: ما بال الرجل؟ فلماذا إذن كان مجيئهما إليه صلى الله عليه وسلم؟

كذلك لم وضع الساحر سحره فى بئر ولم يضعه فى بيته مثلا حتى يطمئن إلى أن أحدا لن يمكنه الوصول إليه، فضلا عن أنه سوف يكون أسهل عليه من تكلف الذهاب إلى البئر المذكورة والنزول فى الماء والطين لإخفاء العمل السحرى الذى جهزه واحتمال رؤية أحد من الناس له وهو يفعل ذلك؟ ولماذا لم تشف السماء النبى مباشرة بدلا من هذا السبيل المعقد الذى قرأناه؟ وتقول القصة إن النبى، بعد استخراجه السحر، لم يشأ أن يثير على أحد من الناس شرا. وهى عبارة غامضة: فهل المقصود بالناس هنا هم المسلمون؟ لكن أى شر يمكن أن يصيبهم جراء ذلك؟ هل هو الخوف من الفتنة؟ لكن الفتنة وقعت وانتهى الأمر، إذ علم المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم مسحور وعاجز عن فعل أى شىء ينقذه من الحالة السيئة التى كان عليها. بل إن الروايات الأخرى فى البخارى ومسلم وابن حبان تقول إنه صلى الله عليه وسلم، حين قصد البئر ليستخرج منها السحر، قصدها فى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى أنهم لا بد أن يكون قد ثار فى أذهانهم السؤال التالى: كيف ينفى القرآن عن الرسول السحر، وهو ذا أمامنا مسحورا بلا أى جدال؟ أم هل المقصود بـ"أحد من الناس" هو الساحر؟ لكن ألم يأت فى الأحاديث أن الساحر يجب أن يُقْتَل؟ فلماذا لم يطبَّق هذا الحكم عليه؟ ثم من استخرج السحر من الماء؟ أهو الرسول؟ فهل يليق به صلى الله عليه وسلم، وهو النبى والحاكم والقائد والمشرع والقاضى، أن ينزل بئرا ليبحث فيها عن عمل من أعمال السحر؟ أم هو واحد من الصحابة؟ فمن هو يا ترى؟ ولماذا لم يقدم لنا تقريرا عما رأى وسمع؟ وهل اكتفى الساحر بسحره مرة واحدة فقط؟ وأين تفاصيل معاناة الرسول عليه السلام؟

وفى الرواية الموجودة فى "لباب النقول" للسيوطى يأمر الرسول صحابته بأن يذهبوا إلى البئر المذكورة فينزحوا ماءها حتى تظهر الصخرة التى وُضِع السحر تحتها فيستخرجوه ويحرقوه. وهو عمل مرهق يأخذ وقتا ويلفت الأنظار، ولا يتسق مع قول الرسول إنه لا يريد أن يثير بين الناس فتنة، إذ لا بد أن يعلم به القاصى والدانى. بل هل يمكن نزح بئر أصلا؟ وهذا نص رواية "لباب النقول: "مَرِض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضا شديدا، فأتاه ملكان: فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: ما ترى؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبّ؟ قال: سُحِر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودى. قال: أين هو؟ قال: فى بئر آل فلان تحت صخرة فى كرية. فأْتُوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية وأحرقوها. فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر فى نفر، فأَتَوُا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الكرية وأحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة. وأنزلت عليه هاتان السورتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة: قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس". ولنلاحظ أن أحد الرجلين اللذين أتيا النبى حسب الرواية، والمفروض أنهما ملكان، لا يعرف معنى "طُبّ" كما هو واضح. فهل يعقل هذا؟ ثم إن هذه الرواية تتحدث عن إحراق السحر، بينما فى رواية أخرى للبخارى غير الرواية السابقة لا إحراق للسحر ولا حتى استخراج له، علاوة على أن لبيد بن الأعصم فيها يهودى وليس من الموالسين معهم.

وفى رواية أخرى فى "فتح البارى" لابن حجر نقرأ ما يلى: "فقالت أختُ لبيدِ بن الأعصمِ: إن يكن نبيًّا فسيُخْبَرُ، وإلا فسيُذْهِلُهُ هذا السِّحْرُ حتَّى يُذْهِبَ عقلَه". وها هو ذا قد أخبر الله نبيه بالسحر وشفاه منه وأبطل كيد ابن

الأعصم، فماذا فعلت أخته؟ ولماذا لم يحاجّها المسلمون بشفاء رسول الله ويطالبوها هى وأخاها باعتناق الإسلام؟ لكننا ننظر فنجد أن الأمر قد أُكْفِئَ عليه ماجور وأُهْمِل تماما بعد ذلك، وكأنه لم يكن. بل إن لبيد بن الأعصم، فيما لاحظتُ، لا يأتى له ذكر فى غير هذا الحديث. أفلم يكن للرجل أى دور فى الحياة غير سحر النبى عليه السلام؟ لكأنه ممثل من ممثلى الكومبارس ممن يظهرون فى المسرحية أو الفلم فى لقطة خاطفة يقولون فيها جملة سريعة ثم يختفون تماما حتى نهاية القصة، وهم مع ذلك سعداء أن قُدِّر لهم الظهور فى عمل فنى جماهيرى مع الممثلين الكبار. كذلك من الصعب جدا أن نتصور نازحى البئر من الصحابة الكرام وقد سكتوا تماما بعد الحادثة فلم يتعرضوا هم ولا غيرهم من المسلمين للبيد بن الأعصم هذا ولو بتقريع.

إن أمرا كهذا لا يمكن أن يكون قد مر مرور الكرام على النحو الذى رأينا وكأننا قُبَالَةَ موضوعٍ نظرىٍّ مجردٍ باردٍ لا موضوع حياة يومية فيها معاناة وحيرة وألم ومؤامرات وصراعات؟ ألم يكن للصحابة رد فعل على ما يَرَوْنَه فى رسولهم الكريم؟ أين عمر مثلا فلم يهتم بتمحيص المسألة حتى يضع يده على الفاعل الشرير ويعاقبه العقاب اللازم؟ لقد رأينا فى حادثة الإفك وغيرها عالما موارا من الوقائع والمشاعر والاتهامات والردود والتقصى والتمحيص، أما هنا فكلمتان سريعتان أقرب إلى عالم التنظير والتجريد البارد لا تشفيان غليل الباحث. هل يعقل أن يحدث هذا لزعيم دولة وحاكمها وقائدها العسكرى وقاضيها وموجهها، وقبل ذلك كله رسولها، ثم لا نسمع شيئا عن موقف أهل المدينة تجاه هذا الأمر سواء من المسلمين المؤمنين، أو خصومه من اليهود والمنافقين والكافرين؟ وقبل ذلك كله كيف يرضى الله سبحانه وتعالى تعريض نبيه لهذا الاضطراب القبيح المُذْهِب للوعى فى أمر علاقته مع زوجاته وغيره

من الأمور على يد واحد من أعدائه؟ ثم إن الرواية تتحدث عن نسائه جميعا رضوان الله عليهن، فلماذا لم نر فى الصورة ونسمع غير عائشة؟ أين رد فعل حفصة؟ أين رد فعل زينب؟ أين رد فعل أم سلمة؟ أين رد فعل ميمونة؟ وأين رد فعل بقية أمهات المؤمنين؟ بل أين رد فعل صفية بالذات، وهى يهودية الأصل، وكان ينبغى أن يكون لها تعليق على ما صنعه الساحر المنتسب لدين قومها أو لحلفائهم؟ وللأسف قد انتشر فى بلاد المسلمين الإيمان بالأعمال السحرية، ويسمونها: "الأعمال السفلية". وهى تسمية كافية فى التنفير من السحرة وما يزعمون قدرتهم عليه من سحر، لكن كثيرا جدا منا نحن المسلمين فى العصر الحديث مغرمون بكل ما هو قبيحٌ ومُدَانٌ فى القرآن وفى الحديث الشريف. وهذا دليل تخلف وانحطاط. فالإسلام دين العقل والعلم والتفكير والمنطق، لكن المسلمين انتكسوا منذ وقت طويل، وانتكس معهم فهمهم للدين".

"الرسالة الهزلية" لابن زيدون – رؤية أخرى

أولا نص "الرسالة الهزلية": "أما بعد، أيها المصاب بعقله، المورَّط بجهله، البيِّن سَقَطُه، الفاحش غلطُه، العاثر فى ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب، فإن العُجْب أَكْذَب، ومعرفة المرء نفسه أَصْوَب، وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صَفِرَتْ منه أيدى أمثالك، متصديا من خلّتى ما قُرِعَتْ دونه أنوفُ أشكالك، مرسلا خليلتك مرتادة، مستعملا عشيقتك قَوّادة، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلىَّ، وتخلُف بعدها علىَّ.

ولســـتَ بـــأول ذى همـــةٍ دعتْـــه لمـــا لـــيس بالنائـــلِ

ولا شك أنها قَلَتْك إذ لم تضنَّ بك، ومَلَّتْكَ إذ لم تَغَرْ عليك، فإنها أَعْذَرَتْ فى السفارة لك، وما قصَّرت فى النيابة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستاثرت بالكمال، واستعليت فى مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال، حتى خلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضتَ منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلَتْ عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزْتَ، والنّطِفَ عثر على فضل ما ركَزْتَ، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارًا فى طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضحاك استدعى مسالمتك، وجَذِيمة الأبرش تمنى منادمتك، وشيرين قد نافست بُورَانَ فيك، وبلقيس غايَرَتِ الزَّبّاءَ عليك، وأن مالك بن نويرة إنما رَدِفَ لك، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك، وكُلَيْب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك، وجسّاسا إنما قتله بأنفتك، ومُهَلْهِلًا إنما طلب ثأره بهمتك،

والسَّمَوْءَل إنما وفى عن عهدك، والأحنف إنما احتبى فى بُرْدِك، وحاتما إنما جاد بوَفْرك، ولَقِىَ الأضياف ببِشْرك، وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسُّلَيْك بن السُّلَكَه إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنّة بيديك، وقيس بن زهير إنما استعان بدهائك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك، وسَحْبان إنما تكلم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سُحِر ببيانك، وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك، والحمالات بين عبس وذبيان أُسْنِدَتْ إلى كفالتك، وأن احتيال هرم بن سنان لعلقمة وعامر حتى رضيا كان عن إشارتك، وجوابه لعمر، وقد سأله عن أيهما كان ينفّر، وقع عن إرادتك، وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك، والمهلَّب أوهن شوكة الأزارقة بأَيْدِك، وفرَّق ذاتَ بينِهم بكيدك، وأن هرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما نقل عنك، وبطليموس سوَّى الأسطرلاب بتدبيرك، وصوَّر الكرة على تقديرك، وبقراط عَلِمَ العلل والأمراض بلطف حِسّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حَدْسك، وكلاهما قلدك فى العلاج، وسألك عن المزاج، واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك فى الداء والدواء، وأنك نهجت لأبى معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء، وأعطيت النَّظّام أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكندى رسما استخرج به الدقائق، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك، وأن عبدالحميد بن يحيى بارِى أقلامك، وسهل بن هارون مدوِّن كلامك، وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مستفتيك، وأنك الذى أقام البراهين، ووضع القوانين، وحَدَّ الماهية، وبيَّن الكيفية والكمية، وناظر فى الجوهر والعَرَض، ومَيَّز الصحة من المرض، وفك المُعَمَّى، وفصل بين الاسم والمسمَّى، وصرف وقَسَّم، وعدل وقوّم، وصنّف الأسماء والأفعال، وبوَّب الظرف والحال، وبنى

وأعرب، ونفى وتعجب، ووصل وقطع، وثنى وجمع، وأظهر وأضمر، واستفهم وأخبر، وأهمل وقيد، وأرسل وأسند، وبحث ونظر وتصفح الأديان، ورجّح بين مذهبي مانى وغيلان، وأشار بذبح الجعْد، وقتل بشار بن برد، وأنك لو شئتَ خرقت العادات، وخالفت المعهودات، فأَحَلْتَ البحار عذبة، وأعدت السِّلام رطبة، ونقلت غدًا فصار أمسا، وزدت فى العناصر فكانت خمسا، وأنك المقول فيه: "كلّ الصيد فى جوف الفرا" و:

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم فى واحدِ

والمعنىّ بقول أبى تمام:

فلو صَوَّرْتَ نفسك لم تزدْها على ما فيك من كرم الطباعِ

والمراد بقول أبى الطيب:

ذُكِرِ الأنامُ لنا فكان قصيدةً كنتَ البديعَ الفرد من أبياتها

فكدمت فى غير مكْدم، واستسمنت ذا وَرَم، ونفخت فى غير ضَرَم، ولم تجد لرمحٍ مهزًّا، ولا لشفرةٍ محزًّا، بل رضِيت من الغنيمة بالإياب، وتمنت الرجوع بخفى حنين لأنى قلت:

لقد هان من بالتْ عليه الثعالبُ

وأنشدت:

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

ونخرت وكفرت، وعبست وبسرت، وأبدأت وأعادت، وأبرقت وأرعدت، و:

هممت ولم أفعل، وكدتُ وليتنى

ولولا أن للجوار ذمة، وللضيافة حرمة، لكان الجواب فى قَذَال الدُّمُستقِ. والنعل حاضرة إن عادت العقرب، والعقوبة ممكنة إن أصر المذنب. وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك، ملؤها حبيبها، حسنٌ فيها من تودّ، وكانت إنما حلّتك بحُلاك، ووسمتك بسيماك، ولم تُعِرْكَ شهادة، ولا تكلفت لك زيادة، بل صدقت سن بكرها فيما ذكرته عنكَ، ووضعتِ الهِناءَ مواضع النقبِ بما نَسَبَتْهُ إليك، ولم تكن كاذبةً فيما أثنت به عليك، فالمُعَيْدِىّ تسمع به خير من أن تراه.

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعلاوة، مُفْرِط الحمق والغباوة، جافى الطبع، سيئ الإجابة والسمع، بغيض الهيئة، سخيف الذهاب والجِيْئَة، ظاهر الوسواس، منتن الانفاس، كثير المعايب، مشهور المثالب، كلامُكَ تمتمة، وحديثُك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيُك هرولة، وغناك مسألة، ودِينُك زندقة، وعلمُك مخرقة.

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغــوانى لمـــا أُمْهِــرْنَ إلا بالطــلاقِ

حتى إن باقِلًا موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهبنّقة مستحقٌّ لاسم العقل إذا أضيف إليك، وطُوَيْسًا مأثورٌ عنه يُمْنُ الطائر إذا قيس عليك، فوجودك عدم، والاغتباط بك ندم، والخيبة منك ظَفَرٌ، والجنة معك سَقَر.

كيف رأيتَ لؤمك لكرمى كِفاء، وَضَعَتَكَ لشرفى وفاء؟ وأَنَّى جهلتَ أن الاشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على أَلَّافها؟ وهلا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان، وتمثلتَ:

أيهـــا المـــنكح الثريـــا ســـهيلا عمـــرك الله كيـــف يلتقيـــان؟

وذكرتَ أنى عِلْقٌ لا يباع لمن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه إلا من أجاد؟ ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة، وترشحت للترفئة. ولولا أن جَرْح العجماء جُبَار، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يسار، فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تعرَّض إلا لأيسر ما تعرضت له. أين ادعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير والأخبار؟ أمَا ثاب إليك قول الشاعر:

بنو دارمٍ أكفاؤهم آل مِسْمَعٍ وتَعْقِدُ فى أكفائها الحَبطاتُ؟

وهلا عَشّيْتَ ولم تغترّ؟ وما أمنك أنك تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة المتلمس، أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة بالجهنى حين أتاه خاطبا، فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل؟ ومتى كثر تلاقينا واتصل ترائينا فيدعونى إليك ما دعا ابنة الخُسّ إلى عبدها من طول السواد وقرب الوساد؟ وهل فقدت الأراقم فأنكح فى جنب؟ وهل عَضَلَنى همام بن مرة فأقول: زوج من عود خير من قعود! ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هذه الحِطّة، ولا رضيتُ بهذه الخطَّة. فالنار ولا العار، والمنيَّة ولا الدَّنِيّة، والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها.

فكيف، وفى أبناء قومى مَنْكَحٌ وفتيان هزّان الطوال الغرانقة؟

وما كنتُ لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطى الثور بعد الجواد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء، ويرعى الهشيمَ من عدِمَ الجميم، ويركب الصعب من لا ذَلُول له. ولعلك إنما غرك من علمتَ صبوتى إليه، وشَهِدْتَ مساعفتى له، من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين همُ الكواكب عُلُوّ هممٍ، والرياضُ طيب مشّم.

من تَلْقَ منهم تَقُلْ: لاقيتُ سيِّدَهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

لَحَنَّ قِدْحٌ ليس منها. ما أنت وَهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالوشيظة فى العظم بينهم؟ وإن كنت إنما بلغتَ قعر تابوتك، وتجافيت عن بعض قُوتك، وعطرت أردانك، وجررت همیانك، واختلْت فى مشيتك، وحذفتَ فضول لحيتك، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك، ورفعتَ خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننتَ عجزا، وأخطات استك الحفرة. والله لو كساك مُحَرِّقُ البُرْدَيْن، وحَلَّتْكَ ماريةُ بالقرطين، وقلدك عمرُو الصمصامة، وحملك الحارث على النعامة، ما شككتُ فيك، ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك.

وهبك ساميتهم فى ذروة المجد والحسب، وجاريتهم فى غاية الظرف والأدب، أليس تأوى إلى بيتٍ قَعِيدتُه لَكَاع، إذ كلهم عزب خالى الذراع؟ وأين من أنفرد به ممن لا غلب إلا على الأقل الأخسّ منه؟ وكم بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إلىَّ واللذة الموقوفة علىّ وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره، وذهب نشاطه ولم يبق إلا ضراطه؟ وهل يجتمع لى فيك إلا الحَشَف وسوء الكِيلَة، ويقترن علىَّ بك إلا الغدة والموت فى بيت سلولية؟

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرٍو أذلَّ الحرص أعناق الرجال

ما كان أخلفك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَرْبَع على ظَلْعك، ولا تكن بَرَاقِشَ الدالةَ على أهلها، وعنز السوء المستثيرة لحتفها، فما أراك إلا سَقَط العَشَاء بك على سِرْحان. وبِكَ لا بظبيٍ أَعْفَر. أعذرتُ إن أغنيتُ شَيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا.

إن العصا قُرِعَتْ لذى الحِلْمِ والشىءُ تَحْقِرُه، وقد يَنْمِى

وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة، كنتَ قد اشتريت العافية لك بالعافية منك. وإن قلت: "جعجعة بلا طِحْن"، و "رُبَّ صلفٍ تحت الراعدة"، وأنشدت:

لا يُؤْيِسَنَّـك مـن مخـدَّرةٍ   قـولٌ تُغَلِّظـه وإنْ جَرَحَـا

فعدتَ لما نُهِيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه، بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء دفعا، ويستحثك نحوها وَكْزًا وصفعا. فإذا صرت إليها عبث أكّاروها بك، وتسلَّط نواطيرها عليك، فمن قَرْعَةٍ معوجَّةٍ تُقَوَّم فى قفاك، ومن جُفْلَةٍ منتنةٍ يرمى بها تحت خصاك، ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك

فمـن جهلـتْ نفسُـه قـدرَه   رأى غيـرُه منه ما لا يـرَى"

والآن وبعد أن اطلعنا على "الرسالة الزيدونية" نبدأ البحث: وأول كل شىء أود أن أقف لدن تسمية رسالتنا هذه بـ"الهزلية" ومدى ما فى هذه التسمية من دقة. وفى المعاجم: هزَل الشَّخصُ فى الأمر: مزَح، هَذَى، وعكسه جَدَّ. وهزل فى كلامه: مزح وتكلم بكلام غير معقول ولم يكن جادا. ويعرّف د. شوقى ضيف الهزل، فى كتابه: "الفكاهة فى مصر"، قائلا: "إذا بالغ الشخص فى مغالطاته ولم يعتمد على (شخص) ثانٍ يُجْرِى عليه هذه المغالطات، بل استغرق هو نفسه فيها حتى خرج إلى لامنطقية خالصة، كان ذلك هو الهزل بعينه، إذ نرى شخصا يتكلم وكأنما ألغى عقله إلغاء، فيسوق بدهيات فى شكل معلومات خطيرة مثلا أو يخلط فى كلامه تخليط النائمين أو الغافلين". والذين كانوا يستمعون مثلى قبل عقود من السنين إلى "أبو لمعة الأصلى"، وهو يحكى للخواجة بيجو قصصا لا تدخل العقل أبدا بل لا يمكن تصورها أصلا، مصطنعا نبرة جادة كل الجد، وغير عابئ برد فعل الخواجة بيجو، الذى يصيح

مستنكرا ويشد شعره مما يسمع، بينما أبو لمعة ماض فى حكايته العجيبة التى لا يمكن أن تدور إلا فى ذهن سكران مثلا لا يدرى ماذا يقول، أقول لمن كانوا يستمعون مثلى لأبى لمعة الأصلى إن هذا مثال للهزل أو لنوع منه.

ومن الهزل أيضا ما تركه لنا ابن سودون من شعر ونثر كقوله شعرا:

عَجَبٌ عجبٌ، هذا عجبُ ... بَقَرَه حَمْراَ، ولها ذَنَبُ

ولها فى بزبزها لبنٌ ... يبدو للناس إذا حلبوا

لا تغضبُ يومًا إن شُتِمَتْ ... والناس إذا شُتِموا غضِبوا

لا بدّ لهذا من سبب ... حَزْرِى بَزْرِى: ماذا السببُ؟

من أعجب ما فى مصر يُرَى ... الكَرْمُ يُرَى فيه العنبُ

والنخل يُرَى فيه بلحٌ ... قالوا: ويُرَى فيه رُطَبُ

زهر الكتان مع البلسان ... هما لونان ولا كذبُ

البيض إذا جاءوا أكلوا ... والسمر إذا عطشوا شربوا

الناقة لا منقار لها ... والوزة ليس لها قتبُ

ومن نثره الهازل قوله: "كنت وأنا صغير بليدًا لا أصيب فى مقال، ولا أفهم ما يقال. فلما نزل بى المشيب زوجتْنى أمى بامرأة كانت أبعد منى ذهنًا، إلا أنها أكبر منى سنّا. وما مضت مدة طويلة حتى ولدتْ والتمستْ منى طعامًا حارًّا. فتناولتُ الصحفة مكشوفة. ورجعت إلى المنزل آخذ المكبَّة، والمكبة هى غطاء الصحفة، فنسيت الصحفة. فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك فرجعت وأخذت الصحفة، ونسيت المكبة. وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى. ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس، فقلت: لا أشترى لها فى هذه الليلة شيئًا وأدعها تموت جوعًا. ثم رجعت إليها وهى تئن، وإذا ولدها

يستغيث جوعًا. فتفكرت كيف أربيه، وتحيرت فى ذلك. ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب، ثم يأتى ويقذفه فى فم ابنه، وتكون حياته بذلك. فقلت: لا والله لا أكون أعجز من الحَمَام، ولا أدع ولدى يذوق كأس الحِمَام. ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز فجعلته فى فمى، ونفخته فى فمه فرادى وأزواجًا، أفواجًا أفواجًا، حتى امتلأ جوفه وصار فمه لا يسع شيئًا، وصار الجوز واللوز يتناثران من أشداقه حتى امتلأ، فسررت بذلك وقلت: لعله قد استراح. ثم نظرت إليه، وإذا به هو قد مات. فحسدته على ذلك وقلت: يا بنى، إنه قد انحط سعد أمك، وسعدك قد ارتفع، لأنها ماتت جوعًا، وأنت مُتَّ من الشبع! وتركتهما ميتين ومضيت آتيهما بالكفن والحَنُوط. ولما رجعتُ لم أعرف طريق المنزل. وها أنا فى طلبه إلى يومنا هذا".

والآن إذا ما نظرنا إلى "الرسالة الهزلية" لابن زيدون لا نجد فيها شيئا من الهزل، بل كلها سخرية وتهكم دفعته إليهما غيرته من محاولة ابن عبدوس الفوز بقلب حبيبته ولادة، فصوره بالصورة التى عرضتها الرسالة المذكورة والتى تَغَيَّا من ورائها عاشقُنا الغيورُ تحقيرَ غريمه وتحطيمَه فلا تقوم له قائمة بعدها. وهذا بغض النظر هل نجح فى ذلك كما ينبغى أو لا، فذلك موضوع آخر سوف نأتى له فى حينه. ومن هنا قد تكون تسميتها بـ"الرسالة التهكمية" أقرب إلى الواقع والصواب. فالرسالة تهكم وسخر لا هزل ولعب فارغ، ولا يجعل المؤلف نفسه فيها هدفا للضحك بل خصمه.

وثانى ملاحظة على الرسالة أنها تبدأ على الفور بعبارة "أما بعد" مع أنه لم يسبقها كلام كان قبلها حتى يقال: "أما بعد"، إذ ليس بعدٌ إلا وقد سبقه قبلٌ. بل إن "أمّا" أو "أما... وأما..." لا تأتى فى أول النص، إذ لا بد أن يكون هناك كلام سابق ظاهر أو مقدر يعرفه الجانبان: المتكلم والسامع، أو

الكاتب والقارئ. أما أن يبدأ الكلام مباشرة بـ"أما/ أما... وأما..." دون أن يكون هناك شيء يشار إليه بهاتين الكلمتين فهو شيء يلفت النظر.

وقد قرأت مثلا أن الحلاج بعث برسالة إلى أحد تلامذته تبتدئ مباشرة بـ"أما بعد"، كما أن عطاء بن السائب بعث برسالة إلى عمر ينبئه فيها أنه عثر على كنز من كنور كسرى فى أحد معابد بلاد الفرس ويريد أن يرسله إليه، فألفيت الرسالة المذكورة تبتدئ مباشرة بـ"أما بعد" حسب الرواية التى أوردها الطرطوشى مؤلف "سراج الملوك". وإذا صح أن "الرسالة الهزلية" قد وصلتنا كاملة دون حذف المقدمة التى تحدد المرسل والمرسل إليه على الأقل كقولهم: "من فلان إلى فلان" مثلا، فلربما كان ابتداؤها بـ"أما بعد" إيماء إلى أن ولادة لا تستطيع الصبر على أن تكيل لابن عبدوس كلامها الساخر القارص، فهى تدخل فى موضوعها مباشرة دون تمهيد مثلما نرى أحيانا فى مباريات المصارعة الحرة، إذ يكون أحد طرفى المصارعة قد صعد إلى الحلبة ودخل فى حوار مع الحكم مثلا أو الجمهور منتظرا خصمه، ثم يأتى الطرف الآخر فيصعد فى سرعة وخفة إلى الحلبة وينهال على خصمه دون انتظار إشارة الحكم، معتمدا على المباغتة كعامل يمكن أن يكفل له الغلبة. ونحن، حين نقول: ولادة، إنما نجرى على ظاهر الأمور، وإلا فالكل يعرف أنها ليست كاتبة الرسالة بل ابن زيدون. فالكلام إذن عن ولادة، والقصد إلى ابن زيدون.

وبالنسبة إلى أول من استعمل فى كلامه: "أما بعد" هناك من يقول إنه داود عليه السلام، ومن يقول إنه قُسّ بن ساعدة. كتب ابن نباتة فى "سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون": "أما: حرف يقتضى مضىّ أحد الشيئين، ويُبْتَدَأ به الكلام، وبعد: ههنا تستعمل فى الترتيب الصناعى. وتقدير "أما بعد: مهما يكن بعد"، وهى كلمة يبتدئ بها كثير من الخطباء والكتّاب كلامهم فى

خطبهم المحبَّرة، ورسائلهم المحرَّرة كأنهم يستعدون بها الإصغاء لما يقولون، ولذلك نخر بها سَحْبَان فقال:

وقد علمتْ قيس بن عَيْلانَ أننى   إذا قلتُ: "أما بعد" أنى خطيبها

وكثيرًا ما تأتى عَقِيبَ قول "الحمد لله"، وتسمى هنالك: فصل الخطاب لأنها فصلت بين الكلام الأول والتالى، وتأتى عقيب البسملة، وتأتى ابتداء كأنها عقيب الفكر والروية. وأول من قالها داود عليه السلام، وقيل إنها فصل الخطاب المذكور فى الكتاب العزيز. وقيل: أول من قالها قُسّ بن ساعدة. والأول أصح، وإنما قس أول من خطب بها فى العرب، وكتبها أول الكتب على ما ذكر".

هذا ما قاله ابن نباته فى "سرح العيون": فأما داود فمزاميره بين أيدينا حسبما أوردها العهد القديم من الكتاب المقدس، وليس فيها على الإطلاق تلك العبارة، وليس معنا الآن من كلامه أو الكلام المنسوب إليه شىء آخر غير المزامير. بل إن العهد القديم كله يخلو من "أما بعد" التى نحن بصددها، وليس فيه سوى "وأما بعد موت الكاهن فيحل كذا وكذا"، وهى شىء مختلف تماما عما نحن فيه. وحتى هذه العبارة الأخيرة لم ترد فى الكتاب المقدس سوى هذه المرة، فكانت بيضة الديك. ولنفترض أن داود هو أول من قالها فبأية لغة يا ترى؟ ليست اللغة العربية بطبيعة الحال. فكيف انتقلت إلى العرب؟ بالترجمة؟ فأين ذلك؟

كذلك رأينا التوضيح الذى يقول إن "أما بعد" هى المقصودة من قوله تعالى فى سورة "ص" عن عبده ونبيه داود: "وآتيناه الحكمة وفَصْل الخطاب". ف"فصل الخطاب"، حسب هذا التوضيح هو عبارة "أما بعد". لكن هل يمتن

الله سبحانه على عبد من عباده بأنه علمه أن يقول فى كلامه وخطبه: "أما بعد"، ويُنْزِل فى ذلك قرآنا؟ الواقع أن "فصل الخطاب" أقرب إلى أن يكون هو براعة القاضى أو الحاكم فى الفصل بما يزيل الخلاف بين المتخاصمين أو المتقاضيين اللذين لجآ إليه لتسوية خلافهما ويضع حدا له. أى أن "فصل الخطاب" هو الرأى أو الحكم الذى يحسم المسألة ولا يعود بعده مقال لقائل.

وأما إن أصر أصحاب الرأى الأول على قولهم إن "فصل الخطاب" فى الآية الكريمة هو عبارة "أما بعد"، وإن الله إنما امتن على عبده داود بها، فماذا يا ترى ينبغى إذن أن نقول فى حق التلوينات البديعة التى أدخله زكى مبارك على عبارة "أما بعد" كقوله مثلا: "ثم أما بعد....، أما بعد وقد تعبنا من أما بعد....، أما بعد وقد أشقتنى أما بعد....، أما بعد وقد أشقتنى وستشقينى أما بعد....، أما بعد فماذا أريد أن أقول؟، أما بعد فأين أنا مما كنتُ أريد؟"؟ كما أنه كان يورد هذه العبارة عادة فى نهاية ما يكتب لا فى أوائله. يمينا ليكونن هذا من زكى مبارك شيئا ليس له مثيل ولا يستطيعه سواه، ويحق له أن نفاخر به بين الكتّاب والخطباء والأدباء والشعراء.

ولقد أذكر أننى سمعت فى شبابى بعض خطباء المساجد الهواة يقولون فى أول خطبة الجمعة بعد التحميد والصلاة على النبى وما إليه: "أما قبل". وربما كان ذلك على سبيل الإدهاش والاتجاه مُتَّجَهًا غير متوقَّع ومخالفًا للاتجاه السائد حتى يروجوا عند الجماهير ويقال عنهم إنهم مبتكرون، أو ربما كان المقصود أنهم قبل أن يدخلوا فى موضوع الخطبة يودون أن يشيروا إلى كذا وكذا.

وهنا أجدنى حزينا لابن زيدون، فقد صاغ هذه الرسالة على لسان ولادة، وولادة لم تكن زوجته بل حبيبته، فكان ينبغى أن يكون حذرا فيضع

فى اعتباره أنهما يمكن أن يتجافيا وينفصلا كما يحدث فى عالم الغرام، وهو ما حدث، بل لقد ركنت الحبيبة إلى الخصم اللدود، وأظهرت ضعف الأساس الذى استند إليه الوزير العاشق، فها هى ذى تتركه وتذهب إلى عدوه اللدود وتلوذ به، فيرى الناس أن ابن زيدون كان واهما مخدوعا فيها وأنه استنام إلى الدهر، والدهر قلّب، فلم يعمل حسابا لهذا التقلب، وصارت تهب عليه الريح من كل اتجاه. لقد كوم ابن زيدون على رأس ابن عبدوس كل عيوب البشر فى رسالته، التى يفترض أنها من إنشاء ولادة، وها هى ذى ولادة تنقلب عليه وتفضل ابن عبدوس، فيكون هذا الانقلاب مؤلما أشد الألم لابن زيدون.

ويا ليت الأمر توقف هنا، فقد ترك ابن زيدون لنفسه العِنَان وانطلق دون حسيب أو رقيب فلم يكتف بالاطمئنان إلى الدهر وقَلّب حبيبته، بل وضع على لسان ولادة فى رسالتها المزعومة كلاما طويلا وغاليا فى مدحه، فلما تقلبت الأحوال وهجرته ولادة وانحازت إلى ابن عبدوس كانت الرسالة سببا فى تعجب العارفين بالأمر منه ومن مبالغته الشديدة فى التمدح بنفسه وتحقير ابن عبدوس، إذ ها هى ذى الحبيبة الموثوقة قد خيبت ظنه وانتقلت إلى الناحية الأخرى، فصار الشاعر الكبير يتخبط كالدجاجة المذبوحة، وهى ولا هى هنا. يا لقسوة الزمان!

تقول الرسالة على لسان الحبيبة: "كيف رأيتَ لؤمك لكرمى كِفاء، وَضَعَتَكَ لشرفى وفاء؟ وأَنَّى جهلتَ أن الاشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على أَلَّافها؟ وهلا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان، وتمثلتَ:

أيهـــا المنكح الثريـا سهيلا   عمـــرك الله كيف يلتقيـان؟

وذكرتَ أنى عِلْقٌ لا يباع لمن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه إلا من أجاد؟ ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة، وترشحت للترفئة. ولولا أن جَرْح العجماء جُبَار، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يسار، فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تعرَّض إلا لأيسر ما تعرضت له. أين ادعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير والأخبار؟ أمَا ثاب إليك قول الشاعر:

بنو دارمٍ أكفاؤهم آل مِسْمَعٍ   وتَعْقِدُ فى أكفائها الحِبطاتُ؟

وهلا عَشَّيْتَ ولم تغترّ؟ وما أمنك أنك تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة المتلمس أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة بالجهنى حين أتاه خاطبا، فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل؟ ومتى كثر تلاقينا واتصل ترائينا فيدعونى إليك ما دعا ابنة الخُسّ إلى عبدها من طول السواد وقرب الوساد؟ وهل فقدت الأراقم فأنكح فى جنب؟ وهل عَضَلَنى همام بن مرة فأقول: زوج من عود خير من قعود! ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هذه الخِطّة، ولا رضيتُ بهذه الخطَّة. فالنار ولا العار، والمنيَّة ولا الدَّنِيّة، والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها.

فكيف، وفى أبناء قومى مَنْكَحٌ   وفتيان هزّان الطوال الغرانقة؟

وما كنتُ لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطى الثور بعد الجواد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء، ويرعى الهشيمَ من عدِمَ الجميم، ويركب الصعب من لا ذَلُول له. ولعلك إنما غرك من علمتَ صبوتى إليه، وشَهِدْتَ مساعفتى له، من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين همُ الكواكب عُلُوّ هممٍ، والرياضُ طيب مشمّ.

من تَلْقَ منهم تَقُلْ: لاقيتُ سيِّدَهم   مثل النجوم التى يسرى بها السارى

لَحَنَّ قِدْحٌ ليس منها. ما أنت وَهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالوشيظة فى العظم بينهم؟ وإن كنت إنما بلغتَ قعر تابوتك، وتجافيت عن بعض قُوتك، وعطرت أردانك، وجررت همیانك، واختلْت فى مشيتك، وحذفتَ فضول لحيتك، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك، ورفعتَ خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننتَ عجزًا، وأخطأت اسْتُك الحفرةَ. والله لو كساك مُحَرِّقُ البُرْدَيْن، وحَلَّتْكَ ماريةُ بالقرطين، وقلدك عمْرُو الصمصامة، وحملك الحارث على النعامة، ما شككتُ فيك، ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك.

وهبك ساميتهم فى ذروة المجد والحسب، وجاريتهم فى غاية الظرف والأدب، أليس تأوى إلى بيتٍ قَعِيدتُه لَكَاع، إذ كلهم عزب خالى الذراع؟ وأين من أنفرد به ممن لا غلب إلا على الأقل الأخسّ منه؟ وكم بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إلىَّ واللذة الموقوفة علىّ وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره، وذهب نشاطه ولم يبق إلا ضراطه؟ وهل يجتمع لى فيك إلا الحَشَف وسوء الكِيلَة، ويقترن علىَّ بك إلا الغدة والموت فى بيت سلولية؟

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرٍو أذلَّ الحرص أعناق الرجال

ما كان أخلفك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَرْبَع على ظَلْعك، ولا تكن بَرَاقِشَ الدالةَ على أهلها، وعنز السوء المستثيرة لحتفها، فما أراك إلا سَقَط العَشَاء بك على سِرْحان. وبِكَ لا بظبيٍ أَعْفَر. أعذرتُ إن أغنيتُ شَيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا.

إن العصا قُرِعَتْ لذى الحِلْمِ والشىءُ تحقره، وقد يَنْمِى

وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة، كنتَ قد اشتريت العافية لك بالعافية منك. وإن قلت: "جعجعة بلا طِحْن"، و"رُبَّ صلفٍ تحت الراعدة"، وأنشدت:

لا يُؤْيِسَنَّـــك مـــن مخـــدَّرةٍ قـــولٌ تُغَلِّظـــه وإنْ جَرَحَـــا

فعدتَ لما نُهيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه، بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء دفعا، ويستحثك نحوها وَكْزًا وصفعا. فإذا صرت إليها عبث أكّاروها بك، وتسلَّط نواطيرها عليك، فمن قَرْعَةٍ معوجَّةٍ تُقَوَّم فى قفاك، ومن فُجْلَةٍ منتنةٍ يرمى بها تحت خصاك، ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك.

فمــن جهلــتْ نفســه قــدرَه رأى غيــرُه منه ما لا يَــرى"

ومن الواضح أن ابن زيدون حين ضخّم من شأن نفسه، وحقَّر من قدر خصمه لم يتنبه إلى أن تصاريف الحياة والقلوب ليست فى يديه، وأنه من ثم لا يضمن ثبات قلب ولادة ومشاعرها نحوه، ولا أدرى كيف كان ذلك منه، وهو الذى جرب عض ضروس الدهر وتقلب الأيام ولم تستقم له أموره كما يحب بل عانى وتألم واستعطف وتظلم؟ ثم كيف لم يتنبه إلى شخصية حبيبته وأنها يمكن أن تبتعد عنه لسبب أو لآخر؟ لقد تكلم عن شم أقحوان الثغور وقطف رمان الصدور على مشارف قرطبة حين كان الظلام والسُّجُوّ والانفراد يرخى عليهما سُدُوله، لكن ما كان ينبغى أن ينسيه ذلك كله طبيعة الزمن والحياة. كما أن ولادة فيما بلغنا من أخبارها لم تكن بالتى يُطْمَأَنّ إلى قلبها تمام الاطمئنان. إنى أقول هذا تألما لابن زيدون، إذ ما كنت أحب له أن ينتصر عليه ابن عبدوس ويختطف منه ولادة، بل كنت أتمنى لو تزوجها ونعما بالعيش معا.

لكن هل كان شاعرنا الهمام يمكنه نظم نونيته الفريدة التى أحسب أنه لا يوجد بسهولةٍ لها نظير فى أشعار العالم فنا أو خيالا أو أحاسيس أو ألما عبقريا حتى إننى، فى محاضرة لى فى ثمانينات القرن الماضى، وكانت كبرى أولادى لا تزال فى بدايات المرحلة الابتدائية صرحت بأنه لو تقدم لها عندما تكبر خاطبٌ قد نظم مثل تلك القصيدة لأعطيتها إياه دون أن أطالبه بأى شىء. إن مثل تلك القصيدة لا يمكن أن تستوى وتنضج إلا على نيران الألم والعذاب، لا على أطباق طعام الزواج والأطياب. وإلا فأين غزل ابن زيدون فى زوجته، بله أن يكون الغزل فى مثل روعة تلك القصيدة؟ لقد كانت ردا مخرسا لمن يعيب البديع العربى، إذ كل شىء فى محسناتها البلاغية هو فى نفاسة اللآلئ والدرر والألماس والياقوت على رأس وجيد وصدر فتاة تامة الحسن والجمال مدللة منعمة لا تبالى بشىء، تعشو العيون إليها لكن لا يقدر أحد ممن ينظرون نحوها على تمنيها حبيبة له لأنها إنما تحلق فى مدار سام بعيد عن مدارات البشر.

لقد نال ابن زيدون من ابن عبدوس فى الرسالة كل منال وافتخر بنفسه، وضاءل من حَسَب خصمه ونسبه وعقله ورسمه. لكن ذلك كله لم يغن عنه شيئا، وطارت منه العصفورة إلى ذلك الخصم. عجيب أمر ذلك الزمن.

والغريب أنها كانت تسخر قبل ذلك من ابن عبدوس ذاته حين كان يتطلع إلى أن تكون له كما مر بنا حين مرت به أمام بيته وأمامه بركة ماء المطر بما تجمع فيها من أقذار. ولا أظنهما بعدما صارت إليه وتخلت عن ابن زيدون إلا كانا ينالان منه ويسخران مما كتبه على لسانها فى تلك الرسالة. هكذا أتصور الأمر، فهذه طبيعةالأشياء. وهذا هو ما يؤلمنى. إننى أنتقد ابن زيدون لا نفورا منه بل حبا له ويقينا منى أنه كان الأجدر بهذه الفتاة الجميلة الأنيقة المدللة

المعتزة بنفسها، مع معرفتى أنه لو كان تزوجها ما ترك لنا تلك النونية العصماء وأشعاره الأُخَر العبقرية التى وصف فيها آلامه وحرمانه من هذه الجنة الفيحاء، ولكانت أرهقته بغيرتها ومطالبها التى لن تنتهى، أو لكان مع الأيام وكثرة الاحتكاكات اليومية قد خف تعلقه بها وتحول الحب المضطرم المزعزع عشرة هادئة لا نيران فيها ولا عواصف بل انشغال بتربية الأولاد.

كذلك كنت أود لو برز ابن زيدون بنفسه لابن عبدوس وخاطبه فى الرسالة وجها لوجه غير متخذ من ولادة دريئة، وبخاصة أن تلك الحيلة لا يمكن أن تكون قد جازت على ابن عبدوس أو من قرأوها، فليست ولادة بكاتبة رسائل ولا مؤلفة حكايات أو جدالات، وأكثر ما يمكن أن يصدر عنها تلك التعليقات الخفيفة الظل الساخرة كالتى جبهت بها ابن عبدوس أيام نفورها منه وقبل تحولها إليه، فضلا عن بعض الأبيات القليلة. ثم إن أسلوب الرسالة ومضمونها ليسا مما تهتم به النساء. وأنا هنا أيضا آخذ على ابن زيدون هذا لا ضيقا به بل حرصا على ألا يتهمه أحد بالعجز عن مواجهة الخصوم، وخصوصا أن ابن عبدوس ليس أديبا ولا شاعرا بل هو مجرد وزير، فليس لاستتار شاعرنا بولادة أى معنى ولا سبب مقبول.

ثم إن فى الرسالة ألفاظا لا تليق بصدورها عن ولادة الفتاة المترفة الجميلة الأنيقة بنت الخليفة مهما يكن رأى المؤرخين فى أبيها وحكمه ومهما قالت الروايات عن لامبالاتها بشىء فى كلامها وتصرفاتها، ومن ثم كان على ابن زيدون تحاشيها حتى لا يسىء إليها وهى الحبيبة الغالية: ففى الرسالة نراها تسمى المرأة التى أرسلها إليها ابن عبدوس بـ"القوادة". وهى كلمة كان ينبغى أن تتنزه الرسالة عنها، فالقوادة لا تقصد بقِوَادتها النساء الشريفات العفيفات بل اللاتى يسهل اصطيادهن أو يُتَوَقَّع أن يكون اصطيادهن ميسورا. وولادة ليست من

ذلك الصنف مهما كان من تحررها وسفورها وبروزها للرجال فى مجلسها الأدبى وقدرتها على مقارعة من تريد إفحامه. ومن ذلك ماجاء فى الرسالة من رمى الأكارين برؤوس الفجل فى خصيتى ابن عبدوس. وهذا كلام لا تقوله امرأة محترمة. ومع هذا نقرؤه فى الرسالة، التى من المفروض أن مؤلفتها هى ولادة. ونرى الرسالة أيضا، فى تصويرها خيبة أمل ابن عبدوس فى جذبها إليه من خلال إرسال امرأة تتوسط له عندها علها تستجيب له، قد استعملت عبارة "أخطأتِ استُك الحفرة". والإشارة فيها إلى عملية التبرز علاوة على كلمة "است". وتتكلم عن الضراط الذى لم يبق لمثله سواه. وهذا كله لا يليق بل يصدم الأذواق. فكيف عرّض ابن زيدون حبيبته لهذه الوساخات؟ بل لو أنه جاهر بكتابة الرسالة باسمه هو لما كان هذا منه مقبولا. لقد كان حريا به أن يرتفع بحبيبته عن مثل تلك السياقات. وولادة ليست راقصة مبتذلة أو امرأة من عُرْض الشارع، فكانت تحتاج إلى صيان وإكرام بإبعادها تماما عن هذا الميدان مهما كانت جريئة. وبالمثل لا أظن ولادة يمكن أن يخطر لها الاستشهاد بالمثل القائل: "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها" لتيئيس المرأة التى بعثها ابن عبدوس لتتوسط له لديها، فهذا لا تقوله امرأة شريفة عن نفسها أبدا. إن كلمة الثديين كفيلة بتنفير أية امرأة تعتز بذاتها من نسبتها لنفسها. فما بالنا باستعمالها فى سياق السعى لإحراز الطعام وإسكات عصافير البطن، وخصوصا إذا كانت المستشهدة هى ولادة ربيبة القصور التى لا تعرف جوعا ولا عطشا ولا تشردا فى الشوارع والطرقات بل تعيش عيشة الترف ويترامى عند قدمى فتنتها وبهائها كبار الرجال؟

ومما يؤخذ على الرسالة أيضا احتواؤها على علوم ومصطلحات وأمثال وشعر وفلسفة وأسماء علماء وأطباء وصيادلة وقادة وزعماء ورجال حرب وغير

ذلك مما لا يمكن أن تكون ولادة مهتمة به أو تعرفه بوضوح أصلا، كالهيولى والماهية والجوهر والعرض والإرسال والإسناد والاسم والمسمى والنَّطِف ودارا ومانى وغيلان والضحاك وأرسطو وأفلاطون وهرمس وبلينوس وبقراط وشيرين وعروة بن جعفر والأحنف وزيد بن مهلهل وعامر بن مالك وقيس بن زهير وبنى دارم وآل مسمع وعقيل بن علفة وهمام بن مرة وابنة الخس ومحرِّق ومارية والدمستق ودارا...

فهل يمكنك أن تتخيل ولادة وقد حبست نفسها فى غرفتها لا أدرى كم من الزمن وحبرت هذه الرسالة الطويلة وطافت بعدد من ثقافات العالم واستدعت منها رموزها وإنجازاتهم ومكانتهم بين قومهم واقتبست الأمثال والأشعار والعبارات الشائعة لتشتم من خلال ذلك ابن عبدوس؟ لقد تحدث عمر الدسوقى، فى مقدمة ديوان ابن زيدون ورسائله، عن الجهد الهائل المرهق الذى آد ظهر على عبد العظيم محقق ذلك الديوان وتلك الرسائل فى رد التضمينات التى استعان بها فى نصوصه إلى مصادرها حديث المتعجب من صبر المحقق الفريد على الرجوع إلى مئات الكتب وتفتيشها حتى يعرف من أين أتى ابن زيدون بهذه الاقتباسات. كذلك لا يصح أن ننسى أن ابن نباتة شارح الرسالة التى بين أيدينا قد شرحها فى صفحات تجاوزت الأربعمائة بكثير. فضع فى ذهنك أيها القارئ هذا وأنت ترى إلحاحى على أن كتابة مثل رسالتنا لا يمكن أن يقتنع أحد بأن صاحبتها ولادة بنت المستكفى! كما أن الأسلوب واحد فى كل رسائل ابن زيدون بما فى ذلك "الرسالة التهكمية" التى نحن بصددها هنا.

كذلك يفد على خاطرى السؤال التالى: هل قضت ولادة مع المرأة الوسيطة كل ذلك الوقت، وكلما ذكرت شخصا ورفعت فوقه ابن عبدوس

انبرت ولادة لترد عليها ما تقول بالحجة والمنطق والتهكم؟ يا ألله! كم كانت ولادة صبورة! ولكن الشخص الكاره لشخص آخر، وبخاصة كراهية ولادة لابن عبدوس فى ذلك الوقت، لا يسعه سماع كلام "القوادة" المسبب للصداع والمثير للغثيان ولو للحظة، بل يحسم الأمر منذ بدايته فيقرر أنه لا يطيق أن يسمع عن هذا الموضوع أو ذلك الشخص شيئا على الإطلاق، وبذلك ينتهى الأمر قبل أن يبدأ. وبنفس المنوال هل يعقل أن المرأة الوسيطة قد مدحت ابن عبدوس بكل تلك الشمائل العظيمة فى ميادين الزعامة والوسامة والفصاحة والحكمة والفلسفة والطب والصيدلة والغناء والحرب والفتيا والأدب واللغة والحديث ومقارنة الأديان والمذاهب... إلخ؟ لو اجتزأت بالإشارة إلى غناه وماله ومنصبه وحبه لكان فيه الكفاية، أما هذا كله فأين ذلك الإنسان الذى يجمعه فى نفسه كتلة واحدة؟ إن الرسالة تبدو وكأنها تكديس لكل الصفات المرذولة على شخصية ابن عبدوس تكديسا غير فنى، ولا أظن ابن عبدوس كان يتطلع إلى أن يكون جالينوس أو جابر بن حيان أو أفلاطون أو أرسطو أو السليك بن السلكة أو ملاعب الأسنة، دَعْكَ من أنه كان يفكر فى ذلك أصلا... إلخ.

وثم ملاحظة أخرى هنا هى أن بعض الشمائل التى أسندتْها ولادة (مجازا طبعا، فالكاتب هو ابن زيدون كما نعرف كلنا) إلى ابن عبدوس على سبيل السَّخَر والشماتة تتعارض مع بعضها الآخر. لقد قالت فى الرسالة: "وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك، وجساسا إنما قتله بأنفتك، ومهلهلا إنما طلب ثأره بهمتك" مع أن جساسا قتل كليبا، ومهلهلا قتل جساسا بسبب كليب، وفى هذا تناقض أبلق شديد البَلَق. ومن هذا التناقض أيضا استحضار اسم السليك بن السلكة، وهو قاطع طريق وسارق نوق، مع أبقراط والنظام

وأرسطو، والسخرية من ابن عبدوس بالقول بأنهم جميعا أخذوا ما يتميزون به فى مجال حياتهم منه. فكيف يكون ذلك؟

ثم متى كانت النساء فى ذلك الوقت يكتبن رسائل أدبية، بَلْهَ أن تكون بهذا الطول؟ إن مثل تلك الرسالة تحتاج إلى قلم كقلم عبد الحميد الكاتب لا إلى قلم فتاة مترفة مدللة فاتنة يتهافت عليها المشاهير. لقد سبق أن قلت إن ولادة ليس لها سوى بعض الأبيات الشعرية وبعض الردود الشفوية التهكمية. فمن أين أتت بتلك القدرة على تحبير مثل هذه الرسالة؟ لقد رأيناها وهى تتهكم على ابن عبدوس حين مرت به، وكان جالسا أمام داره وحوله الأتباع وقد انتفخ مزهوا بملابسه ومنصبه، فقالت له ساخرة وهى تشير إلى مياه المطر وما اختلطت به من طين وأقذار:

أنت الخصيب، وهذه مصر فتدفَّقا، فكلاكما بحرُ

فأفحمته بل أخرسته بهذه الكلمات التى لا تشغل أكثر من نصف سطر. وحين قلبت ظهر المجن لابن زيدون لم تقل له فى كل مرة قصدت هجوه سوى بيتين ضمنتهما كل الإهانة التى تريدها، مثل قولها تخاطبه:

ولُقِّبتَ: المسدَّس، وهو نعتٌ تُفارقك الحياةُ ولا يفارِقْ
فَلُوطِىٌّ ومأبونٌ وزانٍ ودَيُّوثٌ وقرنانٌ وسارِقْ

فإذا انتقلنا إلى أسلوب الرسالة ألفيناه أسلوب كاتب مضرس فى ميدان الكتابة ومعاناة الزينات البديعية من ترادفات وأسجاع وجناسات وتوازنات وتضمين أمثال وأشعار وحكم، وإن كانت هنا للأسف ميتة على العكس منها فى النونية حيث ارتفعت إلى أعلى سمت يمكن أن يصل إليه شعر عاطفى فى أى لسان. وليس لولادة صلة بأى شىء من تلك السمات الأسلوبية التى

روعيت فى الرسالة. ولا أظن أحدا ممن وصلتهم الرسالة فى حينها قد ظن، ولو للحظة واحدة، أنها من وضع ولادة. أى أن الستار الفنى الذى وقف خلفه ابن زيدون كان ستارا زجاجيا فى منتهى الشفافية، فلم يأت بالأثر المطلوب.

ومن الناحية الأدبية لا أجد للرسالة أثرا ممتعا فى نفسى، إذ تخلو من الصور والمناظر وتفتقر إلى الخيال وتقوم على تكديس الأمثال والأبيات الشعرية والعبارات الشائعة وميادين العلم وأسماء الرجال على اختلاف أوطانهم ومجالات عملهم بعضها بجوار بعض مع انتهاج الترادف على طول الرسالة وعرضها بدون داع وقيام المقارنات بين الأسماء الكبيرة وبين ابن عبدوس على وتيرة واحدة تتلخص فى أن كلا من أصحاب تلك الأسماء إنما أخذ تفوقه وعبقريته من ذلك الخصم اللدود. من هنا لست أشارك من أطرى هذه الرسالة ووضعها مكانا عليا لا أراها تستحقه بحال. أقول هذا أنا المفتون بشعر ابن زيدون وعلى وجه خاص بنونيته الفريدة البديعة عديمة النظير، والمتعاطف معه بقوة فى قصة عشقه لولادة ووقوفى بجانبه فى مواجهتها، تلك الفتاة التى طال بها العمر وطعنت فى السن ولم تتزوج قط رغم وقوع الكبار فى هوى حسنها والافتتان بسحره، والتى حيرتنا معها لا حيرها الله، فكل شىء فداء للجمال والدلال.

وبالمناسبة فرسالة ابن زيدون إنما تتكون من عدد ضئيل جدا من الجمل الطويلة التى يرجع سر طولها إلى اعتمادها العطف طول الوقت فى سلاسل متصلة ممتدة: عطف اسم على أسماء، أو عطف مصدر مؤول بالصريح فى الغالب على مصادر مثله. وبالمناسبة أيضا لا تعد الرسالة عملا عابرا للأجناس الأدبية كما ردد بعضهم مرة فى حضورى، إذ العمل العابر للأجناس إنما يقوم على أن كل ما يضمه من تلك الأجناس هو من تأليف صاحبه لا اقتباسات

اقتبسها من غيره. أما فى "الرسالة التهكمية" لابن زيدون فكل ما فيها من أمثال وأشعار وعبارات شائعة ذائعة هو لغيره أخذه وضَمَّنه رسالته. إنها رسالة هجائية تحتوى على أشياء لفتت نظر صاحبها من كلام غيره فاستعان بها. وهذا كل ما هنالك. ويا ليته استعان بها فى حيوية وتوثب بل استعان بتكديسها بعضها مع بعض. ولا ننس أن ابن زيدون كشاعر وأديب مفتقر إلى روح الفكاهة. فليس فيما كتبه من نثر أو شعر ما ينبئ أو حتى يشى بوجود هذه الروح لديه.

كتاب "تحرير المرأة" بين قاسم أمين ومحمد عبده

فى سنة١٨٩٩م أصدر قاسم أمين كتابه: "تحرير المرأة"، وفيه يدعو إلى تعليمها وإطلاقها من سجن البيت ومشاركتها فى الحياة العامة وإعطائها الفرص والحقوق المعطاة للرجل. وقد أثار الكتاب عند ظهوره على مؤلفه عاصفة من الانتقاد والتشنيع، فضلا عن أن أبواب قصر عابدين قد سُدَّتْ فى وجهه، فلم يعد يُسْمَح له بالدخول كما كان الحال قبلا (انظر العقاد/ سعد زغلول/ القاهرة/١٩٣٦م/ ٢١).

وقد رأى البعض أن محمد عبده هو الذى ألف هذا الكتاب لكنه فضَّل وضع اسم قاسم أمين على غلافه تجنبا للحرج وتفاديا للعاصفة التى كانت متوقعا هبوبها عليه لو عرف الناس أنه مؤلفه، وهو الشيخ الأزهرى ذو المناصب الدينية الكبرى، ومنها منصب الإفتاء (انظر "الأعمال الكاملة لقاسم أمين"/ تحقيق د. محمد عمارة/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٧٦م/ ١٣٣/١). كما قيل إن بعض فقرات هذا الكتاب تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده نفسه (د. إبراهيم عبده ودرية شفيق/ تطور النهضة النسائية فى مصر/ القاهرة/١٩٤٥م/ ٧٥).

وقد تلقف د. محمد عمارة هذا الكلام وقبض عليه بكل قوة، وراح يورد الأدلة التى يراها قاطعة فى أن محمد عبده هو مؤلف الفصول التى تعرض رأى الدين فى قضايا المرأة فى ذلك الكتاب، وهى فصول "الحجاب الشرعى" و"تعدد الزوجات" و"الطلاق" (انظر "الأعمال الكاملة لقاسم أمين"/١ /١٤٣).

أما الأدلة التى رآها د. عمارة حججا قاطعة على صدق هذا الادعاء فهى كالآتى:١- أن درية شفيق قد ذكرت "تقسيم العمل" فى كتاب "تحرير المرأة"

بين محمد عبده وقاسم أمين، وأن الأول قد تناول القضية من الناحية الدينية على حين تناولها الآخر من الناحية الاجتماعية (السابق/١٣٩/١). ٢- أن أفكار محمد عبده فى مقالاته فى "الوقائع المصرية" وفى حديثه مع محمد رشيد رضا سنة١٨٩٧م تتطابق مع ما فى كتاب قاسم أمين (السابق/١٤٠/١). ٣- ومن القرائن الدالة فى نظر د. عمارة موقف محمد عبده من كتاب "تحرير المرأة" عند صدوره، فقد أيده ودافع عنه بطريقة غير مباشرة من خلال تلميذه رشيد رضا، الذى تناول الكتاب فى "المنار" بالثناء فى الوقت الذى سكت هو فلم يعلق على الكتاب بنفسه (السابق/١٤١/١). ٤- كما يرى د. عمارة أن أسلوب قاسم أمين أسلوب أدبى فيه حلاوة وطلاوة بل وشاعرية فى بعض الأحيان مما لا نجده فى كتابات محمد عبده، التى تصدر عن العقل مباشرة. وبالمقارنة بين الفصول التى لا يشك فى نسبتها من "تحرير المرأة" إلى قاسم أمين والفصول التى يرى د. عمارة أنها لمحمد عبده نلاحظ على أسلوب الأولى طابع قاسم أمين، وعلى أسلوب الأخرى ميسم محمد عبده، علاوة على أن هذه الفصول الأخيرة تخلو من الاستشهاد بكتابات الغربيين على عكس تلك (السابق/١٤٣). ٥- أنه توجد فى الفصول التى تتناول قضايا المرأة من الوجهة الدينية آراء ومناقشات فقهية ليست فى طاقة قاسم أمين، مثل القول بأن الشىء الوحيد الذى ميز فيه الشارع الرجال على النساء هو تعدد الزوجات. ففى رأى د. عمارة أن هذا الكلام يدل على استقصاء للموضوع لا يقدر عليه مثل قاسم أمين. وبالمثل يستبعد د. عمارة أن يعرف قاسم أمين كل هذه المصادر والمراجع الفقهية القديمة المذكورة فى "تحرير المرأة" (السابق/١٤٤-١٤٦). ٦- أن قاسم أمين فى "تحرير المرأة" قد رجع عن آرائه فى كتابه: "المصريون"، الذى كان قد ألفه قبل خمس سنوات ودافع فيه عن حجاب المرأة ورفض اشتراط وقوع الطلاق أمام القاضى على أساس أن هذه

خصوصية من خصوصيات الزوجين لا ينبغى نشرها على رؤوس الأشهاد. لقد درس قاسم أمين الشريعة فى مدرسة الحقوق بين عامى١٨٨١ و١٨٨٥م ثم اشتغل بعد ذلك نائبا ومستشارا فى محكمة الاستئناف، فما معنى أن يرجع عن آرائه القديمة التى دافع عنها فى كتاب "المصريون" على أساس أنها رأى الدين ويعتنق أفكارا مناقضة لها إلا إذا كانت هذه الأخيرة هى أفكار محمد عبده؟ (السابق/١/ ٧٠- ٧١).

هذه أهم الحجج التى استعملها د. عمارة وقطع على أساسها بأن الفصول الدينية من كتاب "تحرير المرأة" ليست لقاسم، وإنما هى لمحمد عبده. وها نحن أولاء موردون رأيا يخالف رأى الأستاذ الباحث ومعضدوه بحجج نرى أنها أقوى من حججه، ولكننا مع ذلك لا نستطيع القطع بشىء، بل كل ما نقدر عليه هو القول بأن هذا هو ما يغلب على ظننا وتطمئن إليه عقولنا لأنه، فيما نرى، هو الأقرب إلى المنطق وإلى طبيعة الأشياء. والآن نبدأ على بركة الله.

فأما بالنسبة إلى ما ورد فى كتاب "النهضة النسائية فى مصر" للدكتور إبراهيم عبده ودرية شفيق فالملاحظ أنه لم يتجاوز العبارة الآتية: "وقيل إن بعض فقرات الكتاب تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده". وتعليقنا على ذلك هو أن الأمر كله لا يعدو أنه "قيل" بصيغة التجهيل دون أن نعرف من الذى قال ذلك. ثم إن الذى "قيل" هو أن "بعض" فقرات الكتاب (بعض فقراته لا بعض فصوله بله كله) تنم (لاحظ أنها "تنم" فقط مجرد نَمٍّ) عن أسلوب الشيخ محمد عبده.

هذا ولا أظن درية شفيق قد تحدثت عن تقسيم العمل فى كتاب "تحرير المرأة" بين محمد عبده وقاسم أمين، بل الذى فهمتُه من عبارتها أنها تشير إلى ما كان محمد عبده قد كتبه فى هذا الموضوع فى مقالاته وكتبه عن قضايا المرأة

من وجهة نظر المصلح الدينى على حين تناولها قاسم أمين فى كتاباته من زاوية المصلح الاجتماعى.

وعلى أية حال فها هى ذى درية شفيق نفسها فى كتابها:"المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم" تنسب كتاب "تحرير المرأة" والعمل من أجل تعليمها ومساواتها بالرجل إلى قاسم أمين وحده (انظر درية شفيق/ المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم/ مطبعة مصر/١٠٥-١٠٨، ٢٧٧- ٢٧٩)، وذلك رغم أنها تحدثت فى ذات الكتاب عن جهود محمد عبده قبل هذا فى نفس الميدان فى فصل خاص به (المرجع السابق/١٠٢-١-٤). كما أنها هى نفسها قد ذكرت، فى نفس الكتاب بل فى نفس الموضع الذى وردت فيه عبارتها السابقة الخاصة بأن بعض فقرات الكتاب تنم عن أسلوب محمد عبده، أن قاسم أمين قد اجتمع فى سنة١٨٩٧م بمحمد عبده وسعد زغلول ولطفى السيد فى جنيف وأنه تلا على الإمام بعض فصول من كتابه المذكور، فكان الأستاذ الإمام يوافق على ما فيها. إذن فدور محمد عبده بالنسبة لكتاب "تحرير المرأة" لا يتعدى دور "السامع": على الأقل. ولا نستبعد أن يكون قد أشار على المؤلف ببعض الملاحظات. لكن هذا شىء، والزعم بأنه قد ألف بعض فصوله شىء آخر.

ذلك أن قاسم أمين لم يكن طالبا صغيرا ولا رجلا هين الشأن، بل كان مثقفا واسع الثقافة تخصصه الأصلى هو الشريعة والقانون، وهو نفس تخصص والده، الذى كانت عنده مكتبة قانونية كبيرة (انظر د. ماهر حسن فهمى/ قاسم أمين/ أعلام العرب/ العدد١٠/ ٢٩، ٣٢). فهو إذن قانونى من ظهر قانونى. وكان من تلامذة الأفغانى ومن أصدقاء محمد عبده والنديم وسعد زغلول وأخيه فتحى ولطفى السيد (السابق/ ٣٤). فإذا عرفنا أنه كان منهوما

بالقراءة فى فنون مختلفة من العلم وأنه كانت له مكتبة تقع فى ثلاث غرف يقضى فيها عددا من الساعات كل يوم (السابق/ ٧٠)، وكان مستشارا قضائيا يشار إليه بالبنان، وكانت أحكامه تدل على سعة معرفة بكتب الشريعة (السابق/ ٥٩- ٦٤)، كان من الصعب تماما علينا التصديق بأنه كان محتاجا إلى من يضع له بعض فصول كتابه المذكور. ولقد وصفه د. زكى مبارك بأنه كان من أقطاب التشريع (انظر كتابه: "عبقرية الشريف الرضى"/ المكتبة العصرية/ صيدا/١/١٩).

على أن الذى يقرأ كتاب "تحرير المرأة" يجد قاسم أمين ينقل عن كتاب "رسالة التوحيد" لمحمد عبده مشيرا إليه (انظر "تحرير المرأة"/ دار المعارف/ سوسة/١٩٩٠م/١٢٨-١٣١). فلماذا، لو كانت بعض فصول كتابه فعلا من وضع محمد عبده، لم يشر إلى أخذه إياها منه؟ يرى د. عمارة أن محمد عبده لم يشأ أن يظهر للناس بوصفه مؤلف تلك الفصول تجنبا للإحراج إذا عرفوا أن المفتى هو صاحب هذه الأفكار التحررية (انظر "الأعمال الكاملة لقاسم أمين"/١/١٣٣). بيد أن محمد عبده كان قد قال مثل هذا الكلام قبل نحو عشرين عاما من صدور كتاب قاسم أمين على ما ذكر د. عمارة نفسه، فلم إذن الخشية من الإحراج؟ ولماذا لم يخش الإحراج محمد رشيد رضا، الذى ذكر د. عمارة أيضا أنه استقبل كتاب "تحرير المرأة" بالثناء، وقد كان رشيد رضا عالما دينيا شهيرا هو أيضا وصاحب واحدة من كبريات المجلات الدينية فى العالم الإسلامى آنذاك؟

كذلك كيف يصوَّر محمد عبده على أنه كان خوافا بهذا الشكل؟ ألم يكن أحدَ الذين اشتركوا فى الثورة العرابية؟ أليس هو الذى كان يقول عنه الخديوى عباس إنه يشعر كلما دخل عليه كأنه فرعون؟ (انظر العقاد/ محمد عبده/ وزارة

التربية والتعليم/ القاهرة/١٣٨٣هـ -١٩٦٣م/١٤٣). أليس هو صاحب الفتاوى المشهورة بجواز لبس المسلم للقبعة وأكله من اللحم الذى يذبحه النصارى بعد ضربه بالبلطة لتدويخه... تلك الفتاوى التى ألبت عليه أعداءه المتربصين من أنصار الخديوى والعلماء الحاقدين عليه أو المخالفين له فى الرأى، فلم يبال بشىء من ذلك؟ أليس هو صاحب التأويلات الخاصة بآدم عليه السلام والجن والطير الأبابيل مما خالف فيه الشائع من التفاسير فى تلك الموضوعات؟ أليس هو الذى أدخل الإصلاحات الإدارية والصحية والدراسية الجريئة فى الأزهر وتحمل تبعاتها الثقال وما جرته من مؤامرات واتهامات وقيل وقال؟ فلماذا يُظَنّ أنه هو الذى ألف القسم الهام من كتاب "تحرير المرأة" وترك قاسم أمين يضع اسمه عليه كله ليتلقى بدلا منه الهجمات والضربات؟ بل كيف يسكت بعد ذلك وهو يرى صديقه المسكين يتعرض لتلك الهجمات والضربات فعلا؟ إن هذا ليدل على لؤم فى الطبع وخسة ونذالة، ولا أحسب عاقلا يستطيع أن يتهم محمد عبده بذلك مهما يكن اختلافه معه أو رأيه فى مواقفه السياسية وآرائه الاجتماعية والدينية. وإذا ساغ الصمت من محمد عبده لسبب أو لآخر فكيف صمت قاسم أمين فلم يحاول أن يرد عن نفسه عادية الهجوم الضارى بالتصريح، ولو عن طريق أحد أصدقائه، بأن محمد عبده شريك له فى تأليف الكتاب؟

ومما يسوقه د. عمارة من حجج على صحة رأيه إشارته إلى أن ظاهرة تخفى المؤلفين تحت لقب "عالم فاضل" أو "مؤرخ"... كانت شائعة فى ذلك الوقت (انظر "الأعمال الكاملة لقاسم أمين"/١/١٣٩). يريد أن يقول إنه ليس هناك شىء غريب فى أن يتخفى محمد عبده وراء اسم قاسم أمين. لكن فاته أن هذا غير ذلك، فالتخفى تحت لقب من الألقاب شىء، ونسبة مؤلفٍ كتابا عمله إلى

شخص غيره شىء مختلف تماما، وبخاصة إذا كان يتوقع سلفا ان ذلك الكتّاب سوف يثير على من يُنْسَب إليه مثل تلك العاصفة الهوجاء التى أثارها كتاب "تحرير المرأة" على قاسم أمين. ثم لماذا لم يلجأ محمد عبده إلى الاستتار وراء لقب من هذه الألقاب فيريح ويستريح؟

لكأن د. محمد حسين هيكل يرد على من يزعمون أن محمد عبده هو صاحب الفصول التى تناولت قضايا المرأة فى كتّاب قاسم أمين من الناحية الدينية إذ ينسب إلى قاسم أمين دون أى غموض أو لجلجة البحوث الفقهية التى التجأ إليها لتبرير مذهبه بإزاء الشريعة الإسلامية (انظر د. محمد حسين هيكل/ شخصيات مصرية وغربية/ كتّاب روز اليوسف/ العدد ١٩٥٣/٢م/ ٦٩). ولنلاحظ أن د. هيكل كان صديقا للطرفين، وكانت أمامه ندحة من الوقت ليعلن الحقيقة لو كان محمد عبده هو مؤلف بعض فصول الكتّاب المنسوب لقاسم أمين، إذ عاش بعد أن مات الرجلان نحو نصف قرن، ولكنه لم يفعل، فما دلالة ذلك؟

ولا يفوتنى هنا التنبيه إلى أن د. هيكل ليس هو الوحيد من بين أصدقاء الرجلين ومعاصريهما والمحيطين بسيرتيهما وأسرار حياتيهما الذى نسب الكتّاب المذكور كله دون تلجلج إلى قاسم أمين، بل ذلك أيضا هو موقف أحمد شفيق باشا وأحمد لطفى السيد وسعد زغلول وفتحى زغلول وإبراهيم رمزى والعقاد، وكذلك هدى شعراوى (فى مذكراتها المسماة: "مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوى"/ كتّاب الهلال/ العدد ٣٦٩/ سبتمبر١٩٨١م/ ١٠٢-١٠٣)، وجرجى زيدان (فى كتّابه: "بناة النهضة العربية"، الذى خصص فيه فصلا كاملا لقاسم أمين).

ولو كان محمد عبده هو مؤلف الفصول محل البحث فلماذا لم يذكر ذلك فى رده على الكتّاب الزعيم مصطفى كامل، الذى كانت بينه وبين الأستاذ الإمام خلافات شديدة فى المواقف والاتجاهات السياسية، وذلك للإضرار به وإسقاطه فى أعين الناس؟ ولماذا حُرِّم قصر عابدين على قاسم أمين ولم يُتَّخَذْ شىء ضد محمد عبده، وقد كان مصطفى كامل متصلا بالقصر فى ذلك الوقت أوثق اتصال،وله رأى مسموع عند صاحبه حتى إن أحمد شفيق باشا ينسب إليه أنه استطاع هو وعلى يوسف تغيير قلب عباس حلمى على المفتى؟ (انظر أحمد شفيق باشا/ مذكراتى فى نصف قرن/ مطبعة مصر/ ١٩٣٦م/ ٢/ ٤١٣).

ومن ناحية أسلوب الكتّاب فقد كتب إبراهيم رمزى فى "الجريدة" فى السنة التى تُوُفِّىَ فيها قاسم أمين ينفى تمام النفى أن يكون لمحمد عبده يد فى الكتّاب، قائلا بالحرف: "ونحن لا نعرف لهذه الدعوى حقيقة لأن أسلوب الإنشاء فى الكتّاب كان من أساليب قاسم الخاصة" (انظر مقاله: "مصابنا فى الرجال" بـ"الجريدة" بتاريخ ٢٣ فبراير١٩٠٨م). والحق أن ملاحظة إبراهيم رمزى على أسلوب الكتّاب ملاحظة صحيحة، فإن الأسلوب الذى كتبت به فصول الكتّاب جميعا هو هو نفسه، وهو الأسلوب الذى نعرفه لقاسم أمين من بساطة فى اللفظ والتركيب وبعد عن السجع بخلاف أسلوب محمد عبده، الذى يبدو أكثر فخامة وجلالا، وتبدو تراكيبه أكثر تعقيدا، ويظهر فيه السجع بوضوح.

وقد لاحظت فى الفصول المشكوك فيها، علاوة على ذلك، احتواءها على بعض الألفاظ والعبارات التى تتكرر فى كتابات قاسم أمين الأخرى، مثل "وبالجملة فإن..."، والفعل "استلفت"، والنسبة إلى أوربا على "أورباوى" فى

كثير من الأحيان، وعدم حذف الياء عند النسب إلى "طبيعة وغريزة وبديهة"،واستخدام الفعل "يعتبر" بمعنى "ينظر إلى الشخص أو الشىء على أنه كذا"، وتكرار كلمة "خَوَّلَ"، وكذلك عبارة "انظر إلى كذا تجد كيت وكيت"، إلى جانب استعانته بالإحصاءات والأرقام، والإشارة فى الهامش إلى المصدر أو المرجع الذى ينقل عنه مع ذكر رقم الصفحة، وهو ما لا نجده عند محمد عبده فى حدود ما استطعنا ملاحظته من كتاباته التى ظهرت فى تاريخ قريب من كتابات قاسم أمين.

وفى موضع من المواضع التى تُنووِلَتْ فيها قضايا المرأة من الوجهة الدينية من كتاب "تحرير المرأة"، وهى المواضع التى يجزم د. عمارة بأنها من وضع الشيخ محمد عبده، نقرأ كلاما عن المرأة التى تضع على وجهها برقعا وترتدى ملابس تستر كل جسدها، ومع ذلك تفتن الرجال بحركاتها المتخلعة ونظراتها التى ترسلها من تحت البرقع مهيجة للشهوات. وهذا الكلام يشبه فى خطوطه العامة بل وفى بعض ألفاظه أيضا ما كتبه قاسم أمين فى مذكراته التى نشرت بعد وفاته بعنوان "كلمات" (انظر "تحرير المرأة"/ ٨٢- ٨٣، ود. محمد عمارة/ قاسم أمين وتحرير المرأة/ كتاب الهلال/ العدد ٣٥٢/ إبريل١٩٨٠م/١٦٢-١٦٣). وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بانهما قد صدرا عن سن قلم واحد.

كذلك ورد فى بعض المواضع من كتاب "تحرير المرأة" الحديثان الشريفان التاليان: "اتقوا الله فى الضعيفين: المرأة واليتيم" و"حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم ثلاث..."، ويجد القارئ هذين الحديثين أنفسهما فى كتاب "المصريون" (انظر على التوالى "تحرير المرأة"/١١٦،١٥١، وكتاب قاسم أمين: "Les Égyptiens, Jules Barbier, Le Caire,1894, pp.169-170"). وهذه، فيما أحسب، قرينة قوية على أن المؤلف فى الحالتين واحد. ومثل ذلك ما جاء فى

مفتتح فصل "حجاب النساء"، وهو من الفصول التى ينسبها د. عمارة للشيخ محمد عبده، ونصه: "سبق لى البحث فى الحجاب بوجه إجمالى فى كتاب نشرتُه باللغة الفرنساوية من أربع سنين مضت ردا على دوق داركور وبينت هناك أهم المزايا التى سمح لى المقام بذكرها. ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب ولا فى الحد الذى يجب أن يكون عليه. وهنا أقصد أن أتكلم فى ذلك"، ثم يمضى الكلام على هذه الوتيرة التى يشعر القارئ معها أن الفصل كله من وضع نفس الشخص كاتب هذه الفقرة. وهو طبعا قاسم أمين.

وقد ادعى د. عمارة، كما رأينا، أن الفصول الدينية فى "تحرير المرأة"، وهى الفصول التى ينسبها إلى محمد عبده، تخلو من الاستشهاد بالكتّاب الغربيين، مع أن الاستشهاد بالغربيين إحدى خصائص كتابات قاسم أمين التى نجدها فى بقية فصول الكتاب. فما رأيه فى أن الفصل الخاص بالحجاب، وهو من الفصول الأولى فى رأيه، تتضمن نقلا غير صغير من "لاروس"؟ (تحرير المرأة/ ٧٠- ٧١). كما أن فى فصل "الطلاق"، وهو منها أيضا، نقلا آخر عن فولتير الفيلسوف والأديب الفرنسى؟ (السابق/١٦٥).

أما تفرقة د. عمارة بين أسلوبى محمد عبده وقاسم أمين على أساس حلاوة الثانى وطلاوته، وكذلك شاعريته فى أحيان غير قليلة، وصدور الأول عن العقل ومخاطبته العقل، فهى تفرقة على غير أساس، إذ إن أسلوب محمد عبده فى حالات كثيرة يرتجف من الانفعال وينفث لهبا ويحلق حينئذ فى أجواء من الشاعرية كما هو الأمر فى رده على هانوتو وفرح أنطون مثلا. والعكس صحيح أيضا مع أسلوب قاسم أمين، الذى لا يزيد فى كثير من الأحيان عن أن يكون أسلوبا واضحا سهلا منثالا، ثم لا شىء أكثر من ذلك، فلا حلاوة ولا طلاوة ولا شاعرية. وليس فى هذا ولا ذاك أية غرابة، فالأساليب كما تختلف

باختلاف الكتّاب تختلف كذلك باختلاف الموضوعات والمواقف التى تستخدم فيها. فما الغريب فى الأمر لو كان الأسلوب الذى صيغت به الفصول التى يشكك د. عمارة فى أن تكون من تأليف قاسم أمين أسلوبا عاديا يخلو من نفحات الشاعرية؟ هل كان ينتظر أن تُعْرَض آراء الفقهاء القدماء فى مسائل الطلاق والحجاب مثلا بأسلوب مجنح يطير فى أجواء الخيال؟ فكيف ذلك؟

وأما تشابه آراء قاسم أمين فى الكتّاب الذى نحن بصدده مع آراء محمد عبده فيما يتعلق بقضايا المرأة فهو أمر لا ينبغى استغرابه، فقد كان الرجلان صديقين، وكانا أيضا تلميذين لأستاذ واحد هو جمال الدين الأفغانى. كما اشتغل كلاهما فى المحاكم وسافرا إلى أوربا وشاهدا مظاهر الحضارة وأوضاع الحياة الاجتماعية هناك. وكانا يعرفان اللغة الفرنسية ويقرآن لأعلام الفكر الغربى. على أن هذا التشابه لم يكن مقصورا على الرجلين بل كان يَشْرَكهما فيه عدد آخر من رجال الفكر والمجتمع ممن تلتقى مشاربهم واتجاهاتهم مع أفكار المفتى وآرائه، ومنهم محمد رشيد رضا وسليم البشرى وأحمد شفيق باشا وسعد زغلول وحفنى ناصف ومصطفى عبد الرازق... إلخ.

ومثل هذه الحجة إغراقا فى النزع استبعاد د. عمارة أن يكون قاسم أمين قادرا على المناقشات الفقهية الموجودة فى الفصول التى ينفى نسبتها عنه من كتّاب "تحرير المرأة"، إذ ليس فى الفصول المذكورة أية مناقشات عميقة بل مجرد سرد لآراء بعض الفقهاء السابقين وتعليق سريع عليها. وبالمناسبة فعدد المراجع التى أخذ منها قاسم أمين اقتباساته لا تزيد على ثلاثة، وهى كتّاب للزيلعى، وآخر لابن عابدين، وكتّاب "الروض" فى الفقه الشافعى، فضلا عن كتّاب لأحد الهنود المعاصرين له.

وقد أشار قاسم أمين فى كتابه: "المصريون"، الذى ألفه قبل ذلك بأربعة أعوام، إلى عدد أكبر من هذا كثيرا جدا من الكتب والمؤلفين القدماء، واقتبس من بعضهم. فما وجه الغرابة فى أن يعرف، وهو رجل القانون الضليع، ثلاثة مراجع فقهية قديمة بعد مرور أربع سنوات زاد فيها، ولا شك، اطلاعه ونمت ثقافته؟ ترى هل يصعب على أحد المتخصصين فى الأدب مثلا أن يرجع إلى ما يريد من كتب الفقه أو الكلام أو الفلسفة القديمة؟ بالطبع لا وألف لا. فلماذا نتصور أنه يصعب على رجل كقاسم أمين متخصص فى الشريعة والقانون ومعروف بنهمه فى القراءة وبغنى مكتبته، وهو فوق ذلك ابن رجل من دارسى القانون، أن يرجع إلى ثلاثة من الفقهاء القدماء وينقل عنهم بعض الاقتباسات فى موضوع من مواضيع الأحوال الشخصية، وهى أشيع الموضوعات الفقهية فى عصرنا هذا حيث لم يعد القانون فى معظم بلاد المسلمين مرتبطا بالشريعة الإسلامية إلا فى أضيق الحدود؟ ولقد ذكر إبراهيم الهلباوى القانونى الشهير وخريج الأزهر أن قاسم كان "دائب البحث فى الشريعة الإسلامية" (نقلا عن أحمد خاكى/ قاسم أمين/ سلسلة "أعلام الإسلام"/ ديسمبر١٩٤٤/ ٦). وبالمناسبة فقد استشهد قاسم أمين فى غير الفصول التى لا يصدق د. عمارة أنه هو صاحبها بعدد من المؤلفات الإسلامية القديمة فى التربية والتاريخ والفقه (انظر "تحرير المرأة"/ ٥١، ١٤٠-١٤٢، ١٥٠).

ولعل من المفيد أن نسوق للقارئ مثالا على الآراء والمناقشات الفقهية العميقة التى تفوق طاقة قاسم أمين فى رأى د. عمارة، وهو قوله إن الشىء الوحيد الذى ميز فيه الشارع الرجال على النساء هو تعدد الزوجات. ففى هذا الكلام، كما يقول د. عمارة، استقصاء فى الموضوع لا يقدر عليه قاسم أمين

(انظر "الأعمال الكاملة لقاسم أمين"/١/١٤٤). ولكن ما أسهل الرد على هذه الحجة! فليس فى هذا الكلام ما يجهله أجهل مسلم أو حتى أى إنسان لديه علم بوجود شيء اسمه الإسلام، علاوة على أن ليس فى المسألة أى استقصاء، إذ هناك تمييزات أخرى للرجل على المرأة فى الإسلام، وذلك فى مسائل الشهادة والقوامة والعورة والخلافة. والطريف أن قاسم أمين، فى أحد الفصول التى لا يشكك د. عمارة فى نسبتها إليه، قد ذكر من هذه التمييزات الخلافة والإمامة والشهادة (انظر "تحرير المرأة"/١٤٢)، فكان أقرب إلى الاستقصاء هناك منه فى الفصل الذى ينسبه إلى محمد عبده.

ثم إن د. عمارة، كما سلف البيان، يتخذ من تحول قاسم أمين فى آرائه التى أبداها فى كتاب "المصريون" قبل أربع سنوات من إصداره "تحرير المرأة" دليلا على أن الآراء الجديدة ليست له، وإنما هى لمحمد عبده. وهى حجة داحضة لأن قاسم أمين إما أن يكون قد رجع عن آرائه فعلا كما يقول كتابه الجديد أو لا: فإن كانت الأولى فلا مشكلة، وأما إن كانت الثانية فمعنى ذلك أنه قد تبنى فى كتاب "تحرير المرأة" آراء يؤمن بعكسها، ومع ذلك يدافع عنها ويعرض نفسه للانتقاد والإحراج العنيف جراءها. وهذا أمر لا يدخل العقل. على أن قاسم أمين قد ابتعد خطوة أخرى بل خطوات فى كتابه: "المرأة الجديدة" بعد ذلك، فهل ينبغى أن نبحث لهذا الكتاب أيضا عن مؤلف غير قاسم فنقول مثلا إنه هو دوق داركور نفسه؟

إن د. عمارة يرى أن السنوات الأربع التى تفصل بين "المصريون" و"تحرير المرأة" غير كافية لوقوع مثل هذا التحول. فما رأيه فى أن التحول الجديد الذى فى "المرأة الجديدة" لم يستغرق إلا ربع هذه المدة؟ ثم إن الإنسان قد يتحول فيما هو أخطر من ذلك فى أقل من هذا الوقت كثيرا. ألم يكن عمر بن

الخطاب فى طريقه إلى قتل الرسول عليه السلام فى دار الأرقم بعدما ضرب أخته وبرك على صدر ختنه وآذاه أذى شديدا لدخولهما فى الإسلام، لينتهى أمره بإعلان الإيمان بالدين الجديد بعد دقائق؟ ألم يتحول حمزة من اللامبالاة بالإسلام إلى الإيمان به عقب علمه أن أبا جهل قد اعتدى على ابن أخيه؟ ألم يرتد عبد الله بن أبى السرح فى مكة إلى الكفر بعد أن كان يكتب الوحى للرسول عليه السلام، وإن كان قد عاد بعد هذا إلى الإسلام عند فتح مكة وثبت عليه إلى آخر حياته؟ ومثله فى الارتداد ثم الرجوع إلى الإيمان طلحة بن خويلد، الذى حسن إسلامه ومات شهيدا فى فتوح الإسلام أيام الصديق. وقد وقع هذا كله فى أشهر معدودات. والأمثلة المشابهة كثيرة.

ثم لا ننس أن قاسم أمين فى كتابه: "المصريون" كان يدفع هجوم دوق داركور على دينه وشعبه ووطنه، والدفاع من طبيعته التبرير. ويبدو لى أن كتاب الدوق الفرنسى ورد قاسم عليه هما اللذان دفعاه إلى دراسة ما أثاره الدوق من قضايا دراسة متعمقة بعد ذلك أدت به إلى أن تكون له آراؤه الخاصة التى تبلورت فى السنوات الأربع التالية.

هذه حجج د. عمارة، وهذه ردودنا عليها سقناها بهدوء شديد. ورغم أنى مقتنع جدا بما قلته فإنى لا أستطيع الجزم بشىء، بل أكتفى بالقول بأن هذا هو ما أقتنع به. والله أعلى وأعلم.

توما الأكوينى وشبهاته ضد الإسلام

كنت أعسّ فى مواقع المشباك منذ عدة ليال، ففوجئت فى موقع نصرانى اسمه "دفاعيات مسيحية" بفيديو عنوانه "صدمة الإسلام- كيف رد توما الأكوينى على محمد والاسلام؟" يتضمن تعريفا بما قاله توما الأكوينى عن ديننا ونبينا. وكنت أعرف أن الأكوينى، مثلَ يوحنا الدمشقى، قد كتب صفحات عن الإسلام هاجمه فيها بغياً وعَدْوًا اعتمادًا على شبهات زائفة وتخرصات حقود غبية، فاستمعت إلى ما يقول المذيع المصرى النصرانى، نيابة عن توما الأكوينى، عن الإسلام دين التوحيد الصافى حتى إذا ما انتهيت من السماع قرّ فى ذهنى أن أضع ردا على هذه الهراءات المنحطة. ونبدأ بالتعريف بتوما الأكوينى، ثم نُقَفِّى بإيراد كل شُبْهَة من الشبهات التى أطلقها الكوينى على إسلامنا الراقى الفريد مع التوقف عند كل تهمة وتحليلها وتبيين تفاهتها وغباء كاتبها الذى يوصف بأنه واحد من أعظم علماء اللاهوت النصرانى فى العصور الوسطى.

فماذا عن توما الأكوينى؟ ولد توما الأكوينى حوالى العام١٢٢٥م فى منطقة أكوينو فى مملكة صقلية. وهو راهبٌ دومينيكانى. وأشهر أعماله "أسئلة متنازَع عليها حول الحقيقة" و"خلاصة ضد الوثنيين" و"الخلاصة اللاهوتية". وله تعليقات على الكتاب المقدس وعلى أرسطو، وترانيم كنسية. وقد قرأت أنه، حين عزم على الالتحاق فى سن التاسعةَ عشرة بالنظام الدومينيكانى ولم يَرُقْ ذلك لأهله، لجأ اثنان من إخوته إلى استئجار بغيٍّ لإغوائه، فدفعها الأكوينى عنه بعيدًا حاملًا جِذْعًا محترقًا رسم به صليباً على الحائط قبل أن يسقط فى نشوةٍ صوفيةٍ، ثم تبدّى له ملاكان وهو نائم، وقالا له: انظر. نحن نحزّمك بأمر

الله بحزام العفة الذى لن يتعرّض حامله للخطر من الآن فصاعدًا. ومنذ ذلك الحين حصل الأكوينى على العفة الكاملة، وبقى يرتدى الحزام إلى نهاية حياته. وهو كلام فارغ طبعا، وإذا صحت القصة فتفسيرى لها أنه عِنِّين لا يستطيع إتيان النساء، أو ربما كان الرهبان قد اعتدوا عليه حين كان يتعلم على أيديهم وهو صغير منذ الخامسة من عمره فأفقدوه منذ ذلك الوقت المبكر رجولته. ولا أظن أنه كان محتاجا إلى أية مقاومة لإغراء البغىّ. وكيف يقاوم ما لا يجد فى داخله أية رغبة فى التمتع به؟ أما ظهور الملائكة له وتحزيمه بحزام العفة فلا يدخل إلا عقول الملتاثين. وحزام العفة هذا مشهور بأنه للنساء الأوربيات اللاتى كان أزواجهن يخشَوْن، خلال غيبتهم عنهن، أن يلعبن بأذيالهن من ورائهم. اللهم إلا إذا قيل إنهم قد وضعوا له حزام العفة لا من أمام بل من وراء.

وفى هذه الدراسة سوف يكتشف القارئ العزيز حقيقة توما الأكوينى، هذا الكائن الذى يدلسون به على الناس زاعمين أنه أحد كبار الفلاسفة النصارى فى العالم. وأول هام، كما يقولون فى بيانات الثكنات العسكرية، أنه ليس رجلا مكتمل الرجولة، إذ لو كان رجلا لتزوج. فالغريزة الجنسية غريزة إنسانية متغلغلة ومتجذرة فى طبيعة البشر فلا يمكن تجاهلها من قِبَل الرجال الأسوياء التامى الرجولية: فإما تزوج الشخص أو أشبع غريزته فى الحرام والدنس أو سلك سبيل الشذوذ والانحراف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها أو قضى حياته مؤرقا متفزرا لا يستطيع التركيز فى عمله وأكله وشربه ونزهاته وقراءاته... إلخ إن استطاع، لأنها لن تتركه يهدأ أبدا بل تظل تصرخ فيه وتولول طالبة حقها من الإشباع. ومعروف أن الزنا واللواط والسحاق يشيع شيوعا هائلا بين الرهبان والراهبات لهذا السبب لأنه لا يستطيع أحد

مكتمل الخلق مقاومةَ قانون الله سبحانه، اللهم إلا إذا أخصى نفسه. والأكوينى لم يكن يحتاج إلى شىء من هذا لأنه ليس رجلا مكتملا. هذا رأيى أقوله، وحسابى على الله!

والإسلام دين مثالى واقعى، فهو لا يشتط مع الكلام المجعلص بل يطالب أتباعه بالاجتهاد للوصول إلى أعلى نقطة أخلاقية مستطاعة ولا يطلب منهم التحليق فى المطلق رغم سهولة الكلام. من هنا يدين القرآن الكريم التجاوز فى أمر الرهبانية، إذ لا يمكن تجاهل الشهوات تماما، وإلا فسدت الحياة، وبخاصة أن الشهوات هى وقود الحياة. فنحن لا يمكن أن نحقق شيئا من غير الشهوات: شهوة الأكل، شهوة الشرب، شهوة تأكيد الذات، شهوة المال، شهوة التميز، شهوة الفضول، شهوة الجنس... تصوروا أننا تجاهلنا شهوة الأكل والشرب مثلا. إننا لن نتحرك حينئذ من موضعنا. ولماذا نتحرك ونحن لا نريد طعاما ولا شرابا؟ أو تجاهَلْنا شهوة الجنس. فلماذا نتحرك ونحن لا نريد زواجا ولا نسلا ولا صدرا حنونا ولا قلبا يحبنا ونحبه؟ وبهذا تقف الحياة وتَأْسَن. إشباع الشهوات لا بد منه، ولكن لا مناص مع هذا من الالتزام بالحدود الأخلاقية فى إشباعنا لأية شهوة. نتزوج: نعم. نزنى: لا. نسعى وراء كسب المال لنشترى فولا وطعمية ولحما وأرزا وخبزا: نعم. نسرق الطعام أو نخطفه: لا... وهكذا.

قال تعالى: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ". إنك إذا كنت إنسانا سويا فأنت تحتاج إلى امرأة تتزوجها. فإن تجاهلت ذلك ارتبكت حياتك أو انحرفت أخلاقك أو انزلق الإنسان إلى الحرام: زنا أو شذوذا. وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الدَّيْنَ يُقْضَى من صاحبِهِ يومَ القيامَةِ إذا ماتَ إلا من تَدَيَّنَ (أى استدان) فى ثلاثِ خِصالٍ: رجُلٌ يُضْعِفُ قوتَهُ فى

سبيلِ الله فيستدينُ يتقَوّى به لعدوِّ الله وعدوِّه، ورجلٌ يموتُ عنده مسلمٌ لا يجِدُ ما يُكَفِّنُهُ ويُوارِيهِ إلا بِدَيْنٍ، ورجلٌ خافَ اللهُ على نفسِهِ العُزْبَةَ فينكحُ خشيةً على دِينِه. فإنَّ اللهَ يقضِي عن هؤلاءِ يومَ القيامةِ"، "النِّكَاحُ من سُنَّتِي. فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَليسَ مِنِّي. وتَزَوَّجُوا، فإني مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ. ومَنْ كان ذَا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، ومَنْ لَمْ يَجِدْ فَعليهِ بِالصِّيامِ، فإنَّ الصَّوْمَ لهُ وِجَاءٌ".

كذلك فتوما الأكوينى هذا لا عقل له كما لا عقل للحمار، بل الحمار أفهم منه وأرقى، إذ لا يَبْعُد ابنُ الأَتَان كلَّ هذا البُعْد عن أن يكون إنسانا بحق كما بَعُدَ الأكوينى، لأن الأكوينى يعبد بشرا مثله بينما الحمار لا ولم ولن يفعلها. ترى هل رأيتم حمارا يركع أو يسجد لإنسان، فضلا عن أن يكون هذا الإنسان قد فارق الدنيا ولم يعد يعيش أمامه على الأرض، أو يبتهل إليه أو يتصور أنه هو الذى خلقه، وناهيك بأن يعبد الحمار حمارا مثله؟ وهذا ثانى هام.

وثالث هام أننا سوف نشرع الآن فى تمزيق هلاهيل الأكوينى الفكرية التى يظن أنها من خلالها يمكن إثارة ضجيج الإنكار لنبوة سيد الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بل فى تمزيقه هو نفسه. وأول شبهة يثيرها هذا المأفون هى أن محمدا لم يأت بمعجزة، فكيف نصدق أنه نبى صادق؟ ولكن يا توما الأكوينى الأبله هل كل الأنبياء عندكم فى كتابكم قد أَتَوْا بمعجزات حتى نتقصَّع كالنسوان متهما النبى محمدا بأنه ليس نبيا حقيقيا لأنه لم يأت بمعجزات؟ هل أتى إبراهيم فى كتابكم بمعجزة؟ هل أتى إسحاق أو ابنه يعقوب أو حفيده يوسف بمعجزة؟ هل أتى داود أو سليمان بمعجزة؟ إن داود فى كتابكم زانٍ ومجرمٌ متآمرٌ لا خَلَاق له من الخُلُق ولا الضمير ولا الإنسانية. لقد زنى هذا البصباص الذى يصعد على سطح قصره ويبص هنا وهناك لعله يرى واحدة من بنات حواء تكشف عن جسمها أو شىء منه متى

ظنت أن أحدا لن يراها، شأنه فى ذلك شأن أى صائع ضائع لا شغلة له ولا مشغلة، هذا البصباص زنى بامرأة جاره وحارسه وأحد قادة جيشه الكبار، وكانت تستحم فى فناء بيتها عارية كما ولدتها أمها ولا تعرف أن فوق سطح القصر المجاور لمنزلها رجلا ناقصا لم يربّه أبوه ولا أمه ولا حتى الأيام والليالى ولا أثَّر فيه كونه ملكا، ثم بعد زناه بالمرأة الإستربتيز خطط للتخلص من الزوج النبيل المخلص الطيب القلب كى يخلو له وجه زوجته مع أن النساء على قفا من يشيل، ولما تم له التخلص منه، إذ أمر كبار رجال الجيش بوَضْعِه فى خط النار الأول وتَرْكِه وحيدا فى مواجهتهم بالانفضاض عنه فى اللحظة الحرجة حتى يقتله الأعداء، ثم بعد أن ترك زوجة الرجل الطيب الراقى لا يقربها مدة العِدَّة (أية عِدَّةٍ يا رب هذه، وهو كان قد زنى بها وانتهى الأمر ولم تعد هناك حاجة لعدة ولا يحزنون؟) دخل بها. وهى بالمناسبة أم سليمان! أنعم وأكرم! ليس ذلك فقط بل تم فى بيت داود هذا زنا محارم من الطراز البشع القذر، وما أكثر زنا المحارم فى الكتاب المقدس، وبخاصة فى بيوت الأنبياء، فقد تظاهر ابنه بالمرض وأرسل إلى أخته أن تزوره فى غرفته وتطمئن عليه، وحين دخلت تطمئن عليه اغتصبها ولم يرحم تضرعاتها، ولم نسمع أن أباه الملك قد فعل له شيئا ولا قال لنا كاتب السفر المحترم كيف تصرفت الأسرة إزاء حمل البنت المسكينة من أخيها. ثم هل أتى سليمان بن داود بمعجزة؟ إنه، بدلا من هداية الناس، قد انحرف هو وعصى ربه، الذى كان قد نهاه نهيا قاطعا عن الزواج بالمشركات، فتزوج منهن وملأ قصوره بهن، ونصب لهن الأصنام فى تلك القصور وشاركهن عبادتها. الله أكبر! هكذا ينبغى أن تكون النبوات التى يرضى عنها المدعو: توما الأكوينى، ولا نخر، وإلا فلا. ولم يكتف بذلك بل أتى سليمانُكم هذا بـ"نشيد الإنشاد"، وما أدراكم ما نشيد الإنشاد؟ إنه لون

وضيع من الكتابات البورنوجرافية تجعل من صاحبه رائدا لهذا الضرب من الأدب لا يشق له غبار!

سيقول لك المحروس توما: لكن يسوع جاء بمعجزات. عال جدا. تعال نتناقش. أولا: هل جعلت هذه المعجزات بنى إسرائيل يؤمنون؟ أبدا بل اتهموه هو وأمه فوق البيعة بأبشع ما يمكن تخيله من تهم، ويكفى أنهم قرفوه بأن أمه بغىٌّ زنت به فجاء ابن حرام. والمصيبة أن كتبة العهد الجديد يكررون فى أسفارهم أنه ابن داود، وحين أوردوا سسلة نسبه لم يذكروا مريم بين ذرية داود بل ذكروا يوسف النجار. ولما لم تكن مريم من ذرية داود ولم يكن يوسف قد تزوج قبل ولادة يسوع بمريم، فليس لهذه السلسلة النَّسَبِيَّة من أى معنى حاشا أن يسوع هو ابن يوسف، وإلا ما كان لتكنيته بـ"ابن داود" موضع من الصدق والواقع. وإذا كان الأمر كذلك، وهو لا يكون إلا كذلك، فيسوع هو ابن يوسف النجار من سفاح! نستغفر الله من جَرْى هذا الكفر على لساننا، لكنه مجرد كلام جدلى كان لا بد أن نقوله لتوما حتى يخرس ولا يتفوه بهذا البراز المنتن النجس الذى يتبرزه من فمه متصورا أنه سوف يصيب به دين التوحيد الوحيد. وهيهات!

وهذه سلسلة نسب يسوع كما وردت فى الإصحاح الأول من إنجيل متى:
"١كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْراهِيمَ: ٢إِبْراهِيمُ وَلَدَ إِسْحاقَ. وَإِسْحَاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. ٣وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونُ وَلَدَ أَرَامَ. ٤وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِّينَادَابَ. وَعَمِّينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونُ وَلَدَ سَلْمُونَ. ٥وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَّى. ٦وَيَسَّى وَلَدَ دَاوُدَ الْمَلِكَ. وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ مِنَ الَّتِى لأُورِيَّا. ٧وَسُلَيْمَانُ وَلَدَ

رَحَبْعَامَ. وَرَحَبْعَامُ وَلَدَ أَبِيَّا. وَأَبِيَّا وَلَدَ آسَا. ٨وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عُزِّيَّا. ٩وَعُزِّيَّا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حِزْقِيَّا. ١٠وَحِزْقِيَّا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ آمُونَ. وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. ١١وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. ١٢وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَأَلْتِئِيلَ. وَشَأَلْتِئِيلُ وَلَدَ زَرُبَّابِلَ. ١٣وَزَرُبَّابِلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ أَلِيَاقِيمَ. وَأَلِيَاقِيمُ وَلَدَ عَازُورَ. ١٤وَعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَ. وَأَخِيمُ وَلَدَ أَلِيُودَ. ١٥وَأَلِيُودُ وَلَدَ أَلِيعَازَرَ. وَأَلِيعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. ١٦وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ".

وهو نفسه ما نجده فى إنجيل لوقا مع اختلاف حلقات النسب وترتيبها ووجود حلقات فى كل واحدة من السلسلتين لا توجد فى الأخرى، فوق أن لوقا يجعل رأس السلسلة، وهو آدم، ابنا لله بما يعنى أن ابن الله هو آدم لا المسيح. لكن السلسلتين مع ذلك تتفقان فى أن انتساب يسوع إلى داود إنما يتم عن طريق يوسف لا مريم: "٢٣وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي، ٢٤بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، بْنِ مَلْكِي، بْنِ يَنَّا، بْنِ يُوسُفَ، ٢٥بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ عَامُوصَ، بْنِ نَاحُومَ، بْنِ حَسْلِي، بْنِ نَجَّايِ، ٢٦بْنِ مَآثَ، بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ شِمْعِي، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يَهُوذَا، ٢٧بْنِ يُوحَنَّا، بْنِ رِيسَا، بْنِ زَرُبَّابِلَ، بْنِ شَأَلْتِيئِيلَ، بْنِ نِيرِي، ٢٨بْنِ مَلْكِي، بْنِ أَدِّي، بْنِ قُصَمَ، بْنِ أَلْمُودَامَ، بْنِ عِيرِ، ٢٩بْنِ يُوسِي، بْنِ أَلِيعَازَرَ، بْنِ يُورِيمَ، بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، ٣٠بْنِ شِمْعُونَ، بْنِ يَهُوذَا، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يُونَانَ، بْنِ أَلِيَاقِيمَ، ٣١بْنِ مَلَيَا، بْنِ مَيْنَانَ، بْنِ مَتَّاثَا، بْنِ نَاثَانَ، بْنِ دَاوُدَ، ٣٢بْنِ يَسَّى، بْنِ عُوبِيدَ، بْنِ بُوعَزَ، بْنِ سَلْمُونَ، بْنِ نَحْشُونَ، ٣٣بْنِ عَمِّينَادَابَ، بْنِ أَرَامَ، بْنِ

حَصْرُونَ، بْنِ فَارِصَ، بْنِ يَهُوذَا، ٣٤بْنِ يَعْقُوبَ، بْنِ إِسْحَاقَ، بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ تَارَحَ، بْنِ نَاحُورَ، ٣٥بْنِ سَرُوجَ، بْنِ رَعُو، بْنِ فَالَجَ، بْنِ عَابِرَ، بْنِ شَالَحَ، ٣٦بْنِ قِينَانَ، بْنِ أَرْفَكْشَادَ، بْنِ سَامِ، بْنِ نُوحِ، بْنِ لاَمَكَ، ٣٧بْنِ مَتُوشَالَحَ، بْنِ أَخْنُوخَ، بْنِ يَارِدَ، بْنِ مَهْلَلْئِيلَ، بْنِ قِينَانَ، ٣٨بْنِ أَنُوشَ، بْنِ شِيتِ، بْنِ آدَمَ، ابْنِ اللهِ"".

ومرة أخرى لا يقف الأمر هنا حيث رأينا بنى إسرائيل لا يتأثرون بمعجزات يسوع وكأنها لم تكن، ولهذا لا غرابة أن نسمع يسوع ينعت تلاميذه كلهم ذات مرة بـ"يا قليلى الإيمان"، فضلا عن أن تلميذا من تلاميذه المقربين منه هو يهوذا قد خانه واتفق مع أعدائه على تسليمه لهم مقابل دراهم معدودات، كل ذلك رغم المعجزات التى رآها بأم عينيه. وحين أمسكوا بيسوع وأشارت امرأة لجنود الرومان إلى بطرس أقرب تلامذته إليه كى يقبضوا عليه أنكر هذا التلميذ أستاذه، وحين حاولوا القبض عليه وأمسكوا بثيابه خلعها وصار بلبوصا كسيد القمنى وطفق يعدو مبتعدا وهو ينكر أن تكون له صلة بيسوع.

وعن بطرس هذا نقرأ فى المادة المخصصة له من "دائرةالمعارف الكتابية" ما يلى: " أما الأحداث التى بدأت بأسبوع الالآم، فنعرف عنها الشيء الكثير لأنها مسجلة فى كل الأناجيل، وتكاد تكون بنفس الترتيب. وتبدأ بغسل السيد لرجليه فى ليلة الفصح الأخيرة، وقد أخطأ خطأين فى تلك المناسبة (يو١٣/١ـ١٠): أولهما اعتداده الجريء بنفسه وبشدة ولائه ومحبته لسيده، وتحذير سيده له من هجمة الشيطان القادمة عليه (لو ٢٢/ ٣١ـ ٣٤). وقد تكرر ذلك مرتين قبل أن يُلْقَى القبض على الربّ فى البستان (مت ٢٦/٣١ ـ ٣٥)، ثم اصطحاب الربّ له مع ابنى زبدى لمشاهدة معاناة الرب فى

جشسيمانى، وتنبيه الرب لهم أن يسهروا ويصلوا، وفشلهم فى ذلك حيث إنه كلما جاءهم وجدهم نياما (مت ٢٦/ ٣٦ـ ٤٦)، ثم تهوره فى قطع أذن ملخس (يو١٨/١٠ـ١٢)، ثم تخليه عن الرب وهو يقاد أسيرًا، وسيره وراء الموكب من بعيد، ودخوله إلى قصر رئيس الكهنة، ثم إنكاره له قدام الجميع، وتأييده ذلك الإنكار بقسمٍ ثم بلعنٍ وحَلِفٍ، ثم تذكره لتحذير الرب له عند صياح الديك. وعندما التفت الرب ونظر إلى بطرس خرج إلى خارج وبكى بكاء مرا (مت ٢٦/ ٥٦ـ ٢٨، مرقس١٤/ ٦٦ـ ٧٢، لو ٢٢/ ٥٤ـ ٦٢، يوحنا١٨/١٥ـ ٢٧)".

ومرة أخرى نسمع يسوع وهو فى جمع داخل بيت من البيوت وأتاه من يقول له إن أمه وإخوته خارج المنزل ويريدون أن يخرج لهم ليكلموه فى أمر ما، فكان جوابه أن أمه وإخوته هم من يؤمنون به ويتبعون شريعته، وهو ما يفهم منه أنه لا يعدهم من أتباعه. فهل نفعت المعجزات هنا؟ ولما صلب تخلى عنه كل من صنع المعجزات بسببهم، وإلا فأين اختفى مَنْ أقامهم بإذن الله من الأموات؟ وأين اختفى مَنْ شفاهم بإذن الله من العمى؟ وأين اختفى من أبرأهم بإذن الله من البرص؟ وأين اختفى من أطعمهم سمكا وخبزا من السماء على شاطئ البحر؟

بل إنه هو نفسه قد انتابه الضعف ونسى ما وقع على يده من معجزات وآيات بل ونسى أنه ابن اله أو هو الرب كما هو مكتوب على غلاف الأناجيل، فلم يتجلد وهو على الصليب بل أخذ يجأر مرددا بصوت يقطع نياط القلوب: لم تركتنى يا إلهى؟ فانظر كيف لم تأت المعجزات بثمرة حتى ولا فى عقل يسوع ومشاعره وصاح وصرخ وجأر وزعق، ولم يبق إلا أن يلطم خدوده ويشق هدومه، ناسيا أنه، كما يقول أتباعه، إنما أتى ليكفّر عن البشر

الخطيئة البشرية الأولى، خطيئة حواء وآدم، بالموت على الصليب. ولو كان للمعجزات نتيجة لظهرت هذه النتيجة هنا وثبت يسوع ثبات الأبطال المؤمنين الذين لا يهتز لهم يقين. لكن الوقائع تقول شيئا آخر تماما وتكذب توما الأكوينى تكذيبا يصكه فى أصل وجهه الذى لا يعرف الحياء.

ثم كم واحدا من بنى إسرائيل يا أكوينى شاهد معجزة يسوعك؟ عشرة مثلا؟ عشرون؟ مائة؟ مائتان؟ وإن كنت لا أظن أبدا أن عددهم قد بلغ هذا الرقم؟ فهل معجزة شاهدها مائتان تكون معجزة بالنسبة لمن لم يشاهد وقوعها من المعاصرين والتالين، وهم بالمليارات؟

ثم لماذا لم تُجْدِ تلك المعجزاتُ بشىء عند ظهور نبى جديد دان له العالم بدون معجزات كما تقولون، وهو محمد، حتى صار عدد التابعين له الآن مليارين، بما يعنى أن وقوع المعجزات لم تنفع يسوع، وغيابها لم يمنع نجاح النبى الجديد؟ ثم بم ينتفع من لم يروا معجزات يسوع أصلا؟ إنها بالنسبة لهم كأنها لم تكن، ولا قيمة لها بالتالى. أليس كذلك؟ بل هناك كثيرون جدا فى عصرنا يرون أن تلك المعجزات اليسوعية ليست سوى مجموعة من التمثيليات المتفق عليها بين يسوع ومن أجراها لهم أو بسببهم أو أمام أعينهم؟ بل إن كثيرا من الغربيين يقولون إنه كانت بينه وبين مريم المجدلية علاقة آثمة، ومنهم من قالوا إنه كان بينه وبين تلميذه فلان الفلانى شذوذ جنسى. أستغفر الله. ونحن نجله عليه السلام، لكن الجدل الذى فتحوا بابه يقتضى ذلك.

ثم أين كانت تلك المعجزات حين كان يسوع سائرا بين الحقول ومعه الجموع الذين يقول كتاب العهد الجديد إنهم كانوا يحيطون به وكأنهم لا شغلة لهم ولا مشغلة ولا ندرى من أين كانوا يحصلون ساعتئذ على الطعام، إذ إنه وإنهم حين قرص الجوع بطونهم قد هجموا على حقل من الحقول كالجراد

المنتشر وأتوا على ما فيه سحتا وأثاما. فلم يا ترى لم يصنع يسوع لهم معجزة كلما حان وقت الطعام، وأعفاهم من التصرف كالتتار الذين يأتون فى طريقهم على الأخضر واليابس؟ وذلك لو كانت المعجزات حلا لحاجات البشر؟ أما نبى الإسلام فبدلا من أن يقول لمن يؤمنون به كما قال يسوع لأتباعه حسب رواية الكتاب المقدس: اتركوا أعمالكم وأهاليكم وبيوتكم وتعالوا معى، وحين يجوعون يقتحمون الحقول ويملأون بطونهم بالحرام كما كان يسوع يفعل فى تلك الظروف، كان نبينا ينهى أصحابه عن الجلوس فى المسجد والاعتماد على الآخرين فى توفير أسباب المعيشة لهم ويأمرهم بالانصراف إلى أعمالهم التى يرتزقون منها ويؤكد لهم أن العمل عبادة جزاؤها الكرامة فى الدنيا والجنة فى الآخرة بدلا من أن يأتى من يمد يده للغير، وقد اسود وجهه خزيا وعارا وشنارا يوم القيامة. إن محمدا لا يأتى أتباعه بسمك جاهز ينزل عليه من السماء مرة ثم يتركهم بعد ذلك فى حيص بيص لا يعرفون ماذا يفعلون ولا كيف يتصرفون، بل يطالب محمد كلا منهم أن يشترى سنارة وأن يخرج للصيد ويأتى هو بنفسه لنفسه بالسمك ويشويه أو يقليه طبقا لما يحب ويأكله هنيئا مريئا. بالله عليكم أيهما أفضل: من يعمل معجزة مرة أم من يعلّم أتباعه كيف يعملون هم المعجزة الحقيقية كل يوم، معجزة السعى على المعاش والحصول على بركة الرب وحبه ورعايته فى الدنيا وفى الآخرة؟

فهذا عن المعجزات وقيمتها. وبالمناسبة فالأحاديث وكتب السيرة تذكر طائفة من المعجزات وقعت على يد النبى عليه الصلاة والسلام أمام أصحابه، وهى أكثر من معجزات يسوع، لكننا أردنا مجاراة الكذاب الأشر المدعو: توما الأكوينى ونبيّن أن تكذيبه بنبوة سيده وسيد أبيه وأمه والبشر جميعا هو تكذيب له هو نفسه وبرهان على خلل عقله ومنطقه وهشاشة ما قال فى هذا السبيل.

والكتب التى روت المعجزات المحمدية هى أوثق مما كتبه مؤلفو الأناجيل. ذلك أن كتب المسلمين تذكر سلسلة الرواة منذ أول من شاهدها أو سمعها ممن شاهدها بالاسم واحدا بعد واحد، أما أناجيلكم فقد كتبت من أمخاخ مؤلفيها مباشرة دون أن يَتَحَرَّوْا هم، أو من روى عنهم، الصدق فيما يروون. والواقع أنه لا فرق فى موضوع المعجزات بين يسوع ومحمد: فكلاهما قد رويت عنه معجزات لكنها لم تكن ردا على تحدى الكفار. القرآن قد أمر محمدا أن يقول للكفار لدن اقتراحهم المتعنت نزول آية عليه: "إنما الآيات عند الله"، ثم يلتفت إلى المسلمين موضحا لهم أن موقف الكفار إذا نزل ما يقترحونه من آيات سيظل هو هو: "وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون؟". ويقول القرآن أيضا فى هذا الصدد: "وما منعَنا أنْ نرسل بالآيات إلا أَنْ كذَّب بها الأولون". فالرسول كان يأتى بالمعجزات من لدن ربه لأصحابه لا ردا على ما يطلبه الكفار على سبيل الاستفزاز، وإذا استفزه الكفار كان يرفض الاستجابة لهم. وهذا هو نفسه موقف يسوع، فهو لم يأت بمعجزة استجابة لاستفزاز الكفار بل عمل المعجزة أمام المؤمنين به تخفيفا عنهم ليس إلا. وهاكم الأناجيل الأربعة، فاقرأوها على أقل من مهلكم ولن تجدوا فيها شيئا يخالف ما نقول. أما رد يسوع على استفزاز كفار بنى إسرائيل فهو شتمهم ورميهم بالشر والفسق والتعنت.

جاء فى الإصحاح الثامن من إنجيل مرقس: "١١فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَابْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ.١٢فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ:«لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هذَا الْجِيلُ آيَةً!»". و"الجيل" هنا هو الشعب أو الأمة.

وجاء فى الإصحاح الثانى عشر من ذات الإنجيل: "٣٨حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ:«يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ:«جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال". وهو ما يقابل عندنا الرفض لاقتراح الكفار الإتيان بآية. أما آية البقاء فى القبر ثلاثة أيام بلياليها ثم القيامة والخروج منه فلم يكن ردا على المتعنتين عليه ولا هم شاهدوا هذا الأمر. وهو ما تكررت روايته فى الإصحاح السادس عشر من متى أيضا: "١وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ وَالصَّدُّوقِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ. ٢فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ:«إِذَا كَانَ الْمَسَاءُ قُلْتُمْ: صَحْوٌ لأَنَّ السَّمَاءَ مُحْمَرَّةٌ. ٣وَفِي الصَّبَاحِ: الْيَوْمَ شِتَاءٌ لأَنَّ السَّمَاءَ مُحْمَرَّةٌ بِعُبُوسَةٍ.يَا مُرَاؤُونَ! تَعْرِفُونَ أَنْ تُمَيِّزُوا وَجْهَ السَّمَاءِ، وَأَمَّا عَلاَمَاتُ الأَزْمِنَةِ فَلاَ تَسْتَطِيعُونَ! ٤جِيلٌ شِرِّيرٌ فَاسِقٌ يَلْتَمِسُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ». ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَمَضَى".

بل إن تلاميذه الذين أتى أمامهم بعدد من المعجزات لم يقتنعوا ولم يشبعوا منها. ولنقرأ بعد النص السابق مباشرة: "٥وَلَمَّا جَاءَ تَلاَمِيذُهُ إِلَى الْعَبْرِ نَسُوا أَنْ يَأْخُذُوا خُبْزًا. ٦وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ:«انْظُرُوا، وَتَحَرَّزُوا مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ». ٧فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ:«إِنَّنَا لَمْ نَأْخُذْ خُبْزًا». ٨فَعَلِمَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ:«لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ أَنَّكُمْ لَمْ تَأْخُذُوا خُبْزًا؟ ٩أَحَتَّى الآنَ لاَ تَفْهَمُونَ؟ وَلاَ تَذْكُرُونَ خَمْسَ خُبْزَاتِ الْخَمْسَةِ الآلاَفِ وَكَمْ قُفَّةً أَخَذْتُمْ؟ ١٠وَلاَ سَبْعَ خُبْزَاتِ الأَرْبَعَةِ الآلاَفِ وَكَمْ سَلًّا أَخَذْتُمْ؟".

ثم تعال يا أكوينى يا حمار، وقل لنا: كم واحدا من بنى إسرائيل شاهد معجزة يسوعك؟ عشرة مثلا؟ عشرون؟ مائة؟ مائتان؟ وإن كنت لا أظن أبدا

أن عددهم قد بلغ هذا الرقم كما قلت آنفا؟ فهل معجزةٌ شاهدها مائتان تكون معجزة بالنسبة للناس والأجيال التى لم تشاهد وقوعها؟ إنها بالنسبة إليهم شىء لا وجود له.

ولنفترض أن محمدا لم يأت بأية معجزة، فكيف صدّق بمعجزات من سبقوه من الأنبياء ولم ينكرها ويريح نفسه من تعنُّت المشركين ومطالبتهم له بالإتيان بهذه الآية أو تلك؟ لقد كان دهاؤه ولفه ودورانه قمينة بمنعه من التطرق إلى ذلك الموضوع لكى يغلق باب تعنت المشركين عليه فى وجوب الإتيان بآية، وكانت الحجة جاهزة على لسانه إذا قال: لم تكن هناك معجزات للأنبياء الماضين، ومن يقل غير هذا فليرنى واحدة منها. وطبعا لن يستطيع ذلك أحد لأن ما صار فى خبر "كان" لا يمكن أن يصير فى خبر "يكون" أو "سيكون"! لكنه لصدقه واستقامة ضميره واتصاله بربه وتلقيه الوحى منه أثبت المعجزات لزملائه الأنبياء الذين أتوا قبله، وفى ذات الوقت كان رده على متعنتى الكفار ممن يشترطون، على سبيل المماحكة، لإيمانهم برسالته أن يأتى لهم بمعجزة: "سبحان ربى! هل كنت إلا بشرا رسولا؟". ومع هذا فقد تضافرت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام قد أتى بطائفة من المعجزات لأصحابه فى هذا الظرف أو ذاك. ونحن لا نقيم للمعجزات هذا الوزن الذى يتصوره المدعوّ: توما الأكوينى، ونرى أن الدين الذى كُلِّف محمد بتبليغه للناس ودعوتهم للإيمان به والدخول فيه هو دين العقل والتفكير وتشغيل الذهن والتأمل فى معجزات الخلق من حولهم فى كل مكان: فى السماء والنجوم والكواكب والسحاب والمطر والبحر والنهر والطيور والنباتات والحيوانات، وفى أنفسهم ذاتها قبل ذلك، وفى القوانين التى يجرى عليها كل شىء فى الكون دَقَّ هذا الشىءُ أو جَلَّ. وهذا عكس ما يدعيه الكذاب الأشر: توما

الأكوينى على ما سوف نبينه حالا فيما يلى، وهو ما لا وجود له فى أى موضع من الأناجيل.

إن الأكوينى يزعم أن الإسلام لا يعتمد على إقناع العقل وتحريك الفكر. ولا أعرف حقا السبب فى دخوله هذا الركن الضيق. إن هذا يدل على أنه لا يتبصر ولا يقدر لرجله قبل الخطو موضعها. ذلك أن القرآن الكريم، على عكس الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، مترع بمخاطبة العقل ودعوة البشر إلى استخدامه وتحذيرهم من إهماله والاعتماد بدلا منه على مماشاة العادات والتقاليد والعقائد والأخلاق السائدة فى المجتمع مهما كانت ضارة ومؤذية ومنحطة ومتخلفة ومناهضة للعقل والمنطق والإنسانية الراقية الكريمة. وآيات القرآن فى ذلك كثيرة كثرة هائلة. ويقابل قارئُه كثيرا جدا عباراتٍ مثل "لعلهم يتفكرون، لعلهم يتذكرون، لعلهم يفقهون، لعلهم يعلمون، لعلهم يَرْشُدون". وهو يذكر دائما الفؤاد، الذى يعنى به العقل وما هو أكبر من العقل. وهو يدعو الناس إلى استخدام السمع والبصر والفؤاد ويتوعد من يهمل ذلك توعدا شديدا، ويأمرهم إذا سمعوا خبرا شائعا بين الناس ألا يرددوه ما لم يتحققوا من صحته، وألا يكون الواحد منهم إمعة لا رأى ولا شخصية له بل كائنا هلاميا يميل مع التيار حيث مال دون أن يعمل عقله ليعرف أين هو سائر وماذا ينتظره فى الطريق. وهو أيضا يعلى من شأن العلم والعلماء ويضعهم فى مرتبة أرقى من غيرهم، ويطالب من يَكْفُر بالدليل على ما يقول: "اِئْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ"، "هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"، "... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"، "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"، "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَقٍ * اقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ الذى عَلَّمَ بالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ".

وفى الأحاديث نسمع رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يؤكد أن العالم أفضل من العابد كما يَفْضُل البدر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وهذا الحديث الأخير قد شَدَهَ البروفيسير ستيفن، الذى يقول تعليقا عليه إن النبى محمدا قد سبق الحضارة الحديثة نفسها، إذ أقصى ما بلغته هذه الحضارة هو القول بأن العلم حق لكل مواطن، وهو ما يمكن أن يهمله كثير من الناس لأن صاحب الحق من حقه أن يهمل تحصيل هذا الحق، أما النبى محمد فجعل طلب العلم فريضة يحاسب كل منا على إهمالها لو أهملها. ومن أحاديث الرسول عليه السلام: "إنَّ مِن أشْراطِ السّاعَةِ: أنْ يُرْفَعَ العِلْمُ ويَثْبُتَ الجَهْلُ، ويُشْرَبَ الخَمْرُ، ويَظْهَرَ الزِّنا". فانظر كيف ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الجهل قبل الخمر والزنا تعرف كيف يُحِلّ الإسلامُ العلمَ فى مكانة سامقة. وانظر كذلك فى الحديث التالى الذى يبشر فيه رسول الله من يعلّم جاريته... بالجنة: "إذا أَدَّبَ الرَّجُلُ أَمَتَهُ فأحْسَنَ تَأْدِيبَها، وَعَلَّمَها فأحْسَنَ تَعْليمَها، ثُمَّ أَعْتَقَها فَتَزَوَّجَها كانَ له أَجْرانِ". وفى الحديث النبوى كذلك: "لا حسدَ إلّا فى اثنتينِ رجلٍ آتاهُ اللَّهُ مالًا فصرفَهُ فى سبيلِ الخَيرِ ورجُلٍ آتاهُ اللَّهُ عِلمًا فعلَّمَه وعملَ بِهِ"، "مَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ له به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ"، "مَن طلَب علمًا فأدرَكه كتَب اللهُ له كِفْلينِ من الأجرِ، ومَن طلَب علمًا فلم يُدرِكْه كتَب اللهُ له كِفلًا من الأجرِ"،

"العلماءُ مَصابيحُ الأرضِ"، "إنَّ الملائِكةَ لتضعُ أجنحتَها رِضًى لطالبِ العلمِ وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ لَه مَن فى السَّماواتِ ومن فى الأرضِ والحيتانُ فى جوفِ الماءِ".

فهل فى الأناجيل بل هل فى العهد الجديد بل هل فى الكتاب المقدس كله من ألفه ليائه شىء كهذا أو كمعشار هذا أو كعشر معشار هذا؟ هيا أرنا يا غبى! ثم أَنَّى لك الحديث عن الدين الموافق للعقل وأنت تعبد بشرا مثلك؟ يا أكوينى، لقد فقت الحمير والخنزير والبقر والجاموس فى انحطاط عقلك وتهافت تفكيرك، فهذه الحيوانات بل كل الحيوانات جميعا لا تعبد واحدا منها؟ ترى هل رأيت حيوانا يركع أو يسجد أو يبتهل قائلا: أبانا الذى فى السماوات... لحمنا/ تبننا/ فولنا/ برسيمنا كفافنا أعطنا اليوم؟ لم يحدث ولن يحدث، أما أنت فتعتدّه دينا. كل أكوينى بعقله الترللى معجب! ولو أتيته بمليار عقل غير عقله ما رضى إلا بعقله الزنخ! وهل تظن أننا نجهل أن إيمانكم لا علاقة له بالعقل أن شعاركم هو "آمِنْ ولا تسأل".

ولا يتوقف الأمر فى الإسلام وتشغيل العقل والاستناد للمنطق فى دعوة نبينا عند هذه النقطة، إذ كان القرآن والرسول عليه السلام يعتمدان فى دعوة المشركين على الدليل الاجتماعى والأخلاقى، فكانا يسألانهم: ألستم تعرفون هذا النبى وتعرفون شخصيته وأخلاقه وعلاقاته بكم؟ فهل جربتم عليه كذبا؟ هل تشكون فى عقله؟ هل يطلب منكم أجرا على دعوته؟ لم لا تذهبون فتسألون أهل الكتاب عما جاء به محمد، ولسوف يخبرونكم بأنه هو النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل؟ ولقد كان محمد يقول لهم على لسان ربه: إن كنت قد افتريت على الله الكذب يمينا ليعاقبنِّى عقابا صاعقا دون أن أملك لنفسى أو يملك غيرى لى شيئا؟ ورغم ذلك لم ينزل به أى عقاب بالغا ما بلغت تفاهته. فما دلالة هذا؟ ترى كيف تركه ربكم يسوع يتنبأ بالكذب ولم يعاجله بعقاب

يقضى عليه، وبخاصة أنه نفى عن يسوع الربوبية والموت على الصليب تكفيرا عن الخطيئة الأولى؟ الغريب العجيب أن توما الأكوينى الذى يزعم كذب نبينا عليه السلام بسبب عدم مجيئه بالمعجزات يتهمه بأنه لم يكن يعتمد على العقل فى دعوته. الواقع أن الذى يستبعد العقل فى دعوته هو من يستند فى مخاطبة الخصوم على المعجزات ليس إلا كما هو الحال فى أمر يسوع.

والموكوس توما الأكوينى يزعم أن النبى إنما اعتمد فى جذب الناس لدينه على وعوده لهم بالشهوات الجسدية مستشهدا بالآية الرابعة والعشرين من سورة "النساء": "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا". وقد ترجمها الشخص النصرانى الذى بث هذا الكلام فى موقع "دفاعيات مسيحية" على اليوتيوب كما يلى: "وحُرِّم عليكم أن تنكحوا المتحاربات إلا ما ملكت أيمانكم"، قائلا إن هذه الآية تبيح للمسلمين أن يمارسوا الجنس مع النساء الأسيرات (أو السبايا). وهذا يبين لنا أن النبى محمدا استغل الرغبات الجسدية فى نشر دينه. ثم يمضى المذيع النصرانى قائلا إن النبى، حسب حديث موجود فى "سنن أبى داود"، أرسل حملة عسكرية على الطائف، وهى غزوة حنين، وأسر المسلمون عددا من نساء الأعداء، فطلب المسلمون المحاربون من النبى أن يسمح لهم بإقامة علاقات جنسية، فنزلت هذه الآية تحلل لهم ذلك.

والكذاب توما الأكوينى يتجاهل ويتناسى أن هذه الآية لم تنزل إلا بعد سنوت طوال من بداية الدعوة المحمدية منها١٣ سنة فى مكة لم يكن فيها قتال ولا سبايا بل كان المسلمون هم الذين يُتَخَطَّفون ويُعْتَدَى عليهم، فيا ترى كيف

دخل الناس الدين الجديد قبل تلويح القرآن لهم بهذا الحافز؟ ثم إنهم بعد هجرتهم إلى المدينة لم يدخلوا غزوة حنين إلا فى العالم الثامن من الهجرة. أى أن الإسلام انتشر فى كثير من بلاد العرب قبل نزول الآية المذكورة. فكيف يعلل توما الأكوينى، كواه الله على لسانه ويده فى نار جهنم، انتشار الإسلام دون تلك المكافأة النسائية؟ وهل يا متخلف كان على الرسول ليستخفى بالدعوة ويتعرض للأذى والإساءات وتُشَنّ عليه الحروب وتُدَبَّر له المؤامرات ويقف المجتمع العربى كله ضده وضد دينه لو كان يدعو الناس إلى الاستمتاع ببلاش بالنساء؟ هل إشباع الغريزة الجنسية بحاجة إلى إغراء البشر فى مجتمع وثنى كالمجتمع العربى؟ هذا حمار لا يفهم. ولو لم يكن حمارا أكان يخاز لعبادة البشر ضد عبادة الواحد الأحد؟ ثم يقولون إنه فيلسوف!

وهذا هو الحديث الشريف، وهو من رواية أبى سعيد الخدرى، ونصه "أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعث يوم حنين بعثا إلى أوطاس، فلَقُوا عدوهم فقاتلوهم فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا، فكأن أناسا من أصحاب رسول اللهِ ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله تعالى فى ذلك "والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم"، أى فهن لهم حلال إذا انقضت عدتهن".

ومنه يتبين أن البعث الذى بعثه رسول الله قد انطلق يوم حنين إلى أوطاس لا أنه انطلق إلى حنين كما قال مذيع الفيديو. كما أن المسلمين المحاربين لم يطلبوا من الرسول أن يحل لهم ممارسة الجنس مع السبايا حسبما زعم توما الأكوينى الكذاب المتخلف طبقا لكلام المذيع النصرانى فى الفيديو بل تحرجوا أن يأخذوهن ليكنّ لهم كالأزواج بعد انقضاء عدة كل منهن. كذلك فالقرآن يقول: "والمحصنات" لا "المتحاربات". وواضح أن تفسير الآية بهذا الشكل يدل

على جهل شنيع وأن المتصدى للحديث فى هذا الموضوع غبى ومتهور ولا يعرف حجم نفسه بل يعرضها من البلاء لما لا تطيق. ومعنى "والمحصنات من النساء" أنه يحرم على المسلم أن يتزوج امرأة على ذمة رجل آخر، اللهم إلا إذا سبيت فى الحرب، فهى حلال لمن سباها بعد أن تعتد العدة. والجيوش الغربية الآن تغتصب النساء اغتصابا فينتشر الزنا والفجور وتتفسخ الأخلاق. والمنتصر فى الحرب يأخذ كثيرا من ممتلكات المنهزم، الذى شنها ظلما وعدوانا ودون وجه حق. أما اختصاص سابيها بها فلوضع حد للممارسات الجنسية المنفلتة العيار مع نساء العدو دون أى نظام أو تشريع. والحروب طوال التاريخ كانت تقوم فى هذا الجانب على قذارة سلوك المتحاربين الجنسى واغتصاب النساء. ولن نذهب بعيدا، فما صنعه الصرب المجرمون الأدناس بنساء المسلمين فى البوسنة والهرسك معروف للجميع، فقد اغتصبوا عشرات الآلاف من النساء والفتيات فى البوسنة والهرسك. وكانت الحروب قديما تقوم على قاعدة استرقاق نساء الأعداء ونكاحهن دون وجود قواعد تشريعية تنظمه بل تبعا لهوى المنتصرين وشهواتهم الجامحة ورغبتهم الإبليسية فى تدمير كل شىء وكل قيمة وكل كرامة إنسانية. أما الإسلام فقد وضع تشريعات تصون هذا الاختلاط الجنسى من العوامل التى تتولد عنها الثمار العفنة الحتمية الحدوث كنتيجة لذلك الانحراف والعدوان.

وفى شرح الحديث كما جاء فى موقع "الدرر السنية" نقرأ ما نصه: "لقدْ نظَّم الشَّرعُ أحكامَ الدِّينِ فى السِّلْمِ والحربِ، ولمَّا كانت الحربُ يَنْتُجُ عنها أسْرى مِن رِجالِ العدُوِّ وسَبايا مِن نسائِهم فقدْ أوضَحَ القرآنُ والسُّنةُ أحكامَ هؤلاء، فحَرَّم وَطْءَ السَّبايا الحواملِ وذَواتِ الأزواجِ حتَّى تَضَعَ الحواملُ حمْلَهنَّ، وحتَّى تَثبُتَ بَراءةُ غيرِ الحاملِ مِن الحمْلِ بالحيْضِ. وفى هذا الحَديثِ

يُخبِرُ أبو سعيدٍ الخُدرى رَضِى اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فى غزوةِ حُنَيْنٍ، التى وقَعَت فى السَّنةِ الثَّامنةِ مِن الهجرةِ عَقِبَ فتْحِ مكَّةَ، بيْن المسلمينَ وأهلِ الطَّائفِ مِن قَبيلتَى هَوازِنَ وثَقيفَ، فى وادٍ يُسمَّى: حُنَيْنًا بيْن مَدينةِ مكَّةَ والطَّائفِ، وكان الكفَّارُ قد خَرَجوا بأموالِهم ونسائِهم وأطفالِهم، وبعْدَ هزيمةِ هَوازنَ وثَقيفَ ونصْرِ اللهِ لنَبيِّه وللمسلمين انسَحَبَ الفارُّونَ مِن الكفَّارِ إلى وادى أوطاسٍ، وهو قَريبٌ مِن حُنَيْنٍ، فبعَثَ النَّبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إليهم جَيْشًا إلى أَوطاسٍ، فلَقُوا عَدوًّا منَ الكُفَّارِ، فقاتَلوهم فظَهَروا عليهم وغَلبوهم، وكان مِن غَنائمِهم سَبَايَا مِن نِساءِ المشركين، فجَعَل بعضٌ مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَتحرَّجون (والتَّحرُّجُ هو الخوفُ مِن مُواقَعةِ الإثمِ) مِن "غِشْيانِهنَّ"، أى: مُعاشرتِهنَّ وجِماعِهنَّ؛ وذلك مِن أجلِ أنَّهنَّ زَوجاتٌ، والمُزَوَّجةُ لا تَحِلُّ لغيرِ زَوجِها. فقدْ ظَنُّوا أنَّ نِكاحَ أزواجِهنَّ لم تنقطعْ عِصْمتُه، فأَنزَلَ اللهُ تَعالى فى شأنِ بيَانِ وَطْءِ مَن تَحرَّجوا فيهنَّ: "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" (النساء/ ٢٤)، أى حُرِّم عليكم نِكاحُ المُحصَناتِ (والمرادُ بالمُحصَناتِ هنا المُزوَّجاتُ) إلَّا ما ملَكْتُم بالسَّبيِ؛ فإنَّه يَنفسِخُ نِكاحُ أزواجِهنَّ الكفَّارِ، ويَحْلِلْنَ لكم بعْدَ استبراءِ أَرحامِهنَّ مِن ماءِ الزَّوجِ الكافرِ: إمَّا بوضْعِ الحملِ إذا كانت حاملًا، أو بحَيضةٍ واحدةٍ إنْ لم تكُنْ مِن ذَواتِ الحمْلِ. وفى الحَديثِ أنَّ نِكاحَ المشركين يَنفَسِخُ إذا سُبِيَت زَوجاتُهم لدُخولِها فى ملْكِ سابِيها. وفيه دَلالةٌ على توَقُّفِ الإنسانِ وبَحْثِه وسُؤالِه عمَّا لا يَتحقَّقُ وَجْهه ولا حُكْمُه، وهو دأْبُ مَن يَخافُ اللهَ عزَّ وجلَّ".

وكقاعدة عامة فالإسلام لا يقف مع الرق بل يعمل فى الأصل ضده. وهو أول من يعمل للقضاء على هذا النظام لو توفرت فرص لإلغائه. كذلك لو

كان المسلمون الأوائل يلتحقون بالغزو من أجل النساء والفوز باللذة الجنسية فى أحضانهن لما رأينا حرصهم على الشهادة فى سبيل الله لأن إشباع الشهوات الجسدية يتعارض مع ذلك الحرص، إذ المشغول بشهواته لا يمكنه التضحية بحياته لأن الشهوة قرينة الحرص على الحياة والتمسك بها ولا يستطيع صاحبها الزهد فى الدنيا وأطايبها. كما أنه من غير المفهوم أن يقوم الإسلام فى انتشاره على التسيب الجنسى فى الحرب، وفى ذات الوقت يتشدد مع الغريزة الجنسية كل ذلك التشدد الذى نعرفه إزاء تلك الشهوة حتى ليضع لإشباعها خارج مؤسسة الزواج حدا باهظا مؤلما مخجلا فاضحا هو حد الزنا. وإضافة إلى هذا لم يكن المسلمون الأوائل ليكونوا على هذه الدرجة من العفة الجنسية المتقشفة لو كان التسيب هو عنوان الحروب فيه على النحو الذى يصوره توما الأكوينى.

ويظهر هذا الأمر على حقيقته حين نقارن بين موقف كل من النصرانية والإسلام من الزنا: فبينما نجد أقصى ما يمكن أن يكون رد الفعل تجاه الزنا فى النصرانية هو رد يسوع على اليهود حين أتوه بامرأة خاطئة يريدون منه إيقاع عقوبة الزنا عليها، إذ أدار نظره فيهم وفيها لثوان قبل أن يقول لهم: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر، ثم طلب منها النهوض والانصراف دون إنزال أى عقاب بها مهما كان، وبين العقوبة التى يخصصها الإسلام فى هذه الحالة للزانيين حتى لو قلنا إنها تنحصر فى كل الحالات على جلدهما مائة جلدة على مرأى ومسمع من الناس، وهو ما يمثل فضيحة اجتماعية من العيار الثقيل. صحيح أن هناك حديثا يوصى بالستر على مجترحى جريمة الزنا، لكن ذلك إنما يكون قبل مسارعة الشهود إلى القاضى لينبئوه بما كان. لكن ما دام الأمر قد وصل إلى الحاكم فلا مناص من التحقيق وإيقاع العقاب على مرتكبى ذلك الإثم. ومع وضوح الفرق الواسع بين تشدد الإسلام هنا وبين

ترك النصرانية ذلك الذنب دون أن تضع له عقابا فها هو ذا توما الأكوينى المنافق يكتب دون خجل أن الإسلام يتخذ من التسيب الجنسى عاملا من عوامل نشر الإسلام.

وأخيرا وليس آخرا ماذا يقول الكتاب المقدس فى هذه القضية؟ تعالوا نقرأ: "١٠«إِذَا خَرَجْتَ لِمُحَارَبَةِ أَعْدَائِكَ وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ، وَسَبَيْتَ مِنْهُمْ سَبْيًا، ١١وَرَأَيْتَ فِي السَّبْيِ امْرَأَةً جَمِيلَةَ الصُّورَةِ، وَالْتَصَقْتَ بِهَا وَاتَّخَذْتَهَا لَكَ زَوْجَةً، ١٢فَحِينَ تُدْخِلُهَا إِلَى بَيْتِكَ تَحْلِقُ رَأْسَهَا وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَهَا ١٣وَتَنْزِعُ ثِيَابَ سَبْيِهَا عَنْهَا، وَتَقْعُدُ فِي بَيْتِكَ وَتَبْكِي أَبَاهَا وَأُمَّهَا شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ تَدْخُلُ عَلَيْهَا وَتَتَزَوَّجُ بِهَا، فَتَكُونُ لَكَ زَوْجَةً. ١٤وَإِنْ لَمْ تُسَرَّ بِهَا" (سفر التثنية/ ٢٣). فانظر كيف تعامَل الأسيرة فى هذا التشريع. إن آسرها لا بد أن يحلق لها شعرها ويقلم لها أظفارها. أى عليه أن يجردها مما تتباهى به النساء: الشعر الوحف الجميل، والأظافر الملونة. وهذا التشويه والعقاب لا مكان لهما فى التشريع الإسلامى. أما نياحتها على أبيها وأمها شهرا فليس هذا تشريعنا، إذ عليها فى تلك الحالة أن تعتد بحيضة. فإن كانت حاملا لم يقربها حتى تضع حملها. أما فى سفر "التثنية" فلا مبالاة بذلك كما هو واضح، ومعناه أن اليهودى سينال سَبِيَّتَه حاملا كانت أو غير حامل. فماذا يقول فى ذلك فيلسوف الجهل والعار توما الأكوينى؟

وعلى نفس الشاكلة هاجم توما الأكوينى النبى محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه خلط الأساطير بالحقائق، وأن الدروس التى يقدمها محمد يستطيع أن يتوصل إليها أى رجل عادى بقدراته الطبيعية دون مساعدة من أحد. ثم أعطانا الأكوينى مثالا على الأساطير والعقائد الكاذبة التى مزجها محمد مع الحقائق، وهى ما جاء فى الآية ١١٠ من سورة "المائدة" أن عيسى صنع من

الطين هيئة طائر ثم نفخ فيه فتحول إلى طير بإذن الله. فهذه القصة لاوجود لها فى الأناجيل التى تعترف بها الكنيسة بل فى إنجيل آخر ترفضه اسمه: "إنجيل الطفولية". وهذه هى الآية محل الشاهد: "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...".

وهذا هو النص المومأ إليه فى ذلك الإنجيل: "وعندما أتمَّ يسوع عامه السابع، كان يلعب يومًا مع أطفال آخرين من عمره، وكانوا يتسلَّوْن ويصنعون من التراب المبلول صور حيوانات متنوِّعة: ذئابًا وحميرًا وطيورًا، وكان كلُّ واحد متباهيًا بعمله، ويجتهد لرفعه فوق مستوى عمل رفاقه. عندها قال يسوع: إننى آمر الصور التى صنعتها بالسير، فتمشى. ولما سأله الأطفال عما إن كان هو ابن الخالق أمر الربّ يسوعُ الصورَ بالسير، فتقدّمت على الفور. وحين كان يأمرها بالعودة كانت تعود. وقد صنع صور طيور وعصافير دُورِى كانت تطير حين يأمرها بالطيران وتتوقّف حين يقول لها أن تتوقَّف، وحين كان يقّدم لها شرابًا وطعامًا كانت تأكل وتشرب. وحين غادر الأطفال ورَوَوْا لأهلهم ما رَأَوْا قال لهم هؤلاء: ابتعدوا من الآن فصاعدًا عن مجلسه، فهو ساحر، وكفوا عن اللعب معه".

والواقع أن الأناجيل التى كتبها النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء كثيرة بالعشرات، وهى تشبه السيرة النبوية عندنا لكنها أقل وثاقة منها لأن السير النبوية تعتمد أسلوب الإسناد ولأن كتّابها معروفون بخلاف كتبة الأناجيل، الذين يثار بسببهم جدل كبير وكثير لا ينتهى. ثم بعد وقت طويل

جدا اختارت الكنيسة أربعة أناجيل من هذه العشرات، ولكن دون أن يكون هناك معيار للاختيار. كما أن هذه الأناجيل الأربعة تختلف فيما بينها اختلافا شديدا بل يختلف الإنجيل الواحد فى الموضوع الواحد اختلافا كبيرا لا يمكن رتقه. زد على ذلك أن هذه الأناجيل ليست هى كلام المسيح، بل يمثل كل منها سيرة يسوعية كما تحكى السير النبوية لدينا حياة النبى محمد من لدن طفولته حتى مماته مازجة الأحداث والوصف والحوار بعدد من كلامه صلى الله عليه وسلم كلما كان هناك موضع لذلك. وعلى هذا فلا يصح المقارنة بين القرآن والأناجيل إلا إذا صح أن نقيم مقارنة بين القرآن وكتب السيرة النبوية. أما المقارنة فيمكن أن تتم بين القرآن الكريم والإنجيل الشريف الذى نزل على عيسى عليه السلام... إن وُجِد. لكنه للأسف غير موجود بعد فى أيدينا. وحين نقول إنه كان هناك إنجيل سماوى نزل من عند الله على عيسى عليه السلام لا نقوله من عندياتنا بل استنادا إلى ما جاء فى الإصحاح الأول من الإنجيل الذى ألفه مرقس حين كتب: "١٥وَيَقُولُ (أى المسيح عليه السلام): «قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ»"، وفى الإصحاح الثالث عشر من نفس الإنجيل وعلى لسان عيسى عليه السلام أيضا: "١٠وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِالإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ"، وفى الإصحاح السادس عشر منه هو ذاته: "١٥وَقَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا". فنحن إنما نعتمد على ما فى أيديهم لا على ما يقوله قرآننا.

ولسوف أعطيكم الآن مثالا من كل تناقض فى الأناجيل التى اختارتها الكنيسة وأعلنت رضاها عنها، وإن لم تذكر لنا السبب فى ذلك الاختيار والرضا. وهذا مثال على تناقض الإنجيل الواحد مع نفسه. ففى الإصحاح

الخامس من إنجيل متى نقرأ ما يلي: "١٧«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ.١٨فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ.١٩فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. ٢٠فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.

٢١«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. ٢٢وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. ٢٣فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئًا عَلَيْكَ، ٢٤فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ، وَاذْهَبْ أَوَّلًا اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ. ٢٥كُنْ مُرَاضِيًا لِخَصْمِكَ سَرِيعًا مَا دُمْتَ مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ، لِئَلَّا يُسَلِّمَكَ الْخَصْمُ إِلَى الْقَاضِي، وَيُسَلِّمَكَ الْقَاضِي إِلَى الشُّرَطِيِّ، فَتُلْقَى فِي السِّجْنِ. ٢٦اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لاَ تَخْرُجُ مِنْ هُنَاكَ حَتَّى تُوفِيَ الْفَلْسَ الأَخِيرَ!

٢٧«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ. ٢٨وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ. ٢٩فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ. ٣٠وَإِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ.

٣١«وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلاَقٍ. ٣٢وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِى، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِى.

٣٣«أَيْضًا سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَحْنَثْ، بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. ٣٤وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ، لاَ بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا كُرْسِىُّ اللهِ، ٣٥وَلاَ بِالأَرْضِ لأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ، وَلاَ بِأُورُشَلِيمَ لأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. ٣٦وَلاَ تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ، لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ. ٣٧بَلْ لِيَكُنْ كَلاَمُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لاَ لاَ. وَمَا زَادَ عَلَى ذلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ.

٣٨«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. ٣٩وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. ٤٠وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. ٤١وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. ٤٢مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ.

٤٣«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. ٤٤وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، ٤٥لِكَىْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِى فِى السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. ٤٦لأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَىُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذلِكَ؟ ٤٧وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَأَىَّ فَضْلٍ تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هكَذَا؟ ٤٨فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِى فِى السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ".

وهنا نرى بأم أعيننا كيف قد أعلن يسوع أنه ما جاء لينقض الناموس، أى الشريعة التى أتى بها الأنبياء من قبله، ثم ينطلق على الفور ذاكرا بعض بنود الناموس لِيَكُرّ على كل منها وينقضه نقضا ويقدم مفهوما آخر له أو تشريعا يصادمه. أما الآن فهاكم، أيها القراء، مثالا على التناقض بين إنجيل وآخر. ويتعلق هذا التناقض بنسب المسيح لا أقل. وإذا كان ثم تناقض بين الأناجيل فى هذا الموضوع الذى يتعلق بإلههم ذاته فكيف يريدوننا أن نصدق تلك الأناجيل دون مناقشة أو اعتراض وكأنها وحى إلهى؟ ترى هل يمكننا الزعم بأن ما جاء فى تلك السيرة النبوية أو تِى هو كلام معصوم لا يمكن تخطئته أو الاعتراض عليه لأنه نزل من السماء؟ فهذا مثل هذا.

لقد وردت سلسلة نسب المسيح فى إنجيلين من الأناجيل الأربعة: إنجيل متى، وإنجيل لوقا. وهذه سلسلة إنجيل متى، وهى موجودة فى أول إصحاح منه: "١كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ: ٢إِبْرَاهِيمُ وَلَدَ إِسْحَاقَ. وَإِسْحَاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. ٣وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونُ وَلَدَ أَرَامَ. ٤وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِّينَادَابَ. وَعَمِّينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونُ وَلَدَ سَلْمُونَ. ٥وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَّى. ٦وَيَسَّى وَلَدَ دَاوُدَ الْمَلِكَ. وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ مِنَ الَّتِي لأُورِيَّا. ٧وَسُلَيْمَانُ وَلَدَ رَحَبْعَامَ. وَرَحَبْعَامُ وَلَدَ أَبِيَّا. وَأَبِيَّا وَلَدَ آسَا. ٨وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عُزِّيَّا. ٩وَعُزِّيَّا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حِزْقِيَّا. ١٠وَحِزْقِيَّا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ آمُونَ. وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. ١١وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. ١٢وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَأَلْتِئِيلَ. وَشَأَلْتِئِيلُ وَلَدَ زَرُبَّابِلَ. ١٣وَزَرُبَّابِلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ

أَلِيَاقِيمَ. وَأَلِيَاقِيمُ وَلَدَ عَازُورَ.١٤وعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَ. وَأَخِيمُ وَلَدَ أَلِيُودَ.١٥وأَلِيُودُ وَلَدَ أَلِيعَازَرَ. وَأَلِيعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ.١٦وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ.١٧فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً".

ثم هذه سلسلة إنجيل لوقا: "٢٣وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي، ٢٤بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، بْنِ مَلْكِي، بْنِ يَنَّا، بْنِ يُوسُفَ، ٢٥بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ عَامُوصَ، بْنِ نَاحُومَ، بْنِ حَسْلِي، بْنِ نَجَّايِ، ٢٦بْنِ مَآثَ، بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ شِمْعِي، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يَهُوذَا، ٢٧بْنِ يُوحَنَّا، بْنِ رِيسَا، بْنِ زَرُبَّابِلَ، بْنِ شَأَلْتِيئِيلَ، بْنِ نِيرِي، ٢٨بْنِ مَلْكِي، بْنِ أَدِّي، بْنِ قُصَمَ، بْنِ أَلْمُودَامَ، بْنِ عِيرِ، ٢٩بْنِ يُوسِي، بْنِ أَلِيعَازَرَ، بْنِ يُورِيمَ، بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، ٣٠بْنِ شِمْعُونَ، بْنِ يَهُوذَا، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يُونَانَ، بْنِ أَلِيَاقِيمَ، ٣١بْنِ مَلَيَا، بْنِ مَيْنَانَ، بْنِ مَتَّاثَا، بْنِ نَاثَانَ، بْنِ دَاوُدَ، ٣٢بْنِ يَسَّى، بْنِ عُوبِيدَ، بْنِ بُوعَزَ، بْنِ سَلْمُونَ، بْنِ نَحْشُونَ، ٣٣بْنِ عَمِّينَادَابَ، بْنِ أَرَامَ، بْنِ حَصْرُونَ، بْنِ فَارِصَ، بْنِ يَهُوذَا، ٣٤بْنِ يَعْقُوبَ، بْنِ إِسْحَاقَ، بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ تَارَحَ، بْنِ نَاحُورَ، ٣٥بْنِ سَرُوجَ، بْنِ رَعُو، بْنِ فَالَجَ، بْنِ عَابِرَ، بْنِ شَالَحَ، ٣٦بْنِ قِينَانَ، بْنِ أَرْفَكْشَادَ، بْنِ سَامِ، بْنِ نُوحِ، بْنِ لاَمَكَ، ٣٧بْنِ مَتُوشَالَحَ، بْنِ أَخْنُوخَ، بْنِ يَارِدَ، بْنِ مَهْلَلْئِيلَ، بْنِ قِينَانَ، ٣٨بْنِ أَنُوشَ، بْنِ شِيتِ، بْنِ آدَمَ، ابْنِ اللهِ".

وبنظرة سريعة سوف يتبين لك أن حلقات كل سلسلة تختلف عن حلقات السلسلة الأخرى فى عددها وفى ترتيبها وفى ذكر بعض الحلقات هنا

مع اختفائها هناك. كل ذلك، والموضوع هو نسب الإله (ولا داعى للتلبث عند حكاية نسب الإله هذه، وإلا فلن ننتهى فى يومنا الذى يعلم به ربنا)، فما بالنا لو كان الموضوع شيئا آخر؟ وبطبيعة الحال لا بد أن تكونوا لاحظتم أن لوقا جعل من آدم ابنا لله لا يسوع. والواقع أن بنوة آدم لله، من حيث المنطق الشكلى، هى الأوجه لأنه إذا كان النصارى المثلثة يزعمون أن يسوع ابن الله لأنه ليس له أب فآدم ليس له أب ولا أم. فمن منهما أولى بتلك البنوة؟ وهذا إن لم ينبر أحد قائلا: بل جريا على ذلك المنطق يكون آدم هو الإله نفسه! إن الاختلافات لَتكون أعقد وأفظع. أما لو مددنا أبصارنا إلى الكتّاب المقدس كله فلسوف يغمى علينا من هذه الشناعات التى لا تنتهى. فهل هذه هى الأناجيل التى يرى أننا يجب أن نلتزم بها ولا ننظر فى أناجيل أخرى لأن الأناجيل الأولى معصومة، بينما الأخرى مجرد أساطير كاذبة؟

ثم من أين يا ترى حصل النبى محمد صلى الله عليه وسلم على معجزة تحويل المسيح الطين طيرا؟ قبل الجواب عن هذ السؤال نود أن نلفت انتباه القارئ العزيز إلى أن محمدا (ما دام نبيا كذابا كما يقول الأكوينى) كانت مصلحته تقتضى أن يضرب صفحا تاما عن موضوع معجزات الأنبياء هذا حتى لايضع نفسه فى موقف مخجل ويفسد عليها أمره، إذ ما دام للأنبياء السابقين معجزات فلا مناص له هو أيضا أن يأتى بمعجزتين أو ثلاث أو أربع (مَنْ يزيد؟ فالبحر يحب الزيادة!)، وهو رجل داهية حسبما يصورونه وماكر ومحاور مداور، ويريد أن يكون نبيا، بل خاتم الأنبياء والمرسلين. فكان عليه، والحالة هذه، أن يصمت عن ذكر تلك المعجزات ولا ينبس ببنت شفة عنها، بل أن ينكرها إنكارا، والجعيص من يستطيع إثبات عكس ذلك، وهيهات. فكل شىء راح وانقضى، وأمر المعجزات قد ولى ومضى!

هذه واحدة، والثانية من يا ترى أنبأ محمدا بإنجيل الطفولية هذا؟ إن الكنيسة فى ذلك الوقت كانت تحرم على عموم أتباعها قراءة كتابهم المقدس. فإذا كان هؤلاء يجهلون ما تقوله الأناجيل الأربعة القانونية فكيف لهم الاطلاع على إنجيل الطفولية التى لا تعترف به الكنيسة؟ إن واحدا مثلى شارف على الثمانين، ومهتما أشد الاهتمام بمسألة المقارنة بين الإسلام وبين اليهود والنصرانية، لم يعرف إنجيل الطفولية إلا بعدما كبرت ونضجت وسافرت إلى أوربا وتعلمت لغتين من لغاتها وعاشرتهم أعواما، ثم اقتنيت كاتوبا هو الذى من خلاله على مدى سنوات طوال نما إلىَّ نبأ ذلك الإنجيل وغيره من الأناجيل المرفوضة من الكنيسة. فكيف يتوهم متوهم أن النبى قد علم بذلك الإنجيل وما جاء فيه عن حكاية تحويل يسوع الطين إلى طائر؟ لاحظ أن محمدا كان تاجرا، ولم يكن مقارن أديان ولا متخصصا فى الأدب، وكان لا يفك الخط حتى يقال إنه كان يجمع الكتب من مظانها ويقرؤها فى أوقات فراغه وروقان باله إذ كان يخطط منذ وقت مبكر ليكون نبيا قبل أن يسبقه إليها أحد. والرزق يحب الخِفِّيَّة، والبركة فى البكور، والطائر الشُّطُور هو الذى يلتقط الدودة بمنقاره قبل أن يفوز بها منقار آخر. فهذا عن عموم الناس الذين كان النبى يخالطهم فى الشام واليمن حين كان يسافر مع القافلة للتجارة هناك بمال خديجة. أما إذا كان الأمر بخلاف ما نقول فلماذا لم يترك أحد من معلميه شفويا أو كتابيا ما يدل على أنه هو معلمه! أيتصور عاقل أن شيئا من هذا يمكن أن يكون قد حدث ولا تردّ به فارس ولا بيزنطة على رسالة محمد لكل من عاهليهما يدعوه فيها إلى الإسلام؟

وأما رجال الدين فليس فى حياته منهم سوى بحيرا، الذى لا يكفون عن الزنّ به زنا مزعجا متصلا مع أنه لم يقابله غير مرة واحدة مكث فيها معه ومع

القافلة القرشية فى الظهرية وقت راحة القيلولة. وقد انبرى الكاتب والمؤرخ والناقد الأسكتلندى الشهير توماس كارلايل فى كتابه: "الأبطال وعبادة الأبطال"، من تلقاء نفسه والله العظيم إذ لم يطلب منه المسلمون ذلك، فاستسخف الزعم بأن راهبا يجلس مع صبى فى أواسط العقد الثانى من عمره على أوسع تقدير سويعات قلائل فيعلمه النصرانية ويخرّجه فيها ويجهزه للنبوة على سنجة عشرة بطريقة كتاب "كيف تتعلم الإنجليزية فى ثلاثة أيام بدون معلم؟". الا إن هذا لهو المستحيل بعينه، وذلك إن صحت حكاية تلك المقابلة بينهما، فإن لى لملاحظات قاتلة تنسف كل ما يتعلق بها:

فعلى سبيل التمثيل كيف تفاهم الطرفان وليس بينهما لسان مشترك؟ وكيف عرف المدعوّ بحيرا أن فى تلك القافلة صبيا سوف يكون نبيا؟ هل كان يشم على ظهر يده أو يضرب الودع؟ إن معرفة الغيب لأمر مستحيل. ومن قال له إن اليهود يبحثون عنه فى كل مكان لأنه مطلوب عندهم للقتل رغم أنهم لم يكن لهم عنده ثأر يقتضى إزهاق روحه؟ ولماذا يهود الشام بالذات، واليهود منتشرون فى المنطقة هنا وهناك بحيث لو أفلت من أيديهم فى الشام فلسوف يقبضون عليه فى اليمن... مثلا، وهذا إن لم يستأجروا قاتلا محترفا يقطف حياته فى عقر داره؟ ومعروف أنه، حسب الرواية، قد كشف عن خاتم النبوة فى ظهر محمد وأعلن أنه هو النبى المنتظر وأن اليهود لذلك يرومون وضع حد لحياته التى تهدد أملهم فى استقرار النبوة فيهم على الدوام. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يحاجج النبىُّ المكيين بهذه الواقعة متخذا منها برهانا على نبوته مستشهدا بمن حضر ذلك اللقاء وسمع شهادة بحيرا؟ أفلم يصرح أمامهم بذلك بحيرا؟ أمّا إن لم يكن قد صرح له بأنه هو النبى المنتظر واكتفى بتعليمه النصرانية فكيف سكت المكيون فلم يثيروا التشكيك فى نبوته من

خلال القول بأن بحيرا هو الذى صنعه وصنع منه نبيا؟ وكيف لم نسمع بحيرا يرفع عليه دعوى فى إدارة المصنفات الفنية يتهمه فيها بأنه قد علمه النصرانية بغية اعتناقه لها، لكنه خرج على النص وقال عن نفسه إنه نبى؟ على طريقة "علّمناهم الشحاتة، فسَبَقونا على الأبواب"! الغريب أنه لا النبى ولا الصحابة ولا أمية بن أبى الصلت ولا أبو سفيان أو أبو جهل أو أبو لهب أو عمر قبل اعتناقه الإسلام ولا عمرو بن العاص ورفيقه فى الرحلة الحبشية فى مجلس النجاشى ليؤلباه على المسلمين الذين كانوا التجأوا إليه ولا شعراء مكة أيام شركهم واشتباكهم مع شعراء الرسول ولا ولا ولا ولا ولا قد تطرق أى منهم إلى ذكر بحيرا. أتراه لو كان شخصا حقيقيا وقابل الرسول فى صباه أو فى غير صباه أكانوا يسكتون هذا السكوت التام عنه فلا يأتون على سيرته بشىء؟ لقد ذكر النبيُّ مثلا عليه السلام ورقةَ بن نَوْفل وقُسَّ بن ساعدة وزيدَ بن عمرو بن نُفَيْل وأميةَ بن أبى الصلت وخالدَ بن سنان وغيرهم، أما بحيرا فلم يرد له ذكر على لسانه. ثم كيف ظل الرسول يتذكر كل ما علمه بحيرا إياه عن النصرانية طيلة تلك العقود حتى بلغ الأربعين دون أن تضطرب عليه ذاكرته؟ وإذا كان بحيرا قد علمه بعض الأشياء فى النصرانية فهل هو أيضا الذى علمه انتقادها وتصحيح ما فيها من انحرافات وخرافات؟ وهل هو الذى علمه أخبار عاد وثمود؟ وهل هو الذى قص عليه حكايات نوح وإبراهيم ولوط وداود وسليمان وعرّفه فوق البيعة كيف ينقى تلك القصص مما فيها من كفريات وتشويهات لشخصيات أبطالها من نسبة الخُلُق الوضيع إليهم جميعا، والكفر لبعضهم؟ وهل القرآن لا يحتوى إلا على قصص الأنبياء وحدها؟ أم إن بحيرا قد علمه أيضا أخبار غزواته وحروبه وسؤالات أصحابه وإجاباتها قبل الهنا بسنة؟

ثم ينتقل توما الأكوينى إلى مأخذ آخر على النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وهو أنه لم يقدم معجزات حقيقية تشهد له أنه نبى من عند الله، إذ المعجزات هى الدليل الوحيد الذى يثبت أن من يأتى بها نبى حقيقى. وقد سبق أن بينا رأينا بالتفصيل فى هذه النقطة بالدراسة التى فى أيدينا، ولا داعى إذن لتكرار ما قلناه. وقد ركز الأكوينى على معجزة انشقاق القمر، وشكك فيها، وحجته أن أحدا من أية أمة أو ثقافة أخرى لم يشاهد هذا الحدث، ولم ينقله لنا سوى المسلمين مع أن انشقاق القمر، لو كان وقع، لشاهده الناس فى كل مكان، إذ من طبيعة المعجزة أن تكون عالمية لا مقصورة على جماعة معينة. وبهذا نراه ينفى آية انشقاق القمر مثلما ينكر كل معجزة ذكرت للرسول باعتبار أن أحدا آخر غير المجموعة التى كانت حاضرة حوله صلى الله عليه وسلم لم يرها، على عكس معجزات الكتاب المقدس، وبخاصة معجزات عيسى عليه السلام، إذ حضرها ناس من مختلف الجنسيات.

ولست أدرى لم يشترط الأكوينى أن تكون المعجزة عالمية بحيث يراها البشر فى كل مكان، وإلا ما صلحت أن تكون شهادة على صدق من جاء بها. الحق أن هذا كلام لا يخرج من إلّ كما قال أبو بكر الصِّدِّيق عن الوحى المضحك الذى ادعى مسيلمة الكذاب أنه يوحَى إليه من الله حين اختاره نبيا. وأرى أن الأكوينى ينبغى أن ينقل على وجه السرعة إلى مستشفى الخانكة، فمن البَيِّن الساطع الوضوح أن حالتة متأخرة بحيث من المحتمل جدا أن تثور به الماليخوليا فى أى وقت وعلى حين بغتة، فيهجم كالكلب الأرمنط على من حوله ويعضهم فيموتوا لأن أمصال علاج عضة الكلب، وبخاصة الكلب الألمانى من أمثال الأكوينى، غير متوفرة فى الأسواق ولا المستشفيات.

ترى ماذا كان على النبى محمد عليه السلام أن يصنع كى يفوز بشهادة الآيزو من ذلك الكلب المفترس المسعور؟ هل كان الأكوينى ينتظر منه أن يتصل بكل القنوات الفضائية العالمية لتحضر فى وقت يحدده النبى ليقوم بشق القمر نصفين ومعها آلات التصوير والمراسلون والفنيون كى ينقلوا بالصوت والصورة الحدث الجبار؟ وأين كان النبى من كل ذلك؟ لقد كان انتقال خبر واقعة مثل هذه فى عصره من مدينة إلى أخرى مع راكبى الإبل عبر الصحراء فى أرجاء بلاد العرب يستغرق أسابيع أو شهورا حسب المسافة، ولا يمكن أن يشاهده إلا بضعة أفراد أو بضع عشرات منهم فى محل وقوع الحدث، أما من هم خارج موضع وقوع المعجزة فيستحيل أن يشاهدوها. وتعالوا نتخيل ما جرى: لقد كان النبى فى نشاطه الدعوى ذات مرة يحاول إقناع المشركين المكيين بصدق رسالته ويبين لهم أن الدخول فى دينه يؤدى إلى عزتهم وخير البشرية جمعاء وأن الإسلام إيذان بفجر جديد على العالم ومنعطف خطير فى مسيرة التاريخ، لكنهم كالعادة يسخرون ويعاندون ويجادلون. وكان الوقت ليلا، وانشق القمر نصفين ورأوه هكذا. وكانوا هم المعنيين بهذه الآية. واللهُ المطلقُ، الذى لا يحده حد ولا يعوقه قيد ولا يستطيع أحد أن يخالف عن قضائه وقدره وصاحِبُ "كن فيكون"، قادر أن يشقه هنا ولا يشقه هناك أو أن يمكّن المكيين من مشاهدته ولا يمكّن غيرهم من ذلك لأن غيرهم لا يهمه من هذا الأمر بل لا يعلم عنه من كثير أو قليل. وبالله لماذا ينبغى أن يرى هذا الحدث الفارسى أو الهندى أو الصينى أو سكان بلاد واق الواق (اليابان) أو الأوربى أو الأفريقى أو الهنود الحمر أو شعوب القارة الأسترالية؟ إنها لا علم عندها بنبوة محمد ولا لها أدنى اهتمام بمعرفة أى شىء خارج نطاق حياتها اليومية، ولا هى كفرت بمحمد ولاعاندته وجادلته وسخرت منه وتهكمت به حتى تكون هناك حاجة إلى إطلاعها على القمر المشقوق كى تؤمن. وقبل

ذلك كله لم تكن هناك وسائل اتصال أو توصيل بعيدة المدى سوى البلورة المسحورة فى "ألف ليلة وليلة"، بينما الأديان أمر جاد لا وشيجة تشجه بمثل تلك الأقاصيص المسليات. كذلك لا بد أن نكون على ذكر من أنه لا موجب أن يستمر انشقاق القمر مدة طويلة بل يكفى أن يراه المشركون ويتأكدوا أنه انشق فعلا، وهذا لا يستغرق أكثر من دقيقة أو نحوها. فمن الممكن ألا يلتفت إليه الناس خارج مكة أو ينشغلوا به.

وفى تفسير "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازى كلام وجيه فى هذا الموضوع. قال: "هو حَقٌّ، إذِ القَمَرُ انْشَقَّ. والمُفَسِّرُونَ بِأسْرِهِمْ عَلى أنَّ المُرادَ أنَّ القَمَرَ انْشَقَّ، وحَصَلَ فِيهِ الانْشِقاقُ، ودَلَّتِ الأخْبارُ عَلى حَدِيثِ الانْشِقاقِ. وفى الصَّحِيحِ خَبَرٌ مَشْهُورٌ رَواهُ جَمْعٌ مِنَ الصَّحابَةِ، وقالُوا: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آيَةَ الانْشِقاقِ بِعَيْنِها مُعْجِزَةً، فَسَألَ رَبَّهُ فَشَقَّهُ ومَضى. وقالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: المُرادُ سَيَنْشَقُّ، وهو بَعِيدٌ ولا مَعْنى لَهُ لِأنَّ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ، وهو الفَلْسَفِى، يَمْنَعُهُ فِى الماضِى والمُسْتَقْبَلِ، ومَن يُجَوِّزُهُ لا حاجَةَ إلى التَّأْوِيلِ. وإنَّما ذَهَبَ إلَيْهِ ذَلِكَ الذّاهِبُ لِأنَّ الانْشِقاقَ أمْرٌ هائِلٌ، فَلَوْ وقَعَ لَعَمَّ وجْهَ الأرْضِ، فَكانَ يَنْبَغِى أنْ يَبْلُغَ حَدَّ التَّواتُرِ. نَقُولُ: النَّبِى ﷺ لَمّا كانَ يَتَحَدّى بِالقُرْآنِ، وكانُوا يَقُولُونَ: إنّا نَأْتِى بِأفْصَحِ ما يَكُونُ مِنَ الكَلامِ، وعَجَزُوا عَنْهُ، فَكانَ القُرْآنُ مُعْجِزَةً باقِيَةً إلى قِيامِ القِيامَةِ لا يَتَمَسَّكُ بِمُعْجِزَةٍ أُخْرى، فَلَمْ يَنْقُلْهُ العُلَماءُ بِحَيْثُ يَبْلُغُ حَدَّ التَّواتُرِ. وأمّا المُؤَرِّخُونَ فَتَرَكُوهُ لِأنَّ التَّوارِيخَ فِى أكْثَرِ الأمْرِ يَسْتَعْمِلُها المُنَجِّمُ، وهو لَمّا وقَعَ الأمْرُ قالُوا بِأنَّهُ مِثْلُ خُسُوفِ القَمَرِ، وظُهُورِ شَيْءٍ فِى الجَوِّ عَلى شَكْلِ نِصْفِ القَمَرِ فِى مَوْضِعٍ آخَرَ، فَتَرَكُوا حِكايَتَهُ فِى تَوارِيخِهِمْ. والقُرْآنُ أدَلُّ دَلِيلٍ وأقْوى مُثْبِتٍ لَهُ، وإمْكانُهُ لا يُشَكُّ فِيهِ، وقَدْ أخْبَرَ عَنْهُ الصّادِقُ، فَيَجِبُ

اعْتِقَادُ وُقُوعِهِ. وحَدِيثُ امْتِناعِ الخَرْقِ والالْتِئَامِ حَدِيثُ اللِّئَامِ، وقَدْ ثَبَتَ جوازُ الخَرْقِ والتَّخْرِيبِ عَلى السَّماواتِ، وذَكَرْناهُ مِرارًا فَلا نُعِيدُهُ".

وفى تفسير القرطبي: " ثبت ذلك فى صحيح الْبُخَارِى وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأَنَسٍ وَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِى اللَّهُ عَنْهُمْ. وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِي ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ الْقَمرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ، فَنَزَلَتْ "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ" إِلَى قَوْلِهِ: "سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ" يَقُولُ: ذَاهِبٌ. قَالَ أَبُو عِيسَى التِّرمذى: هَذَا حديث حسن صحيح. ولفظ البخارى عن أنس قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ فِرْقَتَيْنِ. وَقَالَ قَوْمٌ: لَمْ يَقَعِ انْشِقَاقُ الْقَمرِ بَعْدُ، وَهُوَ مُنْتَظَرٌ، أَى اقْتَرَبَ قِيَامُ السَّاعَةِ وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ، وَأَنَّ السَّاعَةَ إِذَا قَامَتِ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقَمرِ وَغَيْرِهِ. وكَذَا قَالَ الْقُشَيْرِى. وَذَكَرَ الْمَاوَرْدى: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَقَالَ: لأَنَّهُ إِذَا انْشَقَّ مَا بَقِى أَحَدٌ إِلَّا رَآهُ، لأَنَّهُ آيَةٌ، وَالنَّاسُ فِى الْآيَاتِ سَوَاءٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، فَإِذَا جاءَتِ انْشَقَّ الْقَمَرُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ. وَقِيلَ: "وَانْشَقَّ الْقَمَرُ"، أَى وَضَحَ الْأَمْرُ وَظَهَرَ. وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ بِالْقَمرِ مَثَلًا فِيمَا وَضَحَ. قَالَ:

أَقِيمُوا بَنِى أُمِّى صُدُورَ مَطِيِّكُمْ　　فَإِنِّى إِلَى حَيٍّ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ　　وَشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ

وَقِيلَ: انْشِقَاقُ الْقَمَرِ هُوَ انْشِقَاقُ الظُّلْمَةِ عَنْهُ بِطُلُوعِهِ فِى أَثْنَائِهَا، كَمَا يُسَمَّى الصُّبْحُ: فَلَقًا لِانْفِلَاقِ الظُّلْمَةِ عَنْهُ. وَقَدْ يُعبَّرُ عَنِ انفِلَاقِهِ بِانْشِقَاقِهِ كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ:

فَلَمَّا أَدْبَرُوا وَلَهُمْ دَوِىٌّ　　دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصُّبْحِ دَاعِ

قُلْتُ: وَقَدْ ثَبَتَ بِنَقْلِ الْآحَادِ الْعُدُولِ أَنَّ الْقَمرَ انْشَقَّ بِمَكَّةَ، وَهُوَ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَسْتَوِى النَّاسُ فِيهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ آيَةً لَيْلِيَّةً، وَأَنَّهَا كَانَتْ

باستدعاء النبي ﷺ من الله تعالى عند التحدى. فروى أن حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضبا من سب أبى جهل الرسول ﷺ طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا فى إيمانه. وقد تقدم فى الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما فى حديث ابن مسعود وغيره. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ. وقد قيل: هو على التقديم والتأخير، وتقديره: انشق القمر واقتربت الساعة، قاله ابن كيسان. وقد مر عن الفراء أن الفعلين إذا كانا متقاربى المعنى فلك أن تقدم وتؤخر عند قوله تعالى: "ثم دنا فتدلى".

قوله تعالى: "وإن يروا آية يعرضوا: هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر. قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر فرقتين: نصف على أبى قبيس ونصف على قعيقعان. فقال لهم رسول الله ﷺ: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادى المشركين: يا فلان يا فلان، اشهدوا. وفى حديث ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا من سحر ابن أبى كبشة. سحركم، فاسألوا السفار، فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشق فنزلت: اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا. أى إن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان". وقد يطرق لصحة هذا التفسير أن جميع المشركين قد دخلوا فى الإسلام ولم نسمع أحدا منهم ينكر صحة الآية أو يجادل بشأنها رغم أنها إنما نزلت فيهم وتقرع أسماعهم ونفوسهم صباح مساء، ومساء صباح!

ويمكن القول بأن الآية معناها التحذير والتهديد، وذلك كما يقول الواحد منا لتلميذ لا يسمع النصيحة وظل يلعب ويعبث ويضيع وقته طوال العام الدراسى فلم يحضر الحصص المدرسية ولم يفتح الكتب، ثم حل موعد الامتحان، فإنه يقول له على سبيل التبكيت والتقريع والتنديم حتى يؤلمه فلا يكرر هذا الإهمال القاتل مرة أخرى: اقترب الامتحان ورسبنا يا جميل! ولا يصح أن يُرَدّ على هذا التفسير بأنه قد مر على نزول الآية قريب من خمسة عشر قرنا ولم تأت الساعة حتى الآن، فكيف يكون ذلك؟ أجل لا يصح الاعتراض بهذه الحجة، فالقرآن يقول عن يوم القيامة وتكذيب الكفار به: "إنهم يَرَوْنَه بعيدًا ونراه قريبًا" كما جاء فى مطلع سورة "المعارج". وفى آخر سورة "المؤمنون" نسمعه تعالى وهو يعنف الكافرين بقارص القول حين يبعثهم يوم القيامة: "قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ". وفى أواخر سورة "الروم": "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ". ذلك أن مقياس الزمن يختلف بالنسبة لنا عنه عند الله: "وإنّ يومًا عند ربّك كألف سنةٍ مما تَعُدُّون"، "تعرُج الملائكةُ والروحُ إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصْبِرْ صبرًا جميلًا * إنهم يَرَوْنَه بعيدًا ونراه قريبًا".

وفى ضوء هذا ننظر فى قول الرسول الكريم الذى يقول فيه: "بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين". والمقصود أنه لا فاصل من نبوة نبى بينى وبين الساعة لا أنهما متقاربان قرب إصبعين متجاورين. أو ربما كان المراد بـ"الساعة" فى آية مطلع "القمر"، التى نحن بصددها هو الزلزلة الكبرى التى سترج الجزيرة العربية

والعالم ربما لا الساعة الأخيرة من تاريخ العالم وحياته. وقد يعضد هذا التفسير أن السورة تشير إلى هزائم العرب الذين وقفوا فى وجه نور الإسلام الوهاج، فخسروا هم، وانتصر دين الله، مذكرة إياهم بما أصاب الأمم السابقة الذين كفروا برسلهم وآذَوْهم وعاندوا وأصمُّوا قلوبهم وأغلقوا آذانهم وعيونهم كقوم نوح وقوم لوط وعاد وثمود.

وعلى هذا فلو ثبت أنه لم تكن هناك معجزات للرسول صلى الله عليه وسلم لما شعرنا بأن شيئا ينقصنا فى هذا الدين العظيم، فقد جاء الإسلام ليبث فى حضارة العالم روحا جديدة فتية نقية نظيفة طاهرة راقية تقوم على الإيمان بالله والتواضع لخلق الله واطراح التجبر والتكبر الذى نجده ونصلاه صِلِيًّا فى تصرفات دونالد ترامب وأحاديثه التى يكاد أن ينفجر وهو ينطق بها غرروا وانطماس بصيرة، وأتوقع له أن يقتله أمريكى إنسان ممن يشمئزون من سلوك الرجل وأفكاره الدنسة المنحطة رغم أنه يحكم أقوى الدول فى عصرنا فى نواحى الاقتصاد والسياسة والعلم والاختراعات والحرب وبث الرهبة فى النفوس والتسلط على دول العالم الثالث، وبخاصة دول العرب والمسلمين.

ومما سبق يتضح لنا أن عقل توما الأكوينى لا يعمل بأى قدر من الكفاءة. لقد نبذ روايات المعجزات التى أتى بها سيدنا وسيده وسيد أبيه وأمه ومن يتشدد له بل سيد البشر جميعا محمد رسول الله بحجة أنها لم يشاهدها العالم كله بل اقتصرت رؤيتها على عدد محدود، فهل كانت معجزات يسوع عالمية شاهدها الناس من كل الأجناس والأمم؟ أبدا. فكل معجزاته كانت تدور إما داخل بيت من البيوت أو وسط طائفة محدودة العدد أو على شاطئ البحر. وكانت المدن التى تمت فيها هذه المعجزات مدنا صغيرة، ومن يتبعونه فيها قليل جدا من البشر. فلماذا تشدد هناك وبحبحها هنا على هذا النحو الغريب؟ ثم من

يا ترى من مؤرخى الرومان أو بنى إسرائيل قد ذكر شيئا من تلك المعجزات؟ بل هل آمن بيسوع بعد توفِّى الله له أحد ممن سبق أن كفر به؟ أبدا. ونفس الكلام ينطبق على المعجزات التى أوردها الكتاب المقدس لأى نبى من الأنبياء؟ هل هناك مؤرخ غير دينى قص علينا قصة سفينة نوح؟ هل هناك من شاهد من الكتاب نجاة إبراهيم خليل الرحمن من إحراق النار له؟ هل هناك من ألف كتابا عن انفلاق البحر لموسى وقومه بعد خروجهم من مصر؟ هل سجل الفراعنة ذلك الحدث؟ هل سجله الفرس؟ هل سجله الرومان؟ هل سجله اليونان؟ هل هناك من هؤلاء أو من غيرهم من يشهد بصدق معجزة واحدة من معجزات يسوع؟ إن عيسى لم يكن يتوجه بدعوته إلا لخراف بنى إسرائيل الضالة كما نعرف جميعا من نص كلامه. وعلى ذلك لم يحدث أن حضر أحد من خارج اليهود معجزة من معجزاته. والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يشهد بصحة معجزات أولئك الأنبياء وغيرهم ممن جرت على أيديهم الخوارق والآيات رغم أنه لم ينزل على نبى من بنى إسرائيل بل على نبى من العرب ولم يتوجه بدعوته إلى قومه وحدهم بل إلى العالمين أجمعين.

النص الوحيد الذى يمكن فى دنيا الأوهام أن يتعلق به توما الأكوينى فى موضوع عالمية المعجزة هو نص الإصحاح الثانى من الإنجيل الذى ألفه متى. وهذا هو: "١وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِى بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِى أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ٢قَائِلِينَ:«أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِى الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». ٣فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. ٤فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ:«أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟» ٥فَقَالُوا لَهُ:«فِى بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ. لأَنَّهُ

هكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِي: ٦وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا، لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ».

٧حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. ٨ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ:«اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ». ٩فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. ١٠فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. ١١وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. ١٢ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيق أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ.

١٣وَبَعْدَمَا انْصَرَفُوا، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً:«قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ». ١٤فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ. ١٥وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ. لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ:«مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي».

١٦حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى هِيرُودُسُ أَنَّ الْمَجُوسَ سَخِرُوا بِهِ غَضِبَ جِدًّا. فَأَرْسَلَ وَقَتَلَ جَمِيعَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ وَفِي كُلِّ تُخُومِهَا، مِنِ ابْنِ سَنَتَيْنِ فَمَا دُونُ، بِحَسَبِ الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ. ١٧حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ: ١٨«صَوْتٌ سُمِعَ فِي الرَّامَةِ، نَوْحٌ وَبُكَاءٌ وَعَوِيلٌ كَثِيرٌ. رَاحِيلُ تَبْكِي عَلَى أَوْلاَدِهَا وَلاَ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَزَّى، لأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ».

١٩فَلَمَّا مَاتَ هِيرُودُس، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِى حُلْمٍ لِيُوسُفَ فِى مِصْرَ ٢٠قَائِلًا:«قُمْ وَخُذِ الصَّبِى وَأُمَّهُ وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّبِىِّ». ٢١فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِى وَأُمَّهُ وَجَاءَ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. ٢٢وَلكِنْ لَمَّا سَمِعَ أَنَّ أَرْخِيلاَوُسَ يَمْلِكُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ عِوَضًا عَنْ هِيرُودُسَ أَبِيهِ، خَافَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ. وَإِذْ أُوحِىَ إِلَيْهِ فِى حُلْمٍ، انْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِى الْجَلِيلِ. ٢٣وَأَتَى وَسَكَنَ فِى مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَى يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالأَنْبِيَاءِ:«إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا»".

وأول شىء على هذا النص المسلّى الظريف أن متى هو الوحيد الذى كتب عن هذه الحكاية الخرافية التى لا يتقبلها من العقول سوى عقول المعاتيه من أمثال توما الأكوينى، إذ ما الذى جاء بالشامى على الحامى؟ نحن هنا فى موضوع المسيح، وهو مكلف بدعوة خراف بنى إسرائيل الضالة، فما دخل المجوس بهذا الموضوع، وهو ليس من شغلهم؟ هل كانوا ناسا فاضين لا شغلة ولا مشغلة فقالوا فى عقل بالهم: لم لا نذهب إلى بنى إسرائيل ونبحث عن ملك اليهود؟ لكن لماذا يبحثون عن ملك اليهود، وهم لا يهود ولا مسلمون ولا حتى من حماس ولا أبوهم هاجر من فلسطين ويريدون أن يروا أرض الآباء والأجداد ولا كانت الفكرة مطروحة فى بلادهم ولا تشغلهم فى قُلٍّ أو كُثْرٍ؟ بل كيف عرفوا أن طفلا قد وُلِد وأنه سوف يكون ملكا لليهود؟ ويا ترى أين ذهب الذهب واللبان والمر الذى أحضره أولئك المجوس؟ لم نسمع أن مريم كانت تمضغ اللادن، ولا أن يوسف النجار قد اشترى بالذهب قطعة أرض يبنى عليها بيتا عليه القيمة وفى الطابق الأرضى منه مغلق خشب وورشة نجارة تمام التمام ويتحول من نجار باب وشباك باليومية إلى معلم كبير ويدخل دنيا ويودع عيشة المعاناة والفقر. لكن للأسف سكتت الحدوتة عن هذه النقطة

وتركتنا نفرك ونتفزز جراء الجهل بنهاية الحدوتة. منه لله كاتبها! طيب، والآن وقد أتى المجوس من بلادهم ليس معهم بوصلة ولا خريطة بل نجم فى السماء يهتدون به وكأن النجم يظهر ليلا ونهارا لا يختفى أبدا ويتحرك دون النجوم جميعا من موضعه ومن الشرق إلى الغرب، ماذا فعلوا بعدما رأوا الطفل الرضيع، الذين قالوا إنه سيكون ملكا على اليهود رغم أنه لم يصر ملكا بل لم يعلن أنه يريد المُلْك؟ ترى هل صاروا نصارى يتبعون تعاليمه وينشرون دعوته فى بلاد المجوس رغم أن دعوته هذه ليست لأحد غير بنى إسرائيل، بل لم تكن قد بدأت بعد لأن الأطفال الرضع لا يكونون أنبياء؟ وكيف وقف النجم فوق الموضع الذى فيه يسوع الرضيع؟ أوقد أرسل النجم سهما ناريا ساطعا نازلا من السماء حيث وقف ومستقرا فوق المبنى الذى كان فيه مزود يرقد فيه يسوع الصغير؟ لقد كان الأولى بذلك كله اليهود لأنه سوف يكون ملكهم هم لا ملك المجوس. العقل والمنطق يقولان هذا يا خَلْق هُوهْ! وعبثا تبحث عن مغزى هذه الحدوتة وعن نتائجها فلا تجد فى يدك شيئا غير فقاعة هوائية ما إن استقرت فى راحتك حتى انفثأت وطارت أدراج الرياح. ولننس هذا كله ونسأل: أين المعجزة هنا؟ الجواب: لا معجزة هنا ولا يحزنون. وحتى لو كانت معجزة، وهى ليست بها، فلسوف تكون معجزة لهؤلاء المجوس. لقد كان يسوع رضيعا كل ما يمكنه فعله كأى رضيع هو مص اللبن من ثدى أمه ثم التخلص من الطعام بعد هضمه. وهكذا ننتهى من حكاية المعجزات ونقول لتوما الأكوينى: ربنا يشفى الكلاب ويضرّك!

وعلى كل حال هذه بعض معجزات سيد ولد آدم عليه السلام، وقد بلغ بها بعضهم المئات. وأولاها القرآن الكريم بما فيه من أسلوب متميز وسامق تمام السموق لا يرقى إليه راق، وإخباره عن عدد من الغيوب التى تحققت كما

قال بالضبط كإنبائه بهزيمة الفرس فى غضون سنوات قلائل بعد انتصارهم المؤزر على الروم وتأكيده قبيل غزوة الحديبية أن المسلمين سيدخلون مكة للحج وأنهم سوف يفتحون القسطنطينية، وأن الإسلام سوف يبلغ من الأرض ما يبلغ الليل والنهار وأن الأمم سوف تتداعى على المسلمين لنهشهم وهبرهم كما يتداعى الآكلون إلى الطعام وأنهم عندئذ لن تكون لهم أية قيمة بل غثاء كغثاء السيل، وهو ما نمر به منذ قرون منذ صرنا نُسْتَعْمَر وتُحْتَلّ بلادنا وتُقَسَّم، وقد بلغ ذروته فى قضية فلسطين التى تكاد أن تضيع منا كلها هذه الأيام إن لم يتدارك الله أهل فلسطين برحمته وكرمه. ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم تشريعات دينه التى لا يوجد مثيل لها فى التوراة أو فى الإنجيل وتغطى كل شىء فى الحياة وتعين البشر على بلوغ أعلى أفق ممكن لو فهموها وعملوا بها. ومثال واحد يكفى للتدليل على ما نقول: ففى النصرانية لا يوجد نظام للنهوض بأوضاع الفقراء والمسحوقين فى المجتمع بينما أوجد الإسلام نظاما مفصلا للزكوات والصدقات طوال العام وفى المناسبات الدينية ولأوهى الأسباب كالتكفير عن اليمين. كذلك فالقرآن يزخر بكثير من الإشارات العلمية والأسرار الكونية التى تتضح لنا كلما أوغلنا فى مضمار الحضارة، وكانت ولا تزال سببا فى اعتناق العلماء والمفكرين غير المسلمين للإسلام. ومن معجزات الرسول عليه السلام معجزة الإسراء والمعراج، ومعجزة انشقاق القمر، ومعجزة تكثير القليل من الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم حتى أكل كل الجيش وزيادة، ومعجزة نبع الماء من بين أصابعه بغزارة أروت عطش الجنود كلهم وأتاحت لهم الوضوء، ومعجزة حَنِين الجذع إليه فى المسجد لما فارقه صلى الله عليه وسلم إلى المنبر، ومعجزة إبراء المرضى، وغير ذلك من المعجزات التى أَلَّف العلماء فيها كتبا كـ"دلائل النبوة" للبيهقى، و"أعلام النبوة" للماوردى مثلا.

والآن إلى التهمة التالية، وهى أن الإسلام انتشر بالقوة المسلحة والإكراه لا بالعقل والتفكير، إذ كان المسلمون الأوائل بَدْوًا لا علم عندهم ولا يفهمون الدين ولا الحكمة ولا لهم صلة بالتقاليد الدينية القديمة ولا يعرفون غير القوة العسكرية، إنهم أُنَاسٌ عاديّون لا علماء ولا مفكرون ولا يفهمون الدين بشكل صحيح، بل جهلة فى أمور الدين وفى الإنسانية.

لكن ألم يقرإ الأكوينى الأناجيل وأن أحبار اليهود المتعمقين فى الدين والتقاليد القديمة ولم يكونوا ناسا عاديين ولا بَدْوًا متخلفين، بل كانوا علماء كبارا، هم الذين رفضوا المسيح وكذبوه وتآمروا عليه حتى صلب وقتل حسبما يقولون؟ ألا يعرف أن أتباع المسيح كانوا فى معظمهم من الطبقات الدنيا من قاع المجتمع بلا أية ثقافة أو فهم، ومن العُمْيان والعُرْجان والبُرْصان الذين كل همهم أن يشفيهم المسيح ولا شىء آخر، ثم إنهم ومعهم تلاميذ المسيح الكبار المقربون قد تخلَّوْا عنه ساعة الجِدّ حين قُبِض عليه وصُلِب ودُقَّت يداه ورجلاه بالمسامير لتثبيته على الصليب وضُرِب بالحربة فى جنبه وأُهِين وسُخِر به، وهو ما لم يفعله أتباع محمد من البدو الجهلة حسبما يصفهم الأكوينى الكذاب، وكأن أتباع المسيح كانوا من عباقرة العلماء وجهابذة رجال الدين ومن الملمين بالتاريخ الروحى للبشرية ومن أساتذة الجامعة المخضرمين اللواذعة، وليسوا مثل العبد لله المحتاس الذى لم يفلح فى أى شىء قط؟ أم ترى كان عيسى يلقى عليهم محاضرات فى قاعات الجامعات طبقا لكتب مقررة تقوم على دراسة الأديان العالمية والموازنة بينها ويطلب منهم الاستزادة من المصادر والمراجع والمعاجم والموسوعات العامة والمتخصصة وكتابة الأبحاث ويمتحنهم فى آخر كل فصل دراسى ولا يقبل فى دينه إلا الحاصلين على تقدير الامتياز والجيد جدا، بينما يطرد مَنْ هم دون ذلك من الجامعة إلى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ والثلوج المهلكة

حيث يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ؟ ترى هل كان أبو بكر الصديق بدويا؟ هل كان عمر الفاروق بدويا؟ هل كان عثمان بدويا؟ هل كان ابن أبى طالب بدويا؟ هل هل هل هل؟ الواقع أنه لم يُتْعِب الرسولَ فى دعوته أحدٌ أكثرُ من البدو يا متخلف! والبدو هم آخر ناس أسلموا، وكان صلى الله عليه وسلم صبورا عليهم يتحمل خشونتهم ورعونتهم ويعالج بحكمة بالغة حبهم للدنيا وضيق أفقهم وعدم تحضرهم، ونجح نجاحا هائلا فى تطويعهم لقيم الدين الجديد كما لم يصنع أحد آخر من قبل ولا من بعد. وانظر يا متخلف كيف تحدث القرآن عن الأعراب لتعرف أنك جاهل تلقى الكلام على عواهنه ولا تدرس الموضوع الذى تتحدث فيه على النحو المطلوب لأن حقدك يحجزك عن التعلم والفهم والتعمق. إن الأكوينى يردد ما كان يقوله المتغطرسون من قوم كل نبى عمن يتبعونه منهم، إذ كانوا يصفونهم بـ"الأراذل" ويستعرّون من فقرهم ويريدون أن يكون النبى من بينهم هم وغنيا مثلهم. ومع ذلك فإن أولئك الأثرياء المتغطرسين قد انتهوا فى حالة نبينا عليه السلام إلى الدخول فى دينه والانقياد له.

ونقول للأكوينى، وهو يُشْوَى ويُقْلَى ويُسْلَق الآن فى نار جهنم ويغيرون له جلده النجس، كلما احترق، بجلد آخر من نعال الصرم القديمة: لنفترض يا أكوينى أن المسلمين فى عهد رسول الله كلهم بدو، أفليس هؤلاء البدو، بأعدادهم الهزيلة وإمكاناتهم الضئيلة وخبراتهم المحدودة جدا جدا جدا فى ميدان السياسة والحروب، هم من فتحوا العالم وجابهوا أكبر إمبراطوريتين وقتذاك ومزقوهما شر ممزق، وأسسوا حضارة عظيمة كانوا هم سادتها وقادتها لقرون طوال، وأفرزوا ثقافة راقية سامِيَة سامقة كانت هى أهم أسس الحضارة الأوربية الحالية؟ أليس قد جعل الإسلام الذى اتبعه ونصره هؤلاء البدو

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهوما سبق به الإسلام الحضارة الحديثة، التى أقصى ما بلغته فى هذا المضمار أنْ جعلت التعليم حقا لكل مواطن، وهو ما يعنى أن من حق المواطن أيضا أن يرفض الانتفاع بحقه على عكس ما لو كان طلب العلم فريضة على كل فرد، وذلك فى الوقت الذى كانت الكنيسة يا متخلف تحرم على أتباعها قراءة الكتاب المقدس كما كتب البروفسور ستيفن فى كتابه: "Muhammad and Learning". فانظر يا متخلف فرق ما بين من تسميهم: "البدو" وبين مثقفيك صيادى السمك (البمبوطية) ونجّارى الباب والشباك والبُرْص والعُرْج والأشلّاء والمهلوسين خريجى مستشفيات الأمراض والمزمنة والخانكة، خيبة الله عليك يا أكوينى! والمضحك أنهم يعدونك فيلسوفا. هل هناك من فى عقله ذرة من الفهم والتمييز يعبد بشرا مثله يا متخلف؟ ومع هذا فلا يزال الإسلام بوضعه الحالى الذى لا يسر عدوا ولا صديقا، جراء ما استحقه أتباعه مما جرى لهم ومنهم وعليهم من ضعف وهوان واحتلال واستعمار وتبعية، لا يزال دينا عالميا يعتنقه الناس فى كل مكان من كل الطبقات والرتب والمهن بما فى ذلك رجال الأعلام وأبطال الرياضة وأساتذة الجامعات وكبار الساسة... وكل هذا رغم الضعف والهوان المزرى الذى يخيم على بلاد العرب والمسلمين وتخلِّى الحكومات الإسلامية بوجه عام عن الاهتمام بالدعوة إلى دين محمد، إن لم يكن بعضها متواطئا مع أعدائه.

ثم ما رأى ذلك المتخلف المغلق الذهن والمشاعر فى الملايين التى اعتنقت الإسلام بعيدا عن الفتوح تلك التى يتهمها زورا وبهتانا وضلالا بأنها هى السبب فى دخول الملايين المملينة فى هذا الدين من خلال القوة العسكرية القُحّ، والتى رغم هذا لم تكره أحدا يوما على ذلك بل كان المطلوب ممن لا

يريد دخول الدين الجديد دفع عدة دراهم فى العام لقاء إعفائهم من الانخراط فى الجيش ودفاع الدولة عنهم، فى مقابل ما يدفعه المسلم من زكاة وصدقات لا تعد الدراهم التى يدفعها غير المسلم بجانبها شيئا ذا بال أو قيمة؟

وكيف يكون الإسلام دينا إكراهيا، ونصوص القرآن والحديث تهاجم الإكراه فى الدين وتحمل عليه حملة لاهبة: فمن آيات القرآن "لا إكراه فى الدين. قد تبيَّن الرشد من الغَىّ"، "وقل: الحقُّ من ربكم. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر"، "وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ: اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ. إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ"، "كل نفس بما كسبت رهينة"، "إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر"، "هو الذى خلقكم: فمنكم كافر، ومنكم مؤمن"، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ"، "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"، "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ".

ومن الأحاديث النبويةالشريفة وآثار الصحابة الكرام "لا تُؤذوا مُسلمًا بشَتمِ كافرٍ"، "إياكم ودعوةَ المظلومِ، وإنْ كانتْ مِنْ كافرٍ، فإنَّه ليسَ لَها حِجابٌ دونَ اللهِ عزَّ وجلَّ"، "مَنْ آذى ذِمّيًا فأنا خَصْمُهُ"، "أَلَا من ظلَمَ مُعاهَدًا أو انتقصَه أو كلَّفه فوقَ طاقتِه أو أخذ منه شيئًا بغيرِ طيبِ نفسٍ فأنا حجيجُه يومَ القيامةِ"، "سافَرتُ مع النَّبى ﷺ غَيرَ مَرَّةٍ، فما رَأيتُه مَرَّ بجيفةِ إنسانٍ إلّا أمَرَ بدَفنِه، لا يَسأَلُ: أمُسلِمٌ هو، أم كافِرٌ؟"، "عن ابنِ عباسٍ قالَ: كانتِ المرأةُ تكونُ مِقلاةً

فتجعلُ على نفسِها إن عاشَ لها ولدٌ أن تهوِّدَه. فلما أجليتْ بنو النضيرِ كان فيهم من أبناءِ الأنصارِ، فقالوا: لا ندعُ أبناءَنا. فأنزلَ اللهُ عز وجل: لا إكراهَ فى الدينِ"، "(عن أبى هريرة) أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ ضافَهُ ضَيْفٌ (نزل عنده ضيف) وَهو كافرٌ، فأمَرَ له رَسولُ اللهِ ﷺ بشاةٍ فَحُلِبَتْ، فَشَرِبَ حِلابَها، ثُمَّ أُخْرى فَحَلَبَهُ، فَشَرِبَه، ثُمَّ أُخْرى فَحَلَبَهُ، فَشَرِبَه، حتّى شَرِبَ حِلابَ سَبْعِ شِياهٍ...". ولو كان الإسلام يكره الناس على الدخول فيه ما قبل النبى، لدن مُهاجَره إلى يثرب، اليهود معه هناك ولأخرجهم أو يسلموا. لكنه لم يفعل هذا ولا ذاك بل كتب الصحيفة بينه وبينهم على التساوى فى الحقوق والواجبات رأسا برأس. كما كان صلى الله عليه وسلم يعقد معاهدات وموادعات بينه وبين بعض القبائل المشركة لا يجد حرجا فى ذلك. ولدى دخوله مكة فاتحا لم يكره أحدا على اعتناق دينه رغم أنه كان فى قمة القوة والانتصار ورغم كل ما تحمّله هو والمسلمون منهم قبل تركهم مكة من أذى ومصادرة للممتلكات وإزهاق للارواح. وطوال مُقَامه فى مكة لم يعتنق أحد الإسلام كرها وغصبا على الإطلاق. وهى نفس الخطة التى اتبعها فى المدينة. ولو كان الإكراه جائزا فى الإسلام لأجبر أسارى المشركين فى بدر مثلا على التحول لدينه. وفى ضوء هذا نستطيع أن نقرأ ما يلى: "كتب أبو موسى إلى دِهقانٍ يسلِّم عليه فى كتابِه، فقيل له: أَتُسلِّمُ عليه وهو كافرٌ؟ قال: إنه كتب إلى فسلَّمَ على، فرددتُ عليه". وهذا مجرد مثال.

ونحن نعرف كيف دخلت خديجة وعلىٌّ وزيد بن حارثة وأبو بكر وعثمان وعمر وبلال وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وسمية وصهيب الرومى وجبر ويسار فى الإسلام، ولم يكن فى الأمر شىء إلا القبول الحر المطلق من تلقاء أنفسهم. بل لقد كان عمر ينوى يوم دخوله فى الإسلام الاعتداء على رسول

الله صلى الله عليه وسلم، لكن كان للأقدار كلمة أخرى، فأسلم بملء حريته وانقلب بعدها انقلابا عظيما. ونعرف أيضا كيف أسلم حمزة عم الرسول، وكان رجلا لاهيا مغرما بالصيد لا يبالى بالدين الجديد، لكنه لما علم أن أبا جهل أساء إلى الرسول عند الكعبة انطلق إلى هناك وضرب أبا جهل بالقوس على رأسه، فلم يجرؤ على الرد، ثم أعلن حمزة إسلامه وتحدى الجميع.

وعندنا أبو ذر، وقصة إسلامه تنبئنا أن من كان يبتغى الإسلام كان يفكر فى الأمر جيدا قبل أن يسلم، ولم يقع أن أسلم أحد جبرا. تقول قصته: "خَرَجْنا فى قومِنا غِفارٍ، وكانوا يُحِلُّونَ الشَّهرَ الحرامَ، فخَرَجْتُ أنا وأخى أُنَيْسٌ وأُمُّنا فنزَلْنا على خالٍ لنا، فأكرَمَنا خالُنا وأحسَنَ إلينا، فحَسَدَنا قومُه فقالوا: إنَّكَ إذا خَرَجْتَ عن أهلِك خالَفك إليهم أُنَيْسٌ. فجاء خالُنا فذكَرَ الَّذى قيل له، فقُلْتُ: أمّا ما مضى من معروفِكَ فقد كدَّرْتَه ولا حاجةَ لنا فيما بعدُ. قال: فقدَّمْنا صِرْمَتَنا فاحتَمَلْنا عليها فانطلَقْنا حتّى نزَلْنا بحضرةِ مكَّةَ. قال: وقد صلَّيْتُ يا ابنَ أخى قبْلَ أنْ ألقى رسولَ اللهِ ﷺ. قال: قُلْتُ: لِمَن؟ قال: للهِ. قُلْتُ: فأينَ تَوَجَّهُ؟ قال: أتوجَّهُ حيثُ يوجِّهُنى ربِّى. أُصلِّى عشيًّا حتّى إذا كان مِن آخِرِ اللَّيلِ أُلقِيتُ حتّى تعلونى الشَّمسُ. قال أُنَيسٌ: إنَّ لى حاجةً بمكَّةَ. فانطلَقَ أُنَيْسٌ حتّى أتى مكَّةَ. قال: ثُمَّ جاء فقُلْتُ: ما صنَعْتَ؟ قال: لقِيتُ رجُلًا بمكَّةَ على دِينِك يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَله. قال: قُلْتُ: فما يقولُ النّاسُ؟ قال: يقولونَ: شاعرٌ كاهنٌ ساحرٌ. قال: فكان أُنَيْسٌ أحَدَ الشُّعراءِ. قال أُنَيْسٌ: لقد سمِعْتُ قولَ الكَهَنةِ وما هو بقولِهم. ولقد وضَعْتُ قولَه على أَقْراءِ الشِّعرِ فما يلتَئِمُ على لسانِ أحدٍ بعدى أنَّه شِعرٌ. واللهِ إنَّه لَصادقٌ، وإنَّهم لَكاذِبونَ. قال: قُلْتُ: فاكْفِنى حتّى أذهَبَ فأنظُرَ. فأتَيْتُ مكَّةَ فتضيَّفْتُ رجُلًا منهم فقُلْتُ: أينَ هذا الَّذى تَدْعونَه: الصّابئُ؟ قال: فأشار إلى وقال: الصّابئُ! قال: فمال علَى أهلُ

الوادى بكلِّ مَدَرةٍ وعَظْمٍ حتّى خرَرْتُ مغشيًّا علَى فارتفَعْتُ حينَ ارتفَعْتُ كأنّى نُصُبٌ أحمَرُ، فأتيْتُ زَمْزَمَ فغسَلْتُ عنّى الدِّماءَ وشرِبْتُ مِن مائِها. وقد لبِثْتُ ما بيْنَ ثلاثينَ مِن ليلةٍ ويومٍ ما لى طعامٌ إلّا ماءُ زَمْزَمَ، فسمِنْتُ حتّى تكسَّرَتْ عُكَنُ بطنى، وما وجَدْتُ على كبِدى سَخْفَةَ جُوعٍ. قال: فبَيْنا أهلُ مكّةَ فى ليلةٍ قَمْراءَ إِضْحيانٍ إذ ضُرِب على أَسْمِخَتِهم، فما يطوفُ بالبيتِ أحَدٌ وامرأتانِ منهم تَدْعوانِ إِسافًا ونائلةَ. قال: فأتَتا علَى فى طوافِهما، فقُلْتُ: أنكِحا أحَدَهما الآخَرَ. قال: فما تَناهَتا عن قولِهما، فأتَتا علَى فقُلْتُ: هن مِثْلُ الخشَبةِ. فرجَعتا تقولانِ: لو كان ها هنا أحَدٌ! فاستقبَلَهما رسولُ اللّهِ ﷺ وأبو بكرٍ وهما هابطتانِ فقال: ما لكما؟ قالتا: الصّابئُ بيْنَ الكعبةِ وأستارِها! قالا: ما قال لكما؟ قالتا: إنَّه قال لنا كلمةً تملأُ الفمَ. قال: وجاء رسولُ اللّهِ ﷺ حتّى استلَم الحَجَرَ ثمَّ طاف بالبيْتِ هو وصاحبُه ثمَّ صلّى، فقال أبو ذرٍّ: فكُنْتُ أوَّلَ مَن حيّاه بتحيَّةِ الإسلامِ قال: وعليكَ ورحمةُ اللّهِ. ثمَّ قال: ممَّنْ أنتَ؟ فقُلْتُ: مِن غِفارٍ. قال: فأهوى بيدِه ووضَع أصابعَه على جبهتِه، فقُلْتُ فى نفسى: كرِه أنّى انتمَيْتُ إلى غِفارٍ. قال: ثمَّ رفَع رأسَه وقال: مُذْ متى كُنْتَ ها هنا؟ قال: كُنْتُ ها هنا مِن ثلاثينَ بيْنَ يومٍ وليلةٍ. قال: فمَن كان يُطعِمُكَ؟ قُلْتُ: ما كان لى طعامٌ إلّا ماءُ زَمْزَمَ فسمِنْتُ حتّى تكسَّرَتْ عُكَنُ بطنى. قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: إنَّها مُبارَكةٌ. إنَّها طعامُ طُعْمٍ. فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللّهِ، ائذَنْ لى فى طعامه اللَّيلةَ. فانطلَق رسولُ اللّهِ ﷺ وأبو بكرٍ، فانطلَقْتُ معهما، ففتَح أبو بكرٍ بابًا فجعَل يقبِضُ لنا مِن زبيبِ الطّائفِ، فكان ذلك أوَّلَ طعامٍ أكَلْتُه بها. ثمَّ غبَرْتُ ما غبَرْتُ ثمَّ أتيْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ فقال: إنَّه قد وُجِّهَتْ لى أرضٌ ذاتُ نخلٍ ما أُراها إلّا يثْرِبَ. فهل أنتَ مُبَلِّغٌ عنّى قومَك عسى اللّهُ أنْ يهديَهم بكَ ويأجُرَك فيهم؟ قال: فانطلَقْتُ فلقِيتُ أُنَيْسًا فقال: ما صنَعْتَ؟ قُلْتُ: صنَعْتُ أنّى قد أسلَمْتُ وصدَّقْتُ. قال: ما بى رغبةٌ عن دِينِك، فإنّى قد أسلَمْتُ

وصدَّقْتُ. قال: فأتيْنا أمَّنا، فقالت: ما بى رغبةٌ عن دِينِكما، فإنّى قد أسلَمْتُ وصدَّقْتُ. فاحتَمْلنا حتّى أتيْنا قومَنا غِفارًا، فأسلَم نِصفُهم، وكان يؤُمُّهم إيماءُ بنُ رَحَضَةَ، وكان سيِّدَهم. وقال نِصْفُهم (أى نصفهم الآخر): إذا قدِم رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أسلَمْنا. فلمّا قدِم رسولُ اللهِ ﷺ المدينة أسلَم نِصْفُهم الباقى، وجاءتْ أسلَمُ فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إخوانُنا. نُسْلِمُ على الَّذى أسلَموا عليه. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: غِفارُ غفَر اللهُ لها، وأسلَمُ سالَمها اللهُ".

وهذه قصة إسلام ركانة: "كانَ رجلٌ مِن بَنِى هاشمٍ يقالُ لَهُ: رُكانَة، وَكانَ مِن أقتلِ النّاسِ وأشدِّه، وَكانَ مشرِكًا، وَكانَ يرعى غنمًا لَهُ فى وادٍ يقالُ لَهُ: إضَمٌ، فخرجَ نبى اللَّهِ ﷺ من بيتِ عائشةَ ذاتَ يومٍ فتوجَّهَ قِبَلَ ذلكَ الوادى، فلقيَهُ رُكانةُ، وليسَ معَ النَّبى ﷺ أحدٌ، فقامَ إليهِ رُكانةُ فقالَ: يا محمَّدُ، أنتَ الَّذى تشتِمُ آلِهَتَنا اللاّتَ والعزّى، وتدعو إلى إلَهِكَ العزيزِ الحكيمِ؟ ولولا رحِمٌ بينى وبينَكَ ما كلَّمتُكَ الكلامَ. ولَكِنِ ادعُ إلَهَكَ العزيزَ الحكيمَ يُنْجِيكَ منّى، وسأعرِضُ عليكَ أمرًا: هل لَكَ أن أصارعَكَ وتدعو إلَهَكَ العزيزَ الحكيمَ يعينُكَ على، فأَنا أدعو اللاّتَ والعزّى، فإن أنتَ صرعتَنى فلَكَ عَشْرٌ مِن غَنمى هذِهِ تختارُها؟ فقالَ عندَ ذلِكَ نبى اللَّهِ ﷺ: نعَم إن شئتَ. فاتَّخذا، ودعا نبى اللَّهِ ﷺ إلَهَهُ العزيزَ الحكيمَ أن يعينَهُ على رُكانَه، ودعا رُكانةُ اللاّتَ والعزّى: أعِنّى اليومَ على محمَّد. فأخذَهُ النَّبى ﷺ فصرعَهُ وجلسَ على صَدرِهِ، فقالَ رُكانةُ: قُم فلستَ أنتَ الَّذى فعلتَ بى هذا، إنَّما فعلَهُ إلَهُكَ العزيزُ الحكيمُ، وخذلَهُ اللاّتُ والعزّى، وما وضعَ جنبى أحدٌ قبلَكَ. فقالَ لَهُ رُكانَه: عُدْ، فإن أنتَ صرعتَنى فلك عَشْرٌ أخرى تختارُها. فأخذَهُ نبى اللَّهِ ﷺ، ودعا كلٌّ واحد منهما إلَهَهُ كما فعلا أوَّلَ مرَّةٍ، فصرعَهُ نبى اللَّهِ ﷺ فجلَسَ على كبدِه، فقالَ لَهُ رُكانةُ: قُم، فلستَ أنتَ الَّذى فعلتَ بى هذا، إنَّما فعلَهُ إلَهُكَ العزيزُ الحكيمُ، وخذلَهُ

اللّاتُ والعزّى، وما وضعَ جنبى أحدٌ قبلَكَ. فقالَ لَهُ رُكانه: عُدْ، فإن أنتَ صرعتَنى فلَكَ عشرٌ أخرى تختارُها. فأخذَهُ نبى اللَّهِ ﷺ، ودعا كلٌّ واحدٍ منهُما إلَهَهُ، فصرعَهُ نبى اللَّهِ ﷺ الثّالثةَ، فقالَ لَهُ رُكانةُ: لَستَ أنتَ الّذى فعلتَ بى هذه، وإنَّما فعلَهُ إلَهُكَ العزيزُ الحكيمُ، وخذلَهُ اللّاتُ والعزّى. فَدونَكَ ثلاثينَ شاةً مِن غنَمى فاخترَها. فقالَ لَهُ النَّبى ﷺ: ما أُريدُ ذلكَ، ولَكنّى أدعوكَ إلى الإسلامِ يا رُكانةُ، وأنفِسُ بكَ أن تصيرَ إلى النّارِ. إنَّكَ إن تُسْلِمِ تَسْلَم. فقالَ لَهُ رُكانةُ: لا، إلّا أن ترِيَنى آيةً. فقالَ لَهُ نبى اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ عليكَ شَهيدٌ إن أَنا دَعَوتُ ربِّى فأَريتُكَ آيةً لَتجيبنَّنى إلى ما أدعوكَ إليه؟ قالَ: نعَم. وقريبٌ منهُ شجرةُ سَمُرٍ ذاتُ فروعٍ وقضبانٍ، فأشارَ إليها نبى اللَّهِ ﷺ وقالَ لَها: أقبِلى بإذنِ اللَّهِ. فانشقَّت باثنتينِ، فأقبلتْ على نِصفِ شقِّها وقضبانِها وفروعِها حتّى كانت بينَ يدى نبى اللَّهِ ﷺ وبينَ رُكانةَ، فقالَ لَهُ رُكانةُ: أريتَنى عظيمًا. فمُرْها فلتَرْجع. فقالَ لَهُ نبى اللَّهِ ﷺ: عليكَ اللَّهُ شَهيدٌ إن أَنا دعوتُ ربِّى عزَّ وجلَّ أمرَ بِها فرجعَتْ لتجيبنّنى إلى ما أدعوكَ إليهِ؟ قالَ: نعَم. فأمرَها، فرجعت بقُضْبانِها وفروعِها حتّى التأَمَت بشقِّها، فقالَ لَهُ النَّبى ﷺ: أسلِم تسلَم. فقالَ لَهُ رُكانةُ: ما بى إلّا أن أَكونَ رأيتُ عظيمًا، ولَكنّى أَكْرَهُ أن تتحدَّثَ نساءُ المدينةِ وصبيانُهُم أنّى إنَّما جئتُكَ لرعبٍ دخلَ قلبى منكَ. ولَكن قد علمتْ نساءُ أَهْلِ المدينةِ وصبيانُهُم أنَّهُ لم يَضع جنبى قطُّ، ولم يدخل قلبى رعبٌ ساعةً قطُّ ليلًا ولا نَهارًا، ولَكن دونَكَ فاختر غنمَكَ. فقالَ لَهُ النَّبى ﷺ: ليست لى حاجةٌ إلى غنمِكَ إذ أبيتَ أن تُسْلِمَ. فانطلقَ نبى اللَّهِ ﷺ راجعًا، وأقبلَ أبو بَكْرٍ وعمرُ رضى اللَّهُ عنهما يلتمسانِهِ فى بيتِ عائشةَ، فأخبرتهُما أنَّهُ قد توجَّهَ قِبَلَ وادى إضَمٍ. وقد عُرِفَ أنَّهُ وادى رُكَانةَ لا يكادُ يخطئُه، فخرجا فى طلبِهِ وأشفَقا أن يلقاهُ رُكانةُ فيقتله فجعلا يصعدانِ على كلِّ شرفٍ ويتشرَّفانِ مخرجًا لَهُ إذ نظرا إلى نبى اللَّهِ ﷺ مقبلًا فقالا: يا نبى اللَّهِ، كيفَ تخرجُ إلى هذا الوادى وحدَكَ

وقد عَرفتَ أنَّهُ جِهَةُ رُكانةَ وأنَّهُ من أقتلِ النّاسِ وأشدِّهم تكْذيبًا لَكَ؟ فضَحِكَ إليهما النَّبى ﷺ ثمَّ قالَ: أليسَ يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لى: "واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ"؟ إنَّهُ لم يَكُن يَصِل إلى واللَّهُ معى. فأنشأَ يحدّثهُما حديثَهُ والَّذى فعلَ بِهِ والَّذى أراهُ، فعَجبا من ذلِكَ فقالا: يا رسولَ اللَّهِ، أَصَرَعتَ رُكانةَ؟ فلا والَّذى بعثَكَ بالحقّ ما نعلَمُ أنَّهُ وضعَ جنبَهُ إنسانٌ قطُّ، فقالَ النَّبى ﷺ: إنِّى دعوتُ ربِّى فأعانَنى عليهِ". وقد أسلم ركانة عقب تلك الواقعة.

ولدينا أيضا قصة اعتناق الطفيل بن عمرو الدَّوْسى: "وكان سيدًا مطاعًا شريفًا فى دوسٍ وكان قد قدم مكةَ فاجتمع بهِ أشرافُ قريشٍ وحذَّروهُ من رسولِ اللهِ ونَهَوْهُ أن يجتمعَ بهِ أو يسمعَ كلامَه. قال: فواللهِ ما زالوا بى حتى أجمعتُ ألا أسمع منهُ شيئًا ولا أُكلّمه حتى حشوتُ أذنى حينَ غدوتُ إلى المسجدِ كُرْسُفًا فَرَقًا من أن يَبْلُغنى شئٌ من قولِه وأنا لا أريدُ أن أسمعَه. قال: فغدوتُ إلى المسجدِ، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ قائمٌ يصلى عند الكعبةِ. قال: فقمتُ منهُ قريبًا، فأبى اللهُ إلا أن يُسْمِعنى بعض قولِه. قال: فسمعتُ كلامًا حسنًا. قال: فقلتُ فى نفسى: واثُكْلَ أمى! واللهِ إنى لرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يَخْفَى على الحسنُ من القبيحِ. فما يمنعنى أن أسمعَ من هذا الرجلِ ما يقول؟ فإن كان الذى يأتى بهِ حسنًا قبلتُه، وإن كان قبيحًا تركتُه. قال: فمكثتُ حتى انصرفَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى بيتِه دخلتُ عليهِ فقلتُ: يا محمدُ، إنَّ قومكَ قالوا لى كذا وكذا (الذى قالوا). قال: فواللهِ ما برحوا بى يُخوِّفوننى أمركَ حتى سددتُ أذنى بكُرْسُفٍ لئلا أسمعَ قولكَ، ثم أبى اللهُ إلا أن يسمعنى قولك، فسمعتُ قولًا حسنًا، فاعْرِضْ على أمركَ. قال: فعرض على رسولُ اللهِ ﷺ الإسلامَ وتلا على القرآنَ، فلا واللهِ ما سمعتُ قولًا قطّ أحسنَ منهُ ولا أمرًا أعدلَ منهُ. قال: فأسلمتُ وشهدتُ شهادةَ الحقِّ وقلتُ: يا نبى اللهِ، إنى امرؤٌ مطاعٌ فى

قومى، وإنى راجعٌ إليهم وداعيهم إلى الإسلامِ، فادعُ اللهَ أن يجعلَ لى آيةً تكونُ لى عونًا عليهم فيما أدعوهم إليهِ. قال: فقال: اللهم اجعل لهُ آيةً. قال: فخرجتُ إلى قومى حتى إذا كنتُ بثَنِيَّةٍ تُطْلِعنى على الحاضرِ وقع بينَ عينى نورٌ مثلُ المصباحِ. قال: فقلتُ: اللهم فى غيرِ وجهى، فإنى أخشى أن يظنُّوا بها مُثْلَةً وقعتْ فى وجهى لفراقى دينَهم. قال: فتحوَّلَ فوقع فى رأسِ سوطى. قال: فجعل الحاضرون يَتَراءَوْنَ ذلك النورَ فى رأسِ سوطى كالقنديلِ المعلَّقِ وأنا أتهبَّطُ عليهم من الثَّنِيَّةِ حتى جئتُهم فأصبحتُ فيهم. فلما نزلتُ أتانى أبى، وكان شيخًا كبيرًا، فقلتُ: إليك عنى يا أبةِ، فلستُ منك ولستَ منى. قال: ولِمَ يا بنى؟ قال: قلتُ: أسلمتُ وتابعتُ دينَ محمدٍ ﷺ. قال: أى بنى، فدينُكَ دينى. فقلتُ: فاذهب فاغتسِلْ وطهِّرْ ثيابكَ ثم ائتنى حتى أُعَلِّمَكَ مما عُلِّمْتُ. قال: فذهب فاغتسلَ وطهَّرَ ثيابَه ثم جاء، فعرضتُ عليهِ الإسلامَ، فأسلمَ. قال: ثم أتتنى صاحبتِى، فقلتُ: إليكِ عنى، فلستُ منكِ ولستِ منى. قالت: ولم بأبى أنت وأمى؟ قال: قلتُ: فرَّقَ بينى وبينكِ الإسلامُ، وتابعتُ دينَ محمدٍ ﷺ. قالت: فدينى دينُكَ. قال فقلتُ: فاذهبِى إلى حِمَى ذى الشَّرَى فتطهَّرى منهُ، وكان ذو الشَّرى صنمًا لدوسٍ، وكان الحِمَى حِمًى حَمَوْه حولَه بِهِ وَشَلٌ من ماءٍ يهبطُ من جبلٍ. قالت بأبى أنت وأمى أتخشى على الصبيةِ من ذى الشَّرى شيئًا؟ قلتُ: لا أنا ضامنٌ لذلك. قال: فذهبتْ فاغتسلتْ ثم جاءت، فعرضتُ عليها الإسلامَ، فأسلمتْ، ثم دعوتُ دوْسًا إلى الإسلامِ، فأبطأوا على، ثم جئتُ رسولَ اللهِ ﷺ بمكةَ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّهُ قد غلبنى على دَوْسٍ الزنا، فادعُ اللهَ عليهم. قال: اللهم اهْدِ دوْسًا. ارجع إلى قومك فادعُهم وارفُق بهم. قال: فلم أَزَلْ بأرضِ دوْسٍ أدعوهم إلى الإسلامِ حتى هاجر رسولُ اللهِ إلى المدينةِ، ومضى بدر وأُحُد والخندق، ثم قدمتُ على رسولِ اللهِ ﷺ بمن أسلمَ معى من قومى، ورسولُ اللهِ ﷺ بخيبرَ حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتًا

من دوْس، فلحقْنا برسولِ اللهِ بخيبرَ، فأسهم لنا مع المسلمينَ. ثم لم أزل مع رسولِ اللهِ ﷺ حتى فتح اللهُ عليهِ مكةَ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ابعثنى إلى ذى الكفَّيْنِ صنمِ عمرو بنِ حممةَ حتى أحرقَه. قال ابنُ إسحاقٍ: فخرج إليهِ، فجعل الطفيلُ وهو يُوقدُ عليهِ النارَ يقول:

ياذا الكفَّيْنِ لستُ من عبّادكا ميلادُنا أقدمُ من ميلادِكا
إنى حَشَوْتُ النارَ فى فؤادِكا

قال: ثم رجع رسولُ اللهِ ﷺ، فكان معَهُ بالمدينةِ حتى قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ. فلما ارتدَّتِ العربُ خرج الطفيلُ مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طُلَيْحةَ ومن أرضِ نجدٍ كلها ثم سار مع المسلمين إلى اليمامةِ ومعَه ابنُه عمرو بنُ الطفيلِ فرأى رؤيا وهو متوجّهٌ إلى اليمامةِ فقال لأصحابِه: إنى قد رأيتُ رؤيا فاعبُروها لى. رأيتُ أنَّ رأسى حُلِقَ وأنَّه خرج من فمى طائرٌ وأنَّهُ لقيتنى امرأةٌ، فأدخلتنى فى فرجِها وأرى ابنى يطلبُنى طلبًا حثيثًا ثم رأيتُه حُبِسَ عنى. قالوا: خيرًا. قال أما أنا واللهِ فقد أوَّلتُها. قالوا: ماذا؟ قال: أما حلقُ رأسى فوَضْعُه. وأما الطائرُ الذى خرج منهُ فروحى. وأما المرأةُ التى أدخلتنى فى فرجِها فالأرضُ تُحْفَرُ لى فأُغَيَّبُ فيها. وأما طلبُ ابنى إياى ثم حبسُه عنى فإنى أراهُ سيجتهدُ أن يُصيبَه ما أصابنى. فقُتِلَ رحمَهُ اللهُ تعالى شهيدًا باليمامة، وجُرِحَ ابنه جراحةً شديدةً ثم استَبَلّ منها ثم قُتِلَ عام اليرموكِ زمنَ عمرَ شهيدًا رحمَهُ اللهُ"

ومن تلك القصص قصة أصحاب العقبة والبيعة التى بايعوها للنبى صلى الله عليه وسلم على أن يسلموا وينتقل إلى مدينتهم يثرب. وقد بدأ أمر البيعة من جانبهم: "مكَث رسولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ سَبْعَ سِنينَ يتتبَّعُ النّاسَ فى منازِلهم بعُكاظٍ ومَجَنَّةَ والمواسِمِ بمِنًى يقولُ: مَن يُؤوينى وينصرُنى حتّى أُبلِّغَ رسالاتِ ربِّى؟ حتّى إنَّ الرَّجُلَ ليَخرُجُ مِن اليَمنِ أو مِن مِصْرَ فيأتيه قومُه، فيقولونَ: احذَرْ

غُلامَ قريشٍ لا يَفْتِنْك. ويمشى بيْنَ رِحالِهم وهم يُشيرونَ إليه بالأصابعِ حتّى بعَثَنا اللهُ مِن يَثرِبَ، فآوَيْناه وصدَّقْناه، فيخرجُ الرَّجُلُ منّا ويُؤمِنُ به ويُقرِئُه القرآنَ، وينقلِبُ إلى أهلِه فيُسلِمونَ بإسلامِه حتّى لم يَبْقَ دارٌ مِن دُورِ الأنصارِ إلّا فيها رَهْطٌ مِن المُسلِمينَ يُظهِرونَ الإسلامَ. ثمَّ إنّا اجتمَعْنا فقُلْنا: حتّى متى نترُكُ النَّبى ﷺ يُطْرَدُ فى جبالِ مكَّةَ ويخافُ؟ فرحَل إليه منّا سبعونَ رجلًا حتّى قدِموا عليه فى المَوْسِمِ فواعَدْناه بيْعةَ العَقَبةِ فاجتمَعْنا عندَها مِن رجلٍ ورجُلَيْنِ حتّى توافَيْنا فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، علامَ نُبايِعُك؟ قال: تُبايِعُونّى على السَّمعِ والطّاعةِ فى النَّشاطِ والكسَلِ والنَّفقةِ فى العُسْرِ واليُسْرِ وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهى عن المُنكَرِ وأنْ يقولَها لا يُبالى فى اللهِ لَومةَ لائمٍ وعلى أنْ تنصُرُونى وتمنَعونى إذا قدِمْتُ عليكم ممّا تمنَعونَ منه أنفسَكم وأزواجَكم وأبناءَكم، ولكم الجنَّةُ. فقُمْنا إليه فبايَعْناه، وأخَذ بيدِه أسعدُ بنُ زُرارةَ، وهو مِن أصغرِهم، فقال: رُويدًا يا أهلَ يَثرِبَ. فإنّا لم نضرِبْ أكبادَ الإبلِ إلّا ونحنُ نعلَمُ أنَّه رسولُ اللهِ ﷺ وأن إخراجَه اليومَ منازعةُ العرَبِ كافَّةً وقَتْلُ خيارِكم وأنْ تعَضَّكم السُّيوفُ. فإمّا أنْ تصبِروا على ذلك وأجرُكم على اللهِ، وإمّا أنتم تخافونَ مِن أنفسِكم جُبْنًا. فبيِّنوا ذلك فهو أعذَرُ لكم. فقالوا: أمِطْ عنّا. فواللهِ لا ندَعُ هذه البَيْعةَ أبدًا. فقُمْنا إليه فبايَعْناه، فأخَذ علينا وشرَط أنْ يُعطِيَنا على ذلك الجنَّةَ".

وهذه قصة إسلام الحبر اليهودى عبد الله بن سلام. روى أنس بن مالك "أنَّ عَبْدَ اللَّهِ بنَ سَلامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النبى ﷺ المَدِينَةَ، فأتاهُ يَسْأَلُهُ عن أشْياءَ، فَقالَ: إنِّى سائِلُكَ عن ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلّا نَبِى: ما أوَّلُ أشْراطِ السّاعَةِ؟ وما أوَّلُ طَعامٍ يَأْكُلُهُ أهْلُ الجَنَّةِ؟ وما بالُ الوَلَدِ يَنْزِعُ إلى أبِيهِ أوْ إلى أُمِّهِ؟ قالَ: أخْبَرَنِى به جِبْرِيلُ آنِفًا. قالَ ابنُ سَلامٍ: ذاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلائِكَةِ. قالَ: أمّا

أوَّلُ أشْراطِ السّاعَةِ فَنارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ، وأَمّا أوَّلُ طَعامٍ يأْكُلُهُ أهْلُ الجَنَّةِ فَزِيادَةُ كَبِدِ الحُوتِ، وأَمّا الوَلَدُ فإذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وإذا سَبَقَ ماءُ المَرْأَةِ ماءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الوَلَدَ. قالَ: أشْهَدُ ألا إلَهَ إلّا اللَّهُ، وأنَّكَ رَسولُ اللَّهِ. قالَ يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، فاسْأَلْهُمْ عَنّى قَبْلَ أنْ يَعْلَمُوا بإسْلامِى. فَجاءَتِ اليَهُودُ، فَقالَ النبى ﷺ: أى رَجُلٍ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ فِيكُمْ؟ قالوا: خَيْرُنا وابنُ خَيْرِنا، وأَفْضَلُنا وابنُ أفْضَلِنا. فَقالَ النبى ﷺ: أرَأَيْتُمْ إنْ أسْلَمَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ؟ قالوا: أعاذَهُ اللَّهُ مِن ذلكَ. فأعادَ عليهم، فَقالوا مِثْلَ ذلكَ، فَخَرَجَ إليهم عبدُ اللَّهِ فَقالَ: أشْهَدُ ألا إلَهَ إلّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ. قالوا: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا، وتَنَقَّصُوهُ، قالَ: هذا كُنْتُ أخافُ يا رَسولَ اللَّهِ".

ومن تلك القصص ما حكاه سليمان الفارسى عن نفسه وكيف انتهى به الأمر إلى الدخول فى حرم الإسلام: "كنتُ رَجُلًا فارسيًّا مِن أهل أصبَهان، مِن أهلِ قَريةٍ منها، يُقال لها: جَى، وكان أبى دِهْقانَها، وكنتُ أحَبَّ خَلقِ اللهِ إليه، فلمْ يَزَلْ بى حُبُّه إيّاى حتى حبَسَنى فى بَيْتِه كما تُحبَسُ الجاريةُ، فاجتَهَدتُ فى المَجوسيَّةِ حتى كنتُ قاطِنَ النّارِ الذى يُوقِدُها لا يَترُكُها تَخبو ساعةً. وكانتْ لأبى ضَيعةٌ عَظيمةٌ، فشُغِلَ فى بُنْيانٍ له يومًا، فقال لى: يا بُنَى، إنِّى قد شُغلتُ فى بُنْيانى هذا اليومَ عن ضَيعَتى، فاذهَبْ فاطَّلِعْها. وأمَرَنى ببعضِ ما يُرِيدُ، فخَرَجتُ، ثُمَّ قال: لا تَحتبِسْ علَى، فإنَّكَ إنِ احتبَسْتَ علَى كنتَ أهَمَّ إلَى مِن ضَيعَتى، وشغَلتَنى عن كلِّ شيءٍ مِن أمْرى. فخرَجتُ أُريدُ ضَيْعَتَه، فمَرَرتُ بكَنيسةٍ مِن كَنائسِ النَّصارى، فسمِعتُ أصْواتَهم فيها وهم يُصلُّونَ، وكنتُ لا أدرى ما أمْرُ النّاسِ بحَبسِ أبى إيّاى فى بَيْتِه، فلمّا مَرَرتُ بهم وسمِعتُ أصْواتَهم دخَلتُ إليهم أنظُرُ ما يَصنَعونَ. فلمّا رَأيتُهم أعجَبَتْنى صَلَواتُهم ورغِبتُ

فى أَمْرِهم، وقُلتُ: هذا واللهِ خيرٌ من الدِّينِ الذى نحن عليه. فواللهِ ما تركتُهم حتى غرَبَتِ الشَّمسُ، وترَكتُ ضَيعةَ أبى ولم آتِها، فقُلتُ لهم: أين أَصْلُ هذا الدِّينِ؟ قالوا: بالشّامِ. قال: ثُمَّ رجَعتُ إلى أبى، وقد بعَثَ فى طَلَبى، وشغَلتُه عن عَملِه كلِّه. فلمّا جِئتُه قال: أى بُنَى، أين كنتَ؟ ألَمْ أكُنْ عهِدتُ إليك ما عهِدتُ؟ قُلتُ: يا أبَةِ، مرَرتُ بناسٍ يُصلُّونَ فى كَنيسةٍ لهم، فأعجَبَنى ما رَأَيْتُ مِن دِينِهم، فواللهِ ما زِلتُ عندَهم حتى غرَبَتِ الشَّمسُ. قال: أى بُنَى، ليس فى ذلك الدِّينِ خيرٌ. دِينُكَ ودِينُ آبائكَ خيرٌ منه. قُلتُ: كلا واللهِ! إنَّه لخَيرٌ من دِينِنا. قال: فخافنى، فجَعَلَ فى رِجْلى قَيدًا ثُمَّ حبَسَنى فى بَيْتِه. قال: وبعَثْتُ إلى النَّصارى، فقُلتُ: إذا قدِمَ عليكم رَكبٌ مِن الشّامِ، تُجّارٌ مِن النَّصارى، فأخبِرونى بهم. فقدِمَ عليهم رَكبٌ مِن الشّامِ، قال: فأخبَرونى بهم. فقُلتُ: إذا قضَوْا حوائجَهم وأرادوا الرَّجعةَ فأخبِرونى. قال: ففعَلوا، فألقَيتُ الحَديدَ مِن رِجْلى، ثُمَّ خرَجتُ معهم حتى قدِمتُ الشّامَ. فلمّا قدِمتُها قُلتُ: مَنْ أفضَلُ أهلِ هذا الدِّينِ؟ قالوا: الأُسقُف فى الكَنيسة. فجِئتُه، فقُلتُ: إنِّى قد رغِبتُ فى هذا الدِّينِ، وأحبَبتُ أنْ أكونَ معك أخدُمُكَ فى كَنيستِكَ، وأتعلَّمُ منك، وأُصلِّى معك. قال: فادخُلْ. فدخَلتُ معه، فكان رَجُلَ سُوءٍ: يَأمُرُهم بالصَّدقةِ ويُرغِّبُهم فيها، فإذا جمَعوا إليه منها شيئًا اكتنَزَه لنَفْسِه ولم يُعطِه المَساكينَ حتى جمَعَ سَبعَ قِلالٍ مِن ذَهبٍ ووَرِقٍ. فأبغَضتُه بُغضًا شَديدًا لما رَأيْتُه يَصنَعُ. ثُمَّ مات، فاجتمَعَتْ إليه النَّصارى ليَدفنوه، فقُلتُ لهم: إنَّ هذا رَجُلُ سُوءٍ، يَأمُرُكم بالصَّدقةِ ويُرغِّبُكم فيها فإذا جِئتُم بها كنَزَها لنَفْسِه ولم يُعطِ المَساكينَ. وأرَيتُهم مَوضعَ كَنزِه سَبْعَ قِلالٍ مَملوءةً. فلمّا رَأَوْها قالوا: واللهِ لا نَدفنُه أبدًا. فصَلَبوه ثُمَّ رموْه بالحِجارةِ، ثُمَّ جاؤوا برَجُلٍ جعَلوه مَكانَه، فما رَأيْتُ رَجُلًا (يعنى: لا يُصلِّى الخَمْسَ) أُرى أنَّه أفضَلُ منه أزهَدُ فى الدُّنيا ولا أرغَبُ فى الآخِرةِ ولا أدْأبُ لَيلًا ونَهارًا، ما أعلَمُنى أحبَبتُ شيئًا قَطُّ قبلَه حُبَّه. فلَمْ أزَلْ معه حتى

حضَرَتْه الوَفاةُ. فقُلتُ: يا فُلانُ، قد حضَرَكَ ما تَرى مِن أمْرِ اللهِ، وإنّى واللهِ ما أحبَبتُ شيئًا قَطُّ حُبَّكَ، فماذا تَأمُرُنى؟ وإلى مَن تُوصِينى؟ قال لى: يا بُنَىّ، واللهِ ما أعلَمُه إلّا رَجُلًا بالمَوصِلِ، فائْتِه فإنَّكَ ستَجِدُه على مِثلِ حالى. فلمّا مات وغُيِّبَ، لَحِقتُ بالمَوصِلِ، فأتَيتُ صاحِبَها، فوَجَدتُه على مِثلِ حالِه مِن الاجتهادِ والزُّهد، فقُلتُ له: إنَّ فُلانًا أوْصانى إليك أنْ آتيَكَ وأكونَ معك. قال: فأقِمْ أى بُنَىّ. فأقَمتُ عندَه على مِثلِ أمْرِ صاحِبِه حتى حضَرَتْه الوَفاةُ، فقُلتُ له: إنَّ فُلانًا أوْصى بى إليك، وقد حضَرَكَ مِن أمْرِ اللهِ ما تَرى، فإلى مَن تُوصى بى؟ وما تَأمُرُنى به؟ قال: واللهِ ما أعلَمُ، أى بُنَىّ، إلّا رَجُلًا بنَصيبينَ. فلمّا دفَنّاه لَحِقتُ بالآخَرِ، فأقَمتُ عندَه على مِثلِ حالهم حتى حضَرَه المَوتُ، فأوْصى بى إلى رَجُلٍ مِن أهلِ عَمُّورِيَّةَ بالرُّومِ. فأتَيتُه، فوَجَدتُه على مِثلِ حالِهم، واكتسَبْتُ حتى كان لى غُنَيمةٌ وبُقَيْراتٌ. ثُمَّ احْتُضِرَ، فكَلَّمتُه: إلى مَن يوصِى بى؟ قال: أى بُنَىّ، واللهِ ما أعلَمُه بَقِى أحدٌ على مِثلِ ما كنّا عليه آمُرُكَ أنْ تَأتيَه، ولكنْ قد أظَلَّكَ زَمانُ نَبى يبْعَثُ مِن الحَرَمِ، مُهاجَرُه بينَ حَرَّتَينِ إلى أرضِ سَبْخةٍ ذاتِ نَخلٍ، وإنَّ فيه عَلاماتٍ لا تَخفى: بينَ كَتفَيه خاتَمُ النُّبوَّةِ، يأكُلُ الهَدِيَّةَ، ولا يأكُلُ الصَّدقةَ. فإنِ استطَعتَ أنْ تَخلُصَ إلى تلكَ البِلادِ فافعَلْ، فإنَّه قد أظَلَّكَ زَمانُه. فلمّا وارَيْناه أقَمتُ حتى مَرَّ بى رِجالٌ مِن تُجّارِ العَرَبِ مِن كَلبٍ، فقُلتُ لهم: تَحمِلونّى إلى أرضِ العَرَبِ، وأُعطيكم غُنَيمَتى وبَقَراتى هذه؟ قالوا: نعمْ. فأعطَيتُهم إيّاها، وحمَلونى، حتى إذا جاؤوا بى وادى القُرى ظلَمونى فباعونى عَبدًا مِن رَجُلٍ يَهودى بوادى القُرى. فواللهِ لقد رَأيْتُ النَّخلَ وطمعتُ أنْ يكونَ البَلَدَ الذى نعتَ لى صاحِبى! وما حَقَّتْ عِندى حتى قدِمَ رَجُلٌ مِن بَنى قُرَيْظةَ وادى القُرى، فابتاعَنى مِن صاحِبى، فخَرَجَ بى حتى قدِمْنا المدينةَ. فواللهِ ما هو إلّا أنْ رَأيْتُها فعرَفتُ نَعْتَها. فأقَمتُ فى رِقّى، وبعَثَ اللهُ نَبيَّه ﷺ بمَكَّةَ لا يُذكَرُ لى شيءٌ مِن أمْرِه مع ما أنا فيه مِن

الرِّقِّ حتى قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ قُبَاءً، وأنا أعمَلُ لصاحِبى فى نخلةٍ له. فواللهِ إنِّى لَفِيها إذ جاءه ابنُ عَمٍّ له، فقال: يا فُلانُ، قاتَلَ اللهُ بَنى قَيْلَةَ! واللهِ إنَّهم الآن لفى قُباءٍ مُجتمعونَ على رَجُلٍ جاء مِن مكَّةَ يَزعُمونَ أنَّه نَبى. فواللهِ ما هو إلّا أنْ سمِعتُها فأخَذَتْنى العُرَواءُ (يقولُ: الرِّعْدَةُ) حتى ظنَنتُ لأسقُطَنَّ على صاحِبى، ونزَلتُ أقولُ: ما هذا الخبَرُ؟ فرفَعَ مَولاى يَدَه فلكَمَنى لَكمةً شَديدةً، وقال: ما لك ولهذا؟ أقبِلْ على عَمَلِكَ. فقُلتُ: لا شيءَ. إنَّما سمِعتُ خَبرًا، فأحبَبتُ أنْ أعلَمَه. فلمّا أمسَيتُ، وكان عِندى شيءٌ مِن طَعامٍ، فحمَلتُه وذهَبتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو بقُباءٍ، فقُلتُ له: بلَغَنى أنَّكَ رَجُلٌ صالحٌ، وأنَّ معك أصحابًا لك غُرَباءَ، وقد كان عِندى شيءٌ مِن الصَّدقةِ، فرأَيْتُكم أحَقَّ مَن بهذه البِلادِ، فهاكَ هذا، فكُلْ منه. قال: فأمسَكَ، وقال لأصحابِه: كُلوا. فقُلتُ فى نَفْسى: هذه خَلَّةٌ ممّا وصَفَ لى صاحِبى. ثُمَّ رجَعتُ، وتحَوَّلَ رسولُ اللهِ إلى المدينةِ، فجَمَعتُ شيئًا كان عِندى، ثُمَّ جِئتُه به، فقُلتُ: إنِّى قد رَأَيْتُكَ لا تَأكُلُ الصَّدقةَ، وهذه هَدِيَّةٌ. فأكَلَ رسولُ اللهِ ﷺ وأكَلَ أصحابُه، فقُلتُ: هذه خَلَّتانِ. ثُمَّ جِئتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يَتبَعُ جِنازةً، وعلَى شَملَتانِ لى، وهو فى أصحابِه، فاستدَرتُ أنظُرُ إلى ظَهرِه، هل أرى الخاتَمَ الذى وَصَفَ؟ فلمّا رآنى استَدبَرتُه، عرَفَ أنِّى أستَثبِتُ فى شيءٍ وُصِفَ لى، فألقى رِداءَه عن ظَهرِه، فنظَرتُ إلى الخاتَمِ، فعرَفتُه فانكَبَبتُ عليه أُقَبِّلُه وأبكى! فقال لى: تَحَوَّلْ. فتَحوَّلتُ، فقَصَصْتُ عليه حَديثى كما حدَّثتُكَ يا ابنَ عَبّاسٍ، فأعجَبَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَسمَعَ ذلك أصحابُه. ثُمَّ شغَلَ سَلمانَ الرِّقُّ حتى فاته مع رسولِ اللهِ ﷺ بَدرٌ وأُحُدٌ. ثُمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: كاتِبْ يا سَلمانُ. فكاتَبتُ صاحِبى على ثَلاثِ مِئةِ نَخلةٍ، أُحْيِيها له بالفَقيرِ وأربعينَ أُوقيَّةً. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أَعينوا أخاكم. فأعانونى بالنَّخلِ: الرَّجُلُ بثَلاثينَ وَدِيَّةً، والرَّجُلُ بعِشرينَ، والرَّجُلُ بخَمسَ عَشْرةَ، حتى اجتمَعَتْ ثَلاثُ مِئةِ وَدِيَّةٍ. فقال: اذهَبْ يا سَلمانُ، ففَقِّرْ

لها، فإذا فرَغتَ فائْتِنى أكونُ أنا أضَعُها بيَدى. ففَقَّرتُ لها، وأعانَنى أصحابى، حتى إذا فرَغتُ منها جِئتُه وأخبَرتُه، فخَرَجَ معى إليها نُقرِّبُ له الوَدى، ويَضَعُه بيَدِه. فوالذى نَفْسُ سَلمانَ بيَدِه ما ماتتْ منها وَدِيَّةٌ واحدةٌ. فأدَّيتُ النَّخلَ، وبَقِى علَى المالُ. فأُتِى رسولُ اللهِ ﷺ بمِثلِ بَيْضةِ دَجاجةٍ مِن ذَهبٍ مِن بَعضِ المَغازى. فقال: ما فعَلَ الفارسى المُكاتَبُ؟ فدُعِيتُ له، فقال: خُذْها، فأَدِّ بها ما عليك. قُلتُ: وأين تَقَعُ هذه يا رسولَ اللهِ ممَّا علَىَّ؟ قال: خُذْها، فإنَّ اللهَ سيُؤَدِّى بها عنك. فأخَذتُها، فوَزَنتُ لهم منها أربعينَ أُوقيَّةً، وأوْفَيتُهم حَقَّهم، وعُتِقتُ، فشهِدتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ الخَندَقَ حُرًّا، ثُمَّ لم يَفُتْنى معه مَشهَدٌ".

ومن تلك القصص قصة نعيم بن مسعود الغطفانى. وقد أسلم أثناء غزوة الخندق، والمسلمون فى وضع سيئ، وكان إسلامه سرا فيما بينه وبين نفسه لم يعلم قومه بشيء منه، ولم يكن للنبي دخل فى ذلك. وفى سيرة ابن هشام " قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيما وصف الله من الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم...

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفد بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة، وكان لهم نديما فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة، قد عرفتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم. قالوا: صدقت. لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم: البلد

بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تَحَوَّلوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم: فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه. فقالوا له: لقد أشرت بالرأى. ثم خرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا. وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلّغكموه نصحا لكم، فاكتموا عنى. فقالوا: نفعل. قال: تعلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين: من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أنْ نعم. فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلى وعشيرتى، وأحب الناس إلى، ولا أراكم تتهمونِّى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا عنى. قالوا: نفعل، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل، فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم

لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا، فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لَحَقٌّ، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق. ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا: فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخَلَّوْا بينكم وبين الرجل فى بلدكم. فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا. فأَبَوْا عليهم، وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح فى ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم".

ومن قصص إسلام المسلمين الأوائل قصة إسلام عكرمة بن أبى جهل: "عَنْ عُرْوَةَ قالَ: فَرَّ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِى جَهْلٍ يوْمَ الْفَتْحِ عامِدًا إِلى الْيَمَنِ، وَأَقْبَلَتْ أُمُّ حَكِيمِ بِنْتِ الْحارِثِ بْنِ هِشامٍ، وَهِى يوْمَئِذ مَسْلِمَةٌ، وَهِى تَحْتَ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِى جَهْلٍ، «فاسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِى طَلَبِ زَوْجِها، فَأَذِنَ لَها وَأَمَّنَهُ»، فَخَرَجَتْ بِرُومِى لَها فَراوَدَها عَنْ نَفْسِها، فَلَمْ تَزَلْ تُمَنِّيهِ وَتَقَرَّبُ لَهُ حَتّى قَدِمَتْ عَلى أُناسٍ مِنْ مَكَّةَ فاسْتَغاثَتْهُمْ عَلَيْهِ فَأَوْثَقُوهُ، فَأَدْرَكَتْ زَوْجَها بِبَعْضِ تِهامَةَ وَقَدْ كانَ رَكِبَ فِى سَفِينَةٍ. فَلَمّا جَلَسَ فِيها نادى بِاللّاتِ والْعُزّى، فَقالَ أَصْحابُ السَّفِينَةِ: لا يَجُوزُ ها هُنا أَحَدٌ يَدْعُو شَيْئًا إِلّا اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا. فَقالَ

عِكْرِمَةُ: واللَّهِ لَئِنْ كانَ فِى الْبَحْرِ وَحْدَهُ إِنَّهُ فِى الْبِرِّ وَحْدَهُ. أُقْسِمُ بِاللَّهِ لَأَرْجِعَنَّ إِلى مُحَمَّدٍ ﷺ. فَرَجَعَ عِكْرِمَةُ مَعَ امْرَأَتِهِ، «فَدَخَلَ على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبايَعَهُ فَقَبِلَ مِنْهُ». وَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ حِينَ هَزَمَتْ بَنُو بَكْرٍ على امْرَأَتِهِ فارًّا، فَلامَتْهُ وَعَجَّزَتْهُ وَعَيَّرَتْهُ بِالْفِرارِ، فَقالَ:

وَأَنْتَ لَوْ رَأَيْتِنا بِالْخَنْدَمَةْ ... إِذْ فَرَّ صَفْوانُ وَفَرَّ عِكْرِمَةْ
وَأَلْحَمُونا بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةْ ... يَقْطَعْنَ كُلَّ ساعِدٍ وَجُمْجُمَةْ
لَمْ تَنْطِقِى فِى اللَّوْمِ أَدْنى كَلِمَةْ

قالَ عُرْوَةُ: واسْتُشْهِدَ يَوْمَ أَجْنادِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ مِنْ بَنِى مَخْزُومٍ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِى جَهْلٍ".

ومن تلك القصص كذلك قصة عدى بن حاتم الطائى: "قدِم عَدِى بنُ حاتِمٍ الطّائى الكوفةَ، فأتَيْتُه فى أُناسٍ مِن أهلِ الكوفةِ، فقُلْنا له: حدِّثْنا بحديثٍ سمِعْتَه مِن رسولِ اللهِ ﷺ. قال: بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ بالنُّبُوَّةِ، ولا أعلَمُ أحَدًا مِنَ العربِ كان أشدَّ له بُغضًا ولا أشَدَّ كراهيةً له منِّى حتّى خرَجْتُ فلحِقْتُ بالرُّومِ فتنصَّرْتُ فيهم. فلمّا بلَغَنى ما يدعو إليه مِنَ الأخلاقِ الحسَنةِ وما قد اجتمَع إليه مِنَ النّاسِ ارتحَلْتُ حتّى أتَيتُه فوقَفْتُ عندَه وعندَه صُهَيبٌ وبِلالٌ وسَلْمانُ فقال: يا عَدِى بنَ حاتِمٍ، أسْلِمْ تَسْلَمْ. فقلْتُ: إخْ إخْ! فأنَخْتُ فجَلَسْتُ وألزَقْتُ رُكبتِى برُكبتِه، فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ، ما الإسلام؟ قال: تؤْمِنُ باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه، وتؤْمِنُ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه وحُلوِه ومُرِّه. يا عَدِى بنَ حاتِمٍ، لا تقومُ السّاعةُ حتّى تأتى الظَّعينةُ مِنَ الحيرةِ (ولم يكُنْ يومئذ كُوفةٌ) حتّى تطوفَ بهذه الكعبةِ بغيرِ خَفيرٍ. يا عَدِى بنَ حاتِمٍ، لا تقومُ السّاعةُ حتّى

تحملَ جِرابَ المالِ فتطوفَ به فلا تجِدَ أحَدًا يقبَلُه فتَضرِبَ به الأرضَ فتقول: لَيْتَكَ لم تكُنْ. ليْتَكَ كنْتَ تُرابًا".

ومن تلك القصص "أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان فى مَحْفَلٍ من أصْحابِه، إذ جاءَ أعرابى من بنى سُلَيْمٍ قد صادَ ضَبًّا، وجَعَلَه فى كُمِّه، فذَهَبَ به إلى رَحْلِه فرأى جَماعَةً، فقال: علىٍّ مَنْ هذه الجَماعَةُ؟ فقالوا: على هذا الذى يَزعُمُ أنَّه النَّبى. فشَقَّ النّاسَ، ثم أقبَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: يا مُحَمَّدُ، ما اشْتَمَلتِ النِّساءُ على ذى لَهجَة أكْذَبَ منك ولا أبغَضَ. ولولا أنْ تُسمِّيَنى العَرَبُ: عَجولًا لَعَجِلتُ عليك فقَتَلتُكَ، فسَرَرتُ بقَتْلِكَ الناسَ أجمعينَ. فقال عُمَرُ: يا رسولَ اللهِ، دَعْنى أقْتُله. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أما عَلِمتَ أنَّ الحليمَ كادَ يكونُ نَبيًّا. ثم أقبَلَ الأعْرابى على رسولِ اللهِ ﷺ فقال: واللّاتِ والعُزّى لا آمَنتُ بِكَ. وقد قال له رسولُ اللهِ ﷺ: يا أعْرابى، ما حَمَلَك على أنْ قُلتَ ما قُلتَ، وقُلتَ غيرَ الحَقِّ، ولم تُكرِمْ مجلسى؟ قال: وتُكَلِّمُنى أيضًا (استخفافًا برسولِ اللهِ ﷺ)؟ واللّاتِ والعُزّى لا آمَنتُ بِكَ حتى يؤمِنَ بك هذا الضَّبُّ. فأخْرَجَ الضَّبَّ من كُمِّه، فطَرَحَه بين يَدَى رسولِ اللهِ ﷺ، وقال: إنْ آمَنَ بك هذا الضَّبُّ آمَنتُ بِكَ! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: يا ضَبُّ. فكَلَّمَه الضَّبُّ بِلسانٍ عَرَبى مُبينٍ يَفهَمُه القَومُ جميعًا: لَبَّيكَ وسَعْدَيكَ يا رسولَ ربِّ العالَمين! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: مَن تَعبُدُ؟ قال: الذى فى السَّماءِ عَرشُه، وفى الأرضِ سُلطانُه، وفى البَحرِ سَبيلُه، وفى الجَنَّةِ رَحمَتُه، وفى النّارِ عَذابُه. قال: فَمَن أنا يا ضَبُّ؟ قال: أنتَ رسولُ ربِّ العالَمين، وخاتَمُ النَّبيِّينَ. قد أفلَحَ مَن صدَّقك، وقد خابَ مَن كذَّبك. فقال الأعْرابى: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنَّك رسولُ اللهِ حَقًّا. واللهِ لقد أَتَيتُك وما على وَجْهِ الأرْضِ أحَدٌ هو أبغَضُ إلى مِنكَ، وواللهِ لأنتَ الساعَةَ أحَبُّ إلى من نَفْسى ومن وَلَدى، فقد آمَنتُ بِكَ: شَعْرى، وبَشَرى، وداخِلى، وخارِجى،

وسِرِّى، وعَلانيتى. فقال له رسولُ اللّهِ ﷺ: الحَمدُ للهِ الذى هَدى هذا إلى الذى يَعْلو ولا يُعْلَى. لا يَقبَلُه اللّهُ تعالى إلّا بصَلاة، ولا تُقبَلُ الصَّلاةُ إلّا بقُرآن. فعلَّمه رسولُ اللّهِ ﷺ: "الحَمْدُ" و"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فقال: يا رسولَ اللّهِ، ما سَمِعتُ فى البَسيطِ ولا فى الرَّجَزِ أحسَنَ من هذا. فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: إنَّ هذا كلامُ ربِّ العالَمين، وليس بشِعْرٍ. وإذا قَرَأتَ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فكأنَّما قَرَأتَ ثُلُثَ القُرآن. وإذا قَرَأتَ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" مرَّتين فكأنَّما قَرَأتَ ثُلُثَى القُرآنِ. وإذا قَرَأتَ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" ثَلاثَ مَرّات فكأنَّما قَرَأتَ القُرآنَ كُلَّه. فقال الأعْرابى: نِعْمَ الإلهُ! فإنَّ إلَهَنا يَقبَلُ اليَسيرَ ويُعطى الجَزيلَ. ثم قال رسولُ اللّهِ ﷺ: أعْطُوا الأعْرابى. فأعْطَوْه حتى أبْطَروه، فقام عبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ، فقال: يا رسولَ اللّهِ، إنِّى أُريدُ أنْ أُعطِيَه ناقَةً أتقرَّبُ بها إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ دون البُخْتى وفوقَ الأعْرابى، وهى عُشَراءُ. فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: قد وَصَفتَ ما تُعْطى وأَصِفُ لك ما يُعْطيك اللّهُ تَعالى جَزاءً؟ قال: نَعَمْ. قال: لك ناقَةٌ من دُرَّةٍ جَوْفاءَ، قَوائمُها من زُمُرُّدٍ أخْضَر، وعُنُقُها من زَبَرْجَدٍ أصْفَرَ، عليها هَوْدَجٌ، وعلى الهَودَجِ السُّنْدُسُ والإسْتَبْرَقُ، تَمُرُّ بك على الصِّراطِ كالبَرْقِ الخاطِفِ. فخَرَجَ الأعْرابى من عِندِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فتَلَقّاه ألْفُ أعْرابى على ألْفِ دابَّةٍ بألْفِ رُمْحٍ، وألْفِ سَيفٍ، فقال لهم: أين تُريدونَ؟ فقالوا: نُقاتِلُ هذا الذى يَكذِبُ ويَزعُمُ أنَّه نَبى. فقال الأعْرابى: إنِّى أشهَدُ ألا إلهَ إلّا اللّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللّهِ ﷺ. فقالوا له: صَبَوْتَ؟ فقال لهم: ما صَبَوْتُ. وحدَّثَهم هذا الحديثَ، فقالوا بأجْمَعِهم: لا إلهَ إلّا اللّهُ، مُحَمَّدٌ رسولُ اللّهِ. فبَلَغَ ذلك النَّبى ﷺ، فتَلَقّاهم فى رِداءٍ، فنَزَلوا عن رِكابِهم، يُقَبِّلون ما وَلَّوْا عنه إلّا وهم يَقولونَ: لا إلهَ إلّا اللّهُ، مُحَمَّدٌ رسولُ اللّهِ، فقالوا: مُرْنا بأمْرِكَ يا رسولَ اللّهِ، قال: تَدْخُلون تحت رايَةِ خالدِ بنِ الوليدِ. قال: فليس أحَدٌ من العَرَبِ آمَنَ منهم ألْفٌ جميعًا إلّا بنو سُلَيمٍ".

ومن قصص إسلام الوفود فى أواخر حياة رسول الله "أنَّ ضِرارَ بنَ الأزْوَرِ رَضى اللهُ عنه لَمّا أسلَمَ أتى النَّبى ﷺ فأنْشأَ يَقولُ: تركْتُ القِداحَ وعَزْفَ القيانِ = والخَمْرَ تَصْليةً وابْتِهالا

وكَرِّى المُـحَبَّرَ فى غَمْـرةٍ وجَهْدى على المُشْرِكينَ القِتالا
وقالَتْ جَميـلةُ: بدَّدْتَـا وطرَّحْتَ أهلَكَ شتّى شِلالا
فيا ربِّ، لا أُغبَنَنْ صَفْقَتى فقدْ بِعْتُ أهْلى ومالى بِدالا
فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ما غُبِنْتَ صفقَتَكَ يا ضِرارُ".

ومن هذه القصص "(عن) سُلَيْمانَ بنِ نافعٍ العَبْدى بحَلَبَ قال: قال لى أبى: وفَد المُنذِرُ بنُ ساوَى مِن البَحْرَيْنِ حتّى أتى مَدينةَ الرَّسولِ ﷺ، ومع المُنذِرِ أُناسٌ، وأنا غُلَيمٌ لا أعقِلُ أُمْسِكُ جِمالَهم. قال: فذهَبوا مع سلاحِهم فسلَّموا على رسولِ اللهِ ﷺ، ووضَع المُنذِرُ سلاحَه ولبِس ثيابًا كانت معه ومسَح لِحيتَه بدُهْنٍ، فأتى نَبى اللهِ ﷺ فسلَّمَ، وأنا مع الجِمَالِ أنظُرُ إلى نَبى اللهِ ﷺ، فقال المُنذِرُ: قال لى النَّبى ﷺ: رأَيْتُ منكَ ما لَمْ أرَ مِن أصحابِكَ. قُلْتُ: وما رأَيْتَ مِنّى يا نَبى اللهِ؟ قال: وضَعْتَ سلاحَكَ ولبِسْتَ ثيابَكَ وتدهَّنْتَ. قُلْتُ: يا نَبى اللهِ أفَشَيْءٌ جُبِلْتُ عليه أم شيءٌ أحدَثْتُه؟ فقال له النَّبى ﷺ: لا بل شيءٌ جُبِلْتَ عليه. فسلَّموا على النَّبى ﷺ، فقال لهم النَّبى ﷺ أسلَمَتْ عبدُ القَيْسِ... قال لى أبى نظَرْتُ إلى نَبى اللهِ ﷺ كما أنّى أنظُرُ إليكَ ولكنّى لَمْ أعقِلْ قال ومات أبى وهو ابنُ عِشرينَ ومِئةِ سَنةً". فهذه أمثلة على كيفية إسلام من يسلمون فى عهد النبى، فهل تشم فى أى منها رائحة إكراه أو ضغط؟

الأكوينى كذاب أشر وجاهل غبى، ومع هذا يصفونه بالفيلسوف. واضح أن الفلسفة قد هُزِلَتْ وهان شأنها ولم تعد تساوى مليما. لقد دخلتُ البحث

الذى أكتبه الآن، وظنى أنى سوف ألقى فكرا ورأيا، فإذا بى أجد تفاهة وتهافتا. وهذا الكائن، بدلا من الانزواء خجلا لعبادته بشرا مثله واعتماده على منطق ركيك أعمى يجعل من الثلاثة واحدا شأنه فى ذلك شأن الوثنيين، يجد فى نفسه من الوقاحة والدناءة ما يَؤُزُّه على مهاجمة الإسلام الدين الحضارى الوحيد، والتطاول على سيده وسيد أهله وأمته والعالم كله محمد صلى الله عليه وسلم، الذى مكث فى مكة ثلاث عشرة سنة يتلقى الإيذاء من قومه والسخرية والتوابح، الذى تبلور فى نهاية المطاف فى وضع مؤامرة لقتله والتخلص بالتالى من دينه والإبقاء على الأوثان والخرافات المنحطة، والذى قضى العشر سنوات الأخيرة من حياته يدفع عن دعوته وأمته العدوان واحدا فى أعقاب الآخر، ورغم ذلك يتهمه هذا الكلب السعران بأن دينه قائم على القوة العسكرية وإجبار الناس بالسلاح على اعتناقه. لقد كان يكفى هذا الحلوفَ الوسخَ النجسَ المقارنةُ المخلصة بين توحيد محمد وبين تثليثه ليخر راكعا ساجدا فى هيكل الحقيقة ويعلن أن الإسلام يحلق فى الأعالى وينظر من عل إلى ما كان يعتنقه هو، لكن حلوفيته منعته من السير فى السبيل النقية الطاهرة وفضل عليها أكوام الزبالة التى هو جدير بها، وهى جديرة به. وقد صدق فيهما المثل القائل: وافَقَ شَنٌّ طبَقَةَ. إن هذا المسخ المسمى: فيلسوفا هو نسخة سابقة للساسة الغربيين الذين امتلخوا فلسطين وأعطَوْها غنيمة لليهود الصهاينة، وكلما حاول أبطال فلسطين استرداد حقهم أو شىء منه اتهموهم بأنهم إرهابيون، وأنكروا مذابح التطهير العرقى الذى تمارسه إسرائيل فى غزة بفضل أسلحتهم وأموالهم التى سرقوها أو أخذوها من العرب الأوساخ الأنذال عَنْوَةً وغطرسةً وإجرامًا.

وهو يقول إن الإسلام ليس فيه التسامح الموجود فى النصرانية. يشير إلى ما ينسبه العهد الجديد إلى المسيح من أنه "إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر" مما لا يصلح فى دنيا البشر ولا يمكن أىَّ إنسانٍ العملُ به، وإلا أُكِل من أول يوم يأتى فيه إلى الحياة. يقول ذلك الخنزير النجس، وهو يساعد بقلمه الوسخ مثله فى التنكيل بمسلمى الأندلس وإجبارهم بالتعذيب الوحشى السافل على التنصر حتى اسْتُأْصِلَتْ شأفة الإسلام والتوحيد من هناك على عكس ما صنعه المسلمون مع أهل تلك البلاد لدن فتحها، إذ تركوا كُلًّا وما يعتقد ولم يحاولوا قَسْر أحد على اتّباع دين التوحيد. وأتحدى أى شخص أن يأتينا بأية دولة نصرانية عاملت أتباع دين آخر، وبخاصة الإسلام، بعشر معشار ذلك الشعار التهجيصى الذى يزعجوننا به مَيْنًا وزورًا. لقد قضى النصارى الغربيون على أمة كاملة فى قارة أمريكا هى أمة الهنود الحمر وبوسائل غاية فى التوحش الجهنمى المرعب الذى لا يتخيله متخيل ولا حتى فى كوابيس الأحلام. وعلى نفس الشاكلة قضوا على أهل أستراليا الأصليين، وكانوا بعشرات الملايين. ورزاياهم وكوارثهم المتلتلة فى كل بلد فتحوه معلومة للقاصى والدانى. رأينا ما صنعته بريطانيا بمصر وفلسطين والعراق واليمن الجنوبى والهند، وما فعلته فرنسا فى مصر أواخر القرن الثامن عشر ثم فى سورية والمغرب العربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين من إفساد فاحش وقتل وتدمير وكسح ثروات، وما عملته إيطاليا فى ليبيا، وما عمله وحوش الصرب بمسلمى البوسنة والهرسك تحت سمع وبصر الغربيين والأمريكان دون تدخل هؤلاء للدفاع عن المظلومين والمساكين، بل بالتعاون معهم على التنكيل بالمسلمين. ونحن منذ سنة ونصف نشاهد بعيوننا ونسمع بآذاننا ما تفعله صواريخ الدول النصرانية وقنابلها بالمنازل والمستشفيات والمدارس والمؤسسات وسكانها فى فلسطين الحبيبة من خلال الصهاينة الأوباش، فنعرف أن تلك الدول تطبق

أعظم تطبيق مبدأ الصفع على الخدين بدلا من خَدٍّ واحد، مبدأ المسامحة والرحمة والرقة التى ستفقع مصارينى من كلام هذا الكلب الأجرب المصاب بداء السعار. وكل ذلك بعكس أسلوب تعامل المسلمين مع البلاد المفتوحة وغير المفتوحة، إذ لم يؤسلموا أحدا بالقوة، فضلا عن أن تكون الأسلمة جماعية، بَلْهَ أن تكون شاملة عامة لا تستثنى أحدا. كما أن المسلمين لم يفكروا مجرد تفكير، فضلاعن أن ينفذوا على أرض الواقع استئصالا تاما لأى شعب أو طائفة. فلا ينبغى إذن أن نولى هذبان ذلك الكلب السعران أذنا صاغية حين يتكلم عن الرحمة والتسامح النصرانى، فكلامه إنما يذكّرنا بتوفيق الدقن بتاع "أحلى م الشرف ما فيش" وبالمومس الوقحة التى تلطخ سمعة كل حرة شريفة وتتباهى فى وجه كرائم النساء بأنها ربة العفاف والصيانة بحيث إنها لا تخرج عن طريقها أبدا من المنزل إلى بيت الدعارة، ومن بيت الدعارة إلى المنزل.

إن موعظة الجبل بما فيها من شعار "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر" لا تمس الضمير النصرانى بشىء ولاتؤثر فيه أدنى تأثير، بل هو مجرد كلام يلاك فى وجه المسلمين للضحك على ذقونهم. أما حكاية العهد القديم والعهد الجديد وأن يسوع قد جاء لفتح صفحة جديدة فى تاريخ بنى إسرائيل مضادة لتشريعات العهد القديم، فهو كلام فارغ من المضمون الحقيقى ولا قيمة له أو معنى. إن الغرب النصرانى لا يعرف غير لغة الجزر والقتل والتدمير والتمزيق والإفقار والطمع والاستكبار والغطرسة والنظر إلى الأمم الأخرى على أنهم حيوانات لا بشر مكرمون، ومن حقهم أن يصنعوا بهم ما يحلو لهم.

ففى سفر "العدد/ ٣١": "١وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢«اِنْتَقِمْ نَقْمَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ، ثُمَّ تُضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ». ٣فَكَلَّمَ مُوسَى الشَّعْبِ قَائِلاً:

«جَرِّدُوا مِنْكُمْ رِجَالًا لِلْجُنْدِ، فَيَكُونُوا عَلَى مِدْيَانَ لِيَجْعَلُوا نَقْمَةَ الرَّبِّ عَلَى مِدْيَانَ. ٤أَلْفًا وَاحِدًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ مِنْ جَمِيعِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ تُرْسِلُونَ لِلْحَرْبِ». ٥فَاخْتِيرَ مِنْ أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ أَلْفٌ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ. اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مُجَرَّدُونَ لِلْحَرْبِ. ٦فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى أَلْفًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ إِلَى الْحَرْبِ، هُمْ وَفِينْحَاسَ بْنَ أَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ إِلَى الْحَرْبِ، وَأَمْتِعَةُ الْقُدْسِ وَأَبْوَاقُ الْهُتَافِ فِي يَدِهِ. ٧فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ. ٨وَمُلُوكُ مِدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلاَهُمْ: أَوِي وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابِعَ. خَمْسَةَ مُلُوكِ مِدْيَانَ. وَبَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ قَتَلُوهُ بِالسَّيْفِ. ٩وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ.١٠وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ.١١وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ،١٢وَأَتَوْا إِلَى مُوسَى وَأَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ وَإِلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالْغَنِيمَةِ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى عَرَبَاتِ مُوآبَ الَّتِي عَلَى أُرْدُنِّ أَرِيحَا.

١٣فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ الْكَاهِنُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ لاسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ.١٤فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وُكَلاَءِ الْجَيْشِ، رُؤَسَاءِ الأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِئَاتِ الْقَادِمِينَ مِنْ جُنْدِ الْحَرْبِ.١٥وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟١٦إِنَّ هؤُلاَءِ كُنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَسَبَ كَلاَمِ بَلْعَامَ، سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ فِي أَمْرِ فَغُورَ، فَكَانَ الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ.١٧فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا.١٨لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ".

وفى "يشوع/ ٦": "١٢فَبَكَّرَ يَشُوعُ فِي الْغَدِ، وَحَمَلَ الْكَهَنَةُ تَابُوتَ الرَّبِّ،١٣وَالسَّبْعَةُ الْكَهَنَةُ الْحَامِلُونَ أَبْوَاقَ الْهُتَافِ السَّبْعَةَ أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ سَائِرُونَ سَيْرًا وَضَارِبُونَ بِالأَبْوَاقِ، وَالْمُتَجَرِّدُونَ سَائِرُونَ أَمَامَهُمْ، وَالسَّاقَةُ سَائِرَةٌ

وَرَاءَ تَابُوتِ الرَّبِّ. كَانُوا يَسِيرُونَ وَيَضْرِبُونَ بِالأَبْوَاقِ.١٤وَدَارُوا بِالْمَدِينَةِ فِى الْيَوْمِ الثَّانِى مَرَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَحَلَّةِ. هكَذَا فَعَلُوا سِتَّةَ أَيَّامٍ.١٥وَكَانَ فِى الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّهُمْ بَكَّرُوا عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَدَارُوا دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ عَلَى هذَا الْمِنْوَالِ سَبْعَ مَرَّاتٍ. فِى ذلِكَ الْيَوْمِ فَقَطْ دَارُوا دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ.١٦وَكَانَ فِى الْمَرَّةِ السَّابِعَةِ عِنْدَمَا ضَرَبَ الْكَهَنَةُ بِالأَبْوَاقِ أَنَّ يَشُوعَ قَالَ لِلشَّعْبِ: «اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَعْطَاكُمُ الْمَدِينَةَ.١٧فَتَكُونُ الْمَدِينَةُ وَكُلُّ مَا فِيهَا مُحَرَّمًا لِلرَّبِّ (أى يجب قتل الجميع، وهذا معنى التحريم هنا). رَاحَابُ الزَّانِيَةُ فَقَطْ تَحْيَا هِىَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهَا فِى الْبَيْتِ، لأَنَّهَا قَدْ خَبَّأَتِ الْمُرْسَلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرْسَلْنَاهُمَا.١٨وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاحْتَرِزُوا مِنَ الْحَرَامِ لِئَلاَّ تُحَرَّمُوا، وَتَأْخُذُوا مِنَ الْحَرَامِ وَتَجْعَلُوا مَحَلَّةَ إِسْرَائِيلَ مُحَرَّمَةً وَتُكَدِّرُوهَا.١٩وَكُلُّ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَةِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ تَكُونُ قُدْسًا لِلرَّبِّ وَتَدْخُلُ فِى خِزَانَةِ الرَّبِّ». ٢٠فَهَتَفَ الشَّعْبُ وَضَرَبُوا بِالأَبْوَاقِ. وَكَانَ حِينَ سَمِعَ الشَّعْبُ صَوْتَ الْبُوقِ أَنَّ الشَّعْبَ هَتَفَ هُتَافًا عَظِيمًا، فَسَقَطَ السُّورُ فِى مَكَانِهِ، وَصَعِدَ الشَّعْبُ إِلَى الْمَدِينَةِ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ وَجْهِهِ، وَأَخَذُوا الْمَدِينَةَ. ٢١وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِى الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ. ٢٢وَقَالَ يَشُوعُ لِلرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَجَسَّسَا الأَرْضَ: «ادْخُلاَ بَيْتَ الْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ وَأَخْرِجَا مِنْ هُنَاكَ الْمَرْأَةَ وَكُلَّ مَا لَهَا كَمَا حَلَفْتُمَا لَهَا». ٢٣فَدَخَلَ الْغُلاَمَانِ الْجَاسُوسَانِ وَأَخْرَجَا رَاحَابَ وَأَبَاهَا وَأُمَّهَا وَإِخْوَتَهَا وَكُلَّ مَا لَهَا، وَأَخْرَجَا كُلَّ عَشَائِرِهَا وَتَرَكَاهُمْ خَارِجَ مَحَلَّةِ إِسْرَائِيلَ. ٢٤وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا بِهَا، إِنَّمَا الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَآنِيَةُ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ جَعَلُوهَا فِى خِزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ. ٢٥وَاسْتَحْيَا يَشُوعُ رَاحَابَ الزَّانِيَةَ وَبَيْتَ أَبِيهَا وَكُلَّ مَا لَهَا، وَسَكَنَتْ فِى وَسَطِ إِسْرَائِيلَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهَا خَبَّأَتِ الْمُرْسَلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرْسَلَهُمَا يَشُوعُ لِكَىْ يَتَجَسَّسَا أَرِيحَا".

وفى سفر "التثنية/٢": "٣١وَقَالَ الرَّبُّ لِى: انْظُرْ. قَدِ ابْتَدَأْتُ أَدْفَعُ أَمَامَكَ سِيحُونَ وَأَرْضَهُ. ابْتَدِئْ تَمَلَّكْ حَتَّى تَمْتَلِكَ أَرْضَهُ. ٣٢فَخَرَجَ سِيحُونُ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ إِلَى يَاهَصَ، ٣٣فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا، فَضَرَبْنَاهُ وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ. ٣٤وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِى ذلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا. ٣٥لكِنَّ الْبَهَائِمَ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا، وَغَنِيمَةَ الْمُدُنِ الَّتِى أَخَذْنَا، ٣٦مِنْ عَرُوعِيرَ الَّتِى عَلَى حَافَةِ وَادِى أَرْنُونَ وَالْمَدِينَةِ الَّتِى فِى الْوَادِى، إِلَى جِلْعَادَ، لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ قَدِ امْتَنَعَتْ عَلَيْنَا. الْجَمِيعُ دَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا".

وفى سفر "التثنية/ ٣": "١«ثُمَّ تَحَوَّلْنَا وَصَعِدْنَا فِى طَرِيقِ بَاشَانَ، فَخَرَجَ عُوجُ مَلِكُ بَاشَانَ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ فِى إِذْرَعِى. ٢فَقَالَ لِى الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ مِنْهُ، لأَنِّى قَدْ دَفَعْتُهُ إِلَى يَدِكَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ وَأَرْضِهِ، فَتَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلْتَ بِسِيحُونَ مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ الَّذِى كَانَ سَاكِنًا فِى حَشْبُونَ. ٣فَدَفَعَ الرَّبُّ إِلهُنَا إِلَى أَيْدِينَا عُوجَ أَيْضًا مَلِكَ بَاشَانَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ، فَضَرَبْنَاهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَارِدٌ. ٤وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِى ذلِكَ الْوَقْتِ. لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ لَمْ نَأْخُذْهَا مِنْهُمْ. سِتُّونَ مَدِينَةً، كُلُّ كُورَةِ أَرْجُوبَ مَمْلَكَةُ عُوجٍ فِى بَاشَانَ. ٥كُلُّ هذِهِ كَانَتْ مُدُنًا مُحَصَّنَةً بِأَسْوَارٍ شَامِخَةٍ، وَأَبْوَابٍ وَمَزَالِيجَ. سِوَى قُرَى الصَّحْرَاءِ الْكَثِيرَةِ جِدًّا. ٦فَحَرَّمْنَاهَا (أى قتلنا كل شخص فيها) كَمَا فَعَلْنَا بِسِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ، مُحَرِّمِينَ كُلَّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. ٧لكِنَّ كُلَّ الْبَهَائِمِ وَغَنِيمَةِ الْمُدُنِ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا".

وفى سفر "التثنية/١٣": "١٢«إِنْ سَمِعْتَ عَنْ إِحْدَى مُدُنِكَ الَّتِى يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَسْكُنَ فِيهَا قَوْلاً:١٣قَدْ خَرَجَ أُنَاسٌ بَنُو لَئِيمٍ مِنْ وَسَطِكَ وَطَوَّحُوا سُكَّانَ مَدِينَتِهِمْ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا.١٤وَفَحَصْتَ

وَفَتَّشْتَ وَسَأَلْتَ جَيِّدًا وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ وَأَكِيدٌ، قَدْ عُمِلَ ذلكَ الرِّجْسُ فِى وَسَطِكَ،١٥فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيفِ.١٦تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاًّ إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ".

وفى سفر "التثنية/ ٢٠": "١٠«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَى تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ،١١فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ.١٢وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا.١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ.١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِى الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِى أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ.١٥هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِى لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا.١٦وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِى يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا،١٧بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ".

وفى "يشوع/ ٨": "١فَقَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «لاَ تَخَفْ وَلاَ تَرْتَعِبْ. خُذْ مَعَكَ جَمِيعَ رِجَالِ الْحَرْبِ، وَقُمِ اصْعَدْ إِلَى عَاى. انْظُرْ. قَدْ دَفَعْتُ بِيَدِكَ مَلِكَ عَاى وَشَعْبَهُ وَمَدِينَتَهُ وَأَرْضَهُ، ٢فَتَفْعَلُ بِعَاى وَمَلِكِهَا كَمَا فَعَلْتَ بِأَرِيحَا وَمَلِكِهَا (يقصد وجوب تحريمها، أى القتل والاستئصال الذى لا يُبْقِى ولا يَذَر). غَيْرَ أَنَّ غَنِيمَتَهَا وَبَهَائِمَهَا تَنْهَبُونَهَا لِنُفُوسِكُمْ. اجْعَلْ كَمِينًا لِلْمَدِينَةِ مِنْ وَرَائِهَا». ٣فَقَامَ يَشُوعُ وَجَمِيعُ رِجَالِ الْحَرْبِ لِلصُّعُودِ إِلَى عَاى. وَانْتَخَبَ يَشُوعُ ثَلاَثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ جَبَابِرَةَ الْبَأْسِ وَأَرْسَلَهُمْ لَيْلاً، ٤وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: «انْظُرُوا! أَنْتُمْ تَكْمُنُونَ لِلْمَدِينَةِ

مِنْ وَرَاءِ الْمَدِينَةِ. لاَ تَبْتَعِدُوا مِنَ الْمَدِينَةِ كَثِيرًا، وَكُونُوا كُلُّكُمْ مُسْتَعِدِّينَ. ٥وَأَمَّا أَنَا وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِي مَعِي فَنَقْتَرِبُ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَيَكُونُ حِينَمَا يَخْرُجُونَ لِلِقَائِنَا كَمَا فِي الأَوَّلِ أَنَّنَا نَهْرُبُ قُدَّامَهُمْ، ٦فَيَخْرُجُونَ وَرَاءَنَا حَتَّى نَجْذِبَهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ. لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ هَارِبُونَ أَمَامَنَا كَمَا فِي الأَوَّلِ. فَنَهْرُبُ قُدَّامَهُمْ. ٧وَأَنْتُمْ تَقُومُونَ مِنَ الْمَكْمَنِ وَتَمْلِكُونَ الْمَدِينَةَ، وَيَدْفَعُهَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ بِيَدِكُمْ. ٨وَيَكُونُ عِنْدَ أَخْذِكُمُ الْمَدِينَةَ أَنَّكُمْ تُضْرِمُونَ الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ. كَقَوْلِ الرَّبِّ تَفْعَلُونَ. انْظُرُوا. قَدْ أَوْصَيْتُكُمْ». ٩فَأَرْسَلَهُمْ يَشُوعُ، فَسَارُوا إِلَى الْمَكْمَنِ، وَلَبِثُوا بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايٍ غَرْبِيَّ عَايٍ. وَبَاتَ يَشُوعُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي وَسَطِ الشَّعْبِ.

١٠فَبَكَّرَ يَشُوعُ فِي الْغَدِ وَعَدَّ الشَّعْبَ، وَصَعِدَ هُوَ وَشُيُوخُ إِسْرَائِيلَ قُدَّامَ الشَّعْبِ إِلَى عَايٍ. ١١وَجَمِيعُ رِجَالِ الْحَرْبِ الَّذِينَ مَعَهُ صَعِدُوا وَتَقَدَّمُوا وَأَتَوْا إِلَى مُقَابِلِ الْمَدِينَةِ، وَنَزَلُوا شِمَالِيَّ عَايٍ، وَالْوَادِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَايٍ. ١٢فَأَخَذَ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُل وَجَعَلَهُمْ كَمِينًا بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايٍ غَرْبِيَّ الْمَدِينَةِ.١٣وَأَقَامُوا الشَّعْبَ، أَيْ كُلَّ الْجَيْشِ الَّذِي شِمَالِيَّ الْمَدِينَةِ، وَكَمِينَهُ غَرْبِيَّ الْمَدِينَةِ. وَسَارَ يَشُوعُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى وَسَطِ الْوَادِي. ١٤وَكَانَ لَمَّا رَأَى مَلِكُ عَايٍ ذلِكَ أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا وَبَكَّرُوا، وَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ لِلِقَاءِ إِسْرَائِيلَ لِلْحَرْبِ، هُوَ وَجَمِيعُ شَعْبِهِ فِي الْمِيعَادِ إِلَى قُدَّامِ السَّهْلِ، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِ كَمِينًا وَرَاءَ الْمَدِينَةِ.١٥فَأَعْطَى يَشُوعُ وَجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ انْكِسَارًا أَمَامَهُمْ وَهَرَبُوا فِي طَرِيقِ الْبَرِّيَّةِ.١٦فَأُلْقِيَ الصَّوْتُ عَلَى جَمِيعِ الشَّعْبِ الَّذِينَ فِي الْمَدِينَةِ لِلسَّعْيِ وَرَاءَهُمْ، فَسَعَوْا وَرَاءَ يَشُوعَ وَانْجَذَبُوا عَنِ الْمَدِينَةِ.١٧وَلَمْ يَبْقَ فِي عَايٍ أَوْ فِي بَيْتِ إِيلَ رَجُلٌ لَمْ يَخْرُجْ وَرَاءَ إِسْرَائِيلَ. فَتَرَكُوا الْمَدِينَةَ مَفْتُوحَةً وَسَعَوْا وَرَاءَ إِسْرَائِيلَ.

١٨فَقَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «مُدَّ الْمِزْرَاقَ الَّذِي بِيَدِكَ نَحْوَ عَايٍ لأَنِّي بِيَدِكَ أَدْفَعُهَا». فَمَدَّ يَشُوعُ الْمِزْرَاقَ الَّذِي بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ.١٩فَقَامَ الْكَمِينُ بِسُرْعَةٍ مِنْ

مَكَانِهِ وَرَكَضُوا عِنْدَمَا مَدَّ يَدَهُ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَأَخَذُوهَا، وَأَسْرَعُوا وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ. ٢٠فَالْتَفَتَ رِجَالُ عَاى إِلَى وَرَائِهِمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا دُخَانُ الْمَدِينَةِ قَدْ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ. فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَكَانٌ لِلْهَرَبِ هُنَا أَوْ هُنَاكَ. وَالشَّعْبُ الْهَارِبُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ انْقَلَبَ عَلَى الطَّارِدِ. ٢١وَلَمَّا رَأَى يَشُوعُ وَجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ أَنَّ الْكَمِينَ قَدْ أَخَذَ الْمَدِينَةَ، وَأَنَّ دُخَانَ الْمَدِينَةِ قَدْ صَعِدَ، انْثَنَوْا وَضَرَبُوا رِجَالَ عَاى. ٢٢وَهؤُلاَءِ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ لِلِقَائِهِمْ، فَكَانُوا فِي وَسَطِ إِسْرَائِيلَ، هؤُلاَءِ مِنْ هُنَا وَأُولئِكَ مِنْ هُنَاكَ. وَضَرَبُوهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ شَارِدٌ وَلاَ مُنْفَلِتٌ. ٢٣وَأَمَّا مَلِكُ عَاى فَأَمْسَكُوهُ حَيًّا وَتَقَدَّمُوا بِهِ إِلَى يَشُوعَ. ٢٤وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى إِسْرَائِيلُ مِنْ قَتْلِ جَمِيعِ سُكَّانِ عَاى فِي الْحَقْلِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ لَحِقُوهُمْ وَسَقَطُوا جَمِيعًا بِحَدِّ السَّيْفِ حَتَّى فَنُوا، أَنَّ جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ رَجَعَ إِلَى عَاى وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ٢٥فَكَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ سَقَطُوا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، جَمِيعُ أَهْلِ عَاى. ٢٦وَيَشُوعُ لَمْ يَرُدَّ يَدَهُ الَّتِي مَدَّهَا بِالْمِزْرَاقِ حَتَّى حَرَّمَ جَمِيعَ سُكَّانِ عَاى. ٢٧لكِنِ الْبَهَائِمُ وَغَنِيمَةُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ نَهَبَهَا إِسْرَائِيلُ لأَنْفُسِهِمْ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ يَشُوعَ. ٢٨وَأَحْرَقَ يَشُوعُ عَاى وَجَعَلَهَا تَلاًّ أَبَدِيًّا خَرَابًا إِلَى هذَا الْيَوْمِ. ٢٩وَمَلِكُ عَاى عَلَّقَهُ عَلَى الْخَشَبَةِ إِلَى وَقْتِ الْمَسَاءِ. وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ أَمَرَ يَشُوعُ فَأَنْزَلُوا جُثَّتَهُ عَنِ الْخَشَبَةِ وَطَرَحُوهَا عِنْدَ مَدْخَلِ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَأَقَامُوا عَلَيْهَا".

وفى "صموئيل الثانى/١٢": "٢٦وَحَارَبَ يُوآبُ رِبَّةَ بَنِي عَمُّونَ وَأَخَذَ مَدِينَةَ الْمَمْلَكَةِ. ٢٧وَأَرْسَلَ يُوآبُ رُسُلاً إِلَى دَاوُدَ يَقُولُ: «قَدْ حَارَبْتُ رِبَّةَ وَأَخَذْتُ أَيْضًا مَدِينَةَ الْمِيَاهِ. ٢٨فَالآنَ اجْمَعْ بَقِيَّةَ الشَّعْبِ وَانْزِلْ عَلَى الْمَدِينَةِ وَخُذْهَا لِئَلاَّ آخُذَ أَنَا الْمَدِينَةَ فَيُدْعَى بِاسْمِي عَلَيْهَا». ٢٩فَجَمَعَ دَاوُدُ كُلَّ الشَّعْبِ وَذَهَبَ إِلَى رِبَّةَ وَحَارَبَهَا وَأَخَذَهَا. ٣٠وَأَخَذَ تَاجَ مَلِكِهِمْ عَنْ رَأْسِهِ، وَوَزْنُهُ وَزْنَةٌ مِنَ

الذَّهَبِ مَعَ حَجَرٍ كَرِيمٍ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ دَاوُدَ. وَأَخْرَجَ غَنِيمَةَ الْمَدِينَةِ كَثِيرَةً جِدًّا. ٣١وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِي فِيهَا وَوَضَعَهُمْ تَحْتَ مَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسِ حَدِيدٍ وَأَمَرَّهُمْ فِي أَتُونِ الآجُرِّ، وَهكَذَا صَنَعَ بِجَمِيعِ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ. ثُمَّ رَجَعَ دَاوُدُ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَى أُورُشَلِيمَ".

وفى سفر "الملوك الثانى/١٥": "١٤وَصَعِدَ مَنَحِيمُ بْنُ جَادِي مِنْ تِرْصَةَ وَجَاءَ إِلَى السَّامِرَةِ، وَضَرَبَ شَلُّومَ بْنَ يَابِيشَ فِي السَّامِرَةِ فَقَتَلَهُ، وَمَلَكَ عِوَضًا عَنْهُ.١٥وَبَقِيَّةُ أُمُورِ شَلُّومَ وَفِتْنَتُهُ الَّتِي فَتَنَهَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ أَخْبَارِ الأَيَّامِ لِمُلُوكِ إِسْرَائِيلَ.١٦حِينَئِذٍ ضَرَبَ مَنَحِيمُ تِفْصَحَ وَكُلَّ مَا بِهَا وَتُخُومَهَا مِنْ تِرْصَةَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَفْتَحُوا لَهُ. ضَرَبَهَا وَشَقَّ جَمِيعَ حَوَامِلِهَا".

ثم جاء يسوع فقدم لنا الخلاصة الحقيقية إذ قال: "٣٤«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. ٣٥فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا" (إنجيل متى/١٠: ٣٤). ترى أين ذهب شعار "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"؟ لقد أكلته القطة!

والآن قارن هذا الكلام الدموى بما قاله رسول الله فى أحاديثه الشريفة حتى نتبين الفرق بين ما عندنا وما فى كتبهم. لقد نهانا عن التعرض للنساء والشيوخ والأطفال والرهبان والمسالمين بأى أذى، ونهانا عن عقر النخل والشجر وتحريق البيوت أو هدمها وقتل الحيوانات، وإذا أسرنا أسيرا فعلينا إطعامه والعناية به، وإن جنح عدونا للسلم فيجب علينا الجنوح له. كذلك لا ينبغى أن نفرح بالقتال إلا إذا كان لا مناص منه.

إن الدين الكريم الذى أتى به نبينا العظيم مفعم بالحث على الصبر والعفو والتسامح، ولكن من باب القوة والمقدرة وحين يكون العفو هو الحل الناجع أوعلى الأقل: هو الحل الأمثل. والمسلم مطالب بالصبر والعفو لا فى مواجهة البشر وسخافاتهم وتجاوزاتهم فقط بل وفى وجه حدثان الحياة وما فيها من متاعب ومعاناة أيضا. قال تعالى: "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ (أى إن طلقتم زوجاتكم) مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"، "إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا"، "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"، "(يا رسول الله) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"، "ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ"، "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، "وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"، "وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ"، "وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، "وَلَا تَزَالُ (يارسول الله) تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ (من اليهود) إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"، "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (الكلام عن المشركين وصلابة أمخاخهم وعنادهم فى مواجهة ما جاءهم به من خير ونور وتحضر)"، "وَقِيلِهِ (أى قول رسول الله

عن المشركين وتمردهم على سماع دعوة الإسلام والتقدم والاستنارة) يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"، "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ"، "(وفى الصراع مع المشركين) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"، "لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"، "وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، "وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"، "وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"، "الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ"، "وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"، "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ"، "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"، "وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ"، "فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ (أى المشركون) وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى"، "إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ (جَزَيْتُ المؤمنين يوم القيامة) بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ"، "أُولَئِكَ (المؤمنون

الصالحون) يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ (الجنة) بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا"، "أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا (الكلام عن أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد عليه السلام)"، "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"، "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ"، "وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ * اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ"، "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"، "(من صفات المؤمنين أنهم) إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"، "فَاصْبِرْ (يارسول الله) كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ"، "فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ"، "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ"، "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا"، "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا"، "وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ"، "وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا"، "ثُمَّ كَانَ (أى العمل الصالح) مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ"، "وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ".

لا أظن أنه يوجد فى الأناجيل ولا فى العهد القديم شىء مثل هذا مع أنى لم أورد كل الآيات المتعلقة بموضوعنا ولا تطرقت إلى ما خلفه لنا رسول الله من كنوز الحديث الثرية المباركة. ولا ريب فى أن القارئ قد لاحظ أن الصبر والعفو والتسامح والتغاضى فى الآيات المجيدة يغطى كل شىء فى الدنيا. ومع هذا كله فنحن لا نطنطن بما عندنا من كنوز نفسية وأخلاقية وروحية واجتماعية كما يفعل كذبا وزورا أصحاب "إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر". وقد كانت الفتوح الإسلامية رغم كل ما يمكن أن يشغب به الشاغبون عليها هى أفضل وأرقى وأنقى وأنظف وأطهر وأعدل وأقوم من كل غزو آخر. ونحن، وعلى عينك يا تاجر، نرى بأنفسنا كيف يتصرف الأوغاد الأمريكان والأوربيون تجاهنا وتجاه الفلسطينيين. لعنة الله على كل وغد لئيم أثيم!

وهنا يأتى ما قاله توما الأكوينى عن الحديث الذى يقول: "لا يجتمعُ دينان فى جزيرةِ العربِ"، وإن كان المعلق النصرانى قد ترجم الكلام المكتوب باللاتينية ولم يلتزم بنص الحديث كما رواه مسلم حسبما قال. وهذا ما كتبه موقع "الدرر السنية" فى تحديد معنى "جزيرة العرب": "اختُلِفَ فى المقصودِ بجزيرةِ العربِ تحديدًا بعدَ اتِّفاقِهم جميعًا على مكَّةَ والمدينةِ، فقيل: الذى يُمنَعُ المشرِكونَ مِن سُكناهُ مِن أرضِ الجزيرةِ هو الحِجازُ خاصَّةً. وهذا التَّخصيصُ لأنَّ تَيْماءَ التى أُخرِجَ اليهودُ إليها كانتْ مِن جَزيرةِ العربِ، لكنَّها ليسَتْ مِن الحِجازِ. ومنهم مَن أدْخَلَ اليمامةَ. ومنهم مَن أدخَلَ اليمَنَ فى هذا التَّخصيصِ. وقيل: المقصودُ بالجزيرةِ العربيَّةِ هو كلُّ أرضِ العربِ التى كانتْ تحتَ أيديهِم، وفيها أوطانُهم منذُ الجاهليَّةِ، وهى المنطقةُ التى يُحيطُ بها البحرُ الأحمرُ والمحيطُ الهندى والخليجُ العربى، وتَنتهِى شَمالًا إلى أطرافِ الشامِ

والعراقِ... ولمَّا استُخلِفَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رضِى اللهُ عنه أَجْلَى أهلَ نَجْرانَ إلى النَّجْرانيَّةِ بناحيةِ الكُوفةِ، وبهم سُمِّيتْ، واشتَرى عقرَهم وأموالَهم، وأَجْلى أهلَ فَدَكَ وتَيْماءَ وأهلَ خَيْبَرَ. ومع إخراجِهم منها لا يَمنَعُ ذلك مِن دخولِهم إيَّاها مسافرينَ أو لحاجةٍ".

وأنا لا أعرف فى الواقع معنى لإثارة الأكوينى هذا الأمر، وكتاباته قد مهدت الطريق لتصفية الإسلام والمسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية واستئصال شأفة التوحيد تمام الاستئصال عن طريق محاكم التفتيش. فيا له من حقود وحشى وأحمق! والشيء الثانى أن الفاتيكان دولة لا يوجد فيها غير النصارى بل غير رجال الدين النصرانى. فمن الممكن النظر إلى قول النبى هذا فى ضوء وضع الفاتيكان. ونحن الآن نرى الصهاينة فى فلسطين قد جعلوا دولتهم وقفا على اليهود ويعملون بكل وسيلة وسبيل على طرد الفلسطينيين منها بعدما سرقوها منهم بتخطيط ومعونة وحماية الغرب النصرانى. فاهم أو لا أيها الخنزير؟ ثم إن علماء الدين المسلمين قد اختلفوا فى تحديد معنى "جزيرة العرب" حتى لقد حددها فريق منهم بأن المقصود هو الحجاز فقط. ولا ينبغى أن ننسى أن النبى قد سمح لوفد نصرانى قدم إلى المدينة أن يؤدوا صلاتهم فى مسجده صلى الله عليه وسلم. كما أن عمر لم يستول على أملاك المهجَّرين مجانا بل اشتراها منهم. ولم يحدث أن أكره أحدا منهم على الإسلام ولا ساومهم على هجر دينهم. وعلى أية حال لقد أُنْشِئَتْ الآن الكنائس فى بلاد الجزيرة العربية وتطاول منشئوها فى البنيان. بل لقد بُنِيَ معبد هندوسى هائل ضخم رحيب الجنبات فى دولة الإمارات، ووُضِعَتْ تماثيل بوذا فى الطرق العامة، وجُعِلَت الإجازة الأسبوعية يومى السبت والأحد، أما الجمعة فهو يوم عمل للمسلمين لا يرتاحون فيه، فى الوقت الذى أراح فيه الوضعُ الجديدُ اليهودَ والنصارَى وكأنهم هم

أهل البلد، وكأن أهل البلد هم الغرباء الطارئون الذين لا يحق أخذهم فى الاعتبار والحسبان. على أن المسألة لا تتم فصولها هنا، إذ ظهر هناك ما يسمَّى بـ"االديانة الإبراهيمية"، لتحل فى الغالب محل الإسلام. وتنحاز الإمارات الآن إلى الصهاينة فى عدوانهم الوحشى على الفلسطينيين. والبقية تأتى. واستر يا رب!

ولا يتوقف سخف عقل الأكوينى عند هذا الحد بل يمضى زاعما أن الإسلام لا يعتمد على الحوار والإقناع بل عل القوة المسلحة. ودليل هذا المتخلف هو قوله تعالى فى سورة "البقرة": "كُتِبَ عليكم القِتالُ وهو كُرْهٌ لكم" مع أن معنى الآية أن القتال ليس مما تهش له النفس. وهل هناك من يشك فى هذا؟ لكن الظروف التى مر بها المسلمون أوانذاك أجبرتهم على القتال دفاعا عن أنفسهم لا لفرض الإسلام على غيرهم، وإلا فهل كان الرسول يمسك سيفا وحربة فى يده يقطع بالأول رقبة من يقف أمامه ويرفض ما يدعوه إليه، ويرمى بالثانية ظهر من يرفض الدعوة ويجرى ولا يقف؟ إنا لو رجعنا قليلا عدة آيات قبل تلك الآية لقرأنا قوله تعالى: "وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".

وفى سورة "النحل": "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ".

وفى القرآن المجيد تقابلنا العبارات التالية التى تتمحور حول الرسول الكريم مخاطَبًا ومتكلِّمًا: "لستَ عليهم بمسيطر، لستُ عليكم بوكيل، وما أنا عليكم بحفيظ، وما أنت عليهم بجبّار، إن أنت إلا نذير، وما أنا إلا نذير وبشير، ليس لك من الأمر شيء أو يتوبَ عليهم أو يعذِّبَهم". فكيف يقال إن الإسلام دين الإكراه وفرض الدعوة الجديدة على الناس بقوة السلاح؟ إن ذلك المتخلف المنافق عابد البشر يرمى الإسلام بداء أمته وينسلّ، سلّ الله جسمه! إن المسيح رغم أنه لم يُعَمَّر على الأرض طويلا قد هدد بنى إسرائيل بأنه إنما جاءهم بالسيف، فكيف لو امتد به العمر أطول من الوقت القصير الذى عاشه؟ إذن لكانت له فيهم وقعات مثخنة ولنشرهم بالمناشير وحَرَّم بالسيف أو بالنار أهل كل مدينة يفتحها كما يقول العهد القديم. ألم يقل إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليُكَمِّل؟ لكن كان للأقدار كلمة أخرى. وعلى أية حال فالعبرة بالواقع لا بالكلام الكبير المتشنج. وقد بينا أن الغزو النصرانى للدول لا علاقة له بـ"الخد الأيمن والخد الأيسر" والشعارات الفارغة الكاذبة عن الرحمة والتسامح وحب السلام بل بالقتل والدمار وتمزيق الدول ونشر الجهل وإفقار الشعوب وشفط ثرواتها حراما وسحتا. وسوف أجتزئ هنا بمثالين اثنين فقط يبينان لنا الفرق بين طريقة الإسلام فى فتح البلاد وطريقة النصرانية فى غزوها: لقد فتح المسلمون القدس، فلم نرهم يبيدون الناس أو يجبرونهم على هجر دينهم أو لغتهم بل تم

ذلك مع مرور الوقت وصارت المنطقة عربية إسلامية على المنوال الطبيعى فى تطور الأحداث والأحوال. لكن تعالوا إلى الناحية الأخرى لنرى ماذا صنع الصليبيون حينما دخلوا بيت المقدس. ولن نورد هنا شيئا غير المذبحة التى نفذوها وراح ضحيتها عشرات الألوف من العرب والمسلمين حتى لقد كتب أحد مؤرخيهم هم أنهم كانوا يخوضون حرفيا فى دماء الشهداء. يا للهول! ولم يُعْفُوا المدن النصرانية التى مروا بها عبر أوربا من النهب والسلب والقتل والتدمير. وهذا مشهور متعالم يعرفه كل من له أدنى تماسٍّ مع تاريخ الحملات الصليبية.

كذلك فتح المسلمون شبه الجزيرة الأيبيرية، فلم نسمع قط أنهم نفذوا مذابح أو فكروا مجرد تفكير فى تغيير دين الناس هناك أو لغتهم وأدبهم أو تهجيرهم، فضلا عن استئصالهم أو إنشاء محاكم تفتيش إسلامية يقوم عليها علماء دين مجرمون ساديون أبالسة كمحاكم التفتيش النصرانية القادمة فى الطريق. ثم شالت نعامتهم لركونهم إلى الترف وهجران قيم الدين التى من شأنها المحافظة على صلابة الأمة وطموحها الغلاب وتمتين ثقتها بربها وبنفسها وبقدراتها، فضلا عن التمزق إلى دويلات تتنازع فيما بينها وتحاول كل منها القضاء على الدويلة الأخرى مع الاستعانة بالقوى النصرانية هناك. ثم إننا نعلم تماما ما حدث بعدما انتهت السيادة الإسلامية فى تلك البلاد، إذ قامت محاكم التفتيش الإجرامية الشيطانية التى وضعت نصب عينيها إخلاء شبه الجزيرة الأيبيرية من الإسلام والمسلمين معا بكل الوسائل الممكنة وبكل طريقة تخطر أو لا تخطر على البال، ونجحت فى ذلك نجاحا مذهلا عن طريق القتل والإحراق، والتجسس على البيوت المفتوحة ليل نهار بأمرهم، والاعتقال والتعذيب فى السجن على نحو لا يطيقه بشر، والتهجير ومصادرة الممتلكات

والإكراه على نبذ الإسلام واعتناق النصرانية والانسلاخ من اللغة العربية وطىّ صفحة الأدب المكتوب بها وإحراق الكتب الإسلامية والعربية. وللعلم فإن الأغلبية الساحقة الماحقة من المسلمين هناك كانوا مواطنين من أهل البلاد لا من العرب أو البربر. نعم لقد امترجت الدماءات الثلاثة، لكن نسبة الدم العربى والبربرى فى هذا المزيج نسبة ضئيلة أشد الضآلة، إذ كانت أعداد الفاتحين تحصى بالألف بينما كانت فى حالة المواطنين تعد بالمليون.

وننتقل إلى تهمة أخرى، وملخصها أن القرآن يخالف الكتب المقدسة. ولا أدرى كيف لم يبصر هذا المتخلف ما يفتحه على نفسه من أبواب الخزى. أيها المتخلف، لقد جاء الإسلام بالتوحيد بينما جعلتم الله ثالث ثلاثة، وهو ما لم يرد فى كتاب سماوى. وصور كتابك المقدس الله والأنبياء فى صور تثير الاشمئزاز والنفور فى حين حافظ القرآن على جلال الله وعظمته وسلطانه وعلى نقاء سيرة الأنبياء كما كانوا فى الحياة لا على صفحات كتابكم: فهذا يسكر ويفقد وعيه يتصرف كالأوباش فينطرح على الأرض وتبدو سوأته ويدخل ابنه عليه فيراه على تلك الحالة المزرية. وهذا يتخلى عن امرأته للملك مكتفيا ببعض المواشى التى أنعم بها الملك عليه. وهذا يخدع الله ويحصل على البركة بطبق عدس وارتداء فراء خروف، وهذا يسكر ويمارس الزنا مع بنتيه، وهذا يخاطب الله بأسلوب وقح، وهذا يصنع العجل ليعبده قومه، وهذا يزنى ويقتل، وهذا يتزوج بالمشركات ويعصى الله ويتمرد على أوامره ونواهيه ثم لا يكتفى سيادته بهذا بل ينصب لهم الأوثان فى البيت، وفوق هذا يشاركهن فى عبادتها، ثم إنه لا يستحى ويبقى الطبق مستورا بل ينظم شعرا عاهرا تنفر من نظمه المومسات... إلخ. كما أن الإسلام ينهى عن الكفر بالله وأنبيائه وعن القتل والزنا والخمر والظلم والكذب واللواط والسرقة وغصب ممتلكات الغير... فهل

تعاليم دينكم ترحب بما نهى عنه الإسلام، فكتابكم يأمر بالكفر والقتل والزنا وشرب الخمور ويحبب إليكم الظلم والكذب والشذوذ الجنسى والسرقة واغتصاب أموال الآخرين؟ والإسلام يفرض على المسلم والمسلمة طلب العلم، فهل دينكم يحبذ الجهل يا جاهل ويفضل أن يظل الإنسان حيوانا بل وحيوانا غير عاقل ولا فاهم ولا عارف ولا عالم؟ قل يا متخلف ولا تسكت! والإسلام يحض نبيَّه على الشورى، فهل أنبياؤكم طغاة مستبدون؟ والإسلام يوصينا بالصبر والتجمل بالأمل، فبم يوصيكم كتابكم؟ ألعله يوصيكم بالسخط والرعونة والتعجل والركون إلى اليأس والكآبة؟ فى الواقع أيها القارئ سوف تجد فى كتابهم المقدس أخلاقا قذرة وعقولا مشوهة وظلما وسرقة وإجحافا وزنا وقتلا... وممن؟ من أنبيائهم أنفسهم. لكنى اكتفيت هنا بتجلية وجه الإسلام الجميل البديع ليس إلا حتى يفهم المسلمون أن هذا الخنزير يكذب ويكذب ويكذب، وهو إنما يفعل ذلك استنادا إلى ما قاله بولس وينفذه كثير من رجال دينهم من أن الكذب، ما دام يستخدم فى نصرة دينهم، فهو حلال زلالا بلال. أعاش الله الكذابين فى هم وبلبال!

ومما قاله توما الأكوينى كذلك أن أحدا من الأنبياء السابقين لم يتنبأ بمجىء محمد. وقبل أن نناقش هذه الدعوى فإننا نتساءل: هل هناك قاعدة فى أى دين من الأديان السماوية تقول إنه لا يمكن أن يكون أى شخص نبيا إلا إذا تنبأ نبى سابق به؟ فأين هذه القاعدة؟ بل إن المسيح نفسه لم يتنبأ به نبى من قبل تنبؤا واضحا لا يحتمل جدالا أو مراجعة، وإلا فلم كان كل نبى بما فيهم عيسى عليه السلام يقابَل بالتكذيب والعناد والعصيان ولا يؤمن به الناس إلابعد اللَّتيَّا والَّتِى؟ ولنطالع معا ما كتبته "دائرة المعارف الكتابية" فى مادة "نبوة" لنرى أهناك مثل تلك القاعدة التى يشهرها توما الأكوينى المتخلف فى

وجوهنا ظنا منه أنه بها يستطيع أن يوقف نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. تقول مادة "نبوة - نبوات - نبى – أنبياء" فى تلك الدائرة:

"أولا: (١) النبوة فى الكتاب المقدس:

الثابت أن الكتاب المقدس يعتبر أن النبى هو من يتكلم بما يُوحَى به إليه من الله، فأقواله ليست من بنات أفكاره، ولكنها من مصدر أسمى. والنبى هو فى نفس الوقت "الرائى" الذى يرى أمورًا لا تقع فى دائرة البصر الطبيعى، ويسمع أشياء لا تستطيع الأذن الطبيعية أن تسمعها. فكلمتا "النبى" و"الرائى" مترادفتان (١صم ٩: ٩). أما من يتكلمون "برؤيا قلبهم لا عن فم الرب" "فمن تلقاء ذواتهم ... الذاهبين وراء روحهم، ولم يروا شيئًا" فهم أنبياءُ كَذَبَةٌ" و"الرب لم يرسلهم" (إرميا ٢٣:١٦ -١٨، حز١٣: ٢ - ٧). فالأنبياء الحقيقيون إنما يتكلمون بما يضعه الله فى أفواههم أو يكشفه لبصائرهم الروحية (ارجع إلى إش ٢:١). فليس من الضرورى أن يأتى كلام الرب للنبى بصوت مسموع لأذنه الطبيعية. ولكن الأمر الأساسى هو أن يكون قادرًا تمامًا على التمييز بين صوت الله وصوت قلبه أو أفكاره الذاتية. فهذا وحده يستطيع أن يقول إنه يتكلم باسم الرب أو "هكذا قال السيد الرب" (حز ١٦:٤، ٧:١). وفى هذا الحال يدرك أنه لابد أن يتكلم كما يقول عاموس النبى: الأسد قد زمجر، فمن لا يخاف؟ السيد الرب قد تكلم، فمن لا يتنبأ" (عا ٣: ٨)، لأن كلمات الرب تشتعل فى قلبه "كنار محرقة" إلى أن ينطق بها (إرميا ٢٠: ٧ - ٩).

(٢) الوحى النبوى:

إن القوة الإلهية التى تحل على كائن بشرى وتجبره على رؤية أو سماع أشياء تظل بدون ذلك مخفية عنه، هذه القوة هى التى يعبر عنها "بالوحى"، فيقـال مثلًا: "فكان عليه روح الله" (عد ٢٤: ٢)، أو "حل عليه روح الله" (حز١١: ٥) ؛ أو "كانت عليه يد الرب" (٢ مل ٣:١٥، حز١: ٣، ٣:١٤ و ٢٢)، أو "لبسه روح الله" (٢أخ ٢٤: ٢٠)، أى أن روح الله ملأه، أو "استقرت" روح الله عليه (٢ مل ٢:١٥، إش١١: ٢ و٦١:١)، أى حلت حلولًا دائمًا. أو "جعل الرب روحه عليه" (عد١١: ٢٩)، أو "وضع الرب روحه عليه" (إش ٤٢:١)، أو "يسكب روحه عليه" (يو ٢: ٢٨). ولكن لم يكن الوحى يلغى وعى من يتلقاه أو شخصيته فيصبح مجرد آلة تسجيل، بل يكون متلقى الوحى فى كامل وعيه، ويستطيع فيما بعد أن يصف كل ما حدث وصفًا دقيقًا. فالله هو الذى أعد النبى لتلقى الوحى، وزوده بكل المواهب والقدرات والخبرات اللازمة لنقل أقوال الله وتدوينها كما وصلت إليه بكل أمانة ودقة ".

فكما نرى ليس فى هذا النص المتصل بموضوعنا اتصالا مباشرا ولا فى بقية المادة، وهى عن موضوعات لا علاقة لها بما نحن فيه، ليس فى ذاك ولا هذه أى شىء مما ادعاه توما الأكوينى من قريب أو من بعيد، بل مِلَاكُ الأمرِ يقوم على تجربة النبى الذاتية، وهو ما حدث فى حالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم أفضل وأوضح وأحسم من أى نبى من أنبياء الكتاب المقدس مما وصفه وشرحه عليه السلام فى الحديث عما رآه فى الغار وفى شعوره بالعبء الباهظ الملقَى على عاتقه عندما وبعدما ظهر جبريل له فى السماء وحادَثَهُ ونَقَل إليه رسالة ربه. بل لقد كانت حياته كلها بعد أن صار نبيا سلسلة متصلة من المعاناة والإزعاج. ولم يقبض النبى على الفور على هذه الرؤيا ويدَّعِ أنه نبى وأن

الله ظهر له وكلمه وحاوره ورفعه مكانا عليا فوق جميع البشر، بل كان خائفا مرتعدا كما تنبئنا سورتا "المزمل" و"المدثر".

وفى الحديث التالى تصوير لما وقع فى الغار ليلة ظهر له جبريل: "كانَ أوَّلَ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيا الصّادِقَةُ فى النَّوْمِ، فكانَ لا يَرى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلاءُ، فَكانَ يَلْحَقُ بغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه (قالَ: والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ) اللَّيالِى ذَواتِ العَدَدِ قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهْلِهِ ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بمِثْلِها حتّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو فى غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فَقالَ: اقْرَأْ. فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: ما أنا بقارِئٍ. قالَ: فأخَذَنِى فَغَطَّنِى حتّى بَلَغَ مِنِّى الجُهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِى، فَقالَ: اقْرَأْ. قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَنِى فَغَطَّنِى الثّانِيَةَ حتّى بَلَغَ مِنِّى الجُهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِى فَقالَ: اقْرَأْ. قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَنِى فَغَطَّنِى الثّالِثَةَ حتّى بَلَغَ مِنِّى الجُهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِى فَقالَ: "اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسانَ مِن عَلَقٍ، اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ الذى عَلَّمَ بالقَلَمِ"... الآياتِ إلى قَوْلِهِ: "عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ"، فَرَجَعَ بها رَسولُ اللَّهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوادِرُهُ حتّى دَخَلَ على خَدِيجَةَ فَقالَ: زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى. فَزَمَّلوه حتّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ. قالَ لِخَدِيجَةَ: أىْ خَدِيجَةُ، ما لى؟ لقَدْ خَشِيتُ على نَفْسِى. فأخْبَرَها الخَبَرَ. قالَتْ خَدِيجَةُ: كَلّا، أبْشِرْ فَواللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا. فَواللَّهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِى الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوائِبِ الحَقِّ. فانْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلٍ، وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخِى أبِيها، وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فى الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العَرَبِىَّ، ويَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعَرَبِيَّةِ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِىَ، فَقالَتْ خَدِيجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ. قالَ ورَقَةُ: يا ابْنَ أخِى، ماذا تَرى؟ فأخْبَرَهُ النبى ﷺ خَبَرَ ما

رَأى. فَقالَ ورَقَةُ: هذا النّامُوسُ الذى أُنْزِلَ على مُوسى. لَيْتَنِى فِيها جَذَعًا، لَيْتَنِى أكُونُ حَيًّا (ذَكَرَ حَرْفًا). قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أوَمُخْرِجى هُمْ؟ قالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بما جِئْتَ به إلّا أُوذِى. وإنْ يُدْرِكْنِى يَوْمُكَ حَيًّا أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّى، وفَتَرَ الوَحْىُ فَتْرَةً، حتّى حَزِنَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ". ولو كان محمد متنبئا زائفا لما خاف وارتعد وتغطى وكمش تحت الغطاء، إذ لم يكن فى هذه الحالة قد شاهد أو سمع شيئا غير اعتيادى مما يملأ القلوب رعبا، بل يحكى قصة من ابتداع خياله، ولامانع أن يزعم أن من رآه وسمع كلامه وجها لوجه هو الله نفسه. وهل يصعب على الكذابين ولوج أى باب؟

كذلك لم يكن صلى الله عليه وسلم يستطيع التوانى عن تأدية الوحى فور نزوله عليه. وكان القرآن ينبهه إلى أى شىء قد يُشْتَمّ منه أن إبلاغ هذا الوحى للناس من الممكن أن يسبب له حرجا كما فى مفتتح سورة "الأعراف": "المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"، وكما فى قوله عز شأنه فى سورة "المائدة": "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ"، وفى سورة "الأحزاب" حين كان عليه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب بنت جحش (ابنة عمته) بعد طلاقها من زيد بن حارثة، ابنه بالتبنى، فكان يخشى مواجهة الناس بذلك، إذ كان المجتمع الجاهلى يرى فى الابن بالتبنى ابنا حقيقيا، ومن ثم لا يصح التزوج من مطلقته، فأراد النبى تجنب هذا الموقف المحرج له أشد الإحراج وحاول مرات أن يَثْنِىَ زيدا عن تطليقها حتى لا يجد نفسه أمام هذا الوضع الصعب، لكنْ نزل الوحى يعاتبه على هذا: "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (أى زيد بن ثابت) أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"، فلم يجد النبى مناصا من النزول على أمر الله له بالزواج من ابنة عمته وتحمل الانتقادات من العرب للسبب السابق ذكره.

وقد سبق أن أوردنا آية سورة "المائدة"، التى تحذره من إهمال تبليغ الوحى لهذا السبب أو ذاك. وهناك أيضا الآيات التالية من سورة "الحاقة"، التى ترينا كيف أن الله سبحانه يراقبه عليه الصلاة والسلام على الدوام ويتابع تبليغه القرآن تبليغا مخلصا أمينا: "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ". كذلك نجد فى القرآن طائفة من الآيات تعاتب النبى وتؤاخذه على شىء لم يفعله وكان الأفضل أن يفعله، أو على شىء فعله وكان الأفضل ألا يفعل. وفى كل من الحالين نراه يبلّغ الوحى كما هو دون أن يزيد أو ينقص منه حرفا. على أنْ ليس الأمر يقتصر على الآيات القرآنية بوجه عام بل يمتد ليشمل آيات المعجزات: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ"

ومما قاله الأكوينى أيضا أن النبى عليه السلام قد أفسد قصص العهد القديم وجعلها أقاصيص أسطورية. أستغفر الله العظيم! محمد حوَّل قصصكم الواقعية الصادقة إلى أساطير؟ بأية أمارة؟ لقد صورتم الله سبحانه فى سفر "التكوين" وكأنه رجل إقطاعى يتمشى فى حقوله ليطمئن على حالها فتهب عليه

ريح النهار. والمقصود نسيم العصرية طبعا! وحين يشعر آدم به يختبئ منه خوفا من العقاب لأنه أكل من الشجرة التى نهاه عن الاقتراب منها، فيضطر الله سبحانه إلى رفع الصوت بالسؤال: أين أنت يا آدم؟ فلا يجد آدم بدا من الجواب وهو لابد فى مخبئه. وأما كيف وقع آدم فى المعصية فالذنب كله على حواء بنت الَّذِينَ التى ضحكت عليها الحية التى دخلها إبليس وعن طريقها صار فى جنة عدن. وتكون العقوبة الإلهية أن الله سبحانه ابتلى المرأة بالحمل والولادة وما فيهما من آلام ومعاناة، وجعل الرجل يسحق الحية سحقا. طبعا هذه حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها بخلاف ماجاء فى القرآن من أن الشيطان، ذلك الصوت الداخلى الذى يوسوس بالشر والباطل والخروج على القانون والخلق الكريم وعصيان الله، هو الذى أنساهما النهى الإلهى وزين لهما الأكل من الشجرة المذكورة، فضعفا أمام إغراءاته، وكانت النتيجة أنْ أنزلهما الله من الجنة لتبدأ صفحة أخرى من التاريخ البشرى هى هذه التى نعيشها الآن على الأرض، وطويت الصفحة الأولى بأنْ غفر الله لهما بعدما شعرا بالذنب ودَعَوَا ربهما أن يقيلهما من عثرتهما. فلا حية إذن ولا شيخ بلد ولا غيط ذرة ولا إله لا يدرى من أمر عبده شيئا ولا يدرى ماذا صنع ولا أين يختبئ... إلى آخر تلك الحقائق الصادقة جدا وليس فيها غير الصدق.

وليس فى القرآن ما فى الكتاب المقدس من أن يعقوب قابل الله ليلا فى العراء حين كان يقطع أحد الأودية، فأمسك يعقوب به إمساكة صعبة، وصارا يتصارعان طوال الليل، والله يرجو يعقوب ويبتهل إليه أن يطلق سراحه، لكن يعقوب يرفض إلا بعد أن يخلع عليه الله البركة (وهل تحصل البركة الإلهية بالقوة والتكتيف؟)، وهنا استطاع الله فى لحظة يأس أن ينتفض

فجأة ويتفلفص قليلا (ويا روح ما بعدك روح!) ويوجه خطافية إلى فخذ يعقوب أصابته بعرق النَّسَا، فاضطر إلى تركه ولكن بعد أن باركه الله. أرأيتم الحقائق المحكمة التى لا يخر منها الماء؟

كذلك ليس فى القرآن أن هارون، فى الفترة التى غاب فيها موسى فوق الجبل أربعين ليلة واستولى الملل والضيق على بنى إسرائيل وهم قاعدون لا شغلة ولا مشغلة، فاضطر هارون تحت ضغط منهم أن يصنع لهم عجلا من الذهب المسروق من المصريين قبل خروجهم من البلاد وعبورهم البحر بأمان وسلام، فصنع لهم العجل كى يعبدوه حتى يأتى موسى (على طريقة "إذا غاب الماء صَحَّ التيمم")، بل لقد شاركهم هارون ذاته عبادة العجل. وننظر فى القرآن فلا نجد هذه الأكاذيب، فهارون نبى كريم لا يمكن أن يقدم على شىء كهذا كله كفر وتكذيب لما أتى به هو وأخوه من الرسالة التوحيدية الكريمة.

وفى الكتاب المقدس أن داود كان يتمشى على سطح قصره، فوقعت عينه على امرأة فاتنة تستحم بلبوصة فى فناء بيتها "منها للسماء"، فاشتهاها وأرسل على الفور من أحضرها له وقضى معها وقتا لذيذا جميلا فى السرير، ثم أعادها إلى بيتها. أوتعرف زوجة من هذه المرأة الإستربريزية التى سبقت عصرها وصارت رائدة فى النيودزم؟ إنها زوجة القائد الذى كان يحرس داود وقصره ويدافع عن مملكته. ولكم أن تتعجبوا ما شاء لكم التعجب من دناءة ونذالة الملك "أبو عين فارغة" الذى يصعد إلى سطح قصره ليتجسس على بيوت الآخرين وأسرارهم ويحلق فى نسائهم البلبوصات ويرسل من يحضرهن ليزنى بهن. ترى هل هناك أصلا ملك يتمشى فوق سطح قصره ويتطلع إلى بيوت الجيران إن كان للملك جيران؟ وهل حُبِك للمرأة الاستحمام فى فناء الدار؟

أليس هناك حمام؟ أليس هناك على الأقل ستار تحتمى به من العيون؟ لاحظوا أنها زوجة قائد عسكرى عظيم، ومع هذا ليس فى بيتها مُسْتَحَمّ ولا تخجل أن تتعرى فى الهواء الطلق! ثم هل وافقت المرأة ونامت معه بهذه السرعة ولم تجشم نفسها حتى الاستفسار من الرسول عما يريده الملك منها قبل الذهاب إليه؟ أتراها قصدتْ قصدًا هذا الاستحمام الهوليوودى المثير الذى يدفق الدم فى العروق ويسيل اللعاب لمعرفتها أنهم جيران لملك خلبوص تريد أن تكون عشيقة له كى تصير ملكة بدلا من أن تظل امرأة لقائد عسكرى، إذ أين قائد عسكرى سنكوح من ملك ذى هيل وهيلمان؟ أتعرفون من هذه المرأة التى حكى لنا قصتها الكتاب المقدس؟ ألا فاعرفوا أنها ستكون بعد قليل أما لسليمان. ترى انتهت الحدوتة هنا؟ أبدا، فقد وقع داود عليه السلام، وأستغفر الله أن نقلت هذا الكلام من الكتاب المقدس الذى يفاخرنا توما الأكوينى به ويزعم أنه أفضل من القرآن، فالقرآن أساطير، وهذا الكتاب المقدس لا يحوى من القصص إلا ما كان حقائق دامغة طبقا لمزاعمه الكاذبة، إذ تقول الحدوتة إن داود وقع فى غرامها فلم يهدأ له بال إلا بعدما أمر رجال الجيش بأن يضعوا زوج المرأة على خط القتال الأول حتى يكون هدفا لسيوف الأعداء ورماحهم ويموت قتيلا هناك ويرتاح داود من صداع وجوده بجواره يعوقه أن ينال امرأته متى أراد دون اتخاذ أية إجراءات احتياطية. فالملك يحب أن ينال ما يشتهى على المكشوف وبدون حواجز. وقد تم له ما أراد، وقتل الزوج، وانتقلت الزوجة إلى القصر، وعُزِفَت الموسيقى الملكية ابتهاجا بالقِرَان السعيد.

طيب ماذا يقول القرآن هنا؟ فلنقرأ: "وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى

بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ".

إن الحديث هنا عن نعاج لا نساء. والكلام عن الفتنة يمكن أن يكون راجعا إلى أن داود عليه السلام تسرع فأصدر حكما دون أن يستمع إلى الطرف الآخر. وفى الأمثال العامية ما معناه أنه إذا جاءك شخص مفقوع العين يتهم غريما له بأنه صنع به ذلك فانتظر ولا تحكم له حتى يحضر الغريم، فلعل صاحب العين المفقوعة قد فقع له عينيه الاثنتين. ولنفترض أن القصة تتكلم عن النساء، فأقصى ما يمكن أن يدور فى خاطرنا أن داود ربما نما إليه الخبر بجمال زوجة قائده، فتمنى لو كان هو قد سبقه إلى خطبتها والاقتران بها، فأراد الله منه أن يقمع مثل ذلك الخاطر فى نفسه ويشكر الله على ما لديه من نساء، والدنيا بحمد الله فيها من الجميلات الكثير. والآن أرجوك، يا قارئى الكريم، أن تقارن بين حدوتة الكتاب المقدس وبين القصة القرآنية. والمهم فى كل ذلك أن القرآن لم يقل فى حق داود ما يسىء باطلا إليه، فهو نبى لا دون نجوان يجرى وراء النساء هنا وهناك لا يقنع ولا يشبع ولا يرتوى.

ولو ذهبنا نقارن بين الكتاب المقدس فى هذا المجال وبين كتاب الله المجيد فلن ننتهى. ولهذا سوف أكتفى بقصة المسيح عليه السلام عندهم وعندنا لنرى أين الأساطير وأين الحقائق المعقولة. ولن أدخل فى تفاصيلها حتى لا أملّ أنا والقارئ. فيسوع فى الأناجيل يوصف بأنه ابن داود، ولكن حين يقدم لنا كُتّاب الأناجيل سلسلة نسبه التى تتصل بداود نجد هذا النسب لا يتصل بمريم بل بيوسف النجار. فهل تدركون معنى هذا؟ من الممكن بكل سهولة أن يتخذ من يرمى مريم فى عرضها الشريف النظيف من هذا النسب برهانا على صحة تلك التهمة، وأن يسوع هو ابن مريم من يوسف ولم يأت من حمل إعجازى. لكن القرآن لا يقول هذا، بل هو وأمه فى كتاب ربنا نقيان مبرآن من كل ريبة أو شائبة. ثم يتهم المتخلف توما الأكوينى القرآن بأنه أفسد قصص الكتاب المقدس! عجبا!

وطبعا فإن النصارى المثلثة يرمون القرآن بأنه انحرف عن الإيمان الحقيقى بيسوع بوصفه أقنوما من ثلاثة تشكل جميعا الإله. ولكن عندما تقول لهم إن هذا التثليث لا يليق ينبرون على الفور بأن الله عندهم واحد لا ثلاثة رغم أنهم يقولون عن يسوع إنه ربهم. وهذا مكتوب على صفحة عنوان العهد الجديد هكذا: "إنجيل ربنا يسوع المسيح". والسؤال هو: كيف ينقسم الإله، وهو مطلق لا بداية له ولا نهاية بأى معنى من المعانى؟ إنه خالق الزمان والمكان والحساب والأعداد ومن يستخدمون الحساب والأعداد، ولا يمكن أن يؤذيه أو يضره أحد، فضلا عن أن يشعر بحزن أو كآبة كالتى شعر بها يسوع قبيل القبض عليه، ولا يمكن أن يخونه خائن أو يسلمه لأعدائه ولا يمكن أن يصلب ويهان ويشتم ويطعن بالحربة فى جنبه (وهل لله جنب يمكن طعنه؟) وتسمر يداه ورجلاه على الصليب، وينفضّ عنه أتباعه هاربين فلا يجد أمامه

سوى الصراخ من الألم والعذاب ويصيح قائلا: إلهى إلهى لماذا تركتنى؟ الحق أنه إذا كانت هذه هى الألوهية فلا حاجة للبشر إليها. إننا نحن الذين ندعو الله ونبتهل إليه ونريق الدمع بين يديه ونرجوه العون والنجاة من الشرور والأذى وناس السَّوْء لا إنه هو الذى يستغيث ويتألم ثم لا يجد أحدا يسمع صرخاته. والطريف أنهم يقولون إن الله أرسله إلى الأرض ليموت على الصليب افتداءً للبشر من خطيئتهم الأولى. فإذا كان هناك اتفاق بين الأب الإله وبين ابنه الإله (وبالطبع لا يمكن أبدا أن يكون هناك إلهان لأن الإله كما قلنا مطلق لا يحده حد، ومن ثم لا يمكن أن يكون إلا إله واحد، ودعنا من التناقض الكامن فى أن الإله هو الأب، والإله هو الابن) من الطريف أن يكون هناك هذا الاتفاق ثم ما إن يبدأ يسوع تنفيذ الخطة حتى يبكى ويصرخ ويطلب النجدة. فكيف يكون إلها إذن؟ وأين المرجلة واحترام الاتفاقيات؟ هذه تصرفات عيال صغار لا يعقلون ولا يعرفون الصواب من الخطإ ولا يستطيعون القيام بالمهمة التى أرسلهم أبوهم لإنجازها! ثم يموت الله (أو ابن الله. لا فرق) ويكفَّن ويدفن ليقوم بعد موته الذى استمر ثلاثة أيام. ترى كيف يموت الإله؟ ترى كيف يكفَّن؟ ترى كيف يدفن؟

أما القرآن فعيسى فيه عبد من عباد الله ونبى من أنبيائه الكرام، وأمه صديقة، وحين وقف اليهود ضده وخططوا لصلبه وقتله توفاه الله ورفعه إليه (كيف؟ لا ندرى. المهم أنه لم يصلب ولم يقتل)، وترك اليهود يتوهمون أنهم صلبوه وقتلوه. وفى القرآن أن الله سبحانه وتعالى قد غفر لآدم وحواء عصيانهما وانتهى الأمر فلا خطيئة ولا يحزنون، ولا داعى من ثم لصلب أو قتل، فضلا عن النزول من السماء من أجل جنس البشر الذى لا يثمر فيه عمل طيب أبدا. والآن حان وقت النوم فاذهبوا إلى فراشكم واحلموا أحلاما

سعيدة ولا تفكروا فى مشهد صلب المسيح المرعب الذى يقطع نياط القلوب. ببساطة لأنه لم يحدث.

والآن بالله عليك أين الخرافات والأساطير والوثنيات المتخلفة؟ فى قرآننا أم فى كتابهم؟ أوليس عجيبا غريبا مريبا معيبا أن يتهم توما الأكوينى القرآن بأنه أخذ قصص الكتاب المقدس وحولها إلى أساطير؟ خيبة الله عليك يا أكوينى يا متخلف! يا متخلف، لقد طهرنا سمعة أنبيائكم التى لطختموها بنفوسكم الدنسة وعقولكم الزنخة. فإذا جاء القرآن وأعاد الأمور إلى نصابها لأن الأنبياء ليسوا من أوباش البشر بل هم فى الذروة الخلقية والسلوكية والاعتقادية منهم يأتى هذا الوغد فيتهم القرآن بأنه حرف قصص الكتاب المقدس. يا متخلف، لقد كان يكون كلامك هذا مفهوما لو حدث العكس، إذ فى هذه الحالة يمكن القول بأن التشويه وراءه نية سيئة، أما أن يجىء إنسان فيقول لك إن والديك اللذين تحبهما وتضعهما فى مكانة عالية كانا شخصين محترمين لأنهما من أسرة طيبة ولأن أحدا من الناس لم يمسك عليهما زلة ولأن اللجنة التى اختارتهما لتعطيهما لقب الأبوين المثاليين قد دققت وحققت وفَلَّت المرشحين للفوز باللقب تفلية دقيقة فلم تجد عليهما شيئا سيئا فتضيق أنت وتتهم من حكم هذا الحكم بأنه تلاعب بالتقرير الذى يحتوى على كل ذلك فأنت، والحق يقال، خنزير كبير تستأهل ضرب المنتوفلى. لقد كانت مصلحة محمد فى أن يبقى صور الأنبياء فى الكتاب المقدس كما هى ملطخة مشوهة منفّرِة تثير الاشمئزاز والغثيان. لماذا؟ لئلا ينتقده أحد إذا اجترح خطأ أو خطيئة، إذ الحجة حاضرة، وهى أن "كل الأنبياء مثلى وأسوأ"، لكنه من نبل نفسه وصفاء ضميره أدى الرسالة كما هى، وترك صور الأنبياء الساطعة فى القرآن كما هى. والمصيبة أن أهل الكتاب يعيبون الرسول بهذا العيب أو ذاك ويتشددون فى

ذلك تشددا عجيبا مع أنه حتى لو كانت العيوب المزعومة صحيحة ما بلغت واحدا على الألف مما ينسبونه لأنبيائهم. وإذا قلنا إن ما هو مكتوب عندكم فى كتابكم عن الأنبياء لا يتسق مع اختيار الله لهم للنبوة كان جوابهم: إنهم بشر، ومن الطبيعى أن يخطئوا هذه الأخطاء. طيب، وهل الله سبحانه أيضا من البشر حتى تسندوا إليه ما يعيب حتى البشر أنفسهم؟ ثم إذا كنتم تتسامحون مع كبائر أنبيائكم وفواحشهم وما هو أكبر من الفواحش فكيف تحبّكونها مع سيد الأنبياء وتشنعون عليه فيما هو من التفاهات، وهذا إن صح أنه قد اجترحها؟

أما زعم توما الأكوينى بأن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كان يستشهد (فى القرآن، الذى يريد هذا الوغد أن يقول إنه من تأليف النبى) كان يستشهد بالكتاب المقدس بصورة انتقائية: فيحيل إليه حين يحتاجه للشهادة له بالنبوة، وينبذه فى أحيان أخرى قائلًا إنه قد داخله التحريف، وقوله إنه بهذا يعمل الشىء ونقيضه، إذ إما أن يكون الكتاب المقدس سليما بحيث تصح شهادته بنبوة محمد أو يكون قد حرف كما يقول القرآن. والرد سهل ميسور، فأنا حينما أقول إن فى هذا الثوب لطخا طينية أو نجاسة فإن هذا لا يعنى أنه كله ملطخ بالطين أو أنه كله نجس. ونحن حين نذهب إلى الخضراواتى والفاكهانى فإن القفص كثيرا ما لا يكون كله سليما بل نجد بعض ما فيه من الخضراوات والفواكه صالحا وجيدا، وبعضه فاسد معطوب. فما المشكلة فى ذلك؟ وما من واحد منا إلا وفيه مرض أو اثنان أو أكثر، فهل يذهب الإنسان وينتحر أو تقتله أسرته أو تفصله المؤسسة التى يعمل بها باعتبار أنه لم يعد صالحا لشىء؟ وما منا أحد إلا وفيه هذا العيب النفسى أو الخلقى أو الفكرى ولا يعنى هذا أنه سيئ من كل النواحى. إن كلام هذا المتخلف الوثنى إنما يكون صحيحا لو قلنا إن الكتاب المقدس كله خطأ فى خطإ ثم استشهدنا به لمصلحتنا باعتبار أنه

كتاب سماوى صادق لم يعتره عبث أوتزييف أو تحريف. أما أن نقول إن فلانا لا يصلح أن يكون مدرسا لأنه أخرس فلا يتعارض هذا مع قولنا فى ذات الوقت إنه يصلح أن يكون رافع أثقال مثلا. موقف القرآن من الكتاب المقدس سليم ليس فيه ما ينتقد أو يعاب. والمشكلة فى عقلية الأكوينى. ولعله قد صار مفهوما الآن لماذا أصفه هنا بـ"المتخلف".

فعلى سبيل المثال هناك فى سفر "التكوين" كلام سليم عن الجنة الأولى وعصيان أبوينا الأولين لله وهبوطهما إلى أرض المتاعب والمنغصات هذه. لكنه فى نفس الوقت يتكلم عن الحية وعن تمشى الله سبحانه فى الجنة عندما هبت ريح النهار واختباء آدم منه وجهله جل وعلا بمكان اختفائه... فهل يجب علىّ إما أن أصدقه كله او أرفضه كله؟ إنها ليست شروة طماطم علىَّ أن آخذها كما هى معطوبًا فاسدا مع سليمٍ صالحٍ. وفى قصة موسى وهارون كلام يتسق مع مكانة الأنبياء، وكلام آخر لا. فموسى فى العهد القديم مثلا نبى كلفه الله بإبلاغ رسالة التوحيد إلى قومه فقام بها كما أُمِر، وهذا كلام طيب. وحين رأى فى الطريق خناقة بين المصرى والإسرائيلى تلفت يمينا ويسارا حتى تيقن أن أحدا لا يراه، وعندئذ ضرب المصرى وقتله عن عمد وسبق إصرار. وهذا الخلق لا يليق بأشخاص يختارهم الله ليكونوا قدوة للناس من حولهم. كما أنه، حينما يبلغه ربه بأنه اختاره رسولا إلى قومه، يردَّ عليه بجلافة قائلا ما معناه: أنت حر. أرسلْ من ترسل، فهذا شأنك لكنه لا يعنينى. ومن جهتى فأنا لا أصلح لتلك المهمة. فهل هذا مما يمكن أن يصدر عن شخص يختاره الله للنبوة؟ وهارون، حتى لو قلنا إنه لم يكن نبيا مساعدا مع موسى أخيه بل مجرد كاهن كما يقول العهد القديم، هل يمكن أن يتدهدى ويتنزل إلى صناعة عجل لقومه يعبدونه من دون الله؟ أما فى كتاب ربنا فهو رسول لا كاهن. كذلك

ليس هو الذى صنع العجل ليعبده قومه بل السامرىّ. وهل يصح أن نرافئ العهد الجديد ونجعل المسيح عليه السلام حفيدا بعيدا لداود من خلال يوسف النجار؟ ترى هل ذنب نبينا الكريم أنه استنقذ عرض مريم وشرفها وطهارة نسب عيسى؟

ترى هل يمكن أن يقبل العقل أن الكلام التالى هو كلام الله؟ لنقرأ من مفتتح الإصحاح السادس عشر من سفر "حزقيال": "١وَكَانَتْ إِلَى كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: ٢«يَا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، ٣وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِي وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤أَمَّا مِيلاَدُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطًا. ٥لَمْ تَشْفُقْ عَلَيْكِ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يَوْمَ وُلِدْتِ. ٦فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي. ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٨فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. ٩فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، ١٠وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، ١١وَحَلَّيْتُكِ بِالْحُلِيِّ، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِي يَدَيْكِ وَطَوْقًا فِي عُنُقِكِ. ١٢وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِي أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِي أُذُنَيْكِ وَتَاجَ جَمَال عَلَى رَأْسِكِ. ١٣فَتَحَلَّيْتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيْتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا

جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. ١٤وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلاً بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ.

١٥«فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. ١٧وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا. ١٨وَأَخَذْتِ ثِيَابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيْتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيْتِي وَبَخُورِي. ١٩وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيْتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيْتَ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ.

٢٠«أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ ٢١أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِيَّ وَجَعَلْتِهِمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ ٢٢وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٣وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيْلٌ، وَيْلٌ لَكِ! يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، ٢٤أَنَّكِ بَنَيْتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. ٢٥فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي.

٢٧«فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨وَزَنَيْتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِي فَزَنَيْتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. ٢٩وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ

امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِى رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِى كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِى كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقِرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣لِكُلِّ الزَّوَانِى يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِى زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ". بالله عليكم أيصح أن يكون موضع هذا الرجس كتابا مقدسا موحًى به من الله لنبى من أنبيائه؟ ماذا تركوا لشعراء الفجور والدنس والبورنوجرافيا؟

أم هل يصح أن يكون النص التالى، وهو من "نشيد الإنشاد" الذى لسليمان، وحيا سماويا؟ تعالوا نر ماذا يقول هذا النشيد السليمانى؟ "١الإصحاح الأول:

نَشِيدُ الأَنْشَادِ الَّذِى لِسُلَيْمَانَ: ٢لِيُقَبِّلْنِى بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. ٣لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى. ٤اُجْذُبْنِى وَرَاءَكَ فَنَجْرِىَ. أَدْخَلَنِى الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ...

٩لَقَدْ شَبَّهْتُكِ يَا حَبِيبَتِى بِفَرَسٍ فِى مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ. ١٠مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بِسُمُوطٍ، وَعُنُقَكِ بِقَلاَئِدَ! ١١نَصْنَعُ لَكِ سَلاَسِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعَ جُمَانٍ مِنْ فِضَّةٍ.

١٢مَا دَامَ الْمَلِكُ فِى مَجْلِسِهِ أَفَاحَ نَارِدِينِى رَائِحَتَهُ. ١٣صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِى لِى. بَيْنَ ثَدْيَىَّ يَبِيتُ. ١٤طَاقَةُ فَاغِيَةٍ حَبِيبِى لِى فِى كُرُومِ عَيْنِ جَدْى.

١٥هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِى، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ. عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ.

١٦هَا أَنْتَ جَمِيلٌ يَا حَبِيبِي وَحُلْوٌ، وَسَرِيرُنَا أَخْضَرُ...

الإِصْحَاحُ الثَّانِي:

١أَنَا نَرْجِسُ شَارُونَ، سَوْسَنَةُ الأَوْدِيَةِ.

٢كَالسَّوْسَنَةِ بَيْنَ الشَّوْكِ كَذلِكَ حَبِيبَتِي بَيْنَ الْبَنَاتِ.

٣كَالتُّفَّاحِ بَيْنَ شَجَرِ الْوَعْرِ كَذلِكَ حَبِيبِي بَيْنَ الْبَنِينَ. تَحْتَ ظِلِّهِ اشْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ، وَثَمَرَتُهُ حُلْوَةٌ لِحَلْقِي. ٤أَدْخَلَنِي إِلَى بَيْتِ الْخَمْرِ، وَعَلَمُهُ فَوْقِي مَحَبَّةٌ. ٥أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ. أَنْعِشُونِي بِالتُّفَّاحِ، فَإِنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا. ٦شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي. ٧أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ بِالظِّبَاءِ وَبِأَيَائِلِ الْحُقُولِ، أَلاَّ تُيَقِّظْنَ وَلاَ تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ.

٨صَوْتُ حَبِيبِي. هُوَذَا آتٍ طَافِرًا عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزًا عَلَى التِّلاَلِ. ٩حَبِيبِي هُوَ شَبِيهٌ بِالظَّبْيِ أَوْ بِغُفْرِ الأَيَائِلِ. هُوَذَا وَاقِفٌ وَرَاءَ حَائِطِنَا، يَتَطَلَّعُ مِنَ الْكُوَى، يُوَصْوِصُ مِنَ الشَّبَابِيكِ.

١٠أَجَابَ حَبِيبِي وَقَالَ لِي: «قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ. ١١لأَنَّ الشِّتَاءَ قَدْ مَضَى، وَالْمَطَرَ مَرَّ وَزَالَ.١٢الزُّهُورُ ظَهَرَتْ فِي الأَرْضِ. بَلَغَ أَوَانُ الْقَضْبِ، وَصَوْتُ الْيَمَامَةِ سُمِعَ فِي أَرْضِنَا.١٣التِّينَةُ أَخْرَجَتْ فِجَّهَا، وَقُعَالُ الْكُرُومِ تُفِيحُ رَائِحَتَهَا. قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ.

١٤يَا حَمَامَتِي فِي مَحَاجِئِ الصَّخْرِ، فِي سِتْرِ الْمَعَاقِلِ، أَرِينِي وَجْهَكِ، أَسْمِعِينِي صَوْتَكِ، لأَنَّ صَوْتَكِ لَطِيفٌ وَوَجْهَكِ جَمِيلٌ.

١٥خُذُوا لَنَا الثَّعَالِبَ، الثَّعَالِبَ الصِّغَارَ الْمُفْسِدَةَ الْكُرُومِ، لأَنَّ كُرُومَنَا قَدْ أَقْعَلَتْ.

١٦حَبِيبِي لِي وَأَنَا لَهُ. الرَّاعِي بَيْنَ السَّوْسَنِ.١٧إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلاَلُ، ارْجِعْ وَأَشْبِهْ يَا حَبِيبِي الظَّبْيَ أَوْ غُفْرَ الأَيَائِلِ عَلَى الْجِبَالِ الْمُشَعَّبَةِ.

الإِصْحَاحُ الثَّالِثُ:

١فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. ٢إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، فِي الأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ، أَطْلُبُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. ٣وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: «أَرَأَيْتُمْ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي؟ » ٤فَمَا جَاوَزْتُهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، فَأَمْسَكْتُهُ وَلَمْ أَرْخِهِ، حَتَّى أَدْخَلْتُهُ بَيْتَ أُمِّي وَحُجْرَةَ مَنْ حَبِلَتْ بِي. ٥أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ بِالظِّبَاءِ وَبِأَيَائِلِ الْحَقْلِ، أَلاَّ تُيَقِّظْنَ وَلاَ تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ...

الإِصْحَاحُ الرَّابِعُ:

١هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ! عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ مِنْ تَحْتِ نَقَابِكِ. شَعْرُكِ كَقَطِيعِ مِعْزٍ رَابِضٍ عَلَى جَبَلِ جِلْعَادَ. ٢أَسْنَانُكِ كَقَطِيعِ الْجَزَائِزِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتْئِمٌ، وَلَيْسَ فِيهِنَّ عَقِيمٌ. ٣شَفَتَاكِ كَسِلْكَةٍ مِنَ الْقِرْمِزِ، وَفَمُكِ حُلْوٌ. خَدُّكِ كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكِ. ٤عُنُقُكِ كَبُرْجِ دَاوُدَ الْمَبْنِيِّ لِلأَسْلِحَةِ. أَلْفُ مِجَنٍّ عُلِّقَ عَلَيْهِ، كُلُّهَا أَتْرَاسُ الْجَبَابِرَةِ. ٥ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْ ظَبْيَةٍ، تَوْأَمَيْنِ يَرْعَيَانِ بَيْنَ السَّوْسَنِ. ٦إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلاَلُ، أَذْهَبُ إِلَى جَبَلِ الْمُرِّ وَإِلَى تَلِّ اللُّبَانِ. ٧ كُلُّكِ جَمِيلٌ يَا حَبِيبَتِي لَيْسَ فِيكِ عَيْبَةٌ.

٨هَلُمِّي مَعِي مِنْ لُبْنَانَ يَا عَرُوسُ، مَعِي مِنْ لُبْنَانَ! انْظُرِي مِنْ رَأْسِ أَمَانَةَ، مِنْ رَأْسِ شَنِيرَ وَحَرْمُونَ، مِنْ خُدُورِ الأُسُودِ، مِنْ جِبَالِ النُّمُورِ. ٩قَدْ

سَبَيْتِ قَلْبِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَدْ سَبَيْتِ قَلْبِي بِإِحْدَى عَيْنَيْكِ، بِقَلاَدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُنُقِكِ.١٠مَا أَحْسَنَ حُبَّكِ يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ! كَمْ مَحَبَّتُكِ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ! وَكَمْ رَائِحَةُ أَدْهَانِكِ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ الأَطْيَابِ!١١شَفَتَاكِ يَا عَرُوسُ تَقْطُرَانِ شَهْدًا. تَحْتَ لِسَانِكِ عَسَلٌ وَلَبَنٌ، وَرَائِحَةُ ثِيَابِكِ كَرَائِحَةِ لُبْنَانَ.١٢أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ، عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ.١٣أَغْرَاسُكِ فِرْدَوْسُ رُمَّانٍ مَعَ أَثْمَارٍ نَفِيسَةٍ، فَاغِيَةٍ وَنَارِدِينٍ.١٤نَارِدِينٍ وَكُرْكُمٍ. قَصَبِ الذَّرِيرَةِ وَقِرْفَةٍ، مَعَ كُلِّ عُودِ اللُّبَانِ. مُرٌّ وَعُودٌ مَعَ كُلِّ أَنْفَسِ الأَطْيَابِ.١٥يَنْبُوعُ جَنَّاتٍ، بِئْرُ مِيَاهٍ حَيَّةٍ، وَسُيُولٌ مِنْ لُبْنَانَ.

١٦اِسْتَيْقِظِي يَا رِيحَ الشَّمَالِ، وَتَعَالَيْ يَا رِيحَ الْجَنُوبِ! هَبِّي عَلَى جَنَّتِي فَتَقْطُرَ أَطْيَابُهَا. لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ وَيَأْكُلْ ثَمَرَهُ النَّفِيسَ.

الإِصْحَاحُ الْخَامِسُ:

١قَدْ دَخَلْتُ جَنَّتِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَطَفْتُ مُرِّي مَعَ طِيبِي. أَكَلْتُ شَهْدِي مَعَ عَسَلِي. شَرِبْتُ خَمْرِي مَعَ لَبَنِي...

٣قَدْ خَلَعْتُ ثَوْبِي، فَكَيْفَ أَلْبَسُهُ؟ قَدْ غَسَلْتُ رِجْلَيَّ، فَكَيْفَ أُوَسِّخُهُمَا؟ ٤حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ، فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي. ٥قُمْتُ لأَفْتَحَ لِحَبِيبِي وَيَدَايَ تَقْطُرَانِ مُرًّا، وَأَصَابِعِي مُرٌّ قَاطِرٌ عَلَى مَقْبَضِ الْقُفْلِ. ٦فَتَحْتُ لِحَبِيبِي، لكِنَّ حَبِيبِي تَحَوَّلَ وَعَبَرَ. نَفْسِي خَرَجَتْ عِنْدَمَا أَدْبَرَ. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. دَعَوْتُهُ فَمَا أَجَابَنِي. ٧وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ. ضَرَبُونِي. جَرَحُونِي. حَفَظَةُ الأَسْوَارِ رَفَعُوا إِزَارِي عَنِّي. ٨أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا...

١٠حَبِيبِى أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ. مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَةٍ. ١١رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ. ١٢عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى مَجَارِى الْمِيَاهِ، مَغْسُولَتَانِ بِاللَّبَنِ، جَالِسَتَانِ فِى وَقْبَيْهِمَا. ١٣خَدَّاهُ كَخَمِيلَةِ الطِّيبِ وَأَتْلاَمِ رَيَاحِينَ ذَكِيَّةٍ. شَفَتَاهُ سُوسَنٌ تَقْطُرَانِ مُرًّا مَائِعًا. ١٤يَدَاهُ حَلْقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضُ مُغَلَّفٌ بِالْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ. ١٥سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلْعَتُهُ كَلُبْنَانَ. فَتًى كَالأَرْزِ. ١٦حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هذَا حَبِيبِى، وَهذَا خَلِيلِى، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ.

الإِصحَاحُ السَّادِسُ:

... ٤أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِى كَتِرْصَةَ، حَسَنَةٌ كَأُورُشَلِيمَ، مُرْهِبَةٌ كَجَيْشٍ بِأَلْوِيَةٍ. ٥حَوِّلِى عَنِّى عَيْنَيْكِ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِى. شَعْرُكِ كَقَطِيعِ الْمَعْزِ الرَّابِضِ فِى جِلْعَادَ. ٦أَسْنَانُكِ كَقَطِيعِ نِعَاجٍ صَادِرَةٍ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِى كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتْئِمٌ وَلَيْسَ فِيهَا عَقِيمٌ. ٧كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ خَدُّكِ تَحْتَ نَقَابِكِ. ٨هُنَّ سِتُّونَ مَلِكَةً وَثَمَانُونَ سُرِّيَّةً وَعَذَارَى بِلاَ عَدَدٍ. ٩وَاحِدَةٌ هِىَ حَمَامَتِى كَامِلَتِى. الْوَحِيدَةُ لأُمِّهَا هِىَ. عَقِيلَةُ وَالِدَتِهَا هِىَ. رَأَتْهَا الْبَنَاتُ فَطَوَّبْنَهَا. الْمَلِكَاتُ وَالسَّرَارِى فَمَدَحْنَهَا...

الإِصحَاحُ السَّابِعُ:

١مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِى، صَنْعَةِ يَدَى صَنَّاعٍ. ٢سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. ٣ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَى ظَبْيَةٍ. ٤عُنُقُكِ كَبُرْجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكِ كَالْبِرَكِ فِى حَشْبُونَ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَبِّيمَ. أَنْفُكِ كَبُرْجِ لُبْنَانَ النَّاظِرِ تُجَاهَ دِمَشْقَ. ٥رَأْسُكِ عَلَيْكِ مِثْلُ الْكَرْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكِ كَأُرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ. ٦مَا أَجْمَلَكِ وَمَا أَحْلاَكِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ

بِاللَّذَّات! ٧قَامَتُك هذه شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَة، وَثَدْيَاكِ بِالْعَنَاقِيد. ٨قُلْتُ: «إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأُمْسكُ بِعُذُوقِهَا». وَتَكُونُ ثَدْيَاكِ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ، وَرَائِحَةُ أَنْفِكِ كَالتُّفَّاحِ، ٩وَحَنَكُكِ كَأَجْوَدِ الْخَمْرِ...

١٠أَنَا لِحَبِيبِي، وَإِلَيَّ اشْتِيَاقُهُ.١١تَعَالَ يَا حَبِيبِي لِنَخْرُجْ إِلَى الْحَقْلِ، وَلْنَبِتْ فِي الْقُرَى.١٢لِنُبَكِّرَنَّ إِلَى الْكُرُومِ، لِنَنْظُرَ: هَلْ أَزْهَرَ الْكَرْمُ؟ هَلْ تَفَتَّحَ الْقُعَالُ؟ هَلْ نَوَّرَ الرُّمَّانُ؟ هُنَالِكَ أُعْطِيكَ حُبِّي. ١٣اَللُّفَّاحُ يَفُوحُ رَائِحَةً، وَعِنْدَ أَبْوَابِنَا كُلُّ النَّفَائِسِ مِنْ جَدِيدَةٍ وَقَدِيمَةٍ، ذَخَرْتُهَا لَكَ يَا حَبِيبِي".

فهذا الرجس والتفلت الجنسى والحديث المشعل للشهوات هو عندهم وحى مقدس ينبغى تلاوته فى الأدعية والصلوات وتتعلم منه الفتيات الوقاحة والطيش والخسران. فإذا جاء القرآن وقال إن كتب أهل الكتاب قد وقع فيها تحريف انبرَوْا يتطاولون على سيدهم ويتهمونه بالكذب وقول الزور! عجايب!

موقف القرآن المجيد هو أنْ ليس كل ما فى الكتاب المقدس قد حُرِّف بل فيه وفيه. والتحريفات واضحة فى كثير من مواضع الكتاب المقدس، لكننا لا نعمم الحكم ولا نقول إنه كله مَعْبُوثٌ به. وقد أوردتُ لتوى أمثلة منه على ما لا يمكن أن يكون وحيا نزل من السماء. وفى كل الأحوال لم ينقل النبى عن الكتاب المقدس شيئا، فهو ليس مؤلف القرآن، بل انحصر دوره فى تلقيه من جبريل رسول ربه إليه وتبليغه إلى الناس، وكان مثالا أعلى للتمسك والعمل به.

والآن نرد على الإنكار الأكوينى القاطع بأن يكون أحد من الأنبياء السابقين قد بشر بالنبى محمد عليهم كلهم السلام. ونحب قبل ذلك أن نذكّر القراء بما قلناه عما أصاب الكتاب المقدس من تحريفات. وسريعا نقول إن

التوراة والإنجيل اللذين وردت البشارة بمحمد عليه السلام فيهما ليسا هما العهد القديم والجديد. فالعهد القديم عبارة عن تاريخ منطقتنا من بداية الخلق إلى آخر نبى قبل عيسى عليهم السلام. وهو يتألف من كتب كثيرة يزعم أصحابه أن الكتب الخمسة الأولى منها هى التوراة، لكن هذا غير صحيح، إذ التوراة هى ما أنزله الله سبحانه على موسى عليه السلام بينما هذه الكتب الخمسة قد كتبها موسى بنفسه فى زعمهم يحكى فيها كل شىء يتعلق به إلى أن مات، فلم يتوقف بل ظل يكتب أيضا قائلا إنه مات. وهى معجزة أخرى تضاف إلى معجزة العصا وانفلاق البحر والمن والسلوى. وفى تلك الكتب نقابل العاطل مع الباطل. ولعلنا لم ننس ما تحتوى عليه من كذب جسيم، إذ تصور موسى قاتلا قاسى القلب يزهق روح المصرى عن عمد وسبق إصرار، ويخاطب الله بأسلوب جلف وقح كما رأينا آنفا. كما يذكر كاتب السفر أن هارون كاهن لا نبى وأنه صنع من الذهب الذى سرقه بنو إسرائيل من المصريين قبيل خروجهم من البلاد عجلا ليعبده قومه. وهناك قبل ذلك كلام عن الله فى الجنة وعن نوح وعن إبراهيم وعن إسحاق ويعقوب لا يمكن أن يكون وحيا من الله... إلخ.

أما الإنجيل فلم يعد موجودا بل اختفى وظهر مكانه عدد كبير من الأناجيل اختارت الكنيسة بعد عدة قرون منها أربعة فقط على نحو اعتباطى واستبعدت الباقى. وبين هذه الأناجيل بعضها وبعضٍ اختلافاتٌ وتناقضاتٌ شديدةٌ، وفيها أشياءُ لا يمكن أن تكون وحيا سماويا. وكل إنجيل منها هو فى أحسن الأحوال عبارة عن سيرة للسيد المسيح كتبها هذا الشخص أو ذاك بعد عدة عقود جمعًا من أفواه الناس. أما الإنجيل الذى نزل على عيسى عليه

السلام وكان يدعو قومه إلى اتباعه وذَكَرَه المسيحُ صراحة فى بعض هذه الأناجيل فهو شىء آخر.

لكل هذا كان من الطبيعى ألا يكون البحث عن بشارات أنبياء بنى إسرائيل ومن قبلهم سهلا معبدا تماما كما كان ينبغى أن يكون لو أن التوراة والإنجيل الأصليين موجودان فى أيدينا كوجود القرآن. ومع هذا فهناك نصوص لا تُجْحَد إلا من متمرد عنيد صُلْب الرقبة. كتب صاحب "بذل الجهود فى إفحام اليهود" السموأل بن يحيى الأندلسى عن اليهود ما يلى: "إنهم لا يقدرون على أن يجحدوا هذه الآية من الجزء الثانى من السفر الخامس من التوراة: "نابى أقيم لاهيم مقارب احئيم كاموخا ايلا ويشماعون"، وتفسيره: "نبيا أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، به فليؤمنوا ". وإنما أشار بهذا إلى أنهم يؤمنون بمحمد. فإن قالوا إنه قال: "من وسط إخوتهم"، وليس فى عادة كتابنا أن يعنى بقوله: "إخوتكم" إلا بنى إسرائيل قلنا: بلى فقد جاء فى التوراة "إخوتكم بنو العِيص"، وذلك فى الجزء الأول من السفر الخامس فى قوله: "أتيم عوبريم بقبول احيحم بنى عيسى وهيو شئيم بسيعير" وتفسيره "أنتم عابرون فى تخم إخوتكم بنى العيص المقيمين فى سعير. إياكم أن تطمعوا فى شيء من أرضهم". فإذا كان بنو العيص إخوة لبنى إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم.

وإن قالوا إن هذا القول إنما أشير به الى شموائيل النبى عليه السلام لأنه قال: "من وسط إخوتهم مثلك"، وشموائيل كان مثل موسى لأنه من أولاد ليوى، يعنون: من السبط الذى كان منه موسى، قلنا لهم: فإن كنتم صادقين فأى حاجة بكم إلى أن يوصيكم بالإيمان بشموائيل وأنتم تقولون إن شموائيل لم يأت بزيادة ولا بنسخ؟ أأشفَقَ مِنْ ألّا تقبلوه؟ إنه إنما أرسل ليقوى أيديكم على

أهل فلسطين وليردكم إلى شرع التوراة. ومن هذه صفته فأنتم أسبق الناس إلى الإيمان به لأنه إنما يخاف تكذيبكم لمن ينسخ مذهبكم ويغير أوضاع ديانتكم. فالوصية بالايمان به مما لا يستغنى مثلكم عنه. ولذلك لم يكن لموسى حاجة أن يوصيكم بالإيمان بنبوة أرميا وأشعيا وغيرهما من الأنبياء. وهذا دليل على أن التوراة أمرتْهم فى هذا الفصل بالإيمان بالمصطفى واتباعه.

قال الله تعالى فى الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة مخاطبا إبراهيم الخليل عليه السلام: "وأما فى إسماعيل فقد قبلت دعاءك. ها أنا قد باركتُ فيه وأثمِّره وأكثِّره جدا جدا". وذلك قوله: "وليشماعيل شمعيتخا هنى يبرختى أونوا وهفريثى أوثو وهز بيثى أوثو بمادماد". فهذه الكلمة: "بمادماد" إذا عددنا حساب حروفها بالجُمَّل كان اثنين وتسعين، وذلك عدد حساب حروف اسم محمد، فإنه أيضا اثنان وتسعون. وإنما جعل ذلك فى هذا الموضوع ملغزا لأنه لو صرح به لبدلته اليهود أو أسقطته من التوراة كما عملوا فى غير ذلك. فإن قالوا إنه قد يوجد فى التوراة عدد كلمات مما يكون عدد حساب حروفه مساويا لعدد حساب حروف اسم زيد وعمرو وخالد وبكر فلا يلزم من ذلك أن يكون زيد وعمرو وخالد وبكر أنبياء. فالجواب: إن الأمر كما يقولون لو كان لهذه الآية أسوة بغيرها من كلمات التوراة. لَكِنَّا نحن نقيم البراهين والأدلة على أنه لا أسوة لهذه الكلمة بغيرها من سائر التوراة، وذلك أنه ليس فى التوراة من الآيات ما حاز به إسماعيل الشرف كهذه الآية لأنها وعد من الله إبراهيم بما يكون من شرف إسماعيل. وليس فى التوراة آية أخرى مشتملة على شرف لقبيلة زيد وعمرو وخالد وبكر. ثم إنّا نبيّن أنه ليس فى هذه الآية كلمة تساوى "بمادماد"، التى معناها "جدا جدا"، وذلك أنها كلمة المبالغة من الله سبحانه فلا أسوة لها بشيء من كلمات الآية المذكورة. وإذا كانت هذه الآية أعظم

الآيات مبالغة فى حق إسماعيل وأولاده، وكانت تلك الكلمة أعظم مبالغة من باقى كلمات تلك الآية، فلا عجب أن تتضمن الإشارة إلى أجلّ أولاد إسماعيل شرفا وأعظمهم قدرا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. وإذ قد بينا أنه ليس لهذه الكلمة أسوة بغيرها من كلمات هذه الآية ولا لهذه الآية أسوة بغيرها من آيات التوراة فقد بطل اعتراضهم".

ومضى السموءل فكتب تحت عنوان "ذكر الموضع الذى أشير فيه إلى نبوة الكليم والمسيح والمصطفى عليهم السلام": "وآماد أذوناى مسيناى إشكلى ودبهور يقايه مسيعير اثحزى لانا استخى بغبورتيه تمل طوراد فإران وعميه ربواث قديسين". وتفسيره "قال إن الله تعالى من سيناء تجلَّى، وأشرق نوره من سيعير، وأطلع من جبال فاران ومعه ربوات القديسين" وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل الشراة الذى فيه بنو العيص الذين آمنوا بعيسى عليه السلام بل فى هذا الجبل كان مقام المسيح عليه السلام، ويعلمون أن سيناء هو جبل الطور، لكنهم لا يعلمون أن جبل فاران هو جبل مكة. وفى الإشارة إلى هذه الأماكن الثلاثة التى كانت مقام نبوة هؤلاء الأنبياء ما يقتضى للعقلاء أن يبحثوا عن تأويله المؤدى إلى الأمر باتباع مقالتهم. فأما الدليل الواضح من التوراة على أن جبل فاران هو جبل مكة فهو أن إسماعيل لما فارق أباه الخليل عليه السلام سكن إسماعيل فى برية فاران ونطقت التوراة بذلك فى قوله: "وييسب بمذبار فاران وتقاح لو إمو إشامياء يزمن مصرايم"، وتفسيره "وأقام فى برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر". فقد ثبت فى التوراة أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل. وإذا كانت التوراة قد أشارت فى الآية التى تقدم ذكرها إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل لأنهم سكان فاران.

وقد علم الناس قاطبة أن المشار إليه بالنبوة من ولد إسماعيل محمد وأنه بُعِث من مكة، التى كان فيها مقام إسماعيل. فدل ذلك على أن جبال فاران هى جبال مكة وأن التوراة أشارت فى هذا الموضع إلى نبوة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وبشرت به، إلا أن اليهود لجهلهم وضلالهم لا يحسنون الجمع بين هاتين الآيتين بل يسلمون المقدمتين ويجحدون النتيجة لفرط جهلهم. وقد شهدت عليهم التوراة بالإفلاس من الفطنة والرأى ذلك قوله تعالى: "كى بمو أو باذ عيصوث هيما وأين باهيم تبونا"، وتفسيره "إنهم لشعب عادم الرأى وليس فيهم فطانة".

ولمزيد من التوضيح أود نسخ النص التالى، وهو تسجيل ممتع لحوار دار بين عالم مسلم لم يذكر اسمه وبين قس أفريقى فى منزل الأخير على النحو التالى: "لقد وافق القَسّ فان هيردن على مقابلتى بمنزله فى يوم السبت بعد الظهر. استقبلنى القس فى شرفة منزله بترحيب وود. وقال: إذا كنت لا أمانع فإنه يود حضور حَمِيه البالغ من العمر سبعين عاما للمشاركة معنا فى النقاش. ولم أمانع فى ذلك. جلس ثلاثتنا فى قاعة المكتبة. يقول كاتب المقال عن تلك المناقشة وكيف فتحها مع القس المذكور:

"تصنعت سؤالا: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد؟ وبلا تردد أجاب: لاشيء. لماذا لاشيء؟ وفقًا لشروحاتكم فإن الكتاب المقدس مليء بالتنبؤات ، فيخبر عن قيام دولة السوفيت الروس وعن الأيام الأخيرة وحتى عن بابا كنيسة الروم الكاثوليك. فقال: نعم ، ولكن لاشيء عن محمد. فسالت ثانية: لكن لماذا لاشيء؟ أجاب الرجل المسن: يا بنى، لقد قرأت الكتاب المقدس لخمسين سنة مضت. ولو كان هناك أى شيء عن محمد لكنت عرفته.

استفسرت: ألست تقول إن هناك مئات النبوءات التى تتكلم عن مجيء المسيح، فى العهد القديم؟ قال القس: لا مئات بل آلاف. قلت: إنى لن أجادل فى الألف نبوءة التى تتحدث عن مجيء المسيح. فإننا كمسلمين آمنا وصدقنا بالمسيح دون الحاجة إلى أى نبوءة كتابية. إنما آمنا تصديقًا لمحمد صلى الله عليه وسلم. لكن بعيدًا عن هذا الكلام هل يمكن أن تعطينى نبوءة واحدة مضبوطة حيث ذكر اسم المسيح حرفيًا؟ إن التعبير: "المسيا" المترجم بـ"المسيح" ليس باسم. إنما هو لقب. هل توجد نبوءة واحدة تقول إن اسم المسيا سيكون عيسى وإن اسم أمه مريم؟ أجاب القس: لا لا يوجد مثل هذه التفاصيل. إذن كيف تستنتج أن هذه الألف نبوءة هى عن المسيح؟

ما النبوءة؟ أجاب القس قائلًا: إنك تدرك أن التنبؤات هى الكلمات التصويرية لأى شيء سيحدث فى المستقبل. وعندما يتحقق هذا الشيء فعلا فإننا ندرك بوضوح إنجاز هذه النبوءة التى سبق الإخبار بها سلفًا. قلت: ما تفعله فى الحقيقة هو أنك تستنتج، أنك تناقش، أنك تضع اثنين اثنين معا، قال: نعم. قلت: إذا كان هذا ما تفعله مع الألف نبوءة لتأكيد دعواك عن عيسى فلماذا لا نختار نفس المنهج بالنسبة لمحمد؟ وافق القس على هذا الرأى العادل و المنهج المعقول للتعامل مع المشكلة. وطلبت منه أن يفتح الكتاب المقدس عن سفر التثنية (١٨:١٨)، وقد فتحه وقرأ. وإليك النص باللغة العربية: "أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

بعد أن قرأ النص استفسرت: لمن تعود هذه النبوءة؟ وبدون تردد قال: يسوع. فسألت: لماذا يسوع؟ إن اسمه غير مذكور هنا. أجاب القس: بما أن النبوءة هى الوصف التصويرى لأمور ستحدث فى المستقبل فإننا ندرك أن

تعبيرات النص تصف المسيح وصفا دقيقا. قلت: إنك ترى أن أهم ما فى النص هى كلمة "مثلك"، أى مثل موسى. فهل عيسى مثل موسى؟ بأى كيفية كان مثل موسى؟ أجاب: بادئ ذى بدئ كان موسى يهوديًا، وكذلك كان عيسى. كان موسى نبيا، وكذلك كان يسوع. قلت: هل تستطيع أن تجد تشابهات أخرى بين عيسى وموسى؟ قال القس إنه لا يتذكر شيئًا آخر. قلت: إذا كان هذا هو المعيار لاكتشاف مرشح لهذه النبوءة فى سفر التثنية إذن ففى هذه الحالة يمكن أن تنطبق على أى نبى من أنبياء الكتاب: سليمان، أشعياء، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل، ملاخى، يوحنا... إلخ. ذلك أنهم جميعا يهود مثلما هم أنبياء. فلماذا لا تكون هذه النبوءة خاصة بأحد هؤلاء الأنبياء؟

استأنفت قائلا: إنك تدرك استنتاجاتى، وهى أن عيسى لا يشابه موسى. فإذا كنت مخطئا فأرجو أن تردنى إلى الصواب. قلت: إن عيسى لا يشبه موسى بمقتضى عقيدتكم، فإن عيسى هو الإله المتجسد، ولكن موسى لم يكن إلهًا. أهذا حق؟ أجاب: نعم. قلت: بناء على ذلك فإن عيسى لا يشبه موسى. ثانيًا بمقتضى عقيدتكم مات عيسى من أجل خطايا العالم، لكن موسى لم يمت من أجل خطايا العالم. أهذا حق؟ أجاب: نعم. فقلت: لذلك فإن عيسى لا يشبه موسى. ثالثًا بمقتضى عقيدتكم ذهب المسيح إلى الجحيم لثلاثة أيام، ولكن موسى لم يكلف بالذهاب إلى الجحيم. أهذا حق؟ أجاب: نعم. واستنتجت: إذن عيسى لم يكن مثل موسى، و لكن أيها القس هذه ليست حقائق غامضة بل حقائق مكشوفة.

دعنا نتكلم فى الامور الدقيقة فى حياة موسى وعيسى١- الأب والأم: كان لموسى والدان "وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى"(خروج:٦:٢٠). وكذلك محمد كان له أم وأب، لكن المسيح كان له

أم فقط وليس له أب بشرى. أليس هذا ما يقوله الكتاب المقدس؟ قال: نعم. ٢- الميلاد المعجز: إن موسى ومحمد ولدا ولادة طبيعية. مثال ذلك الاقتران الطبيعى بين رجل و امرأة، ولكن عيسى ولد بمعجزة مميزة. ٣- عقد الزواج: لقد تزوج موسى ومحمد وأنجبا أولاد، ولكن عيسى ظل أعزب كل أيام حياته. أهذا صحيح؟ أجاب القس: نعم. قلت: إذن عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى. ٤- مملكته تهتم بالأمور الأخروية: إن موسى ومحمد كانا نبيين مثلما كانا زعيمين. وأعنى بالنبوة الإنسان الذى يوحى إليه برسالة إلهية لإرشاد الناس. أما الزعيم فأعنى به الإنسان الذى له سلطان وقيادة على شعبه سواء كان متوجًا كملك أو لا. فإذا اقتدر إنسان على توقيع عقوبة الإعدام مثلًا والحكم بين الناس فهو زعيم. ولقد كان موسى يملك هذا السلطان، فقد أمر بإعدام عُبَّاد العجل (خروج:٣٢: ٢٦)، وكذلك محمد كان له سلطان فى الحكم بين الناس. أما المسيح فإنه ينتمى إلى الصنف الآخر من الأنبياء. ومن هنا فإن عيسى ليس مثل موسى ، لكن محمد مثل موسى. ٥- لا شريعة جديدة: إن موسى ومحمد أتيا بشريعة جديدة وأحكام جديدة لشعبيهما، وإن موسى جاء بالوصايا العشرة وطقوس جديدة شاملة لهداية الناس، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم إلى شعب يغطّ بالجهالة، اشتهروا بوأد البنات، مدمنين للخمر، عبدة أوثان مولعين بالقمار والميسر فى وسط هذه الصحراء. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يقول توماس كاريل، قد شرف الذين اتبعوه فجعلهم حاملى مشاعل النور والعلم. أما بخصوص المسيح كان يحاول دائمًا أن يثبت لليهود، الذين كانوا يتهمونه بالتجديف، بأنه لم يأت بشريعة جديدة، فيقول: لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل (متى ٥:١٧). و بعبارة أخرى أنه لم يأت بشريعة جديدة أو أى أحكام جديدة على الإطلاق. إنما جاء ليكمل الشريعة القديمة. وباختصار فإنه لم ينشئ دينا جديدا

مثل ما فعل موسى و محمد. سألت القس: نعم؟ فأجاب: نعم. ٦- كيف كان رحيلهم؟: إن كلا من موسى ومحمد قد توفاه الله وفاة طبيعية، لكن وفقا للعقيدة النصرانية فإن المسيح مات شر ميتة بقتله على الصليب. أليس هذا صحيحا؟ أجاب: نعم. قلت: من ثمّ فإن عيسى ليس مثل موسى، ولكن محمد مثل موسى. ٧- المقام السماوى: إن كلا من محمد وموسى يرقد الآن فى قبره على الأرض، ولكن طبقا لتعاليمكم فإن المسيح يجلس الآن "عن يمين قوة الرب" (لوقا ٢٢: ٦٩). قال القس: نعم. فقلت: ومن ثمّ فإن عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى. بعد هذا الحوار المنطقى والمثبت بالأدلة والبراهين، وبعد أن وافق القس وباستسلام لكل ما طرحته من آراء قلت: أيها القس، للآن ما تناولناه إنما للبرهنة فقط على موضوع واحد من هذه النبوءة كلها، وذلك بالتحقيق فى كلمة "مثلك" ، أى مثل موسى. إن النبوءة أوسع من ذلك بكثير ، تقول النبوءة: أُقِيمُ لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك أجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" (التثنية١٨:١٨). يجب التركيز على عبارة "من وسط إخوتهم مثلك". إن الخطاب موجه لموسى ، وشعبه اليهود كشخصية معينة. عندما تقول النبوءة من "إخوتهم" تعنى يقينا العرب. إنك تعلم أنه يتحدث عن إبراهيم ، وكان لإبراهيم زوجتان: سارة وهاجر. ولدت هاجر لإبراهيم ولدا. إنه الابن البكر لإبراهيم كما يقول الكتاب المقدس: "ودعا إبراهيم اسم ابنه الذى ولدته هاجر: إسماعيل" (التكوين١٥:١٦). وحتى الثالثة عشر من العمر فإن إسماعيل بقى الابن الوحيد لإبراهيم، ولقد وهب الله إبراهيم ابنا آخر من سارة أسماه: إسحاق. العرب واليهود: إذا كان إسماعيل وإسحاق أبناء الوالد نفسه (إبراهيم)، وهو ما يقوله الكتاب المقدس إذن هما أخوان، وهكذا فإن الشعوب التى نشأت من سلالتهما إخوة بالمعنى المجازى. إن أبناء إسحاق هم اليهود، وأبناء إسماعيل هم

العرب، وهو ما يقوله الكتاب المقدس أيضا. ويؤكد حقيقة هذه الأخوة بالنسب: "وأمام جميع إخوته يسكن" (تكوين١٢:١٦). وعن وفاة إسماعيل تقول التوراة: "وهذه سنة حياة إسماعيل، مائة وسبع وثلاثون سنة، وأسلم روحه و مات و انضم إلى قومه. و سكنوا من حويلة إلى آشور التى أمام مصر حينما تجيء نحو آشور أمام جميع إخوته" (تكوين ٢٥:١٧). إن أبناء إسماعيل هم إخوة لأبناء إسحاق. وبنفس النمط فإن محمد من قوم هم إخوة بنى إسرائيل. ذلك أنه من سلالة إسماعيل (العرب) مثلما تنبأت عنه التوراة: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم". بل تذكر النبوءة بوضوح أن النبي الآتى الذى هو مثل موسى والذى سيبعثه الله ليس من بنى إسرائيل لأن التوراة لم تقل: "من بين أنفسهم"، بل قالت: "من وسط إخوتهم. من ثمّ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى من وسط إخوتهم.

تستأنف النبؤة قولها: "وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه". ماذا تعنى النبوءة: "واجعل كلامى فى فمه"؟ إن السيرة النبوية تحدثنا أن محمد صلى الله عليه وسلم عندما بلغ من العمر أربعين عاما حينما كان يتعبد فى غار حراء، الذى يبعد حوالى ثلاثة أميال عن مكة المكرمة، فى هذا الغار نزل إليه جبريل وأمره بلسان عربى قائلًا: اقرأ. امتلأ النبي خوفًا ورعبًا منه، فأجاب: ما أنا بقارئ. فرد جبريل عليه السلام: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. ثم أعاد الأمر عليه قائلًا: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق١: ٥". أدرك النبي أن ما يريده منه الملاك هو أن يعيد نفس الكلمات التى وضعها فى فمه. ثم توالى نزول القرآن. فى الثلاثة والعشرين سنة من حياة النبوة نزل جبريل بالقرآن الكريم على قلب محمد ليكون من الرسل. أليس هذا تصديقا حرفيا لما

جاء فى نبوءة الكتاب المقدس. إن القرآن الكريم هو فى الحقيقة إنجاز نبوءة موسى أنه الرسول الأمى. وضع جبريل الملاك كلام الله فى فمه باللفظ والمعنى واستظهره الرسول كما أنزل.

إن اعتكاف الرسول فى الغار والطريقة التى أنزل إليه بها القران بواسطة جبريل وكون الرسول أمياً لا يعرف الكتابة ولا القراءة إنما هى إنجاز لنبوءة أخرى فى سفر إشعياء (٢٩:١٢) هذا نصها "أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال: اقرأ هذا. فيقول: لا أعرف الكتابة". ومن ألزم ما يجب أن تعرفه هو أنه لم يكن هنالك نسخة عربية من الكتاب المقدس فى القرن السادس الميلادى، أى حينما كان محمد حياً. فضلاً على ذلك فإنه أمى. يقول القرآن عنه: "فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِي الأُمِّي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ" (الأعراف:١٥٨). إنذار من الله- قلت للقس: هل رأيت كيف تنطبق النبوءة على الرسول محمد كانطباق القفاز فى اليد؟ أجاب القس قائلاً: إن جميع شروحاتك وتفسيراتك إنما هى فحص دقيق للكتاب المقدس، ولكن ليست ذات قيمة وأهمية. ذلك أننا نحن النصارى نحرز على يسوع الإله المتجسد الذى خلصنا من الخطيئة.

قلت: ليست ذات أهمية؟ إن الله أنزل هذه النبوءة، ثم تأتى أنت وتقول: إنها ليست ذات أهمية؟ إن الله يعلم أن من الناس من هم مثلك أيها القس الذين بفلتة لسان وإرادة قلوبهم الهينة يسقطون كلام الله ولا يعيرون له أى اهتمام. لهذا أتابع تكملة النبوءة. يقول الكتاب المقدس: "ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم باسمى أنا أطلبه". وفى النسخة الكاثوليكية من الكتاب المقدس يقول: "سأكون أنا المنتقم". إن الله القادر يتوعد بالعقاب و العذاب. إن النبى الذى يشبه موسى كما جاء فى النص: "مثلك" هو بلا ريب

محمد. لقد قدمت البراهين والحجج فى فيض من الوضوح بأن هذه النبوءة عن محمد لا عن المسيح عليهما الصلاة والسلام. نحن المسلمين لا ننكر أن عيسى هو المسيح الذى أرسله الله إلى بنى إسرائيل. إن ما نقوله هو أن ما جاء بسفر "التثنية" (١٨:١٨) لا يشير إطلاقا إلى المسيح. إنها نبوءة واضحة تتنبأ عن محمد. ابتعد القس بمنتهى الأدب قائلا: إنها مناقشة خطيرة ومهمة للغاية. وسوف أحاول أن أناقش الطائفة فى هذا الموضوع.

لقد مضت خمس عشرة سنة منذ ذلك الوقت وأنا لا زلت أنتظر ما وعد به! أعتقد أن القس كان مخلصًا عندما دعانى ورحب بى وبالبحث العلمي، غير أن التحزب والتعصب لدين الأجداد يقتل بقسوة".

وجاء فى إنجيل يوحنا (الإصحاح السادس عشر: الفقرات١٦-١٧): "إن خيرًا لكم أن أنطلق لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط. فإذا انطلقتُ أرسلته إليكم فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لى كلامًا كثيرًا أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى". وهذا لا ينطبق إلا على النبى صلى الله عليه وسلم".

وفى موقع "نداء الرجاء" أيضا نقرأ السطور التالية: "ذكر الشيخ عبد المجيد الزندانى فى كتابه: "البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب السماوية السابقة" أن إنجيل برنابا فى الباب ٢٢ جاء فيه: "وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله"، وجاء فى سفر إشعيا: "إنى جعلت اسمك محمدا. يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد"، وجاء فى سفر إشعيا: "وما أعطيته لا أعطيه لغيره، أحمد يحمد الله حمدا حديثا يأتى من أفضل الأرض، فتفرح به البرية، ويوحدون على

كل شرف، ويعظمونه على كل رابية" انتهى. وقد ذكر العلماء العديد من المواضع التى ذكر فيها اسم النبى صلى الله عليه وسلم: مرة بذكر اسمه الصريح، ومرة بذكر وصف لا ينطبق إلا عليه صلى الله عليه وسلم.

واعلم أنه قد طرأ تغيير على الكتب الموجودة الآن من التوراة والإنجيل وحدث تغيير فيها، وقد ذكر المؤرخون من غير المسلمين هذا الأمر، لكن مع ذلك كله لا زلنا نجد فى التوراة والإنجيل التبشير بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر الشيخ رحمة الله الهندى أن النصارى كلما استطاعوا تحريف موضع حرفوه، ولذلك تجد بعض العلماء القدامى يذكرون مواضع فى التوراة والإنجيل ليست موجودة الآن، لكن هناك مواضع أخرى لا زالت تبشر بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم وقدومه".

ويزودنا القرآن بدليل حاسم على ما نقول، فالله تعالى يقول عن يهود المدينة فى عصر النبى محمد صلى الله عليه وسلم: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". فهذه الآية الكريمة تشير إلى ما كانوا ينتظرونه من ظهور نبى فى ذلك الوقت طبقا لما لديهم فى التوراة من تبشير به. لكنهم غلبهم طبعهم الشيطانى النكد، فتنكروا لما كانوا يرددونه من قبل، وينتظرون ظهور نبى عصرذاك بناء عليه. ولا ينبغى الرد بأننى بهذا أحاجهم بالقرآن، وهم لا يؤمنون به، وبالتالى لا يعدونه دليلا على ما أقول. ذلك أن الآية قد نزلت وقرأها النبى وبلغت مسامع اليهود، وبخاصة أنها نزلت فى أوائل الهجرة، فكانت هناك فرصة سانحة للرد على ذلك لو كان غير صحيح. واليهود، بحمد الله، أطول ألسنة وأوقح وجوها وأثخن جلودا من أن يلوذوا بالصمت لو كان القرآن يورد باطلا من القول لا صحة له. والقرآن، من جهته، لم يكن يتبع

سياسة التجاهل لأى كلام يقال فى حقه حتى لو كان يتعلق بالله سبحانه وتعالى كقول اليهود فى المدينة: "إن الله فقير ونحن أغنياء"، "يد الله مغلولة"، وكقول المشركين فى مكة بحق الرسول: "لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القرتين عظيم؟" واتهامهم له بأنه مجنون وشاعر وساحر وكذاب ومُدَّعٍ سرق القرآن من أساطير الأولين، ورجل عادى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، فليس إذن برسول. فلو كان القرآن قد قال هذا عنهم زورا وبهتانا ما سكتوا ولملأوا الدنيا صياحا واعتراضا وتهكما وطوّلوا ألسنتهم عليه بكل ما تخيل ولا تخيل من الوقاحات والسفاهات.

ومن ناحية الواقع التاريخى فمن يا ترى من الأنبياء السابقين أخبر بنبوة نوح مثلا أو إبراهيم أو يوسف أو داود أو سليمان أو حتى المسيح؟ لقد أوردت "دائرة المعارف الكتابية" النبوءات التى تحدثت عن المسيح ومجيئه، ومن يراجع مادة "نبوات العهد القديم عن المسيح" يجد كلاما عاما يمكن، لكلّ من أراد، أن يلويها إلى الجهة التى تحلو له ويزعم أنها تنطبق على فلان أو فلان. وحين أنظر إلى استشهاد النصارى بها أستغرب أشد الاستغراب لأنها لا تقول شيئا فى هذا الصدد. ولقد رأينا كيف أن نسابيهم أتوا فى نسب المسيح عليه السلام بالطامة الكبرى، فجعلوه ابنا ليوسف النجار. فكيف نأتمنهم على تفسير نبوءات كهذه غامضة لا تشير إلى شىء أو شخص واضح؟

ومع كل ما ادعاه توما الأكوينى على الإسلام ونبيه وكتابه فهناك مفكرون وعلماءُ وكتّابٌ غربيون كُثْرٌ وقفوا إزاء صورة محمد وشخصيته ودينه وإنجازته وقفة المبهور مخالفين التيار العام لشعوبهم وحرصاءَ على قول كلمة الحق مهما كان الثمن. ومن هؤلاء مثلا جوته الشاعر والكاتب الألمانى الكبير (ت١٨٣٢م)، الذى أحب الإسلام ورسوله والقرآن ولغته وأصدر ديوان

شعريا كبيرا يدور حول موضوعات إسلامية وعربية ويمدح فيه النبى محمدا ودينه مدحا شديدا، وألف مسرحية عنه صلى الله عليه وسلم، وأعلن فى بعض أشعاره بكل وضوح أنه إذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم فعلى الإسلام نحيا ونموت نحن أجمعين... وغير ذلك، وهو ما حدا بكثير من الناس، ومنهم ألمان، إلى الاعتقاد بأن جوته كان فى الحقيقة مسلما.

ومن أولئك الغربيين المبهورين بالنبى والإسلام جون دافنبورت الكاتب البريطانى (ت١٨٧٧م) صاحب " An Apology for Mohammed and the Koran: اعتذار لمحمد وللقرآن"، فقد أنفق صفحات كتابه هذا التى تخطت المائة والثمانين فى الإشادة بمحمد وبدين محمد وبالقرآن المجيد الذى جاء به محمد وبالتوحيد الذى دعا إليه محمد، ووصف محمدا عليه السلام بأنه أعظم إنسان أتى لإصلاح حياة البشر وأن تاريخ المسلمين أفضل من تاريخ النصارى أفضلية مطلقة، وأكد أن محمدا يتفوق على أنبياء بنى إسرائيل تفوقا مذهلا، وأن حكام المسلمين أعظم من حكام الغرب أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، وأن تاريخ الحضارة الإسلامية تاريخ غاية فى السطوع والتألق، وأن الكتاب المقدس لا يبلغ رتبة القرآن فى الثقافة والعلم. كما أخذ على عاتقه تفنيد كل شبهة اخترعها النصارى للإساءة إلى محمد ودينه بتحليل ضاف وأمثلة متنوعة ومقارنة بين ما كان يتمتع به صلى الله عليه وسلم وبين أنبياء بنى إسرائيل، وبين نصوص القرآن وبين نصوص الكتاب المقدس. وأهمية هذا الكلام أن صاحبه قاله وأكده رغم أنه لم يكن مسلما، على الأقل لم يعلن إسلامه. كما أكد تبشير موسى وعيسى بالنبى محمد، وانطباق لفظ "الفارقليط" الذى بشر به المسيح عليه. وهذه عبارته نصا: " The piety of Moses and of Christ rejoiced in the assurance of a future prophet more illustrious than

themselves; and the Evangelist's promise of the Paraclete or Holy Ghost, the Comforter, was prefigured in the name, and accomplished in the person, of the greatest and the last of God's prophets".

ومن هؤلاء المفكرين المنصفين أيضا توماس كارلايل (ت١٨٨١م) فى كتابه عن البطولة والأبطال: " On Heroes, Hero-Worship, & the Heroic in History"، الذى خصص فصله الثانى للنبى محمد عليه السلام فترك كل أنبياء العالم بما فيهم أنبياء الكتاب المقدس بل والمسيح نفسه، واختار محمدا دون هؤلاء جميعا ليكون نموذجا للبطولة متجسدة فى صورة "نبى". ولم يتوقف عمله عند هذا بل شمر عن ساعد الجد ودافع عن النبى صلى الله عليه وسلم عددا من الاتهامات الباطلة السخيفة الدنسة التى يقذف بها الملتاثون الغربيون سيد البشر محمدا صلى الله عليه وسلم.

وهناك كاتب أمريكى يهودى معاصر هو مايكل هارت وضع كتابا يضم تعريفا بمائة شخصية خالدة فى تاريخ البشرية احتل محمد الفصل الأول منه. واسم الكتاب هو " The100: A Ranking of the Most Influential Persons in History". وفيه يبين الكاتب كيف أن محمدا هو أكبر المشهورين فى التاريخ إنجازا وأوسعهم تأثيرا. ولهذا وضعه هارت على رأس قائمة المائة الخالدة، ووضع عيسى فى المرتبة الثالثة، وموسى نبى بنى إسرائيل فى المرتبة السادسة عشرة. ولم يتنطع كما فعل الأكوينى وأمثاله ممن يرددون لدرجة الإسئام شعار "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر" فى حين تقوم حياتهم على قلة الأدب والحقد ومحاولة الإساءة الجارحة لأعظم العظماء من أبناء آدم وحواء دون أى شعور بالخجل من هذا الصديد الذى ينز

من نفوسهم المتقيحة المنتنة. لقد كان مايكل هارت مشغولا بتعداد الإنجازات الخارقة التى حققها النبى العربى الكريم لقومه وللإنسانية وأن تأثيره الفذ المبارك لا يزال حيا حتى يومنا هذا، فلم يكن لديه وقت يضيعه فى لت الكلام وعجنه وقذف الاتهامات المتخرصة على تلك الشخصية الجليلة العظيمة. وقد أكد هارت أن محمدًا كان "ناجحًا للغاية" دينيا ودنيويا، إذ كان مسؤولًا عن تأسيس الإسلام وتوحيد شبه الجزيرة العربية، التى انطلق منها الإسلام إلى فضاء العالم الفسيح. وهو يرى أن محمدًا قد أدى دورًا فرديًّا بشكل غير عادى فى تطور الإسلام لا يَشْرَكه أحد فى ذلك، بينما فى تطور المسيحية اشترك عيسى وبولس، الذى أدى دورًا محوريًّا فى الإضافة إلى هذه التعاليم. وقائمة المفكرين الغربيين النبلاء الكرام الذين يعملون على إنصاف الإسلام جد طويلة. وقد اكتفيتُ بهذه الأمثلة الثلاثة، وإلا فلن ننتهى.

ومع ذلك كله فما يهمنى فى أمر الدين القِيَمُ التى يعلى من شأنها النبى الذى أتى به ويدعو إليها ويحض أتباعه بل يوجب عليهم الالتزام بها وعدم الزيغ عنها. والقيم التى يدعو إليها نبينا هى الإيمان بالله وإجلاله وتعظيمه وحب النبيين والمرسلين والتأسى بهم والتزام الصدق وتحرى العدل والأمانة والحرص على العمل والإتقان والسعى على المعاش والترفع عن السؤال والتمسك بالكرامة الإنسانية واحترام المرأة وإحسان تربيتها وتعليمها كالذكر سواء بسواء والعفة والتقوى وصلة الرحم والتعامل الجميل مع الآخرين والكرم والزكاة والصدقات والوقوف مع الفقراء والمحتاجين والمكسورين وطلب العلم والنفور من الجهل والغشم والإِمَّعِيَّة ومصاحبة الناس بالمعروف واليسر فى التعامل والبشاشة فى وجوه الآخرين والوفاء بالعهد واحترام الوعد وتقدير قيمة الوقت فى كل شىء وفى كل مراحل الحياة وحسن تدبير المعيشة وعدم الإسراف فى الإنفاق

والشورى واحترام الكبير والحدب على الصغير والبعد عن الغش والخيانة والغيبة والنميمة والحقد والسعار وراء مطالب الدنيا وإعمال العقل واستقلال الفكر وتشجيع النظر فى الأمور دون خوف ما دام الشخص قد تسلح بالقراءة والعلم والتدقيق والتخصص ثم لا عليه إذا أصاب أو أخطأ بعدما فكر وقدر بنية طيبة بغية الوصول إلى الحق وبعدما أنفق الوقت اللازم لذلك كله... إلخ. وأنا لو لم أجد هذه القيم فى الإسلام فلا أظننى كنت أتمسك به أو أتحمس له.

ولقد كان الرسول عليه السلام هو التجسيد الرائع لهذه القيم. إنه لم يكذب ولم يشرب الخمر ولم يمارس الفحشاء ولا كان فظا غليظ القلب ولا يمد يده لمال الغير تحت أى اعتبار ولا يبذؤ ولا يصخب ولا يثرثر ولا يغتاب أحدا أو ينم بين اثنين ولا يحتقر العبيد ولا يظلم ولا يشهد شهادة زور ولا يتجبر أو يتكبر ولا باهى بالجهل لأنه أمى بل أعلى من شأن العلم كما قرأنا آنفا على نحو تفوّق به على الحضارة الحديثة. وكان يحب النظافة وحريصا على طيب رائحته ويعامل النساء معاملة راقية ويحنو على الضعف البشرى، ولكنه لا يحب للمسلمين أن يكونوا متهافتين ضعفاء بل صلابا يتحملون ضغوط الحياة وخشونتها... إلخ. ومن هنا كنت أحبه أكثر وأكثر كلما قارنته بعظماء العالم ومشاهيرهم من ملوك ورؤساء وكتّاب ومفكرين ومربين ومعلمين ورجال صناعة وإقطاعيين وإعلاميين وسياسيين وقادة عسكريين، إذ لم يكن عند أحد منهم مميزاته، وليس فيه عيوب أى منهم. وقد قرأت عنه كثيرا، وبخاصة فى كتّابات المستشرقين والمبشرين والملاحدة والمفكرين غير المسلمين، وكلما أوغلت فى القراءة ودققت وتفحصت ما تحويه من هجوم عليه ومحاولة للإساءة إليه ازددت له حبا وسمق قدره فى نفسى وصرت أُبَجِّله بعقلى وعواطفى معا، ولا أجد فى القديم أو فى الحديث من يقترب من المستوى الرفيع الذى يحتله،

وأقدره كما لا أقدر أحدا سواه، وأستغرب أشد الاستغراب ممن يكفر به ويفسق عن الإسلام إلى الإلحاد أو الماركسية أو العلمانية رغم إقرارى التام بتقدم الغرب فى السياسة والصناعة والابتكار والاختراع والقوة العسكرية وارتفاع مستوى المعيشة وطول العمر والجد فى العمل وإتقانه وقيام كل شىء فى حياته على النظام والتعاون، وعلى الديمقراطية إلى حد كبير، وإن بدت حقيقة ديمقراطيتهم فى الفترة الأخيرة حين صاروا يعصفون بمن يتعاطف منهم كبارا أو صغارا، نساء ورجالا مع غزة ويناهض الوحشية التى يتعامل بها الصهاينة مع العرب والمسلميين. ذلك أن الإسلام فيه كل هذا وزيادة مما شرحته قبل قليل. كما أن الغرب لا يتعامل مع الأمم الأخرى بأى قدر من التواضع أو العدل أو الإنسانية والرحمة. إنه لا يفهم سوى القوة، والقوة وحدها، وكل تفكيره وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين تفيض بالغطرسة والتجبر والتكبر. إنه بوجه عام لا يؤمن بالله، فهو ملحد متأله لا يبالى إلا بما يرى وما يريد، ولا يضع فى اعتباره الحق ولا القانون، ولا يؤمن بآخرة ولا يهتم بها بل بالدنيا فقط وما فيها من مال ومتع وتسلط وتحكم ونساء وجنس، ثم على غيره العفاء، وليس لهم لديه سوى الاحتقار والدمار أو الاستعمار والإذلال وسرقة الأموال!

وكنت أشاهد بعض الفيديوهات فى اليوتيوب تجنبا للسآمة من كثرة تعرضى لمثل سخافات الأكوينى والرد عليها وتبيين عوارها وتفنيده، فلفت نظرى فيديو بثته مسلمة أمريكية فى أوائل خمسينات عمرها تستغرب فيه سخط بلادها على اليمن لأنها ترد على صواريخها وطائراتها بأسلحة لا تعد شيئا بجانب نظيراتها الأمريكية وتتهمها بالعدوان والإرهاب وتريد منها الصمت والتبلد وعدم التعرض للسفن الموالية لإسرائيل فى مضيق باب المندب، قائلة إن

المسلمين إنما يدافعون عن بلادهم وحياتهم ويحاولون معاونة الفلسطينيين الذين يتعرضون لحملات إبادة جماعية من إسرائيل وأمريكا. وأضافت السيدة الأمريكية أنها، أثناء قراءتها لسورة "النساء"، استوقفتها الآية السادسة والخمسون التى تقول: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا"، معقبة أنها، قبل ستة أشهر (ربما تقصد: قبل أن تصبح مسلمة) كان فهمها للآية سيكون مختلفا إذ كانت ستقول: إن البشر كلهم طيبون فى أعماقهم ويستحقون أن يسامحهم الله، كما أن الإله لا يمكن أن يعذب عباده على هذا النحو، لكنها الآن بعدما رأت كيف تدمر إسرائيل وأمريكا البيوت الفلسطينية فوق رؤوس أهلها وتقتل منهم الآلاف المؤلفة تستطيع أن ترى مدى عدل هذه العقوبة. إن الفلسطينيين يدافعون عن بلادهم وحقوقهم ضد إسرائيل وأمريكا، أما هاتان فظالمتان باطشتان. قالت ذلك وعلى وجهها حرقة الألم ولذع الضمير لأن بلادها تشن هذا العدوان الظالم وتحيل حياة البشر فى فلسطين جحيما لا يطاق، ثم لم تتمالك نفسها وسالت دموعها على خديها من تحت عدسات نظارتها. لقد فهمت هذه الأمريكية الوضع وعرفت الحق ولزمته وقارنت بين نفسها أيام جاهليتها وبينها الآن، أما توما الأكوينى فظل مطموس البصيرة لا يقدر على رؤية نور الحق لسواد قلبه ولتعصبه الأعمى الفاقد للرشد والهدى. واسم القناة التى تذيع من خلالها فيديوهاتها هذه السيدة "قناة ليبرا". هذا ولا بد أن أذكر فى هذا السياق أن الفظائع المروعة التى ينزلها الصهاينة والصليبيون الغربيون وزعيمتهم أمريكا على الفلسطينيين قد تسببت فى انقشاع سواد الرؤية عن عيون كثير من الأمريكيين وقلوبهم واعتنقوا الإسلام وانتعشت أرواحهم وتبين لهم أن ما كانوا فيه من تعصب على

الفلسطينيين وانحياز للصهيونية إنما كان سببه التضليل المستمر فى الإعلام الغربى لحجب الحقيقة عنهم ودفعهم دفعا إلى مؤازرة الظلم والظالمين.

وهناك كتّاب أوربيون لا يرضيهم هذا السخف الذى يتكلم به عن ديننا توما الأكوينى وأمثاله. وأذكر أنى فى شتاء سنة١٩٨٢م قرأت فى قرية قريبة من أكسفورد بت فيها ليلتين بعد أن غمرت الثلوج الطرق كلها فلم تستطع السيارة السير فيها، فقرأت فى البيت الذى استأجرنا غرفة منه لدى سيدة إنجليزية عجوز كتابا كان معى لجون دافنبورت: " An apology for Mohammed and the Koran". وقد كرس المؤلف كتابه هذا للاعتذار للنبى محمد وللقرآن عما وجهه ولا يزال يوجهه إليه المستشرقون ورجال الدين النصارى من سهام الاتهام والتشويه كذبا وزورا وإجحافا وعدوانا. ولم أكن أعرف أن ثم ترجمة عربية لذلك الكتاب (الذى صدر فى١٨٦٩م) قام بها صحفى إيرانى اسمه عباس الخليلى منذ عدة عقود بعنوان "الاعتذار محمد والقرآن". كما اكتشفت بعد ذلك ترجمة أخرى للكتاب بقلم صابر صالح زغلول، وقد صدرت منذ وقت غير بعيد، وعنوانها "دفاع واعتذار لمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن". وأنا أوصى الذين يتجاوزون حدود الأدب والاحترام والإجلال ويحاولون الإساءة إلى النبى الكريم أن يبحثوا عن الكتاب ويقرأوا مقارنةَ كاتبِه الشاملةَ والعميقةَ بين القرآن والنبى محمد من جهة وبين الكتاب المقدس وأنبيائه، وبخاصة موسى وعيسى على جميعهم السلام والإكرام، من جهة أخرى.

لاله مهرى بختيار (بالإنجليزية: Laleh Bakhtiar) (٢٩ يوليو١٩٣٨- ١٨ أكتوبر ٢٠٢٠) هى مؤلفة ومترجمة وطبيبة نفسية إيرانية أمريكية. نشرت ترجمتها الإنكليزية للقرآن تحت اسم "The Sublime Quran" عام ٢٠٠٧. تربّت تربيةً كاثوليكيةً فى الولايات المتحدة، لكنّها انتقلت فيما بعد إلى إيران حيث درست على يد الفيلسوف الإيرانى سيد حسين نصر، وانتهى بها المطاف إلى اعتناق دين والدها. ثم درست اللغة العربية، وقامت بترجمة القرآن، وقامت، كما تزعم، بحل تناقضات الآية ٣٤ من سورة "النساء" للمرة الأولى فى تاريخ الإسلام. وُلِدَتْ بختيار لأم أمريكية وأب إيرانى فى مدينة نيويورك، ونشأت على الكاثوليكية، وفى الرابعة والعشرين انتقلت إلى إيران مع زوجها المعمارى الإيرانى وأطفالهما الثلاثة حيث بدأت فى دراسة الإسلام والقرآن الكريم على يد الدكتور سيد حسين نصر فى جامعة طهران، ثم اعتنقت فى النهاية الإسلام بحلول سنة١٩٦٤. طلقت زوجها عام١٩٧٦، وعادت إلى الولايات المتحدة عام١٩٨٨، وحصلت على شهادتى ماجستير وشهادتى دكتوراه، وعملت مستشارة معتمدة على المستوى الوطنى. وبدءا من عام ٢٠٠٧ عاشت بختيار فى شيكاغو حيث كانت رئيسة معهد علم النفس التقليدى وباحثة عاملة مع منشورات كازى، وتوفيت فى أكتوبر ٢٠٢٠ (عن "ويكيبيديا" بتصرف).

وكنت قد قرأت أنها لا تعرف العربية الحديثة بل القديمة! ولكنى لاحظت من كتابتها الكلمات العربية بالحروف اللاتينية أنها لا تحسن التلفظ بأهون الألفاظ كما هو الحال فى قولها: "مُعْجِم" (بكسر الجيم) بدلا من

"مُعْجَم" (بفتحها)، وتنطق "المُعْجَم المفهرَس" هكذا: "المعجِم المُفَهْرِس" رغم أنها وقفت عند التفرقة بين اسم الفاعل واسم المفعول فى مقدمتها لترجمة القرآن التى قامت بها، وقالت إنها كانت تختار التعبير عنهما بـ"الذى يَفْعَل، الذى يُفْعَل" عوضا عن لفظتى "الفاعل والمفعول". كذلك وجدتها تنطق "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" على النحو التالى: "المعجِم المفهرِس: لا الألفاض القرآن الكريم". ولا أظن أبدا أن هذا تم سهوا بل من الواضح أن هذه هى إمكاناتها.

وهذا يُخْطِر على بالى ما ألفيته فى ترجمة المستشرق الفرنسى سافارى للقرآن الكريم، إذ لاحظت أنه لا ينطق الكلمات العربية نطقا سليما، وهذا واضح من الألفاظ والعبارات التى أداها بالحروف اللاتينية، وها هى ذى بعض الأمثلة السريعة: لقد كتب المترجم لفظ " مروة " هكذا: "Merva" بكسر الميم بدلا من فتحها، وبإبدال الواو "فاء". وينطق اسم "أبى بكر" بكسر باء "بكر"، مما ينقل هذه الكلمة عن معناها إلى معنى "عذراء". وهو يشرح ذلك بأنه لما كان أبو بكر والد الزوجة العذراء الوحيدة التى بنى بها الرسول فقد سُمِّى كذلك، فتأمل هذا التخريج المضحك العجيب. أما "جلال الدين" فينطقه بكسر الجيم، وهو خطأ مطّرد، ولا أدرى سببه، وإن كنت لاحظت عند بعض المستشرقين ميلا إلى قلب الفتحة على الحرف الأول من بعض الكلمات إلى كسرة. كما ينطق "الفاتحة": "fatahat"، و"الرحمن" بضم الراء، و"مسلمون": "Meslemoun" بكسر الميم، وينطق "أُحُد": "أَحِد"، وينطق "اللات والعزى ومناة" على النحو التالى: "Lat , Aza , Menat"، و"قتادة" بضم القاف، و"شُعَيْب" بفتح الشين وكسر العين، و"الزمخشرى": "زَمْسَشْكِر"! كما ينطق "الكهف" بفتح الكاف والهاء معا (ص٢٩٠ / هـ١)، و"ذا الكِفْل":

"الكَفِل" (ص٣١٥/ هـ٢)، و"عُرْوَة": "عَرُوَة" (ص٤٢٢/ هـ٢). وكمثل خطئه فى نطق اسم "أبى بكر" وفى توجيه معناه يخطئ فى تفسير اسم "مالك" خازن النار، إذ يقول إنه سُمِّىَ كذلك لأنه واحد من الملائكة، وهذه الكلمة تعنى "ملاكا: ange". فمن أين له بهذا التوجيه المضحك؟ (انظر ص٤٢٤/ هـ١). أما صلاة "العِشَاء" فينطقها: "ache: عَشِه" قائلا إنها من طعام العَشَاء (انظر ص٤٤٤ / هـ١)، وهو تخليط عجيب، فصلاة العِشَاء بكسر العين، أما طعام العَشَاء فبفتحها. ثم إنه إذا كانت إحدى الكلمتين مأخوذة من الأخرى فإن اسم الطعام هو المأخوذ من اسم الوقت لا العكس. وهو ينطق "محمد": "Mahammed" (ص٧٤٠/ هـ١) و"الجُمعة" بكسر الجيم (ص٤٧١/ هـ١)، ونَسْر: "naser" (ص٤٨٧/ هـ١)، وعِلّيين: "aliin"، و"تَسْنيم" بكسر التاء، و"مُشْركين" بفتح الميم (ص ٥٢٨/ هـ ٣).

وليس خطؤه فى النطق مقصورا على الكلمات المفردة أو على أسماء الأعلام كما ربما يتبادر إلى الذهن بل يشمل نطق جمل كاملة يشوهها تشويها فظيعا حتى إنى لأتساءل: كيف يتسنى له بعد ذلك أن يفهم النص القرآنى؟ إنه مثلا ينطق "والشمس وضُحَاها... إلخ " على النحو التالى "والشّمس وضُحَّيْها * والقمر إذا تَلّيها * والنهار إذا جَلّيْها * والليلٍ إذا يِغْشَيْها * والسماء وما يبْنّيها * واللّرْضٍ وما طَحَيْها... إلخ ". فتأمل كيف ينوِّن ما دخل عليه الألف واللام! وتأمل كيف يقلب ألف "ضحاها، وتلاها... إلخ" ياء ساكنة! وتأمل كيف يغفل التضعيف فى لام "جلاّها "! وتأمل كيف يكسر ياء "يغشاها" وتأمل كيف يضيف ياء إلى "بناها" وكيف يضيف لاما أخرى بعد لام التعريف فى الأرض، وهذا كله فى ما لا يتعدى سطرين. إن كاتب مقدمة الترجمة يذكر أن المترجم قد أنفق شطرا من عمره مع المسلمين العرب فى

بلادهم يأخذ عنهم القرآن ونطقه. فهل هذه هى مقدرة مستشرق يتصدى لترجمة القرآن بعد أن خالط أتباع هذا القرآن وأصحاب اللغة التى نزل بها أعواما؟ ترى أكان هذا المستشرق يحسن حقا اللغة العربية؟ وهذا السؤال ينبغى أن يكون محوره أيضا السيدة لاله بختيار. حقا أن الأمر محَيِّر!

ومما قرأته أيضا للاله بختيار، كما أشرت آنفا، أنها اعتمدت، فى ترجمتها للقرآن الكريم، على معجم المستشرق إدوار وليم لين: "مَدّ القاموس"، بيد أنها هنا أيضا كشفت عن ضعف فى فهم اللغة العربية مضافا إليها خلعها آراءها المسبقة أو التى طُلِب منها أن تخلعها على الآيات القرآنية فى بعض المواضع بحيث يجىء القرآن المجيد فى ترجمتها ناطقا عن العقلية الأمريكية والغربية بوجه عام مما سنورد أمثلة عليها فيما يلى من هذه الدراسة. وفى مقدمة ترجمتها تخبرنا السيدة بختيار أنها اختارت ترجمة أقرب إلى أن تكون حرفية منها إلى أن تكون ترجمة للمعنى كله. وهى ترى أن هذه أقرب إلى أن تكون ترجمة موضوعية على عكس الترجمات الذاتية. فأما أن تكون الترجمة التى اتبعتْها ترجمة موضوعية فلست أشاطرها هذا الحكم، إذ الترجمة الموضوعية هى التى تنقل ما فى ذهن المؤلف، وهذا ما لا يمكن أن يكون اللهم إلا إذا صرنا نحن المؤلف ذاته، وهذا مستحيل، ودعنا أن المؤلف ذاته، فى بعض الأحيان، لا يستطيع تحديد ما أراد كتابته بالضبط والدقة. كما أن الترجمة الحرفية مضللة إلى حد كبير، علاوة على تخشبها وجمودها، فضلا عن أن بعض التعابير والصور الأدبية لا تفهم، أو لا تفهم جيدا، خارج لغتها إذا ترجمت بهذه الطريقة. والمهم، بدلا مما قالته المترجمة،أن يكون عند المترجم العدة الكافية لإخراج ترجمة تعادل النص الأصلى بكل استطاعته. وذلك لا يتحقق إلا إذا كان يعرف اللغتين معرفة واسعة وعميقة وأن يكون ملما بموضوع النص إلماما

واسعا وعميقا، إلى جانب الإخلاص فى النية، وإن كان هذا معيارا يصعب ضبطه، إذ كلنا يدعى أنه مخلص وأمين. ويبقى أمام القارئ الحق فى إبداء ملاحظاته على الترجمة وعلاقتها بالنص الأصلى، وعن طريق إبداء هذه الملاحظات ومقابلتها من ناحية المترجم بملاحظاته المضادة نستطيع الاقتراب مما كان فى ذهن المؤلف من معان وأخيلة ومشاعر وما يتخذه من مواقف... إلخ.

وقد ذكرت المترجمة أيضا فى مقدمتها أن ترجمتها تخلو من التعليقات الشارحة فى الهوامش، وإن كانت قد ذكرت أيضا أنها فى حالة الحاجة إلى توضيح المعنى كانت تضيف عبارات شارحة سريعة تضعها بين معقوفتين أو تكتبها بحروف مائلة. وهذا حسن، لكنه قليل جدا جدا ولا يكفى لأننا نحن المسلمين العرب أنفسنا نحتاج إلى ما هو أبعد من ذلك، ونضطر إلى الرجوع إلى كتب التفسير وأسباب النزول والأحاديث والدواوين الشعرية والمعاجم... حتى نفهم النص الفهم السليم: على الأقل فى أدنى مستوياته، ولا أظن مثل تلك الإضافات التى تدخلها المترجمة فى ترجمتها تكفى لبلوغه، وبخاصة أنها، كما رأينا من كلامها، قد اتبعت الأسلوب الحرفى فى الترجمة أو شيئا قريبا جدا منه. وقارئ عملها يشعر،جراء هذا، بأنه ترجمة تفتقر إلى السلاسة والوضوح المطلوب. وزيادة على ذلك فإن ترجمة القرآن بتلك الطريقة توقع فى رُوع القارئ الأجنبى أنه وعر الأسلوب غامض المعانى. فإذا أضفنا إلى ذلك أنها، كما سنشرح ذلك عما قليل، قد تعمدت هجران اسم "الله" والاستعاضة عنه بكلمة "God" وأنها طمست كلمة "كافر/ون" من كل المواضع فى القرآن، فالتساؤل هو: وماذا فى القرآن سوف تقدمه ترجمتك يا سيدة بختيار عن

الإسلام لمن ليسوا بمسلمين؟ لقد تنازلتِ عما يميز الإسلام منذ الوهلة الأولى، فكيف تريدين أن ينصت إليك من لا يعرف دينك، وهو يراه بلا هُوِيَّة؟

وتقول المترجمة إنها فضلت استعمال كلمة "God" بدلا من "الله"، وقدمتْ لذلك عدة أسباب منها أنها تفعل ذلك نزولا على قول ا لقرآن على لسان رب العزة: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"، ومن ثم كان عملها هذا اقتفاء لسنة النبى عليه السلام، فضلا عن أن استعمال كلمة "الله" يفرق بين المسلمين، الذى يستعملون كلمة "الله" وبين الإنجليز،الذين يتبعون عددا من الديانات الأخرى. كما أن استخدام كلمة "الله" من شأنه الإيهام بأن ثم أكثر من إله: Allah وGod. وفوق هذا فإن الإنجليز سوف يردون على استعمال كلمة "الله" بأنهم لا يفهمون دين المسلمين، إذ المسلمون يعبدون "الله" بينما الإنجليز يعبدون ربا آخر. ثم إن كلمة "الله" ليست وقفا على المسلمين حتى تضيق صدورهم بترك كلمة "الله" فى الترجمات القرآنية بل يشركهم فى ذلك النصارى واليهود العرب. وإلى جانب ما سبق فإن الرسول محمدا عليه السلام لم يأت بدين جديد، إذ الأديان السابقة كانت كلها تدعو إلى التوحيد (God is one). ولا يصح أن ننسى أننا ينبغى لنا اتباع الرسول مثلنا الأعلى فى مخاطبة الأمم كل بلغتهم الخاصة.

كما آثَرتِ استخدام نطق أسماء الأنبياء حسبما تلفظ بالإنجليزية على نطقها عندنا فى العربية. وقد سبقها محمد أسد إلى ذلك فى ترجمته الإنجليزية للقرآن. وكنت أوثر لو استعمل النطق العربى لأسماء الأنبياء اتباعا لطريقة القرآن، ولا يكتبها كما يكتبها الإنجليز (هكذا: Noah, David, Aaron, Moses, Ishmael, Abraham, Zachariah, Jonas, Elijah, Solomon, John, Jesus)، إذ المقصود بترجمة القرآن، فيما أفهم، هو نقل القارئ الأجنبى إلى

جو القرآن بقدر الإمكان لا لَىّ القرآن ليتماشى مع الجو الثقافى، والدينى منه بالذات، لذلك القارئ. وفى الهامش أو بين قوسين، إن كان لابد من ذلك، مندوحة للمترجم بذكر الاسم الذى يألفه من تَرْجَم لهم، فنجمع بذلك بين الحسنيين، وإن كانت ترجمة أسد لا تنفرد بهذا الذى أخذتُه عليها من بين الترجمات التى قام بها مسلمون.

وفات لاله بختيار أن إرسال كل رسول بلسان قومه ليس معناه هذا الذى فهمتْه بل أن يخاطبهم بلغتهم: العرب بالعربية لا بالفارسية أو الصينية مثلا، وإلا ما فهموا شيئا. ولو كان الأمر كما أرادت المترجمة إقناعنا به لما كان يصح أن يسمى الله فى القرآن بـ"الرحمن" لأن العرب لم تكن تعرف "الرحمن" لله: "وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفورا". وبالمثل نقرأ فى سورة "الزمر": "وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون". وبناء على قاعدة لاله بختيار كان يجب على الرسول ألا يذكر الله بل يذكر الأوثان التى كان يعبدها المشركون. وكانت كلمة "القرآن" غير معروفة بين العرب قبل مجىء الرسول عليه السلام. أفكان خطأً أن أتى القرآن والرسول بكلمة لم يكن يعرفها المشركون؟ وكان المشركون يجهلون معنى "الصلاة والزكاة والصيام والحساب والنفاق والجنة وجهنم والجهاد والتقوى والآية والسورة والكافر والمشرك والمؤمن..."، أفنقول إنه كان على القرآن ألا يستخدم تلك المصطلحات؟ ولقد فات المترجمة أيضا أن اليهود مثلا يسمون الله: "يهوه"، والهنود: "كريشنا"، والإغريق: "زيوس"، والفرس "أهورا مزدا". وهناك بشر ما زالوا يعتقدون فى تلك الآلهة ويتقنون الإنجليزية، فلم لا يعمل حسابهم عند ترجمة القرآن إلى لغة جنبول؟ وكيف لم تقم السيدة المترجمة

بمراعاة هذا الاعتبار فى الترجمة التى قامت بها؟ وعلى نفس الشاكلة يسمى النصارى "الجنة" بـ"ملكوت السماوات"، فهل ينبغى أن نهجر لفظ "الجنة" ونتبنى "ملكوت السماوات"؟ ولم يكن النصارى يسمون "المسيح": "عيسى" بل يسوع. كذلك فكلمة "النبى" عندهم تختلف اختلافا كبيرا عن النبى فى الإسلام، فماذا كان على القرآن والرسول أن يفعلا تجاه هذا الواقع؟ وفى اليهودية أن هارون كاهن، وهو عندنا نبى مع موسى. وكل من داود وسليمان عند كثير منهم مجرد ملك لا رسول. فما العمل؟

ولا يصح أن ننسى أن الترجمة الإنجليزية ليست مقصورة على النصارى الإنجليز بل سوف يقرؤها المسلمون فى بريطانيا وأمريكا وأستراليا والهند والباكستان والقارة السمراء. فلم ينبغى إهمال هؤلاء ومراعاة غير المسلمين من المتحدثين بالإنجليزية؟ كذلك نسيت لاله بختيار أن كل من دخل فى الإسلام مبكرا من البلاد المفتوحة قد اعتنقه رغم استعمال القرآن والسنة كلمة "الله" ولم يرفضوا الدخول فيه من أجل ذلك الاسم. وكيف دخل ملايين الغربيين فى الإسلام وصاروا يستعملون كلمة "الله" ولم تمنعهم هذه الكلمة من ذلك؟ وعلى هذا فلا معنى أبدا لذلك التحرج من جانبها من استخدام اسم "الله" فى ترجمة إنجليزية. إن كلمة "الله" هى اسم علم. وأسماء الأعلام لا تغير. وإلا فهل نقول إن اسم المترجمة هو "السيدة" وليس "لاله"، واسم "إبراهيم" هو "خليل الله" مثلا؟ إن "الله" اسم علم بينما "god \ God" تعنى "إله/ الإله"، وشتان بين قولنا عن شخص ما: "نبيل/ سالم/ سعاد/ أنيسة" مثلا وبين أن نقول: "إنسان،إنسانة/ الإنسان، الإنسانة".

لقد أتى القرآن ليغير ما كان موجودا مما لا يتمشى معه لا ليتغير هو وينزل على ما يريده الآخرون، وإلا فلماذا جاء الإسلام أصلا؟ لقد نفى الإسلام

الصلب والموت على الصليب والتثليث والخطيئة الأولى والفداء وما إلى ذلك، وحمل على اللات والعزى ومناة، وكان الكفار يريدون منه صلى الله عليه وسلم أن يترك الهجوم على تلك الأصنام، وحرَّم الدينُ الجديدُ الخمرَ والربا والزنا والعرى والالتصاق بما وجد المشركون عليه آباءهم وأبطل البَحِيرة والحامى والوصيلة والسائبة، وألغى التعصب للقبيلة على حساب الأمة والتفاخر بالأحساب والأنساب... ولو وضع الرسول هذا فى حسبانه وراعى عقائد من يخاطبهم وأخلاقهم ونزل على ما يريدون لَوَجّهَ بذلك ضربة قاتلة للدين الذى أتى به منذ اللحظة الأولى. ومع هذا فإننا نحمد الله أن لم تثبت لاله بختيار، مكان اسم الله فى كل موضع أتى فى القرآن، اسم"الثالوث: Trinity" حتى لا تستفز النصارى بمئات ملايينهم حول العالم ضد الإسلام.

وكنت قد لاحظتُ أن محمد أسد، على طول ترجمته كلها للقرآن المجيد، لم يُسَمِّ قطّ ربَّ العزة باسم "الله" مُؤْثِرًا استعمال كلمة "God"، ولا أدرى السر فى ذلك. إن كلمة "الله" اسمُ عَلَم، وأسماء الأعلام لا تتغير فى الترجمة، بل تبقى على حالها كما هو معروف. وإذا كان سافارى وجاك بيرك مثلا فى ترجمتيهما للقرآن إلى اللغة الفرنسية قد صنعا مثل هذا فمن السهل أن يفسَّر ذلك بأنه كراهية منهما لهذا الاسم الكريم الذى يُعْرَف به المولى فى دين محمد صلى الله عليه وسلم، لكن ماذا عن أسد، الذى ترك دينه وأسماء الإله فيه إلى الإسلام وإلهه؟ ترى لماذا تخلى بتلك البساطة عن هذه الخصوصية الإسلامية الجميلة؟ وقد تنكب سافارى المستشرق الفرنسى، فى حدود انتباهى، كلمة "الله" وأداها بألفاظ فرنسية، مثل "Le Dieu" و"L'Eternel " و"Le Tout – puissant" و"Le Ciel " و"Le Très – Haut"، وهذه مجرد أمثلة فقط. وقد وَقَرَ فى ذهنى أنه ينفر من كلمة "الله" التى لا يستعملها إلا المسلمون؟ ربما أَوْحَى إلىّ

بهذا التفسير قوله تعليقا على قوله تعالى: "قل: هو الله أحد": "لقد قضى محمد شطرا من عمره يحارب الوثنية ويهدم الأصنام، لكنه لما لم يكن يستضئ بوحى إلهى فإنه، وإن أزاح ظلمات الجاهلية، قد أتى بأخطاء جديدة، إذ إنه فى دعوته لوحدانية الله (Dieu) قد حارب عقيدة التثليث. إن المسلمين (Mahometans) يعتقدون بإله واحد خالق للسماء والأرض يعاقب على الشر ويجزى على الخير، لكن تعاليم نبيهم المزيف جعلتهم يرفضون الأسرار النصرانية (les mysteres)، ويسموننا بالمشركين (machrekin) لأننا نعبد ثلاثة فى واحد".

إن كلمة "الله" تدل على المعبود الواحد الأحد، الذى لم يلد ولم يُولَد ولم يكن له كُفُوا أحد، فهل هذا هو سبب هجره لهذه الكلمة واستبدال كلمات أخرى بها؟ ذلك، ولا أحب أن أتعرض لاتهامه محمدا بأنه نبى مزيف قد أضل أتباعه حين شدد على وحدانية الله وهاجم التثليث، فهو كلام لا يستحق عناء تفنيده. لكن أليس مضحكا أن يعاب المسلمون لتوحيدهم الله وعدم إشراك أحد من عبيده به؟ فها هو ذا سافارى يكره ذكر اسم "الله" فى ترجمته، وها هو ذا السبب الذى أرجح أنه هو الذى حمله على ذلك.

ومما قالته المؤلفة فى مقدمتها، انطلاقا من القاعدة التى جرت عليها فى تنكب اسم "الله" إلى "God, The God"، أنها كلما قابلتها مثلا كلمة "كافر" أو أى من مشتقاتها لم تترجمها كما صنع المترجمون السابقون بلفظة تعنى أنه كافر بما جاء به محمد بل وضعت فى مقابلها بالإنجليزية "ungrateful". لماذا؟ لأن مادة "ك ف ر" تدل فى أصل معناها على "إخفاء الشىء أو تغطيته". ولا أدرى ما علاقة هذا بذاك. نعم إننا نقول: "فلان كافر بالنعمة" فهذا هو الـ"ungrateful"، أما "فلان كافر" مطلقا أو كافر بالله أو كافر بالإسلام أو

كافر بهذا أو ذاك من الأنبياء فهذا هو الكفر الكفر لا كفر بجحود النعمة. إن المترجمة تريد أن نثبت على المعنى الأصلى الأول فى المصطلحات الإسلامية فتتميع الأمور وتزول الحدود ومن ثم لن ندرى حينئذ بالضبط ماذا يريد القرآن أن يقول. ولو سرنا على هذا المنوال فلسوف نتجاهل معنى "الوحى" والآية" و"ليلة القدر" و"النفاق" و"الشرك" و"الصلاة" و"الصيام" و"الزكاة" و"القرآن" و"الرحمن" و"الجهاد" و"الآخرة والأولى" و"الحساب" و"الجنة" و"جهنم" و"الكوثر" و"الليالى العشر والشفع والوتر" و"عِلِّيون" و"سِجِّيل" و"الرَّان" و"الزَّقُّوم" و"غِسْلِين"... إلخ. وهى تقول إن ذلك من شأنه توسيع نطاق الإسلام بحيث يدخل فيه كل أحد ولا يقتصر على جماعة دون أخرى. فماذا تريد المترجمة أن تقول؟ وإلام تهدف؟ إنها بهذا تتجاهل الفرق بين الأصل اللغوى لكلمة ما والمعنى الاصطلاحى لها. لقد كانوا يعلموننا فى صبانا أن "الصلاة" لغةً الدعاء، واصطلاحا "أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم". فهل يصح أن نترجم كلمة "الصلاة" فى كل مرة ترد فى القرآن بـ"الدعاء" حتى يدخل كل "من يدعو" فى الإسلام ولا تقتصر الصلاة على من يصلون الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء كما يصنع المسلمون؟ أما إذا كانت الكلمة تعنى شيئا آخر فالسياق كفيل بمساعدتنا على فهم المقصود كما فى قوله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبى. يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" و"قوله سبحانه مخاطبا نبيه محمدا: "فصَلِّ عليهم (أى على المؤمنين) إن صلاتك سَكَنٌ لهم". وبالمثل فإن "الصيام" لغة هو "الامتناع"، لكنه فى المصطلح الإسلامى "الامتناع عن الطعام والشراب والجنس" من الفجر حتى المغرب (طوال شهر رمضان)" فى الصيام العام. فهل يصلح أن نترجم تلك الكلمة فى كل موضع من القرآن بـ"الامتناع" هكذا بإطلاق؟ فما الذى يبقى من الإسلام بعد ذلك؟ هذا إسلام على هوى أمريكا! ثم ما قولها

فى أن القرآن، ودعنا الآن من الأحاديث، يكرر كثيرا أن الكافرين مصيرهم جهنم، وبئس المصير. فيا ترى ماذا نفعل فى هذه الآيات؟ أنحذفها؟ أنتجاهلها ونقفز فوقها؟ أنعطى لها معنى آخر يختلف عما نعرفه من العذاب الأخروى فى جهنم الحمراء؟ والغريب أنها، بعد كل تلك الضجة التى أحدثتها حول ترجمة كلمة "الكفر" ومشتقاتها، قد استخدمت لها كلمة "disbelieve" أكثر من مرة فى الترجمة التى بين أيدينا. فتأمَّلْ وتعجَّبْ!

ومن هذا المنطلق رأينا السيدة بختيار تترجم "الإسلام" بما يعنى "الخضوع"، و"المسلم" بـ"الخاضع"... إلخ. وقد فعل ذلك من قبلها محمد أسد، إذ إنه دائما ما يترجم "الإسلام" بـ"تسليم النفس لله"، أما "الإسلام" بمعنى "اتّباع دين محمد"، وكذلك اسم الفاعل منه: "مُسْلِم"، فهما (حسبما يقول) استعمالان اسْتَجَدّا بعد النبى عليه السلام. وأرى أنا أن هذا تمييع للأمور، بل أخشى أن يكون وراءه، ولو بدون قصد، رغبةٌ فى التسوية بين اليهود والنصارى وبين أتباع محمد فى أنهم جميعا مسلمون وناجون يوم القيامة ما داموا جميعا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا. لقد استخدم القرآن المجيد مرارا فى الحديث عن منهج الرسل جميعا كلمة "الإسلام"، إلا أن هذا هو الاستعمال العام، وسببه أن منهجهم جميعا، عليهم صلوات الله وسلامه، واحد رغم اختلاف شرائعهم فى بعض تفاصيلها، أما المعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة فى القرآن وفى الحديث فهو دين محمد. كذلك ذكرت كاتبتنا أنها تترجم "الأعمى والأصم والأبكم" بـ"من لا يريد". ذلك أنها ترى المقصود بهذه الصفات هو "من لا يريد أن يرى أو يسمع أو يتكلم"،وبما أن المشترك بين الثلاثة هو عدم الإرادة فقد استعملت، كما تقول، هذه الكلمة فى ترجمتها كلما قابلتها فى القرآن.

وفى مقدمتها أيضا تتساءل مستغربة: كيف يسمح الله للرجل أن يضرب زوجته؟ وقالت إن النساء قد انتظرن طيلة القرون الأربعة عشر منذ نزول القرآن مترجما يفهم الآية التى تسمح بضرب الزوجة بعد الوعظ والهجر فى المضجع على وجهها الصحيح؟ وهى تريد بهذا إلى القول بأنها هى مبعوثة العناية الإلهية التى فهمت تلك الآية الفهم السليم. وهذا معناه أنها قد فهمت الإسلام أفضل من الصحابة بل أفضل من الرسول بل أفضل من الله نفسه،أستغفر الله من غضب الله، إذ ترجمت "واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن" بمعنى أن الرجل، بعد أن يفشل فى تقويم زوجته الناشز النكدة التى تحول حياته إلى جحيم، يجب عليه مغادرة المنزل والضرب فى الأرض والسياحة فى بلاد الله: بلد تَشِيلُه، وبلد تَحُطُّه. لا تضحكوا بالله عليكم.

فهى، كعادة المتحذلقين الذين لا يفهمون أو لا يريدون أن يفهموا مرامى اللغة العربية ولا القرآن، تميِّع معنى الضرب فتقول إن المراد هو الضرب فى الأرض. وهى تفسره بهذه الطريقة كى تصل إلى القول بأنه لا يجوز للرجل أن يضرب زوجته مهما كانت الأحوال بينهما. وهذه الطريقة لا تصل بنا فى أى كلمة إلى شىء صحيح لأنه ما من كلمة إلا ولها عدة معان يحدد السياقُ المعنى المراد منها فى كل حالة لا الاختيار العشوائى دون ضابط ولا رابط. ولا يمكن أن يكون معنى الكلمة فى سياق الآية الحالية هو الضرب فى الأرض. ومن أعجب العجب أنها، حسبما قالت، تستند فى هذا التفسير الغريب إلى ما جاء فى معجم "مد القاموس". ذلك أن هذا المعجم فى عمومه هو ترجمة لعدد من المعاجم القديمة ولا يمكن أن تقول المعاجم، قديمة كانت أو حديثة، ما تقوله بختيار أو أن يكون لين بهذا الجهل والضحالة فى فهم لغة الضاد فيقول

إن "ضرب فلان فلانا" معناه أن يتركه ويذهب بعيدا. نعم هناك "الضرب فى الأرض" لكن هذا شيء آخر، ففى هذه العبارة نجد أن "الضرب" ليس على إطلاقه بل مخصوصا بأنه "فى الأرض". وهناك "ضَرَب النقود"، أى "سَكّها، و"ضرب الليلُ برواقه علينا"، أى انتشرت ظلمته، و"ضرب الجملُ بجِرَانِه"، أى برك ووضع صفحة عنقه على الأرض، والمقصود أنه استقر فى ذلك المكان، و"ضرب الخيمةَ"، أى نصبها، و"ضرب العفنُ فى الخبز"، و"ضرب له موعدا"، أى حدد موعدا يلقاه فيه، و"ضرب موسى لقومه طريقا فى البحر"، أى شق لهم طريقا بين طودين من الأمواج نجاهم الله به وأغرق فرعونَ وجنودَه حين انطبق عليهم الموج بعد عبور موسى وقومه. وهناك كذلك "ضَرْب المثل"، أى حكاية قصة توضح الأمر الفلانى، أو قال كلمة تلخص الموقف أو تستخرج العبرة منه وتشيع بين الناس... إلخ. أما "الضرب" على إطلاقه فهو الضرب بالمعنى الذى يعرفه كل البشر.

وهذا ما قاله إدوارد وليم لين فى المعجم العربى الإنجليزى الذى تحاجّنا به لاله بختيار. وأنا حين أستشهد بلين لا أفعل ذلك إلا من باب الجدل، وإلا فلين ليس معصوما من الأخطاء، ولا أظنه أفضل منا معرفة بلغتنا. بيد أننى، لكى أغلق عليها منفذ الشبهات التى تسكن عقلها، أردت أن يفهم القارئ عنى أنها لا تعرف العربية ولا تقدر أن تفهم ما قال لين. لقد ذكر لين عددا كبيرا من معانى "ضرب" واستعمالها فى التعبيرات الشائعة والصور المجازية، مثل "ضرب فى حديد بارد، وضربتُ زيدا سوطا، وضربتُ عنقه، وضرب كلبه على الصيد (درّبه وعوّده)،وضربت جروتى عنه، وضرب بسَلْحه الأرض (تبرّز)، وضرب العودَ (عزف عليه)، وضرب الوتد (دقه فى الأرض)، وضرب الخيمة (نصبها)، وضرب الدرهم (سكّه)، وضرب على المكتوب

(أى شطبه بالقلم)، وضرب الطين على الجدار (لَيَّسَه بالطين)، وضُرِبَتْ عليهم الذلة (حاقت بهم)، وضُرِبَتْ عليهم ضريبة (فُرِضَتْ)، وضرب الشبكةَ أو الفخ على الطائر، وضرب الليلُ بأرواقه، وصرب عليه حجابا، وضُرِب بينهما سد، وضربنا على آذانهم (أنمناهم نوما عميقا لا يشعرون معه بشىء)، وضربت الريح (هبت عليه)، وضربه البرد، وضرب الشىءَ بالشىء (مزجهما)، وضرب اللبن فى السِّقَاء (حقنه)، وضربتُ بينهم فى الشر (أغريتهم بالخصام والعداوة)، وضُرِبت الشاة بلون كذا (ظهرت فيها بقع منه)، وضربتْ فيهم فلانة بعرق فيه أشب (أدخلت عليهم نسلا مريبا)، وضرب بالقِداح (استشار الأصنام قبل الإقدام على أمر ما بالسهام كما كان يصنع الجاهليون)، وضربتُ مع القوم بسهم، واضرب لهم مثلا (احك لهم)، وضرب له أجلا، وضرب لهم طريقا، وضرب خمسة فى ستة، وضرب الجرحُ (صار يؤلم بشدة)، وجاء يضرب بشرٍّ، وضربتُ فى السير (أسرعتُ)، وضرب فى الأرض (رحل فى طلب الرزق مثلا)، وضرب فى سبيل الله (اشترك فى الجهاد)، وضرب فى التجارة (سافر للتجارة)، وجاد ضربُها". وكما نرى ليس هناك استعمال لـ"ضرب فلان فلانا" يعنى الذهاب بعيدا. إنما هذا المعنى يكون لـ"ضرب فى الأرض أو فى التجارة أو فى سبيل الله". فقول لاله بختيار إنها قرأت هذا فى معجم لين هو قول غير صحيح على الإطلاق.

ورغم أنى سرت معها فى الاتجاه الذى تريد فقد وجدنا أن هذا الاتجاه مسدود الأبواب جميعا. والآن نريها أن لين لا يعرف معنى للضرب إذا وقع على شىء أو شخص إلا أنه الضرب الذى نعرف: باليد أو بالعصا. يقول لين فى مفتح مادة "ض ر ب": " He beat, struck, smote, or hit, him, or it"، وفى ترجمة "ضربتُ زيدا سوطا" يقول: " I struck Zeyd with a

whip"، و"ضربتُ عنقه": "I smote his neck". أما "ضرب فى الأرض" فمعناها عنده بنص كلامه: He journeyed in the land seeking sustenance, and for the purpose of traffic"، أى "ارتحل ساعيا وراء الرزق ومتاجرا". أى أن الضرب فى الأرض ارتحال وليس مجرد خروج من البيت، وبغرض الارتزاق والتجارة لا للتمشى فى الهواء الطلق قليلا وتعفير سيجارة يخرج بها مع الدخان الذى ينفثه همومه أو يجلس على مقهى يطلب كوبا من عصير الليمون يروّق به دمه المتعكر أو يلعب دور طاولة مع أى واحد على القهوة على مشروب، ثم يعود إلى البيت فيجد زوجته، بارك الله فيها، تردد فى طرب وانتشاء: "غَدًا النكد غَدًا". ولم لا؟ أليست امرأة نكدة لا تبتهج إلا إذا نكدت على زوجها فلم يستطع أن يفعل لها شيئا سوى أن يأخذ نفسه ويخرج ويترك لها الحبل على الغارب؟ بينى وبينكم لو كانت لاله بختيار، كما رأيت صورتها، هى زوجتى لتركت لها البيت والحى والمدينة والبلاد كلها ولم أدعها تعرف لى عنوانا ولم أفكر فى العودة إليها أبدا حتى لو أَعْطَوْنِى ملء الأرض ذهبا وألماسا وياقوتا ولؤلؤا ومرجانا ودولارات!

ثم تعالوا لنرى كيف يستخدم القرآن الفعل:"ضرب" المتعدى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا"، "فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا"، "فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا"، "وَاللَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا"، "وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ"، "وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا"، "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ"، "وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ"، "أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ

قَوْمًا مُسْرِفِينَ"، "فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ"، "فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ"، "عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". ولترنى لاله بختيار مثالا واحدا من القرآن يعنى فيه الفعلُ: "ضرب" المتعدى أو أى من مشتقاته الخروجَ من البيت والذهابَ بعيدا. إن هذا خلط للأمور وإضفاء لمعنى "ضرب فى الأرض" على "ضرب " المتعدى. إن هذا يدل على ضحالة المعرفة باللغة العربية، وربما على الجهل بها وادعاء إتقانها رغم ذلك. بل إن بين الأمثلة القرآنية ذكرا لضرب الرجل لزوجته، ويستحيل أن يفهم من السياق أن المقصود ترك المنزل لها. يقينا أن "الضرب الذى يقع على الشخص أو الشيء" يختلف اختلافا جذريا عن "الضرب فى الأرض".

وهذا ينطبق على الأمثلة الحديثية التالية لاستعمال الفعل: "ضرب" متعديا، والتى لا يمكن أن يفهم منها بحال أنه يعنى "انطلق بعيدا" بمعنى "ضرب فى الأرض" بل كلها بمعنى "ضربه بيده أو كفه أو بعصا أو بسوط وما إلى ذلك: "ليسَ منّا مَن ضَرَبَ الخدُودَ، وشَقَّ الجيُوبَ، ودَعا بدَعْوى الجاهليَّة"، "أنَّ النبى ﷺ ضَرَبَ فى الخمْرِ بالجَرِيدِ والنِّعالِ"، "بمَ يَضْرِبُ أحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الفَحْلِ أوِ العَبْدِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعانِقُها؟"، "وَضَعَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وضُوءًا لِجَنَابَةٍ، فأكْفَأَ بيَمِينِهِ علَى شِمالِهِ مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَلَ فَرْجَهُ، ثُمَّ ضَرَبَ يَدَهُ بالأرْضِ أوِ الحائِطِ مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاثًا"، "بيْنَما رَسولُ اللَّهِ ﷺ جالِسٌ جاءَ يَهُودِى، فقالَ: يا أبَا القاسِمِ، ضَرَبَ وجْهِى رَجُلٌ مِن أصْحابِكَ. فقالَ: مَنْ؟ قالَ: رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ. قالَ: ادْعُوهُ. فقالَ: أضَرَبْتَهُ؟ قالَ: سَمِعْتُهُ بالسُّوقِ يَحْلِفُ: والذى اصْطَفَى مُوسَى على البَشَرِ، قُلتُ: أىْ خَبِيثُ، على مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فأخَذَتْنِى غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وجْهَهُ"، "هكَذا ضَرَبَ إحْدَى كَفَّيْهِ بالأُخْرَى"،

"ضَرَبَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: مَثَلَ البَخيلِ والمُتَصَدِّقِ"، "قارَبَ يومَئذ ابنُ صَيَّادٍ يحْتَلِمُ، فلَمْ يَشْعُرْ بشيءٍ حتّى ضَرَبَ النبي ﷺ ظَهْرَهُ بيدِه، ثُمَّ قالَ النبي ﷺ: أتَشْهَدُ أنّي رَسولُ اللَّهِ؟، فَنَظرَ إليْهِ ابنُ صَيَّاد، فَقالَ: أشْهَدُ أنَّكَ رَسولُ الأُمِّيّينَ"، "فإنْ قَدَرَ عَلَيْكَ ضَرَبَ عُنُقَكَ"، "لا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ"، "كانَ يَضْرِبُ شَعَرُ النبي ﷺ مَنْكِبَيْهِ"، "سَمِعْتُهُ وهو مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ"، "يُضْرَبُ بمِطْرَقَةٍ مِن حَدِيدٍ ضَرْبَةً بيْنَ أُذُنَيْهِ"، "قالَ عُمَرُ: دَعْنِي أضْرِبْ عُنُقَهُ، فإنَّه قدْ نافَقَ". ولو ذهبت تنقب فى الكتاب المقدس على استعمالات "الضرب" المطلق لما وجدت من معانيها "الضرب فى الأرض". ذلك أن هذا المعنى لـ"ضرب" المطلق لا تعرفه العربية. إنه شيء مستحيل. ولاله بختيار ضعيفة ضعفا شائنًا ومَشِيناً فى لسان الضاد. ولا أظنها إلا دخلت الموضوع وفى ذهنها أن تفسر "الضرب" فى سورة "النساء" بالضرب فى الأرض.

وفى قاموس إلياس العربى الإنجليزى نرى صاحبه يترجم الفعل: "ضرب" المتعدى بـ" strike, hit, smite, bang, thrash, drub, ring, pitch, fix, knock, behead, blow, multiply, tax, sting " لا يخرج عن ذلك أبدا. وهذا يصدق على ما فى قاموس "الفرائد الدرية" العربى الإنجليزى، وقاموس وليم طمسن ورتبات العربى الإنجليزى، وقاموس هانز فير العربى الإنجليزى، وقاموس روحى البعلبكى: "المورد" العربى الإنجليزى. ثم كيف تقدم بختيار على ترجمة الفعل: "ضرب" فى سورة "النساء" هذه الترجمة العجيبة الغريبة المضحكة التى تدل على جهل عميق بلغة القرآن، وقد سبقها مترجمون كبار مسلمون وغير مسلمين وعرب وغير عرب ومن البلاد والعصور المختلفة، ولا أحد منهم قد ترجمها على هذا النحو البختيارى الذى يبعث على القهقهة، مثل سيل وألكسندر روس وبِلْ وبالمر ورودويل وس. م. عبد الحميد وميرزا أبو

الفضل ومارمادوك بكثل ومحمد على وعبد الله يوسف على ومالك غلام فريد وعبد المجيد دريابادى وآربرى وتقى الدين الهلالى-محسن خان ومحمد أسد ونعيم يوسف داود وشاكر ومحمود محمد غالى ومحمد عبد الحليم...؟

ثم لو كان الأمر كما تزعم فلماذا لم يعط القرآن للمرأة الحق فى ضرب الرجل الناشز، بمعنى أنها عندما يفشل معه الوعظ والهجران تضربه، أى تترك له الجمل بما حمل وتنطلق مغادرةً البيت؟ كما أنا لم نسمع قط أن الصحابة كانوا عندما ييأسون من صلاح زوجاتهم الناشزات يغادرون المنزل. ثم لقد نسيت السيدة بختيار أن تنبئنا بالمسافة التى لا ينبغى أن يتجاوزها الزوج فى هذه الحالة: أهى ميل أم ميلان أم أكثر؟ وما مدى هذه الكثرة؟ ولأى وقت يبقى خارج البيت؟ أم عليه الاتصال بزوجته ومناشدتها الإذن له بالعودة لأن عصافير بطنه تزقزق وتصيح ولم يعد فى قوس صبره على الجوع منزع؟ كذلك لو كان الأمر كما تقول لما قرّع الرسول عليه السلام الأزواج الذين كانوا يسارعون إلى تأديب نسائهم بالضرب، إذ ما الخطأ فى أن يترك الزوج بيته ويخرج ليشم شوية هواء يروّح بها عن نفسه ويشرب كوب عصير ليمون يروِّق به باله حتى يقرعهم الرسول عليه؟ لقد كان الرسول واضحا حينما دعاهم إلى الرفق بهن والكف عن إيذائهن وعن الضرب عَمَّالًا على بَطَّال، إذ الضرب إنما شُرِع لمن لم يستطع الصبر على زوجته النكدة المغرمة بإشاعة الغم فى محيطها لا ترتاح إلا إذا فعلته دون أن تؤثر فيها الموعظة والمناهدة والخصام وكانت ذات طبع نكد لا يهدأ لها بال إلا إذا خالفت وتمردت دون داع. ولا نكران أن فى النساء من هى على هذه الشاكلة. أما القول بأنه من غير اللائق أن يؤدب الزوج زوجته النكدة فلِمَ بالله عليكم خلق الله جنة ونارا؟ لقد كان سبحانه أولى وأحق وأجدر وأقمن بترك العقاب. ثم متى خلت الدنيا من

المزعجات؟ ولماذا نؤدب أولادنا إن أخطأوا عمدا وأهملوا واجباتهم ولم يرعوا فى تصرفاتهم الخلق الكريم؟ فلنترك إذن كل إنسان وما يعمل ولا نحاول الوقوف فى طريقه ومنعه من إثبات ذاته وممارسة حريته.

بيد أن أمر ضرب المرأة يحتاج مع هذا إلى مزيد توضيح حتى يفهم الإسلام من لم يكونوا يعرفونه هلى حقيقته، إذ لا ينبغى أن يفهم القارئ من كلامنا هنا أننا نحب إهانة النساء. نعم لقد شرع الله تأديب الرجل لزوجته، ولكن أية زوجة تلك التى نزل من أجلها هذا التشريع؟ لا أظن أن المترجمة تستطيع أن تنكر أن هناك زوجات عنيدات ينزعن نحو التمرد والمخالفة لما يقوله الزوج دون أن يكون قد وقع منه ما يدفعها إلى هذا وتستثير كرامته ونخوته، فهذا هو الملاحظ فى بعض النساء على الأقل. فماذا يفعل الزوج فى هذه الحالة؟ إن الأمر أولا بيد الزوجة: فإما أن تقلع عن هذا العناد والتمرد وإما أن تطلب من زوجها أن يسرحها بإحسان. أما أن تظل ترهقه بالعصيان والتشامخ ثم لا تريد أن يقوّمها زوجها فهو أمر لا يمكن فهمه ولا بلعه. كما أن التأديب إنما يمثل الخطوة الثالثة السابقة على الأخيرة فى سلسلة العلاجات التى يستطيع اللجوء إليها قبل الطلاق لا قدر الله، وليست الخطوة الأولى على ما يظن بعض الناس.

وفوق هذا فقد حذر النبى أتباعه من المسارعة إلى ضرب الزوجات أو تجاوز الحد فى ذلك، موضحا أن هذا بوجه عام أمر لا يليق، بمعنى أنه علاج لا ينبغى اللجوء إليه إلا عند الضرورة القصوى حين تنسد كل الأبواب، ولا يعود هناك مفر من ولوجه. وهو فى هذا يجرى على سنة الإسلام فى كل أمر، ألا وهى أنه لا يعطى أحدا صكا على بياض، بل لا بد لكل شىء من ضوابط تحكمه وتنظمه وتُعَادَل فيه الحقوق بالواجبات، والقانونيات بالإنسانيات...

وهكذا. وقد شدد الرسول فى ذلك فقال: "لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد، ثم يجامعها فى آخر اليوم". وقال: "استوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عَوَانٍ عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا"، "أيها الناس، إن النساء عندكم عَوَانٍ أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله". وأوصى بالصبر عليهن وتحمل نزقهن بقدر الإمكان: "إن المرأة خلقت من ضلع. فإن ذهبتَ تقوِّمها كسرتَها، وإن تَدَعْها ففيها أود وبلغة"، "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى. ما أكرم النساءَ إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم"، "اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم. اتقوا الله فى الضعيفين: المرأة الأرملة، والصبى اليتيم". ولم يحدث أنْ ضرب صلى الله عليه وسلم أيا من زوجاته ولو بمسواك. وبالمناسبة فإن هذه الآية تدل بكل قوة على أن من يدعون إلى إهمال السنة والاكتفاء بالقرآن مخطئون خطأ فاحشا شنيعا بشعا، فها هو ذا القرآن يصدر كالعادة حكما عاما فى أمر ما لتأتى السنة فتشرح القضية تفصيلا وتضع الضوابط وتبين المقصد القرآنى الصحيح وكيف ينبغى تطبيق أحكامه. وبالمناسبة أيضا فقوله تعالى: "واضربوهن" ليس المقصد منه إيجاب الضرب بل معناه أنه يجوز فى بعض الحالات ضربهن، ولكن قد يرى الرجل أنه لا ينبغى أن يمد يده على امرأته مهما فعلت، فيتحمل رعونتها وعصيانها ويصبر عليها وينال من الله الأجر والثواب، أو لا يستطيع التعايش معها فيطلقها، أو تخلعه هى وتريح وتستريح. ولا أدرى كيف يستهول المستهولون ضرب الرجل لزوجته ولا يرون فى تنكيد زوجته عليه حياته شيئا يستحق التعليق، وبخاصة أن الإسلام والمروءة يحملانه المسؤولية الكاملة فى إعالة كل أفراد الأسرة وإسعادهم بكل طاقته. والملاحظ أن بختيار تتحدث عن عنف الأزواج المسلمين تجاه زوجاتهم، ولا تذكر أبدا ما هو منتشر فى

المجتمعات الأوربية والأمريكية وغيرها من عنف عنيف تجاه النساء، وكأن الضرب سمة إسلامية لا يعرفها غير المسلمين أبدا مع أننا نقرأ عن هذا الموضوع كثيرا جدا: لا الضرب وحده بل القتل كذلك. المضحك أنها بعد هذا كله ورغم التعسف السخيف الذى اتبعته فى ترجمة "واضربوهن" فقد أنطقها الله الذى أنطق كل شىء وجعلها تنزل على الصواب فترجمت ضرب المرأة فى الآية الرابعة والأربعين من سوة "ص" بـ"strike"، وهذه ترجمة صحيحة تخلو من بهلوانيتها المغثِّية، وذلك حين قال الله لعبده أيوب: "وخذ بيدك ضِغْثًا فاضرب به ولا تحنَثْ" إذ كان قد أقسم ليضربن زوجته حين يراها، فلما رآها وكانت بريئة من التمرد وجحود العشرة أراد الله له أن يبر بقسمه فيضربها كما أقسم ولكن دون ألم أو إهانة فأمره بأن يأخذ حزمة صغيرة من نبات رخو ويضربها به، وتنحل المشكلة. فانظر كيف لم تجد فى نهاية المطاف سوى النزول على الحق ونبذ العناد الجاهل.

وقد ذكرت بختيار فى مقدمة ترجمتها للقرآن أنها أرادت التفسير الصحيح لبعض الآيات المتعلقة بمعاملة المرأة، وخصوصا الآية رقم ٢٦ من سورة "النساء" الخاصة بمراحل تأديب الزوجة الناشز، إذ كانت المرحلة الثالثة هى "واضربوهن"، فطوال أربعة عشر قرنا من الزمن فسر العلماء هذه الآية بأنها تجيز للرجل ضرب زوجته الناشز،مع أن هذا الأمر مخالف مخالفة تامة لتعاليم الإسلام بحسن معاشرة الزوجة، ولتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم الذى طبق القرآن ولم يضرب امرأة قط ولا زوجة، ومخالف لحقوق الإنسان والمرأة خصوصا. وهذا كلام سطحى، فالإسلام حرم قتل البشر، ومع هذا أمر بقتل القاتل وخائن الأمة، كما أنه أمر بمعاملة الصغار بالرحمة والملاطفة، لكنه شرع تأديب العصاة والمعاندين منهم، والإسلام يدعو إلى احترام حرية الآخرين،

لكنه يجيز حبس المعتدين ومصادرة حريتهم... وهكذا. وهذا لا يلغى هذا، اللهم إلا إذا ركبت دماغها وقالت: بل يجب أن تكون المعاملة واحدة فى كل الحالات رغم اختلاف ظروف كل حالة.

لقد اختاروها فى أمريكا اختيارا لتأدية هذه المهمة رغم أنها غير مؤهلة لها لا لغويا ولا فكريا، فليست الدراسات الإسلامية من تخصصها ولا لتخصصها فى الدراسات النفسانية صلة بالإسلام. وهى لم تدرس اللغة العربية الدراسة الكافية ولا تفهم فى أساليبها حتى لتحاجنا بأنها تعتمد على معجم لين فى فهمها للقرآن ولا تذكر حديثا ولا تستعين بما قاله العلماء المتخصصون ولا ترجع إلى أسباب النزول وتكتفى فى كثير من الحالات بالترجمة السطحية التى لا تقول شيئا أو لا تكاد تقول شيئا، وتقع فى أخطاء مضحكة وكارثية. ثم لقد قرأت أنها كلفت بترجمة القرآن ولم تفكر فيها من تلقاء نفسها، وأمدوها بكل ما تحتاج إليه هذه المهمة منفقين عن سعة ودون حساب للمصاريف. ولقد غبر عليها وقت طويل لم نسمع أنها ألفت شيئا ذا بال فى الإسلام. ومن هنا جاءت ترجمتها سطحية حرفية فى كثير جدا من المواضع. وهى تحاول أن تقنعنا بأنها قد تقصَّدت ذلك تقصُّدًا حتى لا تحصر الدين فى نطاق معين بل تتركه مشرع الأبواب على مبادئه العظيمة التى لا تختص بعصر أو مكان دون آخر. ولم تحاول قط أن تضيف إلى الترجمة أية هوامش توضح فيها ما غمض على القارئ جراء إهمال أسباب النزول وربط آيات القرآن بعضها ببعض وربطها بالظروف التى نزلت لمعالجتها أيام النبى وصحابته. والمهم أنها قد أربكت المشهد وزعمت أن علماء الإسلام طوال أربعة عشر قرنا قد فهموا القرآن خطأ إلى أن هل هلالها فألقت عصا فهمها لتلقف ما كانوا يقولون وتقدّم لنا الفهم الصحيح الذى قامت به سيدة ليست على علم كاف لا بالعربية ولا

بالقرآن والعلوم الإسلامية،وبخاصة أن حياتها مملوءة بالمنعرجات والشذوذات والتناقضات: فهى كاثوليكية أولا فى أمريكا، وهى مسلمة بعد ذلك فى إيران، ثم هى فى آخر المطاف أمريكية فى الولايات المتحدة مخلصة لقيم الأمريكان، وتريد أن تقنعنا بأنها إنما تحب نشر مبادئ الدين المحمدى الكريم! وهى غير موفقة فى حياتها وهى صغيرة ولا فى حياتها وهى زوجة انتهى أمرها إلى الطلاق، وهى تلبس كما تلبس الأمريكيات، ثم هى محجبة كما تتحجب المسلمات، ثم هى تخلع حتى غطاء الرأس بحجة أنها كبيرة لا تفتن أحدا. ونحن معها فى موضوع عدم الفتنة هذا، لكن الله أمر النساء، كبيرات كن أم شوابّ، بتغطية الراس والضرب بالخمار على الجيوب، أى فتحات الصدر. أم إن الضرب هنا معناه أيضا أن من لا يعجبه ملبسها فليترك لها البيت بل الولاية بل أمريكا كلها بل الحياة برمتها فتعمل ما تريده براحتها حسب تفسيرها لمعنى "الضرب"؟ وحين نصل إلى قوله تعالى فى الآية الأخيرة من سورة "المزمل": "والذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله"، " and others travel on the earth looking for the grace of God" نلفى أن ترجمة "الضرب فى الأرض" سليمة. فها هى الترجمة تقول ما تعريبه: "والذين يسافرون على الأرض منتظرين نعمة الله". فلماذا هذه الربكة التى أربكتناها إذن؟ ولو كانت ترجمتُها لهذه العبارة قبل ذلك صحيحة لقالت هنا: وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون ترك الجمل بما حمل للزوجة النكدة جريا وراء بدعة النسوية!

والآن سوف أتحول إلى الترجمة ذاتها وأقف عند بعض الأمثلة لنرى مدى توفيق السيدة المترجمة فيها. وستكون وقفتنا الأولى لدن الآية الرابعة والأربعين من سورة "البقرة"، التى تخاطب اليهود وتقرعهم لما هم عليه وفيه

من نفاق: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ..." حيث نجد ترجمتها هكذا: "وأنتم أنفسُكم تَنْسَوْن"، مع أن الآية تقول إنكم تأمرون غيركم بالبر بينما تَنْسَوْن أن تأمروا أنفسكم، بما يعنى أنكم مشغولون فقط بدعوة الآخرين ولا تبالون بتوجيه هذه الدعوة لأنفسكم لا أنكم أنتم أنفسكم تنسون. تنسون ماذا؟ واضح أن المترجمة قد أخطأت فى النحو، فقد ظنت "أنفسكم" تأكيدا لواو الجماعة فى "تنسون" فى حين أنها مفعول به لذلك الفعل، ولهذا كانت منصوبة. ولو كانت تأكيدا لتلك الواو لكانت مرفوعة ولكانت تلك الواو فى هذه الحالة معزَّزة بالضمير المنفصل: "أنتم" مع تغيير تركيب الجملة (هكذا: "وأنتم أنفسُكم تنسَوْن") مع التنبه إلى أن فعل النسيان ليس له مفعول فى هذه الحالة بما يترتب على ذلك من تعميم وركاكة.

وفى قوله تعالى فى الآية الحادية والخمسين من نفس السورة: "ثم اتخذتم العجل"، أى صنعتموه من الذهب ثم عبدتموه، نلفيها قد ترجمتها بما يعنى"أخذتم العجل لأنفسكم": "you took the calf to yourselves". وهى ترجمة خاطئة ومضللة. فمعنى "اتخذتم العجل" اتخذتموه إلها وعبدتموه لا أخذتموه لأنفسكم. أخذوه ممن؟ وصنعوا به ماذا؟ هذه ترجمة سيئة.

خطأ آخر لا يدل فقط على الضعف فى القواعد النحوية والصرفية بل على الجهل بالسياق التاريخى الذى نزلت فيه الآية. فقوله تعالى للمسلمين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا: رَاعِنَا، وَقُولُوا: انْظُرْنَا..." هو تنبيه لهم ألا يستخدموا الفعل: "راعنا" بل يستخدموا الفعل المرادف له: "انظرنا" بمعنى "اهتم بنا وانظر إلينا" لأن اليهود كانوا يستخدمون الفعل الأول لدن مخاطبتهم للرسول وينطقونه على نحو يقصدون به السخرية منه بخبث قاصدين وسمه بالرعونة، أما "انظرنا" فليس فيه فرصة لهم كى يحولوه إلى إساءة له صلى الله عليه وسلم. لكن

المترجمة قد جعلتها "لا تقولوا: انظر إلينا، ولكن قولوا: انتظرنا". وهوكلام لا معنى له فى سياقنا هذا.

كذلك أين "شعائر الله" فى قوله تعالى: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ" من "waymarks of God"، أى "علامات الطريق الإلهية، التى ترجمتها بها السيدة بختيار، وكأننا مسافرون نستعين بِصُوَى الطريق حتى لا نضلّ؟ إن عبارتها عامة ومبهمة وتصدق على كل شىء تقريبا بخلاف "rites, rituals" مثلا. وأين "فإن الله شاكر عليم"، التى تنتهى بها آيتنا من " Responsive Knowing"، ومعناها أنه مستجيب عارف؟ شتان هذه وتلك! إن هذه الطريقة فى الترجمة لا هى ذاتية ولا هى موضوعية بل ترجمة من بعيد وتتسم بالفتور، فضلا عن عدم التحديد فى الكلمة الأولى، ونقص المعنى عن الأصل العربى فى الثانية. ولعل كلمة "Omniscient" هى المطلوبة فى هذا السياق فى مقابل "عليم". ترى هل هناك من يستطيع وصف الله بأنه "شاكر" كما هو الحال هنا، و"شكور" كما فى سورة "فاطر" سوى الإسلام وكتابه؟ الله يشكر عباده؟ ألا إن هذا لعجيب. لكن مترجمتنا اللوذعية التى حلت إشكال أية "فاضربوهن" بعد أربعة عشر قرنا داخ فيها أساطين اللغة والبلاغة والنقد والتفسير وعجزوا عن فهمها وشرحها تترك تلك الكلمة النَّدِيّة بكل ما فيها من رَوْح وريحان وحنان، وحميمية وحب ومودة بين الله وعباده إلى كلمة "مستجيب"!

وفى الآية الأولى من سورة "النساء": "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"،التى ترجمتها د. بختيار على النحو التالى: " And be Godfearing of God through Whom you demand rights of one another and the wombs,

"the rights of blood relations" نراها تترجم "النفس الواحدة" على أنها الرجل، وتترجم "زوجها"، أى زوجة ذلك الرجل. ومؤدى هذا أن المرأة خلقت من الرجل، وبالتالى فهى تابعة له وليست مستقلة عنه. وهذا يعاكس ما تنادى به المترجمة. وأنا أرى أن معنى الآية هو أن الله خلقنا جميعا رجالا ونساء من نفس واحدة، ومن هذه النفس الإنسانية الواحدة خلق زوجها، أى الرجل والمرأة. فـ"الزوج" هنا يراد به الرجل والمرأة جميعا لا المرأة وحدها. ذلك أن كلمة "زوج" فى لغتنا تصدق على الرجل وحده، وعلى المرأة وحدها، وعلى الرجل والمرأة معا. وقد جرت على هذه الترجمة أيضا فى قوله عز شأنه من سورة "الأعراف": "هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...".

أما القول بأن الله قد خلق آدم أولا ثم من آدم خلق حواء، أى من ضلعه، فهو من كلام الإسرائيليات، إذ نقرأ فى الإصحاح الثانى من سفر "التكوين": "٢١فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. ٢٢وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِى أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِى وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِى. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». ٢٤لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٢٥وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ". وهذا التفسير الإسرائيلى لا يعرفه الإسلام.

ثم إن السيدة بختيار تترجم اتقاء الله، الذى تساءلون به والأرحام، بما يعنى "يطلب من خلاله بعضكم من بعض حقوقهم. والواقع أننا لا نطلب من خلال التساؤل بالله بعضنا من بعض حقوقنا فقط بل كل شىء كاسترحام المذنب للضحية للعفو عنه أو طلبنا المساعدة ممن يستطيعها أو تنازل الآخرين

لنا عن بعض حقوقهم أو طلب وساطة إنسان لدى صاحب عمل كى يلحقه بذلك العمل أو استعطاف رجل لامراة كى تقبله زوجا أو مناشدة طالب لأستاذة أن يعيد شرح درس غاب عن حضوره أو استعطاف الزوج زوجته الغاضبة أن تعتبر مصير الأولاد والعشرة ولا تطلب الطلاق أو نصحنا لشخص عزيز علينا أن يرحم نفسه ولا يترك الأحزان تتسلط عليه وتنغص حياته أو طلب شاب من لجنة اختبار أن تعطيه فرصة أخرى ليثبت لها جدارته بالنجاح فى العمل أو التماس شخص من آخر إقراضه مبلغا من المال أو التنبيه على الخادم أن يهتم بنظافة الأطباق أو وعظ الواعظ لمستمعيه أن يراعوا الله فى أوطانهم وفى مصالحهم... إلخ. كما نرى الكاتبة قد ترجمت "الأرحام" على أنها "الأرجام البيولوجية" لا صلات القرابة وإلا فهل نحن حين نقول عن رجل إنه ذو رحم ماسّة نقصد أن له رحما كما للمرأة رحم فى جوفها؟ صحيح أن الرحم فى الأصل هى تلك الرحم البيولوجية، لكن الكلمة اتسعت دلالتها وصارت تعنى أيضا بل تعنى أولا، خارج ميدان الطب، تلك الصلة الاجتماعية والإنسانية. كما أننا، حينما نستحلف شخصا بالرحم التى بيننا وبينه، لا يمكن أن يكون مرادنا هو الرحم الذى تحمل فيه المرأة طفلها وهو جنين لمدة تسعة أشهر، بل صلة القرابة بيننا وبينه. وهذا مفهوم لم يكن يحتاج إلى توضيح. ولكن ماذا نصنع، وقد ألجأتنا المترجمة إلى ذلك؟

وبالنسبة للآية الرابعة والثلاثين: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا" تترجمها د. بختيار هكذا: " Men are supporters of wives because God gave

some of them an advantage over others and because they spent of their wealth. So the females, ones in accord with morality are the females, ones who are morally obligated and the females, ones who guard the unseen of what God kept safe. And those females whose resistance you fear, then admonish them (f) and abandon them (f) in their sleeping places and go away from them (f). Then if they (f) obeyed you, then look not for any way against them (f). Truly, God had been Lofty, Great"، وهو ما يعنى أن الرجال يعضدون النساء ويوفرون لهن حاجاتهن... متجاهلة أمر "القوامة"، أى إدارة شؤون الأسرة، إذ لكل مؤسسة أو جماعة كبير أو رئيس. حتى فى الجماعات الحيوانية نجد الرئيس. فكيف يراد منا أن نتجاهل هذا الوضع الذى تقوم عليه المجتمعات والدول والطوائف والنقابات والأحزاب ولا يمكنها أن تسير أمورها عشوائيا دون كبير يضبط الأوضاع مع معاونيه؟ ثم إذا كان الرجل يعضد المرأة ويوفر لها حاجاتها وبماله، فضلا عن أفضليته عليها كما تقول الآية، فكيف نتجاهل تلك القوامة؟ والثانية أن المترجمة قد وضعت الـ"wives" إزاء "النساء"، وهذه ليست الترجمة التى وعدتنا بها فى المقدمة. ذلك أن الرجل والمرأة قد يكونان زوجا وزوجة أو أخا وأختا أو أبا وبنتا لا زوجا وزوجة فقط. كما ترجمت "واضربوهن" بـ"ابتعدوا عنهن". والحمد لله أنها لم تقل: "ابتعدوا عنهن، وإياكم أن تكدروا عليهن مزاجهن أو تعودوا إلى البيت بل اتركوه لهن. هذه نصيحة لكم، وإلا أصابكم من نكدها الكثير". ولأنى قد سبق أن ناقشت هذه النقطة من قبل فلا داعى للإعادة. لكنى أحب أن ألفت انتباه القارئ إلى أن د. بختيار ترجمت "نشوزهن" بـ"مقاومتهن". وهذه غير ذاك، فما أكثر ما تكون المقاومة

مطلوبة ومحمودة، أما النشوز فهو التطاول على الزوج واللجاج فى العصيان والخروج على ما يجب أن يكون بين المرأة ورجلها من مودة وتفاهم، علاوة على ما ينبغى أن تراعيه المرأة تجاه قوَّامها من طاعة ما دامت هذه الطاعة لا تمس الحقوق ولا الكرامة ولا المنطق ولا المعروف.

ولسوف أقف من هذه السورة على وصف القرآن لليهود بأنهم كافرون: "بل لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا". وواضح تمام الوضوح أن "الكفر" هنا هو التكذيب بالإسلام وكتابه ونبيه. فهكذا يقول السياق بكل قوة، وهكذا تقول آيات القرآن مرارا وتكرارا، وهكذا يقول الطباق بين الكفر والإيمان فى الآية، إذ وصمتهم بالكفر ونفت عنهم الإيمان إلا قليلا منهم. لكن المترجمة أبت أن تترجم الكفر فيها إلا بجحود النعمة. إن أمر اليهود إزاء الإسلام لم يكن أمر جحود نعمة بل كفرا. إن أى شخص يرفض دينا من الأديان ولا يصدق بالنبي الذى أتى به هو كافر بذلك الدين. فلم هذا التحسس والتوجس؟ إن اليهود والنصارى يرون أننا كفار بما هم عليه من دين، وهم أحرار تماما فى ذلك، ولو كتب لواحد من المسلمين أن يترجم كتبهم فالواجب عليه أن يحافظ على نصوص تلك الكتب كما هى، وفى الهامش مندوحة واسعة ليقول ما يريد إذا كان يريد أن يقول. أَوَبَعْدَ أن يقول الله عنهم إنهم حرفوا كتبهم عن مواضعها ويستهزئون بالنبى وما يقوله لهم ويَقْرِفُونه بالرعونة فى تلاعب بالألفاظ خبيث ويَدْعُون عليه بأن يَصَمَّ، يأتى بعضنا فيتنطس وينساق مع أحاسيس قلبه الرهيف كذبا ويصعب عليه أن يحكم عليهم بحكم ربهم؟ لقد حكم عليهم كتابهم ذاته بالكفر وما هو أشد من الكفر، وقال الله فى حقهم، فى ذلك الكتاب، كلاما فى غاية العنف شبههم فيها بالمومس التى تتصدى للناس على قارعة الطريق وتكشف لهم عن سوأتها كى توقعهم فى حبائلها، بل

قال فى سليمان نفسه أشنع من الكفر، فلِمَ نظل نراوح مكاننا ونهرش جسدنا ونخشى أن نؤدى كلمة الله فيهم؟

ثم كيف تنسى أو تتناسى المترجمة أن الحياة قائمة على التصنيفات والتقسيمات والمصطلحات: فهذا مصرى، وذاك فارسى، وذلك بريطانى أو أمريكى مثلا، وهذا مدرس، وذاك صحفى، وذلك مهندس، وهذاك أمير، وهذا لص، وذاك قاتل محترف، وذلك قواد، وتلك مومس؟ ومرة أخرى فإن مصطلح "كافر" ذو وجهين، فمن لا يؤمن بدينى فهو كافر، وأنا يا من لا أومن بدينه كافر أيضا من وجهة نظره. ثم إن الأمريكان والأوربيين وحتى الصهاينة اللصوص سارقى الأوطان يصفوننا بأننا "حيوانات بشرية". فلماذا يا سيدتى تستكثرين علينا أن نذكر حكم الله فى من لا يؤمن بدينه تعالى ونقول، كما قال فيهم سبحانه، إنهم كفار؟ والغريب أن من ركبت دماغها فطمست كلمة "الكفار" من القرآن الكريم وترجمتها بـ"منكرى النعمة" قد استعملت (فى هامش الآية الأولى من سورة "القمر") لترجمة كلمة "كفار" قريش (الواردة فى "مفردات" الراغب الأصفهانى) بـ"unbeliever". أترى كل ما يهمها هو طمس الكلمة من القرآن وحسب لأنه هو المطلوب؟

وهى تترجم الآية الحادية والخمسين من سورة "النساء": "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا" هكذا: " Hast thou not considered those who were given a share of the Book? They believe in false gods and false deities and they say to those who were ungrateful: These are better guided than those who believed in the way". ونلاحظ أنها ترجمت "يقولون للذين كفروا:..." حرفيا، إذ

جعلت الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يخاطبون الذين كفروا... غير مدركة أن "اللام" هنا تعنى "عن". أى أنهم يتحدثون عن الذين كفروا لا إليهم. لقد قالوا إن عبدة الأوثان أفضل من محمد دينا. وهذه السمة الأسلوبية قد تكررت عدة مرات فى القرآن الكريم، إذ يستعمل عبارة "قال لـ" بمعنى "قال عن": "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" (الأحقاف/ ٧)، "وقال الذين كفروا للذين آمنوا: لو كان خيرا ما سبقونا إليه". ويقابلنا أيضا فى قوله سبحانه: "وإذا قيل لهم: أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا (أى عنهم): أَنُطْعِم من لو يشاء الله أَطْعَمَه؟" (يس/ ٤٧)، وفى قوله جل وعلا: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ (أى عن الحق) لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" (سبأ/ ٤٣)، وفى قول موسى لمن اتهموه بأنه ساحر: "قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم؟ أسحرٌ هذا، ولا يفلح الساحرون؟" (يونس/ ٧٧)، وفى قوله: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (أى عن الذين كفروا) هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا "(النساء/ ٥١)، وفى قول المنافقين عمن قُتِل من إخوانهم فى أُحُد: "الذين قالوا لإخوانهم (عن إخوانهم) وقعدوا: لو أطاعونا ما قُتِلوا" (آل عمران/١٦٨)". لكن السيدة المترجمة ليست على شىء فى اللغة وقواعدها. لقد رجعتْ إلى الترجمات السابقة وأخذت منها، وحينما أرادت أن تضيف لمسة من رأسها وقعت فى شر أعمالها.

والذين كفروا فى الآية هم كفار قريش، لكن المترجمة استعملت الكلمة الإنجليزية التى تعنى "منكرى النعمة"، فميعت الأمور تمييعا سخيفا. وزاد الطين بلة ترجمتُها لـ"هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا" على النحو الآتى: "هؤلاء (أى الذين كفروا) أفضل هدى من الذين آمنوا بالسبيل". ولا أعرف من

أى واد أتت بـ"آمنوا بالسبيل" هذه. إنها تظن أن "سبيلا" مفعول به لـ"آمنوا" (إذ توهمت أن "آمنوا سبيلا" معناها أنهم آمنوا بالسبيل) فى حين أن "سبيلا" تمييز. أى أن سبيل الكفار، أو فلنقل: دينهم، أهدى من سبيل المسلمين طبقا لما افتراه اليهود حين قصدوا مكة يؤلبونها على النبى فى المدينة، وقد كذبوا ونافقوا تزلفا للمشركين حتى يستجيبوا لهم فى تجميع الأحزاب والهجوم بهم على يثرب لاستئصال شأفة التوحيد والتخلص من محمد عليه السلام.

وعند حكمه سبحانه فى سورة "المائدة" بالكفر على من يقولون إن الله هو المسيح بن مريم تنبرى مترجمتنا فتلوى المعنى إلى أنهم "جاحدو نعمة" لا كفار. فأى عناد هذا؟ الله يقول بكل وضوح وسطوع وتألق وشفافية: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، فتأتى لاله بختيار وتقول: لا. ليسوا كافرين بل منكرى جميل. وهى بذلك قد انضمت إلى زمرة من يحرفون الكلم عن مواضعه.

ولننظر فى بقية الآية وما فيها من تهديد مزلزل ونسأل أنفسنا: أهذا جواب السماء على مجرد إنكار نعمة؟ إن السورة تفيض بتكفير من يرفض دين محمد رغم وضوح صدقه عليه السلام وتجرده عن أية غاية شخصية أو أسرية من دعوته وسمو أخلاقه وكرم خصاله وسموق نفسه، والتزامه تماما بالقيم والمبادئ التى دعا إليها. لكن لاله بختيار تتعامى عن هذا كله وتقول: ليس هناك كفر بل إنكار جميل ليس إلا.

وهذه بعض الآيات التى تتحدث عن ذلك الكفر بكل سطوع: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا

اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"، "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ"، "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". ولا ينبغى أن ننسى أبدا أن القرآن كثيرا ما يضع الإيمان والكفر متواجهين بوصفهما مفهومين واعتقادين وموقفين متناقضين بما يعنى أن الكفر هو عدم الإيمان بمحمد عليه السلام وبدين التوحيد النقى الصافى الذى حمله للبشرية: الكفر وليس نكران الجميل!

وفى القرآن نقرأ قوله عز من قائل: "يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ " (النحل/ ٨٣) حيث نرى إنكار النعمة والكفر مستقلا كلاهما عن الآخر بما يعنى أن هذا شىء، وذاك شىء آخر.

وكثيرا ما يستخدم الأسلوب القرآنى عند حديثه عن صفات الله الفعل: "كان": "كان الله غفورا رحيما، كان الله عزيزا حكيما، كان الله لطيفا

خبيرا..."، فتترجمه بختيار هكذا: " God had been doing\ One Who does God had been" مستخدمة الماضى البعيد مع أن صيغة الماضى العربى فى الآية هنا معناها "الأزلية الأبدية" لا أنه جل جلاله كان كذلك ثم لم يعد، أو كان كذلك حتى الآن. إننا حين نقول: "الشمس تطلع من الشرق، وتغيب فى الغرب" فإننا نقصد أن الأمر هو هكذا على الدوام، ولا نقصد أنه هكذا الآن وحسب. لكن الله سبحانه كثيرا ما يستخدم الماضى، كما قلت، للتعبير عن صفاته، والمعنى أنه هكذا على الدوام من الأزل إلى الأبد، ومعروف أنه ليس للأزل بداية ولا للأبد نهاية. أتراها أرادت أن تهرب من خطإ قرائها الناطقين بالإنجليزية فى فهم العبارات التى من هذا النوع ويظنوا أنه جل شأنه كان هكذا فى الماضى، أما الحاضر فلا ننشغل به؟ لكن المترجمين الذين رجعت إليهم، وفيهم مسلمون وغير مسلمين، قد استعملوا الماضى دون خوف من عدم الفهم. وطبقا لذاكرتى لا أتذكر أن أحدا فهم هذا الكلام خطأ ممن أعرف من المسلمين أو سواهم ما خلا ناشطا مسلم الديانة رسميا كتب على المشباك (الإنترنت) مقالا اتخذ فيه من هذا التركيب تكأة لتخطئة القرآن. ألم يقرأ شعر ابن أبى ربيعة الشاعر الأموى الشهير فى حبيبته حين غمزتها صاحبة لها فى جمالها عندما سألت من حولها عما إذا كان ابن ربيعة صادقا فى نعتها بالحسن أو لا:

زَعَموها سَأَلَت جاراتِها وَتَعَرَّت ذاتَ يَومٍ تَبتَرِدْ:
أَكَما يَنعَتُنى تُبصِرنَنى عَمْرَكُنَّ اللَهَ أَم لا يَقتَصِدْ؟
فَتَضاحَكنَ وَقَد قُلنَ لَها: حَسَنٌ فى كُلِّ عَينٍ مَن تَوَد
حَسَدٌ حُمِّلنَهُ مِن أَجلِها وَقَديمًا كانَ فى الناسِ الحَسَد

وأذكر أنى قرأت هذا البيت فى كتاب العقاد: "شاعر الغزل"، وأنا صبى لا عهد لى بهذا الشاعر وأسلوبه مع أنى كنت أحفظ القرآن ولا أخطئ فهم "كان الله كذا وكذا وكذا"، ولكنى استغربت تعبير عمر بـ"كان" ظنا منى أن الحسد فى رأيه كان موجودا فى الماضى ولم يعد، وسر الاستغراب هو معرفتى بأن الحسد ما فتئ يسكن القلوب ويتمدد على راحته فيها. ولكن ماذا تقول فى قلة العلم والبصر بالكلام البليغ؟

ورغم تأكيدها فى مقدمة كتابها أنها حريصة فى ترجمتها على الالتصاق بالنص وتؤثر الترجمة الموضوعية على الترجمة المجازية نراها فى أحيان كثيرة لاتلتزم بذلك. مثال هذا ترجمتها لقوله تعالى كلمة "العذاب" و"ما لكم من زوال" فى ترجمة الآية ٤٤ من سورة "إبراهيم": "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ" على هذاالنحو: " Warn the people of a day when punishment will come upon them, and the wrongdoers will say, “Our Lord, give us respite for a short term, and we will respond to Your call and will follow the messengers.” (Allah will say), “Is it not that you had sworn oaths earlier that you would not have to leave (the world)؟". فكما نرى قد ترجمت "العذاب" بما يعنى "العقاب" مع أن العقاب قد يكون شيئا هينا كالتقريع والضرب بالعصا أو الحرمان من الطعام مثلا بينما العذاب شىء آخر. كما أن الكفار لم يزعموا يوما أنهم لن يرحلوا عن الدنيا، وإنما الزوال هنا هو أنهم لن يزولوا عن قبورهم ولن يبعثوا من ثم.

ومن هذا الباب ترجمتها لقول رب العزة حكايةً عن الكفار وعنادهم: "وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ *... وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" لا على أساس أن عيونهم، حسب زعمهم، أصابها السُّكْر أو أغلقت فلم يستطيعوا التحقق من علامات صدق محمد، بل على أساس أنها قد أصابها "البُهْر: dazzled" (من شدة النور فلم تستطع التحديق فى شىء للتحقق منه). ولو كانت السيدة المترجمة التصقت، كما وعدتنا، بمعنى كلمة "سُكِّرَتْ" كما تنص عليه المعاجم وكتب التفسير لما غمض معناها على القارئ. ومع ذلك فأحيانا نجدها على العكس من هذا تلتزم بالترجمة الحرفية التى نحس أنها ترجمة قلقة ولا يستطيع القارئ الناطق بالإنجليزية أن يلتقط معناها.

وفى ترجمة قوله تعالى من سورة "الحجر" عن مدينة قوم لوط الشاذين بعدما أخبرنا بانقلابها عاليا على سافل: "وإنها (أى المدينة) لبسبيل مقيم"، أى ما برحت أطلالها باقية على طريقهم يمرون عليها فى أسفارهم ويرونها، تقول لاله بختيار: "And, truly, they are ones who are on an abiding way: وإنهم هم الناس الذين على طريق باق"، محولةً الكلام إلى البشر لا إلى المدينة مع أن البشر قد انتهى أمرهم وهلكوا فى الزمان البعيد ولم يعد لهم وجود لا فى الطريق الباقى ولا غير الباقى ولا فى أى مكان بعدما صاروا ترابا تذروه الرياح، وإنما الباقى هو أطلال المدينة المدمرة. كما أن العبارة ركيكة حتى لو غضضنا الطرف عن الخطإ فى فهم النص.

أما فى سورة "النحل" فتترجم السيدة الكاتبة قوله سبحانه: "وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا" إلى " And He it

is Who caused the sea to be subservient to you so that you "eat from it succulent flesh and pull out of it glitter to wear واصفة "اللحم" بأنه "succulent"، وهى صفة تستخدم للفواكه عادة، إذ تدل على كثرة العصارة وحلاوتها، أما اللحم فيستخدمون له فى مثل هذه الحالة الصفة: "tender"، وقد يضيفون إليها "fresh". كذلك نجدها تترجم "الحلية" بـ"glitter"، ومعناها "البريق واللمعان". وحتى لو كانت تشير إلى الحلية فهى الحلية البراقة الرخيصة. وعلى أية حال من قال إن "الحلىّ" براقة دائما؟ وكان يمكنها استعمال "ornaments" أو "gems" أو "jewelleries" مثلا. وقد فعلت الشىء ذاته لدن ترجمةالآية١٢ من سورة "فاطر".

وفى "النحل" أيضا تترجم لاله بختيار "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ" إلى " And God made for you shade out of what He created and made for you the mountains as a refuges in the time of need and has made for you tunics to protect you from the heat and tunics to protect you from your violence". و"السرابيل" جمع سربال، وهو رداء مصنوع من القماش. ومن ثم فمن الممكن استعماله فى سياق الحماية من الحر، لكنه لا يصلح للحرب لاتقاء الضرب والطعن، وإنما الذى يصح لذلك هو الحديد. بيد أننا نفاجأ بها تستخدم الـ"tunic" لاتقاء الحر والبأس جميعا، إذ ظنت أن "البأس" هنا هو العنف. وحتى لو كان هو العنف فهل الرداء يحمينا من العنف؟ البأس فى الواقع هو الحرب، ومما يؤكد هذا قوله تعالى فى سورة"الأنبياء" عن داود عليه السلام: "وعلّمناه صنعة لَبُوسٍ لكم لتُحْصِنكم من

بأسكم"، ومعروف أن داود كان يصنع الدروع ويحكم سردها. وفى سورة "الأحزاب" عن المنافقين: "ولا يأتون البأس إلا قليلا"، أى لا يشتركون مع سائر المسلمين فى حرب الأحزاب آنذاك. فـ"البأس" هو الحرب. وعليه فالسرابيل هى ملابس الحرب وليست ملابس الحياة اليومية. ترى كيف فاتها ذلك؟ كذلك نراها أفردت "الظل" بينما الآية تقول: "ظلالا". لا أقول إن المترجمة أخطأت بل أقصد أنها فارقت النص فى هذه الجزئية دون داع، مخالفت التزامها الذى أعلنته فى مقدمة كتابها، فضلا عن أن "الظل"، وإن أمكن القول بأنه هنا يدل على الجنس لا على ظل بعينه مفرد، هو أنواع لا نوع واحد، ومن ثم كانت "الظلال" أحرى بالاستعمال لكونها تشير مباشرة إلى ذلك التعدد، وهو ما تقصد إليه الآية. فالظل قد يكون ظل شجرة، وقد يكون ظل بيت، وقد يكون ظل شمسية، وقد يكون ظل سحابة، وقد يكون ظل مغارة، وقد يكون ظل حائط، وقد يكون ظل إنسان، وقد يكون ظل سقف فى الشارع أو فى السوق، وقد يكون ظلا شاملا حين يحل الظلام فيكون الظل ظل الابتعاد عن مواجهة الشمس تماما لساعات...

مثال آخر من نفس السورة، فقد قالت السيدة المترجمة فى قوله تعالى ناهيا المسلمين عن نقض العهود التى لهم مع هذه القبيلة أو تلك وعقدها مع قبيلة أخرى أكثر عددا وأقوى عدة: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" ما يلى: " And be not like she who would break what she spun after firming its fibers by taking to yourselves your oaths in mutual deceit among yourselves so that one community be one that is

swelling more than another community. God tries you but by this. And He will make manifest to you on the Day of Resurrection about what you had been at variance in it". ومن الواضح أن الترجمة حرفية مغرقة فى الحرفية، فقد ترجمت " تتخذون أيمانكم دخلا بينكم" بـ" taking to yourselves your oaths in mutual deceit among yourselves". و"الاتخاذ" غير "الأخذ". فأنت حين تتخذ شيئا فالمراد أنك تستعمله أو تصيّره وتجعله كذا وكذا... أما الأخذ فشيء آخر. كذلك نراها ترجمت "أَرْبَى" بـ"swelling more than"، وكأن الرُّبُوّ هنا هو الانتفاخ والتورم والتضخم وليس كثرة العدد وقوة العتاد. إنه الزيادة والعلو لا الانتفاخ. ومنه قوله تعالى فى سورة "الروم": "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ "، وقول النابغة الذبيانى عن هن زوجة النعمان بن المنذر، إن كان قاله: "رابِى المجسّةِ حَشْوُه وَقْدُ".

أما الربوّ بمعنى الانتفاخ والتورم أو ما يشبهه فهو ما حدث لعائشة رضى الله عنها فى الحديث التالى حين أخذت تجرى حتى لا يلحق بها النبى ويعرف أنها هى. ولنسمع القصة من فمها هى: "قالَتْ: أَلا أُحَدِّثُكُمْ عَنِ النَّبى ﷺ وَعَنّى؟... قُلْنا: بَلَى. قالَتْ: لَمّا كانَتْ لَيْلَتى الَّتى كانَ النَّبى ﷺ فِيها عِندى انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِداءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُما عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزارِهِ على فِراشِهِ، فاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلّا رَيْثَما ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فأَخَذَ رِداءَهُ رُوَيْدًا، وانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ البابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِى فى رَأْسِى، واخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إزارِى، ثُمَّ انْطَلَقْتُ على إِثْرِهِ، حتّى جاءَ البَقِيعَ فَقامَ، فأطالَ القِيامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلاثَ مَرّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ

فأسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فهرْوَلْتُ، فأحْضَرَ فأحْضَرْتُ، فسبَقْتُه فدَخَلْتُ، فليسَ إلّا أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ، فقَالَ: ما لَكِ يا عائِشُ؟ حَشْيَا رابِيَةً؟ قالَتْ: قُلتُ: لا شَيءَ، قالَ: لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الخَبِيرُ، قالَتْ: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، بأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فأَخْبَرْتُه، قالَ: فأنْتِ السَّوادُ الذى رَأَيْتُ أَمامِى؟ قُلتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِى فى صَدْرِى لَهْدَةً أَوْجعتْنِى، ثُمَّ قالَ: أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكِ وَرَسولُه؟ قالَتْ: مَهْما يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، نَعَمْ. قالَ: فإنَّ جِبْرِيلَ أَتانِى حِينَ رَأَيْتِ، فَنادانِى، فأَخْفاهُ مِنْكِ، فأَجَبْتُه، فأَخْفَيْتُه مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِى، فَقالَ: إنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِىَ أَهْلَ البَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لهمْ. قالَتْ: قُلتُ: كيفَ أَقُولُ لهمْ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: قُولِى: السَّلامُ على أَهْلِ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنّا والْمُسْتأْخِرِينَ، وإنّا إنْ شاءَ اللَّه بكُمْ لَلاحِقُونَ". والشاهد فى الحديث على ما نحن فيه هو قوله عليه السلام: "حَشْيا رابِيَة"، أى متهيجة الأنفاس مرتفعة الصدر جراء جريها وتلاحق أنفاسها. وكان بمكنة مترجمتنا أن تقول فى "أَرْبَى": "more numerous" كما قال مترجمون آخرون، وإن كان الرُّبُوّ فى القبائل والجماعات البشرية أوسع من أن ينحصر فى كثرة العدد.

وعند الآية١٠٦ من سورتنا هذه نراها تترجمها على هذا النحو: Whoever disbelieved in God after his belief—other than " whoever was compelled to do it against his will while his heart is one that is at peace in belief— but whoever's breast expanded to disbelief, on them is the anger of God and for them is a serious punishment". وأول شىء أنها ذكرت فى ترجمتها

"الكفر" صراحة مرتين: اسما وفعلا دون لف أو دوران، فقالت: "disbelief" و"disbelieved". والسؤال هو: ما دمتِ استخدمتِ الفعل: "كَفَرَ" والاسم: "كُفْر" فلِمَ نراكِ عندما يتحدث القرآن عمن لا يؤمن بالإسلام ويرفض القرآنَ والنبيَّ الذى كُلِّف توصيله للناس ترفضين أن تقولى عنه أو عنهم: "كافر، كفار، كافرون (unbeliever/s)"؟ شىء عجيب. ترى لماذا لا تريدين استخدام اسم الفاعل من ذلك الفعل؟ أإلى هذا الحد يتم التلاعب بآيات الله بحيث لا تمس الغربيين والأمريكان والصهاينة ولا يشعر المسلم تجاههم بأية غضاضة ولا يقول إنهم سيدخلون النار؟ وثم نقطة ثانية، إذ ترجمتِ "عذاب عظيم" بما معناه "عقاب جاد". وقد سبق أن قلنا إن"العقاب" غير "العذاب" وأقل منه كثيرا جدا. كما أن "الجادّ" أقل كثيرا من "العظيم". وفوق هذا فإن ترجمة الآية تفتقر إلى السلالة والانسيابية، علاوة على جفافها وتخشبها فى "شرح بالكفر صدرا"، أى كان سعيدا منشرح الصدر بالكفر لا ضائقا به ولا مكرها عليه، إذ قالت إنه قد "اتسع صدره للكفر". وشتان بين هذا وذاك.

ومن "النحل" إلى الإسراء، وفيها نقرأ "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ (يا رسول الله) جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا"، وقد ترجمت الكاتبة "الحجاب المستور" بحاجز يمنعهم عن الرؤية. ولا أظنها وفقت فى ذلك، إذ الحجاب المستور هو حجاب العقل والقلب وغياب الرغبة فى الوصول إلى الحق. فهم يسمعونه عليه السلام ويرونه دون أى حاجز يمنع سماع صوته أو رؤية شخصه. وإذن فالقول بأن هذا الحاجز يمنع رؤية الكفار له هو قول فاسد. والآية التالية تؤكد ما نقول: "وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا". الخلاصة

أن المسألة هنا مسألة نفور نفسى وعقلى وصدود عن القرآن وعن سماعه وعن رؤية الرسول وهو يدعوهم به إلى الإسلام.

وفى حديث فتية الكهف فى السورة المسماة بهذا الاسم تترجم السيدة بختيار: "سنين عددا"، تلك التى قضاها الشبان نائمين لا يشعرون بشىء، بـ" a number of years"، أى عددا من السنين. وهو تعبير يدل على أنه عدد محدود. أما "سنين عددا" فتدل على الكثرة. ذلك أن معناها سنون تحتاج إلى أن تعد وتحصى. وهذا طبيعى، إذ المدة التى قضوها فى الكهف نائمين، حسبما يذكر القرآن بعد قليل، هى ثلاثمائة وتسع من السنين. ولا يقال عن ٣٠٩ سنوات إنها عدد من السنين، بل سنوات عدد، أى ذات عدد يحتاج إلى عد وإحصاء.

ومن سورة "مريم" نتوقف لدن قوله جل شأنه عن حال المشركين يوم القيامة: "أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"، فقد ترجمتها لاله بختيار بـ" Hear well and perceive well. On that Day they will approach Us, but today the ones who are unjust are in a clear wandering astray". وهى ترجمة فاسدة فسادا شديدا: فأولا من الواضح أنها لم تفهم معنى "أبصِر بهم وأسمِع"، وظنته "اسْمَعْ وانظُرْ". ويبدو أنها حسبت أن الجملة تخاطب الرسول، وتقول له: "تعال اسمعهم وانظرهم (أى يوم القيامة)". والمعنى أن المشركين الذى كانوا صما عميا هنا فى الدنيا، بمعنى أنهم لم يكونوا يريدون أن يسمعوا ما يقوله الرسول عليه السلام ولا أن يروا وجه الحقيقة والصواب فى دعوته، سوف يتغيرون يوم القيامة فيكون سمعهم حادا وبصرهم فى غاية القوة. وتسمى صيغتا "ما أفعله، أَفْعِلْ به" صيغتى التعجب، وطبعا نحن نتعجب حينما نرى الشخص

مبرِّزا أو متفوقا على أقرانه فى شيء بحيث يلفت الانتباه إليه. وكان لى زميل فى شبابى الأول أكبر منى بعدة سنوات يفهم هذا التركيب على أساس أن معناه هو: "اسمعهم وأبصرهم". وكان ذكيا ومتفوقا لكنى لا أدرى كيف فاته المعنى الصحيح. والعجب من لاله بختيار أنها فى ترجمة عبارة "أسمع به وأبصر" فى سورة "الكهف" قد فهمت العبارة فهما معقولا. وكدت ألا أقف عند نفس التركيب فى آيتنا هذه حسبانا منى أنها سوف تترجمه ترجمة صائبة مثلما صنعت مع عبارة سورة،"الكهف"، وبخاصة أن المسافة بين العبارتين عدة صفحات ليس إلا بحيث يصعب القول بأنها قد نسيت ما كتبته هناك. لكن شيطانى الذهنى قال لى: وهل ستخسرشيئا لو توقفت عند هذه الآية؟ فلربما ارتبكت المترجمة فى فهمها لأن التركيب هناك كان بصيغة التعجب المفردة، أما هنا فالصيغة للجمع، وكسب شيطانى الرهان، وسقطت المترجمة فى الفخ.

شيء آخر أخطأت فيه لاله بختيار، ألا وهو أنها فَصَلَتْ عبارة "يوم يأتوننا" عن عبارة "أسمِعْ بهم وأبصِرْ"، فقالت ما معناه أن المشركين "فى ذلك اليوم سوف يأتوننا". وليس هذا هو ما تقوله الآية بل تقول: ما أَحَدّ سمعهم وما أَقْوَى بصرهم فى ذلك اليوم الذى يقفون فيه أمام الديان. وأرجو بهذا أن أكون قد وضحت وجه الفساد فى ترجمة السيدة بختيار لهذه الآية الكريمة.

وفى سورة "طه" تترجم د. لاله بختيار "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" بما معناه "لم ننزل عليك القرآن لتيأس: We caused not the Quran to descend to thee that thee be in despair". ترى لماذا تحوَّل فى ترجمتها الشقاء إلى يأس؟ إن كان لدى أحد القراء الكرام جواب على سؤالى فليوافنى به، وله الأجر والمثوبة من رب العباد.

ثم إن سيادتها لم تنتظر ولو لحيظة بل عاجلتنا بداهية من الدواهى العظام، وهو ما لا أدرى كيف طاوعها ضميرها الاعتقادى على فعله، إذ نقلت قوله جل جلاله فى صدر سورة "طه"، وهو نفسه ما فعلته مع الآية ٥٤ من سورة "الأعراف" والآية الثانية من سورة "الرعد": "الرحمن على العرش استوى" إلى لغة جونبول كالآتى: " The Merciful turned His attention to the Throne". فهل "الاستواء على شىء" معناه الانتباه له؟ هذه واحدة، والثانية ما مغزى أن نقول إن الله انتبه إلى العرش، أو بنص تعبيرها: حول انتباهه إليه؟ أكان مشغولا بشىء آخر ثم انتبه إليه بعد أن لم يكن منتبها؟ ألا إن هذا لعجيب جد عجيب! إن الله كلى العلم والإدراك والقيومية لا يشغله شىء عن شىء. إن د. بختيار وإياى وأى واحد غيرنا من البشر أو من المخلوقات التى عندها وعى وإدراك لا يمكن أن ننشغل بشيئين اثنين، ودعك مما هو أكبر من ذلك، فى ذات الوقت. ذلك أنه "ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه" كما تقول سورة "الأحزاب". أما رب العالمين فهو يستوعب كل مخلوقاته من جمادات وأفكار ومشاعر وبشر وملائكة وجن وأشعة وموجات وهواء وأثير جميعا على طول الزمان والمكان وعرضهما بل يستوعب الأزل والأبد فى ذات الوقت، إن صح استخدام الوقت فى سياق الحديث عن الله جل وعلا. فقول المترجمة إن الرحمن قد حول انتباهه إلى العرش هو كلام لا يصح ولا يليق ولا يتصور، وإلا ما كان سبحانه إلها. ومن الأقوال الشهيرة بين العلماء أنه سبحانه لا يشغله شىء عن شىء.

وفى هذا السياق أذكر أن د. حسن حنفى كان يقول لنا فى محاضرات الفلسفة الإسلامية ونحن شباب بالجامعة إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، فكنت أرد مستغربا: وما الفرق إذن بينه وبين أى حاكم، فالحاكم يعلم

الخطوط العامة لإدارة الدولة بينما المخابرات والمباحث وبقية إدارات مؤسسات تلك الدولة تعلم الجزئيات وتمده بما يحتاجه منها عند اللزوم؟ ونعود إلى ترجمتها لتلك الآية مرة أخرى ونتساءل: هل، حين كانت تترجم الآية، كان يشغلها اختلاف علماء الدين حول موضوع استواء الله على عرشه وهل ينبغى تأويله أم هل ينبغى الإبقاء عليه كما هو مع تفويض علمه عند الله؟ إنها لم تترجم الفعل: "يستوى" حرفيا، ولا ترجمته تأويليا بل اختارت معنى لا صلة بينه وبين الاستواء، علاوة على كونه غير لائق فى حق الله تعالى. أما أنا فقد أفهمه على أنه إشارة إلى سلطانه على المخلوقات حين خلقها فبرزت من العدم إلى الوجود. والله أعلى وأعلم.

ولدن قوله تعالى فى سورة "الأنبياء" عن ذى النون حينما التقمه الحوت، "فنادى فى الظلمات ألا إله إلا أنت سبحانك" نراها تترجم "الظلمات" بـ" the shadows" وليس "the darkness" كما ترجمها الثمانية مترجمين الآخرون الذين رجعت إليهم للمقارنة بينهم وبينها. لم فعلت ذلك؟ علم ذلك عند علام الغيوب!

وبعد ذلك بقليل نجد لاله بختيار قد ترجمت قول الحق عز وجل: "وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِى شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا" هكذا: " And the true promise will be near. That is when the sight will be that which fixed in horror of those who were ungrateful! O woe to us. Surely, we had been in heedlessness of this. Nay! We had been ones who were unjust". وأرى أن "truthful" ربما تكون أفضل من "true". كما أن تحويل الماضى: "اقترب" إلى "سيقترب" أو "سيكون قريبا" يبدو غريبا جدا غير مستساغ، ويبتعد عن القرآن، ولعلها لو قالت: " is

"approaching, has approached" مثلا لكان أحسن وأسلس وأقرب إلى الأصل وأدل على المراد. كذلك كان من الأحسن لو قالت فى ترجمة "إذا" الفجائية إلى "lo and behold" أو أية عبارة أو لفظة شبيهة تفيد الفجأة بدلا من التركيب الذى اتبعته والذى يخلو من عنصر المباغتة الموجود فى الآية.

ولا أظنه فات القارئ ترجمتها لـ"الذين كفروا" فى الآية بما يعنى "الذين ينكرون الجميل". وهو تنطع مقيت تصر عليه إصرارا سخيفا. إننا نتكلم عن خيانة المترجم، ولا نقصد عادة أنه خائن عن قصد بل أنه يستحيل عليه نقل المعانى بالضبط كما هى فى عقل المؤلف. لكننا مع د. بختيار نرى ونؤكد أنها فى بعض الأحيان تخون الأصل عامدة متعمدة، ولأغراض سياسية وللتعمية على موقف الإسلام تجاه أعدائه لتغييره. وما تفعله هو لون من الحرب الثقافية يراد به تضليل المسلمين وإفهامهم أنه لا يوجد شىء اسمه الكفر بل الكل مؤمنون وسوف يدخلون الجنة، ولا يحق لك يا مسلم أن تقول عمن لا يؤمن بدينك وإلهك ورسولك وكتابك إنه كافر. ولنع شيئا آخر خطيرا، وهو أن هذه الأفكار لا توجه إلا إلى المسلمين، أما غير المسلمين فهم يروننا براحتهم وبكل حرية وأريحية كفارا وإرهابيين وكارهين للحياة والحضارة ونريد استرجاع فلسطين ونصبو إلى أن نعيش أحرارا كراما أعزاء وفى مستوى حضارى كريم، وهو ما ينبغى أن ننبذه من عقولنا وقلوبنا ونسلم رقابنا لأعدائنا دون أية مقاومة. لا تظنوا أن ما تفعله لاله بختيار فى ترجمتها شىء هين. إنها الحرب التى يهزموننا فيها نقطة نقطة دون أن نتنبه بحيث نصحو يوما فنجد أننا قد ضعنا وخسرنا كل شىء وفات الأوان لتداركه.

والآن إلى الآية السابعة عشرة من سورة "الحج"، ونصها "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ

بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"، وهذه ترجمتها " Truly, those who believed and those who became Jews and the Sabeans and the Christians and the Zoroastrians and those who ascribed partners— truly, God will distinguish between them on the Day of Resurrection. Truly, God over everything is a Witness". والملاحظ أنها ترجمت "الذين هادوا" بـ"الذين صاروا يهودا" لكنها عند "الذين أشركوا" لم تقل: "الذين صاروا مشركين" رغم أن تركيب العبارتين واحد كما هو واضح. كما أنها قد اتبعت ترجمة حرفية فى "الذين أشركوا" فقالت: "الذين نسبوا شركاء"، لكن أى شركاء؟ ولمن نسبوهم؟ هنا تسكت الترجمة فلا تفصح. نعم تقول الآية: "الذين أشركوا" دون أن تقول: أشركوا ماذا؟ وبمن؟ لكن لا ينبغى أن نغفل أن كلمة "مشرك" فى العربية والإسلام تعنى إشراك آلهة أخرى إلى الله. أى أنها تدل على معنى كامل لا مجرد الإشراك، ومن ثم لا تحتاج إلى توضيح، إذ هى مصطلح. وكان يمكن أن تقول مثلا: "polytheists" أو "idolaters". بيد أن المترجمة لم تلق بالا إلى ذلك مكتفية بالترجمة الحرفية. كذلك نراها تقول إن الله سوف يميز بينهم يوم القيامة،أى سيفرز كل أصحاب دين على حدة، وكأننا فى عملية تفويج أو تصنيف، غافلة عن كون المراد هو أن الله سوف يحكم بينهم يومئذ، فكان ينبغى أن تستخدم الفعل: "will judge" أو "will decide" مثلا.

ومن سورة "المؤمنون" (الآية ٦٠) نقف إزاء قوله تعالى عن صفات المؤمنين: "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ"، فنرى د. بختيار تترجم الكلام هكذا: " and those who give what they gave with their hearts afraid because they are ones who will

"return to their Lord"، وهى ترجمة حرفية بل أقل من الحرفية. لماذا؟ تعالوا نر: فعبارة "يؤتون ما آتوا" قد أديت كما هى فى ظاهر القول دون أن تعطيها المترجمة لمسة يفهم منها القارئ باللغة الإنجليزية أن المقصود بالإيتاء هنا ليس مجرد العطاء بل إعطاء المال والعون لمن يحتاجونه. كما أن ترجمتها لقوله تعالى: "وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربه راجعون" لا تعطى المعنى المراد، إذ تقول إنهم فعلوا ذلك لأنهم إلى ربهم راجعون. والبشر جميعا راجعون يوما إلى ربهم. فهذا مجرد إخبار بأنهم إلى ربهم راجعون. ولو كان الأمر كذلك فما وجه تميزهم؟ وجه تميزهم هو الإيمان بذلك الرجوع وعمل حسابه. وقد تهدد القرآن المشركين والكافرين بأنهم راجعون إلى ربهم يوما للحساب. فكان ينبغى أن توضح المترجمة أن المؤمنين الذين يدور عليهم الكلام فى الآية يؤمنون بذلك الرجوع لا أنهم راجعون وحسب. فالرجوع فى حد ذاته لا يكفى، وإلا كان الناس جميعا يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة لأنهم، كما تقول الترجمة، إلى ربهم راجعون. إنها نكتة دقيقة، لكنها تفصل بين المترجم الواعى الفاهم وغيره.

ونقطة دقيقة أخرى هى ترجمتها لقول الحق تعالى عن موقف المشركين لدن تلاوة الرسول عليهم آيات الله، إذ كانوا على أعقابهم ينكصون: "مستكبرين به سامِرًا تَهْجُرون" بما معناه "الذين استكبروا به، وكانوا يسمرون ليلا يتكلمون كلاما أحمق لا معنى له". لكن ما الذى كان يستكبر به المشركون؟ لم تفصح. وهذه ترجمة حرفية لا معنى لها. وهذا إن صح أن الفعل "استكبر" يأخذ حرف الجر: "الباء" حين نقصد أن فلانا استكبر بالشىء الفلانى أو الشخص العلانى. وقد تتبعت هذا الفعل فى القرآن فلم أجده أخذ الباء فى المعنى الذى نتحدث عنه الآن،وإنما وجدت فى بعض الأشعار "استكبر على، استكبر عن"، أما إذا دخلت الباء على هذا الفعل (كما جعله المفسرون فى

هذه الآية) فقد فسروه بأن المراد هو أنهم يستكبرون بالبيت الحرام، أى فيه. فالباء ظرف لا لتعدية الفعل وتوصيله إلى مفعوله. لكنى أرى أنه لا معنى لهذا، إذ هم مستكبرون فى الحرم وفى غير الحرم كما أن "الحرم" غير مذكور هنا بتاتا حتى نجعل الضمير عائدا عليه، واستكبارهم هو بالنسبة للقرآن لا الاستكبار مطلقا. والمعنى المقصود فى نظرى هو أنهم كانوا يستكبرون حين تتلى عليهم آيات الله، أى لا يحاولون سماعها والتدبر فيها بل يرفضونها ابتداء كبرا وغطرسة وعتوا، وكانوا يهجرون بالقرآن ليلا فى أسمارهم بمعنى أنهم كانوا يستهزئون به ويسخرون منه ويقولون فيه قولا قبيحا لا أنهم كانوا يسمرون ليلا ويقضون أوقاتهم فى الكلام السخيف الأحمق الذى لا فائدة منه كما تقول المترجمة لأن السمر الذى على هذا النحو لا يتطلب نزول وحى فيه فضلا عن أن يقرعهم عليه. وفى المعاجم: "أَهْجَرَ بالشىء: استهزأ به، وفيها "هجر بالشىء"،أى خاض فى الكلام عنه وفى تتبع أوصافه. وبطبيعة الحال لا يكون الهُجْر إلا بالكلام الساخر العائب المفحش. أى أنهم كان يخوضون خلال أسمارهم فى الحديث عن القرآن (الذى تتلى عليهم آياته) ووصفه بأنه ثمرة ذهن مخبول أو مأخوذ عن أساطير الأولين أو تعلَّمه الرسول عن بشر... وما إلى ذلك. ومن الطبيعى أن يعود الضمير فى "به" على القرآن لأنه قد سبق ذكر تلاوت آياته. والقرآن هو آياته، والآيات هى القرآن. هذا فهمى، وقد أوردت حيثياته كما تراءت لى. ولعلى لم أخطئ. وحتى يتضح مرادى أكثر سوف أكتب النص الكريم بعلامات الترقيم الحديثة وبتركيب عصرى عادى بقدر الإمكان: "قد كان القرآن يتلى عليكم فكنتم تنصرفون عنه فى استكبار، وتهجرون به فى الأسمار". والله أعلم.

وترجمت السيدة بختيار قوله تعالى من سورة "النور": "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ" على أن الزوجات الطيبات هن للرجال الطيبين، والأزواج الطيبين هم للنساء الطيبات، والعكس بالعكس: " The bad females are for the bad males and the bad males are for the bad females. And who are good females are for who are good males and who are good males are for who are good females". وهذا فعلا أحد التفسيرات التى وردت عن المفسرين. لكن كيف فاتها وفاتهم أن الحياة كثيرا ما صدمتنا فى رجال طيبين كان نصيبهم فى الزواج فى غاية السوء حتى لتخونهم زوجاتهم، والعكس صحيح؟ ولماذا نذهب بعيدا، والقرآن يقول لنا إن زوجَتَىْ نوح ولوط خانتا زوجيهما (أيا كان معنى الخيانة)،وزوجة فرعون الخبيث الكافر المتأله المستكبر كانت سيدة كريمة طيبة مؤمنة، وزوجة عبيد الله بن جحش بقيت على إسلامها بينما تنصر هو فى الحبشة، وكان يكيد للمسلمين بكلامه ويقرعهم بأنه استطاع أن يفتح عينيه ويعرف أن الإسلام باطل، والنصرانية حق، فى حين ظلوا هم عميا لا يبصرون، ومات بأرض الحبشة. كذلك فإن زوجة الأسود العنسى، الذى ارتد عن الإسلام فى اليمن بعد وفاة النبي وادعى نزول الوحى عليه، بقيت مسلمة ولم ترافئه على ارتداده ولا على دعواه، وإن أخفت ذلك حتى أتيحت لها سانحة اهتبلتها وعاونت من خلصوا الإسلام من شره. وهناك أيضا النساء اللاتى تركن أزواجهن الكفار فى مكة وفررن إلى المدينة بعد صلح الحديبية ونزل القرآن ينهى المسلمين عن إعادتهن إلى أزواجهن نهيا صارما. والصواب فى ذلك أن نقول إن المقصود من العبارة الكريمة هو أن الأقاويل الخبيثة تلائم الخبثاء المنحطين، والعكس بالعكس. أما الطيبون فيصونون ألسنتهم عن الخوض الخبيث فى أعراض الكرام. ولو رجعنا إلى

سياق العبارة لوجدنا أن الكلام خاصٌّ بالإفك الذى كان يدور فى المدينة المنورة ويسىء إلى الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة أم المؤمنين. يريد القرآن أن ينبه إلى شناعة ما كان يردده المنافقون ومن انخدعوا بهم أو أَرْخَوْا لأحقادهم العِنَان عن الكريمة زوجة الكريم العظيم صلوات الله عليه وسلاماته.

ومن نفس السورة نتريث إزاء قوله جل فى علاه: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ؟"، إذ ترجمت د. بختيار "والطيرُ صافَّاتٍ" بما يعنى "والطيرُ الصافاتُ" علاوة على افتقار الترجمة إلى السلاسة فى قولها: " and the birds, ones standing in ranks"، أى "الطير، أولئك اللاتى يقفن فى صفوف" بدلا من "والطير الصافات": هكذا بكل بساطة، رغم أن الترجمة حتى على اقتراحى تظل معيبة، إذ "الصافات" فيه بدل بينما هى فى الأصل حال منصوبة. وشىء آخر أنها تترجم "صلاته" بـ"يؤدى الصلاة الرسمية"، أى أن كل من فى السماوات والأرض والطيور تصلى كما يصلى البشر فى المساجد. ترى هل كل من فى السماوات والأرض والطيور يسمعون الأذان ويقومون فيتوضأون ويذهبون للمسجد ليصلوا الصلاة الرسمية؟ بالله هل هذه ترجمة؟ إن المقصود هنا هو كل شىء فى الكون من جماد كالجبال والوهاد والبحار والأنهار، وأفكار ومشاعر، وحيوانات وأسماك وديدان وفراشات وبعوض وذباب ونحل ونمل وجراثيم ومكروبات وفيروسات وهواء وأثير وكواكب ونجوم وآلات وأدوات وكتب وأقلام وأحبار وحواسيب ومشابيك (إنترنتات)... إلخ. فهل كل هؤلاء يعرفون الصلاة الرسمية؟ بل هل الصلاة بالمعنى الذى نفهمه ونمارسه هى المرادة هنا؟ إن ملايين البشر لا يصلون لله الصلاة الرسمية بل ولا أية صلاة، إذ هم لا يؤمنون به أصلا، فهم ملحدون. بل إن كثيرا من المسلمين لا

يصلون، وربما لا يركعونها من أساسها. فإذا كان هذا حال البشر مؤمنين وغير مؤمنين فما بالنا بغير البشر؟ إن المعنى المراد هو أن كل المخلوقات تصلى لله وتسبحه بلسان الحال من خلال انقيادها لمشيئته، لا تتخلف عن ذلك لحظة، أى باتباعها لقوانينه سبحانه وعدم قدرتها على المخالفة. فما دخل الصلاة الرسمية هنا؟

وفى الآية الرابعة من "الفرقان" تترجم قول الله عن الكافرين، حين اتهموا النبى بأنه لفق القرآن تلفيقا من لدن نفسه وأعانه فى هذا التلفيق بعض البشر، إنهم "جاؤوا ظلما وزورا" بما يعنى "جاؤوا بظلم وزور" غافلة عن أن "جاء فلانٌ الفعلَ الفلانىَّ" غير "جاء بالشىء الفلانى": الأول معناه أنه ارتكب الأمر الفلانى، والثانى أنه أحضر ذلك الشىء. وهذا غير ذاك، بيد أنها لم تتنبه إلى هذا الفرق بين ما قالت وبين ما كان ينبغى أن تقول. وقبيل ذلك ترجمت قول المشركين عن القرآن إنه إفك افتراه محمد... بـ" This is nothing but a calumny he devised" ظنا منها أنه افتراء لتشويه سمعة الآخرين (calumny)، وهو ما لم يتهمه المشركون به قط، بل يقصدون أنه لفقه ليس إلا، أى أنه قد كتب القرآن من عند نفسه ولم يتلقَّه وحيا من السماء، وليس فى اتهامهم له أن غايته من هذا التلفيق هو إهانة هذا الشخص أو ذاك.

وفى سورة "الشعراء" تترجم د. بختيار "الحكمة" فى قوله تعالى حاكيا ما أجاب به موسى فرعون حين مَنَّ عليه بأنه رباه فى قصره منذ كان وليدا حتى كبر ووكز المصرىَّ فقتله ثم فر إلى مدين وكلفه الله بالرسالة ومطالبة فرعون بالعفو عن بنى إسرائيل وإطلاقهم من العبودية التى كانت مفروضة عليهم: "قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ

لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ"، فترجمت بختيار "الحُكْم" بـ"الحُكْم النقدى": Then, my Lord bestowed on me critical judgment" مع أن كلمة "الحُكْم" قد شرحتها بقية الآية: "فوهب لى ربى حُكْمًا وجعلنى من المرسلين". إن "الحكم" هنا هو "الحكمة" ممثلة فى الرسالة. وقبيل ذلك قال الله تعالى لموسى وهارون: "فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ". ترى لماذا ذهب ذهن بختيار إلى هذا المعنى؟ ألم يكفها أن ثم آيتين شبه متتابعتين قد ذكرتا أن الله اختاره عليه السلام رسولا إلى فرعون؟

وفى صدر سورة "النمل"حين يرى موسى، فى طريق عودته بعد أعوام من مدين إلى مصر، نارا بالليل فى الصحراء وكلفه ربه بأن يكون رسولا إلى فرعون وأمره أن يلقى على الأرض عصاه فاستحالت ثعبانا يتلوى وخاف موسى وولى مدبرا، فطمأنه ربه قائلا: "يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ"، تترجم بختيار الجملة الأخيرة هكذا: "إنى لا يخاف الرسل من قُرْبِى"، وكأن موسى حين ترك العصا وأدبر بعيدا كان يخاف قرب ربه. وهذا غير صحيح، إذ كان خوفه جراء تحول العصا ثعبانا لا من قربه من الله. فـ"لدىَّ" معناها "وهو معى". وقد ترجمها عدد من المترجمين الذين راجعت ترجماتهم بـ"فى حضرتى: in my presence". وهذا هو المعنى المقصود.

وفى ترجمة الآيتين ٤٢-٤٣ من تلك السورة، ونصهما "فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" تقول بختيار " So when she drew near, it was said: Is thy throne like this? She

said: It is as though it had been it. Solomon said: The knowledge was given us before her and we had been ones who submit to the One God".

لقد قال سليمان عن بلقيس ملكة سبإ إنه سوف يأتيها بجيش لا قبل لها به "قبل أن يأتونى مسلمين"،أى قبل أن يأتوه خاضعين لأمره. ثم لما جات الملكة إليه ورأت الصرح الممرد من قوارير وما يدل عليه من تقدم باهر قالت له: "وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين". فهذا كلام ملكة سبإ. وفيه إشارة إلى ما سمعته عن سليمان وملكه وعظمته وقوته قبل أن تَرِدَ عليه. ثم تقول له: وقد استسلمنا لك لما نعلمه من قوتك وعظمة سلطانك. وليس معناه أنها أسلمت لله، فإن قوله تعالى تعقيبا على هذا: "وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين" معناه أنها كانت تعبد الشمس وكانت كافرة من قوم كافرين. وقد صدها هذا فى البداية عن الإيمان بالله ودخول الإسلام، الذى هو دين الأنبياء جميعا. أما إعلانها الدخول فى الإسلام وتخليها عن عبادة الشمس والكفر الذى كانت عليه ففى قولها فى آخر الحوار: "وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين". وبهذه الطريقة التى فسرتُ بها الآيات نتغلب على تقطيع المفسرين للنص الكريم وإحالة هذه الجملة على سليمان، وتلك على الملكة دون أن يكون هناك ما يساعد على هذا التقطيع وتلك الإحالات لا من تركيب الجمل ولا من السياق ولا من التاريخ.

وقد دفع عَزْوُ المفسرين عبارة "وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين" إلى سليمان عليه السلام المستشرقَ الفرنسيَّ بلاشير فى ترجمته للقرآن إلى القول بأن هذا يستلزم أن تكون هناك جملة ناقصة فى الكلام. والواقع أنه لو كان هذا كلام سليمان لكانت هناك عبارة "قال سليمان"، إذ لا يمكن أن ينتقل الحوار

من بلقيس إلى سبإ دون فاصل موضِّح. أما نسبة الجزء الأخير من هذه الآية إلى سليمان فهو من عمل بعض المفسرين الذين يمزقون الآية دون أدنى مبرر،ظنا منهم أنهم ينقذون النص القرآنى من المؤاخذة التى لا وجود لها إلا فى خيالهم. ذلك أنهم يظنون أن عبارة "وكنا مسلمين" هى تعبير عن الإيمان بالله ورسوله، ومن ثم لا يمكن أن تكون بلقيس هى قائلتها لأنها لم تكن قد أسلمت بعد. لكن من قال إن "أسلم" هنا معناها الإيمان بالله والرسول؟ إنها تعبير عن استسلامها لقدرة سليمان وعظمة ملكه وضخامة إمكاناته التى سمعت بها من قبل وشاهدتها بأم عينيها حين وردت عليه. أما إسلامها بمعنى الإيمان فقد عبرت عنه صراحة بقولها: "وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين". وفى ضوء هذا يتبين للقارئ أنى لا أرافئ المترجمة على عملها الذى مزقت به، كما فعل بعض المفسرين، الآية وجعلت نصفها الأول ينظر فى اتجاه، والنصف الثانى ينظر فى اتجاه آخر دون أن يكون فى الآية أو فى السياق ما يسوّغ ذلك.

وفى الآية السادسة من سورة "لقمان" نراها تؤدى عبارة "لهم عذاب مهين" بـ"for them will be a despised punishment" قالبة اسم الفاعل: "مُهِين: humiliating, despising..." إلى اسم مفعول: "مُهَان/ مَهِين: despised". والعذاب، بطبيعة الحال لا يُهَان بل يُهِين من ينزل به. كما أن الحديث فى الآية ليس عن "عقاب" بل عن "عذاب: torture, chastisement".

وترجمت "الضلال فى الأرض" فى عبارة:"أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد؟" بمعنى "ضللنا طريقنا على الأرض: When we went astray on the earth will we be in a new creation؟"، وليس هذا هو الفهم الصحيح للآية بل هم يشيرون إلى تحلل أجسادهم وعظامهم واختلاطها

بالتراب بحيث يستحيل تمييزها عنه، فضلا عن خلقها خلقا جديدا. لكن ليست ثم علاقة بين الضلال الذى فهمتْه والبعث. هم يقصدون أنهم بعد موتهم لا يمكنهم العودة إلى الحياة من جديد، أما هى فعلى كلامها لا يرجع إلى الحياة من ضل طريقه.

وبعد ذلك بعدة آيات من ذات السورة تترجم قوله عز شأنه عن المؤمنين: "ومما رزقناهم ينفقون" بـ" And they spend of what We provided them". والترجمة بهذا الشكل ترجمة حرفية لا أظنها كافية للقارئ الغربى لتوصيل المعنى المراد له، إذ هى تذكر الإنفاق فقط، بينما الآية تتحدث عن إعطاء الفقراء والمساكين والمحتاجين واليتامى والأقارب وفى سبيل الله وغير هذا من ميادين الخير. إن المسلم يفهم من الآية كما هى أمامنا كل ما قلته فى حين أن غير المسلم سوف يفهم أن المقصود هو مطلق الإنفاق، وهو ما قد يبدو كلاما لا قيمة له، إذ كل منا ينفق من ماله، وهو ما لا يحتاج إلى النص عليه لأنه مفهوم من الحياة بالضرورة، وإلا فكيف يعيش؟ ففيم الكلام عن هذه الفكرة التى لا تستحق الذكر؟

وفى الآية السابعة والعشرين من السورة الحالية: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ" تترجم الجملة الاستفهامية فى آخر الآية بـ" Will they not, then, perceive؟: أفلن يبصروا إذن؟ ". وهذه ترجمة تفتقر إلى الدقة، وأحسب أنها كانت تكون أكثر اقترابا من النص لو قلنا: " Can they not perceive that؟".

وتترجم السيدة المترجمة قوله عز شأنه: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ" هكذا: " And those who were

ungrateful said: The Hour will not approach us. Say: Yea! By my Lord, it will, certainly, approach you. He is One Who Knows of the unseen". وفى هذه الترجمة خطأ نحوى يدل على أنها لا تحسن فهم تركيب الكلام فيه. لقد ترجمت "عالم الغيب" على أنه خبر لضمير محذوف تقديره "هو"،وإن كان قد ظهر فى الترجمة: "He" بينما هو فى النص القرآنى نعت لـ"ربى" مخفوض لأن منعوته مخفوض بحرف القسم: "الواو". والمعنى هو "بلى وربى عالم الغيب لتأتِيَنَّكُم".

وفى ترجمة "ذرة" نراها تضع "atom". فهل كان العرب آنذاك تعرف "الذرة" كما نعرفها الآن؟ لقد كانت الذرة وقتئذ هى "النملة" الصغيرة، أما مفهوم الذرة بمعنى "atom" فلم يكن له وجود. لقد تحدث علماؤنا القدامى عن الجزء الذى لا يتجزأ، وهو ما يناظر الذرة بمفهوم العصر الحديث، لكن ذلك إنما كان فى العصر العباسى، ومع هذا لم يستخدموا لهذا المفهوم كلمة "ذرة" بل قالوا: الجوهر الفرد. إنما جاء هذا فيما بعد.

وفى "الصحاح" للجوهرى: "الذرّ: جمع ذرة، وهى أصغر النمل". ويقول ابن منظور فى "لسان العرب" (مادة "ذرر"): "الذَّرُّ: صِغارُ النَّمل، واحدته ذَرَّةٌ. قال ثعلب: إِن مائة منها وزن حبة من شعير، فكأَنها جزء من مائة، وقيل: الذَّرَّةُ ليس لها وزن، ويراد بها ما يُرَى فى شعاع الشمس الداخلِ فى النافذة. ومنه سمى الرجل: ذَرًّا وكنى بأَبى ذَرٍّ. وفى حديث جُبير بن مُطْعِم: رأَيت يوم حنين شيئًا أَسْوَدَ ينزل من السماء فوقع إِلى الأَرض فَدَبَّ مثل الذَّرِّ، وهزم الله المشركين. الذَّرُّ: النمل الأَحمر الصغير، واحدتها ذَرَّةٌ". وهو نفسه ما نجده فى "تاج العروس" للزبيدى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى. وفى "مجاز القرآن" يقول أبو عبيدة: "مثقال ذرة، أى زنة نملة صغيرة". وتحت عنوان

"المُسَمَّوْن بأسماء الهوامّ" يقول ابن قتيبة فى "أدب الكاتب": "الذَّرُّ: جمع ذَرَّة، وهى أصغر النمل، قال الله عزّ وجلّ: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه"، أى وزن ذرة، وبها سمى الرجل: ذَرًّا، وكنى: أبا ذر". وفى كتاب "الأمثال المولَّدة" لأبى عبيدة مَعْمَر بن المثَنَّى: "أحرصُ من ذرّةٍ على الذى تجمعُهُ للشتاء".

وهذا مثل استعمال القرآن كلمة "السيارة" لا بمعنى العربة التى تمشى من تلقاء نفسها بل بمعنى "القافلة" أو "السائرين". وكان العرب يشربون القهوة، لكن القهوة التى نشربها الآن لم تكن معروفة لهم بعد، بل المقصود "الخمر". فإذا قابلتنا هذه الكلمة فى نص قديم لم يصح أن نشرحها كما هى فى واقعنا اليوم بل كما كان القدماء يفهمونها. وفى كتاب "الأضداد فى اللغة" لابن الأنبارى:" والإِقْهام: أَلاَّ يشتهى الرَّجُل الطعام. يقال: قد أَقهم عن الطعام إِقْهامًا، وأَقهى إِقهاءً، إذا لم يشتهِهِ. ويقال: رجلٌ قَهِمٌ إِذا كان كذلك. وإِنَّما سُمِّيَت الخمر: "قَهْوة" لأَنَّها تُقْهِى صاحبَها عن الطعام والشراب. قال أَبو الطَّمَحَان:

فأَصْبَحْنَ قَدْ أَقْهَيْنَ عَنِّى كما أَبَتْ حِياضَ الإِمِـدَّانِ الهِجَانُ القَوامِحُ

أَى أَعرضْنَ عَنِّى وتركننى. والهِجَان: البِيضُ من الإِبل. والقوامح: الرافعة رؤوسها".

وفى الآية الأخيرة من سورة "سبأ" نلحظ التصاقا بالترجمة الحرفية حتى لتكرر المترجمة كلمة "بين" مع كل طرف من الطرفين اللذين تفصل بينهما هذه الكلمة: " And a barrier was set up between them and between that for which they lust". صحيح أنها فى الآية المذكورة قد تكررت: "وحيل بينهم وبين ما يشتهون"، وهذا النوع من التكرار فى لغتنا لا يعترض عليه

أحد، إذ ما دام أحد الطرفين أو كلاهما ضميرا فالتكرار واجب، أما إن كان الطرفان اسمين ظاهرين فأنت بالخيار، وإن كان هناك من يمنع هذا رغم وجود شواهد شعرية عليه بالعشرات من الشعر القديم أوردته فى كتابى: "تخطئات لغوية خاطئة". وأما فى اللغة الإنجليزية فلا تُكَرَّر "بين" فى أى وضع. لكن لاله بختيار قد كررتها هنا وفى مواضع أخرى تشبه هذا التركيب جريا على النقل الحرفى كما هو الحال مثلا فى الآية ٨٩ من سورة "الأعراف": "افتح بيننا وبين قومنا بالحق: Give victory between us and between our folk in Truth" وكما فى سورة "يوسف" (الآية١٠٠): "من بعد أن نَزَغَ الشيطانُ بينى وبين إخوتى: after Satan had sown enmity between me and between my brothers"، وكما فى الآية ٤٥ من سورة "الإسراء": "جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا: We made between thee and between those who believe not in the world to come a partition obstructing their vision"، وكما فى سورة"سبأ" (الآية١٨): "وجعلنا بينهم وبين القُرَى التى باركنا فيها قُرًى ظاهرةً: And We made between them and between the towns which We blessed, that which are manifest towns"، وكما فى الآية السابعة من "الممتحنة": "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً: Perhaps God will assign between you and between those to whom you were at enmity with them, affection".

وتترجم بختيار الآية الرابعة من قوله تعالى فى سورة "الصافّات": "وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ

فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ" كما يلى: Then, the great fish engulfed him while he was one who is " answerable". ومعروف أن "الالتقام" هو الأخذ بالفم. لكن هل يلزم أن يمضغ الإنسان ما التقمه ويبتلعه؟ هذا هو السؤال. يقول الهامش المخصص للآية فى "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم" (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) عن الكيفية التى عاش بها يونس داخل الحوت: "هناك احتمالان: أحدهما أن يكون الحوت من غير ذوات الأسنان من الهِرْكَوْلات الضخام مثل الهركول العادى الذى يرتاد البحر المتوسط، وقد يبلغ طوله نحو عشرين مترا، فبقى يونس فى فمه الهائل بين صفائح البالين المتدلية من سقفه إلى أنْ لفَظَه فى العراء لأن حلوق هذه الحيتان تضيق كثيرا عن ابتلاع رجل. الثانى أن يكون الحوت من ذوى الأسنان مثل حوت العنبر الذى يبلغ طوله نحو عشرين مترا أيضا. وإن هذا الحوت شوهد مرارا فى البحر الأبيض المتوسط، ويمكنه أن يبتلع فى العادة حيوانات ضخاما قد يتجاوز طولها ثلاثة أمتار".

وفى موقع نصرانى قرأت ما يلى، وأنقله كما هو دون تغيير مع التصرف بإصلاح الأسلوب فى أضيق الحدود: ترى ما هو الحوت الذى ابتلع يونان (يونس)؟ وكيف لم يمت بداخله؟ إنه الحوت الأزرق الذى لا أسنان له، وهو أكبر كائن حى، فوزنه يعادل وزن ٢٤ فيلا أو١٥٠٠ رجل، وهو لا يأكل الأسماك. وينمو هذا الحوت إلى ٣٠ مترا، أى أطول من ملعب كرة سلة، ويصل وزنه إلى ٢٠٠ طن، بينما يصل وزن لسانه وحده إلى أربعة أطنان، أى ما يساوى وزن فيل. ويمكن أن يقف١٠٠ شخص داخل فمه. وتتميز هذه

الحيتان بمعدتها التى تتكون من عدة حجرات قد تصل إلى ست حجرات، ومن الممكن لمجموعة من الناس أن تختبئ فى إحداها. ويتنفس الحوت الهواء مباشرة ويخزنه فى تجويف أنفى كبير جدا طوله ١٤ قدمًا، وعرضه سبعة أقدام، وارتفاعه سبعه أقدام، وذلك لاستخدام مخزون الهواء للتنفس عند النزول إلى أعماق البحر لفترة طويلة. وهذا النوع من الحيتان إذا ابتلع جسمًا كبيرًا أرسله إلى هذه الحجرة الممتلئة هواء ولا يُدْخِله إلى معدته بل ويسعى ليلقيه على الشاطئ بعيدًا عن المياه حتى لا يبتلعه مرة أخرى. ويمكننا أن نجزم بأن حوتا من هذه الأنواع الضخمة العديمة الأسنان قد ابتلع يونان وحوّله إلى تجويف الرأس الممتلئ بالهواء حتى اقترب من الشاطئ حيث لفظه بالعراء.

ومن سورتنا هذه إلى الأحقاف (الآية١٧): "وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ...". وقد ترجمتها بختيار على النمط الآتى: " But he who would say to ones who are his parents a word of disrespect to both of them: Promise you me that I will be brought out when generations before me passed away? And they will both cry to God for help: Woe unto thee! Believe! Truly, the promise of God is true. But he said: This is only the fables of the ancient ones". وهو مثال على الترجمة المتخشبة الثقيلة البطيئة المؤلمة التى تنتهجها الأستاذة بختيار فى كثير من الأحيان. وسوف أحاول ترجمتها بأسلوبى أنا إلى العربية حتى يتضح لكم صدق ما أقول: "ولكن هو هذا الذى كان يقول لناس هم والداه كلمة إساءة إلى كليهما: أتعداننى أننى سأُخْرج حين تكون الأجيال قبلى قد ماتت؟".

إنها مغرمة بهذا النمط من الترجمة. فهى فى كل صغيرة وكبيرة تقول: "one who..." أو "one which..."، أى أنها عوضا عن قولها: "النبى محمد" تقول: "النبى الواحد/ الشخص الذى كان له اسم محمد". وبدلا من أن تقول مثلا: "أنا أكتب لكم الآن ما فى ذهنى" تقول بدلا من ذلك: "أنا واحدة من الكتاب أقوم بأمر اسمه الكتابة، وهو الذى يطلقون عليه: النقل لذلك الشىء المسمى: فكرة فى هذا الذى يقال إنه ذهنى" (وقد قمت بإضافة شىء من المبالغة الفكاهية إلى كلامى، كما يرى القارئ، حتى تعرفوا إلى أى مدى تكون ترجمتها للسهل السلس أمرا متقمطرا عسيرا). وها هو ذا مثال آخر على تلك الطريقة المتخشبة فى الترجمة. يقول الله تعالى فى الآية الخامسة والعشرين من سورة "الفتح": "وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ". وقد ترجمته السيدة بختيار هكذا: "If it had not been for men, ones who believe, and for women, ones who believe, whom you know not that you tread on them and guilt should light on you without your knowledge".

أما ترجمتها لقوله جل وعلا من سورة "محمد": "كذلك يضرب اللهُ للناس أمثالَهم" بـ"God propounds for humanity their parables" فقد ترجمته ظنا منها أن "المثل" هنا هو كقولنا: "أكرم من حاتم، أخطب من سحبان، أوفى من كلب" وما أشبه، وفاتها أن ضرب المثل فى القرآن الكريم كثيرا ما يكون المراد به شرح الأمر أو إعلان التشريع أو حكاية ما حدث أو ما سوف يحدث... إلخ. والمعنى: هكذا نبين لعبادنا أحكام دينهم ودنياهم ونعلمهم كيف يتصرفون تجاه الأسرى الذين يأخذونهم من جنود الأعداء.

والملاحظ أنها ترجمت "ضرب الرقاب" فى الآية الرابعة من السورة بـ"strike"، لكن كأنه عز عليها أن تكمل الجميل وتلتزم بالنص دون إضافات لا لزوم لها، إذ وجدناها تترجم "الرقاب" بـ"رقابهم الغليظة". لماذا الغليظة؟ لا أدرى: " So when you met those who were ungrateful, then, strike their thick necks until you gave them a sound thrashing". والحمد لله أنها لم تقترح أن يكون المعنى "فإذا لقيتم الذين كفروا فألقوا سيوفكم ومكِّنوهم من أنفسكم حتى يدمّروكم كما دمر الصهاينة والصليبيون غزة بالطائرات ودفنوا حرائرها وأطفالها الأبرياء تحت أنقاضها وسووا طرقها بالأرض". على أن الأمر لا يقتصر على هذا فقط بل ترجمت كعادتها التضليلية "الذين كفروا" بـ"أولئك الذين هم منكرو النعمة" حتى ترسّخ فى نفوس قراء هذه الترجمة من الأمريكان والإنجليز المسلمين أن من لا يؤمن بالله رب العالمين وبمحمد ودينه والكتاب الذى نزله الله عليه فلا يعد كافرا. إنه مؤمن، وسوف يدخل الجنة قبلنا، وهذا إن دخلناها نحن أصلا، فغير المسلمين لا يؤمنون بأننا يمكن أن نريح رائحة الجنة أبد الآبدين، إذ نحن أتباع النبى الكذاب، أستغفر الله رب العالمين. كذلك ترجمت "المنّ"، وهو إطلاق سراح الأسرى دون مقابل بـ" And afterwards either have good will towards them or take ransom for ". وهل الـ"good will: الشعور الطيب" هو إطلاق سراح الأسير دون فدية؟

وفى ترجمة الآية قبل الأخيرة من سورة "الذاريات": "" تقول: " And, truly, the impiety of those who did wrong is like the impiety of their companions. So let them not seek to hasten the Judgment". وثم خطأ شنيع هنا، إذ توهمت أن "الذَّنُوب" هو "الذُّنُوب"

(جمع "ذَنْب")، فقالت ما معناه "إن ذَنْب أولئك الذين ظلموا مثل ذَنْب أصحابهم (بمعنى "المرافقين لهم")، نخرجت الكرة التى ركلتها بعيدة عن المرمى بل عن اللعب بل عن المدينة كلها. ذلك أن "الذَّنوب" (بتشيد الذال وفتحها) هى السطل،الدلو. والمقصود "الدلو" المفعم بالعذاب الذى يصبه الله على رؤوس الظالمين، وهم هنا الكفار. فالمولى سبحانه جل وعلا يتوعد الكفار بأنهم سينزل بهم العذاب كما نزل على الأمم الكافرة السابقة... إلخ. ف"الأصحاب" هنا لا تعنى الرفاق المتصاحبين بل تعنى الأشباه الذين يجرون مثلهم فى مضمار الكفر بغض النظر عن اختلاف الزمن بين بعضهم وبعض. والمعنى واضح. فكيف ترجمت لاله بختيار القرآن كله، وفيه ما لا تعد معه هذه الكلمة شيئا مذكورا؟ إن عندى ارتيابا فى الأمر كله، ولا أستبعد، لو دعبسنا جيدا، أن يظهر لنا المترجم الحقيقى يوما.

هذا، وقد وقع فى ترجمة الآية التالية من سورة "الطور" (رقم ٢٧): "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ" قلب، إذ جعلت السيدة بختيار المؤمنين هم الذين يلحقون بذريتهم لا العكس كما ينبغى أن يكون الأمر طبقا للآية:" And those who believed and their offspring who followed them in belief, We caused them to join their offspring". وفى الآية الخامسة من سورة "النجم": "عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى " تترجم "شديد القوى" بأنه "The One Stronger in Strength: الأقوى فى القوة/ من حيث القوة/ من ناحية القوة". وهذا لون من التهافت فى التعبير. ثم أقوى ممن؟ إن النص الأصلى، كما يلمس القارئ الأمر بيده، يخلو من هذين الملحظين. كما نرى المترجمة قد استعملت للحرفين الأولين من "شديد القوى" الحرف الكبير (capital letter)، ثم تركته إلى الحرف

الصغير فى "ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى" لترتد إلى الحرف الكبير من جديد فى "فأوحى إلى عبده ما أوحى: Then, He revealed to His servant what He revealed". فهل هناك من يستخلص من هذا مغزى معينا؟ كذلك نراها تتحدث عنه بالضمير: "it" فى قوله تعالى عقب ذلك: "ولقد رآه مرة أخرى". فمن هذا الـ"it" يا ترى؟ وفى قوله تعالى عن اللات والعزى ومناة، وأنها لا حقيقة لها ولا صلة بينها وبين الله سبحانه بل هى محض أوهام، تترجم "إنْ يتَّبعون (أى الكفار فى نسبتهم هذه الأوثان إلى الله عز وجل) إلا الظن" بـ"إن يتبعون إلا الرأى". فهل الظن هو الرأى؟ لو قالت مثلا: "guesswork" لكان ثم وجه.

ولدن قوله جل فى علاه: "الشمس والقمر بحُسْبان"، ومعناه أن ذينك الجرمين السماويين يسيران طبقا لحساب دقيق، تقلب المترجمة المعنى جاعلة الشمس والقمر هما اللذين يحسبان، أى يقومان بالعدّ والحساب، وكأن الله قد أوكل إليهما تقييد الحسابات الكونية أو على الأقل: الحسابات المتعلقة بالمجرّة الشمسية! وهذا نص ترجمة الآية: " The sun and the moon are to keep count".

أما الآية الرابعة والخمسون من نفس السورة: "مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ" فقد ترجمت د. بختيار الجزء الأخير منها وكأنه ليس جملة تامة مبتدؤها "جنى الجنتين"، وخبرها "دانٍ". ذلك أن الترجمة لا يتضح فيها أننا إزاء جملة تامة: " Ones who are reclining on places of restfulness the inner linings of which are of brocade. And the fruit plucked from trees while fresh, that which draws

"near from the two Gardens"، بل يبدو وكأنها فهمتِ الكلامَ على أنه "وجَنَى الجنتين الدَّانِى". أم ترى العيبَ فىَّ؟ ممكن. ولم لا؟

ومن سورة "الواقعة" تصدمنا ترجمتها لقوله عز شأنه عن الواقعة (يوم القيامة): "ليس لوقعتها كاذبة"، إذ أدتها بلسان جونبول على هذا النحو: " its descent is not like that which lies". ومعناها أن نزولها (أى وقوعها) ليس كتلك التى تكذب، أى ليس كالكاذبة. هل فهمتم شيئا؟ أما أنا فلا. ومعنى الآية أنه عند مجىء الواقعة فلسوف يبلع كل الكافرين بها، أى بالبعث، ألسنتهم ولن يفتحوا أفواههم بأى تكذيب. و"الكاذبة" هنا مصدر، وهذه الصيغة المصدرية (على وزن "فاعلة") صيغة قليلة الانتشار.

وفى "الواقعة" أيضا نقرأ أن الناس يوم القيامة سينقسمون، حسب أعمالهم، ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وقد استعملت الآية هنا كلمة "أزواج"،بمعنى "أصناف". وفى "لسان العرب" أن "الأَصل فى "الزَّوْجِ" الصِّنْفُ والنَّوْعُ من كل شيء"، وهو ما يتمشى مع سياق الكلام فى السورة. وقد تكرر فى القرآن الكريم استعمال هذه الكلمة فى هذا المعنى: "ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما مَتَّعْنا به أزواجًا منهم" (الحجر/ ٨٨)، "وأَنْزَلَ من السماء ماءً فأخرجْنا به أزواجًا من نباتٍ شَتَّى" (طه/ ٥٣). ومع هذا كله تترجمها لاله بختيار بمعنى "اثنين اثنين"، وكانت عبارتها فوق ذلك ذلك مرتبكة ولا يستطيع العقل أن يخرج منها بشىء واضح. ويبدو أن هذا راجع إلى عدم وضوح معنى الآية فى ذهنها، فظهر ذلك الارتباك فى كلامها. وهذا نصه بالإنجليزية: " And you had been of three diverse pairs". ولو أردت نقله حرفيا إلى العربية لجاء هكذا: "وقد كنتم ثلاثة اثنينات (جمع ٢) متنوعة". ونستخلص من هذا أن الناس يوم القيامة سيكونون ثلاث فرق، كل فرقة

مكونة من اثنين. هل هذا كلام يدخل العقل؟ الناس بالديشيلونات بل بديشيليونات الديشيليونات بل بأضعاف أضعاف أضعاف أضعاف... الديشيليونات منذ آدم حتى يوم البعث، فهل ستختزل هذه الديشيليونات المُدَلْشَنَة يومئذ إلى ثلاث فرقٍ كل فرقة إنسانان؟

وفى الآية العشرين من سورة "الحديد" ترد كلمة "الكفار"، فترجمتها لاله بختيار على عادتها فى التنطع بـ"ungrateful" وَهْمًا منها أن"الكفار" هنا عكس "المؤمنين"، وبما أنها أخذت على عاتقها إثارة البلبلة فى الذهنية الإسلامية وتشكيكها فى مسلماتها وتخليصها من الاعتقاد بأن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله، وأن من لا يؤمن به هو كافر، فبما أنها كذلك سارعت إلى ترجمتها بـ"منكرى النعمة أو جاحدى الجميل" مع أن السياق ليس سياق الكافرين بهذا المعنى بل بمعنى "الزُّرَّاع". والصواب هو ترجمتها بلفظ يعنى هذا مثل "husbandmen" أو "tillers" مثلا. يقول ابن كثير فى تفسيره: "وَقَوْلُهُ: أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ، أَى يُعجِبُ الزُّرَّاعَ نَبَاتُ ذَلِكَ الزَّرْعِ الَّذِى نَبَتَ بِالْغَيْثِ. وَكَمَا يُعجِبُ الزُّرَّاعَ ذَلِكَ كَذَلِكَ تُعجِبُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْكُفَّارَ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمْيَلُ النَّاسِ إِلَيْهَا".

وفى تفسير القرطبى نقرأ: "كَمَثَلِ غَيْث، أَى مَطَرٍ. أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ: الْكُفَّارُ هُنَا الزُّرَّاعُ لِأَنَّهُمْ يُغَطُّونَ الْبَذْرَ. وَالْمَعْنَى أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَالزَّرْعِ يُعْجِبُ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ لِخُضْرَتِهِ بِكَثْرَةِ الْأَمْطَارِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ هَشِيمًا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ. وَإِذَا أَعْجَبَ الزُّرَّاعَ فَهُوَ غَايَةُ مَا يُسْتَحْسَنُ. وَقَدْ مَضَى مَعْنَى هَذَا الْمَثَلِ فِى "يُونُس" و"الكهف". وقيل: الْكُفَّارُ هُنَا الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِزِينَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، فَإِنَّ أَصْلَ الْإِعْجَابِ لَهُمْ وَفِيهِمْ، وَمِنْهُمْ يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَهُوَ التَّعْظِيمُ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا". ولعل هناك من يسارع

بالقول بأن تفسير "الكفار" فى الآية بمن هم عكس المؤمنين موجود يقول به بعض المفسرين. وجوابى هو أن القرطبى قد أورد هذا التفسير بعبارة "وقيل"، وهى عبارة تمريضية، بمعنى أن الكلام الآتى بعدها كلام غير قوى أو وجيه. وأُضِيفُ إلى ذلك أن النبات الأخضر الريان المفعم بالحياة الذى يظهر بعد نزول الغيث لا يعجب الكفار وحدهم بل يعجب الناس جميعا: مؤمنين وكافرين. والقول بأن المؤمن لا يحب الدنيا هذا كلام فارغ، فالدنيا المذمومة فى ديننا هى دنيا الحرام والدنيا التى تأتى على حساب الآخرة وليس من سبيل لإزالة هذا التعارض. بل إن المؤمن مباح له أكل الحرام إن كانت حياته متوقفة عليه كمن يعطش فى الصحراء المتوقدة وليس حوله قطرة ماء وتصادف أن رأى خمرا مثلا، فإنه يباح له الشرب منها إنقاذا لحياته. وعلى كل حال لا يصح أن ننسى دور السياق، والسياق فى الآية سياق الزرع والخضرة وفرحة الزارع بسريان الحياة فى الأرض بعدما كانت هامدة.

وفى "تاج العروس" للزبيدى "الكُفْرُ (بالضَّمّ): ضِدُّ الإيمان، ويُفَتَحُ. وأَصلُ "الكُفْرِ" من "الكَفْرِ" بالفتح، مَصدَر "كَفَرَ" بمعنى السَّتْر، كالكُفُور والكُفران بضّمّهِما. ويقال: كَفَرَ نِعْمَةَ اللهِ يَكْفُرُها، من باب نَصَرَ... والصوابُ ما ذهب إليه الجوْهَرِى والأئمة، وتبعهم المصنِّف، وهو الحقُّ، ونصّ عبارته: وكَفَرْتُ الشيءَ أَكْفِرُه، بالكَسْر أى سَتَرْتُه، فالكفر الذى هو بمعنى السَّتْر بالاتّفاق من باب "ضَرَبَ"، وهو غير الكُفْر الذى هو ضدّ الإيمان، فإنَّه من باب نَصَر... كذلك كَفَرَ بها يَكْفُرُ كُفُورًا وكُفْرانًا: جَحَدَها وسَتَرَها... وقال الليثُ: يُقَال إنَّه سُمِّى الكافِرُ: كافِرًا لأَنَّ الكُفْرَ غَطَّى قلبَهُ كُلَّه... وإيضاحُه أَنَّ الكُفْرَ فى اللغة التغطيةَ، والكافر ذو كُفْر، أى ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابِسِ السِّلاح: كافِرٌ، وهو الذى غطَّاهُ السلاح...

كَفَرَ الشَّيءَ يَكْفِرهُ كَفْراً: سَتَرَهُ، ككَفَّرَهُ تكفيرًا. والكَافِرُ: الليل. وفى الصِّحَاح: اللَّيلُ المُظْلِمُ، لأَنَّه يستُر بظلمته كلَّ شيءٍ. وكَفَرَ الليلُ الشيءَ وكَفَرَ عليه: غَطَّاه. وكَفَرَ الليلُ على

أَثَرِ صاحِبِي: غَطَّاهُ بسواده... الكافِرُ: السَّحاب المُظْلِمُ لأَنَّه يَسْتُرُ ما تحتَه. الكافِرُ: الزَّارِع لسَتْرِه البَذر بالتُّرابِ. والكُفَّارُ: الزَّرّاع. وتقول العرب للزَّارع: كافِرٌ لأَنَّه يكْفرُ البَذْرَ المَبذور بتُرابِ الأَرضِ المُثارة إذا أَمَرَّ عليها مالَقَهُ...".

وحين نصل من الترجمة إلى سورة "الممتَحنة" ونطالع ما كتبته لاله بختيار بالإنجليزية مقابل الآية الأولى منها نجد العجب. وننقل أولا النص العربى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ". ثم نتبعه ثانيا بالنص الإنجليزى: " O those who believed! Take not My enemies to yourselves and your enemies as protectors, giving a proposal of affection towards them while they were ungrateful for what drew near you of The Truth. They drive out the Messenger and you because you believe in God, your Lord. If you had been going forth struggling in My way and looking for My goodwill, you keep secret affection for them... ".

فأما النص العربى فواضح، وأما الترجمة فهذا معناها بالعربية بقدر ما أستطيع: "يا أولئك الذين آمنوا، لا تتخذوا أعدائى لكم ولا لأعدائكم كحماة،

ملقين بالمودة تجاههم بينما كانوا هم منكرين النعمة فيما يخص ما كان يقترب نحوكم من الحق. لقد أخرجوا الرسول وإياكم لأنكم تؤمنون بالله ربكم. وإذا كنتم قد خرجتم للكفاح فى سبيلى وتطلعا إلى رضاى فأنتم تحتفظون بمودة لهم فى السر...". وواضح مدى الاضطراب الذى أشاعته بختيار فى تركيب الآية، فقد مزقتها تمزيقا واقترفت عدة أخطاء فى فهم النص، علاوة على الركاكة التى تسربل كلامها. وأترككم الآن لأنفسكم تقارنون بين الأصل والترجمة على أقل من مهلكم، فقد أرى أن دورى قد انتهى، والباقى عليكم. على أنى أحب أن أضيف أنها عادة ما تترجم "أولياء" فى مثل هذا السياق بـ"الحُمَاة" فى حين أن المقصود هو الصداقة والمودة والتحالف وما إلى ذلك. وهى نفسها قد قالت ذلك حين ترجمت من الآية الأخيرة من سورتنا هذه قوله عز شأنه: "لا تتوَلَّوْا قوما غضِب الله عليهم"، إذ استعملت كلمة "friendship" فى قولها: " Turn not in friendship to a folk against whom God was angry".

ومن تصويبها للكرة خارج المرمى تماما ترجمتها لجملة "قاتلهم الله" بـ" God took the offensive: قام الله بالهجوم"، وجملة "أَنَّى يُؤْفَكُون؟" بـ"كم هو مضللون! How they are misled!". والأولى فى الواقع جملة دعائية ندعو بها الله على من نتسخط أخلاقه أو سلوكه أو خبثه أن يعاقبه الله وينتقم منه، والثانية استفهام على سبيل التعجب من حال الكفار المقلوب وعقولهم المنتكسة فلا يستطيعون تفكيرا سليما. والفعل: "أَفَكَ" معناه "قَلَبَ". والجملة عبارة عن التعجب الشديد من الكيفية التى انقلب بها المنافقون رأسا على عقب وضلالهم عن رؤية سبيل الحق المستقيم!

كذلك نراها قد ترجمت قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِي إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ" إلى " O Prophet! When you

divorced your wives, then, divorce them (f) after their (f) waiting periods"، ومعنى الترجمة "فطلقوهن بعد عدتهن". وإذن فالآية تقول: "طلقوهن عند عدتهن"، أى لا ينبغى أن يطلق الرجل زوجته فى الحيض أو فى طُهْرٍ جامعها فيه، بل فى وقت تبدأ فيه عدتها مباشرة، فتقول بختيار: "فطلقوهن بعد عدتهن". وشتان هذا وذلك! وفى تفسير الطبرى "عن ابن عمر "أنه طلق امرأته وهى حائض، فسأل عُمَرُ النبى، ﷺ فقال: مُرْه فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا. فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ". وفى تفسير الطبرى أيضا "عن ابن عباس فى قوله: "فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ" يقول: لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حِيَضٍ، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها".

وعقب ذلك تقول نفس الآية: "وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ"، أى إلا أن ترتكب المرأة المطلقة فاحشة مبينة، أى "معصية واضحة، وهى كلّ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرق والبذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذى يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأى ذلك فعلت وهى فى عدتها فلزوجها إخراجها من بيتها، لإتيانها بالفاحشة التى ركبتها" كما نقرأ فى تفسير الطبرى مع آراءٍ أُخَر لعل هذا أوجهها. ومع وضوح الكلام وأن المراد اقتراف الزوجة المطلقة لفاحشة مبينة نجد للسيدة المترجمة رأيا آخر،إذ تترجم "إتيان الزوجة بفاحشة مبينة" إلى "دنوها من فاحشة مبينة": " And be Godfearing of God, your Lord. And drive them (f) not out from their (f) houses nor let them (f) go forth unless they approach a manifest

indecency". فهل الدنو من فعل معين هو الإتيان به، أى فعله وارتكابه؟ واضح تماما أن الإتيان به غير الدنو منه. لكنّ بختيار تخلط هذا بذاك. أترى الإسلام يدعو أتباعه إلى إيقاع العقاب بالشحص قبل اجتراحه الخطأ؟ هذا أمر غريب. ثم كيف نعرف أنها كانت تريد ذلك فعلا؟ وماذا لو كانت نيتها هى ارتكاب الخطإ لكن لم يتحقق لها ذلك إما لأن ضميرها استيقظ أو لأن عائقا عاقها عن تحقيقه؟ إن الدنو من الفاحشة غير إتيانها، فما بالك باستخدام الباء مع الإتيان؟ إن الباء تؤكد وقوع الخطإ وتحسم الأمر تماما. إذن فالسيدة بختيار لم تحسن فهم التركيب ومراميه. وأخيرا يرى القارئ عبارة "واتقوا الله"، وهى فى العربية لا تمثل أية مشكلة، والمراد "خافوا الله واعملوا حسابه حتى لا تتعرضوا لعقابه"، لكن ماذا عن السيدة بختيار وترجمتها لتلك العبارة وأشباهها؟ إنها تقول دائما كما هو الحال هنا: "be Godfearing of God". ذلك أن "be Godfearing" فى حد ذاتها تؤدى معنى "اتق الله"، فما الداعى لأن نتجاهل كلمة "الله" الموجودة فى "be Godfearing" ونأتى بكلمة "الله" لتكون مفعولا به رغم وجودها فى الكلمة السابقة؟ هذا ما لم يقابلنى من قبل. إن هذا أشبه بأن يقول قائلنا: "كن "متقيالله" الله" أو "كن "متقياالله لله". وأرجو ألا أكون أنا الغلطان.

وفى الآية الرابعة من سورة "التحريم"، بعد أن نبه الله سبحانه رسوله إلى أن لا ينبغى أن يحرم على نفسه ما أحله الله له بغية إرضاء زوجاته، وبعد أن انكشف له صلى الله عليه وسلم ما حدث وعلى يد مَنْ، قيل للزوجتين اللتين لهما صلة بالأمر: "إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكما"، أى بتوبتكما مما وقع منكما واستاء الرسول بسببه تكونان قد قدمتما الدليل على أنكما قد تركتما ما كنتما قد فعلتماه وعدتما إلى الحق، لكن لاله بختيار قالت فى ترجمتها: " If

you two repent to God, the hearts of you both will be bent towards it" بمعنى إن تتوبا إلى الله فسيكون قلباكما قد أُمِيلا نحو it. نعم كما قلت لك: "نحو it". أنت لم تخطئ القراءة ولا أنا أخطأت الكتابة. وسبب كتابتى الجملة على هذا النحو أنى لا أعرف من أو ما itهذا. أهو طفل رضيع مما يمكن أن نستخدم له هذا الضمير؟ أهو شىء من الأشياء كجدار مثلا أو نافذة أو حديقة أو شارع أو حجر أو طبق أو كوب أو ثوب...؟ أهو جمل أو دجاجة أو غراب أو قط...؟ أهو معنى من المعانى؟ ذلك أن الآية تخلو من أى شىء مما يمكن أن يعود عليه الضمير؟ كما لا يمكننا أن نعرف أهو مذكر أم مؤنث. كذلك فإن د. بختيار قد ترجمت الفعل: "صغا"، أى مال، وهو فعل لازم فى صيغة المبنى للمعلوم، إلى "أُمِيلَ"، وهو فعل متعد بالهمزة مبنى للمجهول. وكان يمكنها أن تستخدم الفعل: "bend" مبنيا للمعلوم كما هو، إذ إن كثيرا جدا من الأفعال فى الإنجليزية يصح استخدامها لازمة ومتعدية بنفس الصيغة وبنفس المعنى: فهم يقولون مثلا: "to change" بمعنى "غَيَّر/ تغَيَّرَ"، و"to meet" بمعنى"قابل فلان فلانا/ تقابَلا"... وهلم جرا. لقد قال القرآن: "فقد صغت قلوبكما" يريد أن يقول إن قلوبكما قد استجابت من تلقاء نفسها وبكل حرية، وهذا دليل على التوبة الحقيقية النابعة من داخل النفس لا من إملاء أحد آخر، وتَرْكُ تلك الصيغة إلى صيغة المبنى للمفعول يشير إلى العكس. كذلك فات المترجمة شىء آخر هو أن جواب الشرط فى الآية صُبَّ فى قالب الماضى، أما ترجمتها فقد اعتمدت الفعل المضارع المسبوق بـ"السين/ سوف". ويريد القرآن، فيما أفهم، أن يشير إلى الزوجتين الكريمتين وقد سارعتا إلى التوبة لا أنهما سوف يصغى قلباهما لو تابتا.

وفى قوله تعالى: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ" تقول: " It was almost as if those who were ungrateful looked at thee sternly with their sight when they heard the Remembrance"، وهو ما يعنى كان الأمر تقريبا كما لو أن الكفار ("المنكرى النعمة" كما تقول هى دائما) كانوا ينظرون إليك بأعينهم فى صرامة حين سمعوا الذكر". فأما أنهم كانوا ينظرون إليه عليه السلام بصرامة وقسوة (وبحقد وبغضاء ورغبة فى التخلص منه...) حين سمعوا الذكر فقد كان هذا هو موقفهم دائما، فلا معنى للقول بأن الأمر يبدو وكأنهم كانوا ينظرون إليه بأبصارهم فى صرامة وقسوة. لكن المعنى هو أنهم بسبب هذا الحقد القتال المتبدى فى عيونهم لا يستطيعون إخفاءه يكادون يسقطونه بنظرات هذه العيون. ونحن نقول إن نظرات فلان الحاقدة تكاد تحرقنى.

وفى الآية من سورة "الحاقة" فى سياق الحديث عن إهلاك عاد تتوهم السيدة المترجمة أن هذه الجملة: "فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ" هى جملة استفهامية: " so wilt thou see the folk in it laid prostrate as if they had been uprooted fallen down date palm trees؟". وعبثا تحاول أن تعثر على أداة الاستفهام أو استخلاص معنى الاستفهام من السياق. وقد لاحظت مثل ذلك فى مواضع من ترجمتها للقرآن تتوهم أن فيها استفهاما، وهى تخلو تماما من أى معنى من معانى الاستفهام.

ويفوت المترجمة التنبه إلى أن صيغة الفعل الماضى فى الآية التالية: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (المعارج/ ٤) تدل فعلا على الماضى: (هكذا: The angels and the Spirit go up to Him on a Day whose measure had been fifty thousand years)

رغم أن المنطق يدرك تلقائيا أن هذه الصيغة فى سياقنا الحالى معناها أن الأمر يستغرق وكان يستغرق وسيظل يستغرق تلك المدة من السنين. فالملائكة لم تكن تعرج لربها فى خمسين ألف سنة ثم تغيرت المدة بعد ذلك. إنها مثل "وكان الله غفورا رحيما، وكان الله على كل شىء قديرا، وكان الله سميعا بصيرا" تدل على الديمومة والثبات. ولا ننس أن الفعل: "تعرج" هو فى صيغة الحاضر، فكيف يتم العروج الآن ثم يحسب الوقت الذى يستغرقه العروج بحساب الماضى؟

ولدن وصولنا إلى سورة "القيامة" نجد المترجمة تفسر "خسوف القمر" بأنه سيكون سببا فى أن تُبْتَلَع الأرض. كيف؟ والله هذا ما قالته حرفيا: " and the moon will cause the earth to be swallowed". المشكلة فى هذه الترجمة أنها لا تخطر على بال أحد، إذ ما العلاقة بين خسوف القمر وبين تسببه فى أن تبتلع الأرض؟ هذه قفزة عشوائية فى الهواء من سطح برج مكون من مائة طابق دون تفكير فى العواقب. إن الخسوف والكسوف معروفان ولا يحتاج أى إنسان إلى السؤال عن معناهما. ثم كيف يكون القمر، وهو منفصل عن الأرض وأصغر منها فى الحجم وتابع لها ويدور حولها، كيف يكون سببا فى أن يتم ابتلاعها؟ وما الذى سيبتلعها يا ترى؟ وكيف؟ إن الكون كله سيتفكك يوم القيامة وتسقط الأجرام السماوية وتصير الجبال ككثبان الرمال بل كالصوف المنفوش وسينطفئ القمر والشمس والنجوم. فمن أين أتت المترجمة بهذا الابتلاع؟

ولا نخرج من هذه الورطة إلا ونقع فى أخرى، فقوله تعالى فى نفس السورة عن أصحاب الوجوه الناضرة والوجوه الباسرة يوم القيامة: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ "

معناه أن هناك ناسا ناضرى الوجوه ينظرون إلى ربهم، وناسا باسرى الوجوه ينتظرون وقوع مصيبة لهم تكسر ظهورهم. بل إن تركيب الآيات قائم على التناظر: "وجوه ناضرة/ وجوه باسرة - إلى ربها ناظرة/ تظن أن يفعل بها فاقرة". لكن السيدة بختيار توهمت أن التاء فى "تظنّ" ليست تاء الغائبة المؤنثة بل تاء المخاطب المذكر، وأن الفعل مسند إلى النبى عليه السلام. فما هذا بحق الله؟ إن الوجوه الباسرة (والمقصود أصحابها) هى التى تظن أنها سوف تنزل بها فاقرة لا الرسول عليه السلام.

وقد لاحظت أيضا فى هذه الترجمة التى بين أيدينا، وهذا من الأشياء الإيجابية، أن كلمة "أُمّىّ، أُمّيُّون" فى كل المواضع التى وردت فيها قد تُرْجِمت بـ"unletterd"، أى لا يعرف/ون القراء والكتابة، على عكس ترجمات أخرى تتغيَّا نَفْىَ أُمّيَّة الرسول حتى يمكن أصحابَها الادعاءُ بأنه عليه السلام كان يقرأ الكتب ويقبس منها ويضع فى القرآن ما يشاء. صحيح أن هذه النتيجة لا تلزم عن تلك المقدمة بالضرورة، لكنها تصلح للتشويش ونشر الريبة. والطلقة التى لا تصيب تزعج! أياما يكن الأمر فهذه النقطة هى من النقاط الإيجابية فى الترجمة.

كذلك لم أجد فى الترجمة شيئا من اللَّىِّ لكلمتى "الجِبْت والطاغوت" عن معناهما إلى الإساءة لبعض الصحابة ولو عن طريق الإيماء من بعيد. وهذه نقطة إيجابية أخرى. ونقطة طيبة ثالثة هى خلو ترجمة الآية الخامسة والخمسين من سورة "المائدة" من تضييق مفهوم المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون بحيث لا ينطبق إلا على صحابى واحد نجلّه كرم الله وجهه ونبجّله ونحبه حبا شديدا ونضعه فى الصف الأول بين صحابة النبى ونفضله على كثيرين جدا منهم، لكنه ليس وحده كل المؤمنين المصلّين المزكّين، بل هو

واحد منهم ومن أصحاب المرتبة العليا فيهم: "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ"، فقد تمت ترجتها هكذا: " Your protector is only God and His Messenger and those who believed and those who perform the formal prayer and give the purifying alms and they are ones who bow down".

ذلك أن السياق هو سياق المقابلة بين من يوالون اليهود والنصارى ومن يوالون جماعة المؤمنين لا بين على وبين سائر الصحابة رضوان الله على الجميع، فضلا عن أن الضمير الذى يراد ليُّه إلى تلك الناحية هو ضمير جماعة الغائبين فى ذلك النص الطويل لا فرد واحد: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ".

وفى ترجمة الآية العاشرة من سورة "الرعد" حكاية عن الكافرين الذين يبتهلون إلى أوثانهم طالبين منها العون سُدًى، أى دون الحصول منهم على أى شيء: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ"، فقد ترجمتها الترجمة المستقيمة التى تمشى مع المنطق والواقع. قالت: " And those whom they call to other than Him, they respond not to them at all, but like one who stretches out the palms of his hands for water so that it should reach his mouth, but it is not that which reaches it".

لقد التصقتْ السيدة بختيار بالنص القرآنى ولم تخرج عنه كما فعل بعض المفسرين الذين يتحدثون فى هذا السياق عن عدم حصول من يحاول القبض على الماء بكفه على شيء رغم أنه لا وجود لهذه الصورة فى الآية، إذ تتحدث ترجمتها عن بسط اليد نحو الماء لا عن قبص أصابع اليد على الماء. قال ابن كثير مثلا: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، أى وَمَثَلُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً غَيْرَ اللَّهِ. كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: كَمَثَلِ الَّذِى يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ مِنْ طَرَفِ الْبِئْرِ بِيَدِهِ، وَهُوَ لَا يَنَالُهُ أَبَدًا بِيَدِهِ، فَكَيْفَ يَبْلُغُ فَاهُ؟ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ يَدْعُو الْمَاءَ بِلِسَانِهِ، وَيُشِيرُ إِلَيْهِ بِيَدِهِ، فَلَا يَأْتِيهِ أَبَدًا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ كَقَابِضٍ يَدَهُ عَلَى الْمَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنِّى وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِليكُمُو كَقَابِضِ مَاءٍ لم تَسُقْه أنامِلُهْ

وَقَالَ الْآخَرُ:

فأَصْبَحتُ مِمَّا كانَ بَيْنِى وَبَيْنَهَا مِن الوُدِّ مِثْلَ القابضِ المَاء بِاليَدِ

وَمَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّ هَذَا الَّذِى يَبْسُطُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ، إِمَّا قَابِضًا وَإِمَّا مُتَنَاوِلًا له من بُعد، كما أنه لا يَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ الَّذِى لَمْ يَصِلْ إِلَى فِيهِ، الَّذِى جَعَلَهُ مَحَلًّا

لِلشُّرْبِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ".

سيقال: إن عمل بختيار مجرد ترجمة تخلو من التعليقات الهامشية التى يمكن أن تكون محلا لإيراد التفسيرات المختلفة، ومن ثم لم تكن لتستطيع أن تورد التفسيرين وتوازن بينهما وتنتقى ما تراه صوابا. أى أنها هنا، كما يقول المثل، "مُكْرَهٌ أخاك لا بَطَل". لكن يمكن القول بأنها اختارت من بين التفسيرين التفسير الصحيح ولم تخرج عن منطوق الآية. كما أننى أحببت انتهاز هذه السانحة لأبين للقراء أن فى كتب التفسير أشياء غير مقبولة بما فى ذلك تفاسير الكبار. وأحيانا ما يورد المفسر التفسير السليم، لكنه يأبى أن يمضى دون إثارة جدل أو مشكلة فيورد الرأى الآخر مهما كان ضعفه وتهافته، وأحيانا ما يستطرد فيسوق شواهد لا تتسق مع التفسير الذى أورده كما هو الحال هنا، إذ أورد ابن كثير الذى استشهدت به آنفا رأيه، بيد أنه لم يكتف بذلك بل ساق شاهدين شعريين غريبين عما قالاه.

وبالمثل تُرْجِمَت الآيتان ٦٨-٦٩ من سورة "النحل": "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" على أن المقصود هو فعلا النحل وعسل النحل الذى نأكله لا العلم الذى يخرج من بطون بنى هاشم على ما قرأت فى بعض الكتب. لقد كان على كرم الله وجهه من العلم بالدين والشريعة فى المحل الأرفع، لكن لم يكن قد تزوج من فاطمة الزهراء بعد، ولم تكن الشريعة قد تبلورت فى ذلك العهد المكى حين نزلت هاتان الآيتان، زيادة على أن السياق سياق امتنان إلهى على العباد بما خلق لهم من الطعام

والشراب الشهى كالبلح والعنب واللبن والعسل والماء، ولا علاقة لهذا بالعلم الهاشمى أو غير الهاشمى.

وعلى نفس الشاكلة تُرْجِم قوله تعالى من سورة "الرحمن": "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ". فالسياق سياق امتنان وتهديد وليس سياق محاجة مع من لا يرون لعلى وأسرته ما يستحقون من فضل وإكرام وتكريم. وفوق هذا لم يكن الحسن والحسين عليهما السلام قد أتيا إلى الوجود بعد، إذ لم يكن على قد اقترن بفاطمة لأن النص مكى مثل نص سورة "النحل"، بل ربما كان أقدم منه.

ومما يحسَب كذلك للترجمة الثلاث كلمات التى أضيفت فى نهاية الآية الأولى من سورة "التوبة": "God and His Messenger declare disassociation from those with whom you made a contract among the ones who were polytheists who violated it: بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ". ذلك أن أعداء الإسلام يطيرون بصدر تلك السورة، وبخاصة الآية الخامسة، متهمين ديننا بأنه يأمر أتباعه بقتل من يقابلهم من المشركين من الباب للطاق فور انقضاء الأشهر الحرم. أى أنه دين إرهابى وعدوانى وإكراهى واستبدادى، وأضف إلى ذلك ما تشاء من أوصاف معيبة على هذه الشاكلة. فإضافة تلك الكلمات الثلاث تبين أن ذلك الحكم خاص فقط بالمشركين الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة سلام ثم نقضوها وقتلوا من الجانب الإسلامى وحلفائه بعض الناس غدرا وخسة وخيانة ووحشية. ورغم هذا لم يكتب لهذه الآية التنفيذ، إذ فتح المسلمون مكة قبل ذلك، ولم يحصل للمشركين أى قتل. ومع أن الآيات التى تلى ذلك تشرح

الوضع على النحو الذى أشرت إليه فليس من السهل على كل أحد أن يفهم أو يستخلص منها ما كتبناه. فمن الحصافة إضافة هذه الزيادة الصغيرة كيلا يضل عن فهمها من لا يعرفون العربية. على أنى لا أستريح إلى تكرار كلمة "who" ثلاث مرات شبه متتابعة فى الآية. ولو كان طه حسين قد سمع تلك الترجمة لقال: ما هذه الهَوْهَوَة؟

كذلك تنبغى الإشارة إلى أن الأشهر الحرم المذكورة فى بداية السورة هى الأربعة أشهر التى أمر الله تعالى المسلمين أن يعطوها للمشركين الخائنين فترة سماح يتحركون أثناءها على حريتهم دون خوف من عقاب بعدها تبدأ مؤاخذتهم على جريمتهم الشنعاء وليست الأشهر الحرم بإطلاق بل أشهرا حرما خاصة بهذا الموضوع: "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ".

وفى تعليقه على هذه الآيات يقول القسيس وِيرى فى تفسيره للقرآن إن محمدا، حين شامَ من نفسه القوة، قد تنكَّر لما كان عليه من قبل من تسامح مع

مخالفيه فى الدين، فها هو ذا يرفض بقاء الوثنية فى البلاد بعد الآن ويريد من معتنقيها إما الإسلام وإما السيف. وتجاهل القسيس الكذوب أن المشركين قد خانوا وغدروا وخاسوا بالعهد الذى كان بينهم وبين المسلمين، فكان أن رد عليهم النبى عليه السلام بنفس أسلوبهم لكن مع إعطائهم مهلة أربعة شهور يروحون فيها ويجيئون براحتهم فى أرجاء البلاد. ولو أنه انقض عليهم فى الحال وأطار رقابهم ما لامه أحد عنده ذرة من المنطق وفَهْم القانون. وبعيدا عن هذا كله فالملاحظ أن القسيس يشعر بلوعة الحزن لأن محمدا صار قويا وانتصر على الشرك والمشركين. لقد عبد سليمان الأوثان التى نصبها فى بيته لزوجاته المشركات عاصيا الله بهذا الكفر البشع حسبما كتب مؤلفو العهد القديم، ومع هذا فإن قسيسنا ذا القلب المغلول لا يجد فى هذا ما يستوجب كلمة انتقاد ولو هادئة وعابرة ونجولة. ولقد زنى أبوه داود بامرأة جاره اللصيق وقائده الذى يحمى دولته وأمر بقتله فى مؤامرة خسيسة حتى يَصْفُوَ له وجه المرأة، ورغم هذا لا يجد القسيس المفحش فى خصومته وحقده على دين التوحيد فى نفسه ما يدفعه إلى قول كلمة استنكار تافهة فى هاتين الواقعتين المجرمتين... والعهد القديم ممتلئ بمثل تلك التصرفات النبوية، التى يبلعها حلق هذا القسيس بلعا ويقول: "هل من مزيد؟" كما تقول جهنم يوم القيامة. لكنه يركبه مليون عفريت أزرق لأن دين التوحيد انتصر على الوثنية والشرك الشنيع. أهذه هى وصية السيد المسيح؟

هذا، وقد ذكرت الترجمة القاديانية الإنجليزية ذات الخمسة الأجزاء أن مهلة الأربعة الأشهر كافية لجّوب بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها، والمراد من السياحة أن يرى المشركون بأنفسهم أنهم لم تعد لهم أثارةٌ من ملك أو سلطان، وهو ما يؤكد وعد الله المتكرر لرسوله فى القرآن بأن الإسلام سوف ينتصر

انتصارا تاما ونهائيا على الشرك وغيره، وذلك حتى لا يكون لهم أية حجة بعد اليوم فى الاستمساك بأوثانهم وكفرهم بربهم.

ويلح وِيرِى على أن ثم تناقضا بين آيات افتتاحية "التوبة"، إذ تقول أولا إن الله ورسوله بريئان من المشركين الذين بينهم وبين المسلمين معاهدات، لتعود فتستثنى الذين يحترمون معاهداتهم ولم يخونوا أو يغدروا. ولا أدرى أين التناقض. إنما هو الاستثناء. ومعنى اعتراض وِيرِى أن نلغى باب الاستثناء من كل نحو فى العالم لأنه فى نظر قسيسنا الجاهل تناقض. هل إذا قلت إننى سوف أعطى كل طالب من طلابى ألف جنيه إلا فلانا وفلانا وفلانا أكون قد تناقضت إذ وعدت كل طالب أن يحصل منى على ألف جنيه ثم عدت وقلت إن فلانا وفلانا وفلانا لن يصلهم منى شىء؟ يا له من جاهل كبير أو ماكر حقير! لقد كان كلام القرآن فى هذا الموضوع واضحا ساطعا اللهم إلا لمن فى عينه عمى، وفى أذنه صمم أو كان مدخول الضمير.

ويقول وِيرِى أيضا إن إجارة المشرك فى هذه الآيات غايتها أن يسمع كلام الله، الذى ليس أمامه حينئذ إلا الإيمان به أو القتل. والسؤال: أين هذا الكلام فى السورة؟ إلى القارئ ما تقوله الآيات: "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ". فأين بالله ما يزعمه ويرى على القرآن المجيد؟ أين اشتراط الإسلام أن يؤمن المشرك المستجير أو تطير رقبته؟ تالله إنه لكذابٌ أَشِرٌ. أما قول الله تعالى بعد ذلك بقليل: "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ " فلا صلة له بالمستجيرين بل بخائنى العهود، فهؤلاء إن أسلموا فإخوان المسلمين، وإن نكثوا

أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى الإسلام كلاما ومؤامرات فليس لهم منا سوى القتال. القتال يا وِيرِى لا القتل! وحتى لو كان القتل فهو عقاب عادل للخائنين القتلة.

كذلك يتنطع وِيرِى فيتهم الإسلام بأن التقوى التى يتطلبها من المشركين المنخلعين عن وثنيتهم هى تقوى خارجية، ألا وهى إقامة الصلاة، بينما التقوى فى النصرانية شىء آخر يدل على الفرق بين البهتان والصدق. ومضى هذا الحقود دون أن يقيم لنا مقارنة بين تقوانا وتقواهم، ومن ثم ظل كلامه مجرد أصوات لا تعنى شيئا. وهذا الجاهل يأتى بكلام من عنده وينسبه إلى القرآن، فالقرآن لم يتطرق إلى التقوى هنا بتاتا بل قال: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة..." ولم يقل: "فإن اتَّقَوْا...". وهل إخراج الزكاة للفقراء ليس دليلا على التقوى؟ فما التقوى إذن؟ ثم إن الإسلام لا ينقِّب عن قلوب العباد ما دام خيرهم كافيا شَرَّهم. فهل أَمَر المسيح يا ترى أو بولس بإجراء عمليات قلب مفتوح على النصارى للتأكد من أنهم متقون، بخلاف الإسلام، الذى يكتفى بإعطاء بعض البرشام؟ وطبعا كان الحواريون يخرّون تقوى وورعا حين أسلموا نبيهم، أو ابن ربهم حسب اعتقاد النصارى المثلثين، لمصيره التاعس وهربوا جميعا، فلم يحاول أى منهم الدفاع عنه. وآخر واحد فيهم حين تنبه له أعداء عيسى وعرفوا أنه كان من أتباعه وأمسكوه من ملابسه بغية القبض عليه قد خلع ثوبه وتركه فى أيديهم وجرى بغاية قواه فرارا منهم وهو عارٍ. يا لها من تقوى! ثم إن الرسول يؤكد أن التقوى إنما تكون فى القلب لا فى المظاهر الخارجية. ألم يقل عليه السلام: "التقوى هاهنا. التقوى هاهنا. التقوى هاهنا" وهو يشير إلى صدره؟ ترى بالله ما الذى يمكن أن نقوله فى هذا الرجل المسمى: "وِيرِى"؟ هذا قسيس كذاب حقود يؤثر الوثنية على التوحيد.

وبالنسبة لقول المفسرين إن سورة "التوبة" قد نزلت بالسيف ونَبْذ العهود لقد كان ينبغى التوضيح حتى لا يظن ظان أن الإسلام ينبذ العهود كما يحلو له دون أن يكون هناك أسباب تحمله على هذا، وكأن الإسلام يتبع سياسة مكيافلى التى بسطها فى كتابه: "الأمير". ففى سورة "الأنفال": "وإما تخافَنَّ من قوم خيانةً فانْبِذْ إليهم على سواء"، ومعنى هذا أن الإسلام لا يبادئ بالنبذ بل ينبذ متى كان هناك خوف من غدر طرف المعاهدة الآخر. فما بالنا إذا لم تكن المسألة مجرد خوف من غدر الطرف الآخر بل غدر وقع وانتهى الأمر قُتِل فيه بعض حلفاء المسلمين فى صلح الحديبية؟ والدليل على ما نقول أن آيات سورة "التوبة" نفسها التى تلت آيات البراءة تميز بين معاهَدين غدروا وخانوا فيستحقون العقاب الصارم والقتل مقابل القتل وبين معاهَدين لم يخونوا ولم يغدروا واحترموا معاهداتهم معنا مما يستوجب أن نُتِمّ لهم معاهدتهم إلى نهاية مدتها. أحيانا ما يسهو علماؤنا فيقولون كلاما غير دقيق لأنهم يظنون أنه ما دام واضحا فى أذهانهم فهو تلقائيا واضح نفس الوضوح فى أذهان القراء والسامعين. وكلنا معرضون لهذا، وقد جعل الله الكتابة والخطابة لينبه بعضنا بعضا إلى مثل ذاك السهو.

وفى تعليقه على هذه الآيات يقول القسيس وِيرِى إن محمدا حين شَامَ من نفسه القوةَ قد تنكَّر لما كان عليه من قبل من تسامح مع مخالفيه فى الدين، فها هو ذا يرفض بقاء الوثنية فى البلاد بعد الآن ويريد من معتنقيها إما الإسلامَ وإما السيفَ. وتجاهَل القسيسُ الكذوبُ أن المشركين قد خانوا وغدروا وخاسُوا بالعهد الذى كان بينهم وبين المسلمين، فكان أنْ رَدَّ عليهم النبى عليه السلام بنفس أسلوبهم لكن مع إعطائهم مهلة أربعة شهور يروحون فيها ويجيئون براحتهم فى أرجاء البلاد. ولو أنه انقض عليهم فى الحال وأطار رقابهم

ما لامه أحد عنده ذرة من المنطق وفَهْم القانون. وبعيدا عن هذا كله فالملاحظ أن القسيس يشعر بلوعة الحزن لأن محمدا صار قويا وانتصر على الشرك والمشركين. لقد عبد سليمان الأوثان التى نصبها فى بيته لزوجاته المشركات عاصيا الله بهذا الكفر البشع حسبما كتب مؤلفو العهد القديم، ومع هذا فإن قسيسنا ذا القلب المغلول لا يجد فى هذا ما يستوجب كلمة انتقاد ولو هادئة وعابرة ونحجولة. ولقد زنى أبوه داود بامرأة جاره اللصيق وقائده الذى يحمى دولته وأمر بقتله فى مؤامرة خسيسة حتى يصفو له وجه المرأة، ورغم هذا لا يجد القسيس المفحش فى خصومته وحقده على دين التوحيد فى نفسه ما يدفعه إلى قول كلمة استنكار تافهة فى هاتين الواقعتين المجرمتين... والعهد القديم ممتلئ بمثل تلك التصرفات النبوية، التى يبلعها حلق هذا القسيس بلعا ويقول: "هل من مزيد؟" كما تقول جهنم يوم القيامة. لكنه يركبه مليون عفريت أزرق لأن دين التوحيد انتصر على الوثنية والشرك الشنيع. أهذه هى وصية السيد المسيح؟ هذا، وقد ذكرت الترجمة القاديانية الإنجليزية ذات الخمسة الأجزاء أن مهلة الأربعة الأشهر كافية لجَوْب بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها، والمراد من السياحة أن يرى المشركون بأنفسهم أنهم لم تعد لهم أثارةٌ من ملك أو سلطان، وهو ما يؤكد وعد الله المتكرر لرسوله فى القرآن بأن الإسلام سوف ينتصر انتصارا تاما ونهائيا على الشرك وغيره، وذلك حتى لا يكون لهم أية حجة بعد اليوم فى الاستمساك بأوثانهم وكفرهم بربهم.

ويلح وِيرِى على أن ثم تناقضا بين آيات افتتاحية "التوبة"، إذ تقول أولا إن الله ورسوله بريئان من المشركين الذين بينهم وبين المسلمين معاهدات، لتعود فتستثنى الذين يحترمون معاهداتهم ولم يخونوا أو يغدروا. ولا أدرى أين

التناقض. إنما هو الاستثناء. ومعنى اعتراض وِيرِى أن نلغى باب الاستثناء من كل نحو فى العالم لأنه فى نظر قسيسنا الجاهل تناقض. هل إذا قلت إننى سوف أعطى كل طالب من طلابى ألف جنيه إلا فلانا وفلانا وفلانا منهم أكون قد تناقضت إذ وعدت كل طالب أن يحصل منى على ألف جنيه ثم عدت وقلت إن فلانا وفلانا وفلانا لن يصلهم منى شىء؟ يا له من جاهل كبير أو ماكر حقير! لقد كان كلام القرآن فى هذا الموضوع واضحا ساطعا اللهم إلا لمن فى عينه عمى، وفى أذنه صمم، أو كان مدخول الضمير.

ويقول وِيرِى أيضا إن إجارة المشرك فى آيات أول السورة غايتها أن يسمع كلام الله، الذى ليس أمامه حينئذ إلا الإيمان بالإسلام أو القتل. والسؤال: أين هذا الكلام فى السورة؟ إلى القارئ ما تقوله الآيات: "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ". فأين بالله ما يزعمه ويرى على القرآن المجيد؟ أين اشتراط الإسلام أن يؤمن المشرك المستجير أو تطير رقبته؟ تالله إنه لكذاب أشر. أما قول الله تعالى بعد ذلك بقليل: "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ " فلا صلة له بالمستجيرين بل بخَائِنِى العهود، فهؤلاء إن أسلموا فإخوان المسلمين، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى الإسلام كلامًا ومؤامراتٍ فليس لهم منا سوى القتال. القتال يا وِيرِى لا القتل! وحتى لو كان القتل فهو عقاب عادل للخائنين القتلة.

كذلك يتنطع وِيرِى فيتهم الإسلام بأن التقوى التى يتطلبها من المشركين المنخلعين عن وثنيتهم هى تقوى خارجية، ألا وهى إقامة الصلاة، بينما

التقوى فى النصرانية شئ آخر يدل على الفرق بين البهتان والصدق. ومضى هذا الحقود دون أن يقيم لنا مقارنة بين تقوانا وتقواهم، ومن ثم ظل كلامه مجرد أصوات لا تعنى شيئا. وهذا الجاهل يأتى بكلام من عنده وينسبه إلى القرآن، فالقرآن لم يتطرق إلى التقوى هنا بتاتا بل قال: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة..." ولم يقل: "فإن اتَّقَوْا...". وهل إخراج الزكاة للفقراء ليس دليلا على التقوى؟ فما التقوى إذن؟ ثم إن الإسلام لا ينقب عن قلوب العباد ما دام خيرهم كافيا شرهم. فهل أمر المسيح يا ترى أو بولس بإجراء عمليات قلب مفتوح على النصارى للتأكد من أنهم متقون، بخلاف الإسلام، الذى يكتفى بإعطاء بعض البرشام؟ وطبعا كان الحواريون يخرّون تقوى وورعا حين أسلموا نبيهم أو ابن ربهم حسب اعتقاد كتبة الأناجيل لمصيره التاعس وهربوا جميعا، فلم يحاول أى منهم الدفاع عنه. وآخر واحد فيهم، حين تنبه له أعداء عيسى وعرفوا أنه كان من أتباعه وأمسكوه من ملابسه بغية القبض عليه، قد خلع ثوبه وتركه فى أيديهم وجرى بغاية قواه فرارا منهم وهو عارٍ. يا لها من تقوى! ثم إن الرسول يؤكد أن التقوى إنما تكون فى القلب لا فى المظاهر الخارجية. ألم يقل عليه السلام: "التقوى هاهنا. التقوى هاهنا. التقوى هاهنا" وهو يشير إلى صدره؟ ترى بالله ما الذى يمكن أن نقوله فى هذا الرجل المسمى: "وِيرِى"؟

ومن القضايا التى حفزتنى هذه الترجمة إلى تناولها قضية ورود النار. قال تعالى فى سورة"مريم": "وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا

كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا". لقد ترجمت د. بختيار الوُرُودَ فى هذا النص على أنه المَشْىُ على الصراط (And there is none of you but will pass over Hell)، وهو يشمل بطبيعة الحال المؤمنين والكافرين على السواء. ويفهم من هذا أن المؤمنين سوف يجوزون الامتحان وينطلقون على الصراط الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف دون أن يضطربوا أو يسقطوا فى الهاوية المتلظية، فى حين لا يستطيع الكافرون هذا بل يقعون فى نار الحريق، وبئس المصير! وقال بعض المفسرين: الكل سوف يردون النار لكن المؤمنين سوف يردونها قبل أن تُسَعَّر، أى حينما تكون خامدة لا تزال. وقال آخرون: يردها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون بأعمالهم. وفى رأى مفسرين آخرين: ورود المؤمنين النار يكون فى الدنيا فى صورة ما يصيبهم من حُمًّى ومرضٍ. ويقول قوم إن الورود لايكون إلا للكفار،أما المؤمن فلا يردها.

ويرى القارئ أنى أوردت الآية فى سياقها كاملا. وواضح أن الكلام فيها عن الكفار متمثلين فى الإنسان الذى ينكر العبث ويتساءل عنه فى سخرية. فالكلام كله عمن ينكرون البعث. ومن ثم فقوله سبحانه: "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا" يخاطب الكافرين لا البشر جميعا: مؤمنَهم وكافرَهم. وأما قوله تعالى: "ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا" فهو كالاستثناء المنقطع مثل قولنا: "سكت الطلاب إلا حمارا"، والحمار لا يدخل فى الطلاب، ورغم ذلك استثنيناه منهم كأنه ينتمى إليهم. ومثله فى القرآن: "فإنهم (أى الأوثان) عدوٌّ لى إلا رب العالمين"، ورب العالمين ليس من آلهة المشركين الذين هم عدو الخليل إبراهيم، ومع هذا استُثْنِىَ منهم. وقولى هذا قائم على تتبعى لكثير من أساليب القرآن. ويعضد كلامى أنه لم يسبق للمؤمنين

ذكر فى الآيات موضوع هذه القضية. على كل حال فالمؤمنون ليسوا داخلين النار على أى وضع.

هذا، وقد شد انتباهى فى الترجمة أن لاله بختيار قد أدت الآية الأخيرة من النص السابق على النحو الآتى: " Then We shall deliver the Godfearing, and shall leave the wrongdoers in it (Hell) down on their knees"، معتمدة صيغة اسم الفاعل فى ترجمة كل من "الذين اتَّقَوْا" (موصول وصلته) و"الظالمين" (اسم فاعل) مخالفة بذلك ما أرستْه من قواعد ذكرت أنها سوف تسير عليها فى الترجمة، إذ قالت إنها سوف تحول كل أسماء الفاعلين إلى اسم موصول وجملة صلة.

وتستحق الترجمة أن نشير إلى صحة تأديتها كلمة "اكتتبها" فى قوله سبحانه وتعالى: "وقالوا: أساطيرُ الأوَّلين اكْتَتَبَهَا" بما يعنى "أمر بكتابتها"، ولم تقل "كتبها (بنفسه) على عادة من يُجْلِب من المبشرين وأمثالهم ممن يكيدون للإسلام ونبيه، إذ يقولون إن القرآن يقر بأنه عليه السلام كان يكتب، متجاهلين عدة حقائق: الأولى أن أحدا لم يره أو يسمع يوما أنه كان يقرأ كتابا أوحتى ورقة ولا رأى فى يده كتابا أو قلما وورقا. الثانية أنه كان له كُتَّاب يكتبون رسائله وما ينزل عليه من وحى، ولم يحدث قط أن أخذ القلم من أحدهم وخط شيئا مما يكتبون. والثالثة أنهم لم يتخذوا من هذه الكلمة دليلا يَشْغَبُون به على النبى ويتهمونه بأنه ليس أميا بمعنى عدم استطاعته القراءة والكتابة بل بمعنى أنه من غير بنى إسرائيل، غير عابئين بما قاله القرآن والحديث. فقد قال القرآن عن اليهود: "ومنهم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتابَ إلا أَمَانِيَّ"، أى لا يعرفون الكتابة ولا القراءة، إذ لا يصح القول عن إسرائيليين بأنهم من الأمم غير الإسرائيلية، فضلا عن أن معنى "لا يعرفون الكتابة والقراءة" قد حدده الرسول فى قوله:

"نحنُ أُمَّةٌ أُمّيُّون لا نَحْسُبُ ولا نكْتُبُ. الشهرُ هكذا وهكذا وهكذا. وقبَض إبهامَه فى الثالثةِ".

و"أساطير الأولين" ليست هى الخرافات كما ترجمتها بختيار (fables) بل معناها الحكايات المسطورة. أما معنى "الأساطير" كما نفهمها اليوم فهو معنى لم يكن يعرفه العرب أوانئذ. وكان ينبغى أن تتنبه الأستاذة المترجمة إلى ذلك. قال الطبرى أقدم المفسرين الكبار وأستاذهم: "ذِكْر أن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث، وأنه المعنىُّ بقوله: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" ذِكْر من قال ذلك: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا يونس بن بكير، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنا شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى من شياطين قريش، وكان يؤذى رسول الله ﷺ، وينْصِب له العداوة، وكان قد قَدِم الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسا، فذكّر بالله وحدّث قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خَلَفَه فى مجلسه إذا قام، ثم يقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه. فهَلُمُّوا، فأنا أحدِّثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار، ثم يقول: ما محمد أحسن حديثا منى. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى فى النضر ثمانى آيات من القرآن، قوله: "إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" وكل ما ذُكِر فيه الأساطير فى القرآن". ومن معانى "الأساطير" الأحاديثُ التى لا نِظامَ لها، جَمْعُ إسْطارٍ وإِسْطيرٍ وأُسْطُورٍ. و"أساطير الأوّلين" ما سطَّره الأوّلون فى الكتب. و"الأسطورة من الناس": الذى يؤلف الكلام ويهذبه.

أما اتهام المشركين للنبي بأنه أخذ القرآن من أساطير الأولين فالملاحظ أن القرآن لا يقف عنده بل يكتفى بوسمه بالظلم والزور، مؤكدًا أن الوحى منزل من عند الله. أيًا ما كان الأمر فلو كان هذا الاتهام صحيحًا لردده عبد الله بن جحش (الذى تنصر فى الحبشة بعد إسلامه) هو ورسولا قريش على مسامع النجاشى حين ذهب هذان لتأليبه على المسلمين المهاجرين لديه، أو لردَّده أبو سفيان ومن معه أمام هرقل حين سألهم عن محمد وعن صفاته. وقد كانت هاتان فرصتين ثمينتين للدعاية ضد دعوة محمد. بيد أن قريشًا كانت تعرف أنها تكذب وتتقوَّل رغبة منها فى التشويش بالباطل على دعوة الإسلام، وإلا فإذا كانوا صادقين فلِمَ آمنوا بمحمد بعد ذلك وحاربوا أعداء دينه ولم نسمع أحدًا منهم قط يردد هذه التهمة القديمة ولو من باب استعادة الذكريات؟

وهنا نقطة مهمة، فإن المستشرقين يزعمون أن الرسول عليه السلام كان يستطيع القراءة والكتابة. وهم يريدون من وراء ذلك أنه كان يقرأ الكتب السماوية السابقة وما إلى ذلك، وأنه قد تعلم منها. وهو مَزْعم متهافت، فإن القرآن قد وصفه فى موضع بـ"النبى الأمى". كما أكد فى موضع آخر أنه لم يكن يتلو قبل نزول القرآن عليه من كتاب أو يخطه بيمينه. ولو كان كلام القرآن غير صحيح لما سكت الكفار، ولسجل القرآن نفسُه كالعادة ردهم عليه. إن "ألفريد جيوم" مثلًا يشكك فى أمِّيَّة النبى عليه الصلاة والسلام، وحجته أنه من غير المعقول أنْ كان يطمئن إلى أحد غيره فى قراءة الفواتير أيام اشتغاله بالتجارة، أو فى قراءة ما يرد إليه من رسائل بعد ذلك عندما أصبح نبيًّا. كما أن إحدى الروايات المبكّرة تعزو إليه الكتابة يوم صلح الحديبية. وهو يفسر آية "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك" بأن المقصود بذلك هو كتب اليهود والنصارى، وأن أميته (إن صح ما تقوله الآية) إنما استمرت إلى

بداية رسالته فقط. والحقيقة أن الآية المذكورة تنفى أنه كان يقرأ أى كتاب، فلا معنى إذن لقصر ذلك على كتب اليهود والنصارى. أما فهمه لقوله تعالى: "وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ" بمعنى أنك، وإن كنت قبل ذلك تجهل القراءة والكتابة، فإنك الآن تستطيع فهو فهم غريب، إذ إن حجة القرآن بذلك تتهافت وتصبح غير ذات معنى، لأن رد الكفار حينئذ سيكون كالتالى: "ما دمت تعرف الآن القراءة والكتابة فهذا معناه أنك تستطيع أن تنظر فى كتب السابقين وتنقل منها". ولكنهم لما لم يجدوا جوابًا كان ذلك دليلًا على أن فهم جيوم للآية غير سليم، وأن المقصود منها هو أنه عليه الصلاة والسلام كان قبل ذلك وظل بعده أمِّيًّا، وإلا فالواحد يستطيع، على طريقة هذا المستشرق، أن يقول إن القرآن ينفى أن يكون محمد قادرًا على أن يخط شيئًا بيمينه، ولكنه لم ينف قدرته على ذلك بيده الشمال، فمحمد إذن كان يكتب ولكن بيسراه. وهو، كما ترى، فهم مضحك. إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد فسر الأُمّيِة عَرَضًا أثناء حديثه عن الشهور القمرية، إذ قال: "إنا أُمّةٌ أمّية لا نكتب ولا نحسب. الشهر هكذا وهكذا. يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين".

أما قول ألفريد جيوم إن إحدى الروايات قد ذكرت أن الرسول كتب بيده فى صلح الحديبية فالرد عليه هو أن الرواية المتلقاة بالقبول هى أنه أمر بكتابة ما طلب المشركون من تعديل فى بعض ألفاظ الصلح. أما الرواية التى يشير إليها فهى إن صحت يكن المقصود منها هو المعنى المجازى كما هو الحال فى قولنا: "حارب السادات إسرائيل" و "بنى عبد الناصر السد العالى" وما إليه. ومثله ما ورد فى البخارى من أن الرسول عليه السلام قد اتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه "محمد رسول الله"، إذ لا يعقل أن الرسول هو الذى نقش ذلك بنفسه، فهو لم يكن نقاش خواتم، بل المقصود أنه أمر بذلك، وإن كانت

الرواية التى أشار إليها جيوم قد نصت على أن الرسول كتب فعلًا بيده اسمه فلا يدل على معرفة بالقراءة والكتابة، فربما كان عليه السلام يستطيع كتابةَ اسمه وقراءتَه فقط كما هو الحال بين كثير من الأُمِّيِّين الذين نعرفهم. أما الاتهام الثانى فالملاحظ أن القرآن لا يقف عنده بل يكتفى بوسمه بالظلم والزور، مؤكدًا أن الوحى منزل من عند الله. أيًا ما كان الأمر فلو كان هذا الاتهام صحيحًا لردده عبد الله بن جحش (الذى تنصر فى الحبشة بعد إسلامه) هو ورسولا قريش على مسامع النجاشى حين ذهب هذان لتأليبه على المسلمين المهاجرين لديه، أو لردَّده أبو سفيان ومن معه أمام هرقل حين سألهم عن محمد وعن صفاته. وقد كانت هاتان فرصتين ثمينتين للدعاية ضد دعوة محمد. بيد أن قريشًا كانت تعرف أنها تكذب وتتقول رغبة منها فى التشويش بالباطل على دعوة الإسلام، وإلا فإذا كانوا صادقين فلِمَ آمنوا بمحمد بعد ذلك وحاربوا أعداء دينه ولم نسمع أحدًا منهم بعد قط يردد هذه التهمة القديمة ولو من باب استعادة الذكريات؟

وأما استبعاده أن يطمئن النبى عليه الصلاة والسلام إلى أحد غيره يكتب له الفواتير ويقرأ له الرسائل التى ترد فليس له أساس إلا مجرد الهوى، وإلا فإن كثيرًا من التجار والمقاولين فى القاهرة المعاصرة، التى لا شك أن مستواها الحضارى والثقافى أرقى ألف مرة من مستوى مكة فى ذلك الزمان، لا يستطيعون القراءة والكتابة ولا يمنعهم ذلك من النجاح فى تجارتهم إلى درجة أن بعضهم يصبح مع مر الأيام مليونيرًا. لا ليس من المعقول أن يعيش النبى ثلاثًا وستين سنة فلا نسمع بواقعة محددة كتب فيها رسالة أو قرأ فيها كتابًا أو حتى ورقة سوى هذه الإشارة المقتضبة إلى أنه كتب فى صلح الحديبية كلمة لم

يَرْضَ الكاتب المسلم أن يكتبها بنفسه، فنسارع إلى تصديق هذه الإشارة المقتضبة المغموزة ونهمل كل تلك الوقائع القاطعة.

ولعل من المناسب هنا أن نهتبل الفرصة لتوضيح معنى "اكتتب"، فإنه إذا كان من معانيها "كتب" فمن معانيها أيضا "اكتتب فلانٌ فلانًا: استملاه، استكتبه، سأله أن يكتب له. واكتتب فلانٌ القصَّةَ: اختلقها، ابتدعها". على أية حال ليس من الحكمة فى شيء أن نتمسك برواية واحدة غير مشهورة ولم ترد فى المصادر الأصلية لسيرة الرسول عليه السلام ونترك كل الروايات الأصلية المتضافرة على أنه عليه السلام كان أمّيًا. لهذا يرانى القراء أثنى على د. بختيار لترجمتها الفعل: "اكتتب" بمعنى أنه أمر بكتابتها لا أنه كتب بيده.

ويحسب للترجمة أيضا زيادة السيدة بختيار كلمة "a vessel" فى آية سورة "القمر": "فحملناه على ذات ألواح ودُسُرٍ" كى يتضح المعنى (هكذا: " And We carried him on a vessel of planks and caulked")، وإلا فكيف يفهم الرجل غير المسلم أن "ذات ألواح ودسر" تعنى السفينة؟ وعلى نفس الوتيرة زادت المترجمة كلمة "نوح" فى ترجمة قوله تعالى: "تجرى بأعيننا جزاء لـ"نوح" من كان كُفِر: a recompense for Noah who had been disbelieved". ومن الناحية الأخرى، نراها، كما هو واضح فى الترجمة، تستعمل كلمة "كُفِر" دون تمييع لمعنى الكفر وأنه نكران النعمة أو جحد الجميل.

ومما ينبغى التوقف أمامه أيضا ترجمتها السليمة فى الآية التالية من سورة "الصَّفّ" للفعل المضارع المسبوق بـ"قَدْ"، وهو تركيب نفهمه ونستعمله عادة فى عصرنا الحديث على أنه تركيب يفيد الشك أو الاحتمال على الأقل، بينما يأتى أحيانا فى الأسلوب القرآنى لإفادة التحقق لا الاحتمال ولا الشك." O my folk! Why malign me while, surely, you know that I am

the Messenger of God to you؟". لقد درسنا فى النحو العربى أن "قد" إذا دخلت على الماضى تكون للتحقيق كما فى قولنا: "قد أكل ونام". أى تم ذلك فعلا. أما إذا دخلت على المضارع فعادة ما تعنى الشك أو التقليل أو الاحتمال كما فى المثال التالى: "قد يأكل وربما لا يأكل". ومع هذا فقد تكرر مجيئها مع المضارع فى القرآن للتحقيق: "وإذ قال موسى لقومه: يا قوم، لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم؟" (الصف)، "قد يعلم الله المعوِّقين منكم" (الأحزاب)، "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِوَاذًا"، "قد يعلم (أى الله) ما أنتم عليه" (النور)، "ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلّمه بشر" (النحل)، "قد نعلم إنه ليَحْزُنك الذى يقولون" (الأنعام)، "قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء" (البقرة). والملاحظ أن الفاعل فى كل شواهدها القرآنية ما عدا واحدا هو الله سبحانه وتعالى، وأنها كلها ما عدا واحدا تنتمى إلى الوحى المدنى، وهو شاهد سورة "البقرة". وممن يستعمل "قد" مع المضارع للتحقيق فى عصرنا د. طه حسين، وهو فى هذا متأثر بالقرآن. وأحيانا ما يستعملها كاتب هذه السطور أيضا بهذا المعنى.

وبعد فقد كانت هذه نظرات هنا وهناك فى ترجمة لاله بختيار للقرآن الكريم. لقد كانت وما زالت هناك ضجة شديدة تدعى أن هذه الترجمة قد وضعت الأمور فى نصابها وأعطت الزوجة حقها ولم يعد أحد يستطيع التحجج بعد اليوم بالآية الرابعة والثلاثين من سورة "النساء"، التى تجعل ضرب الرجل زوجته المتمردة النكدة أحد الخيارات التى يمكن أن يلجأ إليها الزوج لإعادة الأمور فى البيت إلى الهدوء والسكينة، إذ تزعم بختيار أن قوله عز شأنه: "واضربوهن" لا يعنى الضربَ الذى نعرفه بل تركَ البيت والمضىَّ بعيدا إلى أن ينفذ الله مشيئته، وذلك رغم أن الضرب هو آخر الحلول، وليس أولها، ورغم

تنفير النبى عليه السلام من ضرب الرجال لزوجاتهن كمبدإ عام، ورغم أن الضرب المقصود ليس هو ضرب الإيلام الجسدى أو النفسى بل ضرب التعبير عن عدم رضا الزوج عن سلوك امرأته ورغبته فى أن تترك عنادها ونشوزها حتى تمضى سفينة الأسرة فى طمأنينة وسلام. وأهم من ذلك كله أن تفسير د. بختيار للضرب فى السورة المذكورة هو تفسير خاطئ بل جاهل ولا يمكن صدوره عن أى شخص يفهم العربية ولو فى أدنى مستوياتها حسبما بينتُ خلال هذه الدراسة. ثم إن ترجمتها لا تمثل انقلابا فى الفكر الإسلامى وتفسير القرآن كما يدعى المدَّعون، إذ لم تظهر مخالفتها لما يقوله المفسرون السابقون فى موضوع المرأة، فى نطاق علمى، إلا فى هذه الآية.

وكنت قرأت تقريرا فى موقع "قناة الجزيرة" بعنوان "أميركية فارسية تفسر القرآن بوجهة نظر نسائية" عن هذه الترجمة (٢٤/ ٣/ ٢٠٠٧م) جاء فيه "يطعن تفسير جديد للقرآن الكريم باللغة الإنجليزية فى استخدام كلمات يقول مؤيدو المساواة بين الرجل والمرأة إنها اسْتُخْدِمَتْ لتبرير انتهاكات حقوق المرأة المسلمة. وستُنْشَر النسخة الجديدة التى ترجمتها الدكتورة لاله بختيار الأميركية من أصل إيرانى فى أبريل/نيسان المقبل، ويأتى ذلك بعد تجمع فى نيويورك فى نوفمبر/تشرين الثانى الماضى رعتْه منظماتٌ مسيحية ويهودية لدعم المساواة بين الرجل والمرأة. وتعهَّد هذا التجمع حينها بتشكيل أول مجلس من النساء لتفسير القرآن وجعل الدين أكثر ودا تجاه المرأة. فى الكتاب الجديد تتحدى الدكتورة لاله بختيار المحاضرةُ السابقةُ فى الإسلام بجامعة شيكاغو ترجمة كلمة "اضرب" العربية التى تترجم عادة بمعنى الضرب والتى يقول مؤيدو المساواة بين الرجل والمرأة إنها استخدمت لتبرير انتهاكات حقوق النساء. وكتبت فى مقدمة الكتاب الجديد تتساءل عن سبب اختيار المعنى الظاهرى للكلمة، وهو

الضرب، بينما يمكن أيضا أن تعنى "امض بعيدا". كانت بختيار تشير إلى كلمة "واضربوهن" الواردة فى آية من القرآن هى قوله تعالى "واللاتى تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فى المَضاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيرًا". وتقترح بختيار تفسيرا يقول "ينبغى للأزواج الذين يصلون إلى تلك المرحلة الخضوع لله وترك الأمر له امضوا بعيدا عنهن ودعوا الله ينفذ مشيئته بدلا من أن يصيب إنسان إنسانا آخر بألم باسم الله".

ويلفت النظر الجهات التى تقف وراء هذه الترجمة وتنفخ فى أنف صاحبتها وتشجعها موهمة إياها أنها حققت فتحا مبينا عظيما بِلَيِّها الكَلِمَ القرآنىَّ فى بعض المواضع عن معانيه الحقيقية. وعجيب أن تحمل بختيار على ضرب الزوجة النكدة كحل أخير لمن لم يستطع الصبر أطول مما صبر، استنقاذا للأسرة بتصويره إيلاما من إنسان لإنسان باسم الله، وكأن الدين لم يرس عقوبات ثقيلة الوطأة على البشر فى الدنيا والآخرة. إن الحياة ليست فلما رومانسيا بل يحتوى شريطها على أسباب السعادة وعوامل الشقاء، ولا مناص للبشر من تذوق الكأسين. إن ضرب الزوجات ليس هو الوضع المثالى، لكنه قد ينجى سفينة الأسرة من الغرق. وما أكثر ما يلجأ الأطباء إلى بتر القدم مثلا مفادين بها وضعا آخر أشد بشاعة وشنعا.

ومن العجيب أن تتعهد هذه الجهة التى وراء الترجمة البختيارية بتشكيل أول مجلس من النساء لتفسير القرآن وجعل الدين أكثر ودا تجاه المرأة. إن هذا معناه أن القرآن لا يبدى ودا كافيا للمرأة. وهذا كذب وادعاء زائف، فليس هناك دين يكرم المرأة كالدين الذى أتى به سيد الأنبياء والرسل الكرام. وأحكام القرآن فى هذا معروفة لكل مسلم. ولا أظننى بحاجة إلى سردها هنا. وتعتمد لاله بختيار، لنصرة دعواها، على أن الرسول لم يضرب أيا من زوجاته.

فهل نشزت عليه أى من زوجاته وصارت تعانده وتشاقه وتعمل على التنكيد عليه ورغم ذلك لم يعاقبها؟ وثانيا هل يصح أن نتخذ من كون الرسول لم يقطع يد فاطمة أن قطع اليد فى الإسلام خروج على روح الإسلام؟ ترى هل سرقت فاطمة ومع هذا لم يقطع محمد يدها؟ وبالمثل هل يمكن اتخاذ عدم ملاعنة الرسول لأى من زوجاته تكأة لإلغاء الملاعنة بين الزوجين عند توفر شروط الملاعنة؟ بالطبع لا وألف لا. ذلك أنه لم توجد العوامل التى تتطلب هذه الملاعنة أصلا. فهذا هو السؤال. وقد قرأت، من منطلق المعاضدة لما قالته بختيار فى ترجمة آية الضرب أن الإسلام لم يحكم بالضرب على أى خطإ يجترحه الإنسان، فكيف يحكم القرآن بضرب النساء؟ إن هذا شذوذ غير مفهوم! هكذا يقولون. والرد ميسور غاية اليسر. فالقرآن يحكم على الزانى بالجلد ثمانين جلدة. والحديث ينبهنا إلى أن الولد يمكن تأديبه إذا نضج وظل مع هذا لا يصلى. وبطبيعة الحال ليس المقصود شيئا سوى التعبير عن عدم رضا الوالد عن سلوك ابنه هذا لا إهانته أو مصادرة شخصيته. وفى عقوبات التعزير مجال لضرب المخطئ إذا لم توجد عقوبة لجريمته محددة. كما أن الشخص الذى يعتدى على آخر بالضرب يعاقب بأن يضربه المضروب...

وما دام من يعترض على آية "النساء" يستند إلى أن الرسول لم يضرب أيا من زوجاته فإننا نذكّره بأن الرسول أيضا لم يضرب أى رجل لا من أهله ولا من غير أهله، أفنحذف من تشريعات الإسلام تأديب الرجال بالضرب حتى لو زَنَوْا أو اعتدَوْا بالضرب على غيرهم؟ وعلى أية حال فرغم دعوة الرسول عليه السلام إلى الرفق بالمرأة والتغاضى ما أمكن عن عيوبها والتركيز على محاسنها ومراعاة رقتها وكأنها قارورة من القوارير، ورغم دعوته إلى تعليم الأب لابنته وإحسان تربيتها وتزويجها كى يحظى بالجنة، ورغم تأكيده ثلاث

مرات أن للأم الأولوية على الأب فى تعامل الابن معهما، فإنه هو أيضا القائل بأن المرأة عند الغيرة لا تستطيع التمييز بين أعلى الوادى وأسفله، وهو كذلك القائل: "مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِى جارَهُ. واسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا، فإنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ فى الضِّلَعِ أعْلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَه، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا"، وهو نفسه القائل عن النساء: "يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحْسانَ. لو أحْسَنْتَ إلى إحْداهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شيئًا قالَتْ: ما رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ". كذلك فهو القائل إن النساء، على رغم ضعفهن، لا يوجد من يذهب بلب الرجل الحليم مثلهن. ونحن فى بيوتنا نراعى ذلك ما استطعنا ولا يفكر أحد فى ضرب زوجته بخلاف ما يمكن أن يدور فى أذهان بعض من يقرأون كلامى هذا. ذلك أن هذا شرع الله. واستعمال فعل الأمر فى "اضربوهن" لا يعنى الإيجاب بل يعنى أن هذا اختيار لك تستطيع إمضاءه وتستطيع تركه. وهناك طوائف من النساء لا يصلحهن الوعظ ولا الهجران فى الفراش، بل ومن النساء من لا يقومهن شىء حتى لو كان الضرب. ويمكن القفز على طور الضرب والانتقال مباشرة إلى طور وضع الأمر فى يد حَكَمَيْن: واحد من أهله وواحد من أهلها. ويمكن أن يطلقها زوجها أو تخلع هى منه نفسها.

ثم إن بختيار قد أقدمت على شىء آخر فى ترجمتها غير مفهوم ولا مقبول: إن القرآن، كما نعرف جميعا، يدمغ من لا يؤمن به ويركب دماغه ويرفضه بالكفر، فتأتى بختيار وتترجم كلمة "كافر، كافرون" بالجاحدين للجميل. إن ذلك تمييع للحدود الفاصلة بين الأمم والطوائف والأديان. بطبيعة الحال هناك مواضع فى القرآن قد وردت فيها هذه الكلمة بمعنى "إنكار الجميل"، وهذا معنى واحد من معانيها. لكن من الجهل بل والخبث الزعم بأنها لا تعنى شيئا آخر،

وبالذات فى القرآن المجيد. إنه ما من دين إلا ويعد معتنقيه مؤمنين، وغيرهم كافرين. والغرب يسمى نفسه: "أهل الخير"، ومن يقف فى طريقه يدافع عن دينه ووطنه ومصالحه: "أهل الشر". والكتاب المقدس يصنف الناس إلى مؤمنين ووثنيين. وإيران تسمى أمريكا:"الشيطان الأكبر"، وأمريكا تقول عن إيران: "إرهابية"... وهلم جرا. وهذه مصطلحات، ونبذ معانيها كلها ما عدا معنى واحدا يدل على جهل باللغة وضيق أفق وعناد مسبَّق لمصلحة جهات معينة تعمل على تفجير معالم الإسلام. إن بختيار هنا تجرى على مبدئها فى تمييع الحدود وتجريد المسلمين من المعيار القرآنى فى الحكم على من يؤمن به ومن لا يؤمن، فلا يرون حينئذ لأنفسهم تمايزا فى أى شىء عمن سواهم. فالكل مؤمن، والكل على حق، والكل ناجٍ، فى حين يظل غير المسلمين، والغربيون على رأسهم، على ما هم عليه من وَسْمنا بالكفر والإرهاب. ولى سؤال: إن الكتاب المقدس يحتوى على حملاتٍ شنيعةٍ على الوثنيين والأوثان وصانعيها وسِبَابٍ عنيفٍ فى حقهم وتهديدٍ لهم بالويل والثبور. فهلا غيرتْ لاله بختيار، وقد كانت يوما نصرانية لفترة طويلة من حياتها، معنى كلمة "الوثن" و"الوثنى" فى كتابها المقدس السابق فتقول عن الوثن" "تحفة فنية"، وعن صانع الوثن: "فنان تشكيلى"، وبدلا من القول بأن القوم الفلانيين تحلقوا حول وثنهم يعبدونه ويؤلهونه يقال عنهم: "نقاد تشكيليون كانوا يتأملون ما فى المثال من فن وإبداع"؟ وهلا ألقت بنظرة عطف على ما ذكره العهد القديم عن نوم ابنتى لوط فى حضنه، كل واحدة ليلة، وممارسة الزنا معه وهو مخمور وحبلهما منه... إلخ، فتقول إنهما كانتا تتنافسان فى البر بأبيهما وتطمئنان على طعامه ونومه وراحة باله فى أيامه الأخيرة، وعن إحضار فتاة شابة تنام فى حضن داود فى شيخوخته لتدفئه، وتذكر بدلا من ذلك أنها "ممرضة جاءت لتعالجه وترفّه عنه فى أيامه الأخيرة المسكينة حتى يلقى ربه فى سلام واطمئنان".

كذلك رأينا على مدار الدراسة كيف أن ترجمة بختيار ترجمة وعرة من حيث التراكيب وفى كثير من الأحيان لا تخرج منها بشىء لأنها تترجم النص حرفيا أو لأن ما هو واضح فى لغة القرآن للعربى المسلم لا يكون واضحا للقارئ الأجنبي الذى يعتمد على ترجمة كهذه تخلو من أية هوامش تفسيرية. وقد بينت ذلك فيما مضى من صفحات عن طريق ضرب الأمثلة وتحليلها. إن ترجمتها فى كثير من الأحيان تهجر الخط المستقيم القصير الواضح، وتسلك عوضا عنه خطا طويلا مزعجا يلف ويدور.

كذلك فرغم استعانة بختيار، ككل مترجم، بالترجمات السابقة نراها وقعت فى أخطاء غريبة لا يقع فيها المترجمون بهذه السهولة إلا إذا لم يكونوا راسخين فى هذا الميدان. قد تكون هذه الترجمة هى أول ترجمة تقوم بها امرأة أمريكية، لكنها ليست من أفضل الترجمات، بله أن تكون أفضلها. ولو تذكرنا ما قلته فى هذه الدراسة وبينته على الطبيعة من وعورة التراكيب اللغوية فيها استطعنا تقويمها تقويما دقيقا بعيدا عن الدعاية الواسعة والمُصِمّة التى يحاول بها أنصارها ومن يقفون وراء صدور ترجمتها تسويقها وإبهار القراء بها بغير الحق.

رواية "التقفيصة" لمحمود سلطان

(ط. شمس للنشر والإعلام ٢٠٢٤م)

عنوان الرواية هو "التقفيصة"، وسأقتحم الموضوع فورا فأقول: أتحدى أى إنسان أن يوضح لنا العلاقة بين هذا العنوان وبين الرواية حسبما يزعم البكاشون الذين أسميهم: "العنوانيين". الواقع أنى، حين أخذتُ هذه الرواية من صاحبها، لم يدر فى خَلَدِى أنها شىء آخر غير تقفيصة الدجاج أو تقفيصة الصدر والظهر الطبية لمن يشكو إصابة فى عظام صدره أو ظهره مثلا. لأفاجأ بأن "تقفيصة" محمود سلطان شىء آخر لا يخطر لأحد على بال، إذ معناها صهريج المياه الحكومى عندهم فى قريتهم، وهو ما نسميه نحن فى قريتنا: "طُرُمْبة الحكومة"، ويطلق عليه الناس فى أى مكان آخر اسم "الصهريج". وحتى لو عرفنا منذ البداية أنه هو الصهريج بل حتى لو عرفنا أنه صهريج القرية الفلانية فهل يمكننا من خلاله تخمين موضوع الرواية وتفصيلاتها وشخصياتها كما يزعم العنوانيون كاذبين؟ رأيى فى هذه النقطة دائما هو أن العنوان لا يقودنا إلى شىء فى الرواية بل لا بد أن نقرأها هى أولا لنعرف معنى العنوان ثانيا وعلاقته بها وبأحداثها وأشخاصها. إن العنوان هو مجرد اسم علم للرواية مثلما أن اسمى إبراهيم، وأبى محمود، وجَدِّى عوض لا أكثر ولا أقل. إنه اسم للتفرقة بينى وبين أى شخص آخر ليس إلا. ومن ثم فما يقوله العنوانيون عن العنوان وعتبات النص الأخرى بوجه عام يا ليتهم يبلونه ويشربون ماءه، فلعله يخلّص صدورهم من البلغم، وعقولهم من الانسداد والتعطل!

وهذه الرواية تذكرنى على نحو أو على آخر بـ"ثلاثية" نجيب محفوظ، فكلتاهما تسجل لنا أحوال المجتمع المصرى خلال مرحلة تاريخية معينة من خلال بيئة

معينة: فقد صور محفوظ لنا المجتمع القاهرى عبر عدة أجيال من أسرة واحدة أيام الاحتلال البريطانى لأرضنا المحروسة، وصور محمود سلطان مجتمع القناة على مدار حكم عبد الناصر والسادات وجزء من حكم حسنى مبارك. وكلتا الروايتين مسرودة من خلال الراوى العليم بكل شىء ظاهرا كان هذا الشىء أو خفيا، وكلتا الروايتين تهتم بواحد من أشخاصها اهتماما خاصا: كمال فى "الثلاثية"، وممدوح فى "التقفيصة". وكلتا الروايتين أيضا ترسم الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وطائفة من العادات والتقاليد والسلوكيات والعلاقات الجنسية والعاطفية.

وما دمنا قد نظرنا إلى روايتنا هذه على أنها تسجيل اجتماعى للمجتمع المصرى فإننا نقف أولا إزاء أسماء الأماكن التى وردت فيها: إنها تدور فى منطقة الإسماعيلية غالبا أو تنطلق منها وتعود إليها. ومنطقة الإسماعيلية تقع فى شرق قناة السويس، التى تفصل بين كتلة الإقليم المصرى وبين صحراء سيناء، وهى تشكل ثلث مصر، واحْتُلَّتْ مرتين فى عصرنا من قِبَل اليهود، وكلتا المرتين وقعت فى عهد جمال عبد الناصر، الذى كان يردد فى خطبه وتصريحاته أننا سوف نقضى على إسرائيل، فاحتلت إسرائيل جزءا غاليا وكبيرا من بلادنا: مرة سنة ١٩٥٦م، وكان مع اليهود وقتذاك الفرنسيون والإنجليز، ومرة سنة ١٩٦٧م سنة ما يسمونها بـ"النكسة"، وهى ليست نكسة بل هزيمة كاملة تمت فى أيام قلائل لم يحارب الجيش فيها ولو للحظات بل انهار منذ الساعات الأولى عندما ضرب الصهاينة الطيران كله تقريبا، والطائرات رابضة فى مدارجها تغط فى سبات عميق وبليد مثل طياريها وحكام البلاد، ومن ثم لم يكن هناك من ولا ما يغطى انسحاب جنودنا من سيناء، فاصطادهم الصهاينة وقتلوهم وانطمروا فى الرمال دون أن تريق الدولة عليهم دمعة وكأنهم

حيوانات نافقة تركها أصحابها تتعفن وتنتن فى لهيب شمس الصحراء وتأكلها الضباع ومضوا، إذ كان كل همها أن عبد الناصر قد بقى كما هو على رأس الدولة وتخلص من خصومه، وهذا كل شىء، أما الباقى فلا قيمة له. لتذهب البلد إلى الجحيم. ضاعت مصر، ولكن بقى الرئيس. فماذا تريدون أكثر من ذلك؟ أَمَا إن البُعَداء لطمّاعون!

والغريب أننى، بعد أن كتبت ما سبق، فتحت الرواية لأتابع التسجيل المذكور فتنبهت إلى ما قاله المؤلف فى صفحة الإهداء، ولا أذكر أنى لاحظته من قبل حين شرعتُ أقرأ الرواية. قال: "إلى كلِّ مفقودٍ غيبته الحربُ عن الوجود ودُفِنَ هناك، بعيدًا غريبًا بلا مشيّعين، لا قبر ولا شاهد، وتدفَّقَ دمه "البرىء" ولا يزال نقدًا فى جيوبِ وكروشِ أثرياء الحرب وأدعياء البطولة".

وهو، كما ترى، قريب جدا مما قلته عن عدم اهتمام الدولة ورئيسها المغوار خادم الشعب والساهر على مصالحه بينما الشعب كله يغط فى نوم عميق وبليد. وبالمناسبة فمن النقاد المُسَمَّيْن بـ"نقاد الحداثة" من ينادى بأن على القارئ الدخول مباشرة فى النص دون محاولة الاستعانة بأى شىء من خارجه. وبطبيعة الحال لا مناص من الإلمام بأحداث تلك الفترة وشخصياتها العامة، وإلا تحول كل شىء فى الرواية إلى لغز يصعب فهمه، بل قد يستحيل هذا الفهم. تصوروا قارئا أجنبيا يُقْبِل على هذه الرواية، فيسمع من نقادنا الأشاوس أنه لا يصح ولا يصلح السؤال عن أى شىء ليس فى الرواية، إذ العمل الأدبى نص مغلق على ذاته لا يصح فتحه على ما سواه مما لا يتضمنه داخل صفحاته. وإذا لم يعجبه هذا الكلام فليشدّ شعره وليلطم خدوده كما يحب، ولا مغيث ولا مجيب. ويمكن فى هذه الحالة أن نسمى تلك الطريقة

بـ"النقد اللاطم"، أى الذى يلطم فيه القارئ والناقد خدودهما قهرا وعجزا وألما وضياعا.

وهناك قرية نفيشة، وهى القرية التى وُلِدَ فيها بطل الرواية وساردها، وهناك مدينة الإسماعيلية، التى كانت تتعرض للضرب بالطائرات وما يترتب على هذا الضرب من تدمير للمنازل والمستشفيات والمدارس والمؤسسات والشركات مما استدعى تهجير الناس من هناك إلى أماكن مختلفة فى مدن الوجه البحرى وقراه. وهناك جو البيت والمدرسة والجامعة وما يدور فيها من أحداث ويتحرك فيها من بشر: فالأم مثلا لا تهتم بصغيرها ممدوح (الشخصية المحورية فى الرواية) ولا تطيق حمله أو القيام على شؤونه ولا الالتفات إلى تنظيفه، بل تتركه لأخواته، اللاتى لا يفعلن ذلك إلا مرغمات وبضيق شديد. وهناك مشهد الأم وهى تتحدث مع جاراتها عبر الشباك عن إعداد الحلوى التى تجهزها النساء لتنظيف مناطق خاصة فى أجسادهن لم يتورع الراوى عن ذكرها بكل دقة مما أضحكنى وأخجلنى بعض الخجل، إذ هناك أشياء يمكن أن يمر القصاص عليها مرور الكرام، وليس ثمة ضرورة للتصريح، فالقراء (كل القراء) سوف يفهمونها وهى طائرة.

وهناك الوصف الحى لطقوس الخَبْز فى البيت بكل مراحله من تقريص وتخمير ولَتٍّ وعجن وتبطيط ورحرحة، وبكل أدواته من المُنْخُل والماجور والطَّسْت والمِطْرَحة والفرن، والأدعية التى يتلوها النساء وهن يجهزنه حتى تدبّ فيه البركة للآكلين. ولا ينبغى أن نمر مرور الكرام دون أن نعرّج على قِدْرَة تدميس الفول على لمبة الجاز المعلقة على الحائط. وفى الرواية أغانٍ مما يذاع فى الراديو، وأغان يصاحبها الرقص شبه العارى المشعل للشهوات فى الأعراس الشعبية. وهناك تدخين الحشيش وشرب الخمر فى هذا الجو المثير.

ولا تخلو الرواية من المعركة التقليدية فى ليلة العُرْس وكأنها قَدَرٌ لا يغالَب حيث يشتبك الحاضرون لأتفه سبب ويتبادلون القذف والضرب بالكراسىّ وتحطيم الكلوبات التى تضىء الفرح. وفى روايتنا أيضا تفصيل حى لطقوس ليلة الحناء، وكذلك ليلة الدخلة وأخذ العريس "فِلَاح" العروس وظهوره من داخل غرفة النوم ومعه منديل عليه قطرات دم حمراء تعلن للناس أن العروس عذراء لم يمسسها أحد قبله. وهناك الغوازى والآلاتية والفَرَّاش والكوشة والقماش البَفْتَة والقماش الدَّمُّور وعربات الكارو، التى يكتبها مؤلفنا: "عربات الكارلو". وهناك الشاويش المصرى التقليدى ذو الشارب المتقوس إلى الأعلى عند طرفيه. وهناك تصوير لما يحدث فى الأقسام البوليسية من شتائم وصفع وإهانة وتعذيب بالكرباج والمنفاخ للمتهم دون أى تحقيق. وهناك الخُولِىّ وعصاه فى حقول المزارعين الكبار. وهناك سجائر هوليوود وبلمونت قبل أن تغادرا الساحة وتختفيا اختفاء نهائيا. وما دمنا فى عالم السجائر فلا بد أن نذكر ورق البفرة للف الدَّخِينَة يدويا.

وهناك أهل الطرق الصوفية ومزاعمهم الكاذبة حول ما يحبوهم الله به من كرامات لا وجود لها إلا على ألسنتهم المخادعة وفى أذهان العوام الجهلاء. وبعضها مضحك لا يُحْكَى إلا بين الأصدقاء لما فيه من عرى جلف، كالشيخ الذى كان مسافرا مع غيره فى مركب على النيل، ووَحِلَ المركب فى طين النهر، فما كان من الشيخ إلا أن ربط حبل المركب فى خصيتيه وشده بهاتين الخصيتين وأخرجه من الوحل بدلا من الحصان العاجز عن الجر. وهذه القصة الأخيرة مذكورة بحذافيرها فى كتاب "الطبقات الكبرى" للشعرانى المؤلف قبل روايتنا بعدة قرون.

وهناك طعام الدقّة بالعيش البلدى، وهو للفقراء ومن لا يجدون فى الموالد الشعبية طعاما يشترونه. وعندنا تجمع الناس فى المقاهى لسماع التمثيليات والأغانى والأخبار وخطب عبد الناصر ونشرات أحمد سعيد وغير ذلك، إذ كانت أجهزة المذياع والتلفاز قليلة فى تلك الأيام. وهناك ظهور العذراء المزعوم على أعلى كنيسة الزيتون. كما يطّلع القارئ فى الرواية على أسعار بعض الأشياء فى ذلك الحين مثلما هو الحال بالنسبة إلى سعر صحيفة "الأهرام" بخمسة عشر مليما فى ستينات القرن الماضى. ولدينا أيضا كلمات من عالم القطارات مثل "العَطَشْجى والمِحْوَلْجى والدريسة". وعندنا كذلك الأنفار الذين يعملون فى الوسايا بالأجرة والخولى وعصاه التى يهددهم بها وانتشار البلهارسيا بسبب ما يشربونه وينزلون فيه من مياه الترع الملوثة بالبول والبراز. وكثير من هذا كله صارت غريبا على الأجيال الحديدة ويحتاج القراء منهم إلى السؤال عنه كى يستطيعوا فهم ما تقوله الرواية.

وهناك الأحداث السياسية الكبرى كحركة ٢٣ يوليه وانقلاب رجالها على زعيمهم محمد نجيب واعتقاله طوال حكم عبد الناصر وجزء من حكم السادات فى بيت لا يمكنه الخروج منه. وهناك هزيمة ٦٧ وانتصار رمضان الجزئى بعدها بستة أعوام وعبور قناة السويس. وهناك الآيات القرآنية والأشعار. وهناك الحكم والأمثال، وكذلك العبارات الشعبية مثل "باض لى الحمام على الوتد، إيش جاب طوخ لمليج؟ يا حيلة امّك، البحر يكدّب الغطاس، من فمك (من بُقّك) لباب السما، إذا نسيت اللى جرى نجيب الدفاتر تنقرا، لو خرب بيت ابوك خد لك منه قالب...".

وهناك مشهد المدرس وهو يعبث جنسيا مع مدرستين اثنتين "حتة واحدة" فى الفصل المغلقة دُرَف شبابيكه الخشبية ساعة الفسحة حين دخل

عليهم ممدوح الصغير الغرفة ببراءة فيشاهد الأمر أو بعضا منه دون أن يفهم ما شاهد على حقيقته فى وقته. والرواية لا تكاد تخرج من مشهد جنسى حتى تدخل فى مشهد آخر، وبالذات فى النصف الأول منها. وحتى حين يحاول الراوى أن يتجنب تسمية الأعضاء الجنسية بأسمائها الحقيقية أشعر أن التعبير غير المباشر أشد سوءا. والغريب أن هذه المشاهدات والمعارف الجنسية التى رآها وحصّلها ممدوح لم يكن لها من ثمرة فى الرواية، اللهم إلا إذ قلنا إنها متَّنَتْ عود ممدوح فى هذا الميدان وهيأته ليتصرف بنذالة مع الفتيات اللاتى عرفهن ووقعن فى غرامه كما سأوضح بعد قليل.

وطبعا سوف ينبرى "الحداثيون" الببغاويون قائلين: كيف يا فلان تحكِّم الأخلاق فى الأدب وتخلط أبا قرش على أبى قرشين؟ والرد من أسهل ما يمكن، إذ ليست الدنيا رفوفا منفصلة بعضها عن بعض: فرَفٌّ للأخلاق، ورَفٌّ للأعمال الأدبية... وهلم جرا، بل تقوم على التداخل والامتزاج. ونحن بحمد الله لسنا مصابين بالشيزوفرانيا حتى نصدق بهذه الرفوف التى لا صلة لبعضها ببعض. ثم إذا كان الأمر كذلك فما الداعى إذن إلى وجود الأخلاق أو الدين أصلا فى المجتمع؟ وهل على رأس الأدب والأدباء ريشة؟ وهل يا ترى لو سب المؤلف فى روايته شخصا ما أو أفشى أسرار بلده العسكرية مثلا أفلا يصح رفع دعوى قضائية ضده بحجة أن الأدب شىء، والأخلاق الوطنية أو الاجتماعية شىء آخر؟ ترى هل للأديب حصانة تنجيه من مغبّة ما جناه فمه أو صنعته يداه؟ إن أولئك المعترضين على الضيق بانتهاك الأخلاق فى الرواية هم هم أنفسهم أول المعترضين على انحياز المؤلفين ضد الأخلاق التى يعتزون هم بها مما لا علاقة له بالإسلام. المهم عندهم هو الاعتراض على ديننا وحده وقيمه ومبادئة دون كل أديان العالم!

وعلى كل حال فهذا ما حكم به بعض النقاد والأدباء على رواية جيمس جويس: "يوليسس" حسبما ورد فى المادة الخاصة بالرواية فى النسخة العربية من موسوعة "ويكبيديا": "وَصَفَ شاين ليزلى عوليس بأنها بلشفية أدبية تجريبية، ومعادية للتقليدية، ومعادية للمسيحية، وفوضوية، وغير أخلاقية إطلاقًا. صرّحت فرجينيا وولف: كانت رواية "عوليس" كارثة لا تُنْسَى. هائلة فى الجرأة، وكارثة مريعة. وذكر أحد النقّاد فى الصحف أنها تتضمن مجارير سرية للرذائل، مُقَنّاة ضمن فيض الأفكار غير المعقولة والصور والكلمات الإباحية، وتثير الاشمئزاز وتحرض على السباب واللعنة التى تحط من نعمة المخيلة والذكاء وربوبية اللغة وتنتقصها وتهينها".

وهذا أيضا ما قالته النسخة الإنجليزية من الموسوعة ذاتها:

In1922, the writer and Irish nationalist Shane Leslie " called Ulysses "literary Bolshevism... experimental, anti-conventional, anti-Christian, chaotic, totally unmoral." In the same year, Sisley Huddleston wrote in The Observer: "I confess that I cannot see how the work upon which Mr Joyce spent seven strenuous years, years of wrestling and of agony, can ever be given to the public.... This is undoubtedly an obscene book; but that, says Mr Joyce, is not his fault. If the thoughts of men and women are such as may be properly described as obscene then how can you show what life is unless you put in the obscenity." Molly Bloom's monologue, Leslie wrote, is "the vilest [chapter] according to

ordinary standards, in all literature. And yet its very obscenity is somehow beautiful and wrings the soul to pity. Is that not high art? I cannot, however, believe that sex plays such a preponderant part in life as Mr Joyce represents. He may aim at putting everything in, but he has, of course, like everybody else, selected carefully what he puts in. Has he not exaggerated the vulgarity and magnified the madness of mankind and the mysterious materiality of the universe؟"

In a1923 review, Virginia Woolf wrote, "Ulysses was a memorable catastrophe—immense in daring, terrific in disaster. In The Dial the same year, T. S. Eliot wrote: "I hold [Ulysses] to be the most important expression which the present age has found; it is a book to which we are all indebted, and from which none of us can escape." He added that Joyce was not at fault if people after him did not understand it: "The next generation is responsible for its own soul; a man of genius is responsible to his peers, not to a studio full of uneducated and undisciplined coxcombs."

In his1930 book-length study of the novel, Stuart Gilbert said that the "personages of Ulysses are not fictitious" but that "these people are as they must be; they act, we see, according to some lexeterna, an ineluctable condition of their

very existence". Through these characters Joyce "achieves a ."..."coherent and integral interpretation of life

وفى المادة الخاصة بالرواية فى "Britannica: الموسوعة البريطانية" نقرأ: Ulysses was excerpted in The Little Review in1918-20, at " which time further publication of the book was banned, as the work was excoriated by authorities for being prurient ."and obscene

على أن الأمر فى "التقفيصة" لم يخصر فى المشاهد الجنسية بل تعداه إلى الريح التى يطلقها الشخص من مؤخرته بصوت عالٍ ومتصل: "جيم مكسورة وممدودة وياء وصاد". ما شاء الله! متع الله أنفكً أيها الراوى بما لذ وطاب من هذا الهباب! وهذه أول مرة تقابلنى تلك الكلمة فى عمل أدبى، وقد بُوغِتُّ بها فقلت فى نفسى: منك لله يا عم حنف السلطانى. "الناس السلطانين، ما يعملوش كده" على رأى "طِلِب"! كله إلا هذا. أقولها وأنا أكاد أفطس من الضحك!

وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر فلقد أذكر أنى قرأت ذات مرة منذ سنوات عن جيمس جويس المذكور أعلاه، إذ كانت له صديقة تعيش معه أو تتردد على مسكنه، واحتاجت يوما إلى التبول بغرفته، فأحضر لها النونية وجلست عليها لتتبول، فخرج منها "اللى ما يتسمى ولا ينشمّ"، فما كان من الروائى الظريف إلا أن أطلق على ذلك الصوت: "موسيقى الغرفة". وبمناسبة موسيقى الغرفة هذه وجدتُ طه حسين يصف بها شعر إبراهيم ناجى على أساس أن شعره لا يحلق فى الأعالى ولا يمتد إلى بعيد. وهو ما أثار وما برح يثير استغرابى، إذ شِعْر ناجى من أبدع ما يكون. ولو لم يكن له سوى قصيدة

"العودة" لسجل اسمه فى سجل عباقرة الشعر الخالدين، فهى درة يتيمة ندر ما يستطيع شاعر آخر لا محلى ولا عالمى أن ينّظِم مثلها. بيد أن لطه حسين فى ميدان النقد أحيانا بدوات لا يقبلها عقل ولا منطق ولا ذوق أدبى.

وعلى ذكر "اللى مايتسمى ولا ينشمّ" شاهدت بالمصادفة المحضة منذ عدة ليال فى اليوتيوب امرأة أوربية جميلة، فى مشهد تمثيلى فيما يبدو لحصد الترند، تجلس فى عربة ملاكى على الكرسى المجاور لكرسى السائق، الذى كان ساعتئذ خارج السيارة يضع شيئا فى الشنطة الخلفية أو ما إلى ذلك، وفجأة أخذت راحتها حين أحست بالأمان وأنها وحدها بالسيارة، وسمعتها تصدر "جِ ى صً ا" قويا عفيا طويلا ثم سمعتها تتنهد الصعداء تعبيرا عن الراحة العظيمة التى شعرت بها بعد التخلص من اللى ما يتسمى ولا ينشم، ثم تنبهتْ أن فى الكنبة الخلفية رجلا وزوجته، ودخل فى نفس الوقت صاحب السيارة الذى ربما كان زوجها والذى بان عليه الاستياء من رائحة المكان، فخجلت من نفسها ونزلت من العربة، ثم لا أدرى ماذا حدث بعد ذياك المشهد. وقد كنت قبلا أحسب أن السيدات لا يفعلن ذلك وأن ابن البلغة هذا هو من أفعال الرجال حصرا، فجاءت بنت الفرطوس وفعلتْ فَعْلَتَها التى فعلتْ وهى من الضالات، فأيقظتنى من وهمى السابق وصرت من بعدها واقعيا أرى أنه أمر مشاع بين القوارير والبلاليص جميعا وأنه جزء من طبيعة البشر وحياتهم لا غنى لهم عن ذلك. والبركة فى محمود أبو السلاطين. ولكن هل السلاطين ينزلون إلى هذا المستوى؟ قضية ولا أبا حنف لها!

وفى التراث بالمناسبة لم يكن ثَمَّ حرج فى تناول مثل هذا الموضوع: ففى "طبقات الشعراء" لابن المعتز، وهو أمير وخليفة عباسى وشاعر وناقد كبير، نقرأ عن جليسه الشاعر والمغنِّى جحظة البرمكى أنه كان يفسو كثيرا فى مجلس

الأمير، ولم يضق به الأمير بل اتخذ من ذلك فرصة للتفكه والترفيه على قرائه. وفى "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزى نقرأ ما يلى: "صعد بعض الولاة المنبر نخطب فقال: "إن أكرمتمونى أكرمتكم، وإن أهنتمونى ليكونَنّ أهون علىَّ من ضرطتى هذه"، وضرط ضرطة". وفى "الأغانى" للأصفهانى: "قعد إلى بشار رجل، فاستثقله فضرط عليه ضرطةً، فظن الرجل أنها أفلتت منه، ثم ضرط أخرى، فقال (فى نفسه): أفلتت. ثم ضرط ثالثة، فقال: يا أبا معاذ، ما هذا؟ قال: مَهْ! أرأيتَ أم سمعتَ؟ قال: بل سمعتُ صوتًا قبيحًا. فقال: فلا تصدِّق حتى ترى". وفى "الأغانى" أيضا: "أخبرنى الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه قال: حدثنى حمزة النوفلى قال: صلى الدلال المخنث إلى جانبى فى المسجد، فضرط ضرطةً هائلةً سمعها من فى المسجد، فرفعنا رؤوسنا وهو ساجد، وهو يقول فى سجوده رافعًا بذلك صوته: سبَّح لك أعلاى وأسفلى. فلم يبق فى المسجد أحدٌ إلا فُتِن وقطع صلاته بالضحك". وفى "الطليعة فى شعراء الشيعة" لمحمد السماوى: "ذكر السيد جعفر الحلى واقعة الخطيرى مع الصاحب بن عباد إذ بدت منه بادرة نخجل وأراد سترها، فقال: يا مولانا، هذا صرير التَّخْت. فقال الصاحب: بل صفير التَّحْت. فازداد نجله، ومضى وانقطع عن المجلس، فكتب إليه الصاحب:

قل للخطيرى: لا تذهب على نجلٍ من ضرطة أشبهتْ نايا على عودِ
فإنها الريح لا تسطيع تمسكها إذ لست أنت سليمان بن داودِ

فرجع إلى الحضور، وعاد إلى المثول".

وفى "جمهرة الأمثال" لأبى هلال العسكرى فى شرح المثل القائل: "أَضَرِطًا وأنت الأعلى؟" يقول المؤلف: "يضرب مثلا للرجل يجتمع له أسباب الغلبة والقهر، وهو مغلوب مقهور. والمثل لسُلَيْك بن سُلَكَة التميمى. وذلك أنه افتقر

مرة، نخرج على رجليه رجاء أن يصيب غرة إنسان، فيذهب بماله. فبينا هو نائم فى ليلة مقمرة جثم عليه رجل وقال له: استأسر (استسلم)، فقال له سليك: "الليل طويل، وأنت مقمر". فذهبت مثلا، ثم ضمه سليك ضمة ضرط منه، وهو (أى الرجل المهاجم) فوقه، فقال (السليك): "أَضَرِطًا وأنت الأعلى؟" فذهبت مثلا".

وفى "الغيث المسجم فى شرح لامية العجم" لصلاح الدين الصفدى: "سمع المازنى قرقرة من بطن إنسان فقال: هذه ضرطة مضمرة". وفى "المستطرف من كل فن مستظرف" للأبشيهى: "انفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجنى إلى ذلك! فقال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصَيِّره فى قشر بيض الذَّرّ (النمل الصغير) واكتحِلْ به ينفعْك. فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية وقال: خذ هذه فى لحيتك أجرة وَصْفَتِك، وإن زدت زدناك. فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته".

وفى الترجمة لأبى نواس من كتاب "سَرْح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون" لابن نباتة: "سئل المرزبانى: أيهما أشعر؟ أبو نواس أم الرِّقَاشىّ؟ فقال: ضُرَاط أبى نواس فى جهنم أشعر من تسبيح الرقاشى فى الجنة".

وفى "نشوار المحاضرة" للقاضى التنوخى عن جحظة، الذى بدأنا به، ولن نجد أحسن منه يكون ختامنا: "حدثنى أبو الحسن بن عياش، قال: كان جحظة، لمّا أَسَنَّ، يفسو فى مجالسه، فيلقى من يعاشره من ذلك جهدًا. وكنت أحب غناءه والكتابة عنه لِمَا عنده من الآداب، وكان يستطيب عشرتى. وكنت إذا جلست أخذت عليه الريح، وجلست فوقها. فجئته يومًا فى مجلس الأدب،

والناس عنده، وهو يملى، فلما خَفُّوا قال لى ولآخر كان معى...: اجلسا عندى حتى أجلسكما على لُبُود، وأطعمكما طباهجة بكُبُود، وأسقيكما معتَّقة اليهود، وأبخّركما بعود، وأغنيكما غناء المسدود، أطيب من الندود. فقلنا: هذا موضع سجدة. وجلسنا، وصديقى لا يعرف خَلَّتَه فى الفُسَاء، وأنا قد أخذتُ الريح، فوفَّى لنا بجميع ما شرطه. وقال لنا، وقد غنى وشربنا: نحن بالغداة فى صورة العلماء، وبالعَشِىّ فى صورة المخنكرين. فلما أخذ النبيذ منه أقبل يفسو، وصديقى يغمزنى ويتعجب، فأغمزه وأقول: إن ذلك عادته وخَلَّته، وإن سبيله أن يُحْتَمَل. إلى أن غنى بحظة صوتًا مليحًا الشعرُ والصنعةُ له فيه، وكان يجيده جدًّا، وهو:

إن بالحيرة قَسًّا قد مَجَنْ فَتَنَ الرهبانَ فيها وافتتن

تـرك الإنجيـلَ حُبًّا للصِّبا ورأى الدنيا مجـونًا فرَكَنْ

وطرب صديقى ذاك عليه طربًا شديدًا استحسانًا له، وأراد أن يقول: أحسنتَ والله يا أبا الحسن. فقال: اُفْسُ علىَّ كيف شئتَ. فخجل بحظة"... إلخ، وهو كثير جدا جدا.

والملاحظ أن العلاقات الجنسية والعاطفية فى الرواية التى معنا لم تثمر شيئا على الإطلاق. والمقصود هنا هو العلاقات التى أقامها ممدوح مع عدد من الفتيات نجح خلالها فى الفوز بقلب كل واحدة منهن، لكنه حين جد الجد وظن القراء أن الأمر سيكلل بزواجه من الفتاة الجميلة الأنيقة المعشوقة فوجئنا به يتقهقر ويقدم أعذارا سخيفة عن اضطراره لعدم الوفاء بما يقتضيه الحب من عقد الميثاق الغليظ بينه وبين الطرف الآخر. ويتضح لنا أنه لم يقبل على كل منهن ويوقعها فى حبالته إلا لينتقم من طبقتها أو من البيئة التى تنتمى إليها. وهو انتقام لا يليق بالرجال. وأنا، حين أقول هذا، لا أتوجه إلى ممدوح بالملام

والتقريع، فما ممدوح فى الرواية سوى مخلوق مجبر على ما يفعل، إذ الأمر والنهى فى يد الكاتب. صحيح أنى أرجح أن يكون ممدوح، فى تصرفاته وسماته الشخصية العامة على الأقل، هو المؤلف، لكننا نتكلم هنا عن ممدوح فى الرواية لا فى الواقع.

وهنا يحضرنى حديث طه حسين فى أكثر من عمل قصصى له بأنه هو وحده الذى يتحكم فى سلوك شخصيات قصصه، وأنه لا يبالى بقواعد النقاد والقصاصين. ونحن لا نشاح فى أن المؤلف هو من يتحكم فى سلوك شخصياته وكلامها، لكن على أن يراعى تلك القواعد المستنبطة من واقع الحياة. وفى ضوء هذا التوضيح ننظر إلى ما فعله ممدوح مع أولئك الفتيات اللاتى وقعن فى غرامه. لقد أدار لهن ظهره على نحو دنىء لأنهن لم يكنّ يستحققن منه هذا التصرف، إذ لم تسئ إليه أية منهن فى شىء، ولسن فى واقع الأمر مسؤولات عن شرور آبائهن أو مواقف طبقتهن، إذ لم تختر أية منهن أباها ولا بيئتها ولا طبقتها، وحين أقبلن على ممدوح أقبلن عليه بتأثير عواطفهن تجاهه وحبهن له. فليس ثم إذن معنى لما فعله معهن. وحتى لو كان هناك معنى للانتقام من بيئتهن أو آبائهن لقد كان بمكنته تحويل هذا الانتقام من انتقام سلبى مدمر إلى انتقام إيجابى، إن صح أن يسمى فى تلك الحالة: انتقاما، ويتزوج الفتاة الجميلة الأنيقة الأرستقراطية ويتربع على عرش قلبها فيجد نفسه على نفس المستوى مع تلك البيئة رأسا برأس. أما ما صنعه فهو مجدب وقاحل ولا يؤدى إلى شىء.

وها هو ذا ممدوح فى آخر الرواية يعيش حياة باردة لا يفكر إلا فى الثراء، الذى ترينا الرواية أنه حققه بكل نجاح وتفوق وصار مليونيرا فى وقت جد قصير لا يعرفه واقع الحياة. وتحقيق ممدوح للغنى الفاحش الذى ذكرته الرواية

فى وقت قصير كهذا، ومن خلال تهريب البضائع من الجمارك وتجارة الشنطة، أمر مستبعد تماما. ولا ينبغى أن يقال إن ممدوح الرواية قد تُرِك ليتصرف بحريته بعدما نضج وصار بطلا من أبطالها لأن ما صنعه ممدوح ليس هو ما يتصرفه فى الحياة، إذ التصرف الذى اقترحتُه ورأيتُ أنه كان التصرف الأجدر به والأقمن أن يوصله إلى ما يريد على نحو أفضل هو التصرف الطبيعى العاقل والمنطقى والإنسانى. فمحمود سلطان قد جرى على ما قاله د. طه حسين إلى آخر الطريق، وكان ينبغى أن يتنبه إلى أن قواعد النقاد والأدباء المبدعين للقصص جديرة بالاحترام والاتباع لا الإهمال والنبذ كما يقول الدكتور طه.

إن تلك القواعد ليست تكتيفا لأبطال العمل القصصى بل تراعى إرخاء الحبل الذى رُبِطوا إليه بحيث يستطيعون التصرف والتحدث على النحو الذى يتسق مع ظروفهم وتكوينهم وغاياتهم لا مع أفكار المؤلف المسبقة التى ينقصها الروية والاعتدال ولا تراعى احترام أشخاص الرواية ووجوب معاملتهم على أنهم أشخاص حقيقيون يحرص على أن تأتى تصرفاتهم وأحاديثهم نتيجة طبيعية لظروفهم الشخصية والطبقية والبيئية.

وقبل أن نترك ممدوح وتجارة الشنطة والغنى الفاحش الذى حققه سريعا على نحو لا يصدَّق فإننا نتساءل: لِمَ لَمْ يفكر فى الزواج بعدما استقرت أحواله المادية بل وارتفعت إلى أفق شديد العلو يكفل له الاقتران بكل يسر بأية فتاة يحب الاقتران بها بعيدا عن عقد النقص والانتقام التى تملأ عليه حياته حسب الرواية؟ المفروض أنه إنسان طبيعى يهفو إلى المرأة ويستطيع الباءة من الناحية البيولوجية ومن الناحية المالية ومن الناحية الاجتماعية على السواء. وهذه نقطة تثير الانتباه والاستغراب.

كما أن موقفه فى آخر صفحة من الرواية موقف غير مفهوم. لقد التقى بأستاذه وابن قريته د. حاتم عبد الحفيظ فى الجمرك وقد تجمع عليه عدد من الموظفين والعمال والجنود وانهالوا عليه ضربا لأنه اعترض على ارتفاع رسوم الجمرك الخاصة ببدلة اشتراها من بورسعيد، فما كان من ممدوح إلا أن وقف إلى جانبه يدافع عنه حتى استخلصه من بين أيديهم بعدما أصابته عدة جروح... ولكنه فى النهاية حين آن أوان العودة إلى القاهرة وانتظر منه د. حاتم أن يعود معه فى أوتوبيس نقل عام اعتذر ممدوح بأنه سوف يركب القطار الإكسبريس، وودعه تاركا إياه يدبر لنفسه بنفسه العودة إلى العاصمة. يريد المؤلف أن يقول لنا إن المال قد كفل لممدوح ما لم يكفله العلم للدكتور حاتم. وهو تصرف من ممدوح غريب بل فاقع. والمنطقى أن يحرص على رفقة أستاذه السابق الذى كان يحبه حبا شديدا ويأخذ بيده فى كل شىء ويشرح له ما غمض عليه من أمور السياسة والاقتصاد وغير ذلك، فإما اصطحبه معه فى القطار على حسابه ودبر له مقعدا فيه وإما استأجر على حسابه سيارة مخصوصة تحملهما إلى القاهرة بحيث نلتقط نحن القراء معنى الرسالة التى يريد المؤلف تصديرها لنا، وفى نفس الوقت يتصرف ممدوح بناء على مشاعره نحو أستاذه وابن قريته، وبخاصة أنه عرّض نفسه قبل قليل للخطر وأصيب بجروح حين تدخل لاستنقاذه من أيدى عمال الجمرك وموظفيه بما يدل على أن حبه له وإكباره إياه وتعاطفه معه كان لا يزال حيا فى نفسه وعقله. أليس كذلك؟

وما دمنا فى ممدوح وحاتم أقول إننى فوجئت، حين دخل ممدوح كلية العلوم، باستغرابه وجود حاتم معيدا هناك. ذلك أن حاتم كان معروفا جدا فى القرية ومتميزا بحيث لا يمكن أن يعين بالكلية معيدا دون أن يعرف أهل القرية كلهم بذلك، وبخاصة ممدوح، فكيف يفاجأ بطل الرواية برؤية حاتم

معيدا بالكلية؟ هذه نقطة أخرى لا أدرى كيف فاتت المؤلف فى هذه الرواية القوية رغم كل ملاحظاتنا عليها!

وهناك التهجير من مدن القناة التى كانت تتعرض يوميا للضرب بالمدافع والطائرات عقب هزيمة ٦٧ الفاضحة. لقد كان راوى القصة يقول إن ممدوح كمهجَّر كان يعانى بين القرويين فى القرية التى هُجِّر هو وعائلته إليها، إذ كانوا يسخرون منه ويتهكمون عليه وعلى طريقة نطقه للألفاظ بل وعلى الألفاظ نفسها حتى إنهم كانوا يتنمرون عليه لتسميته مثلا المدرس بـ"الأستاذ" بدل "الأفندى"، تلك الكلمة التى يطلقونها هم على المدرس، بينما كان الأمر فى قريتنا بمحافظة الغربية على العكس من ذلك، إذ كنا نقول عن كل واحد من مدرسينا: "الأستاذ" دون أن يعقب الأستاذ أو أى شخص آخر على هذا، فضلا عن أن يستنكره، بَلْهَ أن يجعله محطّ سخرية وتهكم واستهزاء.

بل لقد كانت العلاقة بين أهل قريتى فى وسط الدلتا والناس المهجَّرين علاقة طيبة بوجه عام. ولم يكن أحد ينظر إلى كلمة "المهجَّر" بوصفها مسبَّة أبدا. ليس ذلك فقط بل كنا نستمتع مع أولادهم بألعابهم التى لم يكن عندنا بها معرفة قبلا مثل "كيلو بامية"، كما كنا ندخل فصول المدرسة الابتدائية التى يسكن كل فصل منها أربع عائلات: كل عائلة فى ركن، وتفصل بينها وبين العائلات الأخرى ستارة من البطاطين، ونجالس الأولاد زملاءنا فى اللعب وأمهاتهم، اللاتى لم يكنّ يَضْنِنَّ علينا بالطعام حين يشعرن أننا جائعون. إى والله. وأنا أتكلم هنا عن تهجير أهل بورسعيد أيام العدوان الثلاثى سنة١٩٥٦م. أما فى١٩٦٧م فقد بقى بعض المهجَّرين بالقرية وصاروا من أهلها رغم توقيع اتفاقية كامب ديفيد وانتهاء النزاع بين مصر وإسرائيل وإعادة الدولة بناء مدن القناة لاستقبال المهجَّرين العائدين، وحين مات كبار المهجَّرين

إلى قريتنا بقى الجيل الجديد هناك دون أن يشعروا بالغربة بين أهلها. ولو كان الناس فى قريتنا يسيئون معاملتهم لما بقوا لحظة واحدة بعد زوال آثار العدوان.

ولا أقول هذا كى أخطئ الراوى أو قصته، إذ كل منا قد شهد بما رآه وسمعه مثلما قال إخوة يوسف لأبيهم عن القبض على أخيهم فى مصر بسبب سرقة صُوَاع الملك حسبما تقول الأحداث التى وقعت أمام أبصارهم وآذانهم، وعودتهم من ثم لبلادهم بدونه: "ما شهدنا إلا بما علمنا". وراوى القصة قد شهد بما علمه، أو هكذا ينبغى أن يكون الأمر، وأنا شهدت بما علمت وبما لا أفتأ أتذكره.

ولا أظن إلا أن القراء لاحظوا إلحاحى على الجانب المضمونى للرواية على عكس من لا يرون للنقد الأدبى مدخلا فى ذلك ويتصورون أن الأدب هو الناحية الفنية فى العمل الإبداعى ليس إلا، وأن تسجيل الواقع ينبغى أن يُلْتَمَس فى كتب التاريخ والمذكرات السياسية والمقالات الصحفية والتحليلية بالمجلات المتخصصة. ورأيى أن العمل الأدبى هو مضمون يريد الكاتب توصيله إلينا، وشكل فنى يصب فيه مضمونه ورسالته ويجعل هذا المضمون وتلك الرسالة متوهجين يقتحمان عالمنا الداخلى بكل قوة وإمتاع حتى لو كان إمتاعا أليما. ليس ذلك فحسب بل أرى أيضا أن منهجا نقديا واحدا أو منهجين مثلا لا يمكن أن يغطيا العمل الإبداعى، إذ إن هذا العمل له جوانب متعددة بحيث لا يكفى منهج واحد أو اثنان فى دراسته إن كنا نبغى الإحاطة به إحاطة تامة. والناقد هو الذى يحدد ما يريد الاتكاء عليه فى نقده، ويختار من المناهج ما يكفل له الوصول إلى ما يريد. لكن أن يقال بأن منهجا واحدا كاف فى معرفة العمل الأدبى وتذوقه هو قول خاطئ. ولا شك أن القارئ متنبه إلى أنى أتناول الرواية التى بين أيدينا من أكبر عدد من جوانبها. ولقد رأينا الكنوز

اللغوية والاجتماعية والسياسية والثقافية التى تحتوى عليها الرواية، ويزيدها قيمة أنها فى معظم الأحيان قد أتت فى مواضعها لم تفرض عليها بل استقرت استقرارا طبيعيا فيها.

ومن المواضع التى لم يتم فيها هذا الاستقرار الطبيعى قول الأب، وهو عامل بسيط ثقافته شعبية وضيقة المجال، لممدوح ابنه: سأجعل منك ابنا تُضْرَب إليه أكباد الإبل (ص١٤). ورغم أنى قد قابلت هذا التعبير فى كتب التراث فلست أذكر أننى سمعته فى الحياة اليومية سوى مرة واحدة، وفى لندن عام١٩٨٢، إذ دعوت أحد زملائى المصريين أن يأتى ليشرب الشاى معنا، وأنا أقصد دعوته على الطعام لكنى استحييت أن أنص على تناول الغداء متصورا أنها مفهومة من تلقاء نفسها، فما كان منه إلا أن قال لى فى استنكار: أتريدنى أن أضرب إليك أكباد الإبل من أجل كوب شاى؟ فمن الواضح أن الراوى لم يوفق فى إسناد ذلك التعبير إلى الأب الذى لا يمكن أن يدور له ولا لابنه بخَلَد ولا يمكن أن يفهما المقصود منه ولا يمكن أن يؤدياه على هذا النحو!

ومثل تلك العبارة الماضية أيضا قول السارد عن ممدوح الصغير حين أتت إجازة الصيف وبقى هو فى قريتهم الصحراوية وحيدا بعد عودة أقرانه التلاميذ إلى بلادهم: "بقى بقريته الصحراوية... يمضغ علكة الوحدة فى ملل" (ص١٧). فلست أظن ممدوح يعرف معنى العلكة ولا أظنه يفهم معنى الملل بهذا البعد وفى هذا السياق أصلا.

ونظل مع ممدوح الصغير وقد جلس فى الصف الأول على الأرض أمام خشبة المسرح البدائى الذى ترقص عليه الراقصة شبه العارية، ويصف السارد المنظر كله قائلا: "وثبت إلى المسرح الراقصة "شفشق" ببدلة رقص مشقوق

نصفها الأسفل، يُظْهِر جزءا من سروالها الداخلى، وبصدر وبطن شبه عاريتين، إذ ذاك دوى الصراخ بهستريا، وخُلِعَت الطواقى، وبدت الرؤوس عارية تعلو وتهبط بين عيدان غاب الجوزة، وسحائب الدخان الثملة بعبق الحشيش تتصاعد مثقلة فوق المكان قبل أن ترقد بسكينة بين يدى الظلام القريب. يلحون عليها بأغنية "دبور قرصنى"!

وهو "استربتيز" إباحى بلدى، تبدأ الراقصة بـ"دبور قرصنى" فيردُّ الجمع: "قرصك فين؟"، فتشير بإصبعها إلى عنقودى العنب تحت حمالة الصدر الشفيفة، ثم تتجه جنوبًا حيث مناطق القيظ اللذيذ حتى تلامس أغلى ما تشتهيه العيون الجائعة من فواكه محرمة، فتضرم النار فى أعواد الحطب المكدود من حولها.

يحدق ممدوح بعينين زائغتين إلى حيث تُضْرَب عند سفحه خيام الرجال، ويذهب كل منهم بخياله إلى حيث يُغْمِد فى أرضها الشراقى وتده، تتزاحم الصور اللصيقة بالمشهد أمام عينيه: يباغته صدى تؤهات (تأوهات) معلمته فى الفصل نصف المظلم، وعبث الصبية بمواضع عفتهم فى الصحراء المتفحشة، ومنديل سعيد العطشجى المبلل ببقع الدم" (ص٣٠). لقد كان على السارد أن يهبط حتى يجلس بجوار الولد الصغير ويتكلم بلغته ويستعمل خياله ويتدسس إلى مشاعره وينسى قليلا أنه المؤلف والسارد.

ومثال ثالث، يقص المؤلف علينا فيه حكاية شفيقة الرقاصة وهى فى بيت الشيخ الصوفى عبيد وحدها فراودها عن نفسها، لكنها رغم غنجها وتبادلها معه الألفاظ الفاحشة أبت وتركته مهددة إياه أن ترفع بالصوت وتفضحه، وتصادف أن كان ممدوح وزملاؤه مارين من تحت شباك الشيخ: "وصلوا إلى الخلوة المباركة، جلسوا القرفصاء تحت شباكها الخشبى، سمعوا صوت امرأة،

تتبادل بخلاعةٍ الشتائمَ البذيئةَ مع الشيخ، ويصدر من حنجرته أصواتا نابية، ثم يعود ويطلبها بتودد إلى فراشه ليتفحش بها. تهدده: إذا لم يتركها ستصرخ وتجعل "من لا يشترى يتفرج على مولاهم النصاب"، ثم اندفعت تهرول بخطًا سريعة خارج الخلوة تحاول ستر جسدها نصف العارى بعبائتها (بعباءتها) اللَّفّ، وهى تتمتم: يا راجل يا وسخ، لا عندك دين ولا دم! الناس تتطاير رؤوسها تحت القصف وأنت تلهث بين نخذى لتلعق عسيلتى حراما؟". فكلمة "العسيلة" لا يمكن أن تكون من مفردات الرقاصة لأنها ليست خريجة الأزهر ولم تدرس الفقه. نعم إن لها عسيلة لكنها بكل يقين لا تعرف معنى العسيلة. كما أن رفضها رغبة الشيخ الآثمة غير مفهومة، فقد ذهبت بمحض إرادتها وبقدمها هى لا بقدم أحد سواها إلى خلوة الشيخ وحدها فى ملاءتها التى تكشف أو تصف أكثر مما تغطى أو تستر، وكانت تتبادل معه الشتائم البذيئة والأصوات الخليعة بما يدل على أن بينها وبينه علاقات وثيقة راسخة من هذا النوع. وإلا فلم ذهبت إليه على ذلك النحو وفى تلك الظروف؟ أذهبت تستفتيه فى الحلال والحرام حتى يستريح ضميرها الرهيف؟

ومثال رابع، إذ تصادف أن سمعت أسرة ممدوح عند مغادرتهم بلدهم مهجَّرين عقب هزيمة ٦٧ صوت فيروز وهى تغنى لأهل فلسطين بأن أجراس العودة سوف تُقْرَع كى يرجعوا لبلدهم عما قريب: "أجراس العودة فلْتُقْرَعْ" لنفاجأ بواحد من المهجَّرين العوام يصدر صوتا نابيا من حنجرته ويعلق قائلا: "ولكن من أين العودة يا فيروز؟ خازوقٌ دُقَّ ولن يُقْلَعْ" (ص٧٠). وهو تعليق أكبر كثيرا من مستوى المهجَّر العامى المسكين الذى لا يمكن أن تواتيه تلك العبارة أبدا حتى لو أتوا بمزيكة حسب الله الثامن عشر لتساعده على ابتكارها. إن هذا الرد المفحم الساخر المنتظم وزنا وقافية أعلى من مستوى

المهجَّر تماما ويحتاج إلى شاعر كنزار قبانى، الذى قرأت أنه ألف ردا على فيروز على النحو التالى:

غنت فيـــروزُ مرددةً آذان العُرْب لها تسمع:
الآن الآن وليس غدًا أجراس العودة فلْتُقْرَعْ
عفوًا فيـــروزُ ومعذرةً أجراس العودة لن تقرع
من أين العـــودة فيروزٌ، والعودة يلزمها مدفع
والمدفـــع يلزمـــه كفٌّ والكف يحتاج لإصبع
والإصبـــع ملتـــذٌّ لاهٍ فى دبر الشعب له مرتع؟
خـــازوقٌ دق بأسفلـنا من شرم الشيخ إلى سعسع
ومن الجولان إلى يـــافا ومن الناقورة حتى ازرع
خـــــازوقٌ دُقَّ بأســـــفلنا خـــازوقٌ دق ولـــن يطلـــع

ونأتى إلى لغة الرواية. وهى لغة منسابة سلسة تحافظ على الفصحى إلا شذوذا، وأغلب هذا الشذوذ فى الحوارات. وأحيانا ما يتكلم أحد المتحاورين بالفصحى، والآخر بالعامية. بل قد يتحدث شخص مرة بالفصحى، وأخرى بالعامية. بل قد يكون كلام الشخص الواحد مركبا من العامية والفصحى. وقد تتبدى العامية فى لفظ واحد من كلام الشخص.

ولغة الرواية أقرب إلى لغة الصحافة لا تقعر فيها، لكن هذا لا يمنع أن يتأنق الكاتب فى بعض العبارات والتصاوير مما يذكِّرنا بأسلوب محمد عبد الحليم عبد الله، الذى انتقده د. عبد القادر القط، فرد عليه الروائى ردا شديدا. وقد أعدت النظر فى تلك القضية فألفيت فى نفسى قبولا لأسلوب صاحب "الجنة العذراء" و"شمس الخريف"، وقلت لنفسى: ما وجه العيب فى انتهاج تلك

الطريقة؟ فلنترك القارئ يجرب طعم أسلوب عبد الحليم عبد الله ومن يلف لفه، وأسلوب القصاصين الآخرين، وليقارن بنفسه ويقبل على ما يحب ويترك ما ينفر منه. ولنعرض كل البضاعات فى سوق الأدب، ولن يجبر أحد أحدا على غير ما يهوى. والناس أمزجة وأذواق واقتناعات.

ومن هذا الباب قول السارد عن ممدوح الصغير، الذى لم تكن تهتم به أمه ولا أخواته، فوضع أمله وحبه فى أبيه: "بدأ تعلقه بأبيه يتمدد بالتدرج ليملأ نصف الفراغ الذى تركته أمه. الآن راح يفتل حبلا متينا مع من يبلل قلبه الظامئ إلى الحنان. تراجعت تطلعات الرجاء وهو يستجدى من شقيقاته حاجته إلى العطف. كلهن يتعمدن إهماله والتذمر من ملاحقته لهن بحثا عمن يؤنسه ويدفئ شعوره بالوحدة الباردة.

الآن اكتمل بدر أبيه فى سماوات نفسه المظلمة، أضاء عتمة الحزن فى قلبه البرىء، وأشعل مواقد الشوق إليه. طوال اليوم ينتظره على عتبة الدار بالساعات، وعيناه هناك على أول الحارة، ينتظر أن يهل هلاله قافلا من عمله كل صباح" (ص٩-١٠).

وفى وصف ليلة أثار فيها ممدوح الشاب الوسيم الأنيق رغبة فتاة مطلقة وحيدة أبويها، وابنة ضابط شرطة كبير، لكنه لم يكمل معها الطريق وخرج من شقتها متجاهلا رجاءها وإلحاحها دون مبالاة بذلتها أمامه فى هذا الموقف الصعب حيث تترامى هى عليه، فلا يظهر هو عشقا ولا لهفة بل زهدا ورغبة فى الانصراف دون أن ينوّلها ما تبتغى، فى هذا الوصف يقول المؤلف: "أقبلتْ عليه (صباح اليوم التالى بالكلية حيث كان يشتغل معيدا) شاحبة الوجه كأنها فقدت نصف وزنها فى ليلة واحدة. عيناها منتفختان حزينتان، تشعر بأنه لم يخذلها وحسب ولكن كسر صلفها وتعاليها ليلة أمس حين راودته عن نفسه:

لم يرو عطشها وأذل كبرياءها، وخرج منتصرا ولأول مرة على شهوة نفسه، وكأنه كان يكفيه فقط توسلاتها إليه، وإلحاحها عليه، أن يضرب خيمته فى سفح جبلها، ويدلى دلوه فى بئرها العميق، يشرب حيث يشاء لبنا وعسلا" (ص١٤١).

ومن سمات أسلوب الرواية كثرة تضمين العبارات القرآنية لا كاملة منفصلة عما حولها فى بيئتها الجديدة بل مجدولة مع كلام الكاتب فلا تحس بقلق أو تفكك فى الكلام كما هو الحال فى الأمثلة التالية: "لم يفهم الصغير ما يعينه أبوه، ولكن راق له كلامه ثقة فى هذا النبع الصافى الذى أحال حياته القاحلة إلى حدائق ذات بهجة" (ص١٤). ويدور المثل التالى على خيبة أمل والدَىْ ممدوح فى وعود عبد الناصر، الذى كان قد شحن الناس وأوهمهم أنه سوف يبيد إسرائيل، فكانت النتيجة هزيمة ليس لها مثيل فى تاريخ مصر وتهجير أهالى مدن القناة، ومنهم أسرة ممدوح، إلى داخل البلاد: "أسعدهم حظًّا لحق بسبنسة قطار الزقازيق، ومن تذيلوا قافلة الراحلين حُشِروا فى عربات المواشى. تسلقت عيونهم الدامعة الشبابيك المسيَّجة بقضبان الحديد الصدئ. يودّعون بيوتهم وذكرياتهم وقبور أحبائهم. الأم والأب مضغا وعود الحواة، فبدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان على لحوم أولادهما العارية بما حملوه من أسمال" (ص٧٠). وعن زيارة الفتاة الفاتنة المطلقة وحيدة أبويها بيت ممدوح: "ضج الطريق، من أول الأسفلت إلى ما قبل بيته بقليل، بالصبية والشباب يركضون متحلقين حولها، وكلٌّ يبدى حماسه فى اصطحابها إلى بيت ممدوح. وكان يوما على أبيه وشقيقاته الثلاث عظيما" (ص١٢٧).

وقد علمنا أثناء الندوة التى ناقشنا فيها هذه الرواية فى نقابة الصحفيين مساء السبت الماضى ٢٢ فبراير ٢٠٠٥م أن والد المؤلف كان محفِّظا لكتاب

الله، فزال الاستغراب من كثرة تضمين الرواية عبارات قرآنية ظنناها من كثرة سماع المؤلف القرآن الكريم فى المذياع. وهذا دليل ساطع على سخف ما يقوله بعض النقاد الحداثيين فى الغرب ومِنْ ورائهم تابعوهم من القُفَف فى بلاد العالم الثالث من أنه لا يصلح الاستعانة على فهم النص بشىء من خارجه. فها نحن هؤلاء قد تعمقنا فهم شىء فى أسلوب الرواية لم نكن لنصل إليه لولا معرفتنا بأن أبا المؤلف كان محفِّظا للكتاب المجيد بما يعنى أن بيتهم طول النهار يسمع آيات القرآن، ومن ثم فلا استغراب لحضور آيات الكتاب المجيد فى عقله بل ينبغى الاستغراب من أن حيطان المنزل وسقوفه أنفسها لم تحفظ الكتاب المبين من كثرة ما سمعت آياته تتلى على مقربة منها طوال النهار!

وقد تنبهت إلى التركيب الذى يستعمل فيه الفعل: "عسى". ومعروف أنه من أخوات "كاد"، فيرتفع المبتدأ بعده ويتحول الخبر إلى جملة فعلية فعلها مضارع مسبوق بـ"أنْ"، لكن محمود سلطان يستعمله وكأنه من أخوات "إنَّ" مثل "لعل" معنى وإعرابا، فينتصب المبتدأ بعده ويرتفع الخبر: "عساه (عسى ممدوحا) يسترق السمع" (ص١١). ولو استعمله بوصفه من أخوات "كاد" لجاء الكلام هكذا: "عسى ممدوحٌ أن يسترق السمع". واستخدام "عسى" مثل "لعل" كثير عند القدماء كاستخدام "لعل" مثل "عسى" بإدخال "أن" على الفعل المضارع الذى فى خبرها: "لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض"، "لعلك يوما أن تُجَاب وتُرْزَقا"، "لعلك أن ترى حَجَرًا يسيرُ"، "لعلك يومًا أنْ تُلِمَّ ملمةً"، "تمتَّعْ. لعلك أن تنفقا"، "لَعَلِّىَ، إن مالت بى الريح ميلةً... أن يتندّما"، "علَّك أن تركع يوما". بل لقد أتت محذوفة الاسم مع دخول "أن" على خبرها الفعل المضارع: "عَلَّ أن أتقدما".

وفى "البصائر والذخائر" لأبى حيان التوحيدى: "قال أبو سعيد: فى "عساك وعسانى" ثلاثة أقوال: أحدها قول سيبويه، وهو أن "عسى" حرف بمنزلة "لعل" ينصب ما بعدها، وهو الاسم، والخبر مرفوع، والكاف اسمها وهى منصوبة. واستدل على النصب فى "عساك" بقول "عسانى"، والنون والياء فيما آخره الألف لا تكون إلا للنصب. والقول الثانى قول الأخفش: إن الكاف والياء والنون فى موضع رفع. وحجته أن لفظ النصب استعير للرفع فى هذا الموضع كما استعير له لفظ الجر فى "لولاى ولولاك". والقول الثالث قول المبرد: إن الكاف والياء والنون فى "عساك وعسانى" فى موضع نصب بـ"عسى"، فإن اسمها فيها مرفوع، وجعله كقولهم: "عسى الغُوَيْرُ أبؤسًا"، وحُكِىَ أنه قدم فيها الخبر لأنها فعل، وحذف الفاعل لعلم المخاطب به فعل صحيح لا يدخله الاختلاف فيه". ولا مانع أن نضيف هنا عبارة التهنئة التى كنا نسمع السعوديين يتبادلونها فى الأعياد ونحن نعمل بفرع جامعة أم القرى بالطائف منذ عدة عقود، إذ كانوا يقولون: "عساكم من عُوّاده" مستعملين "عسى" استعمالهم لـ"لعل" كما هو واضح. ومثلها "عساكم ما نسيتونى عساكم" التى يشدو بها المطرب محمد عبده فى أغنيته المشهورة: "ابعاد كنتم ولا قريبين"، وهى تجرى نفس المجرى.

كذلك وجدت المؤلف يدخل حرف جر على حرف جر آخر مما قد يظن كثير من القراء أنه خطأ تبع فيه الكاتب التركيب العامى. يقول: "حلَّ التلفيعة من على وسطه" (ص٣٥)، وهو امتداد لقولنا: "نزل فلان من على السطح"، أى من فوق السطح، فصارت "على" كأنها ظرف مكان لا حرف جر. وفى "أدب الكاتب" لابن قتيبة من باب "دخول بعض الصفات على بعض": "تدخل "مِنْ" على "عَنْ". قال ذو الرمة:

إذا نَفَحَتْ مِنْ عَنْ يَمينِ المَشَارِقِ

وقال القُطَامِىُّ:

مِنْ عَنْ يمينِ الحُبَيَّا نظرَةٌ قَبَلُ

قال: وتقول: "كنتُ مَعَ أصحاب لِى فأقْبَلْتُ مِنْ مَعَهُمْ" و"كانَ مَعَهَا فانتَزَعْتهُ مِنْ مَعَها"... وقال سيبويه: العرب تقول: "جِئْتُ مِنْ عليه" كقولك: "من فَوْقِهِ"، و"جئتُ مِنْ مَعَهُ" كقولك: من عنده. وقال مزاحم:

غَدَتْ مِنْ عَلَيْهِ بَعْدَ مـــا تمَّ ظِمْؤُها تَصِلُّ، وَعَـــنْ قَيْــضٍ ببيداءَ مَجْهَلِ

وقال الكسائى: "مِنْ" تدخل على جميع حروف الصفات، إلا على الباء واللام و"فى"، ولا تدخل أيضا عليها نفسها...". وهو ما نجده كذلك فى "المخصَّص" لابن سيده.

ومما وجدته فى أسلوب الرواية أيضا استعمال المؤلف للغة "أكلونى البراغيث" (التى نجرى عليها فى العامية مثل "ظلمونى الناس، ضربونى أولاد الفرطوس، نَشِّفوا ريقى الناس البخلا دول"). قال: "سلقوه أقرانُه الريفيون بألسنة حداد" (ص٧٢)، "يشاركونهم جنودُ أمنٍ مركزى" (ص١٦٣). وقد لاحظت أن لهجاتنا العامية هى فى كثير من الأحيان امتداد للهجات قبلية قديمة اختفت من الفصحى تماما أو تكاد، وبقيت فى العامية. ومن ذلك لغة "أكلونى البراغيث"، فنحن نقول: "طَلَعُوا لى بالليل العفاريت" و"عزمونا قرايبنا" و"لامونا الحبايب واحنا لم لمنا"... إلخ.

وفى الرواية أخطاء نحوية وصرفية ومعجمية منها "ينادون على بعضهم" (ص١٢، والصواب "ينادى بعضهم على بعض". ومثلها "بيوت مرهقة تستظل ببعضها" ص٥٣)، "فتحتْ ضلفتَىْ نافذة غرفتها" (ص١٢، والصواب "درفة" لا "ضلفة")، "ينصحه مشفقا بالعودة إلى البيت، وممدوح سادرا فى غيه"

(ص١٢، والصواب "سادر" خبر للمبتدإ مرفوع)، "راح يعلّمه يوما بعد يوم ما لم يتلقاه زملاؤه الأكبر منه سنا" (ص١٤، والصواب "ما لم يتلقَّه" بحذف الألف على سبيل الجزم بـ"لم")، "الإضغام" (ص١٤، والصواب "الإدغام" بالدال لا بالضاد)، "فى أمان الله يا مولانا. لا تنسانا من دعائك" (ص٣٥، والصواب "لا تنسنا" بحذف الألف التى بعد السين لانجزام المضارع بـ"لا الناهية")، "قوموا بنا حتى أوريكم إياه" (ص٣٩، والصواب هو "حتى أُرِيَكُمْ إياه" بحذف الواو التى تلى الهمزة)، "يشبه عفريت من عفاريت سيدنا سليمان" (ص٤٩، والصواب هو "يشبه عفريتًا" لأن "عفريت" مفعول به فينصب)، "عساهم يقضوا وقتا فى قهوة بُرَعِى" (ص٦٥، والصواب "عساهم يقضون" لأن المضارع ليس منصوبا ولا مجزوما حتى تحذف نونه بل هو مرفوع بثبوت النون. ومع هذا فقد تصادف، لدن وصولى هنا، أنْ قابلتُ، فى ترجمة محفوظ بن محمد التمرتاشى الغزى من كتاب "خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر" للمحبى، البيت التالى للشيخ النويرى صديقه، وهما من رجال القرن الحادى عشر الهجرى:

فصبرًا على ما نالنى من أحبتى   عساهم يجودوا بالرضا ويَقِيلوا)

"لم يألو (ممدوح) جهدا" (ص٧٢، والصواب "لم يألُ" بحذف حرف العلة لأنه مجزوم بـ"لم")، "تعالى يا ولد" (ص٧٢، والصواب "تعالَ" بحذف الألف)، "الرؤية" (بمعنى "ما يراه الشخص فى النوم"/ ص٧٥، ٧٦. والصواب "الرؤيا")، "يتسلق جزعا متدليا"(٨٣، والصواب "جِذْع" بالذال لا بالزاى)، "بعد الظهر اجتمعوا فى مصلّاة صغيرة" (ص٨٧، والصواب "مُصَلًّى" لأنه اسم مكان من غير الثلاثى فلا تجىء منه صيغة مؤنثة)، "يتطوح سكرانًا" (ص٩٢، ٩٣، ٩٤، والصواب "سكرانَ" بدون تنوين لأنه صفة

تنتهى بألف ونون زائدتين)، "لا يعرفها إلا أصحاب الكروش الواسعة وذو الحسابات البنكية المنتفخة" (ص٩٦، والصواب "وذوو الحسابات". فـ"ذو" للمفرد المذكر، و"ذوو" لجمع الذكور)، "ثلاث رجال شداد غلاظ" (ص١١٩، والصواب هو "ثلاثة رجال". والعبارة مستقاة من قول القرآن عن ملائكة الجحيم: "عليها ملائكة غلاظ شداد")، "هلّا تذكرت صنيعك أنت وزملاؤك فى بهو كلية العلوم يومها؟" (ص١٥٤، والصواب هو "صنيعك أنت وزملائك" بالجر لأنه معطوف على مضاف إليه)، "يشاركنا آياتُ الله... الإضجاع على أَسِرّتنا" (ص١٥٦، والصواب "الاضطجاع" بزيادة طاء وتحويل همزة القطع إلى همزة وصل)، "ألستَ نجلانًا من نفسك؟" (ص١٥٩، والصواب حذف التنوين من النطق، وإسقاط الألف من الكتابة مثلما فعلنا مع "كسلانا")، "ألحقَ بها مجزر آلى" (ص١٦١، والصواب "مجزرًا آليًّا" لأنه مفعول به فينصب). وأخيرا نأتى إلى البيتين التاليين اللذين أوردهما المؤلف فى ص١٠١ على لسان أحد الحشاشين فى الرواية:

دع المســـاجد للعُبّـــاد تســـكنها   وطـف بنـا حـول خمـار ليسـقينا
ما قال ربك: ويلٌ للذين سَكِرُوا   ولكـــن قـــال: ويـــلٌ للمصـــلينا

إذ وقفت أمام كلمة "الذين" فى البيت الثانى لانكسار الوزن بسببها، وحاولت أن أجد البيتين فى أى من الموسوعتين الشعريتين اللتين عندى فلم يتيسر لى ذلك، واستمعت إلى بعض الفيديوهات، وكل من فى تلك الفيديوهات تقريبا كان ينطقها: "الذين"، إلا واحدا سمعته يقول: "ما قال ربك: ويل للذى سكروا" (باسم الموصول المفرد المذكر) رغم أنها مكتوبة على شاشة الفيديو: "الذين". وهذا أحد البديلين اللذين كنت فكرت فيهما قبلا للخروج من هذا الإشكال الموسيقى. ولا يستغربن أحدٌ هذا الحل، فهناك من العرب

القدماء من كان يستخدم "الذى" بمعنى "الذين" كما فى البيت التالى، وهو للأشهب بن زميلة:

وإنّ الذى حانت بفلجٍ دمــاؤهم   هُمُ القــوم كلُّ القــوم يا أمَّ خالدِ

بل قد وجدت هذا الاستعمال فى شعر بعض العمانيين المحدثين، لكنى عدت فقلت إننى لا أذكر أنى وجدت هذا الاستخدام فى الشعر القديم الذى اطلعت عليه، اللهم إلا فى البيت السابق. أما الحل الثانى الذى فكرت فيه فهو استبدال "الأُلَى" بـ"الذين"، لكننى تعبت حتى وجدت هذه الرواية فى تفسير الشنقيطى أثناء تناوله سورة "الماعون"، وهذا أقرب للنفس من استعمال "الذى". قال الشيخ رحمه الله: "وقد سمعنا من ثقات وغيرهم أن رجلا قال لظالمٍ تاركٍ للصلاة: ما لك لا تصلى؟ فقال: لأن الله توعد على الصلاة بالويل فى قوله: "فويل للمصلين". فقال له: اقرأ بعدها. فقال: لا حاجة لى فيما بعدها. فيها كفاية فى التحذير من الصلاة. ومن هذا القبيل قول الشاعر:

دع المســاجد للعُبَّــاد تســكنها   وسر إلى حانة الخمار يسقينا
ما قال ربك: ويلٌ للأُلَى سَكِرُوا   وإنمــا قــال: ويــلٌ للمصــلينا

فإذا كان الله تعالى توعد بالويل المصلى الذى هو ساهٍ عن صلاته ويرائى فيها فكيف بالذى لا يصلى أصلا؟ فالويل كل الويل له، وعليه لعائن الله إلى يوم القيامة ما لم يتب".

وسر وقوفى عند هذين البيتين فى الرواية التى نحن بصدد نقدها أن المؤلف ينظم الشعر الجيد، فكان قمينا أن يتنبه إلى كسر كلمة "الذين" للوزن ولا يورد الرواية على هذا النحو أصلا ما دام شاعرا له على الأقل أذن موسيقية يزعجها الاضطراب الذى تسببه الكلمة المذكورة.

رواية "الطوفان الكبير" لعبد الرحيم درويش

تحكى الرواية قصة أربعة أشخاص فى جامعة كولومبيا الأمريكية كانوا يدرسون هناك عندما حدث طوفان الأقصى. وثم أستاذ أمريكى لهم قريب منهم هو هنرى سكوت تهجره امرأته الجميلة التى تحب شابا أسود، ويعانى بسببها أيما عناء. وهذا الأستاذ الشاب قدر له أن يسافر للقدس ويختلط بالعرب عن قرب ويرى الظلم الذى يتعرضون له، ويسلم بعد أن يتعرض للوبى الصهيونى. وهناك طالب فلسطينى اسمه مازن النعيمى، وطالب مصرى هو مصطفى البطنيجى المصرى الأم الفلسطينى الأب، وطالب يهودى اسمه ديفيد لى كاتز يكرههما ويشبه فى طباعه شيلوك اليهودى بطل مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير. وهناك أيضا زميل مصرى للطالب المصرى اسمه يوسف.

وتحاول الرواية أن توضح للعالم كله أساس الصراع العربى اليهودى فى القدس، وأن تسلط بعض الضوء على الظلم الذى يحيق بالفلسطينيين على أيدى اليهود وتبين كيف أن المساعدة الأمريكية والغربية هى التى شجعت إسرائيل على العدوان والتمادى فى قضم حقوق العرب. وبالمثل تؤكد الرواية أن المقاومة هى الخيار الوحيد لا الانبطاح، وأنه لابد من كسر شوكة الصهاينة وعودة الحق لأصحابه والأرض لأهلها الحقيقيين، وأنه من الممكن أن يساعدنا بعض من ينصتون لصوت الحق والخير والعدل من المنصفين.

وفى الرواية تصوير للمعاناة التى يعيشها أهل غزة بشكل خاص وأهل فلسطين بشكل عام وهم يئنون تحت نِير الاحتلال وإبراز بطولاتهم وتسليط النور على آمالهم وأحلامهم، وإيضاح علاقة كل شخصية بطوفان الأقصى فى السابع من أكتوبر ٢٠٢٤. لقد مثل طوفان الأقصى بالنسبة لهنرى سكوت

صدمة فتحت عينيه بقوة على الحقيقة التى كان قد شرع يتنبه إليها لما عاش فى غزة وأكدت نظريته السياسية المسماة بـ"الطوفان الكبير" الذى لا يبقى ولا يذر فى عالم السياسة، وخاصة بالنسبة للمظلوم.

وكان مصطفى عبد القادر البطنيجى تلميذه المصرى لا يكف عن مشاكسة اليهودى ديفيد لى كاتز ومناظرته فى المحاضرات. وكان هنرى سكوت فى البداية محايدا، لكن الأمر تبدل بعد طوفان الأقصى، فصار نقطة بداية عنده لإعادة التفكير فى قوة الكيان الإسرائيلى. كما كان نقطة تحول عند الفلسطينى مازن النعيمى، الذى تخلى عما اكتسبه من حياة المعتقلات والتعذيب من التوجس والخوف، وانخرط فى المظاهرات، بما يعنى أن الطوفان كان ضروريا له كى يتغير إلى الأفضل.

وقد كان لكل شخصية طوفانها: فطوفان هنرى سكوت هَجْرُ زوجته له وهروبها مع شاب زنجى، وقد تفاعل مع طوفان الأقصى فتغيرت شخصيته. أما مازن النعيمى الفلسطينى فكان طوفانه رجوعه لحبيبته نرجس بعد استشهاد أخيه، وإنجابه بنتا قتلها الصهاينة مع أمها، وإن كانت النهاية كحلم بطوفان لم يؤكد مقتله. حتى اليهودى ديفيد لى كاتز قد زلزله طوفان الأقصى كما زلزله طوفان خيانة أمه لأبيه، الذى كان يخون بدوره أمه فى السبت الشبيه بسبت السادس من أكتوبر١٩٧٣ وسبت السابع من أكتوبر ٢٠٢٤ طوفان الأقصى.

وتقع رواية "الطوفان الكبير" فى مائة وسبعين صفحة. ونتناول، ضمن ما نتناوله، الإشارة إلى "طوفان الأقصى"، الذى انفجر أثناء انخراط أبطالها فى شؤونهم بجامعة كولومبيا بأمريكا. فالرواية لم تبدأ به، وكذلك لم تنته بانتهائه، إذ لا يزال "الطوفان" ماضيا لم يتوقف بعد، وإنْ قطعتْه بعض الهُدَن. ذلك أن

نتنياهو ووزراءه، حسبما يعلنون طوال الوقت، لا يريدون أن تتوقف المعارك بينهم وبين المقاومة الفلسطينية حتى يقضو عليها ويضموا ما تبقى من أشلاء فلسطين الحبيبة إلى دولتهم، التى يعلنون أنهم عازمون على توسيعها إلى أن تصل إلى المساحة التى يعتقدون أنها حقهم، وهى من النهر إلى البحر، بما فى ذلك جزء من العراق وجزء من السعودية وجزء من لبنان وجزء من سورية وجزء من الأردن وجزء من مصر. وهذا لو اكتفت دولة الكيان الصهيونى بتلك المساحة ولم تَثُرْ شهيتُها إلى قضم أجزاء أخرى تتوسع بها وتصير إمبراطورية يهودية صهيونية. بل إن الكاتب نفسه، كما نرى فى السطور السابقة، قد كتب لى أن كل شخص فى الرواية كان له طوفانه. وعلى هذا فـ"الطوفان الكبير" هو مجموعة الطوافين التى تعرض لها جميع شخصيات الرواية.

ثم إن كلمة "الطوفان" فى الرواية لم تنتظر حتى يقع طوفان الأقصى بل ظهرت قبل ذلك فى الحديث عن طوفان عاطفى لإحدى شخصياتها، فضلا عن الإشارة إلى أن تحرير فلسطين من دنس اليهود يستلزم طوافين أخرى كل منها يوهى البنيان الصهيونى بعض الإيهاء حتى يرتجّ ويتفكك ويسقط فى أيدى أصحاب البلاد الفلسطينيين.

أقول هذا ردا على من أسميهم بـ"العنوانيين"، وهم الذين لا بد أن يقيموا مناحة كلما شرعوا فى نقد أى عمل إبداعى، وبخاصة إذا ما كان عملا قصصيا، فنجد الواحد منهم يتمطى ويتطوح ويتشادق معلنا أنه قبل أن يدخل فى صلب موضوعه لا بد له من التوقف عند العتبات، وأولها (باسم الله ما شاء الله، ربنا يحميه من الحاسدين والعائنين) عتبة العنوان، وهو ما يستحضر دائما من قيعان ذاكرتى أغنية "العتبة جزاز، والسلم نايلو ف نايلو. والـ..."، ثم يزحر صاحبنا العنوانى محاولا تعريف العتبة: لغويا أولا ثم مصطلحيا ثانيا، متصايحا

بأسماء بعض مدارس النقد الغربى والجامعات والمدن التى يعمل فيها أولئك النقاد... إلخ.

وعنوانيونا يظنون بهذا أنهم قد صاروا حداثيين وما بعد حداثيين وما بعد بعد حداثيين، بينما كل شىء فيهم وفى فكرهم، إن كان عندهم فكر، وفى كراكيب عقولهم، يصرخ بأعلى ما فيه من عزم بأنهم متخلفون عوامٌّ لا يفكرون كما يفكر المتحضرون بل كل ما فيهم مشدود بأمراس غلاظ إلى العقلية العامية الخرافية التى نشأت وتكونت فى بيئة متخلفة تشربوا منها كل ما يحركهم فى الحياة مما يتناقض مع الحداثة التى يدعونها رغم أنها لا تليق بهم ولا يليقون لها، إذ هى ثوب فضفاض جدا جدا عليهم فتراهم يتعثرون فى كل خطوة يخطونها ويفقدون توازنهم ويسقطون كل عدة خطوات.

وبالله عليكم لو وقعت هذه الرواية فى يد قارئ لم يسمع بطوفان الأقصى أكان يربط تلقائيا بينها وبين ذلك الطوفان؟ أليس من الممكن أن يكون ذلك الطوفان المذكور فى عنوانها قد قصد به الطوفان الذى أرسله الله مع الجراد والقُمّل والضفادع والدم على فرعون حين أصم أذنيه وأغلق عقله وفؤاده عن سماع كلمة الحق والتوحيد التى جاء بها موسى من الله إليه حسبما يخبرنا القرآن؟ ألا يمكن أن يكون الكلام عن طوفان نوح، وبخاصة أنه الطوفان الأكبر فى التاريخ؟ ألا يمكن أن يكون هو الطوفان (التسونامى) الرهيب الذى أغرق شواطئ بعض الدول الشرق- آسيوية فى أوائل هذا القرن؟ ألا يمكن أن يكون الطوفان إشارة إلى هزيمة سبع وستين التى اكتسحت كل شىء لدينا فى مصر ولم يعد لنا صلاحٌ جَرَّاءَها منذئذ؟ ألا يمكن أن يكون المقصود به سرد ما وقع بأحد رجال الأعمال الكبار من خسارة لثروته الطائلة وسقوطه

بين طيات طوفان الفقر والإفلاس؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الطوفان طوفانا عاطفيا مثلا كما هو الحال لدن ذكر الطوفان لأول مرة فى الرواية؟

إن الأمر فى الواقع ليسير بعكس ما يقوله العنوانيون من أن عنوان العمل يلقى ضوءا على مضمونه، إذ الحق أننا لا نستطيع فهم العنوان ومعرفة ما يشير إليه إلا بعد قراءتنا للرواية لا العكس. بل إننا قد ننتهى من قراءة الرواية، ومع هذا لا نفهم معنى عنوانها، مثل رواية "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ، إذ العنوان فيها عنوان عام شامل يصدق على أى شىء أو لا يصدق فى الحقيقة على شىء. أليس كل شىء له بداية، وله نهاية؟ إذن فالعنوان هنا يصدق على كل شىء، ومن ثم لا يصدق على شىء بعينه.

على أن الأمر عند عنوانيينا اللواذعة لا يتوقف هنا، بل هناك إعراب العنوان، وعادة ما يكون العنوان فى إعراب عنوانيينا الأشاوس خبرا لمبتدإ محذوف تقديره "هذا" (هكذا: "هذا هو الطوفان الكبير")، غافلين عن أن العنوان هو مجرد اسم علم على العمل الإبداعى مثلما أن كل شخص له اسم علم، وكذلك كل مدينة، وكل دولة، وكل كلب عند من يربون الكلاب، بل هناك سيوف يطلق على الواحد منها اسم علم خاص به. وكان لنا قريبة تقود سيارة صغيرة تسميها: "زغلولة"... وهكذا. ولو جارينا ما يصدّع به العنوانيون أدمغتنا فى إعراب العناوين فما فائدة القول بأن العنوان خبر لمبتدإ محذوف أو حتى غير محذوف؟ لا شىء. هى حذلقة وفذلكة ليس إلا. كما أن بإمكاننا العثور على إعرابات أخرى يصعب استقصاؤها كالقول بأن المراد هو "هذه الرواية تدور حول الطوفان الكبير، أو سأعرض لكم فى هذه الرواية الطوفان الكبير، أو الطوفان الكبير هو محور هذه الرواية، أو الطوفان الكبير أو الضياع، أو الطوفان الكبير أول الغيث، أو كذبة اسمها الطوفان الكبير، أو حقيقة

الطوفان الكبير... إلخ". ومع هذا فكل هذه الإعرابات هو كلام فى الهجايص.

وهذه الرواية بتناولها، ولو جانبا واحدا من جوانب القضية الفلسطينية وعلى نحو عارض أو شبه عارض، هذه الرواية بتناولها هذا هى حلقة فى سلسلة من الأدب القصصى الذى يدور حول فلسطين ومأساتها. ولعل أشهر هذه الأعمال رواية إيثيل مانن: "الطريق إلى بئر سبع"، التى قرأتُها عقب النكسة البشعة عام١٩٦٧، وهى تحكى لنا أحداث النكبة الأولى عام ١٩٤٨، وكانت كل كلمة فيها تخزنى بإبرة مسمومة. إنها عمل سامق (على الأقل من الناحية الإنسانية): فهذه سيدة بريطانية، أى تنتمى إلى الدولة التى خلقت فلسطين خلقا ومكرت بالعرب والمسلمين وورطتهم بغبائهم وسواد ضمائرهم وقصر نظرهم وخيانة الخائنين منهم، وما أكثرهم حتى الآن، فى كوارث متتابعة ووظفتهم فى ضرب أنفسهم بأنفسهم وتحطيم أوطانهم ومد أعناقهم لسيوف أعدائهم ووضعهم أموالهم فى خدمة مصالح كارهيهم وكارهى دينهم وبلادهم ومحتقرى آمالهم، ومع هذا لم يستطع ضمير السيدة البريطانية النبيلة أن يسكت على تلك الجرائم التى ارتكبتها دولتها بل امتشقت قلمها.

ولعل روايتنا هذه هى أول رواية تصدر عن "طوفان الأقصى". وبالمناسبة فلأحد الأصدقاء من طلابى السابقين والزملاء الحاليين معجم اسمه "طوفان الأقصى" صنعه فى غبار المعارك ودوى القنابل وهدير الطيارات و على وقع ضربات رجال المقاومة المقاديم بصواريخهم لدبابات الميركافاه وتمريغهم سمعة الجيش الصهيونى فى الفضلات القذرة النجسة المنتنة مثلهم. وصاحب المعجم هو د. محمد المنشاوى (من المنيا).

ويتميز كاتبنا ببراعته فى خلق القصص وصبها فى قالب فنى، ويبدو لى أن الأمر لا يأخذ فى يده وقتا طويلا. ويا ليته يصبر على رواياته ويقلبها فى عقله جيدا وطويلا قبل كتابتها حتى تكون مخدومة أفضل، ويصل من أعماقها إلى آماد بعيدة. ومع هذا فقد تميز روايته التى بين أيدينا بعنصر من أهم عناصر القصص، وهو عنصر التشويق. فأنت تقرؤها ولا تحب أن تتركها حتى تعرف إلام انتهت، وماذا وقع لأبطالها، وبخاصة أن حوادثها تدور فى أمريكا راعية الإرهاب الصهيونى ومموِّلته وممدّته بالسلاح والمحاربين والمدافعة عنه بكل قوة فى المحافل الدولية ومساعدته على احتقار المؤسسات العالمية التى يقال إنها تعمل على إظهار الحقيقة والضرب بشدة على أيدى المعتدين الظالمين الجبارين مما حول تلك المؤسسات إلى خيال مقثأة لا يخيف سوى العصافير الضعيفة الضئيلة مثلنا نحن العرب والمسلمين. وها هى ذى الوقائع المخزية تقع تحت أبصارنا وعلى مسمع منا حيث يسارع العرب إلى إمداد أمريكا بالمال والهدايا التريليونية والترامى على حذائها يقبلونه ويرجونها أن تضربهم به فى وجوههم حتى تنالهم البركة والفخار من هذا الحذاء. ولا شك أن كتابة رواية تدور فى أمريكا حتى لو كان المؤلف قد أمضى فيها عامين كالمؤلف تنبئ عن خيال ناشط.

كما أن لغة الرواية بوجه عام لغة منسابة لا يكاد القارئ يحس بوعورة فى أثناء قراءته لها بل يشعر بأن سيارته تنطلق فوق طريق حسن الرصف إلى حد معقول، فالمعجم الذى يمتح منه الراوى واسع، وتركيب الألفاظ فى جمل والجمل فى فقرات تركيب محكم. وتتراءى فى هذه اللغة قراءات الكاتب، وهى قراءة غنية تتناص مع آيات القرآن وأحاديث الرسول وأشعار الشاعِرِين

والأمثال القديمة والحديثة من عربية وأعجمية تناصا طبيعيا لا يبدو معه تصنع بل يتمازج هذا كله فى أسلوب الرواية تمازجا قويا.

ومن تلك التناصات قول مصطفى البطنيجى لأستاذة له فى الجامعة بمصر تلاعبت بالأوراق حتى فازت ابنتها ببعثة علمية إلى أمريكا رغم أن مصطفى كان هو صاحب الحق فيها، إذ استشهد، وهو يحادثها على الهاتف حين اتصلت به كى يسامحها على ما فعلته معه، بآيتين فى سورة "إبراهيم" ضمن كلامه التالى إليها:

"يا للبجاحة! أنت ظالمة ومتآمرة. لا يصلح أبدا أن تكونى أستاذة. لقد دستِ على كل القيم والمبادئ من أجل ابنتك. لقد عَلَّمتِ ابنتك كيف تُذْبَح القيم وكيف تُهْرَس المبادئ وتُدَكّ بالأقدام. تآمَرْتِ ضد تعيينى لصالح ابنتك مها. تعلمين أننى الأول. كنت الأول، وسأصير الأول دائما. لن يعوقنى شيء. ربنا ينتقم منك ومن ابنتك. أخذتما حقى. لن أسامحكما أبدا. ولا تحسبَنَّ الله غافلا عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تَشْخَص فيه الأبصار * مُهْطِعين مُقْنِعِى رؤوسِهم لا يرتدّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتهم هواء. الله بينى وبينكما. إن شاء الله سأرى انتقام الله بعينى فيكما". ثم مضى هادرا بالغضب قائلا لها ضمن ما قال عندما أخبرته أنها هى التى ساعدته على نيل البعثة التى هو على قوتها الآن فى جامعة كولومبيا: "أنت تقتلين القتيل وتمشين فى جنازته"، وهذا مثل شعبى ورد فى سياقه تماما، إذ كانت جاءت إلى الولايات المتحدة لتزور ابنتها المريضة بالسرطان هناك وتستميحه العفو لعل الله يسامحها هى وابنتها ويشفيها من مرضها ويجنبها المصائب والآلام. وثم مثل آخر هو "الحدأة لا ترمى كتاكيت"، وقد قاله مصطفى حين جاءته بطاقة تهنئة فى مناسبة ما من ديفيد

اليهودى، إذ قال له صديقه ما معناه أن الرجل فيه خير. فرد مصطفى عليه مستشهدا بذلك المثل.

وهناك المثل التالى، وهو أوربى. وهذا سياقه من الرواية: "يا مصطفى، نحن لسنا فى بلادنا. تقريبا طُرِدْنا من بلادنا، ولقد خرجنا منها مغضوبا علينا، ولم يفتح لنا أحدٌ أبوابَ الدخول سوى هذه البلاد الكافرة، ولذلك علينا أن نتأدب معهم. المثل يقول: إذا كنت فى روما فافعل ما يفعله الرومان أهلها. يمسك بخناقى بحركة تمثيلية ويؤكد لى أنه لن يفعل مثل الرومان أو مثل الأمريكيين. سيظل مسلما ولن يقبل أن يكون مثل المشركين الكفار". وهذا نص المثل بالإنجليزية: "When in Rome, do as the Romans do"، وبالفرنسية: "Quand en Rome, fais comme les Romains".

لكن قد يهتز القلم فى يد المؤلف فلا يصيب الكلمة المرجوة، كما هو الحال فى قوله على لسان أحد أبطال الرواية، وهو الأستاذ الجامعى الأمريكى هنرى سكوت، إذ كان قد وقع فى غرام فتاة جميلة تعمل بائعة فى محل أحذية، ولم يكن قد أسلم حتى ذلك الحين: "كنت أحس بأننى غارق لا محالة فى جمال عينيها، بعد أن أتوضأ بنظراتها وهى تبتسم لى، وأستعد لأن أصلى فى قدسية عشقها وأنا أرنو بنظراتى لجمالها الملائكى". فالكلام عن التوضؤ بنظراتها والصلاة فى قدسية عشقها لا يصدر إلا عن مسلم. لكن المؤلف فى غمرة الكتابة سها عن هذه الملاحظة، فكان ما كان.

وقد دار بينى وبين د. درويش محادثة ذات يوم عن لغته الفصيحة ومدى مراعاته لقواعدها فقال إنه رغم معرفته على نحو لا بأس به لهذه القواعد لا يكتفى بذلك بل يعهد بما يكتبه إلى أحد من يُسَمَّوْن هذه الأيام بـ"المدققين اللغويين". ومع هذا فالقارئ لا يعدم ملاحظة نحوية أو صرفية هنا

أو هناك من نصب ما حقه الرفع مثلا كما فى قولنا: "إن سعيدا رجلا طيبا"، والصواب هو "إن سعيدا رجلٌ طيبٌ"، أو تذكير الفعل المنسوب إلى امرأة أوامرأتين كالقول بأن المرأتين الفلانيتين "يلعبان" بدلا من "تلعبان"، أو أن النسوة الفلانيات "يلعبون" عوضا عن "يلعبن"، وإن كان ذلك فيما أذكر يقع فى الفعل المعطوف على الفعل الأصلى الملاصق للفاعل والجارى على قواعد التذكير والتأنيث. فكأن ابتعاده عن الفاعل قد أنساه أنه يتحدث عن نساء لا رجال. ومن تلك الأخطاء الموجودة فعلا فى الرواية: "فعلا الغربة كربة، ولا يعرف عناؤها (الصواب "عناءها" بالنصب لأنه مفعول) إلا مَنْ كابد البعد عن الوطن". ومنها أيضا قول مصطفى البطنيجى لمحاوره الذى أرجع لقب "البطنيجى" إلى "البطن" فى دعابة لتفسير معناه: "قلت فى استظراف: البطنيجى؟ أظن الاسم نابع ("نابعًا" بالنصب لأنه مفعول ثان لـ"أظن") من البطن".

ومن الغريب أن هذا التركيب قد تكرر مرارا فى الرواية دون خطإ: فأحيانا يقال: "أظن أنه قوىٌّ"، أو "أظنه قويا"، إلا هذه المرة. ومن تلك الملاحظات قوله: "كان والدىّ (الصواب "وَالِدَاىَ") ينعزلان تماما عن العالم كله". وهذا على كل حال قليل نسبيا فى الرواية. ولو خلت منه لكانت أفضل كثيرا. ويا ليته يصحح تلك الأغلاط فى الطبعة القادمة.

وما دمنا فى سياق التعجب من لقب "البطنيجى" فقد أذكر أننا، حين قرأنا فى شبابنا الأول رواية "السراب" لنجيب محفوظ، قد استغربنا أشد الاستغراب لقب بطل الرواية، وهو "كامل رؤبة لاظ"، وأبدينا عجبنا وضَحِكْنَا من قدرة محفوظ رحمه الله على التقاط مثل تلك الأسماء الغريبة. ثم اندفن التعجب فى قبر الذاكرة، إلى أن كنت ذات مغرب بعد مرور عقدين من

الزمان فى عام ١٩٨٤ تقريبا أجول فى حى السيدة زينب ومشيت فى شارع يقوم على ناصيته قسم الشرطة، وإذا بى وأنا أتلفت يمينا ويسارا محاولا الاستمتاع بكل شىء فى الشارع الصغير تقع عينى بغتة على لافتة حارة متفرعة من الشارع مكتوب عليها: "حارة رؤبة لاظ"، فقلت فى نفسى وأنا مبتهج أشد الابتهاج: يخرب عقل شيطانك يا نجيب يا محفوظ! أخيرا قابلْنا رؤبة لاظ، منه لله! لقد أتعبنا حقاً لم لم تقل لنا هذا من زمان يا عمنا نجيب؟

وعودا إلى لقب "البطنيجى" ومعناه أقول: لقد قرأت أنه لفظ تركى معناه "صاحب البطن الكبير"، وعائلة البطنيجى من العائلات الغزاوية المشهورة، ومنها فنانة تشكيلية متميزة اسمها ريهاف البطنيجى. وكان صديق مصطفى البطنيجى قد داعبه بسؤاله عن معنى هذا اللقب وهل له علاقة بالبطن: "حدثنى كثيرا عن والده الفلسطينى عبد القادر البطنيجى، وأخبرنى أنه يمت بصلة قرابة للمناضل عبد القادر الحسينى. أتذكر أننى ضحكت من اسم عائلته أول مرة سمعته. قلت فى استظراف: البطنيجى؟ أظن الاسم نابع من البطن. لقد أحسست بالجوع. طلب منى أن أحترم اسم عائلته قائلا إن الأسماء لا تعلل. ابتسمت وواصلت استظرافى: ولا يهمك. بطنيجى! بطنيجى! أحسن من الظهريجى. من له بطن لا يُضْرَب على ظهره".

هذا عن اللغة، أما بالنسبة للتصرفات فنجد هنرى سكوت يعطى للفتاة الجميلة التى أحبها، وكانت تعمل بائعة فى محل أحذية، مائة دولار بقشيشا. وأتصور أن الغربيين لا يتصرفون هكذا، وبخاصة أن الباعة يحصلون على مرتب جيد، كما أن البقشيش عندهم لا يصعد إلى هذا الرقم، وبالذات حين يكون الشىء المشترَى حذاء قد لا يصل ثمنه إلى هذا الحد. كذلك لا إخال صاحب المحل يدس أنفه فى شؤون هنرى سكوت ويحذره من الفتاة التى أحبها ويريد

أن يتزوجها. فحتى لو كانت تمارس الزنا مع صديق لها فإن هذا لا يعد عيبا فى نظرهم بحيث يجد صاحب المحل نفسه مضطرا لمصارحة العاشق الولهان بالأمر. ولدينا أيضا زياد النعيمى المشحون بالهواجس والمخاوف جراء ما وقع له فى المعتقل الصهيونى من تعذيب وآلام حتى ليكره أن يخرج من مسكنه فى أمريكا. فإذا كان الأمر كذلك فكيف بالله قد سافر أصلا إلى الولايات المتحدة المساندة للصهاينة؟ بل لماذا ترك بلده وسافر إلى بلد غريب ما دام يخاف كل ذلك الخوف ولا يطمئن للخروج من المسكن والاختلاط بالناس؟

وقد وفق المؤلف توفيقا لا بأس به فى رسم شخصيات روايته، وهى قليلة، وكل منها تمثل جانبا من جوانب واقعنا العربى الحالى، اللهم إلا الشيخ رمضان الصفدى، الذى لا أجد له دورا هاما فى الرواية ولا علاقة بينه وبين سائر شخصياتها. وسوف أترك المؤلف يقدم لنا هذا الشيخ ثم أُثَنِّى برأيى فى أمره. لقد خصص له المؤلف الفصل الخامس، وعنوانه "الطوفان الكبير"، وجرى الكلام فى الفقرات الأولى من ذلك الفصل على النحو التالى: "يبدو الخوف والقلق والاضطراب على وجه الشيخ رمضان الصفدى، وهو يصعد سلم الطائرة، حاملا حقيبته التى تحتوى أوراقه، وخاصة محاضرته التى جهزها وأعدها بعناية فائقة. إنها أول مرة يزور فيها بلاد الكفرة.

يرفع نظارته السميكة ليرى أرقام المقاعد جيدا. بصعوبة يجد رقم مقعده، ويجلس مكانه فى صمت، وجبينه مقطب يستغفر ويحوقل بصوت عالٍ يجذب إليه أنظار الناس رغما عنهم. ينظر بقرف إلى كل من حوله من النساء شبه العاريات سافرات الوجه كاشفات الشعر. يتفل عن يمينه وعن شماله مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم. سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى

ربنا لمنقلبون. أخذ يتلو دعاء السفر، وصدره الذى يعلو كرشه المنتفخ يعلو ويهبط.

هدأ قليلا. أخرج تذكرته وتأكد للمرة الثانية من رقم مقعده الذى يجلس عليه. وجده مطابقا وحمد الله. لن يزعجه أحد. الكرسى الذى بجواره لايزال خاليا. إنها المرة الأولى التى يركب فيها الطائرة. فتح الحقيبة وأخرج أوراق المحاضرة التى تحمل عنوان: فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية. بدأ يراجعها. إنه يحفظها عن ظهر قلب. لقد تمت دعوته للحديث عن الحضارة الإسلامية فى هذا المؤتمر المهم تحت عنوان "تلاقح الحضارات لا صدام الحضارات".

رفع صوته وكأنه يخطب: إن الإسلام دين التسامح ودين المحبة. إنه يدعو إلى التعاون لا إلى الصراع والقتل. لسنا إرهابيين... صوته نشاز بالفعل. لقد أزعج العديد من الركاب الذين نظروا له بتعجب واستغراب. سكت لما رأى نظراتهم.

خرس وأصابه الذهول تماما أو كاد عندما لمست يده امرأة شقراء فاتنة الحسن. انحنت أمامه فبدا نصف ثدييها من البلوزة السوداء التى كانت تلبسها. ظهر أيضا له نصف بطنها، فالبلوزة تصل إلى ما فوق سرتها بقليل. مالت بشعرها الأصفر على وجهه ولحيته، فأغمض عينيه ظنا أنه فى الجنة. استمتع بملمس أصابعها الناعمة الحريرية. خلعت نظارتها الشمسية السوداء فتبدت له فى فتنتها بيضاء ناصعة البياض كالقشدة الخالصة، فرآها، وحسبها وكأنها حورية من حوريات الجنة".

واضح من هذا النص أن ذلك الشيخ من الناحية الفنية مقطوع من شجرة فلا صلة له بأى من شخصيات الرواية، وهذا الشيخ الضخم البطن والذى يتفل يمينا ويسارا وهو يتهيأ للجلوس فى مقعده ويبسمل ويحوقل ويقرأ الكلمة التى أعدها لمؤتمر التقارب بين الأديان بصوت عال وكأنه يجلس فى بيتهم يرفع صوته على راحته دون اعتبار للآخرين ولا مراعاة لوجودهم لأنه لا يتمتع بأى حس لياقى، هذا الشيخ ما إن يستقر فى مقعده حتى تفد عليه فتاة شهية مثيرة يتحلب لها ريقه، وبخاصة حين تركت مقعدها وجلست على حجره، وجاءت المضيفة فأكملت الليلة وأمدتهما بملاءة فردتها الفتاة عليهما معها، فكان ما كان مما لست أذكره ومما لا ينبغى أن تظن فيه الخير أبدا، وطيرت كل أبراج عقله وأنسته حتى نفسه، وظلت وراءه فى الفندق الذى نزل فيه حتى اجترح إثم الزنا معها، ثم استمرت تهدده بنشر الفيديو الذى صورته له وهو يمارس معها الجنس إلى أن انهار وسلم سلاحه، وزاد فاعتنق النصرانية.

وهذا الشيخ يذكرنى بمحمد رحومة، الذى هرب من مصر منذ سنوات ولجأ إلى أمريكا يزعم أنه مضطهد فى بلده لتحوله إلى النصرانية، فقبلوه هناك، وزاد فصنع فيديو يزعم فيه أن المسيح تجلى له وخاطبه وتقبله بين المؤمنين بأنه ابن الله. وقد ظللت وقتها أنقب عن حقيقة أمر هذا "الرحومة"، فتبين لى من زملاء له فى الجامعة التى كان يعمل بها فى المنيا أن عليه عدة أحكام قضائية نافذة، وعليه متأخرات نفقة كثيرة لمصلحة زوجته، فلم يجد حلا لتينك المعضلتين سوى الفرار إلى أمريكا وادعاء وقوع الأذى عليه. وكان رحومة دكتورا فى الدراسات الإسلامية، ولهذا احتفت به الدوائر التبشيرية وهوّلت فى ارتداده عن الإسلام وانتقاله إلى النصرانية. وقد كتبت عنه مقالا طويلا يمكن أن يجده القراء على المشباك (الإنترنت). وها هو ذا الشيخ الصفدى

يكرر ما فعله رحومة ولكن على نحو مختلف، إذ غير دينه مثله لكن لا هروبا من أحكام ونفقة زوجية بل خشية من الفضيحة.

ولست أظن أن أى شخص بصفات الصفدى وظروفه يمكن أن يتحول بسرعة على هذا النحو الدرامى العاصف وبهذه السهولة. كما أن هذه أول مرة يتغطى فيها رجل وفتاة بملاءة فى الطيارة ويفعلان ما فعله الشيخ والفتاة وكأنهما فى غرفة نوم مغلقة عليهما. وكله كوم، وجلوس الفتاة الشهية على حجره فى الطائرة دون إِحِمْ أو دستور كوم آخر. لقد سافرنا بالطائرات كثيرا، ولم نر ولم نسمع بشىء كهذا. كذلك فمثل الشيخ الصفدى إنما تختارهم المؤسسات التى يعملون بها اختيارا ولا ترسل إلى مؤتمرات حوار الأديان بأى شخص والسلام. واضح أن المؤلف قد تسرع بإضافة الشيخ إلى أبطال روايته وغالى كثيرا فى وصف تطور علاقته بالفتاة الفاتنة. ومع هذا فلربما أراد المؤلف أن يكون هناك توازن بين تنصر الشيخ الصفدى وتَمَسْلُم هنرى سكوت الأستاذ الجامعى الأمريكى. ولكن هل كان لزاما على المؤلف إقامة هذا التوازن؟ هل كانت الرواية تتطلَّب ذلك؟ وهل هناك من تتطور شخصيته وتتغير ظروفه بهذا الشكل فى ذلك الوقت القصير، ودون أن تقع فيه أحداث شديدة الوطأة من شأنها أن تبرجل مخ الشخص برجلة تامة وتقلب حياته رأسا على عقب؟ ومع هذا فالفصل المذكور فى حد ذاته فصل ظريف أحسن فيه المؤلف وَصْفَ الشيخ وصفا فكها، وأجاد تصويرَ ضعفه أمام فتنة الفتاة التى جندها الأعداء للإيقاع به وتصييره أداة لحطم الروح المعنوية لدى المسلمين، وإن كان الموضوع قد انتهى نهاية سيئة للغاية حين خرج الصفدى من الملة حتى لا يتعرض للفضيحة. وهأنذا الآن منخرط فى نوبة ضحك لدن كتابتى هذه السطور، وأتخيل د. درويش واقفا أمامى يبادلنى ضحكا بضحك، ونحن

نستعرض شخصية الشيخ الصفدى وكيف أوقعت به الشيطانة الجميلة، فسقط من طوله كاللوح عند أول اختبار. أَوَهَكَذَا تشوّه صورة الشيخ يا د. درويش؟ سأشكوك للحكومة التى فى بيتك وأتركها تتصرف معك على النحو الذى تراه، وأخرج أنا منها لا عَلَىَّ ولا لِيَا، كافِيًا خَيْرِى شَرِّى.

وبالمناسبة كنت أوثر أن يُعَدِّىَ د. درويش عن وصف أثداء الفتاة الفاتنة. ولو كنت مكانه ما فعلت هذا. ومع ذلك فهناك مشهد آخر ترك لقلمه العنان يصفه ويدقق فى وصفه تدقيقا أخجلنى رغم أنى تعديت الطفولة والصبا والشباب والرجولة والكهولة منذ زمن طويل. يقول على لسان ديفيد الشاب اليهودى ابن الحاخام "أبو ديل نجس" وابن زوجة الحاخام "أم ديل أنجس". والكلام فى وصف استعداد أمه لملاقاة عشيقها أثناء وجود أبيه فى الكنيس طوال يوم السبت: "وجدتها تستحم وتتزين. عندما انتهت من الحمام فتحتْ جميع حجرات بيتنا وكأنها تبحث عنا. انفرجت أساريرها عندما لم تجد أحدا. دخلتِ الحجرة التى نحتفظ فيها بأشيائنا القديمة، فتحتْ صندوقا خشبيا يعلوه الغبار، مسحتْه برفق، وأخرجت منه أشياءها التى تحتفظ بها سرا وبعيدا عن أعيننا جميعا.

كنت ألمح هذا من تحت السرير، وأنا أتساءل عن سبب فعل أمى لهذا. لا أدرى لماذا اقشعر جسدى. أخذت تنزع الشعر الزائد فى وجهها، ثم عَرَّتْ فخذيها وبدأت فى نزع الشعر الزائد من ساقيها، وهى تتأوه. شعرتُ بالخجل والقرف. الحمد لله أننى رجل لا امرأة. وجدتها تضع مساحيق الزينة والتجميل على وجهها وتدندن بأحد (الصواب "إحدى") الأغانى الأمريكية. ارتدت باروكة الشعر، ولبست فستانا مكشوفا يظهر عن مساحة كبيرة من صدرها وكتفيها...

فى تمام الساعة العاشرة كانت هناك طرقة واحدة على الباب... لما فتحتِ الباب بحذر التفتَتْ يمينا ويسارا. رأيت حذاء رجل أنيق يدخل بيتنا. كان يرتدى بنطلونا أسود. لم أستطع أن أعرف من هو، ولكنها سألته بهمس: "هل انتبهت؟ هل رآك أحد من الجيران؟". لم يرد عليها، ولكننى رأيته يحملها ويقبّلِها. احتضنها واحتضنته. لم أعرف مَنْ هذا الكلب. أخشى أن أرفع رأسى فيرانى أو ترانى أمى فتضربنى لأنى لم أذهب مع أبى وأخوتى إلى الكنيس. ليتنى ذهبت ولم أرَ ما يحدث الآن.

أخرج زجاجة الشمبانيا وفتحها، فأحدثت دويا بصوت عالٍ. قالت بدلال: "أخشى أن يسمعنا أحد الجيران". احتضنها وقبَّلها من جديد. رأيت ملابسها تسقط على الأرض. لمحت ساقيها عاريتين وكذلك فخذيها.

رماها على السرير، ثم برك فوقها. قالت له بصوت متغنج: "بهدوء يا مستر أندرسون"... الخائنة يجب أن تُقْتَل. إنها زانية ويجب أن تُرْجَم، وكذلك أبى. الرجم فى شريعتنا اليهودية. ورد فى التوراة ما يبين حد الرجم فى حق من فارق الدين أو من اقترف جريمة الزنا وهو مُحْصَن. فلا تستجب له ولا تصغ إليه، ولا يشفق قلبك عليه، ولا تَتَرَأَّفْ به، ولا تتستَّرْ عليه... سأقتلها".

ويزيدنى نفورا هذا الوصف المفصل الصريح أنه بلسان ابنٍ لأمه، وهذا كثير. ويزيده إيلاما معرفتنا من الابن ذاته أن أمه كانت عاطلة من الجمال، فلهذا تأخذنا بها الرأفة ولا نحب أن نراها وقد انهمكت فى محاولة نراها فاشلة، إن لم تكن يائسة، فى تزيين نفسها. وفيم؟ فى محاولة إرضاء رجل آخر غير زوجها. والغريب أن عشيقها لم يصرفه عنها أنها كانت خالية من الجمال بل هجم عليها كأنه يهجم على ملكة جمال. عجيبة! وإذا كان يحيى حقى، فى تناوله النقدى لإحدى الروايات، لم يجد أى مسوّغ لإيراد تعليق بنت صغيرة حين

دخلت إحدى حجرات البيت فوجدت أمها تتحدث مع قريب لها فقالت ما معناه: "لم أنتما جالسان هكذا تتسارّان كرجل وزوجته؟"، ويرى أننا لا ينبغى أن نفرح لهذا الذكاء المبكر من تلك البنت التى تستحق، على العكس، أن تُضْرَب على مؤخرتها، فأنا أرى أن لو كان هذا الولد اليهودى أمامى الآن وهو يصف بتلذذ مرضى مشهد ممارسة الزنا بين أمه وعشيقها لصككته على وجهه صكة تلزمه الأدب.

أما ما يقوله هذا الولد عقب ذلك عن أمه: "الخائنة يجب أن تقتل. إنها زانية ويجب أن تُرْجَم، وكذلك أبى. الرجم فى شريعتنا اليهودية. ورد فى التوراة ما يبين حد الرجم فى حق من فارق الدين أو من اقترف جريمة الزنا وهو محصن. فلا تستجب له ولا تصغ إليه، ولا يشفق قلبك عليه، ولا تترأف به، ولا تتستر عليه. وفى سفر "التثنية" (الإصحاح١٣): "ارجمه بالحجارة حتى يموت، لأنه سعى أن يضلك عن الرب إلهك الذى أخرجك من ديار مصر من نير العبودية، فيشيع الخبر بين الإسرائيليين جميعهم ويخافون، ولا يعاودون ارتكاب مثل هذا الأمر الشنيع".

كنت أتألم وأكتم دموعى. سأقتلها. وبالفعل نَفَّذْتُ. وضعتُ لها فى الماء الذى تشربه سما. اشتريته خصيصا لها لتموت بفعلتها. قاتلها الله! جعلتنى أكره كل نساء الدنيا وأستمتع بالتشفى من كل بنات حواء. فلتذهب إلى الجحيم. ما أصعب ما مر بى فى يوم السبت"، فهذا الكلام يثير بعض التساؤلات: هل يطبق اليهود حد الرجم للزانيين؟ وفى عصرنا هذا؟ وفى أمريكا؟ وهل القتل يتم بالسم كما فعل هذا الولد؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يطبق حد الزنا على المرأة، والرجل لا؟ ذلك أن أباه كان يزنى هو أيضا ويعلم الابن ذلك، ويعلم الأب أن الابن يعلم. وإذا أردنا أن ندقق ونحقق فالسؤال هو: هل رأى الولد

فعلا أمه وهى تزنى؟ إنه، حسب كلامه هو، لم ير شيئا فى الفراش بل كل ما سمعه أصوات وتأوهات تناهت إليه وهو رابض تحت السرير، الذى كنت أتمنى لو انهار تحت وطأة الهبد والرزع على أم يافوخه وكتم أنفاسه فمات فطيسا. ولكن الهبد والرزع والتأوهات شىء، والزنا شىء آخر. مجرد تعقيب لم أستطع إمساكه فى حلقى. كما أن عبارة "قاتلها الله" عبارة عربية إسلامية لا إنجليزية ولا أمريكية ولا يهودية ولا حتى صهيونية. ثم متى كان اليهود يهتمون بزنى نسائهم ويقيمون هذه المندبة بسببه؟ ولقد قرأنا أن الحاخامات فى إسرائيل قد أحلوا لتسيبى ليفنى وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة ممارسة الزنا من أجل مصلحة الدولة. ومعروف أن اليهود يتخذون من بناتهم ونسائهم مصايد لغير اليهود للحصول منهم على المال والفوائد السياسية وغير السياسية. كما أن ديفيد قاتل أمه كان يعرف بزنا أبيه بامرأة من جيرانهم، ويتحدث معه فى هذا الموضوع بكل صراحة وبلا أى تحرج كما ألمحنا آنفا، بل ويداعبه به بكل أريحية. فأنى له كل هذا التحمس لقتل أمه وترك أبيه الخلبوص دون أن يضع له هو أيضا سم الكلاب فى كوب من العصير؟

وإذا كان اليهود فى عهد النبى قد تركوا الرجم واستبدلوا به، قبل ذلك بزمن بعيد، التجريس على حمار فكيف يُتَصَوَّر أن يفكر ابن فى أمريكا فى أيامنا هذه فى قتل أمه، وبالسم، ودعنا من عدم افتضاح أمره ومرور موتها على السلطات مر الكرام؟ وهناك حديث مشهور يصف هذا التجريس يورده المفسرون فى سياق سبب نزول قوله تعالى فى سورة "المائدة": "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ".

وهذا هو الحديث الشريف: "عن أبى هريرة قال: زنى رجل من اليهود وامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبى، فإنه نبى بُعِث بتخفيف. فإن أفتانا بفُتْيَا دون الرجم قبِلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا: "فُتْيَا نبى من أنبيائك"! قال: فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول فى رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مِدْراسهم، فقام على الباب فقال: أَنْشُدُكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أُحْصِن؟ قالوا: يُحَمَّم ويُجَبَّه ويجلد (والتجبيه: أن يحمل الزانيان على حمار، تُقَابل أقفيتهما، ويطاف بهما) وسكت شابٌّ منهم، فلما رآه سكت ألظَّ به النِّشْدَةَ، فقال: اللهم إذْ نشدتَنا فإنا نجد فى التوراة الرجْمَ! فقال النبى ﷺ: فما أوّل ما ارْتَخَصْتم أمر الله؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخَّر عنه الرجم. ثم زنى رجل فى أسْوة من الناس، فأراد رَجْمَه، فحال قومه دونه وقالوا: لا ترجمْ صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه! فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. قال النبى ﷺ: فإنى أحكم بما فى التوراة! فأمر بهما فرجما. قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا"، فكان النبى منهم".

وتقوم بنية رواية "الطوفان الكبير" على تقسيمها لعدة فصول بعدد أبطالها تقريبا، كل بطل له فصل خاص به. وسبق أن قلنا إن الشخصيات الرئيسية تتداخل وتتشابك فى كتلة روائية محكمة، ما عدا الفصل الخاص بالشيخ الصفدى، الذى هو رغم ذلك فصل ممتع فى حد ذاته كما قلنا. وينقسم كل فصل إلى عدة مفاصل، ولا يتبع السرد زاوية واحدة لا فى الرواية كلها ولا فى كل فصل بل نجد المفصل الأول يبدأ بطريقة سردية معينة لنفجأ بمفصل

تال يتبع طريقة أخرى فى السرد قد تتلوها عودة إلى الطريقة الأولى. والمؤلف يبدأ كل فصل بطريقة مختلفة عادة عن سواه من الفصول: ففصل يبدأ بقول السارد: أنا فلان الفلانى، عمرى كذا، وأعمل بالمكان الفلانى... إلخ. وفصل يضعنا السارد فيه فى قلب الحدث دون تمهيد أو توضيح بل يتركنا فى عماية من أمر المتكلم حتى تنجلى حقيقته شيئا فشيئا تاركا القارئ فى حيرة من أمره طوال ذلك، وإن لم تكن حيرة طويلة ولا مزعجة. وهذه من العوامل التى أثمرت التشويق الذى أشرت إليه آنفا. ولا أذكر أنى قابلت شيئا مثل تلك البنية السردية التى اعتمدها المؤلف. وفى العادة أضع كل طريقة سردية فى الرواية التى أكون بصدد دراستها تحت الفحص والتدقيق لأعرف الفلسفة التى وراءها وهل هى مقنعة للعقل والمنطق أو لا. لكنى لا أجد فى نفسى هذه المرة رغبة فى القيام بمثل ذلك الفحص والتدقيق. المهم أنها، فيما يخيل لى، ضرب من السرد جديد. وهو ما يعد دليلا على أن ألوان البنى القصصية لا تندرج كلها تحت شكل واحد كما يدعى نقاد البنيوية زورا وبهتانا وجرأة خطلاء على الواقع، بل الباب مفتوح لكل من يريد إضافة بنية جديدة.

وقد قرأ المؤلف فى أمور اليهود ودينهم وتشريعاتهم وتاريخهم ورجالهم بتوسع حتى يكتب رواية دقيقة. وهو فى مواضع مختلفة من الرواية يستشهد بنصوص من العهد القديم ومن التلمود، وتكون استشهاداته فى موضعها. انظر مثلا إلى هذا النص، والسارد فيه هو ديفيد اليهودى: إنه السبت. اليوم المقدس. اليوم الذى فيه أركن إلى الراحة ومراجعة مكاسبى من أعمالى، مع مراجعة حساباتى وأرصدتى البنكية من أعمالى المختلفة.

قبل أن أقوم من فراشى قلت: "شِماع يسْرئل، أدوناى ألوهينو، أدوناى أحد أدوناى هوا هألوهيم، أدوناى هوا هألوهيم". تذكرت ما حدث من يوسف

زميلنا فى الفصل عندما سمعنى أرتل هذا الدعاء، وكان معه مصطفى. سألنى يوسف بتعجب: هل هذا إنجليزى يا صديقى الحاخام ديفيد؟ أرد عليه: لا. عبرى، ومعناه: اسمع يا إسرائيل، ربى إلهنا، ربى أحد. ربى هو الله. ربى هو الله. حتى أزيد من انتباهه قلت فى خشوع: "باروك شم كبود ملكوتو لعولم وعد. أدوناى ملك، أدوناى ملك، أدوناى يملوك لعولم وعد". لما سألنى عن الترجمة للمرة الثانية، قلت له: مبارك اسم ملكوته المجيد للأبد. ربى الملك، ربى الملك للأبد. ابتسم مصطفى وقال: كلنا نعبد الله الواحد الأحد. إن الدين عند الله الإسلام.

قمت متسللا من فراشى حتى لا أوقظ أبى وأسمع موشحاته بصوته الذى شاخ. سيقول لى بعد أن يغضب ويصيح بى بصوته الأجش: ماذا تفعل يا ولد فى يوم شبات؟ هل تنتهك حرمة يوم السبت؟ نحن لا نفعل شيئا فى هذا اليوم. لا نشغِّل حتى الأجهزة الكهربية. هل نسيت ما علمتك يا ولد يا ديفيد. سيتكلم وهو قابع فى جلسته على الكرسى يهتز للأمام وللخلف مرتلا من سفر التكوين بطريقته التى لم يغيرها الزمن، ولم تتغير مع تقدم العمر به: "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: إِلَى مَتَى تَأْبَوْنَ أَنْ تَحْفَظُوا وَصَايَاى وَشَرَائِعِى؟ اُنْظُرُوا! إِنَّ الرَّبَّ أَعْطَاكُمُ السَّبْتَ. لِذلِكَ هُوَ يُعْطِيكُمْ فِى الْيَوْمِ السَّادِسِ خُبْزَ يَوْمَيْنِ. اجْلِسُوا كُلُّ وَاحِد فِى مَكَانه. لاَ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ مَكَانه فِى الْيَوْمِ السَّابعِ". وفى سفر الخروج: " اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلاً مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِى دَاخِلَ أَبْوَابِكَ".

أريد أن أصرخ فيه وأقول له: "عينى فى عينك. أليس هذا هو يوم السبت، نفس اليوم الذى ضبطتك فيه وأنت تضاجع مسز جيسيكا فى بيت

زوجها؟ لقد كان يوم السبت أيها المنافق". أغمضت عينى حتى لا أتألم أكثر من ذكرياتى الموجعة فى يوم السبت. تذكرت هذا اليوم الغابر. يوم الطوفان الذى ضرب حياتى بعنف وهدها، وأثر فى نفسيتى وجعلنى أكره نفسى ولا أطيقها".

فانظر كيف يورد المؤلف نصوصا عبرية ثم يثنّى بترجمتها. وانظر كيف يشرح على لسان الحاخام والد ديفيد أهمية يوم السبت عند اليهود، وكيف أنه يجب عليهم الامتناع عن فعل أى شىء خلاله. وهو فى أثناء ذلك كله يورد النصوص التى تصدّق ما يقول.

وانظر أيضا هذا النص، وفيه كلام كثير عن الحاخامات وداود ونجمة داود وملابس اليهود والطاقية الصغيرة المسطحة التى يرتديها كثير منهم واسمها بالعبرية، فضلا عن بعض المقارنات بين اليهودية والإسلام فى هذا الجانب أو ذاك: "أول مرة التقيت الزميل مصطفى البطنيجى قبل المحاضرة الأولى بنصف ساعة تقريبا أمام قاعة الدراسة نظر لى باشمئزاز عندما أخبرته باسمى، رفض أن يصافحنى بعد أن مددت له يدى، وقال بصوت خفيض، ولكنى سمعته: "ديفيد يعنى يهودى، وتعنى داوود عندنا". لم يسترح لى، ولم يسترح للطاقية التى كنت أضعها على رأسى. رفض أيضا أن يصافحنى عندما طلب منه هنرى سكوت ذلك إذ احتد الخلاف فى الرأى بيننا بسبب رفضه أن يطلق على إسرائيل لفظ "دولة"، وأصر على أن يطلق عليها الكيان المحتل.

قبل أن ندخل أول محاضرة فى مادة "المدخل إلى العلوم السياسية" سألنى وهو يشير بإصبعه نحو رأسى المزين بالطاقية الصغيرة، "ما هذا الذى تضعه فوق رأسك؟". نظرت له بدون اكتراث، وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه الواثقتين وأجبت: "طاقية. نسميها عندنا الكيباة أو الكِبة وتعرف أيضًا باليارمولكه،

وهى غطاء رأس صغير ومستدير الشكل يرتديه الرجال اليهود الأرثوذكسيون، وقد تجد بعض اليهوديات يرتدينها، ويعنى هذا أن المتدينين يلبسونها طيلة الوقت تقديسا واحتراما لله حيث لا يجوز ذكر اسم الرب على فم من كان رأسه عاريا كما تأمر أحكام الشريعة اليهودية وكما جاء فى التلمود: قم بتغطية رأسك يمثل رمزا للتقوى ولتواضع الإنسان أمام الرب".

رد هازئا وباستعلاء: "وهذا عندنا أيضا فى الإسلام. تغطية الرأس فى الصلاة تعنى الخشوع والخضوع لله رب العالمين. هل تعرف أنها تشبه الطاقية الشبيكة التى يرتديها معظم المسلمين عند الصلاة؟". وجدتنى أرد عليه وأنا أنفخ: احمد الله أنها ليست طاقية كبيرة أو قبعة كبيرة كالتى كان يرتديها والدى الحاخام لى كاتز.

أغاظته أكثر كلماتى الأخيرة التى أكدت له أننى يهودى وأن جدى ليس إنسانا عاديا، ولكنه حاخام، أى رجل دين يهودى. تركته ينظر لى بسخرية وفى غير اهتمام، وقد كنت أتحدث مع زميلة هندوسية من الهند، وأحدثها عن اسمى وما ورد فى التوراة عن اسمى. تحلق كثيرون حولنا.

قلت: واسم داؤود أو داوود بالعربية يلفظ باللغة العبرية الحديثة ديفيد، وفسره معظم الحاخامات الذين قابلتهم بمعنى كلمة "محبوب"، وهو من الجذر الكنعانى: "دود"، وقد يكون هذا التفسير سببا فى ذكر البعض أن داوود كان ذا وجه جميل أشقر وحلو العينين. وكان ملكا لا نبيا حسب شريعتنا، وهناك من يظن أن حلاوة تسبيحات داوود جعلت الجبال والطير تسبح معه لله، مما جعلهم يحسبون الجمال فى خلقته وشكله وهيئته. كان ينشد ويترنم لله تقديسًا له وتعظيمًا، ولكن كتبة التوراة أضافوا شيئًا، وهو أن داود كان يضرب بالعود.

واصلت حديثى قائلا: ومما يذكر فى التوراة عندنا كيهود، أو فى العهد القديم عند المسيحيين، عن داوود أنه كان قصير القامة أشقر الشعر متلألئ العينين قوى البنية خفيف الحركة يسابق الإبل، وكانت ذراعاه القويتان تحنيان قوسًا من النحاس، كما كان شاعرًا يعزف آلة العود، وقد قتل جاليات، والذى يعنى "جالوت"، بعد أن رماه بحجر، كما يعرف بأنه كاتب معظم المزامير التى فى الكتاب المقدس، الذى أنزل عليه وكان يحكم به بين الناس.

بدا على مصطفى الاهتمام قليلا وشرع فى الاستماع لى، وأخرج قلما وورقة، وكأنه يريد أن يفند ما أقول. لمحته يكتب، ولكنى واصلت حديثى: وداوود مهم جدا لنا كيهود، ونجمة داوود كرمز لنا أحيانا تُسَمَّى بـ"خاتم سليمان"،وتعنى بالعبرية "ماجين دافيد"، وتعنى "درع داوود". وفى عام١٩٤٨ لما قامت دولة إسرائيل تم اختيار نجمة داوود لتكون الشعار على العلم الإسرائيلى...

لم يدعنى مصطفى أواصل حديثى. قاطعنى بلغة إنجليزية رصينة، وبدأ ينظر فى الورقة التى كان يكتب فيها وتكلم بصوت كله ثقة شدت معظم الحاضرين: لقد وقعت يا عزيزى فى ثلاثة أخطاء واسمح لى أن أصحح لك وللزملاء الأعزاء. أولا: داوود كان ملكا نبيا كما عندنا فى القرآن فى ديننا الإسلام الخاتم، وكما يقول الله سبحانه وتعالى: "وآتينا داوود زبورا"، ويقول أيضا: "وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة"، وثانيا: لا يمكن أن يكون داوود هو كاتب المزامير، لأنها وحى من الله لنبيه، ولا يمكن أن يكتبها من نفسه. وهذا على أساس أنها من عند الله لا من عنده، ولم يكن يحكم بالزبور، ولكنه كان يقضى بين بنى إسرائيل وقتها بأحكام التوراة قبل أن يحرفها اليهود، لأن الزبور كتاب به حكم ومواعظ وليس فيه أحكام الحلال

والحرام، وثالثا: ليست نجمة داوود أو النجمة السداسية رمزا خاصا باليهود، فهناك دلائل تاريخية تشير إلى استخدام هذه النجمة قبل اليهود على أساس أنها رمز للعلوم الخفية أو التى لا يعرفها أحد، وكانت تضم السحر والشعوذة.

ابتسمت الزميلة الهندوسية وأضافت: كلام مصطفى صحيح. وقد استخدمناه كهندوس من قَبْل اليهود كشكل هندسى ضمن أشكال أخرى من الرموز، وكنا نسميها: "ماندالا" لنعبر عن الكون والأمور التى ما وراء الطبيعة ولا نستطيع أن نفسرها. شكرها مصطفى وواصل حججه قائلا: والمسلمون أيضا استخدموا النجمة السداسية فى فنونهم الإسلامية وعمارتهم ورسموها على المبانى وعلى جدران المساجد. وليس هذا فحسب، بل هناك أكثر من شاهد تاريخى أن المسلمين استخدموها فى إمارة قرمان كعَلَمٍ لهم. وكانت قرمان دولة إسلامية نشأت فى عام١٢٥٠ جنوب الأناضول، وكان حكامها ينحدرون لأصل أرمنى، واعتنق مؤسسها الإسلام. واسمه، على ما أتذكر، نورى الصوفى. وكانت علاقة القرمان مع مماليك مصر جيدة. وكل هذا قبل نشأة الكيان الإسرائيلى المحتل بما يقرب من ٧٠٠ سنة".

وفى النص التالى أيضا جوانب أخرى من اليهودية يحدثنا عنها ديفيد اليهودى فى أول الفصل الذى خصصه له الكاتب. وهو يورد هذه المعلومات خلال حديثه عن نفسه وعن أبيه وأمه وخلال تحليله لمشاعره ومواقفه وكيف تشكلت تلك المواقف بناء على ما مر به من أوضاع وظروف وما شُحِن به من تعاليم وقيم ومفاهيم وما رآه حوله من تصرفات الأشخاص وسمعه منهم من أفكار وآراء وتحليلات. وهذا النص، وإن كان يركز بالدرجة الأولى على جانب المرأة ورؤية اليهودية وكِتَابها لها، فإنه يتطرق أثناء الحديث عنها إلى مسائل أخرى فى اليهودية: مسائل تاريخية واعتقادية وطائفية وطقوسية

وسلوكية وشكلية تتصل بالملابس وغيرها. وواضح أن المؤلف قد قرأ جيدا عن اليهودية والمقارنة بينها وبين الإسلام بما يكفى لنجاحه فى وضع هذه الرواية الكاشفة كى نعرف طبيعة معركتنا حول فلسطين مع الصهيونيين.

يقول ديفيد الطالب اليهودى بجامعة كولومبيا الأمريكية والزميل لبعض الطلاب العرب: "اسمى ديفيد. هذا هو الاسم الذى أطلقه علىَّ والدى الحاخام لى كاتز عند ولادتى مباشرة بعد أن سعد بى وفرح بمجيئى إلى هذه الدنيا لدرجة أنه أصر على أن يأخذنى إلى الكنيس ليباركنى هناك، وليخبر جميع رفاقه من المتعبدين بسعادته بى. كنت آخر مولود لوالدى، وبالتحديد كنت العاشر بعد تسعة من الإخوة البنين والبنات، ولذلك كانت سعادتهما بى غامرة.

افتخر بى أبى كثيرا أولا لأننى ذكر، فهو بطبعه لا يحب البنات، وثانيا لأننى أتيت فى الترتيب العاشر بين إخوتى، ووُلدت له فى اليوم العاشر من شهر يونيو، وبالنسبة له اعتبر أن هذا اليوم مثل يوم عاشوراء، وهو اليوم الوحيد الذى يحسبه اليهود بالتقويم القمرى ويصومونه كما يصومه المسلمون حيث أنجى الرب نبينا موسى كليمه من الغرق، وأنجاه من فرعون وجنوده، كما غرَّق أعداءه، فصامه موسى شكرا لله. نذر أبى للرب أن يصوم اليوم العاشر من كل شهر احتفاء بى، وكان يؤكد أنه سيكون لى شأن كبير فى الناس.

وأبى يفتخر دائما بأنه يهودى أبا عن أب، وجدا عن جد، ودائما ما كان يعلن أننا ننتمى إلى طائفة اليهود الحريديم، الذين يظنون أنهم أكثر الناس تدينا، ويطلق علينا بعض اليهود كلمة الأصوليين المتدينين، وذلك لأنهم يرون أننا نمارس الطقوس الدينية حرفيا، ونريد أن نعيش حياتنا كل يوم وفقا للتفاصيل الكاملة للديانة اليهودية. وكلمة "حريديم" تُعَدّ الجمع لكلمة "حريدى". وقد عرفتُ

عندما كبرتُ أنها تعنى: "التقى أو النقى" كما قال لى أحد الحاخامات من أصدقاء أبى. وفى أيام طفولتى عرفت عندما قرأت أن كلمة "الحريديم" جاءت من الفعل "حرد" بمعنى غضب وبخل واعتزل الناس من أجل التعبد لله والبعد عن الناس.

صحيح أننى لا أفخر كثيرا باسم داوود كما كان يظن والدى بأننى سأملأ الدنيا فخرا به. حكت لى أمى الكثير من القصص والأمور المبشرة بالخير فى يوم ولادتى، وعن رؤيا والدى لى بأننى سأصبح ذا شأن كبير، كما حكت لى عن معاناتها وهى تلدنى، فى حين أنها لا تذكر أى معاناة عانتها فى ولادة بقية أخوتى وأخواتى.

وفى الحقيقة التى أواجه بها نفسى دائما: أنا لا أحب والدى ولا أفتخر به أبدا، كما لا أحب أمى. قد يكون من الصعب على الاعتراف بهذا، ولكنها هى الحقيقة المرة المؤلمة التى يمتلئ حلقى بغصتها، ويدمى قلبى بسببها. ما أبشع أن تكره من كانا السبب فى وجودك فى هذه الحياة.

كيف لا أكرههما وقد وُلِدْتُ فى عائلة بها عشرة من الأولاد والبنات الفقراء والجوعى على الدوام. كثيرا ما كنت أعيَّر بأمى، التى شبهها بعض رفاقى بالأرنبة أو بالصينية التى تلد كثيرا. هذه تعاليم دين أبى وأمى. إنهما يريدان الإنجاب بكثرة، وعدم ممارسة تحديد النسل. كان العلمانيون من اليهود يسخرون منا كحريديم، إذ كانوا يحجمون عن الزواج والإنجاب.

أمى لم تكن جميلة، وكان أبى يقلل من شأنها، ويضربها دائما كما يضرب أخواتى البنات، ويعاملهن معاملة الجوارى والعبيد. يرى المرأة فى درجة أدنى من الرجل، بل ويرى أمى أقل النساء جميعا، وأن وظيفتها الوحيدة أن تنجب له الذكور. أكثر من مرة كان يضربها ويهينها ويسبنا بها، كما كان يأمرها أحيانا

بحلق رأسها بالموسى لأنها، كشأن باقى النساء فى العالم، هن سبب الإغراء للرجال وسحبهم بعيدا عن الرب. فالمرأة من وجهة نظره تستحق اللعنة الأبدية لأنها أصل الخطيئة الأولى حيث أغوت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة، وكانت السبب فى نزولنا إلى الأرض.

المرأة، كما يراها أبى، ليست إنسانا كاملا لأنها نجسة، ولديها مشكلة فى طهارتها لا فى فترة الحيض فقط، وإنما بعدها أيضا بأسبوع، وإذا لمست شيئا نجسته وصار من يلمسه بعدها نجسا. عندما تولد تصير ضمن ممتلكات الرجل الذى من حقه أن يتصرف فيها كيفما يشاء على النحو الذى يشاء، فإذا اعتدى عليها رجل آخر أصبح الأمر اعتداء على ملكه، وليس عليها مباشرة كإنسان يحرم الاعتداء عليه. ليس هذا فحسب، بل يحرم عليها المشاركة فى العبادة أو تعلم التوراة. فمعظم النساء، كما يرى، ليس لديهن نية حقيقية لتعلم التوراة، وإذا حدث هذا فستتحول العبادة إلى مزحة. لا أدرى لماذا تبنيتُ وجهة نظره هذه، ولماذا رسختْ لدى لفترات طويلة.

رأيته يهز رأسه وجسده للأمام وللخلف، ويتمايل يمينا ويسارا وهو يتلو المزامير والأسفار، ويرتل بصوته الأجش ناظرا لأمى ولأخواتى البنات بسخط: يا أيتها المرأة التى فى الإثم وُلِدْتِ، وفى الخطيئة حَبَلْتِ بى. يا أيتها النسوة اللاتى أنتن سبب الفتنة المستمرة. إنك شباك، وقلبك شراك، ويدك قيود. الحية أغرت المرأة بالأكل من تلك الشجرة فأخذت من ثمرها، وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل، فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان. وقال الرب الإله للحية: "لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم... على بطنك تَسْعَيْن، وترابًا تأكلين كل أيام حياتك. وقال للمرأة: تكثيرًا أكثِّر أتعاب حبلك. بالوضع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك. وقال

لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك... ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا، ويأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها".

أراه بعدها يتوجه لى ويهمس فى أذنى: ويقول علماء الكتاب المقدس يا ديفيد فى تعليقهم على بعض ما جاء فى هذه القصة: "المرأة لا تكون شريكة للرجل وتساويه، بل تمسى فتنة الرجل، وهو يستعبدها لتلد له الأولاد". إياك يا ديفيد أن تخضع لامرأة، وإياك أن تقودك امرأة.

سبب آخر جعلنى لا أحب أبى وأمى إضافة إلى أسباب أخرى سأذكرها لاحقا. ملابسهما الغريبة التى تخالف ملابس الناس. كانا يعدان هذا الأمر من قبيل التدين واعتزال الناس، بل والتفرد عنهم تقربا إلى الله.

كان أبى يرتدى ملابس غريبة عجيبة ليست كملابس الناس هنا فى نيويورك. أراه صيفا وشتاء يرتدى المعطف الأسود الطويل، ويلبس فوق رأسه أحيانا قبعة سوداء طويلة، ويضع فوق رأسه وهو يصلى "الطاليت"، وأحيانا يطلق عليه: "الطليس أو الطيلسان"، وهو أشبه بشال كان يرتديه فى حياته اليومية لدرجة أن أحد جيراننا كان يشبه أبى بالمسلمين وهو يرتديه، وأغضب هذا أبى كثيرا كما أغضبنى جدا. كان أبى أيضا يطلق لحيته ولا يحلقها أبدا إلا فيما ندر، كانت لحيته تنزل إلى صدره، كما كان شعره غزيرا طويلا لدرجة أن شعر رأسه كان يتدلى على أذنيه. صورة كنت لا أحبها فى الحقيقة ولم أحبها أبدا.

لم أكن أعلم أننى عندما أكبر سأكون نسخة منه. سألبس مثله تماما وستكون لى لحية طويلة مثله. سأحب طريقة المظهر هذه. لما كبرت صرت أربى شعرى مثله ليتدلى خلف أذنى كصورة طبق الأصل منه. فعلا من أنجب لم يمت، ومن شابه أباه فما ظلم. لا أدرى لماذا كنت أنتقده إذ كنت صغيرا.

أما أمى فكانت ترتدى ما يشبه البرقع، وهو أقرب فى الصورة إلى نقاب المسلمات حيث يغطى ملبسها كل جسدها كخيمة، وكانت أيضا تغطى مساحة كبيرة من وجهها. بعض جيراننا من الصبيان كانوا يطلقون عليها اسم "الساحرة الشريرة"، فى حين كان بعض أصحابى ونحن صغار يسخرون منها ومن أبى ويظنون أنهما أسلما وتركا الديانة اليهودية. كانوا يتهكمون ويقولون: لماذا لا تتبعون المسيحية؟ أليست المسيحية أفضل من اليهودية والإسلام؟ أنتم فى مجتمع مسيحى، وعليكم أن تكونوا مثل باقى الناس فى هذا المجتمع المسيحى".

ومن السهل على القارئ الآن، فيما يخص المرأة، معرفة أن ما يقوله الغربيون بوجه عام عن وضع المرأة فى الإسلام هو الجهل والتزييف والاتهام الظالم مجسما. فالمرأة فى الإسلام محترمة فى مالها وفى رأيها فيمن يتقدم لخِطْبَتِها وفى مالها ولها نفس الحقوق والواجبات التى للرجل، وترث كما يرث رغم أنها لا يجب عليها شىء فى مصاريف البيت إلا أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها. بل إن الرسول ليضعها، بالنسبة للأبناء، فوق الأب، إذ سأله رجل مرة: مَنْ أحقُّ الناس بصحبتى يا رسول الله؟ قال: أمك. وكلما أعاد السؤال أعاد الرسول عليه السلام نفس الجواب، وفى الرابعة والأخيرة قال: أبوك. كما جعل الإسلام تربية الأب لابنته وتعليمها وتزويجها سبيلا مضمونا إلى الجنة. وهناك البرقع، وهو كما لاحظنا موجود فى اليهودية. والإسلام لا ينظر إلى المرأة على أنها شر

ولا أنها هى السبب فى خروج آدم من الجنة بل هما الاثنان مسؤولان عن ذلك. أما إن كان لا بد من إفراد واحد منهما فى ذلك السياق فهو آدم. وفضلا عن ذلك فالمرأة، حتى فى الحيض والنفاس، ليست نجسة ولا يحرم الاقتراب منها ولا من ملابسها أو الأماكن التى تجلس فيها أو تَلْمِسها بحجة اتقاء النجاسة التى كتبتها عليها اليهودية كما هو فى النص الذى فرغنا منه لتونا، بل هى إنسان طاهر طوال الوقت لكن كل ما فى الأمر أنه لا يحل جماعها آنذاك. أما أن حبل المرأة وولادتها عقوبة من الله لها فأمر لا يعرفه دينا، إذ هو يرى الأولاد نعمة إلهية وزينة من زينات الدنيا، وثاب المرأة على حملها ووضعها لجنينها ثوابا كبيرا. كما أن المرأة الولود مبعث رضا لا مسبة. ولم يلعن الله الأرض بل يمتن بها وبما فيها من طعام وثروات على عباده ويأمرهم بالضرب فى جنباتها للحصول على ما بثه فيها من خيرات.

كذلك لا يعرف الإسلام حكاية اللعن الذى باءت به الحية بالذات. فالرواية الإسلامية لبداية الخلق وهبوط أبوينا من الجنة الأولى إلى الأرض تخلو تماما من خرافة الحية هذه، إذ يذكر القرآن أن الشيطان قد وسوس مباشرة إلى آدم وحواء، فنسيا واستجابا لوسوسته دون وساطة من أى مخلوق. ثم إن الحية لا تأكل التراب ولا الطين. كما أن الإنسان حين يريد التخلص منها حتى لا تؤذيه لا يسحقها عادة بقدمه، وإلا عضته، بل يقتلها من بعيد بطريقة أو بأخرى. ثم إنها ليست الزاحفة الوحيدة أو الحيوان الوحيد الذى يخشاه البشر ويتجنبونه أو يتخلصون منه بل هناك العقرب مثلا والتمساح وسمك القرش، والكلاب والقطط المسعورة والفئران، إلى جانب الحيوانات المتوحشة كالذئب والثعلب والنمر والأسد والضبع، علاوة على النباتات السامة، وما أكثرها. حتى الماء فى الأنهار والبحار والمحيطات والآبار يصير خطرا رهيبا على

من لا يعرف العوم ويغرق فيه فيموت مختنقا. وهذا غير مخاطر السيارات والقطارات التى تدهس من لا يتنبه ويسهو فيقف فى طريقها.

ومع هذا يظل أعداؤنا يشنعون على ديننا وأحكامه فى حين أن الأَوْلَى بهم انشغالهم بدينهم المعيب عيبا شنيعا والشعور بشىء من الخجل. وللأسف نرى بعض المصابين بشعور النقص منا نحن العرب والمسلمين يرددون كالببغاوات ما يقوله أولئك الأعداء فى حق ديننا. لكن أحب أن أزجى ملاحظة سريعة وبسيطة هنا، وهى أننا ونحن نحفظ القرآن فى الكتاب كنا نتمايل يمينا ويسارا كلما وقفنا أمام الفقيه (كما كنا نسميه) عند تسميع اللوح (النص القرآنى المقرر حفظه على كل منا يوميا) أو تسميع الحصة (وهى كل ما حفظناه من القرآن قبلا كيلا ننساه). فهناك شىء من التشابه بين ما كنا نفعله حينذاك ونحن نرتل القرآن أمام الشيخ وما يفعله اليهود حين يرتلون كتابهم، وهو ما نشاهده حين ينقل التلفاز وقوفهم وتلاوتهم نصوصا من ذلك الكتاب أمام حائط المبكى بالمسجد الأقصى.

وقبل مغادرة هذه النقطة أود الإشارة إلى كلمة "الأَخْوة" فى النص السابق، التى وضع المؤلف الهمزة على ألفها لا تحتها. ورغم أنى أرجح أنها سهوة قلمية أو مطبعية فسأحكى القصة التالية لأوضح بها شيئا لغويًّا صَرْفِيًّا يأخذنا فى جولة سريعة فى مبحث من مباحثه تنشيطا لأمخاخنا وتوضيحا لمدى التيسير فى لساننا. ذلك أننى كنت أسمع الرئيس حسنى مبارك دائما ما يقول: "أيها الأُخْوَة (بضم الهمزة) والأخوات"، فذكرتُ يوما للدكتور رمضان عبد التواب اللغوى المشهور، وكان مكتبانا فى نفس الغرفة بقسمنا بآداب عين شمس، ما لاحظته من ضم الرئيس لهمزة "الإخوة" مبديًا ضيقى بانحرافها عن القاعدة الصرفية فى جموع التكسير، إذ منها صيغة "فِعْلَة"، ولكن ليس من بينها صيغة

"فُعْلَة"، فرد باقتضاب أن الضم أيضا صحيح. فاستغربت ذلك منه ولكن لم أشأ المضى فى المناقشة، وظننت أنه قد قالها هكذا، والسلام دون أن يقصد تصحيح الضم فعلا، وكتمت الأمر فى نفسى مع المضى فى تخطئة هذا الضم رغم ذلك... إلى أن كنت أنقب عن شىء فى بعض المعاجم القديمة منذ شهور، فقرأت مصادفة أن "الإخوة" قد تضم همزتها أيضا. وهنا تذكرت كلمات تدل على الجمع رغم أنها لا تمثل صيغة جمعية، مثل "عُصْبَة، زُمْرَة، رُفْقَة، صُحْبَة، وُلْدَة، خُلَّة..."، وقد يمكن أن نلحق بها على سبيل التوسع كلمة "جُوقَة" رغم أعجميتها.

وهنا أود أن أقول كلمة فنية عن هذه الرواية من ناحية المعارف والحقائق المتعلقة باليهودية وغيرها، إذ ذكرتنى بما يسمى بـ"الرواية التعليمية"، وهى الرواية التى كانت تضع نصب عينيها تثقيف القارئ تاريخيا وجغرافيا ودينيا وطبيا واجتماعيا...، ومنها رواية "علم الدين" لعلى باشا مبارك، التى طافت بالقارئ مع أبطال الرواية ببعض دول العالم ومدنها وعرّفته بطبيعة تلك الدول واقتصاداتها ودرجة تقدمها الحضارى ونشاطاتها فى ميدان الصناعة وغيرها. كما قرأت عن روايات ألفت خصيصا لتثقيف القراء فى ميدان الوعى الصحى والطبى، أو ميدان الأخلاق والتقاليد الاجتماعية وهلم جرا.

ولاحظت، وأنا أعد رسالة الدكتورية فى جامعة أوكسفورد، أن النقد القصصى فى بداية نهضتنا الحديثة كان يركز على المضمون كثيرا من الزاوية التى أتحدث عنها هنا. ومن ذلك مثلا ما ورد فى مقدمة الطهطاوى لـ"مواقع الأفلاك" حيث يثنى الشيخ رفاعة على هذا العمل بأنه "مشحون بأركان الآداب، ويشتمل على ما به كَسْبُ النفوس الأخلاقَ الملَكية وتدابيرَ السياسات المِلكية".

ويرى كاتب آخر من كتّاب هذه المرحلة المبكرة، وهو حبيب نبوت، أن حوادث القصة ليست إلا وسيلة لتوجيه انتباه القارئ إلى ما يجب أن تمتلئ به الرواية من نصائح وإرشادات. وهو فضلًا عن ذلك يدعو المؤلفين إلى أن يفصحوا عن موقفهم من شخصياتهم بالإطناب فى مدح الأخيار، وتوجيه اللوم والذم إلى الأشرار الآثمين. ومثل نبوت كاتب آخر فى "المقتطف" يصنف القصص على أساس أخلاقى، فهى جيدة إذا حثت على الفضائل، ورديئة إن شجعت على الرذيلة.

ويعد سعيد البستانى هذا الفن وسيلة تربوية قائلا: "أقدمت على إنشاء روايتى لعلمى أننا مفتقرون لتهذيب أخلاقنا وتطهير عاداتنا أكثر من افتقارنا لتثقيف عقولنا، فإن الوصول إلى السعادة من طريق القلب أقرب من الوصول إليها من طريق العقل. وقد تبين بالتجربة والاختبار أن فن الروايات من أعظم وسائل التربية، وذلك بما يتضمنه من التمثيل والحِكَم المصُوغة بصيغة ترتاح إليها النفس وينشغف بها القلب".

ويختلف المضمون القصصى الذى يهتم النقاد بإبرازه من قصة لأخرى: فهذا المضمون قد يكون درسا أخلاقيا وسياسيا كما فى "مواقع الأفلاك" على حسب ما يقرر الطهطاوى كما قرأنا قبل قليل، أما على مبارك فى "عَلَم الدين"، فهو يسعى إلى شىء أكبر، ألا وهو عمل كتاب ضخم يضمنه كثيرًا من الفوائد المتفرقة فى كثير من الكتب العربية والإفرنجية فى العلوم الشرعية والفنون الصناعية وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر، وذلك فى أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها كما يقول على مبارك نفسه فى مقدمته لهذه القصة. كذلك قد يكون مضمون القصة قواعد صحية وإرشادات أخلاقية كما فى "ريحانة النفس" لأمين الخورى، التى يقول ناقدها فى مجلة "المقتطف"

إن ما فيها من دسم أكثر مما تحوى من فكاهة، مؤكدا أن من الصعب على الجمهور التقاط هذه الفوائد الصحية والطبية من الكتب المتخصصة، وأنه على العكس سيستفيد منها، كما هى معروضة فى هذه القصة، فوائد جمة. وفى قصته: "فتاة إسرائيل" يتناول عبد المسيح أنطاكى موضوعًا مختلفًا تمامًا، فهو يقول إن هذه الرواية "هى الحلقة الأولى من روايات تاريخ النصرانية الأكبر، وفيها البحث الوافى عن الوسط الذى ولد فيه السيد المسيح وعن هذا الميلاد الخلاصى بأجلى بيان، وفيها استدراك إلى تاريخ اليهود وحالة الإمبراطورية الرومانية... إلخ". وهو يؤكد أن غرضه من تأليفها هو بث روح الألفة والاتحاد بين الشعوب العربية فى سوريا ومصر ومحو آثار الشحناء والبغضاء من صدور المسيحيين العرب.

وهذا التركيز من جانب نقاد هذه المرحلة على موضوع القصة قد أدى إلى أن يَعُدّ إبراهيم اليازجى الشروحَ التاريخية التى ذَيَّل بها شكيب أرسلان ترجمته لقصة شاتوبريان "آخر بنى سراج" واستغرقت ما يزيد عن مائتى صفحة إضافةً نفيسة إلى هذه القصة. وفى مقاله الذى تناول فيه بالنقد "ليالى الروح الحائر" لمحمد لطفى جمعه نرى جرجى زيدان، على رغم مناقشته لبعض الجوانب الفنية فى هذا العمل، يركز حديثه على محتواه بل يُقِيم حكمه النهائى عليه، يقول: "وبالجملة فإن هذا الكتاب ينطوى على قواعد اجتماعية وانتقادات فلسفية إصلاحية على أسلوب الأدب العصرى يجدر بالأدباء تحديه، وليس هو مما يلهو به العامة على سبيل الفكاهة بل من أبحاث الخاصة التى تفتقر إلى روية ونظر". ويمضى زيدان مقررًا أنه يختلف مع المؤلف، الذى ينظر إلى الدنيا من وجهها الأسود فلا يرى فيها غير الشقاء والتعب وفساد الطبيعة

البشرية، ومشيرًا فى تلطف إلى رأيه المتحامل على المرأة حيث لا يرى منها إلا نقائصها.

أقول هذا خشية أن يسرع بعض المتعجلين من القراء، جراء تلك النصوص التى أوردتها آنفا كدليل على أن الكاتب قد تجهز لتأليف روايته جيدا بالقراءات الموسعة فى اليهودية وغيرها، إلى القول بأن رواية "الطوفان الكبير" هى من الروايات التى يسمونها: "الرواية التعليمية". ذلك أن كاتبنا، فى الواقع، لم يضع هذا الهدف نصب عينيه فى المقام الأول بل أورده فى موضعه ضمن كلام كل شخص من أشخاص الرواية عن نفسه وعن قومه وبطريقة تلقائية. فالقارئ يعرف من خلال الرواية أشياء كثيرة وهامة عن اليهود وتاريخهم ودينهم وتقاليدهم وطوائفهم كما هو واضح فى النص الذى اقتبسته من تلك الرواية، ولكن دون أن يصمم المؤلف عمله لهذا الغرض تصميما بل سرّب هذه المعلومات فى أحاديث المتحاورين تسريبا ماهرا بحيث لا يشعر القارئ أن المؤلف قصد هذا.

وبالمثل يحسب للمؤلف جرأته فى إدانة موقف الحكومات العربية المخزى والخيانى دون جمجمة أو لف ودروان. وبطبيعة الحال لا يمكنه التعبير المباشر عما فى ضميره تجاه هذه الحكومات العميلة، إذ لا ينبغى أن يتدخل المؤلف بشخصه فى الرواية، بل وضع هذه الإدانة على لسان بعض شخصيات الرواية بكلام لا يحتمل تأويلا أو اختلافا فى التفسير مثلما كانت خيانة تلك الحكومات واضحة لا تحتمل تأويلا ولا إنكارا.

لنقرأ، والكلام لمازن النعيمى الطالب الفلسطينى عن زميله المصرى: "لا أدرى لماذا أشفقتُ عليه. يبدو أننى ظلمته. ما ذنبه؟ لا أدرى لماذا أربط بينه

وبين السادات. ما ذنبه وهذا موقف دولته وحكومته المتخاذل شأنها مثل شأن باقى الحكومات العربية الضعيفة؟ ما الذى يستطيع المواطن أن يفعله؟

أريده أن يثور مع غيره ليصل صوتهم إلى الحكومة فتتخذ مواقف أكثر تشددا وعدائية من الاحتلال. ولكن ماذا يفعل، وقد صار المواطن العربى غير ذى قيمة لدى صانع القرار؟ لن نقاتل كفلسطينيين وحدنا دونهم. القدس قضيتنا جميعا، ويجب أن نشارك فى تحريرها لا أن نقاتل وحدنا، ويتفرجون علينا ونحن نفنى.

منذ فترة، وأنا أرى العرب أعداء لنا. مثلهم تماما مثل اليهود الصهاينة، بل أراهم صهاينة أكثر من الصهاينة أنفسهم. ألا يرون ما نحن فيه ويسكتون؟ أليس الصمت خيانة؟ يرون أطفالنا يقتلون كل يوم مع شيوخنا ونسائنا وشبابنا دون أن يتحرك منهم أحد. إنهم ضعاف عجزة فى عالم لا يحترم إلا الأقوياء. لماذا لا يتحدون ويكونون معنا. تعاطفهم وحده لا يكفى. ألا ينتفضون لما تنتهكه قوات الاحتلال الإسرائيلية من قتل شبه يومى؟ ألا يؤلمهم قصف البيوت والمدارس والمستشفيات؟

أخذتنى شفقة به وبكل العرب. أليسوا بلا حول ولا قوة ومستضعفين مثلنا؟ لا. لن نجعل الحكومات تفرق بيننا وبين شعوبنا. نظرت إليه وأخذت أبكى لبكائه. وماذا يمكن للضعفاء أن يفعلوا سوى البكاء؟ فلنبكِ ولنصبر، وإلى الله المشتكى، وإليه مصير قطرات دموعنا وأنين قلوبنا الذى يدمى فى كل دعاء له، وهو القوى القادر". نعم إنه سبحانه وتعالى هو القوى القادر، لكنه لا يستجيب لمن يستبدلون الدعاء بالعمل. وقدما سخط على بنى إسرائيل أن قالوا لموسى: "اذهب أنت وربّك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون". وهو الدرس الذى تعلمه المسلمون، إذ حين أراد رسول الله استطلاع رأى الأنصار قبيل بدر فى

الوقوف معه ضد جيش المشركين المكيين انبرى أحد رجالاتهم الكرام الشجعان قائلا: لن نقول لك ما قاله اليهود لموسى: اذهب أنت وربك، فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون. ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا معكما مقاتلون. ولهذا نصرهم الله، وفتحوا البلاد، على العكس منا الآن، وقد وصل عددنا إلى نحو مليارين، ولكنهم مليارا نذل جبان، فحقت علينا المذلة والمهانة وسامتنا كل الأمم الخسف والعار، وقبلنا الخسف والعار ورضينا بالهوان واستعذبنا الهزائم وشاهدنا إخواننا فى غزة وسائر فلسطين يقتلهم اليهود ويدمرون عليهم بيوتهم ومستشفياتهم ومدارسهم ومؤسساتهم ويحاصرونهم ويجوّعونهم ويعطّشونهم، ورغم ذلك لا تتحرك ضمائرنا ولا نشعر بأى عار من موقفنا هذا المتخاذل الخنُوع. فكيف تظنون أن الله ناصِرُنا؟

رواية "بونابرته" لنشأت المصرى

"بونابرته" رواية ليست بالطويلة، إذ تقع فى نحو مائة صفحة فقط، وضعها الصديق الأستاذ نشأت المصرى، وتدور حول بونابرت فى قيادته للحملة الفرنسية منذ هاجمت مصر أواخر القرن الثامن عشر حتى رحيله عنها بلَيْلٍ لتدارُك ما وقع فى فرنسا من أحداث خطيرة اقتضت أن يترك الحملة تحت قيادة كليبر ويعود أدراجه إلى بلده دون أن يكتب الله على مصر أن ترى وجهه الشيطانى المشؤوم كرة أخرى. وفى الرواية نتابع نزول القوات الفرنسية على شاطئ الإسكندرية والمقاومة التى تلقاها بها الوطنيون آنذاك تحت قيادة السيد محمد كريم والى المدينة وانتصار الفرنسيس عليها واجتياحهم الوطن وتنكيلهم بالمواطنين وانتهازهم كل سانحة لفرض الغرامات الظالمة الباهظة عليهم والاستيلاء على أنخم البيوت لينزلوا فيها والإثخان فى أهالينا قتلا وعسفا كلما قاموا بثورة للتخلص من ذلك البلاء المستطير... إلى أن غادر نابليون مصر عائدا إلى بلاده التى بلتنا به على غير توقع أو انتظار. وقد سماه مؤلفنا: "بونابرته" كما كان يسميه الجبرتى المعاصر لتلك الحملة والمؤرخ لها.

ونبدأ كلامنا عن هذه الرواية بالسرد، وهو يتبع خطا مستقيما مصاحبا لسير الحملة الفرنسية تحت قيادة نابليون فى "لوحات" تشتمل على كبار الحوادث والأشخاص مع قفز السرد أحيانا فوق بعض الأحداث الهامة مكتفية فى هذه الحالة بالإشارة إلى أن هذه الأحداث قد وقعت كما هو الحال فى القصص القرآنى حيث نجد مثلا فى سورة "مريم" كيف استجاب الله لدعاء زكريا عليه السلام فوهب له يحيى على الكبر لنفاجأ بقفز السرد أعواما عدة ونقرأ قوله تعالى: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة. وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنّا وزكاة،

وكان تقيا...". لقد استجاب الله لزكريا وحقق له أمله وأعطاه يحيى، لكن لم نعرف شيئا عما وقع ليحيى طوال فترة رضاعته وصباه وشبابه، بل نجد أنفسنا أمامه مباشرة وقد اختاره الله نبيا. وطبعا لا يعنى هذا أن نشأت المصرى كان يقفز بالسنوات فوق الأحداث، إذ إن بقاء الفرنسيين فى مصر أوانذاك لم يزد عن ثلاث سنوات تقريبا، بل أحببت أن أقرر المبدأ المشترك: مبدأ القفز فوق الأحداث أحيانا مع ترك خيال القارئ لكى يملأ تلك الفجوات.

والرواية مسرودة من خلال ضمير الغائب، أى على لسان الرواى المفترض أنه يعلم كل شىء لا على لسان أحد أبطال الرواية. ومع أن السارد هو ذلك الشخص المحيط علما بكل شىء فإن قلم الكاتب قد أفلت منه فى مواضعَ جِدِّ قليلةٍ وطار منه تعليق قصير يعلن عن شعور السارد مما لم نتعوده منه. وأحيانا يكون السرد فى أول كل لوحة وكل قسم من تلك اللوحة عاديا، وأحيانا ما يكون من خلال تيار الوعى، وأحيانا ما يكون على هيئة حوار يجد القارئ نفسه واقفا فجأة إزاءه دون تمهيد، وهو فى هذه الحالة يتحول إلى ما يشبه فصلا من مسرحية، وأحيانا تبدأ اللوحة أو قسم منها بوصف المكان أو الغوص فى نفسية هذه الشخصية أو تلك. وفى بعض المواضع نرى نابليون يستنطق البحر أو كتابا لمؤلف قديم، مستخرِجا منه ما يتسق مع الموقف الذى هو فيه. والرواية من هذه الزاوية تمثل مزيجا جذابا من هذا التنوع تطرد الملل عن ذهن القارئ وتشعره بالغنى الفنى فى سرد الرواية وتصوير شخصياتها ووصف أماكنها وتحركات الجموع فى الشوارع وأفراد المقاومة الوطنية وجماعاتها. وقد جرت العادة أن تقطَّع الروايات إلى أقسام، فنقول فى عنوان كل قسم: "الفصل الأول، الفصل الثانى، الفصل الثالث..."، وفى بعض الأحيان نترك رأس الفصل بدون هذه الإشارة، وأحيانا ما يكتفى المؤلف بترقيم الفصول:

"١، ٢، ٣، ٤...". وهناك من يضع لكل فصل فى روايته عنوانا يدل على مضمون هذا الفصل أو أهم وقائعه كما هو الحال فى روايات جورجى زيدان عن تاريخ الإسلام. وفى رواية "الزينى بركات" نجد جمال الغيطانى يسمى الفصول: "سرادقات". وأذكر أن صبرى حافظ قد عنون أحد كتبه المبكرة بـ"سرادقات من ورق". ولا أدرى السر فى تسمية فصول أى كتاب بـ"السرادقات"! أما فى روايتنا فتسمى كل قطعة منها: "لوحة" كما ذكرنا، وتُقَطَّع كل لوحة أجزاءً أصغر لا تجرى كلها فى السرد على وتيرة واحدة بل على وتائر متنوعة فى العادة تضفى عليها مزيدا من الثراء والحيوية.

ولسوف أضرب اللوحة الأولى مثالا على طريقة سياقة السرد والحوار والخواطر وتصوير الشخصيات، تلك الطريقة التى أرجو أن أكون وُفِّقْتُ فى توضيحها ويجد القارئ فى اللوحة المذكورة تطبيقا حيا وعمليا على ما قلته فى ذلك السبيل:

"اللوحة الأولى

المجد للرب ولنا، والوهم لهم.

لست قلقًا. لقد قرأت البحر، والبحر أستاذ الذكريات. أسمعه الآن:

ـ ذات يوم يا بونابرته (بونابرت)، كان الفراعنة هم سادتى، وبأمرهم أأتمر، لست منافقًا لكننى دائمًا أخضع للقوى، ولهذا تجدنى ألعب معك ولصالحك الآن، مادمت تملك المدفع الجبار والبندقية الحديثة. هو شاعر واهم من يتصور أننى أضحك له وأبكى، وأصارحك بأنه إذا تفوق عليك الأسطول الإنجليزى الذى يتعقبك فى البحار، سأكون عونًا له عليك أيضًا يا صاحب العينين الرماديتين. أما أقاليم الخلافة (من العرب وغيرهم) فقد نسيتهم

ونسونى، فهم دائمًا فى انتظار المدد من الغير أو من السماء، وهم غارقون فى عسل الأمنيات.

ـ صدقت يا صديقى البحر. بالرغم من أننى كنت ضابط مدفعية لكننى أعشق البحر، ولك أن تمنحنى بشارات النصر فى جولتى الجديدة بعد أن انتصرت على إيطاليا، وأخضعتها لفرنسا. والآن مطلوب منك سيدى البحر، وأنا لا أحب أن يكون لى سيد، أن تنسينى شوقى لزوجتى الخائنة جوزفين طاغية الأنوثة والجمال، القصيرة مثلى، صاحبة الفم الجميل، تلك التى أحبها وأخشاها فى آن. يقال إن نساء إقليم مصر أيضًا جميلات.

والآن يا سكرتيرى المخلص فوفليه، أسرع وسجل فى أجندة الأحوال ليقرأ أبناء أوربا، أن فارس أوربا الأول بدأ اليوم وهو فى التاسعة والعشرين من العمر رحلته لاستعمار الشرق، وذكرنى إذا نسيت.

ـ كيف أذكرك، وأنت خبير الماضى وذاكرة المستقبل؟

ـ حتى لو كنت تجاملنى أشعر أننى كذلك وأكثر ولا أحب أن يراجعنى أحد فيما أقول حتى أنت بالرغم من أنك عالم كبير. نابليون لا يرده أو يصده أو يناقشه أحد.

ـ أعرف ذلك جيدًا سيدى القائد، لكننى أتمنى أن أعرف إلى أين وجهتنا بالتحديد؟

ـ نحن ذاهبون إلى الشرق عامة، وإلى مصر خاصة. إنه الشرق الحقير سأفعل به ما أشاء، بالرغم من أننى من أوربا الأكثر حقارة. عيناك تتسعان فى فضول مرضىّ يا فوفليه. لا تخف، سيحمينا جهل المصريين وفقرهم

وتخلفهم. قد نتألم بعض الوقت، لكننا سننجح، وسيحفرون أيضًا قناة السويس لصالحنا. سنصنع تاريخًا جديدًا.

ـ ستصنعه بقدمك يا سيدى.

ـ أنت منافق بارع.

ـ لقد قدم نظام الخلافة العثمانى (التركى) أروع هدية لنا، فتحت اسم وحدة المسلمين تم تجميد إقليم مصر وإفقارها على مدى ثلاثة قرون.

ـ صدقت فوفليه. فلو كانت مصر قوية ربما كان أحد الفراعنة يحكم باريس الآن، وربما كنا خدمًا فى بلاطه.

ـ تمامًا. ولهذا بعد اليوم سيتحدث العالم عن نابليون وليس عن رمسيس الثانى.

مرة أخرى تنافق. أنت الوحيد الذى أسمح له بذلك.

ـ من يطرق الباب؟

ـ كازابيانكا، قائد سفينتنا.

ـ هل من أخبار يا كازابيانكا؟

ـ هو سؤال واحد: هل نخبر الجنود باسم البلد الذى نتجه إليه؟ الكل يسأل ويلح.

ـ نعم، نعم. قل لهم نحن باتجاه الرعاع المصريين، وبعد أن تخبرهم إرسل إشارة إلى كل القيادات المائة بأننى سأجتمع بهم بعد ساعتين، هنا على سطح السفينة أدريان.

قهقه نابليون قائلًا: نبه على طيور البحر ألا تقترب من الاجتماع السرى.

ـ بسيطة. نقضى عليها بالرصاص وهى فى الفضاء.

ـ لا، لا. هذه الطلقات نقتل بها المصريين.

***

(بعد ساعتين)

اعذرونى، فدوار البحر يزعجنى الآن. إننى أعرفكم واحدًا واحدًا. مسموح لكم هذه المرة أن تسألوا بعد أن أنتهى من كلمتى. أنتم معى تصنعون التاريخ. وبداية أقول لكم: اطمئنوا، فالعدو المصرى فريسة سهلة. لقد قرأت أنهم منذ مئات السنين يفيقون بعد فوات الأوان. سنستغل صبرهم الأحمق، ونكتم أنفاسهم، ونسوقهم أمامنا كالحمير حتى يكفوا عن أناشيد الوهم. ولأنهم ضعفاء وفقراء على رغم ثراء مواردهم الشديد سيتراجعون أمامكم، وهذه فرصتنا. لن نمنحهم فرصة التجمع، وإذا فروا لن يكروا بحق هذا الصليب المنقوش على يدى. قريبًا جدًا تصبح أراضيهم وخيراتهم ملكًا لنا، وشبابهم عبيدنا، وانقلوا عنى لجنودكم أننا بعد النصر سنوزع على كل واحد منهم ستة أفدنة بالمجان، ولكم مكافآت أخرى أكبر من المشروعات والمال والمناصب. كل ضابط منكم سيتولى مشروعًا أو قطاعًا مهمًّا يديره كيف يشاء، وينعم بخيراته دون مساءلة. أسمع صوتًا يهمهم. أفصح. ما سؤالك؟

ـ كيف ندير هذه المشروعات ونحن بلا خبرة أو تجربة؟

ـ اعتبروها ملكية خاصة. انهبوها، ولن يسألكم أحد عن الطرق العلمية. املؤوا جيوبكم. المهم أن ندخلهم الجحور أولًا ونرعبهم، أما الذين يرتشون

سنرشوهم، والقلة الحرة الواعية الوطنية سنقتلهم أو نقضى عليهم، وسنوهم الشعب بعد ذلك أننا رحماء نعمل بروح الإسلام لنستميلهم ونحولهم إلى عبيد لنا. ولا تضيقوا بقرارى بعدم اصطحاب الزوجات إلى مصر، ومن تلح عليه الرغبة أمامه المصريات. سنحولهن إلى سبايا وعشيقات بالترهيب أو بالترغيب. ومن الآن غنوا، واعزفوا الموسيقى التى تمجد فرنسا. والآن هل من سؤال؟

ـ كلا، كلا. تحيا فرنسا. لنا السماء، ولهم الجحور.

قال آخر: لقد عطشنا.

ـ اشربوا من مائهم ودمائهم.

انصرف القادة، وبعد قليل انطلقت الموسيقى والأغنيات فى فضاء البحر تنبعث من أربعمائة سفينة غايتها مصر".

وتبدأ اللوحة، حسبما شاهدنا، بعبارة قالها بونابرته لنفسه يتطلع فيها إلى المستقبل القريب وما سوف يحققه فى مصر حين يغزوها. وهى عبارة كاشفة رغم قصرها، فهو يمنى نفسه الأمانى، ويتوعد المصريين بالويل مع خداعهم والضحك عليهم وإطعامهم الأوهام. ثم نراه يتجه إلى البحر منصتا وكأن البحر يتوجه إليه بالحديث بل هو فعلا يحدثه بحكمة القرون بوصفه شاهدا على ما جرى حوله وفوق أثباجه. وخلاصة تلك الحكمة أن القوى هو من ينتصر ويفوز بالطيبات، وأما الضعيف فلِأُمِّه الهَبَلُ كما يقول الشاعر القديم فى سياق مختلف. ثم هو يجيب البحر طالبا منه أن يمنحه شارات النصر وأن ينسيه زوجته التى يعشقها عشقا رغم خيانتها له. ونعرف دون أن يخبرنا السارد (بل من خلال السياق) أن ذلك الحوار وما يليه قد جرى فوق سطح السفينة. وبعد ذلك يلتفت إلى أحد ضباطه ويدور بينهما حوار صاف، وكأننا فى

مسرحية لا فى رواية، يبدو فيه نابليون معتدا بنفسه مغرورا لدرجة الإيشاك على الانفجار غير واجد أى حرج فى الثناء على نفسه واتهام من حوله بمنافقته مع الرغبة فى نفس الوقت فى استمرار هذا النفاق الجميل. وفى هذه الأثناء يصدر أوامره العسكرية لهذا الضابط أو ذاك. ثم نرى بين قوسين عبارة "بعد ساعتين" كما لو كان الكاتب يبدع مسرحية، فهو يثبت التوجيهات التى ينبغى للمخرج المسرحى مراعاتها. ثم يوجه القائد الفرنسى كلمة إلى رجاله يشير فيها إلى ما ينتظرهم فى مصر من ثروات ومجد وما ينبغى لهم أن يفعلوه حين يصلون وينتصرون، ويعقب ذلك حوار بينه وبينهم يوصيهم فيه بألا تأخذهم بالمصريين أية شفقة ويصفنا فيها بالحمير والجهلاء وما لذ وطاب من الشتائم المنتقاة. وهو هنا صريح وعار ومباشر على عكس ما سوف نراه منه بعد قليل من كذب ونفاق ولف ودوران وتمسكن يتظاهر فيه بأنه إنما أتى إلى مصر ليأخذ بيدها إلى التحضر والتقدم، وأنه صديق للمسلمين والإسلام... إلى آخر المعزوفة المعروفة عنه التى كان يحسب المصريين جميعا من البلاهة والغباء بحيث يصدقون ما يقوله بصددها ويتجاهلون ما يرونه بأم أعينهم ويسمعونه بخالة آذانهم!

وتبدو شخصية نابليون واضحة إلى حد كبير منذ الوهلة الأولى من الرواية، فأول عبارة فيها هى قوله لنفسه: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم"، ثم يصارحه البحر بأنه يعشق القوة، وأنه يغير موقفه وينحاز للأقوياء، بل سوف ينتقل إلى جانب الإنجليز لو انتصر أسطولهم على أسطوله، والبحر هنا رمز على التاريخ ودول العالم، فالدنيا لمن غلب، والبشر يخضعون راغبين أو راهبين للقوى الذى يسيطر عليهم ويتحكم فيهم ويستطيع نفعهم وضرهم وإعطاءهم وحرمانهم وإرخاء الحبل لهم أو التشديد عليهم، والكلام فى الواقع ليس كلام البحر بل

هى خواطر نابليون وأفكاره وتأملاته فى صراع القوى الكبرى على امتلاك مفاتيح سيادة العالم، وبعد ذلك أخذ يفاخر بأنه أخضع إيطاليا من قبل ويطمع فى أن يقف معه فى هذه الحملة فينتصر على مصر. وهنا يتذكر زوجته الجميلة الخائنة التى لم ترض مصاحبته، فيطلب من البحر أن ينسيه إياها، وبخاصة أنه سمع عن جمال نساء مصر. ثم يلتفت إلى كاتم سره فوفليه آمرا إياه أن يسجل فى يومياته أنه هو فارس أوربا الأول، وأنه وهو لا يزال شابا فى التاسعة والعشرين من عمره فى سبيله إلى فتح مصر والاستيلا على الشرق كله، ولن يستطيع أحد الوقوف فى وجهه، وأن الانتصار على المصريين، الرعاع والحمير كما وصفهم، مهمة غاية فى السهولة لجهلهم وفقرهم وتخلفهم فى ظل الحكم العثمانى. وازداد غروره ظهورا كلما وافقه كاتم سره على ما يقول وبالغ فى مدحه إذ كان يرميه بالنفاق مع تذييل تلك التهمة بأن نفاقه رغم ذلك جميل، فهو يستحق هذا المديح وأكثر منه. ثم يبلغ به الغرور عند طلبه استدعاء كبار الضباط للاجتماع به على سطح السفينة أدريان، فكلفه بمنع طيور البحر ألا تقترب من الاجتماع السرى. وأشد من هذا غرابة أنه عندما اقترح كاتم سره إطلاق النار على الطيور فى الفضاء قبل أن تحط على السفينة رد عليه بأن طلقات الرصاص ليست للطيور بل للمصريين! وحين يمنى رجاله بأنه، بعد دخولهم مصر واستحواذهم على حكمها، سوف يوزع عليهم المناصب والممتلكات والمشروعات والقطاعات. وبمكنتهم أن يصنعوا بها ما يشاؤن، فلن يحاسبهم أحد، وعليهم أن يدخلوا المصريين الجحور، ولا عليهم من بأس إذا كانوا لم يصطحبوا زوجاتهم معهم، ففى المصريات الكفاية والعوض. وردا على قول أحد القادة إنهم قد عطشوا قال نابليون: اشربوا من مائهم ودمائهم. وكان قد رفع شعارا أثناء كلمته هذه هو "لنا السماء، ولهم الجحور"... وهكذا

تظهر الرواية نابليون مغرورا غرورا شديدا مع قسوة قلب وعجرفة تجاه المصريين حكاما ومحكومين.

وفى الصفحة الرابعة عشرة، وكتاب"التأملات" الذى ألفه قبل توليه الحكم الإمبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس (١٢١-١٨٠م) فى يد نابليون، نسمع القائد الفرنسى يخاطب هذا الإمبراطور فى خياله، وكأنه جالس أمامه يناقله الحديث، قائلا له فى غرور وزهو وتشامخ وتمدح وعجب بالنفس هائل: "هل كنت تتصور أيها الفيلسوف الإمبراطور أن قائدًا عظيمًا مثلى بعد رحيلك منذ١٦ قرنًا من الزمان سيقرأ تعليماتك مثل: الحياة السعيدة تحتاج إلى أقل القليل. فهى بداخلك، وتكمن فى طريقة تفكيرك؟ هكذا أنا يا أوريل لا أفعل شيئًا دون دراسة لكل خطوة كما يقول العلم، وأعرف أننا ننتصر بالعلم قبل القوة العسكرية، أيضًا ما أروع كلمتك: كم هو فارغ ذلك المدح الذى تجده من الآخرين. لقد طبقتها حرفيًا على قائد ظل ينافقنى ولقبنى بكلمة "معالى" السخيفة حتى سجنته أسبوعًا بتهمة النفاق. أما كلمتك التى تلمع فى الأوراق الآن، وتنير عقلى وقلبى فهى أن الفضيلة لا تتجزأ وأن العلم فضيلة. أعاهدك أوريل، لن يتبقى بيننا خائن أو منافق حتى لو قال: "تحيا فرنسا" ألف مرة كل يوم. ها أنذا أعمل بحرية لنهب خيرات مصر وغيرها لصالح فرنسا لتكون سيدة الأرض بلا جهل يدمرها. شكرًا أوريل على نصائحك. المهم أولًا أن أجيد اللعب بتأثير القرآن على الرعية المصريين، فهو الخطر الأول علينا إذا عملوا بما فيه. والشيخ محمد كريم أحد ثمرات هذا القرآن. ترى ماذا يفعل وفدنا الآن مع محمد كريم؟".

يقول نابليون هذا وكأن ماركيليوس جالس فعلا أمامه ونابليون يريد خداعه والظفر منه باطلا بالثناء عليه والرضا عنه. والحقيقة أنه إن كان قد

أخذ عنه الاهتمام بالعلم والتخطيط واطراح الكسل والتشاؤم مثلا فقد أنهى كلامه بأنه سوف يعمل بكل طاقته على نهب مصر وأنه سوف يدخل لعقول المصريين وقلوبهم من باب الخداع والخبث ولسوف يعلن، كذبا وتضليلا كى يستولى على عقولهم ويضمن خنوعهم واستسلامهم له دون مقاومة، أنه يؤمن بالقرآن ويعمل بما جاء فيه رغم وعيه التام، فيما بينه وبين نفسه، بأن هذا القرآن هو الخطر الأول والأكبر عليه، وأنه هو الذى أفرز السيد محمد كريم وأمثاله ممن يحبون بلدهم ويفدونه بالنفس والنفيس. وهذا إلى جانب سفالة نابليون الأخلاقية، فهو كذاب منافق وثعلب يسطو على زوجات رجاله متى حَلَتْ إحداهن فى عينه دون أن يبالى بشرف أو يحترم عرضا، ومستعد دائما لقتل المصريين بالآلاف المؤلفة بلا أدنى خالجة من إحساس أو ضمير إذا ما وقفوا فى طريقه نحو ابتلاع بلادهم واستعبادهم ونهب مواردهم بغير وجه حق. كما كان غضوبا منتقما لا يملك انفعالاته ومشاعره، ويخلو قلبه من الرحمة. ثم إنه كان مغرورا مزهوا بنفسه إلى درجة جد بعيدة. ومن ثم فهو إلى "أمير" مكيافلى (الذى أرجِّح أنه قرأه) أقرب منه إلى "تأملات" أوريليوس، التى قرأها فعلا.

وعلى أية حال هذا بعض ما كتبه أوريليوس فى "تأملاته": "من جَدِّي فيروس Verus تَعلَّمْتُ الدَّماثة وضبطَ النفس. ومما سمِعتُ عن أبى، وما أتذكَّره عنه، تعلَّمتُ التواضُع والنَّخوة. ومن والدتى تَعلَّمتُ التقوى والإحسان والتعفُّف عن فِعلِ السيئات وعن مجرَّد التفكير فيها. وتَعلَّمتُ منها أيضًا بساطةَ العيش بساطةً غير معهودةٍ فى الأثرياء على الإطلاق... من رُسْتيكوس Rusticus تَلَقَّيتُ الانطباعَ بأن شخصيتى بحاجةٍ إلى تحسينٍ وتدريب، وتعلَّمتُ ألا أنجذب إلى الخطابة فأكتب خواطرى أو ألقى خطبى

الوعظية الصغيرة، أو آرائى بمظهر المُتنسّك أو المُحسِن، وأن أبتعد عن البلاغة وقرض الشعر وكتابة الإنشاء، وألا أتجول فى البيت بالملابس الرسمية، أو أفعل فعلًا من هذا القبيل، وإذا كَتبتُ رسائل أن أكتبها بأسلوبٍ بسيطٍ مثل رسالته التى كتبها إلى والدتى من سينوئيسًّا، وأن أكون مُرحّبًا بالصلح مع من أساءوا إلىَّ بمجرد أن يجنحوا للسَّلْم، وأن أقرأ بتمُّعنٍ ولا أكتفى بأفكارى السطحية أو أسارع بقبول آراء المُتفيهقِين... من سكستوس Sextus تعلمت الأَرْيَحية، ونمطًا من العائلة التى تُحكَم بطريقةٍ أبوية، ومفهومَ الحياة التى تُعاش وَفقًا للطبيعة، ووقارًا فى غير تكلُّف، ورعايةً مصالِح الأصدقاء، والتسامُح تجاه الجُهَّال من الناس وتجاه راكبِى رءوسهم، والتلطُّف مع الجميع بحيث كانت متعةُ الحوار معه أعظم من أى تملُّق، وكان مجرد حضوره يجلب إليه الإجلال من جميع جُلسائه" (ترجمة عادل مصطفى ومراجعة أحمد عتمان/ طبعة هنداوى / ٢٠١٩).

ونابليون فى الرواية، كما قلنا، ثعلب خبيث يكذب ويتآمر ويخون عهده كما يتنفس وأشد. لقد أصدر عند نزوله أرض مصر منشورا يتقرب فيه بشيطانية لا تبارَى إلى المصريين يزعم فيه أنه إنما أتى ليخلّصهم من ظلم المماليك، ولم يأت لاقتلاع الإسلام كما ادعى عليه أعداؤه: فهو فى طريقه إلى مصر قد خرب روما عاصمة البابوية، وطردوا من مالطة فرسان القديس يوحنا أولئك الذين يحاربون الإسلام دائما، وهو يحب النبى والقرآن ويعبد الله سبحانه ويقف مع السلطان العثمانى، وسوف يعمل بكل جهده على تقدم البلاد ومساعدتها على حكم نفسها بنفسها بالعدل والشورى بحيث يستطيع أى مصرى شغل أى منصب يصلح له ويرتفع مستوى معيشة البلاد... وحين انتهى من مقابلة محمد كريم والى الإسكندرية، الذى ظل يدافع عنها ضد الأسطول

الفرنسى حتى نفدت ذخيرته ومات الكثير من رجاله، وأعاد إليه سيفه الذى كان الفرنسيون قد أخذوه منه بعد الاستسلام وأبقاه فى منصبه فى إدارة المدينة، ما إن انتهى من مقابته وخرج من لدنه حتى أمسك بالمنشور المذكور ومزقه ورماه. وكان، وهو جالس معه، يبتسم له لكنه كان فى أعماقه يبغضه وينظر إليه على أنه شيخ لئيم لا يوثق به. وانتهى الأمر بأن شنقه لمساعدته المصريين على مكافحة الاحتلال الفرنسى البغيض، ولم يقبل فيه شفاعة إلا أن يدفع مبلغا من المال هائلا، وهو ما رفض كريم دفع مليم منه إيمانا بأن أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم. وأرى أن كريم لو كان دفع المبلغ المذكور ما أغناه ذلك عند بونابرت شيئا بل كان هذا الوغد سيختلق ذريعة أخرى لقتله.

اللوحة الثامنة

فى القاهرة، وقد أحكم نابليون قبضته، وانسحبت قوات إنجلترا، وأيضًا هرب حاكما مصر: مراد بك باتجاه الصعيد، وابراهيم بك شيخ البلاد إلى بلبيس شرقى الدلتا، ومعهما كثير من السلاح والزاد المغتصب. اتخذ الجيش الفرنسى من منطقة الخانكة موطن ارتكاز، وهدأت نيران المقاومة عدا موجات عنيفة من تجمعات المواطنين فى القرى المجاورة تفرقها المدافع الفرنسية المتوحشة، فكتب نابليون تقريرًا أرسله للإدارة فى باريس عبر فيه عن تفاؤله، وختمه بهذه العبارة التى كتبها بخط كبير مزدوج: "من الصعب أن يجد الإنسان بلدًا أكثر غنًى، وشعبًا أشد بؤسًا وجهلًا وضراوة من مصر".

واصل نابليون استخدام سلاح الخداع بادعاء الطيبة والسماحة واستمالة رجال الدين بمشاركتهم فى احتفالاتهم الدينية، وحذره فوفليه بابتسامة غبراء من حضور التجمعات العشوائية، مثل الاحتفال بالمولد النبوى الذى انتوى

الظهور فيه، وموعده الغد ٢٤ أغسطس١٧٩٨. وقد أبدى يعقوب "الحقير المرحَّب به دائمًا" القلق من هذا القرار. قال نابليون لفوفليه:

ـ كيف تكون بطلًا دون مغامرة؟ ألم تسمع عن بطلهم خالد بن الوليد، الذى ظل فى مقدمة المحاربين، ومات على فراشه وهو فى الثمانين من العمر؟ إننى أتوقع مكسبًا كبيرًا من هذه المشاركة. جهز لى جلبابًا أبيض على النمط المألوف هنا، وسوف أكون بينهم غدًا فى بيت خليل البكرى نقيب الأشراف، واعتبر الموضوع سريًّا، ولا يجب أن يعرف البكرى أو غيره بهذه الخطة قبل وصولنا إلى باب بيته. ستكون مفاجأة كاملة لهم، وسيكون معى عدد من جنودنا يتخفَّوْن فى الجلاليب البيضاء أيضًا، وخارج البيت يحرسنا عدد كاف من رجالنا من أى اشتباك محتمل. وليكن دينون إلى جوارى، فهو حكيم لبق. والآن دعنى. سوف أدرب نفسى على التمثيلية. هذه هى سورة الفاتحة. سأعيد قراءتها وحفظها: بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين. يكفى هذا الجزء (سيكون الإسلام مطيتى إليكم. ستسعدون بنابليون فرعونكم القادم).

لأول مرة يرتجف نابليون دون أن يحكى لأحد عن حالته. سأل دينون وهم فى الطريق إلى بيت البكرى:

ـ هل تشعر بالاطمئنان؟

دهش دينون للسؤال، ورجح أنه يحدث نفسه. قال هامسًا:

ـ لا أعرف.

ـ هل نفسية هؤلاء تفرز أبطالًا كثيرين وطنيين يصيرون خطرًا علينا؟

ـ معظم المحتفلين يجيدون التمايل فى حلقات الذكر. هذا ما لاحظته من قبل ودونته فى تقاريرى.

ـ عمومًا علينا ألا نخاف، فالمكان تحول إلى ثكنة عسكرية بأزياء مدنية، ومعى ما أدافع به عنى وعنك عند الضرورة.

وسط استغراب المحتفلين الذين يرتدون الجلابيب، وبعضهم يلبسون عمائم على رؤوسهم، ومعظمهم يلفون رقابهم بشريط لامع خفيف يسمونه: "تلفيعة"، والوجوه بين باسمة وساهمة، جلس نابليون إلى جوار الشيخ البكرى، عيناه فى دوار متوتر متلاحق بين عيون الحاضرين، فكل منهم عدو لا يبين. حدث نابليون نفسه: أنا المبادر دائمًا. لابد أن أقول كلمة لأحرك الرياح كما أهوى فى مسارات أقصدها. فور انتهاء قارئ القرآن من ترتيله، رفع نابليون يديه مشيرًا إلى أعلى، وإن ظل قاعدًا حمايةً لنفسه. ضبط عمامته على رأسه وحاول أن يرفع صوته ليبدو واثقًا بنفسه، ودينون يترجم كلمة بكلمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. نعم أيها الأحباب، فمن لا يعادينا هو حبيبنا. جئنا إليكم بالمحبة لنخلصكم من جرائم المماليك، وننشر العلوم، ونعمل بروح الإسلام الذى هو قريب جدًّا إلى قلوبنا. وأعدكم لن أضيع قطرة واحدة من النيل فى البحر، وسأقيم لكم أكبر المصانع والمزارع. اعتبرونى مبعوث الثورة الفرنسية التى قامت منذ تسع سنوات إليكم. فمن يحكم مصربإمكانه أن يغير التاريخ. ويمكنكم أن تنادونى من الآن بـ"الشيخ نابليون"، ولى الشرف أن أحظى بهذا اللقب.

ثم حياهم بيده من بعيد، ومد يده مصافحًا الشيخ البكرى، ثم أشار إليهم جميعا ليتحركوا نحوه ويصافحونه، ففعلوا. لكن نابليون لم يفصح عن سبب آخر

لوجوده بينهم، وهو إعجابه الشديد بزينب ابنة البكرى، التى أصبحت من خليلاته لجسدها الرشيق وعينيها الناطقتين. أما الشيخ البكرى فتجمعت فى وجهه غيوم الخوف والقلق معًا. وبالعربية رفع نابليون صوته فى النهاية قائلًا: الله أكبر. أكملوا طقوسكم، وأنا معكم، فقد أحببتكم.

وقف رجل فى نحو الخمسين من العمر، وقال متحاشيًا النظر إلى نابليون: هيا يا أحباب إلى الذكر رحمكم الله. وبدأ يميل برأسه يمينًا وشمالًا متناغمًا مع اهتزاز جسده واقفًا، وقد اصطف إلى جواره كل الحاضرين المتبتلين عدا نابليون، وراحوا يتطوحون، وحروف خشنة تخرج من شفاههم وحناجرهم مبحوحة، ومتماوجة: الله، الله، الله. وشيئًا فشيئًا ازدادت وتيرة التوتر والتطوح. علا صوت النداء كأنهم كورسٌ مدرَّب: الله، الله، الله...

بدأ نابليون ينطق كلمات "الله، الله" تجاوبًا مع الإيقاع، ثم أمسك بلسانه، وشاهد ما انخرط فيه بعض الذاكرين من غياب عن الوعى. ومع تجليات حلقة الذكر الأخيرة سقط أحد الذاكرين مغشيًّا عليه. وكأنْ قد أصاب الجميع مس من الجن تجمعوا حوله يدلكون أطرافه، وآخرون اندفعوا لاستدعاء عم سالم المداوى، وآخرون رشوا الماء على وجهه الساكن. أثناء ذلك ارتجف نابليون، ففى مثل هذا الزحام ما أيسر أن يبرز خنجر أو تدوى طلقة رصاص على رأسه، وهى أمنية قرأها على وجوه عدد كبيرمن الذاكرين، ومن بينهم أصحاب البسمات الباردة، وما أكثرهم فى هذا الحشد الغريب عليه. وضع نابليون يده على موقع مسدسه فى جلبابه لا تقر عيناه فى مكانهما، وقد تبدل لون وجه دينون إلى الأصفر، وترقب فرصة الرحيل، وهو ما بادر إليه فور إفاقة المغمى عليه. ودع نابليون البكرى بحرارة، وحيا الجميع وكأنه صديقهم من

القدم، وقال بصوت قوى: السلام عليكم، بارك الله فيكم. ومضى محاطًا بجدران بشرية متحركة فاقمت من هلعه إلى أن اعتصم بقصره".

وفى اللوحة الرابعة عشرة (وتحديدا ص١٠٢) نقرأ: "فى الليلة التالية ازدحم قصرالبكرى نقيب الأشراف بالناس والحراس، واستقر نابليون فى الصدارة إلى جوار الشيخ البكرى، وتجمع حول نابليون، وقد ارتدى جلباباً وعمامة، عدد من رفاقه فى ساحة واسعة أمام القصر. تابع نابليون طقوس الاحتفال الذى يتذكر تفاصيله منذ عام فى المكان ذاته، وأعلن المؤذن صلاة العشاء، اصطف الحاضرون فى عدة صفوف تقدمهم الشيخ البكرى، ووقف خلفه فى الصف الأول الشيخ نابليون وسط تعجب الجميع. أكمل نابليون الصلاة، ثم صافح البكرى وقال له بود شديد: إن شاء الله نكون هنا معًا العام القادم.

فى أثناء العودة قال الداهية مونج:

ـ هل توضأت قبل الصلاة يا قائدنا؟

ـ وهل صليت لكى أتوضأ؟

وفى منتصف الليل كانت زينب".

وقرب نهاية الرواية،وكان نابليون على ظهر السفينة التى ستحمله إلى فرنسا سرا بعد أن اتسعت الخروق عليه فى مصر وبلغته أنباء اضطرابات شديدة الإقلاق فى فرنسا يقول السارد: "مد نابليون يده فى جيبه، فاصطدمت أصابعه بالسبحة التى استخدمها فى احتفالات المولد. التصق بالنافذة وطوحها إلى بعيد باتجاه الشاطئ الحزين منذ لوثه حذاء نابليون". وإذا كان الشىء فى الحديث

يجر الشيء فإنى لأذكر الآن ما قرأته منذ وقت طويل من أن طه حسين، حين صعد إلى السفينة التى سوف تقله إلى فرنسا أيضا، قد طوح بعمامته الأزهرية من فوق حاجز سطح السفينة إلى موج البحر وسط ضحكات زملائه تعبيرا رمزيا لا تخطئه العين عن انتقاله من طور إلى طور مخالف.

كل ذلك ونابليون يكره الإسلام ويتمسك بالنصرانية فى الرواية (رغم أن الثورة الفرنسية كانت معادية معاداة شديدة لله وللدين)، إذ يقول فى مفتتح الرواية حسبما رأينا: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم"، وحين كان يحدث رجاله على سطح الباخرة قبل وصوله للشاطئ عن المصريين وما يتوقعه منهم عند بدء المعارك بينهم وبين الفرنسيين بعد دخولهم بلادهم: "سيتراجعون أمامكم، وهذه فرصتنا. لن نمنحهم فرصة التجمع، وإذا فروا لن يكروا بحق هذا الصليب المنقوش على يدى". وعندما كان فى بيت البكرى يحتفل زورا ومَيْنا بالمولد النبوى مع المسلمين بوصفه واحدا منهم وسمع دوى انفجار بالخارج لم يملك نفسه من التمتمة وقلبه منخلع: "يا يسوع، كن معى". ولا أظن أيا من هذه النصوص محتاجا إلى التعليق عليه!

ومما تركز الرواية عليه فى شخصية بونابرت كراهيته للمصريين واستهانته بهم واحتقاره لهم واستغرابه الشديد من رد فعلهم السلبى تجاه ما يهدد وجودهم من أحداث: فقد قال لضباطه وجنده وهم لا يزالون فى عُرْض البحر لم ينزلوا إلى الشاطئ بعد: "اطمئنوا، فالعدو المصرى فريسة سهلة. لقد قرأت أنهم منذ مئات السنين يفيقون بعد فوات الأوان. سنستغل صبرهم الأحمق، ونكتم أنفاسهم، ونسوقهم أمامنا كالحمير حتى يكفوا عن أناشيد الوهم. ولأنهم ضعفاء وفقراء على رغم ثراء مواردهم الشديد سيتراجعون أمامكم، وهذه فرصتنا. لن نمنحهم فرصة التجمع، وإذا فروا لن يكروا بحق هذا الصليب المنقوش على

يدى. قريبًا جدًا تصبح أراضيهم وخيراتهم ملكًا لنا، وشبابهم عبيدنا. وانقلوا عنى لجنودكم أننا بعد النصر سنوزع على كل واحد منهم ستة أفدنة بالمجان، ولكم مكافآت أخرى أكبر من المشروعات والمال والمناصب: كل ضابط منكم سيتولى مشروعًا أو قطاعًا مهمًّا يديره كيف يشاء، وينعم بخيراته دون مساءلة. أسمع صوتًا يهمهم. أفصح. ما سؤالك؟

ـ كيف ندير هذه المشروعات ونحن بلا خبرة أو تجربة؟

ـ اعتبروها ملكية خاصة، انهبوها، ولن يسألكم أحد عن الطرق العلمية، املؤوا جيوبكم. المهم أن ندخلهم الجحور أولًا ونرعبهم، أما الذين يرتشون سنرشوهم، والقلة الحرة الواعية الوطنية سنقتلهم أو نقضى عليهم، وسنوهم الشعب بعد ذلك أننا رحماء نعمل بروح الإسلام، لنستميلهم ونحولهم إلى عبيد لنا. ولا تضيقوا بقرارى بعدم اصطحاب الزوجات إلى مصر، ومن تلح عليه الرغبة أمامه المصريات. سنحولهن إلى سبايا وعشيقات بالترهيب أو بالترغيب. ومن الآن غنوا، واعزفوا الموسيقى التى تمجد فرنسا" (ص٨- ٩).

"همس لنفسه: هؤلاء المصريون الرَّعاع لا يتعلمون، فلو أن أهل هذا الشارع والشارع المجاور احتشدوا فى وقت واحد أمامنا لقتلَنا الفزع قبل أن نضغط على الزناد. لكنهم يدمنون التفرق. هنيئا لنا بكم أيها الجهلة. صاح فى أحد العساكر الذى يحمل نسخًا من المنشور الداعى للسلام والاستسلام: فى طريق عودتنا واصلوا توزيع المنشورات. ثم همس لجاره العالم الرسام دينون: ما رأيك دينون؟ ظهرت أسنانه العلوية المضطربة وهو ينظر إلى أعلى. قال دينون الذى يصفه أصدقاؤه بالأناقة:

ـ لقد تحدثنا طويلًا عن طبائع المصريين يا قائدنا الأعلى. المصريون قابلون للترويض كالحمير تمامًا، ونستثنى العلماء والمتعلمين إلا إذا تمت رشوتهم" (ص٢٣- ٢٤).

وفى النص التالى يخاطب نابليون شيطانه كما تقول الرواية مفصحا عن نظرته للمصريين أيضا: "والآن يا شيطانى الكريم، لماذا توسوس لى بأن مصر انتصرت أيام رمسيس الثانى وتحتمس الثالث وصلاح الدين الأيوبى؟ لا تحبطنى، أرجوك. كان الناس آنذاك على علم ودين، أما المصريون اليوم فيولون أمورهم لصاحب السيف الجاهل لا للعالم العاقل. أتحداك، لن أكون أقل من الإسكندر الأكبر حتى لو تطلب الأمر إبادة الشعب بأكمله. ومن الآن سأمد يدى لليهود، وأمنحهم وطنًا، وسأنفذ خطة حفر قناة السويس بأيدى عبيد مصر، ومعى أنصارك مثل الجاسوس المحتسب يعقوب بن حنا هذا الحقير الذى نحبه، والذى أرسلت فى طلبه منذ قليل" (ص٣٠).

ولدى استقراره بقصر مراد بك بعد انتصار الفرنسيين فى معركة إمبابه نسمعه يقول لدينون القائد المقرب منه: "اقترب نابليون من مقره المؤقت فى قصر مراد بك فى الجيزة عبر دماء وأشلاء متراكمة معظمها لأحفاد خوفو، وشعت إضاءات الفرح فى صدر نابليون، وابتسمت شفتاه الحمراوان للدم الأحمر، والشوارع تعسة خرساء، تتعذب تحت حذاء نابليون وعساكره.

وصل إلى القصر... ومضى يجول فى مساحته الواسعة. قال لدينون الأنيق الذى اصطفاه نابليون رفيقًا له، وقد برز شعر صدره الأحمر وطاف بعينيه فى النقوش البارعة فى سقف القاعة، والرخام الملون يغطى الأرض، وقد نقش بأشكال ورسوم بديعة، ومُوِّه بالذهب، والأعمدة من المرمر، وفى كل زاوية

تحفة ثمينة سال لها لعاب بونابرته، وقرر أن يجمعها لتكون ملكًا له، فهو مغرم باقتناء التحف. قال:

ـ كيف ترك الشعب الفقير رجلًا كهذا يعيش فى ذلك البذخ، ويبنى هذا القصر؟

رد دينون الأنيق، وقد برزت أسنانه المضطربة:

ـ شعب لا يحاسب حاكمه على البذخ يستحق الفقر والمذلة.

... واتخذ من قصر محمد بك الألفى مقرًا للقيادة والإقامة بعد ذلك حيث الفسحات مفروشات بالرخام المرمر، وتتوسط القصر نوافير بديعة، ونقل إليه أهم التحف من قصر مراد بيك لتكون تحت بصره.

اختلى بنفسه فى قاعة شاسعة مزدحمة بالنقوش والتحف، شبابيكها الكبيرة من النحاس الأصفر، وبالحوائط زخارف مرصعة بالأحجار الكريمة. قال: ما أكرم وأعبط هذا الشعب! لو أن هجومًا كاسحًا حاصر القصر الآن لعدنا إلى باريس على أجنحة الرعب العظيم. شكرًا أيها الشعب المضياف" (٤٤-٤٥).

وفى تعليق له على احتراب الفرنسيين والإنجليز فى أبى قير بالإسكندرية حول السيطرة على مصر، وفرح المصريين شماتةً فى هزيمة الفرنسيس على يد أبناء جونبول يقول نابليون مستعجبا فى النص التالى: "فَرِحَ الناس على أرض مصر شماتة فى نابليون، الذى بمكره ودهائه سرب أخبارًا كاذبة عن أعداد هائلة من الجنود بدأت تتوالى من فرنسا. قال لبرتييه: لم كل هذا الفرح؟ إن المصريين فى قبضتنا اليوم وغدًا وإلى ألف عام. دعِّمْ قدرات ديزيه فى

الصعيد، لا نريد انتكاسة هناك. ثم صافحت عيناه مياه النيل الداهشة، وقال بصوت ربما سمعه برتييه: ما أعجب المصريين! يتحارب الأغراب فى مياههم، وهم يتفرجون رغم أن النهاية كارثية عليهم، وهى استمرار أحد المتقاتلين على أرضهم المستباحة. لك العجب يا مصر!" (ص٥١).

وفى أحضان عشيقته وقد شعشعت الخمر فى رأسه يقول: "ـ تخيلى يا بولين. نحن نمارس الجنس الآن على سرير مصر الكبير، ومصر كلها تحتنا. كُنَّ هنا: حتشبسوت وكليوبترا ونفرتيتى وتاوسرت، كلهن الآن تحتى بعد أن توحد اسمهن فصار بولين.

ـ انا بولين عشيقتك، وهن حولى سبايا وخادمات.

ـ أنت على حق يا بولين. والجميل أننا تخلصنا من العظيم كُرَيِّم. كنت أهتز من داخلى أمامه.

ـ حبيبى لا يهتز.

ـ لو أن من أبناء مصر مائة شخص مثل كريم لرحلنا عن مصر خلال يوم واحد. لا يكفى أن يكون الحاكم بطلا، المهم أن يكون الشعب هو البطل. هيا اقتربى منى أكثر، نحن الآن فى فراش جوزفين الخائنة، هاتى لسانك فى لسانى حتى أسكت.

قهقها بما تبقى من الشفاه التى تلوذ ببعضها. كأنما أفاقت قالت:

ـ أنا أغار عليك يافرعون مصر، خصوصًا من الجميلة زينب.

ـ لا لا. اعتبريها جاريتك، فأنت خليلتى أمام الجميع، وفى كل الاحتفالات. سأكون سعيدًا إذا طلقك فوريه".

ولنقرأ هذا أيضا: "وفى صباح يوم ٢١ أكتوبر (١٧٩٨م) علت الهتافات فى المساجد، وعلى أسطح البيوت تنادى بالثورة. قال نابليون لبرتييه:

ـ أى ثورة وهُمْ بهذا الجهل؟ إنهم أحبوا العبودية منذ قرون طويلة. إنها مجرد شعارات ستذوب مع قدوم الليل.

وفى الليل تنامت وتمددت النداءات بين الناس تقول: لقد أفقنا. سنريكم الوجه الآخر، فقد فاض الكيل واتسخ، بينما أمر برتييه بالرد بالقوة الغاشمة بالمدافع والقنابل على أى تحرك ثورى، والقبض على من يدعون إلى القتال والتحرر، وحبسهم فى القلعة.

فى الوقت ذاته تمردت شعلة الثورة فى كل مكان، وألهبت المشاعر، فأحرق الثوار بعض مراكز الفرنسيين، وهاجموهم أينما ساروا، وكان أول قتلاهم قومندان (حاكم) القاهرة الجنرال ديبوى حيث قتله أحد الثوار بضربة رمح. اهتز لسان ديبوى بكلمات وهو فى ثوانيه الأخيرة: أهى لعنة حكمى على كريم؟ وكيف أدرك أننا سنلتقى قريبًا جدًّا؟

وفى القلعة انتقى نابليون مكانًا كاشفًا ليرى بنفسه كل شىء ولأمر آخر لم يبح به لأحد، وهو أن تكون حصنًا له إذا تغلبت الثورة. انزعج لهذا الخاطر الذى هز قلبه ودوى فى دمه، فاتسعت عيناه خوفًا وهلعًا، وشابها بريق كالجنون! كلا يا نابليون، لا أحب أن أموت هنا، لقد تغلبت على أوربا فكيف يغلبنى شباب مصر الجهلة؟ كلا كلا، جهلهم يحمينىء. معنا النار التى لا ترحم، آاأه، وهم معهم الإنسان إذا تحرك وتجمع وأراد أن يثأر لنفسه وأهله ووطنه يصير إعصارًا يدمر كل الحسابات. الأرض أرضهم، والنيل نيلهم، وهم من علموا العالم. ماهذه التخاريف؟ لقد كانوا كانوا كانوا. هم

الآن أشباه بشر، والمماليك جبناء... طلب من برتييه أن يظل إلى جواره وأن يفكرا معًا فى كل شىء. قال له مخفيًا قلقه وارتعابه: استخدم ذخيرتك كلها مع هؤلاء الرَّعاع حتى يستبد بهم الخوف فيتم إخضاعهم، ولا تقلق".

وفى اللوحة العاشرة: "قال نابليون للجنرال ديزيه قائد الحملة على الصعيد:

ـ واصل هجومك على أبناء الوجه القبلى. لا يهم ماذا نخسر من الجنود كل يوم! الأهم ما نكسبه من الأرض ومن ولاء الناس لنا. سعادتنا بحكم مصر الفرعونية لا تدانيها سعادة. لا تقلق ديزيه. المصريون بعد حين سيصدقوننا، ويتركون رقابهم عارية لنا.

قال مونج، الذى شارك فى اللقاء من أوله، بعدانصراف ديزيه:

ـ يؤرقنى خاطر يا قائدنا، سنقدم للمصريين العلم والمعرفة والآلات الحديثة فى الطباعة وغيرها كما وعدتم. ألا تخشى أن يكون العلم سلاحهم القوى ضدنا فيما بعد؟

ـ سؤال خبيث يا مونج، والإجابة أخبث. إننا لن ننقل لهم إلا بقايا علومنا، وسيكون على نطاق ضيق، للدعاية فقط، وأنا أثق بأنهم سيذكرون فى كتب التاريخ أن بونابرته الحانى على الشعب قدم لهم التعليم والبعثات وآلات الطباعة على طبق من ذهب، وهم أغبياء، فالطبق من دمائهم المقززة، وللأسف مع بعض دمائنا الذكية. سيظل جهلهم جوادنا الرابح يا مونج.

ـ فهمت. أما النخبة منهم فعلينا أن نعلمهم الولاء لنا، ولن ننسى أن الدين هو اللعبة الناجحة مع المتواكلين...

***

قال نابليون وهو يتمشى فى أروقة قصره الذى كان يسكنه محمد بك الألفى، وكأنه يحلم: أعرف كيف أخلد نفسى هنا: أشيد قصرا ومسجدًا عملاقًا، ثم أبنى مدينة من جيوب المصريين وأسميها مدينة بونابرته. حقا لن يستفيد الناس شيئًا، لكن المهم أن أخلد اسمى كما فعل الإسكندر الأكبر.

ـ أعرف أنك لا تهتم بالقصور، فماذا جرى؟

ـ إننى فقط أقلدهم وأريد أن أبدد ثرواتهم وأضعفهم، لا يهتم بالقصور إلا التافهون، ما علينا، تستطيع أن تلحق بالديوان".

وعند تتالى انتصار الفرنسيس فى معاركهم على أرض مصر نقرأ: "تتشعب خريطة الانتصارات كل يوم، وتمتد رقعة البلاد المستسلمة، والدماء لا تتمهل فى النهر والبر، ويتسع ذهول نابليون لهذا الفوز المتدفق فى بلاد الحضارة. يهمس: آه يا مصريين! لابد للحضارة من علم وسلاح يحميها، ها ها ها، تظنون أن مراوغة الغازى انتصارًا؟ كلا. إن فرنسا تعاقب الغازى لفرنسا بقطع قدمه ورقبته وتفجير رأسه. ماذا دهانى؟ لو فعل المصريون ذلك لكنا الآن طعامًا للأسماك فى البحر.

فى قصرالألفى التقى نابليون وبرتييه قائد الأركان والمعلم حسن الجوهرى ناظر الموارد ويعقوب الذى رقى أخيرًا إلى رتبة كولونيل. أشار ليعقوب بالبدء. قال:

ـ اتفقت وعدد من فرسان المماليك أن يعملوا مع جيشكم مقابل راتب كبير، وقطعة من الأرض تضاف إلى أملاكهم.

عندئذٍ، ترك الكلام للجوهرى الذى قال:

ـ ينفذ من الآن مع زيادة الضرائب فى الأيام القادمة.

رد برتييه دون إذن:

ـ فكرة عبقرية، فنحن نعرف أن ولاء المماليك للمال فقط. ولهذا حققنا انتصارات سهلة.

قال الجوهرى:

ـ قلنا للناس أن أحبابنا الفرنسيس جاءوا لتخليصهم من ظلم المماليك، فكيف نستعين بهم؟

قال نابليون وهو يغلق عينا ويفتح الأخرى:

ـ سنقول أننا نستعين بالطيبين منهم، والناس فى مصر نوعان، نوع جاهل، ونوع له ذاكرة السمك،. سننتصر هذه المرة لأن المصريين لم يعرفوا الحياة النيابية، سأحكى لكم بعض ما حيرنى: حين أنشأنا لمصر الديوان والديوان العام والتحق بهما كبار رجال الدولة والشيوخ بدءًا بشيخ الأزهر (على شاكلة مجلس النواب)، وهى أول تجربة فى المنطقة كلها. غامرت بحضور الجلسة الأولى، وتوقعت كلمات تعترض على إرهاب جيشنا للرعايا المصريين وتطالب بالثأر لدمائهم، وتأهبت للدفاع عن عساكرى، وإذا بالجلسة ترفع دون كلمة واحدة، كأنهم موتى منذ زمان بعيد" (ص٨٦- ٨٧).

وبعد فشل الفرنسيين فى عكا وعودة بونابرت إلى مصر تقول الرواية عنه: "إلى النيل هفا، وقلبه صفا، النيل ينصت له، وفى داخله هواجس نيلية طافية، نعم (النيل يتآمر معى ولصالحى، النيل حمل أسطولى، وسمح له بأن ينتصر، النيل حبيبى، يجرى بصرى مع مائه كأننى ملكت أفريقيا بأسرها، مصر فى

قبضة النيل، لو أننى كنت شريرًا كما يدعون لخططت لمنع مياه النيل عن مصر، لكننى لست شيطانًا قذرًا إلى هذا الحد، لأن السماح بمنع مياه النيل ضربة قاضية لمصر، ووقتها لن تستفيد فرنسا من خيرات مصر، ونحن نريد مصر كالبقرة الحلوب. مصر أغنى دولة فى العالم، وكل هذا الغنى سنحوله إلى حبيبتى فرنسا، كم أشتاق إلى نزهة على شاطئ النيل مع حبيبتى الأنثى بولين صاحبة الأنف الرومانى المتعالى والرقبة الطويلة التى إذا مالت أسكرت، ومالت معها القلوب)

ـ مرحبًا بولين. لا أشتاق إلا إليك.

ـ أعرف أنكم خسرتم الكثير فى سوريا وعكا.

ـ وكسبنا الكثير أيضًا، وغدًا نعوض الخسائر. لنبدأ نزهتنا.

ـ ألا تخاف؟ إن الناس فى غضب.

ـ خوف الناس يغلب غضبهم. أتحدث عن الأغلبية، ولهذا قلقى قليل يا جميلة".

هذا رأى نابليون فينا نحن المصريين طبقا لما ألفيتُه فى الرواية. وأترك القراء يفكرون فى هذه المسألة على أقل من مهلهم وراحتهم. لكنى أتساءل: هل فكر حقا نابليون فى حرمان مصر من ماء النيل؟ فكيف؟ وهل يقصد المؤلف إسقاط واقعنا الحالى سياسيا ونفسيا على ذلك الوقت؟ إن كل ما قيل عنا على لسان نابليون الذى فى فمه أو لسان حاله ليذكرنى بأحوالنا اليوم.

ومن سمات شخصية نابليون فى الرواية كذلك فجوره وعهره لا يتحرج من شىء ولا يحجزه عن هذا الفجور أى اعتبار مهما كان. يقول مخاطبا رجاله

على سطح السفينة قبل نزولهم إلى البر: "لا تضيقوا بقرارى بعدم اصطحاب الزوجات إلى مصر. ومن تلح عليه الرغبة أمامه المصريات سنحولهن إلى سبايا وعشيقات بالترهيب أو بالترغيب. ومن الآن غنوا واعزفوا الموسيقى التى تمجد فرنسا" (ص٨- ٩).

وبعد النزول إلى الإسكندرية: "رائع هواك يا إسكندرية. حتى النساء هنا جميلات. يبدو أننى أصبت حين طلبت من الجنود ألا يحضروا معهم زوجاتهم ليتفرغوا للقتال.

ـ فوفليه، فوفليه، ادخل. ما أخبار النساء هنا؟

ـ هن جميلات سيدى القائد.

ـ هل ليعقوب أو لحافظ خبرة بهن؟

ـ أتصور ذلك، سأخبر يعقوب. لكنْ ثمة حل آخر، فمعنا على هذه السفينة امرأة جميلة هى زوجة ملازم يدعى: فوريه، سَرَّبَها معه فى ثياب ذكورية.

ـ أحضرْهما معًا.

فى الليلة ذاتها أرسل يعقوب امرأة فرنسية مقيمة، لتكون أولى محظيات القائد حيث راقته.

وفى الصباح مثل بين يديه الملازم فوريه وزوجته، فأسره جمالها، وحكت له عيناها عن هيامها به. وبينما كان فوريه مشغولًا بالدفاع عن نفسه وتبرير إحضاره لزوجته فاجأه نابليون بالصفح السريع عنه، وعقدت عيناه مع عينى

بولين زوجة فوريه رباطًا من الإعجاب. وعند انصرافها ضغط على يدها، وضغطت على يده فى صمت صارخ.

همس لنفسه: يبدو أن مصر هى أرض المجد والحب أيضًا.

دخل نابليون وهو يمتصّ نفسًا طويلًا بعد يوم مشحون بالحركة إلى مخدع الفرنسية الجميلة، تذكر المُوَرِّد يعقوب (واضح أنه كثير المواهب هذا اليعقوب الذى يبدو جادًّا وصارمًا) قال:

ـ تعال يازهرة اللحظة. لنأكل المشويات أولًا. اجلسى هنا على رجلى.

طرقات على الباب. مَنْ هذا الوقح الذى يطرق الباب الآن؟ كيف لم يمنعه الحارس؟".

وخلال الحديث عن اهتمام نابليون بالاحتفال مع الشيخ البكرى وبعض الجماهير المصرية بالمولد النبوى فى بيت الشيخ يقول السارد بعد حكاية ما قاله نابليون فى خطبته تلك الليلة: "حياهم بيده من بعيد، ومد يده مصافحًا الشيخ البكرى، ثم أشار إليهم جميعا ليتحركوا نحوه ويصافحونه، ففعلوا. لكن نابليون لم يفصح عن سبب آخر لوجوده بينهم، وهو إعجابه الشديد بزينب ابنة البكرى، التى أصبحت من خليلاته لجسدها الرشيق وعينيها الناطقتين" (ص٥٨-٥٩).

ولدن انصراف نابليون بعد انتهاء الحفل المذكور نقرأ: "ودع نابليون البكرى بحرارة، وحيا الجميع، وكأنه صديقهم من القدم، وقال بصوت قوى: السلام عليكم، بارك الله فيكم. ومضى محاطًا بجدران بشرية متحركة فاقْتَمَتْ من هلعه إلى أن اعتصم بقصره حيث سلمه فوفليه رسالة حية من كليبر تمثل فى الجميلة

بولين فوريه بناء على طلبه وترحيبها. استقبلها نابليون بكثير من الرقة والشغف، قال لها: من الآن يأتمر الجميع بأمرك. أنت ملكة القصر وصاحبة بونابرته.

ـ وماذا عن زوجتك جوزفين، التى فى باريس؟

ـ لا أحب أن أذكرها أو أتذكرها، أنت كل النساء يا فاتنة القد والعيون.

ـ كأنك شاعر.

ـ كنت شاعرًا فى صباى الأول، ثم خبأت قلبى ليكون ملكًا لك.

ـ لك الطاعة فى كل أمر فى السر والعلن يا ملكى العظيم.

ـ نبدأ برقصة جديدة تعلمتها اليوم، وهى رقصة الذكر، وبدلًا من "ألله" أردد اسمك، وترددين اسمى. هيا أعلمها لك. لا أحب أن أضيع الوقت. هات يدك، دعينى أحرك رأسك مع نطق الاسم.

ـ ما أروعك سيدى.

ـ الليل بطوله لنا.

ـ وماذا عن الأعداء حول القصر وفى المدينة؟

ـ هاها. حلوة هذه الرقصة.

ـ لنلتصق أكثر، ضمنى بقوة وأنت تهز رأسك. يبدو أننى سأحبك جدًا.

ـ عيونك تسبق لسانك الفصيح.

ـ سيحضر فوريه بعد أيام، وسأعود إلى أحضانه.

ـ لا أظن. سأرسله دائمًا إلى مهمات خارج مصر.

ـ وإن اعترض؟

ـ لا أحد يقول لنابليون: لا. فكلمتى لا ترد. أنت الآن فرعونة مصرية، وأنا فرعون مصر. هيا نشرب ونعيش الحقيقة المذهلة.

ـ هل نقلل الإضاءة؟

ـ أحب أن أراك فى قلب الشمس، وأستمتع بكل خلاياك.

وقضى نابليون ليلة يحبها، هى مزيج من كل شىء وكل رغبة، قائلًا وهو يغادر عيون الشهوة: بولين هى الأفضل. قالت: وللإمبراطور الأمر والطاعة".

وفى موضع آخر: "قال نابليون لعشيقته بولين، التى كانت تعمل بائعة للقبعات: هذه ليلة العمر، فاستعدى بأجمل ما عندك، وأغرقى السرير بالعطر. لقد قتلنا اليوم نصف شعب مصر، لكن ما أغاظنى أنه لم يخبرنا بمكان أمواله، لقد كان ذكيًّا جدًّا وشجاعًا جدًّا.

قالت بولين: ـ لا أفهم.

ـ لو أنه دفع الدية لإنقاذ حياته كنا سنقتله أيضًا، لكن فى اليوم التالى. هكذا كانت الأوامر.

ـ يالك من مخادع يا سيدى! إياك أن تخدعنى أنا أيضًا. طبعًا أنا أداعب حبيبى نابليون.

حدث نفسه بصوت غير مسموع: لقد خدعتنى زوجتى جوزفين الفاتنة، التى سحرتنى بجمالها وشخصيتها. لقد تناسيت أنها تكبرنى باثنى عشر عامًا (لماذا يا جوزفين تنامين تحت عشيقك الصغير إيبوليت شارل؟). كم هى قاسية! أنا

أنتصر كل يوم فى أوربا، وهى تنتصر لشهوتها كل يوم على سريرى فى باريس! ياللمهانة! ألم نتذكر يومًا كلمات رسائلى اليومية إليها (النحيلة ذات الرائحة الحلوة والفم الآسر جوزفين، إنى أحبك أكثر من كل شىء يتصوره العقل. كل لحظة من حياتى فى خدمتك، إننى أقضى كل الساعات فى التفكير فيك، ولم يخطر على بالى أن أفكر فى فتاة غيرك. فقوتى وذراعاى وعقلى كلها لك. إن روحى فى جسدك، والأرض لا تبدو جميلة فى عينى إلا لأنك تسكنينها. ألف قبلة على عينيك، على شفتيك، على لسانك، على...). كدت أستعيد كتابة الشعر من جديد من أجلك، وتحملت عضة الكلب لأننى كنت فى الطريق إليك. كيف يا جوزفين نسيت كل هذا الكلام ونمت مع إيبوليت شارل؟ ما أبشعك يا امرأة! يبدو أن الطلاق هو الحل الوحيد، فأنت تجاهرين بكل شىء، بكل شىء بلا تحفظ، نثقين فى ضعفى بين أحضانك. أفاق من سروحه، قال لبولين:

ـ لا أحد يمكنه أن يخدع امرأة جميلة، فما بالك ببولين الجبارة؟ هيا إلى مزيد من الخمر والسكر والأحضان والعشق والذوبان فى صحة الشيخ كريم. ورفع رأسه إلى أعلى قائلًا: تحيا فرنسا المتعلمة القوية.

بعد قليل وقد لعبت الخمر بحواسه، قال:

ـ تخيلى يا بولين، نحن نمارس الجنس الآن على سرير مصر الكبير، ومصر كلها تحتنا. كُنَّ هنا: حتشبسوت وكليوبترا ونفرتيتى وتاوسرت، كلهن الآن تحتى بعد أن توحد اسمهن فصار بولين.

ـ أنا بولين عشيقتك، وهنّ حولى سبايا وخادمات.

ـ أنتِ على حق يا بولين" (ص٦٧- ٦٩).

وقُرْبَ نهاية الرواية وقبل أن يترك نابليون مصر بقليل: "ـ أشرقتْ بولين الجميلة.

ـ أوحشْتَنى أيها السلطان الكبير. يا إمبراطور العالم، أحبك وأخاف عليك من أهوال الحروب.

ـ إنها عملى المحبوب يا بولين، وهى كالنزهة بالنسبة لى. أرسلت إليك لتكونى نجمة الليلة معنا على مائدة اللعب أنا وأصدقائى. ستعزفين لنا على الفيوليت فى البداية، ثم تشاركيننا لعب الورق فى الجولة الثانية، ولك المكسب، وعلىَّ تكلفة الخسارة.

ـ رائع. هيا ألف حضن فى حضن واحد! كم أوحشتنى، لكنْ أنت لست على ما يرام. هكذا حدثنى جسدك، هل ستعترف لى؟

ـ وما فائدة الاعتراف، وميداننا هو السرير الجميل؟ بعد ساعة نبدأ لعب الورق. استعدى للعزف.

سحب نابليون كراس المذكرات ليكتب على ضوء الفوانيس والشموع الموقدة ما يعنّ له:

قال: ليتنى كنت شاعرًا أذيب القلوب. يحلو لى أن استحلب ذكريات الحب. كتب:

× بدون المرأة لا يكون هناك صحة ولا سعادة.

× شىء مضحك حقًا، لقد كتبت منذ سنوات: كم يكون جميلًا لو تخلصنا من الحب فيرتاح الناس.

× على كل حال لايمكن أن أنسى أول وأقوى حب استولى على قلبى، وهو عشقى الجنونى للفتاة إيما، وكنت آنذاك فى الثامن عشر من عمرى، كنت ضابطًا صغيرًا. أغرقتها بخطابات الغرام، لكنها صدتنى صدودًا قاتلًا جعلنى أفكر فى الانتحار بالرغم من أن عشيقاتى بالعشرات، ومنهن تلك المرأة التى عشقتنى فى بلدى جزيرة كورسيكا (كانت تابعة لإيطاليا). أرادت تلك المرأة أن تستأثر بى، ولم أكن أهواها، فوضعت لى السم فى الشراب، لولا أمى التى أنقذتنى. أما السيدة كاترين أورسولا فقد تناغمت مشاعرى معها، وهى زوجة لأحد الجنرالات الكبار، وبالحب صرت قائدًا لحملة إيطاليا. هكذا يكون الحب مفيدًا، كما أننى أنتوى أن أغدق عليها وعلى زوجها إذا أصبحت إمبراطورًا لفرنسا.

× إننى أعترف أننى أتهور أحيانًا باعتبار أن الحياة مجرد لعبة، ولنا الحق أن نتجاوز أصولها. ففى أغسطس١٧٩٤، أى منذ خمسة أعوام، قابلت لويز جوتييه فى بلدة كيرو، وهى فى شهر العسل مع زوجها تورو الضابط المهم، كانت مولعة بقصار القامة، جمعها معى عشق خاطف وجاد له آثار مدوية، كنت حينذاك شابًّا فى مقتبل العمر، شعرت بالفخر لتجاوبها الشبق معى، قررت أن أثبت لها قدراتى، وهذا حقى، وإن تم على حساب أرواح الآخرين. كنا معًا فى سياحة بضواحى جبال تند، وومضت فى عقلى فكرة غريبة، وهى أن أشعل لها خصيصًا حربًا صغيرة لتشاهدها من باب التسلية، ودون تباطؤ، أصدرت أوامرى لإحدى الوحدات المقاتلة بأن تهاجم العدو الأوربى بكافة الأسلحة، فهبت حرب صغيرة، وأنا وهى نصفق معًا، وكالعادة كسبت المعركة المفتعلة، وفقدنا عددًا من جنودنا. المهم أن لويز كانت سعيدة ومبتسمة، وأنا كذلك، وإن كنت لمت نفسى بعد ذلك. واكتملت الصورة بانتحار زوجها

تورو. لكننى لا أرى الفارق كبيرا بين ما فعلته وما فعله الفرعون الشهير أمنحتب الذى صنع لزوجته بحيرة كبيرة بطول كيلومترين على الأقل فى الصحراء خلال أسبوعين فقط مات خلالها مئات العمال دون مقابل، لكنه وزوجته استمتعا بمنظرها، وهذا يكفى. أعدك يا بولين إذا عدت إلى مصر أن أصنع لك بحيرة مماثلة نضحك على ضفافها، ولا تشغلى بالك بعدد الضحايا، فهم ميتون فى كل الأحوال، وعبيد لنا. وإذا كان أمنحتب، وهو مصرى مثلهم، لم يرحمهم فهل يتوجب على الأجنبى بونابرته أن يعاملهم كبشر، ويرعى حقوقهم؟

× آه، لم أحدثكم عن الملل الذى يصيبنى مع بعض عشيقاتى، فأضطر إلى استبدالهن، إلا أننى فى كل مرة أغدق عليهن من مال البلاد، وأتمنى ألا أكون قد سئمت من بولين الجميلة، فهى تفهمنى جيدًا. أما زوجتى جوزفين فهى الوحيدة التى تقهرنى حين أدخل إلى خدرها، بل تبدل أفكارى. ولهذا أخشى أن تستخدم سحرها، فأتخلى عن قرار الطلاق. وإن حدث ذلك سأظل أكرهها بعقلى، أما قلبى فحكاية أخرى. يااااه، لماذا لا يسأم الإنسان من الحب؟".

ومع كل ما قاله نابليون فى حق المصريين، وهو رأى سيئ للغاية، إذ هم عنده متبلدون خانعون يَرْضَوْن بالمذلة والخضوع لكل من يحكمهم وينكل بهم ويأكل حقوقهم فى العزة والكرامة والعيش الهنىء، فإنهم لم يستكينوا للغزو الفرنسى رغم الفارق العسكرى والحضارى والعلمى والاقتصادى والثقافى الرهيب بين الطرفين. لقد وقف السيد محمد كريم ورجاله فى وجه الأسطول الإنجليزى الذى سبق وصول الحملة الفرنسية بقليل ولم يوافقوا على إمداده بأى شىء كانوا فى حاجة إليه، فانصرفوا. وحين وصل الأسطول النابليونى بعد

ذلك بذل كريم وأهل الإسكندرية كل ما فى استطاعتهم لصده ومنعه من النزول فى مدينتهم إلى أن انتهى ما فى أيديهم من أسلحة وذخائر.

وحتى بعد أن دخل الفرنسيون الإسكندرية وقبضوا على السيد محمد كريم واعتقلوه فترة من الوقت ثم أطلقوه وعهدوا إليه بالاستمرار فى حكم الإسكندرية ظل يساعد الفدائيين فى حربهم ضد الفرنسيين إلى أن اكتشفوا أنه لا يزال على موقفه الأول منهم ثم أعدموه، أعدمهم الله! وقد حاول نابليون التظاهر باعتناق الإسلام وارتدى العمامة والجلباب وشهد احتفالات مولد النبى، وقبل ذلك أصدر منشورا طويلا يتقرب فيه إلى المصريين زاعما حبهم وحب بلادهم ورغبته فى إصلاح أمورها وحمايتهم من الأسطول الإنجليزى. لكن ذلك كله لم يأت بالنتيجة المرجوة، إذ انتهى أمر الحملة الفرنسية إلى الخسار والبوار بعد فشلهم فى فتح عكا وارتدادهم عن أسوارها خاسئين مدحورين تاركين خلفهم آلاف الجثث هناك. وخلال الفترة القصيرة التى قضتها الحملة الفرنسية على بلادنا قامت ثورتان ضخمتان، وظلت البلاد مشتعلة بالمقاومة والرفض رغم شيوع الفساد بين بعض طوائف المصريين بالقاهرة إذ تشبهوا بالفرنسيين فى السلوك والانفلات الخلقى فى الجنس والخمور وما إلى ذلك. ولا ينبغى أن ننسى المساعدة العسكرية التى تلقاها المصريون من دولة الخلافة والأسطول البريطانى ومقتل كليبر الخنزير النجس على يد البطل الشامى سليمان الحلبى قدس الله روحه وتقبله فى الأبرار المؤمنين. ويضاف إلى ذلك مغادرة نابليون لمصر إلى فرنسا هاربا كاللصوص لما بلغه من اضطراب الأوضاع فى فرنسا.

فالرواية تبدأ بنابليون وهو مقبل على غزو مصر كله ثقة وغرور يصل إلى ما يقارب الانفجار، وانتهت بفراره كالكلب الجريح الذى يعوى من الألم. ومع

هذا ظلت أحوال الشعب المصرى لم تتغير كثيرا حتى الآن. وواضح موقف المؤلف من تلك الأوضاع، فهو يهدى روايته "إلى الليل الطويل" الذى غلف حياة المصريين قبل وبعد الحملة الفرنسية، التى يرى فيها المنبطحون على بطونهم، ككل شاذ عديم الرجولة والذكورة معا، طاقة تنوير وتحضر بينما هى ويل وعذاب وقسوة لا إنسانية وهلاك الآلاف المؤلفة من أهالينا. وما زلنا حتى الآن، رغم أخذنا بالأنظمة والأدوات والوسائل والمؤسسات الحديثة، نعانى من الضعف السياسى ولا نستطيع ابتكارا أو اختراعا أوتطويرا ذا قيمة تذكر فى أى مجال، إذ نحن بوجه عام شعوب مستهلكة لا منتجة، ولا قيمة لنا فى المعترك الدولى لا سياسيا ولا علميا ولاصناعيا حتى إننا لم نستطع استرداد الجزء الذى اغتصبه الصهاينة من فلسطين ونخشى أن نفقد الجزء القليل الباقى، وكذلك تدفع الدول العربية الثرية الجزية لأمريكا تحت مسميات خادعة، وهى جزية كان يمكنها لو كانت هناك إرادة وكرامة وقوة ونية طيبة أن تغنى العالم العربى غنى رائعا بديعا.

ومن الملاحظ فى الرواية الاهتمام بالكلام عن الفراعنة، ولا يتلبث هذا الأمر فى الظهور بل هو بارز منذ بدايتها: من سطرها الثالث على وجه التعيين، وذلك حين كان بونابرت راكبا باخرته ضمن حملته على مصر للاستيلاء عليها وعلى الشرق. لقد بدأت الرواية كالتالى: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم.

لست قلقًا، لقد قرأت البحر، والبحر أستاذ الذكريات، أسمعه الآن:

ـ ذات يوم يا بونابرته (بونابرت) كان الفراعنة هم سادتى، وبأمرهم أأتمر. لست منافقًا، لكننى دائمًا أخضع للقوى، ولهذا تجدنى ألعب معك ولصالحك الآن ما دمت تملك المدفع الجبار والبندقية الحديثة. هو شاعر واهم من يتصور أننى أضحك له وأبكى، وأصارحك بأنه إذا تفوق عليك الأسطول

الإنجليزى الذى يتعقبك فى البحار سأكون عونًا له عليك أيضًا يا صاحب العينين الرماديتين. أما أقاليم الخلافة (من العرب وغيرهم) فقد نَسِيتُهم ونَسُونى، فهم دائمًا فى انتظار المدد من الغير أو من السماء، وهم غارقون فى عسل الأمنيات".

ونابليون فى كلامه هذا يقصد إلى القول بأن المصريين وغيرهم من المسلمين يؤمنون بالجبر والتسيير لا التخيير. وكان الغربيون ولا يزالون يتهمون الإسلام بأنه هو السبب، إذ تتكرر فيه الآيات التى تنسب كل شىء فى الكون إلى مشيئة الله المطلقة التى تسيطر على العالم كله لا يندّ عنها أحد أو شىء كما فى الآية التالية وأمثالها: "من يَهْدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادىَ له". بَيْدَ أنّ المطلع على كتاب الله يجد، بجانب هذه الآية وما يماثلها، آيات أخرى تعزو للإنسان مشيئة هو أيضا، وعلى أساسها سوف يحاسَب، ولكن لن يكون الحساب مطلقا يتبع منوالا واحدا مع الجميع بل تؤخذ ظروف كل منا فى الاعتبار: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها". نعم نحن خاضعون لمشيئة الله طول الوقت، إذ الله هو خالق الكون بكل ما فيه وخالق قوانينه، التى تدور عليها حياتنا وحياة المخلوقات جميعا، ومن هذه القوانين أنه وهب لنا مشيئة، لكنها مشيئة جزئية، ولن نحاسب على ما يقع خارجها كما أشرت. أى أن مشيئتنا من مشيئة الله. فمشيئة الله اقتضت أن تكون لنا بدورنا مشيئة. وقد تتبعت فى القرآن الآيات التى تتحدث عن المشيئة الإنسانية فألفيتها ترافق الإنسان مذ كان يعيش فى الجنة الأولى إلى أن نزل إلى الأرض وسوف ترافقه فى الدنيا وستكون معه فى الجنة. وعلى ذلك فإذا كانت الآية تتحدث عن مشيئة الله المطلقة فلأن الموضوع فى هذه الحالة يستلزم النظر إلى الأمر من الأفق الإلهى، أما إذا تعلق الموضوع بالبشر ومشيئتهم فالمفهوم أن الكلام عن المشيئة الجزئية.

ويمكن ضرب المثل التالى على ما أقول: فلو صورنا مشيئة البشر بنطاق جغرافى مسيّج بسياج لا يمكن القفز فوقه والخروج منه ولكن يمكننا التحرك داخله بحرية كانت مشيئة الله هى المشيئة التى أرادت أن نتمتع بتلك الحرية النسبية، وهى مشيئة تنتظم الكون كله لا ذلك النطاق المحدود فحسب.

أما حكاية إيمان المسلمين بالجبر فلا علاقة له بالإسلام من قريب أو من بعيد، وإنما اتخذه الغربيون أداة يشنعون بها علينا حتى يضعوا فى أذهان المسلمين أن دينهم دين التخلف، وإلا لقد كان ينبغى أن يبتهج نابليون بكفاح الشعب المصرى لحملته واشتعال الثورات ضده وضد تلك الحملة فى أرجاء القطر بوصف ذلك إيمانا بالحرية وممارسة لها كالغربيين تماما، ولكان يجب إعطاء سليمان الحلبى نوط الشجاعة والشهامة لأنه أثبت أن المسلم ليس جبريا بل حرا، إذ لو كان جبريا لقعد فى كسر بيته واضعا يده على خده كتنابلة السلطان منتظرا أن ينزل عليه من السماء ما يحتاجه من الطعام والشراب وهو نائم فاغر فاه لتلقى رزق السماء الجاهز للأكل والبلع دون حاجة إلى تنظيف أو تقطيع أو إعداد أو غرف فى الصحون أو غسل للأيدى أو جلوس إلى المائدة... إلخ. ولو كانت عقيدة القضاء والقدر سيئة بهذا الشكل لكان أحرى بالكسل والبلادة والهزيمة والفقر والجهل والعجز وانتشار الأمراض المسلمون الأوائل إذ كان إيمانهم بالإسلام وبالقرآن أقوى كثيرا جدا جدا من إيماننا نحن الآن. أليس كذلك؟ لكننا ننظر فنلفيهم يتوثبون حيوية وعزيمة وطموحا ويقبلون فى معاركهم مع أعدائهم على الموت إقبال أولئك الأعداء على الحياة. فهذا يدل على أن كلام الغربيين فى تلك القضية كلامٌ عَرِىٌّ عن الصواب تماما. نعم المسلمون الآن ومنذ قرون متخلفون بالنسبة إلى الغربيين ومتبلدون ساقطو الهمم ويخشون أعداءهم بل يرتعبون منهم. وهم على مدار عامين كاملين

يشاهدون ما ينزل بإخوانهم فى غزة من دمار وتقتيل وحصار وتجويع وتعطيش وتشويه للأجساد وإفقار ومحاولات دائبة للتيئيس، ولم يفكروا فى مناصرتهم ولم يحاولوا فك حصارهم ولم يتألم لأحدهم، شعوبا أو حكومات، قلب لما يرونه يقع للأطفال والحرائر والشيوخ الفلسطينيين بل ساعدوا الصهاينة ضدهم. وهذا، كما نعرف جميعا، هو محادّة لما يقوله الله لهم من وجوب الوقوف جنبا إلى جنب مع إخوانهم المظلومين المضطهدين، ومناقضة لما تقتضيه عقيدة القضاء والقر.

وقد قال نابليون هو نفسه إنه يخشى من تأثر المصريين بالقرآن إذا فهموه على حقيقته لأنه يحضهم على الاستقلال والعزة والكرامة والثورة على الظلم والجهاد ضد المعتدين ويتوعد من يهمل ذلك بالخزى فى الدنيا والآخرة! يقول بونابرت مخاطبا فى الخيال الإمبراطور الرومانى أوريل صاحب كتاب "التأملات": "ها أنذا أعمل بحرية لنهب خيرات مصر وغيرها لصالح فرنسا، لتكون سيدة الأرض بلاجهل يدمرها، شكرًا أوريل على نصائحك، المهم أولًا أن أجيد اللعب بتأثير القرآن على الرعية المصريين، فهو الخطر الأول علينا إذا عملوا بما فيه. والشيخ محمد كريم أحد ثمرات هذا القرآن، ترى ماذا يفعل وفدنا الآن مع محمد كريم؟" (ص١٤-١٥).

وتكمن المشكلة فى العقل الذى يقرأ القرآن: فالمسلمون فى عز مجدهم وتألقهم العقلى والفكرى كانوا كلهم حيوية وطموحا وثقة بالنفس مستقاة من ثقتهم بالرب وعمل على إعداد كل ما يستطيعون من أجل إحراز التقدم والتحضر والعيش الكريم الراقى، ولكنهم مع انحطاط عقولهم وانحلال عزيمتهم صاروا هامدين كالموتى لا يكادون يتحركون للأمام ولا يفكرون أن يقفوا وقفة رجولية فى وجه من يريدهم بسوء، وتحول الإسلام العظيم على

أيديهم وفى نفوسهم إلى معوِّق لا محفِّز. وما أكثر ما أضحك وأنا أقرأ ما تستشهد به فناناتنا على وجود العقيدة المثبِتة لقدرة العين أو الكلمة على الإيذاء فى القرآن حين يمرضن أو يطلقن أو تنقلب سيارة لهن مثلا، إذ ما أسرع أن تعزو الواحدة منهن تلك المصيبة إلى الحسد (تقصد العين)، و"الحسد مذكور فى القرآن" كما يقلن ويقول الناس كلهم تقريبا! وهذه الفنانة لا تصلى ولا تصوم ولاتحتشم فى ملابسها وتحرص على الظهور فى أحدث صرعات الفساتين وأشدها إثارة للشهوات وتدعو إلى المرافقة قبل الزواج وتعلن عن تفضيلها للعيش: "سنجل"، وهى الكلمة الوحيدة التى تعرفها من الإنجليزية، وتصم كل من يتدين بأنه متخلف... ولكنها تنسى هذا كله حين تنسب مثلا انقلاب سيارتها بها إلى عيون الحاقدات عليها وقَرِّهِنّ ونَبْرِهِنّ لا إلى رعونتها فى السواقة أو قيادتها للسيارة وهى سكرى أو إلى سوء حال الطرق أو مجاوزتها للحد الأقصى للسرعة... أو أو أو. أبدا لا سبب إلا الحسد (تقصد العين)، والحسد مذكور فى القرآن كما يقول كل الناس. وهذا كل ما تعرفه عن القرآن والإسلام. ترى ما ذنب القرآن والإسلام هنا؟ إن المشكلة فى العين التى تقرأ، والمخ الذى يفهم! وأمخاخنا اليوم بوجه عام أمخاخ "عَجّالِى"!

وقد كتب محمد عبده فى هذه القضية كلاما رائعا بديعا، وإن كانت له لغة تختلف عن لغتى، وزاوية من النظر تختلف عن زاويتى. قال رحمه الله: "من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الإسلامية الحقة، كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة، وحكّمت فيهم الضعف والضعة، ورموا المسلمين بصفات، ونسبوا إليهم أطوارًا، ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر. قالوا: إن المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوى

الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد نشأ فيهم فساد الأخلاق، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون، ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر فى إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم، والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى. رضُوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا إلى السكون فى كسور بيوتهم يسرحون فى مرعاهم ثم يعودون إلى مأواهم. الأمراءُ فيهم يقطعون أزمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم حقوق وواجبات تستغرق فى أدائها أعمارهم ولا يؤدون شيئًا منها. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيرًا. نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل فى حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة. يتخاذلون ويتنافرون وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة، كل منهما يخذل صاحبه ويستعدى عليه جاره، فيجد الأجنبى فيهما قوة فانية وضعفًا قاتلًا، فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددًا ولا عُدّة. شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور، يفزعون من الهمس ويألمون من اللمس. قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم فى العزة والشوكة، وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم، بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب قومًا من إخوانهم مصيبة أو عَدَت عليهم عادية لا يَسْعَوْن فى تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية يكون من مقاصدها إحياء الغيرة وتنبيه الحميَّة ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغى الأقوياء وتسلط الغرباء.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا ألا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزًا ولن يعيدوا مجدًا، ولا يأخذون حقًا ولا يدفعون تعديًا، ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك، ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم ويُرْكِس من طباعهم حتى يؤدى بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله). يفنى بعضهم بعضًا بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الأجانب. واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبورٌ محضٌ فى جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتَّمحِى من خواطرهم داعية السعى والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم. هكذا ظنت طائفة من الإفرنج، وذهب مذهبَها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق. ولست أخشى أن أقول: كذب الظانُّ، وأخطأ الواهم، وأبطل الزاعم، وافتروا على الله والمسلمين كذبًا. لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاءً اختياريًا فى أعمالهم، ويسمى بـ"الكَسْب"، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية والنواهى الربانية الداعية إلى كل خير الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد

التكليف الشرعى، وبه تتم الحكمة والعدل. نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بـ"الجبرية" ذهبت إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارًا لا يشوبه اختيار، وزعمت ألا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر. وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه أولئك الواهمون. الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة، ويسهل على كل من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها، وأن لكل منها مدخلًا ظاهرًا فيما بعده بتقدير العزيز العليم. وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليست الإرادة إلا أثرًا من آثار الإدراك، والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله فضلًا عن عاقل، وأن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة إنما هى بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعًا لشبهه كأنه جزء له، خصوصًا فى العالم الإنسانى. ولو فرضنا أن جاهلًا ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس فى إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والتأثيرات الدهرية فى الإرادات البشرية، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلًا عن الواصلين، وإن بعضًا من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان فى إثباتها، ولسنا فى حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم. إن

للتاريخ علمًا فوق الرواية عُنِىَ بالبحث فيه العلماءُ من كل أمة، وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والأخلاق والأفكار، بل فى خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم وتكوُّن الدول أو فناء بعضها واندراس أثره. هذا الفن الذى عدوه من أجلِّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة، بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر والإذعان بأن قوى البشر فى قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوى، ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان. الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفات الجراءة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأُسود، وتنشق منها مرائر النمور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة، كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة. الذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية؟

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا

رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" (آل عمران: ١٧٣-١٧٤). اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم، وامتدت سلطتهم من بلاد بيرينى الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين مع قلة عددهم وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة وطبائع الأقطار المتنوعة. أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. إن هذا ليُعَدّ من خوارق العادات وعظائم المعجزات. دمروا بلادًا ودكدكوا أطوادًا، ورفعوا فوق الأرض أرضًا ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالًا وتلالًا من رؤوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر. هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم. بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم لا يخشَوْن فقرًا ولا يخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم إلى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانًا من كل غادرة وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتوَلَّوْن سِقَاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة أو تغشى الأولاد مهابة. هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد كان ذكر

اسمهم يذيب القلوب، ويبدد أفلاذ الأكباد حتى كانوا يُنْصَرون بالرعب يُقْذَف به فى قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش من الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف بجحافلهم" (كتاب "المنار" لمحمد رشيد رضا/ غرة ربيع الأول١٣١٨هـ تحت عنوان "القضاء والقدر"/ ج٣/ ص٢٦٥).

وفى الصفحتين الثانية والثالثة من نص الرواية (ص٦- ٧) يقول لبونابرت أحدُ ضباطه: "ـ لقد قدّم نظام الخلافة العثمانى (التركى) أروع هدية لنا، فتَحْتَ اسم وحدة المسلمين تَمَّ تجميد إقليم مصر وإفقارها على مدى ثلاثة قرون.

ـ صدقتَ فوفليه، فلو كانت مصر قوية ربما كان أحد الفراعنة يحكم باريس الآن، وربما كنا خدمًا فى بلاطه.

ـ تمامًا، ولهذا، بعد اليوم سيتحدث العالم عن نابليون وليس عن رمسيس الثانى ".

وتعقيبا على اتهام نابليون للخلافة العثمانية نقول: لقدكانت الخلافة العثمانية فى بداءة شأنها قوية مهيبة متقدمة كثيرا جدا على أوربا، وكان ذلك ينعكس عموما على شعوبها، ولكنْ ككل شىء فى الحياة مالت مع الزمن إلى الانحدار والضعف حتى تكالبت عليها أوربا وهيجوا مواطنيها من العرب عليها حتى سقطت. ولو كانت هى السبب الأساسى فى تخلفهم فلماذا لم يستطيعوا النهوض منذ استقلالهم الواقعى عنها على مدى أكثر من قرنين منذ حكم محمد على؟ لقد تلاعب بهم مأبون بريطانى ومنّاهم بالاستقلال وحُكْم أنفسهم بأنفسهم هو لورنس العرب، ولكن حين جد الجد لم يعطهم شيئا من وعوده

لهم بل مزقهم الأوربيون بعد الثورة العربية الزائفة شر ممزَّق، وصاروا الآن عشرين دولة ونيفا لا يستطيعون مواجهة عدة ملايين قليلة من الصهاينة رغم أنهم يَضْعُفون الصهاينةَ بضع مئات من المرات. ورغم الجيوش الجبارة التى تحت يد كل حاكم من حكامهم فلم يحدث تقريبا أن وقفت هذه الجيوش، حقيقةً لا زعما وادعاء، فى وجه العدو بل كانت ولا تزال يحارب بعضها بعضا أو يستعملها الحكام "الوطنيون" فى سحق شعوبهم وإخضاعها لجبروتهم وطغيانهم وعسفهم واستبدادهم فى الوقت الذى يخضع هؤلاء الحكام الوطنيون للقوى الغربية خضوعا مذلا مهينا. كما أن الدول العربية دول متخلفة فى الواقع لا تفوّق لها حقيقى فى مجال العلم والإنتاج والابتكار والاكتشاف، ودورها عادة هو دور المستهلك والمستورد، ولا قيمة لها فى ميدان السياسة والاقتصاد والساحة الدولية، ومعظمها يأتمر بأمر الغربيين لا يستطيعون عن ذلك ملتحدا.

وفى الصفحة الثلاثين يخاطب بونابرت شيطانه، حسب تعبيره، حين خلا بنفسه قائلا: "والآن يا شيطانى الكريم، لماذا توسوس لى بأن مصر انتصرت أيام رمسيس الثانى وتحتمس الثالث وصلاح الدين الأيوبى؟".

وفى الصفحة الرابعة والأربعين يقول: "اقترب نابليون من مقره المؤقت فى قصر مراد بك فى الجيزة عبر دماء وأشلاء متراكمة معظمها لأحفاد خوفو". وفى الصفحة التالية: "ـ دَبِّرْ لقاءً عاجلًا لحكماء الحملة لنرى ماذا سنفعل، أما أنا فأول رحلة لى ستكون إلى الهرم. غدًا صباحًا أكون فى ضيافة الفرعون خوفو". ثم فى الصفحة التى بعد ذلك نقرأ: "طلب نابليون من برتييه إعداد موكب عسكرى يرافقه إلى الهرم يليق بالفراعنة القدامى مصحوبًا بالموسيقى سيُعْزَف فيه المرسيليز على مسمع من خوفو". وبعد ذلك بسطور نرى بونابرت

يصعد الهرم الأكبر وينادى "فى صوت مضفور بالغرور: ـ أنا هنا يا خوفو، أبناؤك باعوك، وتركوك تحت أحذيتنا. وإننى أشهد النجوم المختبئة، والشمس السافرة، والرياح الحائرة، والأرض بما حملت، أشهد كل هؤلاء أننى أبصق على الهرم الأكبر (وبصق) ومَنْ رفَعه، وعلى حَفَدة خوفو، والأغنياء الأغبياء، وعلى من يستعد لبيع نفسه فيهون عليه الوطن... وضرب نابليون الحجر بحذائه قائلًا: سنبنى بأحجار الهرم سورًا يحيط بفرنسا، عرضه متر وارتفاعه ثلاثة أمتار". وفى الصفحة السابعة والخمسين كان بونابرت يراجع حفظه لـ"الفاتحة" استعدادا للقاء العلماء فى الغد ليوهمهم أنه مسلم مثلهم، ثم توقف أثناء قراءة آيات السورة قائلا: "يكفى هذا الجزء. سيكون الإسلام مطيتى إليكم. ستسعدون بنابليون فرعونكم القادم". وفى الصفحة الثامنة والستين يحاور فى الفراش، وهو مخمور، عشيقته بولين (زوجة أحد ضباطه): "ـ تخيلى يا بولين. نحن نمارس الجنس الآن على سرير مصر الكبير، ومصر كلها تحتنا. كُنّ هنا: حتشبسوت وكليوبترا ونفرتيتى وتاوسرت. كلهن الآن تحتى بعد أن توحَّد اسمهن فصار بولين.

ـ أنا بولين عشيقتك، وهن حولى سبايا وخادمات".

وحتى وهو يتكلم عن رغبته فى العمل، من أجل هزيمة المصريين، على تمزيقهم من خلال الوقيعة بينهم وبين النصارى، نجده يقول لأحد قواده: "ـ يمكن أن نلعبها بين الوجهين القبلى والبحرى حيث أن نسبة المسيحيين فى الصعيد أكثر. لكنها تحتاج إلى وقت لأنك ستغير تاريخًا عمره آلاف السنين عندما وحد الفرعون مينا القطرين، وحظى بلقب "موحد القطرين".

ـ دورنا أن نطمس الهوية، ونغير كل شىء لمصلحة أمنا فرنسا. لن تنام هانئًا بعد اليوم يا مينا" (ص٧٤- ٧٥).

وبعد ثلاث صفحات نسمعه، وهو يشاهد عدد القتلى والمعتقلين المصريين الرهيب، يقول لنفسه: "معذرة يا مصريين. اطلبوا رمسيس الثانى ليمد لكم يد العون، وربما تحتمس الثالث أقدر منه. قال الجنرال بون الذى خلف ديبوى، وهو يشير إلى الأزهر:

ـ قائدنا الكبير، بقيت هذه البؤرة الفاسدة، فمنها يتخرج الثوار، وتدار الثورة على يد المشايخ الكبار. بعض ضحايانا قتلوا حول هذا الجامع الأزهر، فمِن بما يكون، وكذلك من جامع السلطان حسن يضربوننا ببنادقهم.

قال نابليون محاولًا استعادة الهالة التى تسربت منه منذ ساعات:

ـ توجَّه المدافع إليهما، خاصة الجامع الأزهر الأكثر عدوانًا علينا والمقلق لنا. دُكُّوه".

وفى الصفحة الثانية والثمانين نقرأ: "قال نابليون للجنرال ديزيه قائد الحملة على الصعيد: ـ واصل هجومك على أبناء الوجه القبلى، لايهم ماذا نخسر من الجنود كل يوم! الأهم ما نكسبه من الأرض ومن ولاء الناس لنا. سعادتنا بحكم مصر الفرعونية لا تدانيها سعادة. لا تقلق ديزيه. المصريون بعد حين سيصدقوننا، ويتركون رقابهم عارية لنا.

قال مونج، الذى شارك فى اللقاء من أوله بعد انصراف ديزيه:

ـ يؤرقنى خاطر يا قائدنا. سنقدم للمصريين العلم والمعرفة والآلات الحديثة فى الطباعة وغيرها كما وعدتم. ألا تخشى أن يكون العلم سلاحهم القوى ضدنا فيما بعد؟

ـ سؤال خبيث يا مونج، والإجابة أخبث. إننا لن ننقل لهم إلا بقايا علومنا، وسيكون على نطاق ضيق، للدعاية فقط. وأنا أثق بأنهم سيذكرون فى كتب التاريخ أن بونابرته الحانى على الشعب قدم لهم التعليم والبعثات وآلات الطباعة على طبق من ذهب، وهم أغبياء. فالطبق من دمائهم المقززة، وللأسف مع بعض دمائنا الذكية (الصواب "الزكيّة" بالزاى، أى الراقية). سيظل جهلهم جوادنا الرابح يا مونج.

ـ فهمت، أما النخبة منهم فعلينا أن نعلمهم الولاء لنا، ولن ننسى أن الدين هو اللعبة الناجحة مع المتواكلين.

ـ أريد معلومات أكثر عن طبائع أهل الصعيد يقدمها لى دينون".

وفى مذكراته يقارن بين الحرب التى أشعلها وهو شاب كى يسلى عشيقة له ليس إلا وبين ما فعله أمنحتب لزوجته: "وومضت فى عقلى فكرة غريبة، وهى أن أشعل لها خصيصًا حربًا صغيرة لتشاهدها من باب التسلية، ودون تباطؤ أصدرت أوامرى لإحدى الوحدات المقاتلة بأن تهاجم العدو الأوربى بكافة الأسلحة، فهبت حرب صغيرة، وأنا وهى نصفق معًا. وكالعادة كسبت المعركة المفتعلة، وفقدنا عددًا من جنودنا، المهم أن لويز كانت سعيدة ومبتسمة، وأنا كذلك، وإن كنت لمت نفسى بعد ذلك. واكتملت الصورة بانتحار زوجها تورو.لكننى لا أرى الفارق كبيرا بين ما فعلته وما فعله الفرعون الشهير أمنحتب، الذى صنع لزوجته بحيرة كبيرة بطول كيلومترين على الأقل فى الصحراء خلال أسبوعين فقط مات خلالها مئات العمال دون مقابل، لكنه وزوجته استمتعا بمنظرها، وهذا يكفى. أعدك يا بولين إذا عدت إلى مصر أن أصنع لك بحيرة مماثلة نضحك على ضفافها، ولا تشغلى بالك بعدد الضحايا، فهم ميتون فى كل الأحوال، وعبيد لنا. وإذا كان أمنحتب، وهو مصرى

مثلهم، لم يرحمهم فهل يتوجب على الأجنبى بونابرته أن يعاملهم كبشر ويرعى حقوقهم؟" (ص٩٨).

وقبل أن ندخل فى موضوع الفراعنة والفرعونية أود ألا تفوتنا الإشارة إلى ما وقع بعد ذلك من شح الغرب علينا بأسباب التقدم الحقيقية وقصره ما يقدمه لنا على ما يغذى فينا نزعة التقليد لا الابتكار، والاستهلاك لا الإنتاج، والاعتماد على الذاكرة وحدها مع إهمال العقل والاستقلال الفكرى، وكذلك ما ابتلينا به من ظهور تلك البثور الفكرية المسماة بـ"المتغربين"، أى المعجبين بالغرب على حساب حبهم لدينهم ووطنهم والمنسحقين أمام كل ما يأتينا من جهته مهما كان عاديًّا وتافهًا وسطحيًّا، بل بالذات متى كان عاديا وتافها وسطحيا. ومن هؤلاء من يرون أن لفرنسا على مصر يدا لا تقدر بثمن تتمثل فى الحملة الفرنسية، التى يرون أنه لم يكن لنا أن نتقدم ونتحضر لولا هى. وهو كلام يحسب من لا يعرف أحوالنا وظروفنا الحالية أننا قد بلغنا الآن، وبسبب تلك الحملة، من التنوير والتحضر شأوا عظيما مع أننا جميعا نعرف البئر وغطاءه. ومؤلف الرواية، فيما هو واضح، ينحاز إلى الوطن والشعب ولا يطيق نابليون ولا رجاله ولا طريقة تعاملهم الإجرامية التى انتهجوها مع المصريين ولا يقف مع المتغربين بل يهاجمهم وينال منهم نيلا شديدا.

ولكن هل كانت مصر الفرعونية لنابليون بهذا الوضوح الذى توحى به هذه النصوص الموجودة فى الرواية؟ إن الولع بل الهوس بالفراعنة وحضارتهم وآثارهم لم تعرفه فرنسا وأوربا فى ذلك الوقت ولا كان تاريخ الفراعنة معروفا بهذا التفصيل وبأسماء ملوكهم وملكاتهم وإنجازاتهم وحكاياتهم الخاصة كما تقول الرواية. إن هذا لم يحدث إلا بعد فكّ طلاسم حجر رشيد على يد شامبليون الضابط المستشرق المرافق للحملة بعد عودة الجيش الفرنسى مدحورا بسنوات

على ما هو معروف سواء قلنا إنه قد اهتدى وحده إلى حل تلك الأحاجى اللغوية أو بمعونة يجحدونها من كتاب "شوق المستهام فى معرفة رموز الأقلام" لابن وحشية النبطى، الذى كان قد تُرْجِم إلى الإنجليزية قبل توصل شامبليون إلى اكتشاف خفايا الهيروغليفية بأعوام.

ومن ثم لا أدرى معنى لكل ما قيل فى هذا الأمر، وبخاصة أن المصريين لم يُظْهِروا آنذاك ما يدل على أنهم أبناء أولئك الملوك أو يربطهم أى شىء بتلك الحضارة. إنهم مسلمون، ويؤمنون بالله ومحمد والقرآن ويبجلون الأزهر ومشائخه. بل لقد تظاهر نابليون بذلك حين وصل لمصر ووزع أول منشور على أهلها زاعما أنه صديق للإسلام بل مسلم مثلهم أتى ليعتقهم من نِير الأتراك وربقتهم. ولم يكتف بهذا بل لبس العمامة والجلباب كما يلبسون، وصلى معهم كما يصلون، وتمايل فى صفوفهم فى مولد النبى كما يتمايلون. ووصل الأمر إلى أن مينو أعلن أيضا إسلامه وتزوج من بنت أحد تجار رشيد الأثرياء، بل لقد أخذها معه إلى فرنسا مع ابنها منه حين كتب على الفرنسيين الهزيمة والجلاء عن مصر، وإن كان قد خدعها ونصَّر الطفل بعد العودة إلى فرنسا متغلبا على معارضة زوجته الرشيدية عن طريق أحد المستشرقين الثعالب الذى أوهمها من خلال التفسير الملتوى لبعض الآيات القرآنية بأن الأديان كلها شىء واحد لا فرق بين دين ودين. بل يقال، كما أشار رفاعة فى "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"، إنها قد تنصرت هى أيضا، ولكن هذا شىء آخر.

والمصريون، حين يثورون، إنما يثورون بدافع من عقيدتهم الإسلامية، ولم يصدر عن أى منهم لا من بعيد ولا من قريب ما يومئ مجرد إيماء إلى أية نزعة فرعونية فى كلامهم أو تصرفاتهم أو مواقفهم. والواقع أن المصريين وغير المصريين كانوا، قبل الحملة الفرنسية، ينظرون إلى خضوعهم للخلافة التركية

على أنها هى الوضع الطبيعى ولم يصدر عنهم ما يشير إلى أنهم يرون لهم قبلة سياسية أخرى غير قبلتها. ولم ينتظروا من أحد عونا ضد الفرنسيين إلا من العثمانيين. وحين انتهت الحملة الفرنسيسية وانكسحت من مصر وحاول الإنجليز الحلول محل الفرنسيين تصدى المصريون لهم فى كفر الدوار ولقنوهم شر هزيمة جعلتهم يلحسون جراحهم ويولون الأدبار رغم أن الإنجليز قد اشتركوا فى محاربة الفرنسيين وإخراجهم من مصر. وكان مصطفى كامل يدعو إلى استقلال مصر فى ظل الخلافة العثمانية، ولم نسمع بالنزعات الوطنية المحلية إلا لاحقا على يد أحمد لطفى السيد، ثم تكاثفت بعد الحرب العالمية الأولى على يد محمد حسين هيكل وطه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى... والدليل على ما نقول هو أنه قد عم العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه حزن جارف عميق عندما ألغى أتاتورك اليهودى المتخفى تحت اسم إسلامى الخلافة العثمانية، فانقلب على أتاتورك معظم من احْتَفَوْا بأتاتورك سابقا انخداعا فيه حين حسبوه فى بداءة أمره بطلا عسكريا إسلاميا. لقد كان المسلمون لا العرب وحدهم ينظرون إلى الخلافة العثمانية على أنها امتداد للخلافات الإسلامية السابقة، وكانوا يرون رأى العين أنها قد حمتهم من القوى الغربية وأنها ألقت الرعب فى قلب هذه القوى وأبقت أطماعهم بعيدا عن بلاد المسلمين عدة قرون.

وهنا نتساءل: هل يصح القول بأن من حق المبدع الأدبى تغيير وقائع التاريخ واستبدال المخترَع منها مكان الحقيقى الصحيح لخدمة غاياته من الكتّابة كما يقول بعض الأدباء والنقاد؟ أم إن ما قيل عن الفراعنة فى الرواية هو تغيير جذرى جوهرى يبلبل التاريخ بلبلة شنيعة تربك كل شىء؟ فيا ليت الصديق

مبدع الرواية (يا ليته) يعيد النظر فى هذه النقطة على ضوء ما كتبته هنا رغم وضوح حسن مقصده فيما كتب وألف.

أما عبارة بونابرت فى أول الرواية مباشرة: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم" فحتى لو قلنا إنه لم يكن يؤمن بالله بل كان سياسيا بهلوانيا كل همه هو سحق الشعوب الأخرى وبناء مجد فرنسا ومجده الشخصى كما هو واضح من تصرفاته وأحاديثه وتعليقاته على مدار الرواية، فكيف ينطق بمثل تلك العبارة التى تشير إلى إيمانه بالله؟ يمكن الرد بأننا كثيرا ما ننطق بكلام لا يعبر عما فى أذهاننا واعتقاداتنا بل على نحو آلى كجواب الملحد عليك إذا سألته عن صحته وأحواله بـ"الحمد لله"، وإن كان من الممكن المجادلة لمن يشاء بأن بونابرت لم يكن يحاور أحدا بل كان يكلم نفسه. وفى مثل ذلك الوضع لا تجرى الإجابات الميكانيكية على اللسان. على كل حال يرى القارئ أن الموضوعات أحيانا ما يصعب بل قد يستحيل الوصول إلى حكم حاسم بشأنها.

ثم لدينا بعدها مباشرة ما يتخيل نابليون أن البحر المتوسط يناجيه به، وأهمّه أن البحر يخضع لصاحب القوة وأنه قد خضع قديما للفراعنة، وأنه على استعداد للخضوع له ولفرنسا ما دام يملك المدفع والبندقية: "ذات يوم يا بونابرته (بونابرت) كان الفراعنة هم سادتى، وبأمرهم أأتمر. لست منافقًا لكننى دائمًا أخضع للقوى، ولهذا تجدنى ألعب معك ولصالحك الآن ما دمت تملك المدفع الجبار والبندقية الحديثة. هو شاعر واهم من يتصور أننى أضحك له وأبكى، وأصارحك بأنه إذا تفوق عليك الأسطول الإنجليزى، الذى يتعقبك فى البحار، سأكون عونًا له عليك أيضًا يا صاحب العينين الرماديتين. أما أقاليم الخلافة (من العرب وغيرهم) فقد نَسِيتُهم ونَسُونِى، فهم دائمًا فى انتظار المدد من الغير أو من السماء، وهم غارقون فى عسل الأمنيات".

وهذه المقدمة هى خير مقدمة للرواية لأنها تقوم على محاولة استفزاز المؤلف للعرب والمسلمين على التحرك والنهوض مما هم فيه من ضعف وتخلف وهوان ورفع شعار "اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون" والعمل على تعويض التخلف العلمى والصناعى الذى طال وصار سمجا وخزيا وعارا وشنارا، فلعلهم يقفون فى وجه أعدائهم، الذين يريدون سحقهم ومحقهم والاستيلاء على خيرات بلادهم وتجويعهم وإفقارهم واستعبادهم. لكن لا أدرى لم قفزت الرواية من الفراعنة إلى نابليون مرة واحدة وأهملت سيادة العرب على البحر المتوسط طوال قرون، وهذه السيادة أقرب زمنيا من الفراعنة، فضلا عن أن الفراعنة لم يشتهروا بالتفوق البحرى والتمدد فى الشمال بل العرب. وعلى هذا فالحوار التالى بين فوفليه أحد قادة الحملة وبين نابليون: "ـ لقد قدم نظام الخلافة العثمانى (التركى) أروع هدية لنا، فتحت اسم وحدة المسلمين تم تجميد إقليم مصر وإفقارها على مدى ثلاثة قرون.

ـ صدقت فوفليه، فلو كانت مصر قوية ربما كان أحد الفراعنة يحكم باريس الآن، وربما كنا خدمًا فى بلاطه.

ـ تمامًا. ولهذا بعد اليوم سيتحدث العالم عن نابليون وليس عن رمسيس الثانى ".

ففضلا عن أن رمسيس الثانى أو غيره من ملوك مصر القديمة لم تكن له بعدُ هذه الشهرة بحيث يكون محور المقارنة بين مصر الفرعونية وفرنسا الحديثة فإن المصريين القدماء لم يهددوا يوما أوربا ولم يحدث أن حكم أحد ملوكهم فرنسا أو غيرها من البلاد الأوربية بل المسلمون هم من فعلوا ذلك. وذلك أمر معروف، فقد فتحوا الأندلس وأقاموا هناك حضارة عربية إسلامية لقرون ثمانية إلى جانب بعض المناطق فى جنوب أوربا، ومنها جزء من فرنسا، التى

كاد المسلمون يفتحونها بعد الأندلس لولا وقوف شارل مارتل فى وجههم. أما فى ظل الخلافة العثمانية فقد فتح الإسلام جزءا كبيرا من شرق أوربا، وبقى هناك حتى الآن ولم يُقْتَلَع كما وقع فى شبه الجزيرة الأيبيرية. فالمفهوم والمنطقى أن يشغل الإسلام وتاريخه دماغ نابليون لا الفراعنة. وعلى كل فالمصريون بوجه عام لم يكن فى ذهنهم أى اهتمام بتاريخهم القديم قبل الإسلام لأن الأغلبية الساحقة مسلمة. وكانوا ينظرون إلى بونابرت على أنه نصرانى ابن نصرانى لا فرنسى ابن فرنسى مثلا، ويَعُدُّ الواعون منهم كل ما يقوله لهم عن حبه للنبى محمد وجريه على منواله فى الغزو والفتوح وعن اعتناقه الإسلام ونيته فى بناء مسجد كبير باسمه وما إلى ذلك، كانوا يعدون هذا كله خداعا فى خداع ولا يصدقون النشرات التى كان يلصقها فى كل مكان يعبر فيها عن حبه إياهم ورغبته فى تقديم الخير لهم. وهذا يصدق على اعتناق كثير جدا من الفرنسيين الإسلام ولو ظاهرا وتزوُّجهم من بنات المسلمين وإقبالهم على تعلم اللغة العربية وقراءة القرآن. بل إن نابليون ذاته زعم أنه يحب الإسلام ويعمل على نصرته، وأنه ما أتى بجيشه إلا لمعاونة الخليفة العثمانى ضد المماليك. وأنا أنقل هذا أولا عن نقولا الترك اللبنانى النصرانى المحب للفرنسيين واللصيق بهم وبكبارهم، وعن الجبرتى ثانيا.

أَجَلْ أنا أعرف أن مبدع الرواية التى بين يدينا قصد التفخيم من شأن المصريين وتاريخهم وإبراز عراقتهم فى مضمار الحضارة، وأعرف أن من النقاد والأدباء من يرون أن من حق القصاصين والمسرحيين التصرف فى أحداث التاريخ وسيرة أبطاله بما يخدم غرضهم من تأليف ما يؤلفون، لكن هذا فى موضوعنا الحالى سوف يجور على تاريخنا الإسلامى القريب الذى لا يشغلنا غيره لحساب تاريخ موغل فى القدم لم يعد يشغلنا الآن لتغير اتجاه حياتنا

تغيرا جذريا منذ زمن طويل. ولقد كان المصريون فى ذلك الوقت يتطلعون دائما إلى الخليفة العثمانى وينتظرون العون العسكرى على الفرنسيين منه.

وبالنسبة لتصوير شخصية السيد محمد كريم فى الرواية فقد شعرت بالابتهاج حين قرأت أنه كان ينظم مقاومة الفرنسيين الخنازير سرا فى الإسكندرية (حيث كان واليًا عليها) وخارج الإسكندرية رغم أن نابليون لم يشأ فى البداية إنزال أى أذى به لمقاومته لجيشه ومنعه من النزول بالثغر حتى آخر لحظة، وأبقاه على عمله فى إدارة أمور الثغر، لكن لما اكتشف الفرنسيون أنه ظل باقيا على عهده فى الإشراف على المقاومة الوطنية رغم مركزه الإدارى قبضوا عليه، وقبل إعدامه عرضوا أن يطلقوا سراحه لقاء مبلغ من المال رفض أن يدفعه رغم استحثاث من حوله له على دفعه والنجاة برقبته، بيد أنه ظل مصرا على مواجهة الموت إيمانا منه أن العمر واحد، والرب واحد، ومضى إلى مصيره ثابت الجنان رابط الجأش مؤمنا بربه ووطنه لا يتزعزع ولا يساوم.

وسر ابتهاجى هو ما أذكر أنى قرأته فى تاريخ الجبرتى من رواية مختلفة عن مقتل محمد كريم تقول: "ومات الوجيه الأجل الأمثل السيد محمد كريم. وخبرُه أنه كان فى أول أمره قَبَّانِيًّا يَزِن البضائع فى حانوت بالثغر، وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة، فلم يزل يتقرب إلى الناس بحسن التودد ويستجلب خواطر حواشى الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ومن له وجاهة وشهرة فى أبناء جنسه حتى أحبه الناس واشتهر ذكره فى ثغر الأسكندرية ورشيد ومصر واتصل بصالح بك حتى كان وكيلا بدار السعادة، وله الكلمة النافذة فى ثغر رشيد وتملّكها وضواحيها واسترقَّ أهلها، وقلّد أمرها لعثمان نجا فاتحد بمخدومه السيد محمد المذكور، واتصل بمراد بك بعد صالح أغا فتقرب إليه ووافق منه الغرض ورفع شأنه على أقرانه وقلده أمر الديوان والجمارك بالثغر

ونفذت كلمته وأحكامه وتصدر لغالب الأمور وزاد فى المكوسات والجمارك ومصادرات التجار خصوصا من الإفرنج، ووقع بينه وبين السيد شهبة الحادثة التى أوجبت له الاختفاء بالصهريج وموته فيه. فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الإسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وضيقوا عليه وحبسوه فى مركب، ولما حضروا إلى مصر وطلعوا إلى قصر مراد بك، وفيها مطالعته بأخبارهم وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم، فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه إلى مصر وحبسوه، فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرار، فلم يمكن إلى أن كانت ليلة الخميس فحضر إليه مجلون وقال له: المطلوب منك كذا وكذا من المال. وذكر له قدرا يعجز عنه وأجله اثنتى عشرة ساعة وأن يحضر ذلك القدر، وإلا يقتل بعد مضيها. فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقى فحضر إليه بعضهم، فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث وصار يقول لهم: "اشترونى يا مسلمون"، وليس بيدهم ما يفتدونه به، وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشىء يصيبه. وذلك فى مبادئ أمرهم. فلما كان قريب الظهر، وقد انقضى الأجل، أركبوه حمارا واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة، ويقّدُمهم طبل يضربون عليه وشقّوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحا وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت وطافوا بها بجهات الرميلة، والمنادى يقول: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس. ثم إن اتباعه أخذوا رأسه ودفنوها مع جثته وانقضى أمره، وذلك يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول".

وقد استغرق الوصول إلى ذلك النص بعض الوقت حتى عثرت عليه عند الجبرتى من خلال بعض المناوشات البحثية وجدت أثناءها رواية أخرى

تتسق مع ما جاء فى رواية أ. نشأت المصرى وتتكرر هنا وهناك بنصها أو بنص قريب منه. وهذا مثال على ذلك، وهو مأخوذ من المادة الخاصة بالزعيم الوطنى الكبير فى "الموسوعة العربية العالمية":

"محمد كُرَيِّم (ت١٢١٣هـ-١٧٩٨م) من مناضلى مصر فى عهد الاحتلال الفرنسى. ولد ونشأ بالإسكندرية. كان فى أول أمره قبانيًّا (وزّانًا). ترقى إلى أن تقلد أمر الديوان والجمارك بثغر الإسكندرية. قاد المقاومة الشعبية المصرية ضد الفرنسيين عندما نزلوا الإسكندرية بقيادة نابليون. كان المصرىَّ الأول الذى التقى بالأسطول الفرنسى عند وصوله الإسكندرية، فقد بدأ فورًا فى العمل مع الصيادين والعمال فوق حصون الإسكندرية ليرد الفرنسيين عن وطنه، وظل يتلقى مع رجاله نيران مدافع الإفرنج. لم يستسلم عندما دكت المدافع حصون الإسكندرية، فبدأ معركة أخرى فى مداخل الإسكندرية لمقاومة زحف الفرنسيين إلى الداخل. اعتُقِل وحُمِل إلى نابليون، الذى حاول إغراءه وكسبه إلى جانبه، وذلك بأن أطلق سراحه ورد إليه سيفه. فعاد إلى تغذية حركات المقاومة بكل قوة. لجأ إلى الصحراء لإعداد المجاهدين وإرسالهم إلى صفوف المقاومة. وتزعم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السلمية حين حاول الجنرال كليبر، نائب نابليون، احتلال دمنهور. قبض عليه كليبر وحبسه فى إحدى البوارج الراسية فى أبو قير، ثم أرسله إلى نابليون بالقاهرة ليرى فيه رأيه فحوكم محاكمة صورية، وقُضِى بإعدامه".

وبطبيعة الحال فإن هذه الرواية الثانية هى التى تهش لها النفس وتتمنى أن يكون هذا هو الذى وقع، إذ طبقا لها تظل صورة بطلنا المغوار فى نقائها وسموقها مما يليق بتاريخ أبطالنا، الذين نحب أن يكونوا فوق الضعف والتهافت وأن يظل ثوب بطولتهم ناصعا بلا أية بقعة حتى لو لم تكن داكنة. وتذكرت

على الفور ما أحسست به حين كنت أشاهد فلم "زينب" على التلفاز فى ثمانينات القرن الماضى أيام كنت أشاهد التلفاز، وفوجئت بأن زينب فى هذا الفلم لم تمت بل عالجها أهلها ونهضت من مرضها واستأنفت حياتها وتزوجت ممن تحب وعاشت حياة موفقة سعيدة. لقد شعرت ليلتئذ أن زينب هذه هى بنت جيراننا، ولا تسل عن مدى غمى وهمى حين كنت أنتظر موتها بمرض عضال فى آخر الفلم، فإذا بها تنجو من هادم اللذات ومفرق الجماعات ومشتت المحبين عن الحبيبات، وتعيش. الله أكبر. أقول هذا وأنا أزعم أنى أشتغل بالنقد، وكان ينبغى ما دمت قد وضعت فى أم رأسى ألا أعبأ بالنهاية ما دام مؤلفها د. هيكل قد أحسن التمهيد لها. لكن ماذا نقول فى الضعف البشرى وكراهيتنا لقتامة الحياة وعشقنا لتحقيق الأمل؟ وبالمناسبة فقد أعيد قراءة بعض الروايات التى تنتهى نهاية لا أحبها ولا أتوقعها وأرى أنها كان يمكن من الناحية الفنية والواقعية أن تنتهى نهاية أفضل، فحين أعيد قراءتها أتصور أنها سوف تنتهى النهاية التى أحبها رغم علمى بطبيعة الحال أن الرواية لن تغير ما انكتب فى أوراقها قبلا.

ولست أود، الآن على الأقل، تحقيق الروايتين لمعرفة أيتهما هى الصواب. ولكنى أؤكد أن انتهاء حياة محمد كريم على الوضع الذى أوردته رواية "بونابرتة" هو النهاية المريحة لى: وطنيا ودينيا وعلى المستوى النفسى الشخصى. ولا أظن إلا أن هذا هو شعور القراء الآخرين. ولا ينبغى أن ننسى موقف النقاد والأدباء من أن للكاتب القصصى والمسرحى الحق فى التصرف بالتاريخ تبعا لما يراه من اعتبارات قومية أو إنسانية أو غير ذلك. ونشأت المصرى قد استعمل هذا الحق، وهو ما كان يستحق من أجله أن أرفع له القبعة لولا أنْ ليس لى قبعة ولا كَسْكِتّة ولا طربوش ولا عمامة ولا غترة ولا

حتى طاقية أو زعبوط، فليس أمامى إلا أن أترك رأسى كما هى وأرفع عينى ناحية السماء وأدعو له دعوة "وِلِيَّة" ساعة مغربية أن يقيه الله شر حسد النقاد من أمثالى ممن ينتظرون له هفوة، فإن لم يجدوها اختلقوها وحاسبوه حساب منكر ونكير، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فأنا لا أملك سوى هذه الدعوة، فلْيكتف مؤلفنا بها ولْيشكر الله عليها.

وكنا تهاتفنا ظهيرة اليوم (ثانى أيام عيد الأضحى١٤٤٦هـ) فى هذا الموضوع، وقلت له إنى قرأت، حسبما تحدثنى ذاكرتى، رواية أخرى عن إعدام السيد محمد كريم تصوره فى لحظات حياته الأخيرة هيابا للموت يستحث المصريين على مساعدته فى جمع الفدية المطلوبة لإنقاذ رقبته من القتل، فأنبأنى أنه هو أيضا قد قرأ هذه الرواية، لكنه أخذ بالرواية التى أصفها بـ"المبهجة". كذلك لا يفوتنى التنبيه إلى أن صورة السيد محمد كريم والى الإسكندرية فى تعامله مع التجار وأمثالهم، طبقا لما نقرؤه فى الجبرتى، ليست بالصفاء الموجود فى ترجمته بـ"الموسوعة العربية العالمية".

ومما قرأته كذلك فى الرواية، وله علاقة بالتاريخ، ما جاء فيها عن زينب ابنة الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف فى مصر من أنها كانت خليلة لنابليون، وهو ما لا أتذكر أنى قرأته من قبل، وبخاصة لدى الجبرتى. وقد حفزنى هذا إلى دراسة هذا الموضوع. وإلى القارئ أولا ما كتبه نشأت المصرى عن البكرى وبنته، إذ نوى نابليون فى أغسطس١٧٩٨، بعد استتباب الأمر الأَوَّلِىّ له فى مصر، الاحتفال بالمولد النبوى فى بيت الشيخ البكرى بوصفه مسلما ولبس عمامته وأحكم وضعها على رأسه. وقبل بدء الاحتفال وجه كلمة بالفرنسية إلى الجمهور الحاضر ترجمها أحد رجال الحملة.

يقول الأستاذ المؤلف (ص٥٦ وما بعدها): "واصل نابليون استخدام سلاح الخداع بادعاء الطيبة والسماحة واستمالة رجال الدين بمشاركتهم فى احتفالاتهم الدينية... قال نابليون لفوفليه:... إننى أتوقع مكسباً كبيرًا من هذه المشاركة، جهز لى جلباباً أبيض على النمط المألوف هنا، وسوف أكون بينهم غدًا فى بيت خليل البكرى نقيب الأشراف، واعتبر الموضوع سريًّا، ولا يجب أن يعرف البكرى أو غيره بهذه الخطة قبل وصولنا إلى باب بيته. ستكون مفاجأة كاملة لهم، وسيكون معى عدد من جنودنا يتخفون فى الجلاليب البيضاء أيضًا، وخارج البيت يحرسنا عدد كاف من رجالنا من أى اشتباك محتمل، وليكن دينون إلى جوارى، فهو حكيم لبق. والآن دعنى. سوف أدرب نفسى على التمثيلية. هذه هى سورة "الفاتحة". سأعيد قراءتها وحفظها: "بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين". يكفى هذا الجزء (سيكون الإسلام مطيتى إليكم. ستسعدون بنابليون فرعونكم القادم).

...

وسط استغراب المحتفلين الذين يرتدون الجلابيب، وبعضهم يلبسون عمائم على رؤوسهم... والوجوه بين باسمة وساهمة، جلس نابليون إلى جوار الشيخ البكرى، عيناه فى دوار متوتر متلاحق بين عيون الحاضرين، فكل منهم عدو لا يبين، حدث نابليون نفسه: أنا المبادر دائمًا، لا بد أن أقول كلمة لأحرك الرياح كما أهوى فى مسارات أقصدها. فور انتهاء قارئ القرآن من ترتيله، رفع نابليون يديه مشيرًا إلى أعلى، وإن ظل قاعدًا حمايةً لنفسه. ضبط عمامته على رأسه وحاول أن يرفع صوته ليبدو واثقًا بنفسه، ودينون يترجم كلمة بكلمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. نعم أيها الأحباب، فمن لا يعادينا هو حبيبنا، جئنا إليكم بالمحبة لنخلصكم من جرائم المماليك، وننشر العلوم، ونعمل بروح الإسلام الذى هو قريب جدًّا إلى قلوبنا، وأعدكم لن أضيع قطرة واحدة من النيل فى البحر، وسأقيم لكم أكبر المصانع والمزارع. اعتبرونى مبعوث الثورة الفرنسية، التى قامت منذ تسع سنوات إليكم. فمن يحكم مصر بإمكانه أن يغير التاريخ. ويمكنكم أن تنادونى من الآن بـ"الشيخ نابليون"، ولى الشرف أن أحظى بهذا اللقب.

ثم حياهم بيده من بعيد، ومد يده مصافحًا الشيخ البكرى، ثم أشار إليهم جميعا ليتحركوا نحوه ويصافحونه، ففعلوا. لكن نابليون لم يفصح عن سبب آخر لوجوده بينهم، وهو إعجابه الشديد بزينب ابنة البكرى، التى أصبحت من خليلاته لجسدها الرشيق وعينيها الناطقتين.

أما الشيخ البكرى فتجمعت فى وجهه غيوم الخوف والقلق معًا، وبالعربية رفع نابليون صوته فى النهاية قائلًا: الله أكبر! أكملوا طقوسكم، وأنا معكم، فقد أحببتكم.

... وراحوا يتطوحون، وحروف خشنة تخرج من شفاههم وحناجرهم مبحوحة، ومتماوجة: الله، الله، الله...

بدأ نابليون ينطق كلمات "الله، الله" تجاوبًا مع الإيقاع، ثم أمسك بلسانه، وشاهد ما انخرط فيه بعض الذاكرين من غياب عن الوعى. ومع تجليات حلقة الذكر الأخيرة،سقط أحد الذاكرين مغشياً عليه... فور إفاقة المغمى عليه ودع نابليون البكرى بحرارة، وحيا الجميع وكأنه صديقهم من القدم، وقال بصوت قوى: السلام عليكم، بارك الله فيكم. ومضى... (إلى) قصره حيث

سلمه فوفليه رسالة حية من كليبر تمثل فى الجميلة بولين فوريه، بناء على طلبه، وترحيبها، استقبلها نابليون بكثير من الرقة والشغف. قال لها: من الآن يأتمر الجميع بأمرك، أنت ملكة القصر وصاحبة بونابرته.

ـ وماذا عن زوجتك جوزفين، التى فى باريس؟

ـ لا أحب أن أذكرها أو أتذكرها. أنت كل النساء يا فاتنة القد والعيون".

هذا ما يقوله الأستاذ نشأت المصرى فى روايته، وقد أثارت العبارة العارضة فى النص الحالى عن زينب البكرية استغرابى. ترى هل وصلت الأمور فعلا إلى هذا الحد؟ أما الجبرتى فقد أمدنا بأشياء عن البيت الذى ولدت ونشأت وترعرعت فيه البُنَيّة لكنه لم يتطرق فى هذا النص إلى أنها كانت عشيقة لنابليون. لقد كنت أظن أنها كانت ناضجة وتخطت العشرين من عمرها بسنوات. لماذا؟ لأن ما قرأته عن جرأتها وانخراطها مع الفرنسيين وتقليدها لنسائهم وفى تلك الظروف الوطنية المهبّبة بهباب أسود لا يصدر إلا عن فتاة قارحة لا تبالى ولا توارى.

وهذا أولا أبوها، الذى كتب عنه الجبرتى فى تاريخه عند حديثه عن تشكيل الديوان الذى أمر به نابليون بونابرت بعد دخوله القاهرة: "وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة انفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات.

فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى

والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى وقلدوا محمد اغا المسلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى وإلى الشرطة وحسن اغا محرم امين احتساب وذلك باشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذا الفقار كتخدا محمد بك كتخدا بونابارته ومن أرباب المشورة الخواجا موسى كانوا وكلاء الفرنساوى ووكيل الديوان حنا بينو".

وفى حوادث عام١٢١٤هـ تعرض الجبرتى لهبة من هبات القاهرة ضد الفرنسيين، فكان من ضمن ما كتب: "وفى يوم الثلاثاء حادى عشره (من ربيع الأول) عمل المولد النبوى بالازبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتَعَشَّوْا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادَوْا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطناع مهرجان".

ومما دونه الجبرتى من حوادث هذا العام أيضا: "واتُّهِم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة، فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على اقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له أهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هالة ذلك واغتمَّ غما شديدا ووعده بخير وطيَّب خاطره وأخذه سيدى أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الحادثة".

وفى حوادث١٢١٦هـ "وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه طُلِبَتْ ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس، بمعينين من طرف الوزير فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إنى تبت من ذلك. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول إنى برى ء منها. فكسروا رقبتها، وكذلك المرأة التى تسمى: هوى، التى كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية وفتش عليها عبد العال وهجم بسببها عدة أماكن كما تقدم ذكر ذلك، فلما دخلت المسلمون وحضر زوجها مع من حضر، وهو إسماعيل كاشف المعروف بـ"الشامى "، أَمَّنَهَا وطَمَّنها وأقامت معه أياما فاستأذن الوزير فى قتلها فأذنه فخنقها فى ذلك اليوم أيضا ومعها جاريتها البيضاء أم ولده. وقتلوا أيضا امرأتين من أشباههن".

وفى وَفَيَات عام١٢٢٣هـ قال الجبرتى عنه: "مات الأجلّ المبجَّل والمحترم المفضَّل السيد خليل البكرى الصِّدِّيقى، ووالدته من ذرية شمس الدين الحنفى، وهو اخو الشيخ أحمد البكرى الصديقى، الذى كان متوليا على سجادتهم ولما مات اخوه لم يلها المترجَم لما فيه من الرعونة وارتكابه أمورا غير لائقة بل تولاها ابن عمه السيد محمد أفندى مضافة لنقابة الاشراف فتنازع مع ابن عمه المذكور وقسموا البيت الذى هو مسكنهم بالازبكية نصفين وعمر منابه عمارة متقنة وزخرفة وانشأ فيه بستانا زرع فيه أصناف الاشجار والفواكه فلما توفى السيد محمد أفندى تولى المترجم مشيخة السجادة وتولى نقابة الاشراف السيد عمر مكرم الاسيوطى فلما طرق البلاد الفرنساوية تداخل المترجم فيهم، وخرج السيد عمر مع من خرج هاربا من الفرنساوية إلى بلاد الشام وعرف المترجم الفرنساوية أن النقابة كانت لبيتهم وأنهم غصبوها منه فقلدوه إياها واستولى على وقفها وإيرادها وانفرد بسكن البيت، وصار له قبول عند الفرنساوية، وجعلوه

من أعاظم رؤساء الديوان الذى كانوا نظموه لإجراء الاحكام بين المسلمين، فكان وافر الحرمة مسموع الكلمة مقبول الشفاعة عندهم فازدحم بيته بالدعاوى والشكاوى واجتمع عنده مماليك من مماليك الأمراء المصرية الذين كانوا خائفين ومتغيبين وعدة خدم وقواسة ومقدم كبير وسراجين وأجناد، واستمر على ذلك إلى أن حضر يوسف باشا الوزير فى المرة الأولى التى انتقض فيها الصلح ووقعت الحروب فى البلدة بين العثمانية والفرنساوية والأمراء المصرية وأهل البلدة، فهجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعَرَّوْه عن ثيابه وسحبوه بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية، وبها عثمان كتخدا الدولة، فشفع فيه الحاضرون وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك، وأخذه الخواجا أحمد بن محرم إلى داره وأسكن روعه وألبسه ثيابا وأكرمه وبقى بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة، وظهرت الفرنساوية على المحاربين لهم، وخرجوا من البلدة، واستقر بها الفرنساوية، فعند ذلك ذهب إليهم وشكا لهم ما حل به بسبب موالاته لهم، فعوضوا عليه ما نُهِب له ورجع إلى الحالة التى كان عليها معهم. وكانت داره أخربها النهابون، فسكن ببيت البارودى بباب الخرق ثم انتقل منه إلى بيت عبد الرحمن كتخدا القازدغلى بحارة عابدين وجدد بها عمارة. وكان له ابنة خرجت عن طورها فى أيام الفرنسيس، فلما أشيع حضور الوزير والقبودان والإنكليز وظهر على الفرنساوية الخروج من مصر فقتل ابنته المذكورة بيد حاكم الشرطة. فلما استقرت العثمانية بالديار المصرية عُزِل المترجم عن نقابة الاشراف وتولاها السيد عمر مكرم كما كان قبل الفرنساوية، ولما حضر محمد باشا خسرو أنهى إليه الكارهون له بأنه مرتكب للموبقات ويعاقر الشراب وغير ذلك، وأن ابنته كانت تذهب إلى الفرنسيس بعلمه، وأنه قتلها خوفا وتبرئة لنفسه من الشهرة التى لا يمكنه سترها ولا يُقْبَل عذره فيها ولا التنصل منها، وأنه لا يصلح

لمشيخة سجادة السادة البكرية. وعرّفوه أن هناك شخصا من سلسلتهم يقال له: الشيخ محمد سعد. وهو من جملة أتباع المترجم ولكنه فقير لا يملك شيئا ولا دابة يركبها، فقال الباشا: أنا أواسيه وأعطيه. فأحضروه له بعد أن ألبسوه تاجا كبيرا وثيابا، وهو رجل مبارك طاعن فى السن فألبسه فروة سمور وقدم له حصانا معدا وقيد له ألف قرش، وسكن دارا بناحية باب الخرق، وتَرَيَّشَ حالُه وخمل أمر المترجَم، واشترى دارا بدرب الجماميز بعطفة الفرن، وكان بظاهرها قطعة جنينة، فاشتراها وغرس بها أشجارا وحسّنها وأتقنها وبنى له مجلسا مطلا عليها، وبالأسفل مساطب ولواوين جلوس لطيفة، واشترى دارين من دور الأمراء المتقدمين بظاهر ذلك وهدمهما وبنى بأنقاضهما وأخشابهما، وباع ما كان تحت يده من حصص الالتزام، وسدد بأثمانها ديونه واقتصر على إيراده فيما يخصه من وقف جده لأمه الأستاذ الحنفى وتصدى لفاقته وأذيته أنفار من المتظاهرين مثل السيد عمر مكرم النقيب والشيخ محمد وفا السادات وخلافهما حتى إنه كان عقد لابنه سيدى أحمد عَلَى بنت المرحوم محمد أفندى البكرى، فتعصبوا عليه بعد عزله من المشيخة والنقابة وأبطلوا العقد وفسخوا النكاح ببيت القاضى وتسلط عليه من له دين أو دعوى أو مطالبة حتى بيَّعوه حصصه. وكان قد اشترى مملوكا فى أيام الفرنساوية جميل الصورة، فلما حصل له ما حصل ادعى عليه البائع أنه أخذه بدون القيمة ولم يدفع له الثمن، فلم يثبت عليه ذلك. وكان المملوك ذهب من عنده، وتم الأمر والمصالحة على أن عثمان بك المرادى أخذ ذلك المملوك لنفسه. وقد تقدم ذكر قصته فى الحوادث السابقة. ولم يزل المترجم على حالة خموله حتى تحرك عليه داء الفتق ومات على حين غفلة فى منتصف شهر ذى الحجة وصلى عليه بمسجد جده لامه الشيخ شمس الدين أبو محمد الحنفى ودفن عند أسلافه بمشهد السادة البكرية بالقرافة رحمه الله وعفا عنا وعنه".

وكتب الجبرتى فى حوادث عام١٢٢٨هـ: "وكان السيد خليل البكرى اشترى دارا بدرب الفرن، وذلك بعد خروج الفرنساوية وخمول أمره وعزله من مشيخة البكرية والنقابة وأنشا بها بستانا أنيقا وأنشأ قصرا برسم ولده مطلا على البستان. فلما توفى السيد خليل تعدى على ولده سيدى أحمد وقهره وأخذ منه ذلك البستان بأبخس الأثمان وخلطه ببستان الدار الجديد وبنى سوره وأحاطه وأقام حائطا بينه وبين دار المذكور وطمسها وأعماها وسدت الحائط شبابيك ذلك القصر وأظلمته. ولم يزل كلما طال عمره زاد كبره وقل بره وتعدى شره. ولما ضعفت قواه تقاعد عن القيام لأعاظم الناس إذا دخل عليه محتجا بالإعياء والضعف ولازم استعمال المُنْعِشات والمركَّبات المفرحة، ولا يصلح العطار ما افسد الدهر".

وفى حوادث١٢١٥هـ: "ومنها تبرُّج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء. وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطُّرَح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن. وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فَزَيَّوْهُنَّ بزِى نسائهم وأَجْرَوْهُنَّ على طريقتهن فى كامل الأحوال، نخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع

أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلْب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهن لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شمتته أو ضربته بتاسومتها، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصا عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم، فيُظْهِر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيهم ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهى والمناداة. وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم، وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم ويأمرن ويَنْهَيْن فى الأحكام.

ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فى السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب والمراقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت فى تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم، وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رؤسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم شىء كثير.

وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا، فرادى وأزواجا، فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك".

وبعد الجبرتى ننتقل إلى بعض كتّاب العصر الحديث: ذكر أحمد حافظ عوض فى كتابه: "نابليون بونابرت فى مصر" (فى الفصل المسمى: "العودة لمصر من سورية")، والكتاب من إصدارات سنة١٩٢٥فى طبعته الأولى، أنه "فى صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم "١٤ يونيه" جمع الفرنساويون فى القاهرة أهل المدينة من شيوخ وأعيان وموظفين وعامة وسوقة، وأقيمت الزينات ودقت الطبول وعزفت الجوقات الموسيقية عربية وإفرنكية، وتوشح كل ذى حيثية بالملابس المزخرفة، وتألف من الجنود والأهالى موكب عظيم، خرج من الأزبكية فى صباح ذلك اليوم، يستقبل نابوليون بونابرت خارج المدينة، وكان هو قد عسكر بجيشه فى المنطقة الواقعة بين سراى القبة والعباسية، وكانت تسمى هذه الجهة بالعادلية واليوم يقال لها الوايلية التى هى فى الحقيقة جزء منها، وقد وصف كثيرون من كُتّاب الفرنساويين، ذلك الموكب المنظم والاحتفال الفخم الذى قوبل به نابوليون بعد عودته من سورية لمصر وبالغوا فيه، وكان هو أول المبالغين فى وصفه لحكومة الديركتوار! وليس لدينا فى اللغة العربية غير أقوال الشيخ الجبرتى والمعلم نقولا، والأول لا يزيد فى الوصف على كلمات موجزة، والثانى لم يذكر شيئاً عن الهدايا الفاخرة التى قدمها التجار بالقاهرة وأعيانها وأشرافها لنابوليون، وذلك بالطبع، كما نعرف أمور بلادنا، بناء على تحريضات أوامر من الحكام الفرنساويين، وكان أكثر الناس تملقًا وتزلفًا لنابوليون الشيخ خليل بكرى الذى لم يزل نقيب الأشراف، مع حضور السيد عمر مكرم من يافا، فقد قدم الشيخ خليل من أنواع الهدايا جوادًا عربيًّا كريمًا

يقود زمامَه "رسمٌ" ذلك المملوك الذى اشتهر فى أوروبا وبقى ذكره فى التاريخ خالدًا بجوار اسم نابوليون، لأنه سافر معه إلى فرنسا وبقى معه مرافقًا له فى غدواته، وروحاته، وغزواته وانتصاراته، حتى كان يلقب: "مملوك الإمبراطور"، وكانت له فى قصر النوبارى مكانة معروفة، ولم يكن رسم هذا هو ذلك المملوك الذى كان له مع الشيخ البكرى حكايات مر بها الجبرتى مرور النسيم! بل كان واحدًا من مماليك كثيرين للشيخ البكرى الذى قدم لنابوليون، عدا الجوارى والمملوك، هدايا كثيرة فاخرة ثمينة، فكان سرج الجواد مطرزًا بالذهب واللآلى واليواقيت، وأهداه أيضًا عددًا من الهُجُن السريع الخطا، وقدم له أيضًا الجوارى الحسان من الجركس والحبشان، والشيلان الكشميرية والأسلحة ذات القبضات المحلاة بالذهب والجواهر الكريمة، إلى غير ذلك من العطر والعود والصندل والأقمشة الحريرية من صنع الهند والصين.

والخلاصة أن الشيخ خليل البكرى، غفر الله له وتجاوز عن سيئاته، لم يدخر وسعًا فى إرضاء الفرنساويين، فجاد بخير ما عنده، وتجاوز الأمر حتى قالوا إنه جاد بعرضه! فقد روى ثقاة المؤرخين أن ابنة الشيخ خرجت عن حدود الحشمة وسلكت مع الفرنساويين مسلكًا شائنًا فوصمت بيت البكرى بوصمت عار لا تُمحى، وقد روى الشيخ الجبرتى، وهو عفيف القلم، تلك الرواية وهو يتململ غيظًا، وقال: إن أعداء الشيخ اتهموه بأن خروج ابنته مع الفرنساويين كان بعلمه ورضاه، والعياذ بالله، وروى بعضهم أنها كانت تسقى أباها وضيوفه من كبار القواد الفرنساويين الشراب فكان ما كان، ولكن هذا على ما أعتقد غير صحيح، وأغرب ما فى حكاية هذه الفتاة وقصتها الغريبة التاريخية ما روته الكاتبة "جيهان ديفرى " فى كتابها عن نابوليون فى مصر، فقد أكدت أن ابنة البكرى "وذكرت أن اسمها زينب البكرية" كانت معشوقة

نابوليون بونابرت نفسه، ونحن ننقل روايتها هذه بكل تحفظ، لأننا لا نعرف على أى المصادر اعتمدت هذه الكاتبة الباحثة، إذ من الجائز أنها اعتمدت على مذكرات أو مصادر لم نوفق إلى العثور عليها.

ورواية جيهان ديفرى هى أنه كان لنابوليون بونابرت فى مصر معشوقة اسمها بولين فوريس (Pauline Fourès) وكانت من قبل خاطئة من بلدة كاركاسون (Carcassone) فى فرنسا وتزوجت من الضابط فوريس، وكان رجال الجيش يعلمون بعلاقة القائد العام بها، وكذلك كان يعرف المصريون، وكانوا يسمونها: "ست السلطان الكبير"، فحدث فى زيارة ابنة البكرى وأمها لتلك السيدة الفرنسية أن وقع نظر نابوليون على الفتاة العذراء ابنة سليل بيت الصديق، فأعجب بظرفها وشكلها الشرقى، وكانت الأخبار قد وردت إليه من فرنسا بسوء سلوك زوجه جوزيفين وأخبار علاقاتها ببعض الضباط فى باريس، ومهدت له بولين الاجتماع بزينب، واتخذها خليلة أخرى له، وكان الفرنسيون يسمونها: "(La petite Egyptienne du Général" كما كانوا يسمون بولين فوريس: "Notre Dame de l'Orient". وروت كاتبة هذه الرواية أن حب نابوليون لزينب لم يدم طويلًا، لأن بولين مكرت بالفتاة وغيرت ملابسها الشرقية بملابس باريسية وقامت لها بالتطرية الغربية، ففقدت ميزتها وغوايتها لدى نابوليون ومال قلبه أكثر إلى بولين.

واتخذ كاتب إنجليزى من كتّاب الروايات الخيالية الممزوجة بالحوادث التاريخية حادثة ابنة البكرى جزءًا من موضوع رواية اسمها "المملوك المفقود" تتداولها الأيدى فى كل مكان وزمان، ولكن مؤلف هذه الرواية وصف الشيخ البكرى بأنه كان متألمًا، وأنه كان يسير فى شوارع القاهرة ليلًا نادمًا صاخبًا على ما أصاب ابنته. وذكر مؤلف الرواية اسم تلك الفاجرة، وقال إنها

هامت بحب كولونيل فرنسى وكيفما كان الحال فقد لاقت جزاءها بعد خروج الفرنسيس وعودة المماليك والأتراك، إذ قطعوا رقبتها أمام والديها.

ومن أغرب الأمور أن ذلك يحصل ونابوليون بونابرت، وهو شبه ملك لفرنسا "القنصل الأول"، لا يستطيع أن يخلص الفتاة التى عبث بعفافها من القتل!" (نابوليون بونابارت فى مصر/ ط. هنداوى / ٢٠١٣/ ٣٠٩- ٣١١).

وهناك مقال بعنوان "من هى زينب البكرية فتاة القائد؟" (منشور بتاريخ الجمعة ٤ من ربيع الأول١٤٤١ هـ١ نوفمبر ٢٠١٩ بجريدة "الأهرام") بقلم محسن عبدالعزيز: "بينما كانت سيدات مصر وفتياتها يسطرن أسطع الآيات فى مقاومة الحملة الفرنسية وجنودها بجانب الرجال، كانت زينب البكرى أو فتاة القائد المصرية كما كانوا يطلقون عليها تعيش أحلى أيامها فى أحضان نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية. فما هى حكاية زينب البكرى هذه؟

كان نابليون بونابرت فرض على رجال الحملة الفرنسية عدم اصطحاب النساء والفتيات خلال حملته على مصر، ورغم ذلك استطاعت ٢٠٠ امرأة ما بين مغامرة وغانية مرافقة الحملة والتى وصل عددها إلى ٥٥ ألف جندى، لذلك كثر اعتداء الفرنسيين على النساء المصريات، لكن حكاية زينب البكرى فتاة القائد حكاية أخرى تماما.

أبوها هو خليل البكرى كان يتوق لمنصب نقيب الأشراف، وعندما هاجر السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى الشام بعد مقاومته العظيمة لحملة نابليون بونابرت وجدها فرصة وراح يتودد إلى نابليون ويحمل له الهدايا.

ولأن بونابرت كان يريد التقرب إلى المصريين كما نعلم فإنه استغل مناسبة ذكرى الاحتفال بالمولد النبوى وأمر أن يقام هذا الاحتفال فى منزل

السيد خليل البكرى، وذهب بنفسه ليحضر هذا الاحتفال، وبعدها بأيام صدر قرار بتعيين السيد خليل البكرى نقيبا للأشراف، لكن الأكثر إثارة وأهمية من ذلك أن منزل البكرى أصبح هو المكان المفضل لسهرات نابليون بعد أن التقى بزينب ابنة البكرى وكان عمرها ستة عشر عاما فقط، وأعجب بها بونابرت وهام بها حبا وهامت به وأصبحت فتاة القائد المصرية.

وكان المصريون يراقبون ما يحدث بين قائد الحملة الفرنسية وابنة نقيب الأشراف فى غضب مكتوم، وبمجرد أن غادر نابليون مصر، ثار الناس وذهبوا إلى منزل خليل البكرى وأخرجوا الشيخ وحريمه وأولاده وساقوه فى شوارع القاهرة حافى القدمين عارى الرأس، ولم ينقذه من غضب الثائرين إلا السيد أحمد محرم أحد كبار تجار القاهرة. وبعدها تم عزله من نقابة الأشراف ليصبح عمر مكرم نقيبا مرة أخرى عقب عودته إلى مصر.

أما ابنته زينب فكانت نهايتها مختلفة تماما يصفها عبدالرحمن الجبرتى فى يومياته قائلا: فى يوم ٤ أغسطس١٨٠١ فى هذا اليوم طُلِبَتْ ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين، بواسطة معينين من طرف الوزير، فحضروا إلى بيت أمها بالجودرية بعد المغرب، وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعل، فقالت: إنى تبت عن ذلك. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: إنى برئ منها. فكسروا رقبتها.

لكن يظهر أن زينب البكرى التى كسروا رقبتها لم تمت تماما، بعد أن تسللت روحها إلى كثير من المؤسسات وأصبح فى كل مؤسسة "مدرسة، مستشفى، شركة، جامعة" توجد زينب البكرية عينها على القائد مباشرة تستمد منه سلطة وقوة وبطشا فلا يستطيع أحد الوقوف أمامها...".

وفى صحيفة "اليوم السابع" بتاريخ الأحد ٩ فبراير ٢٠٢٠، وتحت عنوان "حكايات غوانى الحملة الفرنسية فى مصر من الاختيار للنعيم لقصف الرقبة- صورة متخيلة لزينب البكرى " كتب أحمد إبراهيم الشريف: "جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام١٧٩٨ يقودها الجنرال نابليون المثقل بأحلامه والممتلئ بالتصورات عن الشرق، وكان ضمن هذه التصورات ما يتعلق بالنساء.

تقول كتب التاريخ: "عرض على نابليون ٦ فتيات فاختار أقلهن وزنا وأطولهن قامة وأخفهن رائحة" فكانت زينب ابنة الشيخ البكرى، مع العلم بأن الكثير من النساء قلدن "نساء الفرنسيس" ومعظمهن من الفاسقات الفاجرات المتهتكات بحسب وصف الجبرتى، ولم يذكر اسما سوى اثنتين "زينب البكرية وهوى ".

زينب البكرى سليلة عائلة من أشراف مصر، عندما فر الشيخ عمر مكرم هاربًا بعد مقاومته الشديدة للفرنسيين، وجدها الشيخ خليل البكرى فرصة ذهبية فتقرب إلى نابليون بونابرت وكان نديمه فى شرب الكأس وأهدى نابليون خادمه "رستم زاده" الذى أخذه نابليون معه فى رحلة سفره سرًا إلى فرنسا، كما كان الوحيد الذى ظل معه حتى لفظ نابليون أنفاسه الأخيرة فى جزيرة سانت هيلانة.

لم تكن زينب البكرى تكمل ستة عشر عامًا من عمرها. يقول بعض المؤرخين إن زينب "فُتِنَتْ" بالغازى نديم أبيها والضيف الدائم فى منزلهم والذى وضعه عَنْوَةً فى منصب نقيب الأشراف، وأنها تسللت ليلا بعلم الوالد إلى مخدع نابليون، ويقول آخرون، إنه بعد هروب جوزفين عشيقة نابليون إلى فرنسا كان حزينا مكتئبا، فأراد قواده الترفيه عنه فقدموا له "ست" فتيات من أجمل بنات الأعيان فى مصر منهم زينب البكرية، وهى التى اختارها نابليون

لطول قامتها وقلة حجمها مقارنة بالأخريات. ويؤكد الجبرتى أن زينب عاشرت نابليون ولكنه لم يحدد المدة الزمنية بينما يقول بعض المؤرخين إنها كانت عشيقته لليلة واحدة فقط، وإن نابليون كان يكره رائحتها الثقيلة على أنفه. وعندما هرب سرا صارت زينب ترافق العديد من قواد الجيش الفرنسى وتشرب معهم الخمر. وكما قال الجبرتى صارت تلبس الفستانات وتسير مكشوفة بين الناس، وبمجرد خروج آخر جندى فرنسى فتك بها المصريون فى محاكمة علنية وعقاب جماعى.

كتب الجبرتى يصف موتها فيقول: "وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينة طُلِبَت ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين، بمعينين من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجوديرية بعد المغرب وأحضروا والدها فسألوها عما كانت تفعل، فقالت: تبت من ذلك. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: إنى برى ء منها. فكسروا رقبتها" ولكن خطاب باكثير قدم شخصية زينب بصفتها "الوطنية الواعية العاقلة" معتمدًا على أن الجبرتى "لم يذكر أنها كانت عشيقة لنابليون، ولكنها الشائعات التى ربطت بينها وبين نابليون لصلة والدها الشيخ خليل البكرى ".

أما "هوى" المرأة المصرية التى كانت زوجة أحد عساكر الإنكشارية العثمانية الذى تركها وهرب إلى الصعيد مع الجنود المهزومة مع مراد بك وإبراهيم بك المملوكين، وتركها مريضة بالحمى، وعندما هجم جنود الفرنسيين على بيوت المماليك والعثمانين ضربوا المرأة المريضة الوحيدة، وتعاطف معها أحدهم ومنع زملاءه من الفتك بها، وعاد إليها فى اليوم التالى يحمل طعاما والكثير من الرفق والأمان. وطوال ثلاث سنوات عاشت "هوى " مع رفيقها الفرنسى، الذى رفض أن تصحبه إلى حيث يمضى، وعندما عاد الزوج وعلم ما

كان من سيرة زوجته لم يلم نفسه ولم يرحمها، وفى الصباح بينما تغرق فى النوم والأمان المخادع هجم عليها وقصم رقبتها".

وثم مقال آخر عنوانه "مقصوفة الرقبة بنت الشيخ البكرى!" (منشور فى١٥ أغسطس ٢٠٢٣ فى موقع "حريات") بقلم د. محمود عطية: "زينب البكرية ابنة خليل البكرى نقيب الأشراف وقت الحملة الفرنسية١٧٩٨م.تجمعت حولها كل مآسى الحياة لانفتاحها نفسيا على الدنيا وحبها للحياة، وقد كلفها ذلك أن تم الزج بها داخل أتون الشائعات التى أودت "برقبتها قصفا" فى محاكمة سريعة ظالمة، وقد تبرأ منها والدها تحت نير وضغط المشايخ وخوفًا على حياته. وحتى الآن لم يعرف لها قبرًا!

فقد اشتهرت زينب البكرية رغم حداثة سنها١٦ عاما بجمالها وحسنها الفائق وتناسق جسمها وعشقها للحياة، فقد اعتادت على الضحك بصوت عال مع صديقاتها فى الطرقات فكانت مازالت فى طور الطفولة.لكن المجتمع كان لا يرحم ويرى أن ضحكها يعد جرما خاصة فى ذلك الزمان، حتى أن البعض رأى أنها كادت تشبه الفرنسيين فى الانفتاح على الحياة فى مجتمع شديد التزمت!

وقد أغضب ذلك بعض المشايخ المصريين خاصة أن زينب قيل إنها من أشراف مصر المنتسبين إلى الخليفة الراشد أبو بكر الصديق، وعمها نقيب الأشراف وشيخ السجادة البكرية.

وكان من المفترض أن يتولى أبوها نقابة الأشراف، لكن المشايخ وقفوا فى طريقه لعيبٍ كما قيل فى الشيخ، وهو ولعه بالغلمان كما جاء ذلك فى تاريخ الجبرتى، وتولى بدلا منه الشيخ عمر مكرم، الذى فر هاربًا بعد مقاومته للحملة

الفرنسية. وانتهز ذلك الشيخ خليل وتقرب من نابليون وأصبح صديقًا له وتمكن من اعتلاء سدة نقابة الأشراف مما أوغل الصدور عليه. وقد تعرض لمحاولة اغتيال يرويها الجبرتى حيث قال: "هاجمه أناس كثيرون وصفهم الجبرتى بـ"المتهورين من العامة"، فنهبوا منزله وهتكوا حرمة منزله وعَرَّوُا البكرى من ملابسه فضلا عن اعتدائهم على نسائه وسحبوه من بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية، وبها عثمان كتخدا الدولة، فشفع فيه الحاضرون وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك".

وقيل إن نابليون قد تعرف على الفتاة الصغيرة زينب البكرية ابنة الشيخ وقبلها للعمل فى منزله. وسريعا تم تسريب شائعة بوجود علاقة بينها وبين نابليون. ومع ذلك لم يتوافر أى دليل ولا حتى شهود على تلك العلاقة غير الشرعية التى ألصقت بالفتاة.

وحين روى نابليون حكاياته مع عشيقاته لم يذكر من بينهن زينب البكرية بتاتا... لكن ربما صراع المشايخ بعد رحيل الحملة كان سبباً فى تلويث سمعة تلك الفتاة. فقد تولى الشيخ خليل البكرى نقابة الأشراف بسطوة وقوة نابليون. ويبدو أنه يدفع الثمن بعد رحيل الحملة فى قصف رقبة بنته وتجريده من منصبه. وتم محاكمة بنته زينب بالشائعات فقط التى يفتى الشرع بتنفيذ تلك العقوبة فى حال وجود دليل شرعى وأربعة شهود، كما أنها لم تكن متزوجه حتى تقتل!

فحين رحل نابليون ثم غادرت حملته الفرنسية مصر١٨٠١م انصبّ الغضب على الشيخ خليل بسبب الشائعات التى طالت بنته زينب ورفيقاتها، فأرسل الوزير جنوده إلى بيت الشيخ خليل البكرى، وسألوا زينب عما يشاع عنها، فقالت خوفا ورهبة: "إنى تبت عن ذلك"، والأب تبرأ من ابنته. والمثير

أنه لم يكن شائعا فى ذلك الزمان تعرُّض النساء لعقوبة الإعدام، ومع ذلك حكم عليها وتم قتلها بطريقة شديدة البشاعة، فقد انتصبت واقفة ثم جى ء من خلفها من قصف رقبتها ليًّا، لتصبح أول مقصوفة رقبة فى تاريخنا.

وقد سرد الجبرتى تفاصيل تلك المحاكمة قائلًا: "وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه - أى فى ٢٤ ربيع الأول سنة١٢١٦ هجرية، الموافق ٤ أغسطس سنة١٨٠١ ميلادية، طُلِبَت ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس بمعيَّنين من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها، فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إنى تبت من ذلك فقالوا لوالدها: ما تقول أنت فقال: أقول إنى برى ء منها. فكسروا رقبتها ليًّا".

ويكتب أحد الباحثين عن تلك المحاكمة: "إن قتل زينب البكرية هو حالة مرضية من الانحياز للذات المتعفنة بكل عجزها وتخلفها وتناقضاتها والتى اختزلت وقائع الخيانة فى "حادثة شرف" ودون أن تلقى بالًا لما فعله خونة الأوطان من المتواطئين والموالسين والمدلسين، وأصبحت زينب البكرية يضرب بميتتها المثل على البنت العاقة: مقصوفة الرقبة".

وكما يرى القارئ فإن شخصية خليل البكرى تحيط بها رائحة غير مريحة، فقد كان مقربا من نابليون ويعمل كل ما فى وسعه لإرضاء ذلك المجرم الذى بذل كل جهوده فى إذلال مصر وأهلها وقتل الآلاف المؤلفة واعتدى وجنوده على أعراض المصريين، فكان يهاديه ويحول بيته إلى حضرة فى مناسبة المولد النبوى الشريف... إلى آخر ما أوردناه قبل قليل. كما أن بنته لم تقصر فى الانحياز إلى الفرنسيين، وكانت من رائدات التحرر الأخلاقى فى مجال العلاقات بين الرجال والنساء، فضلا عن أن أولئك الرجال هم من غير

المسلمين فوق أنهم محتلون للوطن يسرقون خيراته ويهينون رجاله وكباره ويقتلون أحراره، وإن كنا لا نستطيع الجزم بأنها كانت عشيقة لنابليون أو غيره رغم ما قيل فى الكتابات العربية والأجنبية عن أنها كانت "ترافق" ذلك السفاح. والغريب أن يحوّل أحد من تناولوا هذا الموضوع، كما قرأنا آنفا، من خيانة للوطن وانتهاك لكرامته وانحياز لأعدائه ومسايرة لمن قتلوا رجاله وشبابه ونساءه وفتياته ومجاهديه وعلمائه وارتماء فى أحضانهم وفرحهم بانتصارهم على المصريين فى ثوراتهم الأولى، فيأتى ذلك الكاتب ويجعل الموضوع موضوع حد زنا، ويتساءل: هل يصح أن يطبق هنا حد الزنا على زينب؟ وإذا كان فهل حد الزنا بالنسبة لها هو حد القتل؟ وليت المسألة وقفت هنا بل رأيناه يؤكد ما معناه أن ما صنعته تلك الفتاة إنما هو تعبير عن عشقها للحياة، وأن من قتلوها خونة منافقون أغبياء. وهذا تمييع للموقف وتحريف له عن مساره من خلال قوله بأن المشكلة ليست فيما فعلته البنت البكرية بل هى خيانة الخائنين للأوطان. وهل ما فعلته زينب هو تعبير عن الإخلاص للوطن والتفانى فى حبه ومنفعته؟ فانظر، أيها القارئ العزيز، كيف فجرت بضع كلمات عن تلك الفتاة فى الرواية التى بين أيدينا كل اهتمامى وأثارت شهيتى لدراسة هذه القضية التى شغلتنى منذ قرأتها لدن الجبرتى وغيره! وللمفارقة فإن نشأت المصرى، حينما سألته قبل تحقيقى ذلك الموضوع من أين استقى أنها كانت عشيقة نابليون كان جوابه أنه كتبها هكذا، والسلام. وقد تقبلت منه هذا الرد دون مراجعة، لكنى الآن أتصور أنه قرأ هذا الموضوع عند هذا الكاتب أو ذاك لكنه نسى الأمر إلى أن انخرط فى تأليف الرواية، فَحَسِبَ أن تلك الكلمات هى بنت ساعتها. وهذا يحدث لى أنا أيضا بين الحين والحين.

ورغم هذا كله فإن مؤلفنا الأستاذ نشأت المصرى لم يتحدث عن زينب البكرية بأكثر من بضع كلمات سريعة هنا وهناك أشار فيها إلى أن بونابرته، حسبما ينطق اسمه، قد وقع فى غرامها لتكرر رؤيته لها لدن تردده على بيتهم إذ كان أبوها من كبار رجال الدين، فهو نقيب الأشراف البكريين، ويعمل بكل طاقته على راحة نابليون ويقيم حضرات المولد وما شابه عنده. وقد كانت رشاقتها وطول عودها سببا فى سقوطه عشيقا لها. وأغلب الظن أنه يريد إلى القول بأن بعض رجال الدين المسلمين لا يتورعون عن التعاون مع الأعداء المحتلين تحت هذه الذريعة أو تلك، وأن الأمم المهزومة قد تصل فى الانبهار بعدوها المنتصر عليها إلى الحد الذى وصلت إليه زينب وأمثالها من النساء الحمقاوات التافهات الخفيفات العقل اللاتى لم يجدن فى بيوتهن من يربيهن على العزة والاستقامة والكرامة بل لم يرين فى آبائهن سوى الانبطاح أمام العدو المجرم. وكنت أود لو أعطاها المؤلف صفحات أكثر يتتبع فيها امتزاج حياتها بالفرنسيين ونابليون متخيلا ما وقع لها معهم مما قادها إلى تلك النهاية الشنيعة.

وتعقيبا على رأى من رأى أن ما صنعته الفتاة إنما هو تعبير عن عشقها للحياة ينبغى أن نوضح أَنْ ليست المسألة مسألة عشق للحياة، بل عشقا للوقاحة والانحراف والانجراف إلى المناطق المظلمة المريبة وتحدى العرف والرأى العام والتمرد على قيم الدين وسبيله المستقيم. وليس فى ما فعله المصريون مع زينب وشبيهاتها غرابة، فكل الشعوب تتصرف هذا التصرف فى هذا الموقف. أما إذا قيل إنها كانت تعشق الحياة فلعنة الله على حياة تدفع إلى مثل هذا العشق السام. إنه ليس عشقا للحياة بل فراغ عقل وموتان ضمير وخيانة وغدرا وتماهيا مع العدو المتوحش فى ظروف بشعة تجعل حتى الجمادات تتعاطف مع البشر

من حولها. هذا ما فهمته من تضمين المؤلف روايته تلك الكلمات القليلة العارضة التى تقول الكثير رغم هذا. والله أعلم.

ولو كان يصح لَىُّ الحقائق وتسمية ما عملته زينب "عشقا للحياة" لكان ينبغى ألا ندين قتل الإنسان لأخيه بل علينا تسميته: "تسلية ووسيلة للتخلص من الملل"، وتسمية الرشوة وخيانة الوطن من أجل المال والمنصب: "شَبْرقة ورغبة فى القُبُوب على سطح الدنيا"، وتسمية المومس: "ناشرة للبهجة"، وصانعى الأوثان: "فنانين تشكيليين"، وإطلاق الشائعات المدمرة لسمعة الآخرين وأعراضهم: "فنونا سردية"... إلخ إلخ، أعوذ بالله! وسوف أمشى مع هذا المنطق إلى آخره وأترك الكلام عن الحلال والحرام، فأين الانتماء للوطن والمجتمع؟ وهل يصح فى مثل تلك الظروف أن أنسلّ من بين أهل وشعبى وأذهب فأقدم نفسى، ولو عاطفيا فقط بعيدا عن الجنس والزنا، إلى من يحتلون بلادى ويسومون أهل وطنى القتل والنهب والذل والهوان والاحتقار وتدمير البيوت والمساجد؟ إن لبعض الناس قدرة على تشكيكك فى وجودك ذاته وإقناعك أن الدنيا من حولك، فى عز ظهيرة الصيف وفوق رأسك الشمس الساطعة المتوهجة، هى ظلام دامس بارد لا تستطيع أن ترى فيه كفك وأن ما تراه من ثم حولك من بشر وجمادات وما تسمعه من أصوات وحوارات كل ذلك أوهام بصرية وأذنية ليس لها أية حقيقة لأنك فى جوف الليل، والدنيا كلها تغط فى نوم عميق! وليس معنى هذا أننا نرى دائنى زينب ملائكة مقربين، وإلا فلو دِنَّاهم على موقفهم منها وإنكارهم انحيازها إلى الفرنسيس الكلاب فى تلك الظروف دون أية مبالاة منها باختلاف اللغة والثقافة والدين والعادات والتقاليد والملابس والاهتمامات والقيم والمبادئ ولون البشرة والجو كله والكراهية التى يكنونها لبلدها وأهل وطنها ودينها ونبيها

وربها والخمر التى يتناولونها والخنزير الذى يأكلونه بل وحتى عدم ختانهم المخزى لَمَا كان هناك أى معنى ولا مجال لإدانة أى انحراف. خيبة الله عليها! ومع هذا فنحمد لمن يدافع عنها وحقها فى حب الحياة العفنة أنهم لم يطالبوا بإعطائها جائزة "الفتاة المثالية" استباقا لما نادت به وغنته ورقصت عليه وضربت بالصاجات الرقاصة بنت الرقاصة فى فلم "خَلِّ بالك من زوزو" من أنها هى "الفتاة المثالية" ولما كُرِّمَتْ به الفنانة القديرة التى تشفط دخان الجوزة بفمها شفطا وتخرجه من منخريها كافورتين من جائزة "الأم التى ينبغى أن تُحْتَذَى" لالتزامها بذهابها من البيت إلى الكباريه، ومن الكباريه إلى البيت دون أن تخطئ مرة واحدة فتنحرف إلى مدرسة أو مسجد أو عمل شريف!

ثم لقد كانت هناك نساء مصريات شريفات عفيفات لم يتردين فى تلك الهوة الدنسة بل احتفظن بوطنيتهن وتمسكن بدينهن. وصور المؤلف مشاركتهن، على الأقل فى الرواية، فى الكفاح ضد الفرنسيس وقمن بما يقوم به الرجال الأحرار. فلِمَ لَمْ تختر بنت البكرى هذا الطريق؟ إنه طريق عشق الحياة الحقيقى حتى لو انتهى بالاعتقال والتعذيب أو القتل على يد العدو. وقد قيل بحق: احرص على الموت تُوهَبْ لك الحياة. ومن هؤلاء النسوة زوجة مصطفى الخادم أحد رجال محمد كريم، الذى كان يدير حركة المقاومة السرية ضد الفرنسيس، وكانت مع الابنة تشاركان فى هذا الجهاد الوطنى العظيم.

وهذا أول نص من النصوص التى ورد فيها اسما هاتين المرأتين: "عصرًا طلب نابليون برتيبه لتصفّح أخبار الجيش الذى تحرك إلى مدينة دمنهور، فقبض برتيبه وجهه بيديه، وغرس نظراته الحزينة فى الأرض، وقال فى لهجة رثاء بينما الشمس تخترق الغرفة بقوة:

ـ أهل دمنهور تحركوا معًا فى وقت واحد كأمواج بحر غاضب، وأجبروا جيشنا على الفراروالعودة: بعضهم يبكون، وآخرون انتحروا.

ـ لا عليك، الحرب كر وفر. المهم ألا يتحركوا معًا مرة أخرى، سأكون معكم منذ اللحظات الأولى فى التحرك لغزو القاهرة.

ـ وصلنى من حافظ أنه سمع اسم مصطفى الخادم يتردد بين جموع الناس.

ـ ماذا عن أسرة مصطفى؟

ـ له زوجة وابنة فى نحو العشرين من العمر تدعى بهية.

ـ لنقبض عليهما، ويعذبان (الصواب "وتُعَذَّبان" بالتاء) حتى يظهر مصطفى ويسلم نفسه.

ـ الثلاثة اختفوا، كما هجروا بيتهم (إذ كان تنظيم مصطفى الخادم للمقاومة يقتضى أن يتنقل بأسرته هنا وهناك بعد اعتقال الفرنسيس السيد محمد كريم).

ـ هى مسألة وقت، لن نتركه حيًا هو وعصابته. المهم الآن اجمعوا أكبر عدد من الجمال والبغال لتحمل متطلبات الحملة.

ـ للأسف اختفت كل الجمال والبغال من الأسكندرية كأنما ابتلعتها الأرض. وفشلت جهودنا فى الترهيب أو الترغيب بدفع أثمان مغرية" (ص٣٥).

وهذا نص آخر: "وعلى مقربة من الإسكندرية، فى دمنهور، تحت ستار الليل هَمّ مصطفى الخُطَى معتمدًا على عصاه بعد أن أصيبت ساقه بشظية قنبلة من قبل عند مهاجمته لقوات الفرنسيس، طرق الباب بعصاه وهو يتلفت

حوله، استقبلته زوجته البدينة بفرحة وشوق وهى تقبل وجهه كله، وهو يضمها إلى صدره، يداعب وجنتيها بأنفه الطويل وقد أشرق وجهه بابتسامة هى زاد زوجته، وهو يقول لها ككل مرة: وحشتينى، وهى ترد عليه: أنت بخير؟ فيجيبها بابتسامة فصيحة تكشف عن شيء من أسنانه، ثم يمد يده يصافح ابنته بهية، التى تغوص عيناها فى وجهه الأسمر، وتتأمل عينيه الواسعتين وشعره الناعم الأسود وهى فخورة بأبيها البطل الذى يتحدث الناس عن شجاعته فى كل مكان، وتسعد بملمس يده الخشنة التى يخافها الإفرنج. قالت زوجته، وقد أعدت له ثيابًا بديلة: هيا استحم وسأحضر لك المعمر الذى تحبه.

أنجز ما قالت زوجته ثم جلس إلى جوار ابنته الوحيدة. قالت بهية وهى تنتظر تفاعل أبيها مع كلماتها:

ـ وأنا أيضًا أحب المعمَّر لأنك تحبه.

راحت زوجته تربت بيدها على كتفه وظهره، وتتفرسه من أعلى إلى أسفل، وبهية تستعجله ليحكى لها عن آخر بطولاته، وقد فركت يدها بيدها الأخرى تستحثه أن يروى كل التفاصيل، قالت: كم من الإفرنج مات الأمس واليوم؟ فَرَد كف يده محركًا أصابعه الخمس: ولو كان عددنا أكبر لمحوناهم من الوجود. صفقت بهية قالت:

ـ أتمنى أن أكون مثلك، ومثل بقية المقاومين، خذنى معك، لقد مللت من الاختباء، ويوجع قلبى هؤلاء الضحايا الذين يسقطون كل يوم حتى وهم فى بيوتهم، لن أنسى أن المتوحشين قتلوا صديقتى الأولى ليلى بعد أن اغتصبوها.

ـ نحن ننتقم لها ولك، والفرنسيس يبحثون عنك وعن أمك لينتقموا منى. ولن أمكنهم من ذلك، وغدًا ستنتقلان إلى منزل آخر لا يعرفكما فيه أحد، فللفرنسيس للأسف جواسيس لا نعرفهم:

اقتربت بهية من أبيها، ثم قبلته فى رأسه، قالت:

ـ ألم تقل لى إن الهجوم أفضل طريقة للدفاع عن النفس، وأن المهاجم خسائره أقل من النائم فى فراشه. ستأخذنى معك يا أبى.

ـ أمك تحتاج إليك.

ـ لقد اتفقت معها، وهى أكثر حماسة منى.

وهزت أمها رأسها بالموافقة قبل أن يسألها مصطفى. اقتربت أمها منهما أكثر فأكثر وشكلوا دائرة ملتحمة بالعواطف التى تشتعل يومًا بعد يوم، ثم غادرت بهية الغرفة لتصنع الشاى بالنعناع الذى يحبه مصطفى من يدها. قالت زوجته بعينيها ما يملأ كتابًا فى الغرام، رد مصطفى على صمتها البليغ الدافيء وهو يحضن يدها الناعمة بيده الخشنة: لعنة الله على الإفرنج، وعلى المماليك وعلى العثمانيين، كلهم لصوص أفاقون، يحرموننى من أسرتى التى أحبها، كلما رأيت أو سمعت عن امرأة تهان تذكرتك وزاد وجعى، وانطلقتُ للثأر لك ولبهية ولكل بنات مصر.

قبلته: ـ ألف لعنة عليهم جميعًا. لكن العجيب يا مصطفى أن بعض الناس يصدقون الفرنسيس ويسكتون.

ـ دعينا من الجهاد الآن، لاستمتع بزوجتى الجميلة، وابنتى بهية. خذى هذه الريالات، لا تضيقى على نفسك، فأنت فى غربة ورحيل دائم.

ـ وأنت هل تجد طعامًا مناسبًا لك ولرجالك، وهل ما تركه السيد محمد كريم من أموال لكم قبل سجنه، يكفيكم لفترة طويلة؟ اهتم بنفسك أولًا أما نحن فيكفينا القليل.

ـ لا تقلقى، لقد ترك لنا حبيبنا كريم حفظه الله ونجاه ماننفق به على لوازم الجهاد، كما أن بعض التجار يرسلون لنا المعونات. لكننى فى شوق لممارسة مهنتى كقبانى، وحشنى السوق وما فيه. كنت أهزر مع حبيبنا كريم وأقول له، سأصبح حاكمًا للإسكندرية، لأنك كنت تعمل فى صباك قبانيًا، فكان يضحك ويقول، هيا نتبادل الأعمال من الآن، فأنا أحن إلى هذه المهنة البسيطة.

ـ أنا فخورة بك يا مصطفى. وابنتك بهية حتى لو أكلنا عيشًا وملحًا فقط، عندى لك مفاجأة.

فتحت صندوقًا كبيرًا، وأخرجت منه لفافة صغيرة من القماش مربعة الشكل، خيطت أطرافها، مدت يدها بها إلى مصطفى، الذى أخذها داهشًا، قائلًا: ماهذا؟ حجاب؟ قالت:

ـ نعم يحميك من الرصاص إن شاء الله، ضعه فى جيبك السفلى " (ص٥١- ٥٤). وربما كان من المستحسن هنا القول بأن اسم "بهية" قد يكون رمزا على مصر. فبهية كانت تدافع عن مصر، وكأن المؤلف يريد إلى القول بأن مصر تدافع عن نفسها، وأولاد مصر هم مصر لا فرق بينهم وبينها. ذلك أنى لاحظت أن بعض من كتبوا عن مصر قد رمزوا لها ببهية. وأرجو ألا أكون قد غاليت فى الحديث هنا عن رمزية بهية.

وهذا نص ثالث، والإشارة فيه إلى مقتل محمد كريم عى يد الفرنسيين المجرمين: "فى منطقة العجمى بالإسكندرية قبع مصطفى فى منزل مهدم، ومعه أصدقاء المقاومة، بينما انصرفت بهية إلى قلب المدينة لرصد ما يجرى من أتباع كليبر. معظم المقاومين قبل سن الثلاثين، وصلهم الخبر كانطباق السماء على الأرض".

ثم هذا نص رابع: "الله أكبر، الله أكبر!

تعالى الأذان لصلاة العشاء، بصوت مؤذن جامع الرويعى الجميل الطلى بوسط مدينة القاهرة حيث تسكن بهية مع أبيها الذى انتقل إلى القاهرة لبعض الوقت فرارًا من مطاردة كليبر له فى الإسكندرية، وقد نجحت بهية فى تنفيذ أكثر من عملية، واستطاعت فى إحداها أن تنقذ أباها من جواسيس القومندان، هرعت بهية إلى المسجد بعد أن ارتدت حجابها الأزرق، واصطفت مع المصليات فى مكان السيدات بالمسجد، كان عددهن أربع، بعد الانتهاء من الركعة الأولى، سمعت ضجيجًا، وأصواتًا مناوئة حانقة من جماعة الرجال،وقبل أن تسأل أو يسألها أحد، قفز أمامهن عسكرى من الفرنسيس شاهراً بندقيته مهددًا، طلب منهن أن يقفن فى طابور، واحتلت بهية المركز الثانى من الوقفة، وقد نسج الخوف خيوطه عليهن، حلا للعسكرى أن يعبث بمناطق من أجسادهن ليعرف أيهن أكثر تجاوبًا فيصطفيها لنفسه، كور صدر الأولى فى يده، فارتدت إلى الوراء خطوة اشمئزازًا منه ونفورًا، نهرها وثبتها فى مكانها بعد أن نزع عقدها الذهبى، وطلب من الأخريات خلع مايرتدين من حلى، فى تلك الأثناء مدت بهية يدها إلى جنبها، وجهزت خنجرها الذى لايفارقها فى تنقلاتها المعتادة، أمر العسكرى الأولى أن ترفع يدها إلى أعلى تنكيلًا بها، ليتفرغ لبهية، التى زاد طمعه فيها، وفتح عينيه أكثر لما شافه من حسنها وسمرتها

التى لعبت بخياله،ورشق نظره بين شفتين من فصيلة الكرز الذى يحبه حتى أنه ابتلع ريقه، وبدأ بلمس شفتيها، فألقت له شباك ابتسامة ماكرة، فسرحت يده فى طريقها إلى صدرها الناهد، وقد سرى فى دمه خدر النشوة الوليدة، تلفظ بحروف لم تفهمها، ومع اللمسة الأولى ارتجفت وهى فى مكانها، فترجمها إلى أنها تفاعلت معه، وبقية المصليات كن فى تعجب ساخط لثباتها وابتسامتها ورد فعلها الرقيق، وفى لحظة تبدلت ملامحها وهى تستل خنجرها، وتضربه فى صدره بقوة، وهى تخبط بقدمها بندقيته فسقطت على الأرض، ندت عنه آهة حبستها بهية بيدها فى فمه خشية أن يسمعه رفاقه فى موقع الرجال، سقط إلى جوار بندقيته، بين ذهول المصليات اللواتى ساعدنها فى ارتداء بدلة العسكرى، وإلقاء بساط على الجثة. ثم تحركت بهية، ممسكة بالبندقية وأمامها طابور المصليات وقد رفعن أيديهن إلى أعلى، وخرجن من المسجد على مقربة من زميلين للقتيل يتعاملان مع الرجال. وما أن خرجن من المسجد حتى ذبن فى خلايا الليل، ووصلت بهية إلى سكنها المؤقت، وفى الليلة ذاتها سلمت البندقية إلى أبيها الذى قبل رأسها وهو يقول: أنت بطلة يا بنت مصطفى، ثم قال: أكثر الله من أمثالك، كم أنا نخور بك، لو أن كل الشباب مثلك لهرب الأوغاد من مصر. حان وقت النوم،فقد كان يومًا رائعًا لك ولنا. علينا أن نغير مكاننا غدًا.

على رغم الانتقال كانت تتردد على مسجد الرويعى من وقت إلى آخر مستبشرة به، كأنها تأمل فى اصطياد بندقية جديدة، وتقضى على همجى متوحش، لكنها لم تتخيل أنهم سيهدمون المسجد. هل الانتقام لقتل الهمجى يكون بهدم المسجد، سألت نفسها: أين الادعاء بأنهم جاءوا لنصرة الإسلام؟ وبدأت تتخيل البنايات البديلة، هل تكون بيتًا أوقصرًا لأحد النظار أو الباشاوات؟

بعد فترة فوجئت ببناء جديد من طابق واحد تتصدره لافتة حمراء كلماتها تقول: خمارة الرويعى. لابد أن الرويعى الآن فى حالة حزن معتق".

والآن أليس هذا هو عشق الحياة الحقيقى، العشق الذى نغدقه على وطننا وناسه؟ أم لا يكون عشقٌ للحياة إلا من خلال الجسد وشهواته وتفاهة العقل والانحياز إلى العدو الذى يحتل بلادنا ويغتصب نساءنا ويعتقل أحرارنا ويقتلهم ويدمر بيوتنا ومساجدنا ويحول بيوت العبادة إلى خمارات؟

وأسلوب نشأت المصرى سلس ومنساب وتراكيبه منسجمة، ومفرداته فى موضعها بوجه عام. ورغم أنه لا يخلو من ملاحظات هنا وهناك فهو أفضل من أساليب كثيرين غيره من الكتاب القصصيين. وهناك بعض من هؤلاء يعهدون بأعمالهم إلى من يسمون هذه الأيام: "مدقِّقين لغويين"، فيوفقون أحيانا، بينما فى أحيان أخرى لا يقعون على مدققين حاذقين مهتمين، إذ إن تخرج المدقق اللغوى من أقسام اللغة العربية ليس بالضرورة ضمانا لمقدرته على القيام بتلك المهمة، فكثير منهم بحاجة إلى من يدقق له لغته. وأذكر أن أحد الأصدقاء نبهته إلى ما فى روايته من غلطات لغوية، فاستغرب مؤكدا أنه عهد بها إلى مدققة لغوية بارعة، فضحكتُ قائلا: فماذا لو تكن عهدت بها إلى مدققة بارعة؟ وكان تعقيبه أن الرواية، قبل إسنادها إلى تلك المدققة، لم تكن تشتمل على هذا العدد الكبير من المآخذ اللغوية.

وأنا فى الواقع أستغرب كيف يكون الإنسان كاتبا، أيا كان ميدان تأليفه، ثم يقع فى كل تلك الأخطاء اللغوية التى تصدمنا عند قراءة ما يكتبه كثير من الأدباء الحاليين. والمفترض أن تكون ثقافتنا قد اتسعت الآن، وبخاصة بعدما صارت كتب تعليم النحو والصرف المعاجم متاحة لنا ووفيرة فى كل مكان على المشباك وبدون مقابل، وكل ما على الواحد منا أن يضغط

على فأرة الكاتوب لكى ينزل الكتّاب مرفرفا فى كفك قائلا وهو يزغرد: "شبَّيْك لبَّيْك! عَبْدُك وبين يَدَيْك!". ولقد كان الشعراء القدامى والكتّاب يكتبون فلا يخطئون. ولا ينبغى أن يتعلل أحد منا بأنه ليس عربيا بالدم، ومن ثم فالعربية غريبة عنه يحتاج استعمالها أن نتعلمها تعلما. ذلك أن الغالبية الساحقة الماحقة من الكتّاب والأدباء الماضين لم يكونوا عرب الدم مثلنا تماما، ومع هذا لم نسمع أن أحدهم اتخذ هذه الحجة عذرا له بل تعلم لغة الضاد وأتقنها سريعا وأبدع بها أيما إبداع. وليست اللغة بحاجة إلى كتب النحو المنبسطة القديمة بل يكفى متعلمها هذه الأيام أن يراجع كتب القواعد التى تدرس فى مراحل تعليمنا الإعدادى والثانوى لا غير مع تكرار المراجعة وحل التمارين الموجودة فى آخر كل درس. ولا أظن الأمر يأخذ أكثر من شهر، وبخاصة أننا سبق أن درسا هذه القواعد فى المدرسة.

وقبلا كان النقاد يؤاخذون الأدباء إذا ما بدا لهم أنهم أخطأوا، وكانت تثور المعارك والحروب اللغوية والأدبية لهذا السبب، وظل هذا التقليد ساريا حتى وقت ليس بالبعيد. فكان اليازجى يؤاخذ شوقى على أقل هفوة، وربما لم يكن ثم مَدْعًى لهذه المؤاخذة كما فعل عندما قرَّعه على قوله: "مدَّ فلان أذنه"، إذ الصواب فى نظره هو أن نقول: "أرهف أذنه" لأن العرب لم تقل إلا "أرهف"، وهو ما دَفَعَتْهُ عن شوقى قائلا إن كلا التعبيرين صورة أدبية، فلا الأذن تُرْهَف أو تُمَدّ، بل كلاهما مجرد مجاز، ولا يصح أن نحجر على صناع التعبيرات المجازية، بل الباب مفتوح إلى يوم القيامة. ثم أتيت بأمثلة من كلام العرب القدماء كى أسد باب الفتنة الذى فتحه اليازجى، وكان شديد الاعتزاز بنفسه متوقرا يكاد ينفجر من عنف ثقته بذاته. ومعروفة حكاية عنوان الترجمة التى قام بها حافظ إبراهيم لرواية "Les Misérables"، إذ عربه إلى "البؤساء"،

فعيب عليه استعماله لهذه الصيغة الخاطئة فى نظر منتقديه، وصوابها كما يرون هو "البُؤَّس" لا "البؤساء" مع أن من الممكن الاستشهاد على وجاهتها بشعراء وعلماء. وكان الرافعى يحاسب العقاد على النقير والقطمير فى شعره ويسمعه من قارص القول الكثير والكثير رغم أنه العقاد، وهذا موجود فى كتاب الرافعى: "على السفود". أما الآن فلم أعد أسمع بناقد يردد نظره اللغوى فى النص الذى أمامه، وخاصة إذا ما كان العمل إبداعا قصصيا.

وأنا من أنصار الشمولية فى النقد، فلهذا أتناول كل ما ألحظه فى العمل الأدبى مما أرى أن تناوله ذو فائدة، وأوله وعلى رأسه اللغة. ولى مقولة أكررها دائما، وهى "كما أن النجار لا يمكنه مثلا صنع صوان جميل للملابس إذا لم يكن يحسن دق المسمار فكذلك لا يمكن الأديب أن يبدع نصا جميلا إذا لم يكن يحسن لغته"، إذ كل من الأمرين هو الخطوة الأولى فى عمله. والمشكلة ليست هنا فحسب بل إن الناقد أيضا فى غير قليل من الأحيان يكون ضعيفا فى النحو والصرف والمعجم، وقد دخل المهنة عدد كبير من الدخلاء يظنون أن إحسان اللغة أمر هامشى إن لم يكن بلا قيمة. إن إتقان اللغة سمة حضارية، فنحن نستطيع أن ندلق الطعام على الأرض ونأكل، ولسوف نشبع فى هذه الحالة ونسكت صياح عصافير بطوننا، لكن الحضارة لا ترضى بها، بل لا بد من مراعاة طقوس تناوله. ونستطيع أن نرتدى الخيش وتمضى أمورنا دون مشاكل، فالخيش يستر العورة ويقينا حر الشمس وبرد الشتاء، لكن للحضارة منطقا آخر... وهكذا وهكذا. وبالمناسبة فقد أخطّئ أنا مثلا شيئا فى لغة الكاتب ثم يتضح لى أن هناك وجها له غاب عنى. وليس فى هذا عيب، فمن عرف حجةٌ على من لا يعرف، واتساع المعرفة يضىء لنا زوايا وخفايا ما كنا لنبصر ما بها لولاه. ونحن كل يوم نطور من أنفسنا جراء اكتسابنا معرفة

جديدة لم تكن لنا من قبل ونفتح عقولنا وقلوبنا وأذواقنا للجديد على الدوام، ونستدرك أخطاءنا. بل إنى حريص فى الندوات والمحاضرات والكتب على ذكر تجاربى فى هذا المضمار وضرب الأمثلة عليه من تراجعاتى دون أدنى حرج.

ونعود إلى أسلوب مؤلفنا، وهو أسلوب سلس منساب كما قلت، وفوق ذلك هادئ هدوء صاحبه،بل أحس أنه خفيض الصوت أيضا مثله. وقد قرأت الرواية واستمتعت بقراءتها. وهى رواية غير طويلة، وتركز على نابليون فى الفترة التى قضاها بمصر. واستطاع المؤلف أن يأخذنا معه أكثر من مائتين وعشرين سنة إلى الوراء وهيأ لنا العيش مع أحداث ذلك الزمان حين غزا الفرنسيون مصر وعاثوا فيها فسادا وقتلا ونهبا واعتداء على الأعراض فى لوحات حية رغم قصرها وانقسامها إلى أجزاء صغيرة تتسم بتنوع السرد والحوار والتدسس إلى أعماق أبطال الرواية. وكنت أحب لو خلت من بعض الهنات اللغوية، إذن لكانت أفضل وأفضل. كما كنت أود لو جرى نشأت المصرى على منوال نجيب محفوظ وصور لنا منظر الشوارع والبيوت فى ذلك العصر كما فعل محفوظ مثلا فى "الثلاثية" فأبدع وأمتع، وبخاصة أنه كان يضفى عليها من شاعرية نفسه الشىء الكثير.

ولا أحب التوقف أمام موضع الهمزة فى "انّ" بعد القول: هل هى فوق الألف أم تحتها؟ والمعروف أنها تكسر فى هذا الموضع، وإن كان هناك من يجيز فتحها، لكنه رأى غير منتشر ولا أظنه يحظى بالقبول عند سائر النحويين. وعدم رغبتى فى التوقف أمام هذه الهمزة فى الرواية سببه أنها كُسِرَتْ فى بعض المواضع، وفُتِحَتْ فى بعض المواضع. وربما كانت التبعة واقعة علَى مَنْ رَقَن الرواية على الكاتوب لا على المؤلف. ومثلها "إرْسِلْ" فى

"إرسل إشارة إلى كل القيادات" (ص٧، وصوابها "أَرْسِلْ"). وفى ص١٨ نقرأ "كان الرد مرسوما بشيفرات الغضب الحادة على وجه السيد محمد كرِّيم" (بدلا من شفرات). وأرجح الظن أنه سَبْق إصبع من الكاتب لانتشار هذه الكلمة فى العقود الأخيرة عند النقاد والأدباء حين حول النقد الحداثى كل شىء يقوله الأديب أو يكتبه إلى "شيفرات". وعندنا استعمال المؤلف للفعل "تماهى ": "تماهى بصره إلى سقف القاعة" (ص٢٨). والمقصود أنه رفع بصره ناحية السقف. لكن "تماهى فلان مع/ وفلان"، فيما أعرف من كتابات من يستخدمونها فى كتاباتهم بأُخَرَة، تعنى أنهما صارا شخصا واحدا بفعل تمازج ماهية هذا مع ماهية ذاك حتى أصبحت ماهيتاهما ماهية واحدة. وفى الصفحة٣١ يستعمل المؤلف الاهتزاز للعين: "وعيناه تهتزان فى محجريهما"، ولو قيل: "تضطربان/ تدوران" لكنا فى الجانب السليم. وفى العبارة التالية: "سيعطيك فوفليه شارتين لك وليعقوب ليعرفكما جنودنا ويقومون بحمايتكما" نجد فعلا مضارعا مرفوعا رغم أنه معطوف على مضارع منصوب (ص٣٢. والصواب "ويقوموا"). أما فى قوله (ص٣٣) على لسان نابليون يخاطب عشيقته: "تعالِ يا زهرة" فصحتها "تَعَالَىْ". ومما شاع فى أسلوبنا الحالى شيوعا ملحوظا التركيب التالى: "يحضنان بعضهما" (ص٣٤. ومن السهل، وهو الصواب، أن نقول بدلا من هذا: "يحضن أحدهما الآخر/ تحاضنا. ومثلها "قهقها بما تبقى من الشفاه التى تلوذ ببعضها" بدلا من "التى يلوذ بعضها ببعض"/ ص٦٩).

ومن السهوات التى وقعتُ عليها قول المؤلف فى نفس الصفحة: "التصقا بالحائط المزركش بالروث، ووجهيهما إلى الجدار" (ووجهاهما: مبتدأ مرفوع). وفى ص٦٨ نقرأ عن نابليون: "أفاق من سُرُوحه". وهذه أول مرة تقابلنى، فى حدود تذكرى، "السُّرُوح" هذه. وقد توقفت إزاءها، إذ كنت أتوقع أن يقول:

"أفاق من سَرَحَانه" كما نقولها فى لغتنا اليومية وكما يقضى به معنى الفعل الذى يشير إلى الحركة والجولان: "دوَران، ذوَبان، جَوَلان، مَوَتان، ضَرَبان، دَوَخان، سيَلان، جرَيان، طيران، ثوَران، غثَيان، نوَسان، روَغان، لمعان، سريان"، لكنى سرعان ما قلت فى نفسى: ولم لا تكون صيغة "سروح" صحيحة جريا على القاعدة التى تقول إن كل فعل لازم، وماضيه على وزن "فَعَلَ"، يمكن أن يكون مصدره "فُعُول"، مثل: "ركن ركونا، نهض نهوضا، جلس جلوسا، نزل نزولا، حضر حضورا، مَرَّ مرورا، رجع رجوعا، سقط سقوطا، هرب هروبا، ذهب ذُهُوبًا، رقد رقودا، قعد قعودا، شرد شرودا، مرق مروقا، صمد صمودا، بَرَدَ بُرُودًا، بَرَزَ بروزًا، عَبَس عبوسًا، خنع خنوعا، قنع قنوعا، حالَ حُؤُولا، سَفَلَ سُفُولًا، نما نموًّا، عَلَا علوًّا، عَتَا عُتُوًّا، عَنَا عُنُوًّا، سَمَا سموًّا، علا علُوًّا، دنا دنوًّا..."؟ وبالفعل وجدتها بعد ذلك فى "معجم اللغة العربية المعاصر" للدكتور أحمد مختار عمر.

ومن استعمالات الكاتب التى تبدو لى جديدة منعشة "يمتصّ نَفَسًا طويلًا" (ص٣٣)، "هاجَسَتْنى نفسى" (ص٧٦)، و"فى صمتٍ صارخٍ"، تلك العبارة التى تعج بالمفارقة، إذ تجمع بين الصمت، أى عدم وجود صوت، والصراخ، وهو أعلى الأصوات وأشدها. وهذا شىء قريب مما كان قدماؤنا يطلقون عليه: "تداول الأعضاء" ("تراسل أو تبادل الحواسّ" فى النقد الحديث) لكنه ليس هو بالضبط، إذ لا اختلاف هنا بين حاستين كالأذن والعين مثلا، بل بين درجتين فى إدراك نفس الحاسة، فلدينا فى العبارة حاسة الأذن وحدها ولها درجتان: درجة اللاصوت (الصمت) ودرجة الصوت العالى الشديد (الصارخ). كما لاحظت أنه استعمل جمع الجمع مرتين على الأقل: فى "أهرامات" (ص٤٣) و"كشوفات" (ص٨٠)". وهذا استعمال

صحيح. ومما سمعته من جمع الجمع: "رجالات، خصومات، زيوتات، شحومات، بيوتات، سراويلات، عطورات، ألوانات". وفى ص٨٠ "أربعة وعشرين ساعة" (بدلا من "أربع وعشرين ساعة"). كما أنه يقول: "فرنساوى" و"فرنسى" كلتيهما: الأولى على السماع، والثانية على القياس. ويقول عن "الفرنسيين" أيضا: "الفرنسيس". وكل هذه الاستعمالات موجودة فى لغتنا. وأنا نفسى قد استعملت فى هذا المقال صيغة "الفرنسيس" غير مرة جريا على أسلوب كتابنا وشعرائنا القدامى والمحدثين، الذين يستعملون هذه الكلمة للشخص الواحد أو للفرنسيين كلهم. ومن ذلك قول شرف الدين البوصيرى (ت٦٩٦هـ):

وَمَنْ قَتَلَ الفَرَنْجَ أَشَدَّ قَتْلٍ؟ وَمَنْ أَسَرَ الفَرَنْسِيس اللَّعِينا؟

وقول محمود قابادو (شاعر تونسى ت١٨٥٤):

قل للفرنسيس المجاور أرضنا: ما قبلكم نطحتْ أسودا شاءُ

وقول محمد شهاب الدين (المكى المصرى ت١٨٥٧):

حتى حَمَى مَنْ تولاه وأدخلهم بسعيه تحت سلطان الفرنسيسِ

وقول رشيد مصوبع (شاعر لبنانى ت١٩٢١):

أسرتنى الدّمى بمصر فلا أس طيع بعدًا عن أرضها وارتحالا
أين ألقى التليان لو بنتُ عنها للفرنسيس قد أقاموا احتفالا؟

ويجدها القارئ مرتين فى "البداية والنهاية" لابن كثير (ت٧٧٤هـ)، ومرتين فى "الوافى بالوَفَيَات" لصلاح الدين الصفدى (ت٧٨٤) للويس التاسع. ومرتين لدى المقرى (ق١٠-١١م) فى كتابه المشهور: "نفح الطيب"، علاوة على قول ابن مطروح يقصد ذلك الملك أيضا،أى بوصفها صيغة إفراد:

قل للفرنسيس إذا جئتَه مقالةً من ذى لسانٍ فصيح:

وفى "تاريخ الجبرتى": "واتُّهِم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة". وواضح أن المقصود الفرنسيون لا فرنسى بعينه.

ومن صور نشأت المصرى الطازجة قوله: "وسمع نابليون أزيز ضعفهم" (ص٨١)، الذى جمع بين الضعف والأزيز، وهما لا يتسقان: فالأزيز صوت قوى حاد، والقوة والحدة عكس الضعف، فضلا عن أن الضعف لا يُسْمَع، إذ هو ليس صوتا أصلا. وتقابلنا فى الرواية بعض المصطلحات الإدارية والسياسية والعسكرية والعمارية التى كانت شائعة آنذاك ولم تعد تستخدم الآن مثل "السنجق، الكتخدا، صارى/ سر عسكر، الليوان، الغليون، القومندان، الفرنجة، الديوان، الوالى، المحتسب، الطَّبْلِيّة، الفُرْقاطة". أما لغة السرد والحوار فهى، بعيدا عن هذه المصطلحات، لغة عصرية مباشرة كالتى يكتب بها كثير منا فى الوقت الراهن.

كذلك قابلتنى عبارة "يا مصريين" لدى كاتبنا أكثر من مرة، وقد يتصور البعض أنها ينبغى أن تكون "يا مصريون". لكن قد يكون المعنى فى عبارته: "يا أى مصريين"، وذلك كما يقول الخطيب على المنبر يوم الجمعة مثلا: "ياغافلاً تنبَّه" حين لا يقصد غافلا بعينه لحه وهو يخطب، بل "يا كُلّ/ يا أىّ غافل".

كما رأيت الأستاذ المصرى يورد بعض العبارات العامية فى الحوار، لكن ذلك نادر فى الرواية. وأنا من المحبذين لاستعمال الفصحى ما أمكن فى الحوار مثله مثل السرد والوصف والأحاديث الذاتية الداخلية. ومن القليل العامى الذى لقيته فى الرواية: "ولا عسل ولا حاجة" (ص١٩)، "من حسن حظنا أن المصريين... يثورون بالقَطَّاعِى" (ص٣٣)، "ما أَكْرَمَ وأَعْبَطَ هذا الشعب"

(ص٤٥)، "وَحَشْتِينِى" (ص٥٢)، "وَحَشنى السوق وما فيه" (ص٥٤)، "كنت أهزّر مع حبيبنا كرِّيم" (نفس الصفحة. و"الهذر" بالذال لا بالزاى)، "حتى لو أكلنا عيشا وملحا فقط" (نفس الصفحة)، "وأطلقتْ ريالتها" (ص٧٠)، "نَهَرها وثَبَّتَها فى مكانها" (ص٧١).

وفى ص٤١ نطالع النص التالى، وهو لنابليون، قاله من فوق حجر من أحجار الهرم: "وإننى أشهد النجوم المختبئة، والشمس السافرة، والرياح الحائرة، والأرضَ بما حملت، أشهد كل هؤلاء أننى أبصق على الهرم الأكبر (وبصق) ومَنْ رفعه، وعلى حفدة خوفو، والأغنياء الأغبياء، وعلى من يستعد لبيع نفسه فيهون عليه الوطن". وهو نص يُخْطِر فى بالنا من بعيد، من حيث تقسيم الجمل وتواليها على هذا النحو، قوله تعالى فى بعض السور القرآنية الأخيرة: "وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"، "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ". ولا ينبغى أن يفوتنا ما أراد المؤلف وضعه على لسان نابليون فى كلامه عن بيع النفس والوطن مما يومئ إلى ما يقع أمامنا الآن.

وفى تلاعب لفظى فوجئتُ به من مؤلفنا وضحكتُ (لأنه، فيما أعلم عنه، رجل لا يسخر فى كتاباته ولا يتهكم ولا يهزل) يقول نشأت المصرى على لسان أحد أبطال الرواية عن هدم الفرنسيين لمسجد الرويعى وإقامة خمارة مكانه: "بعد فترة فوجئتُ ببناء جديد من طابَقٍ واحد تتصدره لافتة حمراء كلماتها تقول: خمّارة الرويعى. لابد أن الرويعى الآن فى حالة حزن معتّق" (ص٧٢).

الله الله يا عمو نشأت! "حلوة منّك، بالنسبة لسنّك" كما يقول الناس فى مثل هذا الموقف!

وفى الرواية بين الحين والحين يلجأ المؤلف إلى ما يشبه المعادل الموضوعى كما فى النص التالى، وهو من كلام بونابرت لأحد ضباطه: "بعد أن يستقر بنا الحال فى القاهرة ستثور هذه القرية من جديد، ووقتها سنقتحم القرية ونقتل الثائرين، وأولهم هذا الطفل الشجاع.

التزمت القرية الصمت، وعلا صوت السواقى النائحة إلى أن رحل نابليون وجيشه" (ص٣٩).

ثم هذا النص: "مع لحظة الغروب الملونة العاتبة احمرَّ جفن الأفق غضباً من أجل ألوف الفراعنة الجدد الذين فاضت أرواحهم، وكتبت الطيور الحزينة فى الهواء: وماذا بعد؟" (ص٤٥).

وهذا النص أيضا: "طلب نابليون من برتييه إعداد موكب عسكرى يرافقه إلى الهرم يليق بالفراعنة القدامى مصحوباً بالموسيقى سيُعْزَف فيه المرسيليز على مسمع من خوفو، ومع الموسيقى عزفت حوافر الخيل النغمات على الأرض، وهى تتدلل فرحة بالوغد الغازى نابليون.

دون أمر من القائد احتبست الأنغام فى قصبات المزامير أمام هيبة الهرم الأكب، ران عليهم صمت بعمق آلاف السنين، سمع نابليون صوتاً هائلاً يطرق كل خلايا دمه: أنت هنا فى حضرة خوفو العظيم. فوجيء برتييه بنابليون يفجر ضحكة فى الفضاء كادت تثقب أذنه. اخترق أفقهم غراب أجرب اللون، والشمس أغمضت عينها لحينٍ خجلاً" (ص٤٦).

وحينما ساق الفرنسيون المجرمون السيد محمد كريم ليعدموه فى ميدان الرميلة بالقاهرة نقرأ: "ومع دقات صباح يوم ٦ سبتمبر١٧٩٨ انتزعه عساكر الشيطان، كما لقبهم كريم من قبل، إلى ميدان الرميلة (ميدان صلاح الدين حاليًا) بالقلعة، وكلب فى آخر الطريق لا يكف عن العواء الحزين يضرب وجهه بيده اليسرى كمدا.

...

على حافة هوة سحيقة وقف السيد محمد كريم، وجهه إلى وجوه الجنود. عصبوا عينيه بقماش رديء، سمع الفضاء النائح صوت الشيخ كريم وهو يقول آخر كلماته: وفقك الله يا مصطفى وأكثر من أمثالك. أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. وأردفها بقوله: "آه" مع انطلاق الرصاص فى صدره وقلبه. آه، تأوهت الريح، وتأوه النور، وتأوهت الأرض تحت قدميه، ولم تتحمل الطيور جنون المشهد، فصبغت الفضاء بولولاتها، ومحمد يموت، يستشهد محمد كريم، ونابليون على مقربة يتنفس رحيق الدم والحياة، تجمعت كل العطور تزف روح محمد، محمد كريم، السيد محمد كريم، الشيخ محمد الذى يحبه الناس كثيرًا! كان هذا حديث البلابل والهداهد التى أقبلت مسرعة لتحيط بالجثمان. ووقف كائن لا يعرفه أحد لا تتوقف دموع عينيه، وعلى غير عادة أصاب الفضاء رعد متسارع أرعب القتلة، وانتابت القمر حالة كسوف غير مفهوم.

اتشح النسيم بالسواد، ولفت مصر عباءة الحداد بها ثقوب حمراء هى الطلقات التى اخترقت جسده الشريف" (ص٦٤- ٦٥).

وفى ص٩٠: "زحف نابليون بجيشه إلى العريش فيافا حيث استولى عليها، وهزم الجيش العثمانى، وأسر ثلاثة آلاف جندى. قال لجنوده بقلب أسود، وبعينى نمر وضيع: اقتلوهم جميعًا، لا تنظروا مستنكرين، أعلم أنهم أسرى ولا يجوز قتلهم، وأنه مخالف لاتفاقات التسليم، لكن متى كان للحرب قلب أو عقل عطوف؟". ومن ذلك أيضا، والكلام لأحد رجال المقاومة المصريين ضد الفرنسيس: "أقسم بالله العظيم أن نحرر البلاد والعباد من أعداء الوطن والمماليك والعثمانيين. ببلدات سنهور والرحمانية فتح الجحيم عيونه، وتأججت المعارك، ثم جنت، واهتزت بضراوةٍ دعاماتُ قوات الفرنسيس، ودماء شهداء المصريين تروى الأرض، وتزعق فيها بأقوى من الكلمات لتتوارثها الأجيال: الدماء الدماء لحن الأرض. وبعد انحسار وانتصار كسبت مدافع الفرنسيين معركة البحيرة، واحتل الغزاة دمنهور، وظلت فى سمع الأيام بطولات خارقة وإن كانت لم تطرح ثمارها فى حينه، وصار ندى الحقول دموعًا، وزهرات تزين أحلام الناس، وحزنت الأقلام وهى تكتب: إن قتلى الفرنسيس ستون قتيلاً، بينما الشهداء الطيبون ألفان" (ص٩٤).

هذا، وقد عثرت فى مجرى السرد بضمير الغائب على عبارات يفصح فيها السارد المحايد عن مشاعره فى بعض الأحيان. وواضح أن المؤلف لم يكن بمكنته حبس مشاعره إزاء بعض الوقائع والمواقف، فانطلقت هذه التعليقات على غير قصد منه: "طلب نابليون من برتييه إعداد موكب عسكرى يرافقه إلى الهرم يليق بالفراعنة القدامى مصحوبًا بالموسيقى سيعزف فيه المرسيليز على مسمع من خوفو. ومع الموسيقى عزفت حوافر الخيل النغمات على الأرض، وهى تتدلل فرحة بالوغد الغازى نابليون" (ص٤٦). وفى النص التالى نقرأ: "قال يعقوب ـ الحقير المرحب به دائمًا: ـ من الغد سنستولى على ضرائب أكثر

من العمال والفلاحين، وأصحاب الحوانيت الصغيرة بأية وسيلة"، فنرى السارد المحايد يصف يعقوب الخائن النجس المسمى: "المعلم يعقوب" بـ"الحقير المرحَّب به دائما" (ص٨٧. وقد تكرر ذلك فى الرواية). وعن نابليون: "ومع الموسيقى عزفت حوافر الخيل النغمات على الأرض، وهى تتدلل فرحة بالوغد الغازى نابليون"(ص٤٦).

والآن رغم أننا قد بلغنا نهاية الحديث عن الرواية فلا مانع من كلمة عن بعض "عتباتها"، التى ذكرتنى بها عبارة الإهداء الموجودة فى أول الرواية، وهى عبارة "إلى الليل الطويل". فعبارة الإهداء، عند المتهوسين بما يسمى: "عتبات النص"، هى عتبة تسهل فهم النص الأدبى التى تسبقه. وأنا ضد هذا الكلام الفارغ تماما. فبالله عليكم، وأنا راض بحكم ضمائركم بشرط أن تحكموا عقولكم وتدعونا من ترديد مقولات النقد الحداثى ترديدا ببغائيا، ما الذى يفهمه القارئ الكريم من هذه العبارة قبل أن يعرف مضمون الرواية وينتهى من قراءتها؟ لا شىء. فقد يكون معناها الشكوى من طول ليل المحب الذى يبيت يتقلب على فراش الهجر والشك. وقد قال على الحصرى القيروانى (ت٤٨٨):

يا ليلَ الصبِّ، متى غَدُه؟ أقيام الساعة موعدُه؟

وقال من قبله امرؤ القيس:

ألا أيها الليل الطويل، ألا انجلِ بصبحٍ، وما الإصباح منك بأمثلِ

أم هو تعبير المعاناة يقوله مريض يتألم من مرض عضال لا يستطيع جراءه أن ينام؟ وقد أذكر، والله وأنا صادق، أنى قضيت ليلة عصيبة وأنا شاب صغير أول عهدى بالجامعة حين عزمت بعد ثلاثة أيام لا غير أن أحول أوراقى من كلية السياسة والاقتصاد، التى لم أجد فيها نفسى، إلى كلية

الآداب، التى "تخرّج الأدباء" حسبما كنت أتصور وأنا صبى فى طنطا. ذلك أنى من فرحتى لهذا القرار كنت أتمنى لو أشرقت الشمس فى عز الليل "لآخذ بعضى" وأذهب للقيام بهذا التحويل. وكم أسفت لأنى محروم من المشى ليلا رفقة صديق على الزراعية التى تمر بقريتى نتسامر فى ضوء القمر صيفا ونستمع إلى المذياع وهو يغنى لنا وحدنا فى ذلك الفضاء ونتمنى لو يستمر الليل إلى الأبد. وهو ما كنت أنا وزوجتى نتمناه ونحن راجعان من القرية إلى القاهرة ليلا على طريق بنها- شلقان، نكاد نكون وحدنا على الطريق الهادئ المظلم، والأشجار والنهر العريض عن يميننا، والسيارة تعدو بنا، والبنت الصغيرة على الكنبة الخلفية نائمة، إذ كنا نقول لأنفسنا: ألا يمكن أن تمتد الرحلة بنا هكذا إلى كيب تاون بجنوب القارة السمراء؟ إى والله! فأى ليل طويل يا ترى يقصده المؤلف بهذا الإهداء؟ ولعل القارئ قد لاحظ أننى أجلت تناول الإشارة إلى هذا الإهداء ودلالته إلى ما بعد الفراغ من قراءة الرواية ونقدها. وأستطيع المضى فى ذكر الأمثال فلا أنتهى. كذلك فالخط الذى كتب به العنوان لا يعجبنى. ومثله اللون. إى والله! كما كنت أود لو كانت هناك تناسب بين طول الصفحة وعرضها، إذ أجد أن العرض كان ينبغى أن يزاد سنتيمترا أو اثنين. جميل، ولكن هل منعنى هذا من قراءة الكتاب والاستمتاع بما فيه؟ أبدا لم يمنعنى فى شىء. وهل لو لم يكن الغلاف ملونا ولا مصورا هل كانت قيمة الرواية الأدبية ستنقص؟ لا والله العظيم. بل دعنا من هذا ولنتساءل: وهل الخط واللون جزء من النص الروائى؟ من قال هذا؟ إخص على كده! وهل المؤلف هو الذى كتب بيده العنوان ورسم الغلاف؟ مبلغ علمى أنه لا هو خطاط ولا هو رسام. فما الذى خلط أبا قرش على أبى قرشين إذن؟ الذى فعل هذا هم ملاحيس النقد الحداثى الفارغون الذين يرددون ما يقول النقاد الغربيون كالقردة. وحتى لو كان نشأت المصرى خطاطا ورساما وأديبا ولاعب كرة

ورافع أثقال وسائقا للقطار الذى يحمل أكداس كتابه هذا التى لا تزيد عن عشرين ثلاثين نسخة (وهذا لو وصل عدد النسخ المطبوعة إلى عشرين!) وموزع نسخه على محافظات مصر، كل محافظة ورقة من الكتاب، بالإضافة إلى أنه المنادى على الكتاب حتى يأتى الناس ليروا صاحب الصوت ويعرفوا ماذا يبيع وحين يعرفون أنه ينادى على الكتب ينظرون إليه شزرا وينبرى أسلطهم لسانا قائلا له بصوت أجش كصوت أبى لهب عم الرسول عليه السلام: تبا لك سائر هذا اليوم بل سائر الحياة كلها! ألهذا جمعتنا؟ أقول: لو أن الأستاذ نشأت المصرى هو كل هذا أَوَيَدْخُل هذا ضمن إبداعه الأدبى حتى نشغل أنفسنا كنقاد بالعنوان والغلاف والخط والرسم والألوان والإهداء؟ وهذا إن كان لرأينا الانطباعى فى هذه الأمور وزن؟ وحتى لو كنا متخصصين فى نقد الأدب ونقد تصميم الأغلفة معا أيدخل هذا النقد الفنى فى النقد الأدبى؟ أبدا وحياة ربنا! ثم لقد كانت الكتب حتى وقتٍ جِدِّ قريبٍ تصدر دون تصاوير على الغلاف، بل كانت قديما تكتب بخط صاحبها، الذى ليس خطاطا عادة، فهل يقل محتوى الكتاب فى تلك الحالة عن محتواه الآن بعدما صرنا نتفنن فى تصميم الكتب وأغلفتها؟

أما العنوان نفسه فهو، كما كتبت مرارا وشرحت تكرارا، مجرد اسم علم على الرواية كما أن اسمى إبراهيم عوض، واسْمَكِ سلوى إبراهيم، واسْمَكَ هشام العطار، واسمها بنت الشاطئ أو أم كلثوم، واسمه باراك أوباما، واسمه محمد المنشاوى لا أكثر ولا أقل. وأمامنا عنوان الرواية التى فى أيدينا الآن، فهل يمكن، قبل الاطلاع على الرواية ومعرفة ما تحويه، التوصل إلى العلاقة بين العنوان وبين الرواية؟ إن العنوان هو "بونابرته"، وهو اسم القائد الفرنسى المعروف. وهذا كل ما هنالك. فهل يا ترى تقص الرواية نشأته وتعلمه فى

المدرسة وما تعرض له من مواقف مبهجة أو مؤلمة؟ أم هل تقتفى أثره فى الجيش وكيف تدرج فيه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟ أم تدور الرواية على علاقته بزوجته جوزفين وكيف كانا يتعاملان فى البيت وخارج البيت؟ أم هل تعالج موقفه منها كزوج واقع حتى رأسه فى عشقها رغم خيانتها له؟ أم هل تتناول طفولة بونابرت مثلا؟ أم هل تتبع مسيرة حياته حتى صار حاكما على فرنسا؟ أم هل تحكى لنا قصة حربه فى الروسيا وإلام انتهت؟ أم هل تصور محاولته فتح عكا وفشله فيه؟ أم هل هى تروى حكاية شخص سماه مَنْ حوله: "بونابرته" لشبهه به نفسيا وشكليا كما يسمَّى لاعب زملكاوى: "أوباما"، وكما كنا نسمى صديقا لنا بالجامعة متحذلقا وذكيا ومتكلما بـ"فوستك" (اسم صاروخ روسى فيما أذكر)؟ أم أم أم؟ الواقع أنه لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ولا هذاك ولا هذالك، بل محورها اقتفاء خطوات نابليون منذ اقترب أسطوله من ساحل الإسكندرية إلى أن فر فى الظلام عائدا إلى فرنسا تاركا الجيش وراءه يكمل ما كان يطمح إليه من الاستيلاء على مصر والانطلاق منها إلى بلاد الشرق الأخرى. والأمر مستحيل مع بعض الروايات كما هو الحال مع "باب القمر" لإبراهيم رمزى، و"بداية ونهاية" و"أولاد حارتنا" و"الشحاذ" لنجيب محفوظ مثلا، أو "الشارع الجديد" و"جسر الشيطان" للسحار، أو "مليم الأكبر" لعادل كامل، أو "أشواك" لسيد قطب، أو "الجبل" و"الساخن والبارد" و"الرجل الذى فقد ظله" لفتحى غانم، أو "مرتفعات وَذَرِنْج" لإميلى برونتى، أو "سالِسْ مارنر" لجورج إليوت، أو "عودة ابن البلدة" لتوماس هاردى، أو "الأب جوريو" لأونوريه دو بلزاك، أو "كل شىء هادئ فى الميدان الغربى" لإريك ماريا ريمارك...؟ وكلها من مطالعات الصبا والشباب.

قصيدة "القبو الزجاجى" لصابر عبد الدايم

القصيدة التى أتناولها الآن هى قصيدة "القبو الزجاجى" للصديق الدكتور صابر عبد الدايم الأستاذ الجامعى والشاعر والناقد المشهور. وكعادتى أقول إن العنوان هنا، كعنوان أية قصيدة أو ديوان أو رواية، هو اسم علم به يعرف العمل الإبداعى كما يعرف شاعرنا بـ"صابر عبد الدايم"، وكما يعرف العبد لله بـ"إبراهيم عوض" ليس إلا. وهذا قبل قراءة العمل الإبداعى بطبيعة الحال، لكنه بعد القراءة يمكنه أن يعرف أو لا يعرف الرابطة التى تصل العنوان بذلك العمل. ومع هذا يظل العنوان اسم علم على ذلك الإبداع. فالعنوان لا يعرفنا بمضمون العمل، بل مضمون العمل هو الذى يسلط الضوء على العنوان، وهذا إذا كانت هناك صلة بين الطرفين كما هو الحال فى الغالب لكنها صلة جزئية ضئيلة إذ من المستحيل اختزال مئات الصفحات فى حالة الرواية وعشرات الأبيات أوالأسطر فى حالة القصيدة فى كلمتين أو ثلاث. إنه يشير فى تلك الحالة إلى ما تتضمنه الرواية أو القصيدة بشكل عام.

ومن هنا فإننا نشعر بالمنة حين ألقى شاعرنا شيئا من الضوء على ظروف نظم قصيدته العصماء هذه وموضوعها. ونشعر كذلك بالغبطة عندما نلفى فى الكتاب الذى وردت فيه القصيدة مقالا ودراسة جميلتين عنها منحتا الضوء بعضا آخر من السطوع، ومع هذا ظلت بعض الزوايا خافتة الضوء بعض الخفوت. ومن طبيعة هذا التوضيح الذى قام به الشاعر والدراستين اللتين كتبهما الناقدان الكريمان أن يعيننا على فهم القصيدة والتغلغل إلى أطوائها وأعماقها وزواياها وخفاياها. أما العنوان فإنه، إن أردنا أن نفهم منه ما نحن مقبلون عليه، يبقى صامتا لا يبين. وإلا فما معنى "القبو الزجاجى" هنا؟ أتصور

أننا لو أمهلنا القراء الذين لم يقرأوا القصيدة ولا قرأوا ما كتب عنها ومنحناهم مهلة حتى يوم الدين فلن يستطيعوا الجواب على هذا السؤال. فمن الطبيعى أن يحتاج القارئ إلى ما كل ما يساعده على فهم القصيدة حتى يكون تهيئه لها أسلس وأسهل وأفضل، وليس فى مكنة القصيدة أن تتحمل الشرح والتحليل وذكر التواريخ ومضمون العمل. إن كل ذلك يؤدى لنا خدمة ينبغى أن تقابل بالشكر والعرفان. ولنقف الآن فقط إزاء العبارة الكاشفة التى أضافها الشاعر بعد العنوان، وهى "رسالة إلى محمد الفاتح قائد الفتوح الإسلامية فى البلقان"، وهى رغم إيجازها الشديد تساعدنا على معرفة من هو ذلك الشخص الذى يناديه شاعرنا عدة مرات فى قصيدته. ثم يكمل المقالان المذكوران آنفا كشف باقى القصيدة أو معظمه على الأقل. إنها معونة مشكورة ينبغى تحيتها والتعبير عن شكر صاحبها لا عن انتقاده فى خشونة لا تصح ولا تليق؟

لكنى أذكر أن د. محمد مندور، لدن قراءته بضع كلمات قدم بها العقاد رائعته الخالدة عن "سلع الدكاكين يوم البطالة"، قال عائبا متنقصا تلك القصيدة التى قلما يجود الإبداع بمثلها إن التداعى الخيالى عند العقاد "كثيرا ما يأتى تداعيا متلمَّسا مجتلَبا قد يدل على براعة، ولكنه لا يدل على شاعرية مصوِّرة أو عطف إنسانى عميق حتى لنرى الشاعر نفسه يُضْطَرّ إلى أن يقدّم بين يدى قصائده إيضاحات نثرية لا بد أنه قد أحس بضرورتها بسبب الاجتلاب الواضح فى تداعى أفكاره. وذلك على نحو ما نجد فى قصيدته المعنونة: "سلع الدكاكين فى يوم البطالة" حيث يقول: "بشىء من التخيل يستطيع الإنسان أن يسمع سلع الدكاكين تشكو الحبس والركود وتود أن تبرز لتُعْرَض على الناس وتباع، ولا تفضِّل الراحة أو الأمان على ما يصيبها من البِلَى والتمزيق بعد انتقالها إلى الشراء كما أن الجنين فى عالم الغريب لا يفضل أمان

الغيب على مضانك الحياة وآلامها. ولذلك تظهر الأجنة ألوفا بعد ألوف إلى هذا المعترك الأليم".

هذا ما قاله العقاد عن تلك الكلمات التى قدم بها الشاعر إلى قصيدته، وهى أصلا لا تحتاجها احتياجا ذا بال، وإن كانت قد أضافت إليها بعضا آخر من الضوء على موضوع السلع المكدسة فى الدكاكين يوم البطالة:

كالجنينْ.. وهو فى الغيب سجينْ

إن تحذره أذى الدنيا وآفات السنين

قال هيا.. حيث أحيا

ذاك خيرٌ من أمان الـ.. غيب والغيب أمين

***

أطلقونَا.. وإلى الدنيا خذونَا

حيث نلقى الآكلين الشاربين اللابسينا

ذاك خير.. وهو ضير"

وأذكر أن هذا الانتقاد قد حفزنى، وأنا طالب بالجامعة، على البحث عن قصيدة العقاد، وحين قرأتها شُدِهْتُ بشكل لا يصدق من هذه العبقرية التى خلقت من هذا الموضوع الجامد التافه ذلك الشعر العجيب الذى بث الحياة فى الدكان والرفوف والبضائع وجعلها تثور من الحبس والمنع من الحرية رغم أن الحرية التى تريدها هى حرية الدمار والضياع، بيد أن للأحياء الكرام النبلاء الذين رمز لهم العقاد بالبضائع المغلق عليها الدكاكين منطقا آخر هو أن الحياة

تعلو على كل شىء ولا يُعْلَى عليها. ولم يكتف العقاد العجيب بهذه الصورة، وإنما طار خياله ووقع على صورة الجنين فى بطن أمه، فهو هناك فى أمان واطمئنان من كبَد الحياة ومزعجاتها وآلامها وشكاواها التى لا تنتهى ولا تعفى أحدا من البشر منها، ومع هذا يأبى الجنين إلا أن يخرج من حبسة الرحم الآمنة المطمئنة المكفية كل مطلب من مطالب الحياة إلى الوجود الواسع الطليق. إنها الهفوّ إلى الحرية. وبطبيعة الحال لم يُرِد الجنين شيئا، إنما المشيئة مشيئة الله، لكن هكذا صورها العقاد على سبيل المجاز، فجاء د. مندور وقال ما قال: إما عن إساة فهمٍ جَرَّاءَ العجز، وإما عنادا منه وتوهما أنه إن كتب ذلك أساء إلى عبقرية العقاد، فجاء الأمر عندى على العكس وظللت أترنم فيما بينى وبين نفسى بأبيات القصيدة كلما تذكرت المناسبة إلى أن كتبت عنها تحليلا فنيا ومضمونيا بعد ذلك بأعوام طوال بعدما نضجت وصرت أحسب بين النقاد يجده القارئ، إن أحب، فى كتابى: "فى الشعر العربى الحديث- تحليل وتذوق". ولا يصلح فى هذا السياق أن ننسى حرص العقاد طوال حياته على الحرية فى مسيرة حياته وفى فكره السياسى والفلسفى على السواء. والمقدمة التى مهد بها الشاعر الكبير إلى قصيدته البديعة لا تضرها فى شىء بل تزيدها تألقا ونصوعا. إنما هى "تلاكيك" يتمحل بها د. مندور إلى الاحتكاك بالعقاد وهمًا منه أن فى هذا إساءة إليه، وهيهات، فبين الرجلين بون شاسع بحيث لا يمكن أن يلحق العقاد فى علوّه شىء كهذا.

وهذا يأخذنا إلى ما يزعمه بعض النقاد من أننا حين نواجه نصا إبداعيا لا ينبغى أن نستعين بشىء من خارجه وكأن النص كتلة صلبة مصمتة لا علاقة لها بأى شىء. لقد جاءت هكذا، وينبغى أن يُتَعَامَل معها هكذا. لكن النص ليس كتلة صلبة لا أعراق لها تشجها بالعالم من حولها. إنه لم يُرْمَ به من خارج

ذهن المبدع إلى هذا الذهن دون أن يعرف من أين جاء ولا إلى أين هو ذاهب، وما على المبدع سوى أن يوصله للقراء كما أتاه، وعلى القراء أن يتعاملوا معه دون أن يفكوه ويحللوه بل كل ما هو مطلوب منهم استخلاص بنيته الداخلية... إلخ هذا الكلام الشمهورشى الذى يظن كثير منا أنه هو العلم والنقد، ولا علم أو نقد إلا هو. وقد شرحت هذا وبينت من خلال تتبعى فى كتابى: "المرايا المشوِّهة"، لما قاله د. كمال أبو ديب مثلا عن البنيوية خلال دراسته للشعر الجاهلى إذ لم نصل معه إلى شىء يصدّق ما يقوله ويطلقه إطلاقا فى يقين عجيب، فضلا عن ارتكابه لأغلاط فاحشة حين لم يفهم بعض الكلمات الواضحة فى قصيدة للبيد بن ربيعة وترتبت عليها نتائج مضحكة، واعتسف تفسير أسماء الأعلام فى شعر لامرئ القيس إذ زعم مثلا أن اسم "الحارث" (أحد أسلاف الشاعر) معناها أن هذا الجد كان يزرع ويبنى ولا يهدم، وكأن معنى اسم الواحد منا ينطبق على حياته وتصرفاته. وكعادته رتب على هذا الكلام نتائج عجيبة لا وجود لها خارج ذهنه. وهو كلام بزرميط لا تقوله العامة أنفسها.

بيد أننا نؤمن بأن فهم النص هو الخطوة الأولى نحو أى شىءٍ نافعٍ ومُجْدٍ حتى لو كان مقصدنا هو استخلاص البنية التى تشكل عليها النص مع معفرفتنا أن استخلاص البنية ليس هو الهدف النهائى لتعاملنا مع أى عمل إبداعى بل هو مجرد عنصر من عناصر متعددة تتعاون جميعا فى الوصول بنا إلى حالة التذوق والنشوة الرفيعة التى تخلقها عندنا الأعمال الأدبية الكريمة. وأول شىء ينبغى معرفته هو الوشائج التى تربط بين النص الإبداعى وبين العالم سواء تمثل ذلك فى شخصية الأديب وحياته وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين أو تمثل فى البيئة التى نشأ فيها والأبوين اللذين أنجباه والتربية التى تلقاها والمدارس التى ارتادها

والكتب التى قرأها والأوضاع السياسية التى عاش فى ظلها والوظائف التى تولاها... وهلم جرا. لكن ليس معنى هذا هو أن نق إزاء كل شىء صغر أو كبر، له أهمية فى حياته أو لا، ذى علاقة بإبداعه أو ليس ذا علاقة، بل ما نرى أن له تأثيرا أو صلة بالنص وأن النص بحاجة إلى إلقاء الضوء عليه كى يفهم فهما سليما أو فهما أصح وأنقى.

وعلى هذا فلا بد لنا من معرفة أكبر قدر من المعلومات حول الشخصيات والوقائع التاريخية التى تقابلنا فى النص الحالى حتى نتفاعل أحسن تفاعل ممكن يليق بهذا النص الرائع. إن الكثيرين منا يعرفون مثلا محمدا الفاتح وإنجازاته فى شرق أوربا وفى الدفاع عن أمة الإسلام حين كان العثمانيون هم المتولين زمام قيادتها بعدما غاضت الحيوية العربية سياسيا وعسكريا، ولكنها معرفة عامة شاحبة. صحيح أن هذا قد يكفى لفهم النص لكنه سيكون فهما محدودا لن يتألق معه إبداع الشاعر كما ينبغى. وأنا هنا لست فى موقع المؤرخ الذى يحلل ويدرس ويفصّل ويشرح ويقدم وجهة نظره فى كل شىء، بل كل ما أبغيه أن نعرف شيئا عن الرجل بحيث يمكننا فهم هذه الحماسة التى يتحدث بها شاعرنا عنه والألم الذى يصبغ بكل قوة كلماته حين يتذكر ما صنعه ذلك البطل وما آلت إليه الأمور فى العالم الإسلامى الآن من الذل والعار، وبعد أن كنا مُتَوَلِّى زمام العالم صرنا مَقُودِين مُذَلِّين مُهَانين لا قيمة لنا ولا أحد ينتظر كلمة منا، فلسنا فى العير ولا فى النفير إذ أمسينا أشبه بالعبيد وبتنا ندفع الجزية لقاء هذا الذل والعار والشنار.

وهذه كلمة موجزة عن محمد الفاتح. فهو سابع سلاطين آل عُثمان، وأوّل من حمل لقب "قيصر الروم" من الحكام المسلمين عُمومًا والسلاطين العثمانيين خُصوصًا. كما يُلقّب بِـ"صاحب البِشارة" لأن نُبُوءة الرسول عليه الصلاة

والسلام الخاصة بفتح القسطنطينية قد تحققت على يديه. وقد سعى السلطان الشاب إلى تحقيق وصيّة والده بِفتح القسطنطينية ورغب بِتتميم فتح ما بقى من بلاد البلقان أيضًا حتّى تكون أملاكه مُتصلة لا يتخلّلُها أعداءٌ وثغراتٌ أمنيّة.

وفى سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) حاصر السلطان محمد القسطنطينية بعد أن حشد لِقتال الروم جيشًا عظيمًا مُزوَّدًا بِالمدافع الكبيرة، وأُسطُولًا ضخمًا، وحاصرهم من البر والبحر جميعًا. ورغم استماتة الروم فى الدفاع عن عاصمتهم فقد ذهبت جُهُودهم أدراج الريح، إذ لم يكن قد مضى شهرٌ على الحصار حتّى تدفّق العثمانيون من خلال الثغرات التى أحدثوها فى أسوار المدينة إلى قلبها، فسقطت فى أيديهم وأصبحت جُزءًا من ديار الإسلام. وشكّل سُقُوطُ المدينة نهاية الإمبراطوريّة البيزنطيّة بعد أن استمرّت أحد عشر قرنًا ونيفًا، وعدّ المُؤرّخون الغربيون هذا الحدث نهاية العُصُور الوُسْطَى وبداية الحقبة الحديثة. ومنذ تلك الفترة عُرِفَت القسطنطينية باسم "إستنبول/ إسلامبول/ الآستانة"، ولُقّب السُلطان محمد بـ"الفاتح"، وعُدّ مُنذُ ذلك الوقت أحد أبطال الإسلام ومن كبار القادة الفاتحين فى التاريخ. وقد انسابت بعد ذلك موجات الفُتُوح الإسلامية فى البلقان بِقيادة السلطان، ممّا أثار مخاوف الدول الأوروبية، فشنت على العثمانيين حربًا طويلة بِزعامة جمهورية البُنْدُقية، وحاولت هذه القوى التحالف مع بعض أعداء السلطنة فى آسيا، لكنّ محمد الفاتح تمكّن من هزيمة هذا التحالف، وأجبر البنادقة على توقيع مُعاهدة صُلحٍ مع العثمانيين بعد قرابة ستة عشر سنة من القتال.

وقد تميّز عهد محمد الفاتح بِالتمازج الحضارى الإسلامى والمسيحى بعدما هضمت الدولة العثمانية الكثير من مؤسسات الإمبراطورية البيزنطية، وعملت

على إحياء بعضها وصبغه بِصبغة إسلامية، فانتعشت عاصمة الروم القديمة، وأصبحت إحدى أهم المراكز الثقافية فى العالم الإسلامى، لا سيما بعدما ابتنى فيها السلطان عِدّة مدارس ومكتبات وتكايا ومؤسساتٍ خيريةٍ ووقفية، وأبقى فيها الكثير من أبنائها الأصليين من المسيحيين واليهود فى سبيل الاستفادة من خبراتهم، وشجع المُسلمين على الانتقال إليها فى سبيل الاستفادة من مزاياها التجارية وعلم أهلها. وقد ظهر السلطان محمد بِمظهر راعى بطرقية القسطنطينية الأرثوذكسية المسكونية فى مُواجهة البابويّة والكنيسة الكاثوليكيّة. وشهد عهد محمد الفاتح أيضًا دُخُول أعداد كبيرةٍ من الأرناؤوطيين والبُشناقيين فى الإسلام، وقُدِّر لِبعض هؤلاء أَن يلعبَ أدوارًا بارزةً فى الميادين العسكرية والمدنية فى التاريخ العثمانى لاحقًا. وكان السلطان محمد عالى الثقافة، وكان يعرف عدّة لُغات إلى جانب لُغته التركية الأُم. كما تمتع بِمهاراتٍ إدارية فذة، فأصدر الكثير من القوانين العرفية لِتنظيم الحُكم فى دولته، وكان له اهتمامات وهوايات عديدة كالبستنة وصناعة الخواتم، لكن شغفه الحقيقى كان رسم الخرائط. أما النبوءة المحمدية فها هى ذى: "لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ. فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ".

ولمزيد من العلم نشير إلى أن بعض المنتمين إلى أهل الحديث قد أكد أن هذا الحديث لا يصح. وهوكلام متهافت، وإلا فمعنى هذا أن أحد المسلمين تنبأ بفتح تلك المدينة، وهو حدث عالمى هائل وعجيب، قبل وقوعه بقرون. وهذا أمر لا يدخل العقل. يقولون إن الفتح لن يتم، حسبما جاء فى الحديث، بكثرة جنود أو سلاح بل بمجرد التسبيح والتهليل. وأين نحن من قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"؟ وأين نحن من قوله سبحانه: "وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم"؟ هل التسبيح والتهليل قتال؟ كما يستند

أولئك العلماء إلى أن الذين سوف يفتحون القسطنطينية هم العرب. بالله عليكم إذا كان الفتح تسبيحا وتهليلا ليس غير فلماذا العرب بالذات دون سائر المسلمين؟ هل هم الوحيدون الذين يحفظون "سبحان الله ولا إله إلا الله" وسائر المسلمين لا يحفظونها؟ والطريف أن بعض العلماء يؤكد أن الجيش الذى سيفتحها سوف يكون له قائد. ولكن لم القائد، والموضوع لا يحتاج إلى ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة ولا نظام ولا توجيه. إنما هى "سبحان الله ولا إله إلا الله"، وتنتهى الحكاية!

والعبد لله فى الواقع لا يستبعد أن يكون، فى تفسير العلماء للتسبيح والتهليل وأن معناه عدم القتال، بعض صدى لما ذكره كاتب سفر "يشوع"، الذى حكى فى الإصحاح السادس ما يأتى عن فتح بنى إسرائيل فى عهد يشوع لمدينة أريحا، إذ تم الفتح عن طريق التهليل حول الأسوار لا عن طريق القتال: "وَكَانَتْ أَرِيحَا مُغَلَّقَةً مُقَفَّلَةً بِسَبَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. لاَ أَحَدٌ يَخْرُجُ وَلاَ أَحَدٌ يَدْخُلُ. ٢فَقَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «انْظُرْ. قَدْ دَفَعْتُ بِيَدِكَ أَرِيحَا وَمَلِكَهَا، جَبَابِرَةَ الْبَأْسِ. ٣تَدُورُونَ دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ، جَمِيعُ رِجَالِ الْحَرْبِ. حَوْلَ الْمَدِينَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً. هكَذَا تَفْعَلُونَ سِتَّةَ أَيَّامٍ. ٤وَسَبْعَةُ كَهَنَةٍ يَحْمِلُونَ أَبْوَاقَ الْهُتَافِ السَّبْعَةَ أَمَامَ التَّابُوتِ. وَفِي الْيَوْمِ السَّابعِ تَدُورُونَ دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَالْكَهَنَةُ يَضْرِبُونَ بِالأَبْوَاقِ. ٥وَيَكُونُ عِنْدَ امْتِدَادِ صَوْتِ قَرْنِ الْهُتَافِ، عِنْدَ اسْتِمَاعِكُمْ صَوْتَ الْبُوقِ، أَنَّ جَمِيعَ الشَّعْبِ يَهْتِفُ هُتَافًا عَظِيمًا، فَيَسْقُطُ سُورُ الْمَدِينَةِ فِي مَكَانِهِ، وَيَصْعَدُ الشَّعْبُ كُلُّ رَجُل مَعَ وَجْهِهِ». ٦فَدَعَا يَشُوعُ بْنُ نُونٍ الْكَهَنَةَ وَقَالَ لَهُمُ: «احْمِلُوا تَابُوتَ الْعَهْدِ. وَلْيَحْمِلْ سَبْعَةُ كَهَنَةٍ سَبْعَةَ أَبْوَاقِ هُتَافٍ أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ». ٧وَقَالُوا لِلشَّعْبِ: «اجْتَازُوا وَدُورُوا دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ، وَلْيَجْتَزِ الْمُتَجَرِّدُ أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ». ٨وَكَانَ كَمَا قَالَ يَشُوعُ لِلشَّعْبِ. اجْتَازَ

السَّبْعَةُ الْكَهَنَةُ حَامِلِينَ أَبْوَاقَ الْهُتَافِ السَّبْعَةَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَضَرَبُوا بِالأَبْوَاقِ. وَتَابُوتُ عَهْدِ الرَّبِّ سَائِرٌ وَرَاءَهُمْ، ٩وَكُلُّ مُتَجَرِّدٍ سَائِرٌ أَمَامَ الْكَهَنَةِ الضَّارِبِينَ بِالأَبْوَاقِ. وَالسَّاقَةُ سَائِرَةٌ وَرَاءَ التَّابُوتِ. كَانُوا يَسِيرُونَ وَيَضْرِبُونَ بِالأَبْوَاقِ.١٠وَأَمَرَ يَشُوعُ الشَّعْبَ قَائِلاً: «لاَ تَهْتِفُوا وَلاَ تُسَمِّعُوا صَوْتَكُمْ، وَلاَ تَخْرُجْ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ كَلِمَةٌ حَتَّى يَوْمِ أَقُولُ لَكُمُ: اهْتِفُوا. فَتَهْتِفُونَ».١١فَدَارَ تَابُوتُ الرَّبِّ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً. ثُمَّ دَخَلُوا الْمَحَلَّةَ وَبَاتُوا فِي الْمَحَلَّةِ.

١٢فَبَكَّرَ يَشُوعُ فِي الْغَدِ، وَحَمَلَ الْكَهَنَةُ تَابُوتَ الرَّبِّ،١٣وَالسَّبْعَةُ الْكَهَنَةُ الْحَامِلُونَ أَبْوَاقَ الْهُتَافِ السَّبْعَةَ أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ سَائِرُونَ سَيْرًا وَضَارِبُونَ بِالأَبْوَاقِ، وَالْمُتَجَرِّدُونَ سَائِرُونَ أَمَامَهُمْ، وَالسَّاقَةُ سَائِرَةٌ وَرَاءَ تَابُوتِ الرَّبِّ. كَانُوا يَسِيرُونَ وَيَضْرِبُونَ بِالأَبْوَاقِ.١٤وَدَارُوا بِالْمَدِينَةِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مَرَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَحَلَّةِ. هكَذَا فَعَلُوا سِتَّةَ أَيَّامٍ.١٥وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ أَنَّهُمْ بَكَّرُوا عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَدَارُوا دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ عَلَى هذَا الْمِنْوَالِ سَبْعَ مَرَّاتٍ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ فَقَطْ دَارُوا دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ.١٦وَكَانَ فِي الْمَرَّةِ السَّابِعَةِ عِنْدَمَا ضَرَبَ الْكَهَنَةُ بِالأَبْوَاقِ أَنَّ يَشُوعَ قَالَ لِلشَّعْبِ: «اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَعْطَاكُمُ الْمَدِينَةَ.١٧فَتَكُونُ الْمَدِينَةُ وَكُلُّ مَا فِيهَا مُحَرَّمًا لِلرَّبِّ".

والعجيب أن أولئك العلماء يبنون موقفهم هذا الغريب فى تفسير الحديث الخاص بفتح القسطنطينية على قلة ثقتهم بهذا الراوى أو ذلك من سلسلة إسناد الحديث. أى أن الراوى غير الموثوق هو الذى اخترع تلك الكذبة التى وقعت حسبما كذب بالضبط وبعد قرون طوال. يا له من كذاب رائع يجب أن نرفع له الطاقية إجلالا واحتراما وذهولا! ألا إن هذا هو الكذب السليم الذى على أصوله، وإلا فلا. كما أن قول بعض آخرين منهم إن المراد بالحديث هو فتح القسطنطينية فى آخر الزمان قبل خُرُوج المسيح الدجّال مباشرةً هو

قول غريب! النبوءة تقع، فينهض لنا واحد ممن يحسبون ضمن علماء الحديث قائلا: لا لا. انتظر أنت وهو! إياكم أن تظنوا أن النبوءة قد وقعت. إن أوانها لم يأت بعد، وهو آخر الزمان. والسؤال هو: وماذا كان فتح القسطنطينية هذا؟ أكان مجرد بروفة من البروفات التى يقوم بها الممثلون استعدادا للّيلة الكبيرة حين يفتح المسرح أبوابه للجماهير المتدفقة بغية مشاهدة العرض الأول بعد الانتهاء من البروفات وتصحيح الأخطاء واستكمال النواقص والاطمئنان إلى حفظ الممثلين لأدوارهم وأن الأضواء والمكياج والثياب والأثاث ولواقط الصوت كل ذلك على سنجة عشرة؟ وكيف يعقل أن يتنبأ النبى بفتح القسطنطينية الثانى ولا يأتى على ذكر الفتح الأول؟ ألأن الفاتح فى المرة الأولى تركى يضرب بالقلة ويقول: "حبظلم بظاظة" بينما العربى يستخدم لغة نفهمها؟ ولكن من نحن، والمفروض أن الرسول يخاطب المسلمين جميعا لا العرب وحدهم؟ وكيف فاتنا نبوءة الرسول التى يقول فيها: "ويل للعرب من شر قد اقترب!". لقد خان العرب دينهم واحتُلَّت بلادهم وخضعوا للاستعمار المباشر أو غير المباشر، وصار الدول الغنية فيهم يدفعون الجزية عن يد وهم أذلاء خانعون صاغرون مرتعشون! أما الأتراك فلم يخضعوا لمستعمر ولا ذاقوا ما ذاقه العرب من هوان على يد الكفار ولا دفعوا الجزية، وتولوا الدفاع عن الإسلام وأمته قرونا حتى تفككت الخلافة فى أوائل القرن العشرين، ولكنهم ما فتئوا يحتفظون بقدر لا بأس به من العزة أمام العالم الغربى المجرم. ثم هل المقصود بآخر الزمان فى الأحاديث الفترة التى تعقبها القيامة على الفور، أم هل العبارة مجازية، أى بعد وقت طويل تكون فيه أوضاع المسلمين قد تبدلت وتبهدلت؟ ثم مرة ثانية ماذا نقول فى الحديث التالى، وراويه بشر الغنوى: "لَتُفتحَنَّ القُسْطَنْطينيَّةُ، ولَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولَنِعْمَ الجيشُ ذلكَ الجيشُ. قال عُبيدُ اللهِ: فدَعانى مَسْلَمَةُ بنُ عبدِ الملِكِ، فسَألَنى عن هذا الحديثِ، فحَدَّثْتُه،

فغَزا القُسْطنْطينيَّةَ". كيف أقدم مسلمة بن عبد الملك على غزو القسطنطينية، ولم يكن آخر الزمان قد آن ولا المسيخ الدجال يوشك أن يظهر، فضلا عن أن مسلمة إنما غزاها بالجيش لا بالتسبيح والتهليل؟ وليس معنى ذلك أنه لا يوجد تسبيح وتهليل وتحميد وتكبير خلال المعارك وعقيبها، إذ هذا كله طبيعى تعبيرا عن انفعالات الفرح بالغلبة شكرا لله سبحانه وإقرارا بفضله جل وعلا. وهذا هو فهمى لما جاء فى الحديث عن هذه النقطة، إذ المعنى أنحك ستدخلون القسنطينية مسبحين ومهللين استغاثة بالحى القيوم وإثارةً للفزع والرعب فى قلوب العدو أثناء المعركة، وشكرا وثناء عليه تعالى جَدُّه بعد المعركة.

ترى ما الذى يجرى فى عقول بعض المنتسبين إلى العلم عندنا؟ ثم ما الجدوى من فتح القسطنطينية لدى ظهور الدجال وقبيل يوم القيامة؟ وهل بعد العيد يصح عمل الكعك؟ كذلك فمفهوم كلامهم هذا هو أن القسطنطينية سوف تؤخَذ منا قبل ذلك وتُرَدّ إلى الأعداء، وإلا فما معنى أننا سوف نفتحها مرة أخرى؟ أى أن هؤلاء العلماء مغرمون بالتنكيد علينا، فلا ينبغى حسب فهمهم للحديث أن نفرح بهذا الفتح العثمانى لأنه ليس هو المقصود بالنبوءة، وأنه يحب علينا بدلا من ذلك انتظار مصيبة فظيعة شنيعة هى ضياع القسطنطينية من أيدينا ثم التربص حتى آخر الزمان لنستردها يوم لا ينفع فتح ولا استرداد ولا مال ولا بنون ولا انتصارات عسكرية أو سياسية، وكأننا أطفال رضع يعطوننا البزازة فارغة كى نتلهى بها ولا نصرخ من الجوع! آه من بعض العلماء! لو كان الحديث قد وضع بعد فتح القسطنطينية لكان هناك مجال لهذا الكلام، أما وقد وقع الفتح بعد تدوين الحديث (لا بعد روايته شفويا فقط) فلا موضع لهذا التنطس والتنطع!

هذا عن محمد الفاتح، الذى يتوجه إليه شاعرنا فى قصيدته البديعة باستغاثاته وآلامه، فماذا عن آيا صوفيا، الذى ورد ذكره فى القصيدة؟

والآن إلى القبو الزجاجى؟ إنه قسم من قصر طوب قابى. وطوب قابى هذا هو أكبر قصور مدينة إسطنبول، ومركز إقامة سلاطين الدولة العثمانية لأربعة قرون من عام ١٤٦٥م إلى ١٨٥٦م. وهو اليوم يجذب أعدادًا كبيرة من السياح بعد أن كان فى السابق يستخدم لمناسبات الدولة، وهو يحوى بعض الآثار المقدسة الإسلامية مثل بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفه. ويتألف القصر من أربعة أفنية رئيسية وعدد من المبانى من مساكن ومطابخ ومساجد ومستشفى وغيرها، وكان يقيم فيه بذروة الدولة ما يقرب من ٤،٠٠٠ شخص. بدأ بناء قصر طوب قابى فى ١٤٥٩م بأمر من السلطان العثمانى محمد خان الثانى فاتح القسطنطينية، وجرى توسيعه على مر العصور. وهو يقع فى منطقة سراى بورنو على طُنُف يطل على القرن الذهبى وبحر مرمرة، ويطل القصر من عدة نقاط على مضيق البوسفور. يقع القصر فى مكان مرتفع وعلى أعلى نقطة قريبة من البحر.

وعقب سقوط الدولة العثمانية فى عام ١٩٢٣م حولت الحكومة التركية القصر إلى متحف بتاريخ ٣ أبريل ١٩٢٤م، وانتقلت إدارة القصر إلى وزارة الثقافة والسياحة التركية. ويحتوى مجمع القصر على مئات الغرف، وتتم حراسته من قبل مسؤولى الوزارة وكذلك حراس من الجيش التركى. يحتوى القصر على العديد من الأمثلة للهندسة المعمارية العثمانية. كما أنه يحتوى على مجموعات كبيرة من الخزف والألبسة والأسلحة والدروع والمنمنمات العثمانية والمخطوطات الإسلامية والمجوهرات العثمانية.

وكان القصر مركز الحكم بالنسبة للسلاطين العثمانيين، ويتكون القصر من عدة أجنحة تخدم فعاليات مختلفة، إذ هناك جناح العهد، وجناح والدة السلطان، وديوان السلطان ووزرائه، وكذلك جناح لكل زوجة من زوجات السلطان، بالإضافة إلى متحف للهدايا التى تهدى إلى السلطان، وساحة للاحتفالات، وأجنحة للحراس والخدم. وقد حُوِّل القصر إلى مُتْحَف،وتوجد به مجموعة كبيرة من الخزف والأثواب والأسلحة وصور السلاطين العثمانيين والمخطوطات والمجوهرات والكنوز العثمانية بالإضافة إلى عروش السلاطين.

وتوجد بالقصر قسم "الأمانات المقدسة"، التى نقلت من المدينة المنورة آبان الثورة العربية، وتحتوى على آثار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: سيفه وعصاته وضرسه وجزء من شعرِه وإحدى رسائله بالإضافة إلى سيوف الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد ومفاتيح الكعبة. وهذا القسم من القصر هو مقصدنا ومبتغانا، فهو القسم الذى شاهد فيه شاعرنا ما سماه: "القبو الزجاجى"، وهى تسمية حيرتنى كثيرا وأنا ألقى بين الحين والحين نظرة عليها محاولا تخيل شكل هذا القبو وموضعه. لقد حسبت فى البداية ولوقت غير قصير أنه قبو تحت الأرض لكنه ليس من حجر أو حديد أو خشب بل من زجاج، بل لقد ظننت أنه جزء من مسجد آيا صوفيا، الذى حُوِّل بأمر من مصطفى كمال أتاتورك متحفا، وفيه هذا القبو، الذى لا يحوى سوى بضعة سيوف. لقد ركزت القصيدة على هذا، فكان هذا هو ما فهمته. وهو دليل باتر على وجوب الاستعانة بكل ما يعيننا على فهم الأثر الأدبى وتذوقه. ومعروف أن كثيرا من هذه المعلومات المساعدة لا تكون داخل الأثر بل فى خارجه، وإلا فلقد قرأت القصيدة التى بين أيدينا عدة مرات وأنا حائر بائر. إن القصيدة ليست دليلا سياحيا حتى يشرح لنا الشاعر كل شىء. إنه يركز على ما

أثاره هناك، وهو ما سماه: "القبو الزجاجى" وعِبَر الحياة التى استخلصها منه، والمشاعر التى أثراها فى نفسه، والآلام المتناوشة الشديدة الإيلام التى شرعت تنهشه جراء مشاهدته لذلك "القبو".

لقد ظننت أنه أُخِذَ فى زيارة خاصة لذلك القبو فى مكان معتم لا يرتاده أحد، فكان هذا الحزن وذلك الألم الممض. ثم اتضح لى بعد بحث وتقصٍّ على المشباك الأمر كله حين اصطدمت باسمين هما "الأمانات المقدسة" و"طوب قابى"، فأردت أن أشرككم معى فى هذا حتى تكونوا على بينة مما جاء فى القصيدة ومما سوف أكتبه هنا بغض النظر عن قيمته العلمية والأدبية والنقدية. وفى قسم "الأمانات المقدسة" تستمر قراءة القرآن من مشائخ مخصصين لهذا ليلا ونهارا دون انقطاع منذ عدة قرون. ويشتمل هذا القسم على آثار النبي والصحابة من سيوف ورماح وأقواس وعِصِيٍّ ورسائل وملابس ونعال، علاوة على بعض الأشياء الخاصة بالسيدة فاطمة الزهراء. وهناك إلى جانب ذلك مقتنيات تخص بعض الأنبياء السابقين كموسى وداود ويحيى. وقد استعنت، ضمن ما استعنت به، بعدد من الشرائط المصورة كى أفهم وضع المشهد الذى صوره لنا شاعرنا على حقيقته. وكانت هذه الآثار معروضة للمشاهدين من سياح ومواطنين داخل خزانات واسعة جدا وصناديق ونواويس زجاجية أو خلف واجهات من الزجاج، وبجانب كل أثر ورقة تعرِّف به. وفى أحد هذه الصناديق أو النواويس شاهد شاعرنا تلك السيوف التى شَكَّلَتْ بذرة القصيدة. وبالمناسبة لا علاقة لهذا كله، عكس ما كنت فاهما فى مبتدإ الأمر، بمسجد آيا صوفيا، الذى حوله أتاتورك إلى متحف كما سبق التنويه، ثم تحول فى عهد رجب طيب أردوغان إلى مسجد مرة أخرى منذ سنوات قليلة بحكم محكمة، والذى سمعت بعضهم يقترح تسميته: "مسجد

محمد الفاتح". فانظر الآن إلى الفرق بين ما كنت أتصوره عن القبو الزجاجى وما اتضح لى من حقيقته.

والآن إلى مسجد أيا صوفيا، وهو أروع وأشهر نموذج للعمارة البيزنطية فى العالم. وهو فى الأصل كاتدرائية بناها جستنيان الأول بين عامى ٥٣٢ و٥٣٧م فى إسطنبول. واستعمل المبنى مسجدًا بعد عام ١٤٥٣م عندما فتح الأتراك المدينة. وأصبحت أيا صوفيا مُتْحَفًا عام ١٩٣٥م، ثم عاد فتحول فى عهد رجب طيب أردوغان مسجدا كرة أخرى بحكم محكمة. ويعطى شكل المبنى الداخلى إحساسًا بالسعة والعلو والفخامة، كما استعملت الفسيفساء لتزيين بعض الجدران والقباب. وكان الأتراك قد وضعوا غطاءً فوق هذه الصور، ولكنهم كشفوا عنها عندما أصبح المبنى مُتْحَفًا، ووُجِدت كذلك صور جميلة يمثل بعضها شخصية المسيح والعذراء، وصور لعدد من الحكام. ولا تزال بعض هذه الصور مكشوفة الآن فى المسجد، الذى يقترح بعض الأتراك تسميته: "مسجد محمد الفاتح". وفى مدخله توجد لوحة منقوش عليها الحديث القائل: "لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ. فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ".

وبعض النقاد ينظر إلى هذا اللون من الشعر على أنه شعر جهير عالى الصوت والنبرة، وهو ما يناسب الخطب والخطباء لا الشعر ولا الشعراء، وأنه قد يكون لائقا بعصور مضت كان الشعراء العرب فيها يمدحون كبار القوم بالصوت العالى ويبالغون ولا يَصْدُقون، ويتكلمون ولا يفعلون. ومثل هؤلاء النقاد يرون أن الشعر ينبغى أن يكون همسا ونجوى وسرارا بين الشاعر والقارئ ولا يصح أن يكون عالى الصوت مجلجل النغم بحال، إذ هذه سمة البدائيين، أما المتحضرون فكلامهم هادئ النبرة خفيض الصوت لا صياح فيه ولا صراخ.

وحسبما أعرف فالدكتور مندور، ولعلى لا أكون مخطئا، هو من تولى كبر هذه الدعوى فى كتابه: "فى الميزان الجديد" حين كان بصدد تحليل قصيدة ميخائيل نعيمة: "أخى"، التى يرثى فيها لقتلانا نحن العرب فى الحرب العالمية الثانية، إذ ماتوا دون أن يذرف أحد عليهم دمعة لأنهم ينتمون إلى أمة بائسة ضعيفة لا يبالى بها أحد وليس لها من أعمال البطولات فى تلك الحرب ما يمكن أن تفخر به كما يتفاخر الغربيون المنتصرون. وهذا نص قصيدة نعيمة:

أخى، إن ضج بعد الحرب غربى بأعمالهْ

وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطالهْ

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا

بل اركع صامتا مثلى بقلب خاشع دام

... لنبكى حظ موتانا

* * *

أخى، إن عاد بعد الحرب جندى لأوطانهْ

وألقى جسمه المنهوك فى أحضان خلانه

فلا تطلب إذا ما عدت للأوطان خلانا

لأن الجوع لم يترك لنا صحبا نناجيهم

... سوى أشباح موتانا

* * *

أخى، إن عاد يحرث أرضه الفلاح أو يزرعْ

ويبنى بعد طول الهجر كوخا هدّه المدفعْ

فقد جفَّت سواقينا وهد الذل مأوانا

ولم يترك لنا الأعداء غرسا فى أراضينا

... سوى أجياف موتانا

* * *

أخى، قد تم ما لو لم نشأه نحن ما تما

وقد عم البلاء ولو أردنا نحن ما عما

فلا تندب، فأُذن الغير لا تصغى لشكوانا

بل اتْبَعْنى لنحفر خندقا بالرفش والمعولْ

... نوارى فيه موتانا

* * *

أخى، من نحن؟ لا وطنٌ ولا أهلٌ ولا جارُ

إذا نمنا، إذا قمنا، رِدَانا الخزىُ والعارُ

لقد خمّت بنا الدنيا كما خمت بموتانا

فهات الرفش واتبعنى لنحفر خندقا آخرْ

... نوارى فيه أحيانا

وهى قصيدة يسودها الضعف والهوان والانكسار واليأس، ولا يمكن مثل هذا الشعر أن يرفع روحا معنوية هابطة ولا أن يستجيش المشاعر. وحتى لو كان المقصود هو تقريع شعوبنا الغافلة وتقصيرها فى حق ذاتها، وهى فعلا كذلك وتستحق هذا التقريع بل الضرب بالإرزبة على أدمغتها، فليس هذا هو الأسلوب التعبيرى الملائم للسياق. إن للتقريع واستجاشة الهزائم الهابطة المنحطة لأسلوبا آخر. إننا لا نريد الجعجعة والتصايح الفارغ والتهديدات المقعقعة التى ما أخافت بعوضة، بل نقصد إلى القول بأن جو الحروب غير جو الخانعين المضعضعين الباكين كالنساء والأطفال والعجزة.

وإن نونية عمرو بن كلثوم التى يدمدم فيها وتتفجر أبياته بالقنابل والصواريخ قبل ظهور القنابل والصواريخ بقرون لهى القصيدة التى لا تدانيها مليون قصيدة من ذلك النوع المتهافت الذى يفاخرنا به مندور ويقول بملء فمه، ولا أدرى من أين له كل هذه الثقة العرجاء التى يتشدق بها، إنه هو الشعر العربى الوحيد الذى سوف يبقى على مر الزمن. فأل الله ولا فألك يا دكتور مندور.

إن هذا يذكرنى بانتفاشة د. مندور وهو يسرق جان كالفيه فى كتابه: "نماذج بشرية" زاعما، وزاعمة زوجته معه، أن ما كتبه عن تلك النماذج هو من بُنَيَّات عبقريته، وحين لمس موضوع هذه السرقة فيما بعدُ أستاذان من دار العلوم فى أحد البرامج الإذاعية الثقافية لمسا سريعا انبرت لهما السيدة ملك عبد العزيز زوجة د. مندور فسفهت ما قالاه واتهمتهما واتهمت دار العلوم معهما فوق البيعة بأن منهجهما فى تذوق الأدب منهج متخلف عقيم، أو شىء بهذا المعنى، فتذكرتُ ما صنعه اليهود مع الفلسطيين، الذين اغتصب الصهاينة بلادهم منهم بمساعدة الدول الغربية المجرمة كلها وأخرجوهم من ديارهم واستولوا على بيوتهم وحقولهم ومؤسساتهم ثم استداروا واتهموهم بالتخلف

والإرهاب ودكوهم ونسفوا بيوتهم ونساءهم وأطفالهم بكل ألوان السلاح الفتاك المدمر. نفس الطينة! نفس العينة! نفس المنطق! وهو ما أثار حميتى، فضمنت كتابى عن مندور فصلا طويلا أثبتُّ فيه بالنصوص الفرنسية الأصلية والمقارنة بينها وبين كلام مندور فى كتابه المذكور بما لا يدع مجالا لأى مكابر عريق فى اللف والدوران واللجاجة يريد نصرة الرجل بالباطل أن يفتح فمه أن مندور سرق كالفيه مهما ورم من أنوف.

وبالمناسبة فمندور لم يخترع مصطلح "الشعر المهموس" كما يقول حَمَلَةُ المباخر الكَذَبةُ الجهلةُ الفَجَرَة بل أخذه عن الفرنسيين، الذين يصفون الشعر فى هذه الحالة بأنه: "mi-voix" على ما كتبتُ فى كتابى: "د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة (ثلاث قضايا ساخنة)". وهناك مثلا نص يقول: " Je chante les révoltes qui m'étouffent parfois, Timide ou désinvolte, je les chante à mi-voix. (G. Moustaki)"، وهو لِمُغَنٍّ مصرىّ فرنسىّ يهودىّ ذى أصول متعددة اسمه جورج مستاكى يخبرنا أنه حين تخنقه الانفعالات القوية فإنه يغنيها بصوت "مهموس" (وهذا إن أردت أن نتابع د. مندور فى ترجمته لهذا اللفظ، أو "بصوت هامس" إذا أحببت). وهذا صحيح فى بعض الأحيان والظروف، وبخاصة إذا كان الأمر محصورا بين الشخص ونفسه أو بينه وبين صديق أو حبيب مقرَّب. لكن أحوال الحياة أوسع وأعمق وأكثر تنوعا وتعقيدا من هذا.

إن شعر الثورات هو شعر القعقعة (الصادقة بطبيعة الحال لا القعقعة الفارغة التى طالما برعنا فى القرون الأخيرة فيها وحزنا قصب السبق بكل جدارة واستحقاق). وقد كانت أشعارنا مدوية أيام انتصاراتنا، وهذا دليل

على كذب الزعم بأن الصوت الشعرى العالى هو بطبيعته صوت أجوف. أَجَلْ إنه يكون معيبا غاية العيب فى حالة ما لو كان أجوف، وهو بالفعل قد يكون أجوف، أما إذا كان مفعما بالقوة والقدرة والثقة ويستند إلى أساسات الانتصار والظَّفَر فهذا هو الشعر المثالى. وهذا هو مقطع الحق فى هذه القضية باختصار.

وانظر مثلا إلى نشيد "الله أكبر"، الذى كان يدوى أيام العدوان الثلاثى على مصرنا الحبيبة عام ١٩٥٦م، وكذلك نشيد "دع سمائى، فسمائى محرقة" بصوت فايدة كامل الهادر، وكيف استجاشا المصريين للدفاع عن بلادهم فى بورسعيد بكل ما لديهم من عزيمة وطاقة وتضحية، وقارن بينه وبين أغنية "عَدَّى النهار"، التى غناها عبد الحليم حافظ عقب هزيمة ١٩٦٧م بروح مندحرة: على الأقل فى مطلعها، وصوت لا يليق بالرجال بل بالنساء اللاتى يوشكن أن يلطمن، صوت يتحقق فيه الهمس الذى يتغياه د. مندور أو يشبهه. وعندنا من شعر الثورات الهادر نشيد "أقسمت باسمك يا بلادى" لعبد الوهاب فى بداية خمسينات القرن الماضى، ونشيد "بلدى أحببتك يا بلدى" لمحمد فوزى، وقبل ذلك بسنوات غير قليلة كان لدينا وما زال يذاع حتى الآن فيستولى على الأفئدة استيلاء كاملا نشيد مصطفى صادق الرافعى البديع: "لك يا مصر السلامة".

أيصح أن يقال فى مثل تلك الأناشيد إنها ليست من الشعر المهجرى المهموس ومن ثم لن يكتب لها الخلود مع شعر المهجريين، وكأن المهجريين لم تلدهم ولادة بل كأنهم هم المعيار للشعر الخالد؟ الحق أنه لا يقول بذلك إلا من لا ذوق له. وعلى ذكر المهجريين فإن شاعرنا عبد الرحيم محمود لا يشاطر، وأنا معه لا أشاطر، د. مندور هوسه المنفلت غير المنطقى بشعر المهجر، وأرى

أنه لون من ألوان الشعر العربى فيه الجيد وفيه الردىء، لكنه فى الحالين لا يصح إطلاقا وضعه فى قمة ذلك الشعر ولا أن نقول إن الشعر كله ينبغى أن يكون فى موضوعات الشعر المهجرى وعلى نفس النحو، وإلا لوجب أن نقول: لقد هُزِلَتْ وسامها كل مفلس! وكان من رأى الشاعر البطل أيضا د. عمر فروخ أستاذ الأدب العربى ببيروت فى ذلك الزمان. وهذا موجود فى آخر الأعمال الكاملة لعبد الرحيم محمود فى مقالاته التى كان ينشرها أوانذاك فى مجلة "المنتدى". ثم ماذا نقول فى بائية أبى تمام فى فتح عمورية، وهى من سوامق القصائد فى الشعر العالمى جميعه أفكارا وتصويرا وتعبيرا وخيالا ونارا تتلظى وحماسة تكاد تذيب الحديد إذابة؟ فهل ينبغى أن نعيبها حتى يرضى عنا مندور؟ وهل يقول عاقل بأنها لا ترقى لشعر المهجر؟ ترى أين ذهب الذوق يا ربى؟ وماذا نقول فى مدائح المتنبى فى سيف الدولة رمز البطولة والشجاعة والإقدام، وهى من درر الشر فى كل العصور؟

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الشعر الهجائى، سواء كان هجاء شخصيا أو هجاء اجتماعيا أو قوميا، شعرا مهموسا. وعندنا فى تاريخنا الأدبى الميمون شعر هجائى من كل لون، وكثير منه رائع بارع من فنا ومضمونا يشده العقل والخيال.

على أن الشعر المجلجل لا يقتصر على الثورات والمعارك والهجاء والمدائح فقط بل كثيرا ما يكون فى شعر الغزل حين يبرح العشق بالشاعر العاشق فيفقد عقله أو يوشك أن فيصرخ من نيران الألم التى لا تطاق. قال قيس بن ذريح فى حبيبته لبنى حين بلغه قولها عنه إنه ليس مريضا جراء تولله بها بل يتمارض، فبلغه ذلك فقال:

تكاد بلاد الله يا أم معمرٍ بما رحبت يومًا على تضيقُ

تكذبنى بالــود لبنى، وليتهـــا تكلَّف منى مثله فتذوق
ولو تعلمين الغيب أيقنت أننى لكم، والهدايا المشعَرات، صديق
تتوق إليك النفس ثم أردها حياءً، ومثلى بالحياء حقيقُ
أذود سوام النفس عنك، وماله على أحدٍ إلا عليك طريق
فإنى، وإن حاولت صرمى وهجرتى، عليك من حداث الردى لَشفيقُ
ولم أر أيامًــا كأيامنــا التى مررن علينا والزمان أنيق
ووعدك إيانا، ولو قلتِ: عاجلٌ، بعيدٌ كما قد تعلمين سحيق
وحدثتَنى ياقلب أنك صابر على البين من لبنى فسوف تذوق
فمتْ كمدًا أو عش سقيمًا، فإنما تكلفنى مالا أراك تطيقُ
أطعت وشاةً لم يكن لك فيهم خليلٌ ولا جارٌ عليك شفيق
فإن تك لما تَسْلُ عنها فإننى بها مغرمٌ صب الفؤاد مشوق
بلبنى أنادى عند أول غشية ويثنى بها الداعى لها فأفيقُ
شهدتُ على نفسى بأنك غادةٌ رداحٌ وأن الوجه منك عتيق
وأنك لا تجــزيننى بصحـابةٍ ولا أنا للهجران منك مطيق
وأنك قسمــت الفؤاد: فنصفه رهينٌ، ونصفٌ فى الحبال وثيق
صَبوُحى، إذا ما ذرَّت الشمس، ذكرُكم ولى ذكركم عند المساء غَبُوُقُ
إذا أنا عزيت الهوى أو تركته أتت عبراتٌ بالدموع تسوق
كأن الهوى بين الحيازيم والحشى وبين التراقى واللهاة حريق
فإن كنتِ لما تعلمى العلم فاسألى فبعضٌ لبعضٍ فى الفعال فَؤُوقُ
سلى: هل قلانى من عشيرٍ صحبته؟ وهل مَلَّ رحلى فى الرفاق رفيق؟
وهل يجتوى القوم الكرام صحابتى إذا اغبرَّ مخشىُّ الفجاج عميقُ؟

وأكتم أســـرار الهوى فأُميتها إذا باح مزّاحٌ بهـــن بـــروق
سعى الدهر والواشون بينى وبينها فقطّع حبل الوصل وهو وثيق
هل الصبر إلا أن أصد فلا أرى بأرضك إلا أن يكون طريق؟

حتى شعر الرثاء كثيرا ما يكون جهيرا لا هامسا ولا مهموسا. خذ عندك رثاء أبى تمام لابن حميد الطوسى، وكان كريما وفارسا مقداما لا يعرف الضعف ولا يعرفه الضعف، ومات فى إحدى المعارك التى كان ينصر فيها الإسلام وأمته، فهب أبو تمام يرثيه بقصيدة هى فتح من الفتوح رغم أنها ليست من الشعر المهجرى المهموس:

أَلا فى سَبيلِ اللَهِ مَن عُطِّلَت لَهُ فِجاجُ سَبيلِ اللهِ وَاِنثَغَرَ الثَّغْرُ
فَتَىً" كُلَّما فاضَت عُيونُ قَبيلَةٍ دَمًا ضَحِكَت عَنهُ الأَحاديثُ وَالذِّكْرُ
فَتًى" ماتَ بَينَ الضَّرْبِ وَالطعنِ ميتَةً تَقومُ مَقامَ النصرِ إِذ فاتَهُ النصرُ
وَما ماتَ حَتّى ماتَ مَضْرِبُ سَيفِهِ مِنَ الضربِ وَاِعتَلَّت عَلَيهِ القَنا السُّمرُ
وَقَد كانَ فَوتُ الموتِ سهلًا فَرَدَّهُ إِلَيهِ الحِفاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعرُ
وَنَفسٌ تَعافُ العارَ حَتّى كَأَنَّهُ هُوَ الكُفرُ يَومَ الرَّوعِ أَو دونَهُ الكُفرُ
فَأَثبَتَ فى مُستَنقَعِ الموتِ رِجلَهُ وَقالَ لَها: مِن تَحتِ أَخمَصِكِ الحَشرُ
غَدا غَدوَةً وَالحَمْدُ نَسجُ رِدائِهِ فَلَم يَنصَرِف إِلّا وَأَكفانُهُ الأَجْرُ
تَرَدّى ثِيابَ المَوتِ حُمرًا فَما أَتى لَها الليلُ إِلّا وَهى مِن سُندُسٍ خُضرُ
كَأَنَّ بَنى نَبهانَ يَومَ وَفاتِهِ نُجومُ سَماءٍ خَرَّ مِن بَينِها البَدرُ

أو رثاء المتنبى لخولة أخت سيف الدولة، الذى لا أقرؤه إلا ويقف شعرى وتجيش منى شؤون عينى:

يا أُختَ خَيرِ أَخٍ يا بِنتَ خَيرِ أَبٍ كِنايَةً بِهِما عَن أَشرَفِ النَسَبِ

أُجِلُّ قَدرَكِ أَن تُسْمَىْ مُؤَبَّنَةً وَمَن يَصِفْكِ فَقَد سَمّاكِ لِلعَرَبِ
لا يَملِكُ الطَرِبُ المَحزونُ مَنطِقَهُ وَدَمعَهُ وَهُما فى قَبضَةِ الطَرَبِ
غَدَرتَ يا مَوتُ كَم أَفنَيتَ مِن عَدَدٍ بِمَن أَصَبتَ وَكَم أَسكَتَّ مِن لَجَبِ
وَكَم صَحِبتَ أَخاها فى مُنازَلَةٍ وَكَم سَأَلتَ فَلَم يَبخَل وَلَم تَخِبِ
طَوى الجَزيرَةَ حَتّى جاءَنى خَبَرٌ فَزِعتُ فيهِ بِآمالى إِلى الكَذِبِ
حَتّى إِذا لَم يَدَع لى صِدقُهُ أَمَلًا شَرِقتُ بِالدَمعِ حَتّى كادَ يَشرَقُ بي
تَعَثَّرَت بِهِ فى الأَفواهِ أَلسُنُها وَالبُردُ فى الطُرقِ وَالأَقلامُ فى الكُتُبِ
كَأَنَّ "فَعْلَةَ" لم تَمْلَءْ مَواكِبُها دِيارَ بَكْرٍ وَلَم تَخلَع وَلَم تَهَبِ
وَلَم تَرُدَّ حَياةً بَعدَ تَولِيَةٍ وَلَم تُغِثْ داعِيًا بِالوَيْلِ وَالحَرَبِ
أَرى العِراقَ طَويلَ اللَيلِ مُذ نُعِيَت فَكَيفَ لَيلُ فَتى الفِتْيانِ فى حَلَبِ؟
يَظُنُّ أَنَّ فُؤادى غَيْرُ مُلتَهِبٍ وَأَنَّ دَمْعَ جُفونى غَيْرُ مُنسَكِبِ
بَلى وَحُرْمَةِ مَن كانَت مُراعِيَةً لِحُرمَةِ المَجْدِ وَالقُصّادِ وَالأَدَبِ
وَمَنْ مَضَت غَيْرَ مَوروثٍ خَلائِقُها وَإِن مَضَت يَدُها مَوروثَةَ النَشَبِ

ومن غريب أمور حياتى ما سمعته من دكتور جامعى فلسطينى يعمل ببولندة قابلته فى مؤتمر أدبى عربى بالأردن قبل نحو اثنين وعشرين عاما وصف شعرا كتبه قاض مصرى يناصر القضية الفلسطينية مناصرة مؤزرة بأنه شعر تقليدى لا قيمة له، وفهمت منه أنه يفضل ألا يكون الشعر مباشرا، وهو نفس ما يقصده د. مندور بـ"الشهر المهموس"، مضافا إليه الغموض والفتور. فهذا هو الشعر عنده، وإلا فلا. لقد كان مسكونا بأوهام الحداثة والحداثيين. ولو أنصت إليه الشعراء فى كلامهم عن فلسطين لنام الفلسطينيون من يومذاك وماتت القضية بلا بعث! وأحيانا ما أتساءل: ألا يمكن أن يكون يهوديا متخفيا وراء الهوية الفلسطينية؟

ومع هذا فقد قرأت فى موقع "إيلاف" بتاريخ الجمعة ٨ نوفمبر ٢٠١٣ مقالا عن د. محمد مندور تحت عنوان "مساجلات مندور" بقلم عزيز الحاج وردت فيه السطور التالية، وهى تسير عكس ما قلناه هنا، إذ هى تمجيد لمندور وهجوم على النبرة القوية فى الشعر، ولا أدرى سر غرام بعض الناس بما يسمونه: الهمس وتصورهم أنه صالح لكل الظروف. إن للهمس سياقاته، وللجهر سياقاته، وإن الغربيين حين يقاتلوننا لا يهمسون بل يصيحون ويملأون الدنيا أكاذيب صارخة ويكررونها ويظلون يتصايحون بها آناء الليل وأطراف النهار دون توقف متهمين إيانا بالإرهاب والعدوان بينا هم الذين يقتلوننا بالقنابل والصواريخ الفتاكة، ويدكون بيوتنا وأحياءنا ومدننا دكا، ويقضون على الآلاف المؤلفة منا وربما الملايين فى الوقت الذى إذا نجحنا فى عملية دفاعية ضدهم كانت حصيلة خنازيرهم من القتلى عددا يحصى على أصابع اليد أو اليدين فى الغالب، ومع هذا تطن أرجاء العالم من أقصاه إلى أقصاه باتهامنا بالقتلة السفاحين المجرمين. إننا لا نحب الجعجعة ما دمنا لا نستطيع عمل شىء، لكن لا بد من استحثاث بل استفزاز المشاعر واستنهاض القوى وتعبئة الناس ليعرفوا حقائق صراعنا مع العدو، ولا يكون هذا بالوشوشة. الوشوشة تحبها شادية فى مواقف الدلال والغرام، أما فى الحرب والمعارك والصراعات فلا همس ولا خفوت إلا حين نتدارس الخطط والأسرار ونعد للمعركة. ونحن، هذه الأيام، نسمع الصهاينة والصليبيين الغربيين فى أمريكا أوربا يتوعدوننا بالويل والثبور ونكال الدهور وفتح أبواب الجحيم على مصاريعها. أفليست هذه جهارة؟ وإذا كنا قد أتينا بأمثلة على الصوت العالى فى الحب والرثاء والهجاء أفلا يكون ميدان الحرب هو ميدان الصوت العالى؟ فمتى إذن يا إلهى نرفع أصواتنا؟

وفى كتاب د. محمد مندور: "فى الميزان الجديد" نراه يرد على سيد قطب، الذى لم تعجبه دعوة مندور للهمس عمالا على بطال ظنا منه أن الدنيا كلها همس ونجوى وحفيف نسيم، قائلا: "يريد الأستاذ السيد قطب أن يجعل ما سميته الهمس فى الشعر نوعا من الأدب يتميز بالإحساس الذى يغذيه، فهو شعر الحنين أو "الحنية" كما يقول، وهو يحذر القراء من آرائى لخضوعها لطبع خاص أقرب إلى المرض منه إلى الصحة، ولكننى بحمد الله لست مريضا، ولا أذكر أنى مرضت يوما ما، وأنا على العكس سليم الجسم صُلْب البناء متمتع بكل قواى الجسمية والعقلية، وشخصى بعد ليس موضع الحديث، والهمس فى الشعر ليس "الحنية" ولا هو خاص بنوع من الإحساس، وإنما هو مذهب فى الفن، مذهب عام لا يتقيد بمادة...

قلت: إننى لا أحب اللجاجة فكيف إذا انقلبت مزيجا من المهاترة والمغالطة، وها هو الأستاذ سيد قطب يعود إلى "مزاجى" الخاص فيدعى أن آثر شخصية لدى من شخصيات القصص التى حللتها فى سلسلة "النماذج البشرية" هى شخصية "فيلسيتيه" للكاتب الفرنسى "فلوبير" وذلك لما بها من "حنية"، كما يقول!

ولكننى لم أوثر شخصية على أخرى إلا أن يريد الأستاذ قطب حملى على ذلك الإيثار و"فيلسيتيه" بعد ليست النموذج الوحيد الذى تحدثت عنه، فثمت "فوست" يمثل الإقبال على الحياة والهم إلى المعرفة عن سبيل المغامرات، و"دون كيشوت"، والمجالد للبشر، رغم إخفاقه. و"هملت" العقل النافذ نفاذا يشل الإرادة. و"جوليان سوريل" الثائر على مواضعات الحياة الاجتماعية. و"ألست" الناقم على البشر انحلال أخلاقهم. و"فيجارو" المنتقم من الحياة

بالسخرية. "وإبراهيم الكاتب" الذى تعلق بالحياة حتى مجها. "وجفروش" الطفل الباسم عن جسارة قلب، وغيرهم ممن لا صلة لهم "بالحنية" والمزاج الخاص.

لقد حللت هذه النماذج مظهرا ما فيها، وهى عندى سواء، فلا محل إذن لمغالطة الأستاذ قطب وإصراره على زعمه أنى لا أوثر إلا لونا واحدا من الإحساس (إبراهيم عوض: لا أدرى كيف واتت د. مندور نفسه للتنفج بالكتاب الذى يحمل اسمه زورا وبهتانا بعنوان "نماذج بشرية"، فالكتاب مسروق من جان كالفيه فيما يخص شخصيات الروايات الأوربية، ومن د. نعمات فؤاد فيما يخص إبراهيم الكاتب، بطل رواية المازنى المسماة بهذا الاسم. ومن يرد أن يتحقق من ذلك يستطع أن ينزّل كتابى عن د. مندور من المشباك (النت)، وعنوانه "د. محمد مندور بين أوهام الادعاءات العريضة وحقائق الواقع الصلبة" ويقرأ ما كتبته عن هذا الموضوع بالصوت والصورة مع القبض على المتهم، ويده والسكين التى تمسك بها مضرجتان بالدماء).

ويأبى الأستاذ قطب إلا أن يضيف إلى المغالطة المهاترة بحيث لا أرى بدا من أن تكون هذه الكلمة آخر حديث لى فى هذا الموضوع. يرى الأستاذ قطب أن نوع الإحساس الذى أوثره فى زعمه خاص بالنساء وبذوى الأمزجة الخاصة، وأنا لا يرهبنى أن يكون إحساسى على هذا النحو. ويعصمنى من تلك الرهبة جهل نفضته عن نفسى، وبربرية لا يزال يسدر فيها الفطريون من الناس.

لقد سمع الأستاذ قطب أستاذه العقاد يكتب مقالات يثبت فيها أن المرأة غير الرجل، وأن بينهما اختلافا سحيقا فى الطبيعة، وسمع الحمقى من الرجال يزدرون المرأة ويعتبرونها سبة أن يشبه الرجل المرأة فى شيء، فلم يرَ سبيلا للمهاترة خيرا من أن يرد إحساسى إلى المرأة وإلى ذوى الأمزجة الخاصة.

وأنا أحب أن يعلم الأستاذ قطب، وأن ينقل إلى الأستاذ الكبير العقاد أن الحياة البشرية ليست من البساطة بحيث يظنان، وليس بصحيح أن بين الرجل والمرأة اختلافا حاسما فى الطبيعة، وقديما زعم اليونان، وزعمهم حق، أن الآلهة عند خلقها للبشر لم تخلق الرجل والمرأة دفعة واحدة. بل خلقت أعضاء مختلفة، ثم جمعت بين تلك الأعضاء لتسوى الرجل والمرأة كيفما اتفق، وهى لسوء الحظ أو حسنه لم تحرص على نقاء الرجل من عنصر المرأة أو نقاء المرأة من عنصر الرجل، ولهذه الخرافة الرمزية دلالتها، فليست هناك امرأة كاملة الأنوثة، وليس هناك رجل كامل الرجولة، ومن يدعى ذلك إنما يصدر عن عقل باطن أمرضته سخافات العقلية الاجتماعية التى نحيا بينها.

واليونان لا ريب كانوا فى خرافتهم هذه أنبه منى ومن العقاد، وطبعا من الأستاذ قطب، وإنه لمن الحمق أن نحاول تنقص الرجل برد إحدى أحاسيسه إلى المرأة، والشعوب المتحضرة ترى على العكس من ذلك أن فى إحساس الرجل كالمرأة موضع فخار لكبار رجال الفن والأدب، ولعل الأستاذ قطب قد سمع من العقاد أن رينان قد وصف بأعظم الصفات كفنان عندما قيل عنه: إنه يفكر كرجل، ويحس كامرأة، ويتصرف كطفل".

وسواء اتفقنا مع د. مندور أو لم نتفق حول نسبة الذكورة والأنوثة فى تركيب كل من النساء والرجال فلا شك أن الرجولة شىء، والنسوية شىء آخر. ومن ثم لم يكن ينبغى له الاحتجاج بالأسطورة الإغريقية، وبخاصة أنها تعزو التمييز بين الرجل والمرأة إلى العشوائية. تعالى الله خالق النساء والرجال عن العشوائية أو العبث. والإغريق لم يكونوا أنبه من العقاد حين ابتدعوا هذه الأسطورة، وما أكثر أساطيرهم السخيفة، وإن كانوا أنبه من مندور لأنه خدعوه هو وأمثاله فانخدع بكلامهم الخرافى وردده وكأنه رمز على بعض

حقائق الوجود. كما أن تفضيل الرجال عموما على النساء ليس بربرية، ولم يكن العقاد بربريا يوما ما رغم أنى قد أرى فى بعض انتقاداته لجنس النساء شيئا من الغبن لأن المرأة لم تخلق نفسها على هذا الوضع ولا الرجل خلق نفسه. ولعل هذا هو الشيء الوحيد الذى لاحظته عليه فى حلقة تلفازية كنت ضيفها منذ عدة أشهر استعرضنا وناقشنا فيها كتابه العظيم: "المرأة فى القرآن". أما أنه يقول إن الرجل والمرأة مختلفان اختلافا سحيقا فى طبيعتيهما فمبلغ علمى أن هذا ليس من فكر العقاد. وكيف يكون ذلك، وبيننا وبين جنس الحيوان بل وجنس النباتات أيضا مساحة مشتركة: أوسع فى الحيوانات، وأضيق فى النبات؟ إن بيننا وبين النساء مشابه متعدد من الناحية الجسدية والحيوية، لكن فى نفس الوقت بيننا وبينهن اختلافات. والرجل بوجه عام أقوى من المرأة عضليا مثلا وأقدر منها ذهنيا، وأكبر وأشد تأهلا لمجابهة المشقات والأثقال والأخطار والأعباء حتى فيما تحسنه المرأة كما وضح العقاد. ثم هل هناك حروب خاضتها النساء أو حكم دول تولته النساء بالكامل كما يصنع الرجال مثلا؟ ومع هذا فالمرأة هى أمنا وأختنا وبنتنا وزميلتنا وزوجتنا وجارتنا وملهمة شعرنا... ولولا المرأة لكانت الحياة كئيبة مملة تدعو إلى أن يرمى الإنسان نفسه من حالق، ولكن فى أحضان امرأة! فكما يرى القارئ فالمرأة لا غنى عنها مثلما لا غنى للمرأة عن الرجل. كلاهما ردء للآخر، وعضد له، وقوة مضافة إلى قوته.

ديوان "أهداب" لعبد الجواد طايل

صدر ديوان "أهداب" للشاعر عبد الجواد طايل عن مركز الحضارة العربية سنة ٢٠٢٤م فى١٢٨ صفحة محتويا على عدد من القصائد العمودية وعدد آخر من القصائد التفعيلية. وغالبية القصائد فى الحب المحروم الذى يتطلع صاحبه إلى إشباعه أو تجديد العهد به مع حبيبة هاجرة أو غادرة أو متأبية أو غير دارية، وإلى جانبها قصائد أخرى إحداها عن والدى الشاعر اللذين صار يفتقدهما بعد أن كبر فعرف قيمتهما وأفضالهما عليه فى صغره أيام كان يضيق بحنانهما وخوفهما عليه وحرصهما على توجيهه نحو ما يصلحه ويفيده، فيظن هذا منهما تقييدا لحريته. وإحداها فى بكاء أخيه الذى كان يمثل له توأمه الروحى، ووصف فحولة حياته بعد انتقاله لرحمة ربه. وثالثة فى غرق طفل سورى اضطر مع أمه إلى النزوح عن وطنه عبر البحر وموته غريقا...

ورغم تفضيلى الشعر القديم بوجه عام على شعر السطر فإن الشعر العمودى الحديث لم يستطع إلى وقتنا هذا أن يكون امتدادا أصيلا لسلفه القديم عمقا ونغما وفحولة وتوثبا. وقد ألفيت نفسى مشدودا إلى الشعر التفعيلى فى الديوان أكثر من ميلى إلى نظيره القديم. واللافت فى شعر الحب المحروم أو المجدب فى الديوان أنه شعر مهوم لا تستطيع تتبع تفاصيله بوضوح بل تتداخل الرؤى فلا تستطيع فصل بعضها عن بعض. فأنت ترى ولا ترى، وتفهم ولا تفهم، وتظل مذبذبا بين هذا وذاك. ومع ذلك فأنت مستمتع بهذا الذى تقرأ. وتحس أن الشاعر بعد مجاوزته لطور الشباب والتقدم فى العمر يتطلع إلى المرور بتجربة الحب التى تقول القصيدة إنه ينتظرها منذ وقت طويل ويحس بها قريبة منه لكنها لا تسلم قلبها له، بل نشعر أنها تريده بل تبقيه دائما فى

المنزلة بين المنزلتين: فلا هو مطمئن تماما ولا هو يائس تماما، بل يتصور أنها صارت فى يده بينما يده حين ينظر إليها ليتحقق من مدى صدق هذا التصور لا يجد فيها شيئا.

ويتميز أسلوب الشاعر فى هذا الديوان بعدة خصائص لاحظتها، وأحب أن أستعرضها مع القارئ كى يقترب من الشاعر وشعره اقترابا حميميا. وأول شىء أود التوقف إزاءه هو المفردات التى تتكرر فى الديوان على نحو لافت للنظر. فمن الناحية البهيجة لدينا القمر والنجوم، والمطر والغيث والندى، والزهور والعبير، والعصافير والفراشات، والليل والسحر، والابتسام والضحك، والحب والشوق والحنين،والجواهر الثمينة... كما يتضح من الأمثلة التالية:

ضِحكةٌ من قَمَرْ
وابتسامٌ شفيفٌ بلون السَّحَرْ
وصباحٌ يفوحُ برائحةِ الفُلِّ
والياسمينْ
وشَذَى الأقحوانِ المسافِرِ
فوق جناح الحنينْ!
طابعًا قُبلَةً فوق ثغرِ الندى
والزَّهَرْ
ضِحكَةٌ قد أعادت إلى الأُفُقِ الساهِمِ المتجّهِمِ
فصلًا قديمًا

مضى من زمانٍ

يُسَمَّى: ربيعَ العُمُرْ!

* * *

قاوما

الظلامَ بعشقيهما

فاختَنَقْ

وبدَتْ صفحَةُ العشقِ محفوفَةً

بالضياءْ

ثم ظلّا معًا

يستعيذان بالحبِّ

* * *

ضحكةٌ من ذَهَبْ

أشرقَتْ شمسها

فاستحال التَّعبْ

واحةً من أمانٍ وظلّْ

ووسائدَ وردٍ وفُلّْ

وصدَى هَمساتٍ لشدوِ العصافيرِ

بين الغناءِ

وبين الطَرَبْ

وحكايا من الزمن المخمليّ الجميلِ

مطرّزةً كل أحلامِها

بقصائد تغفو على صدرها ألفُ قصَّةِ حُبّْ

* * *

أيُّ نافذةٍ تلك أبصرْتُها

من وراءِ الحُجُبْ

وهى تنشر عبرَ المدى النورَ

من شرفاتِ الشُهُبْ

وعلى وجهها لم تزلْ مسحةٌ من خجلْ

* * *

وكيف أحاولُ أن أتجاهلها

كُلّما بثّتِ الروحَ

فى خَلجاتى

لأجترَّ ذكرى حدائق بابِلْ!

وتلك الخمائِلْ!

وأسندَ رأسى

على حائط الذكرياتِ الأثيرهْ!

فتأخذنى سِنَةٌ

وأنا غارقٌ

خلفَ موجةِ عشقٍ وثيرهْ!

لكى أتأمَّلَ أحلى وأجملَ

عُشبٍ وماءْ؟

* * *

ولى من المريدينَ الذينَ يغبِطوننى

كتيبه!

وأنتِ تَرفُلينَ فى الصِّبا

أميرةً

لكنَّ قلبَها مسافِرٌ

كدُرّةٍ نفيسَةٍ

تُحْمَلُ فى

حقيبَه!

وترد هذه المفردات لدن حديث الشاعر عن الماضى الجميل فى الحب والعلاقات الاجتماعية البهيجة أو فى التطلع إلى مجىء أيام مواتية بعد تقدم العمر والشعور بجدب الحياة والإحساس بأن الأوضاع فى بلاده قد صارت عبئا باهظا لا يطاق. ومن هنا فلا جرم أن تلقانا مفردات أخرى غير مفرداتنا هذه تصف الواقع الجاف والمعاناة الناتجة عنه. لنستمع إليه هنا مثلا وهو يتحدث عن الشبان المخاطرين بحياتهم فى البحر كى يعبروا، ابتغاء البحث عن الرزق، إلى أوربا فى زوارق متهالكة قلما ينجو من الغرق فيها أحد:

فهلْ يا تُرى زارهم هاجِسٌ ذاتَ ليلٍ

وقال لهم:

إنكُمْ ذاهبونَ إلى حتفِكُمْ؟

فما زال إبليسُ حيًّا هنا بينكُمْ!

وكم حثّكُمْ!

وكم قد الحَّ عليكُمْ

وكم غَرّكُمْ!

وأوحَى لكُمْ!

بكلِّ البراءةِ فى لحظة علّكم!

غدًا تحفرونَ، وبعدَ غدٍ،

قبرَكُمْ!

وهل يا تُرى كانَ يُدرِكُ كلُّ فتًى

عندما ودّعَ الأهلَ

أن النهايةَ قد أوشَكَتْ

وأن المُضِيفَ الذى سوفَ يلقاهُ فى البحرِ

بعدَ قليلٍ

هو الموتُ!

أو ربما كانَ أقسى من الموتِ

غولٌ يُسمَّى: الغَرَقْ؟

وفى القصيدة التالية يتجه بالحديث إلى امرأة كان بينه وبينها حب وعشق ثم تركته ثم عادت إليه من جديد ثم رجعت فأقامت العوائق بينها وبينه:

يا من وقفتُ العمرَ خلفَ بابِها

وَكِدْتُ أن أستنفذَ الرصيدا،

لِمَ اقتربتِ فجأةً، وفجأةً

أَقَمتِ صوبَ عشقنا السدودا؟

كأنّنا، واللهِ، لم نكنْ على

عهدٍ، فكيف ننقُضُ العهودا؟

ولم نُتوّجى مَليكةً، ولمْ

تزلْ جميعُ أحرفى عبيدا!

تجثو على أَعقابها قَصيدةً

تَوضّأَتْ وانتَوَتِ السجودا

وألهَبَتْ خيالَ كلِّ العاشقينَ

فى المَدَى: حضارةً وبيدا

ولم تَدَعْ عذراءَ، لا ولافتًى

غِرًّا ويافعًا ولا رشيدا

إلّا وقد توسَّدَت دموعَهُ

ولامَسَتْ النبضَ والوريدا

سيدتى، لا تَرحلى. أو ارحلى

لكنْ دَعِى لِى عِشْقِىَ الوحيدَا

ومن الألفاظ التى تكررت فى الديوان النواسخ التالية: "عسى، عَلَّ، كاد، ما زال": "عسى أن يكون بقاع الإناء رشفة"، "عسى نرتضى بأقلّ القليلْ"، "عسى نُحطِّمُ الأَغلالَ والقيودا"، "عسى تمدّينَ يدًا إليهِ مَرّةً"، "عسَى نَقَرُّ بعدَ ألفِ عامْ"، "عسى قلبُ هذا الزمانِ يَرِقّْ"، "ويُجدِّفُ والموجُ عاتٍ عَسَى تستَقِرُّ القوافى"، "عساهما أن يحلُما بأن كلّ واحدٍ تمدّدا"،

"ورحتَ تسبرُ أغوارَ الزمانِ عَسَى تجترُّ ذاكرةَ الأيامِ والحِقَبِ"، "مُضَمّخًا بعبيرِ الخالدينَ عسى نغارُ أو نقتدى بالسادةِ النُّجُبِ"،

"عسَى نلملِمُ بعضًا من مروءتنا من قبل أن تلتقى النيران بالحَطَبِ"

ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ أن اسم "عسى" فى جملة "عسى نرتضى..." وما يشبهها غير موجود، وعادة ما يقدر النحاة فى مثل ذلك الموضع ضمير شأن. ولا أستطيع أن أذكر رؤيتى لهذا التركيب من قبل. ولعل القارئ أيضا تنبه إلى أن اسم "عسى" فى "عساهما أن يحلُما" منصوب، وكأن هذا الفعل ينتمى إلى "إن وأخواتها" وعومل معاملة "لعلّ"، وإلا لقد كان ينبغى أن يكون الكلام على النحو التالى: "عَسَيَا أن يحلما".

وعلى ذكر "لعل" فقد تكرر استعمال الشاعر لهذا الفعل عريانا من لامه الأولى (هكذا: "عَلَّ"): "علّهم يتقاتلون لأجل رد القدس والأقصى"، "علهم يتصارعون لأجل أن نحيا كراما"، "علّهم يتسابقون لكى يعيدوا مجد بغداد المصادَر"، "علهم يتصدقون بألف نفس كل يوم"، "علهم يستيقظون وقد تحررت المدائن كلها"، "علهما أن يصبحا، من بعد أن تفرقا جسدين، واحدا"، "علكم تحفرون غدا وبعد غد قبركم". وهو استعمال صحيح. قال البحترى (ق٣هـ):

داجــاهُ حيناً عَلَّــهُ أَن يَرعَـوِى فَأَبى وَمــالَ إِلى الهِجَفِّ الجـاسي

وقال الأبله البغدادى (ق٦هـ):

تفكر فى ابن صعلوك وفى ابـ ـــن المرخَّـم علَّه ينجيـــك فكرُ

وقال ابن جبير (ق٦-٧هـ):

علّنــا نلْـقَى خَيــالًا مِنكمــو بلذيـــذ الذّكر وَهْنًــا علّنـــا

وها هو ذا استعمال الشاعر للفعل: "ما زال" فى صوره المختلفة: "لا يزالان مستسلمين معا"، "وما زال يصدح..."، "فما زال إبليس حيا هنا بينكم"، "كنا

حبيبين هنا ولم نزل"، "ولم تزل فراشتى ترف فوق غابة من اللهب"، "امرأة لم تزل تتأرجح بين البراءة والكبرياء"، "لم يمهلوك، فلم تزل بيديك لعبتك الأثيرة"، "أم تُرَى لم تزل طفلة؟"، "أم لم تزل محض حلم...؟"، ولم تزل سنّة فى أمة العربِ"، "ولم تزل، ربما، أوهى من الزَّغَبِ"، "لم تزل تحنو برفق كأبى"، "لم تزل تزيِّن جيد الضحى والأصيلْ"، "ولم تزل جميع أحرفى عبيدا"، "لطفلةٍ لمّا تزلْ يافعة"، "فعسى أن يكون بقاع الإناء رشفة لم تزل"، "رغبة لم تزل تشتعل"، "وعلى وجهها لم تزل مسحة من خجل"، "فأنا لم أزل واقفا صوب بابك"، "لم أزل شغوفا بذاك الغرام الطفولى"، ولم أزل مغيبا أرقص كالذبيح".

أما الفعل: "كاد" فها هو ذا: "تعثَّر أو كاد أن ينكسر"، "وأيقظتْ ما غفا أو كاد ينحسرُ"، "والأرض بى تكاد فى الظلام أن تميدا"، "تكاد أن نموت قبل أن نرسمها". والملاحظ أن اقتران مضارع خبر هذا الفعل هنا بـ"أن" هو الأغلب مع أن القرآن الكريم لا يستخدم مع مضارع خبره حرف "أنْ" قط، وهو ما جعل المتسرعين يخطِّئون دخول "أنْ" عليه، وهذا موقف خاطئ، فقد قلنا ونقول إن الاستعمالات القرآنية هى الأفصح، لكن أفصحيتها لا تعنى أبدا أن أى استعمال آخر غيرها هو خطأ بالضرورة.

ومما يلفت النظر فى أسلوب الشاعر فى هذا الديوان استخدامه عدة مرات للتعبير الشائع فى العامية: "من زمان":

مِـنْ زَمَـانٍ، وقبـلَ هـذا الزمـانِ وهـو نجـمٌ يَهـيمُ دونَ تـوانِ

* * *

أيُّها البحرُ، كنتَ لى من زمانٍ واحـةَ العِشْـقِ والصِّـبا والأمـانى

"فصلًا قديمًا مضى من زمانٍ"، "يحكى عن الوطنِ المُحاصَرِ من زمان بالفِتَنْ"، "يَتسابقونَ لكى يُعيدوا مجدَ بغدادَ المُصادَرَ من زمانٍ". وبالمناسبة فلفظة "الزمان/ الزمن" تتكرر كثيرا فى الديوان. ترى هل هذا انعكاس لشعوره مع التقدم فى العمر بفرار الزمان من بين أصابع أيدينا كالماء، فهو يلهج بذكره كأنه يريد الاستعاضة بتكرار لفظه عن شعورنا بقرب انتهائه بالنسبة لنا؟

ومن سمات أسلوب الديوان أيضا تكرر عبارة "هل تُرَى؟" بتنويعاتها المختلفة: "تُرَى هل أنا كنت مستسلمًا للهوى أم أُصيبَ الهوى فجْأةً بالزَّلَلْ؟"، "عن أى ذنبٍ تُرَى؟ بُوحِى بلا وَجَلٍ"، "فهلْ يا تُرَى زارهم هاجِسٌ ذاتَ ليلٍ؟"، "وهل يا تُرى كانَ يُدْرِكُ كلُّ فتًى عندما ودَّعَ الأهلَ أن النهايةَ قد أوشَكَتْ؟"، "هل تُرى أعجبتكِ القصيدةُ"، "أم ترى لم تزل طفلة...؟"، "هل أظل ببابك ما ظل عمرى، تُرَى؟".

وقد شد انتباهى فى الديوان كذلك استخدام صاحبه أحيانا لـ"إمّا" بمعنى "إنْ" (إنْ+ ما) لكن مع دخولها على الماضى، ومن ثم بلا نون توكيد بعد الفعل لأن الماضى لا يؤكد فى لغتنا إلا شذوذا. وفى القرآن مثلا: "وإمّا تخافَنَّ من قوم خيانة فانبذْ إليهم على سواء" حيث نلاحظ أنها دخلت على الفعل المضارع ونون التوكيد، أما فى الديوان فها هى ذى أمثلته. وسوف يلاحظ القارئ على الفور أنها كلها قد أتت فى الشعر البيتى لا السطرى:

وأنّـــكِ حُـــلْمٌ عَـــصِىٌّ كَسِـيفٌ   ومُنكسِــــرٌ ذاهـــلٌ كالقتيـــلِ!
بغيـــرِ جَنـــاحينِ إمَّـــا تَجَلَّـــى   يودّعـــــنى مُســرِعًا بالرحيـــلِ

* * *

ونافِلـــــةُ القـــولِ أنّى غريقٌ   بـــــلا زورقٍ وبـــلا مهـــرَبِ

شريــــدٌ ولـــولاكما تحرســانِ مع الله إمّــا مضى مـــوكبى!
لأهلَكْتَـــنى أيهــا الدهــرُ، أنعِمْ بتَحْنــانِ أُمّــى وعطــفِ أبى

* * *

ليتـــه مـــزَّقَ قـــلبى إرَبًا وتـــأنَّى عنــد قصــفِ الأَجَــلِ
ليتــــه أَوْعَــــزَ لى أن أنتَهِى مـــن أحــاديثِ النـــوى والجَدَلِ
والتى طــابت لنـــا إمّــا بدا ســامرُ الليــلِ الطويــلِ المُسْدَلِ

والكلام فى المثال الأخير عن السهم الذى سدده إلى قلبه موت أخيه منذ عام وبضعة أشهر، فمن ألم الفراق تمنى لو كانت ذلك السهم قد مزّق قلبه "إِرْبًا إِرْبًا"، أى شِلْوًا شِلْوًا، وليس "إِرَبًا"، إذ "الإِرَب" جمع "إِرْبَة"، و"الإربة" لا تعنى المِزْقَة بل معناها الغرض والهدف والمطمع والهوى والحاجة، وليس هذا موضعها. وكثير منا يستعمل "إِرَبًا" فى ذات المعنى الذى استعملها الشاعر له، فألفيتها سانحة للتنبيه إلى هذا السهو الذى كنا نقع أيضا فيه يوما.

ولا أستطيع تخطئة استعمال الشاعر لـ"إمّا" مع الماضى على النحو الذى رأيناه، فنحن نقول: "إن صُمْتَ صُمْتُ معك"، فلم لا نقول: "إمّا (إنْ+ ما) صمتَ صمتُ معك"؟ وما أكثر تخطئات البعض لما كانت العرب تقوله لأنه لم يمر بالمخطِّئ، فيظن أنه غير مقبول عندهم. ومن ذلك مثلا أننى، وأنا طالب بالجامعة، قرأت فى أحد أعداد مجلة "الأدب" لأمين الخولى تخطئة بنت الشاطئ لإيراد الماضى فعلا للشرط بعد "مهما". ولم أقتنع بما قالته لمعرفتى أننا نستطيع استعمال الماضى والمضارع مع أدوات الشرط، إذ ما المانع؟ وها هو ذا إبراهيم الصولى (ق٢-٣هـ) يقول:

مهما رُزِقْناه من شيء سَيَطْلُبُنا وَلَا نُطيـــق لمــا قد فاتَنا طَلَبــا

وقال ابن الرومى (ق٣ه):

مهما وعدْتَ فمذكورٌ ومحتَسَبٌ وما اصطنعتَ فشيءٌ غَيرُ مُحتسبِ

وقال ابن أبى حصينة (ق٤-٥ه):

وَما ضِقتُ بِالإِقلالِ ذَرْعًا لِأَنَّني أَرى الشيءَ مهما ازدادَ ضِيقًا تَوَسّعا

وقال ابن أبى البشر (ق٦ه):

من كانَ لا يعلم معنى اسمه فإنَّــه يَغْلَــطُ مهمــا ادّعــاه

بل إن أبا العتاهية قد استعمل تركيبا لا أخالنى قرأته أو سمعت به من قبل، وهو دخول "مهما" على مضارع منفى بـ"لم" فتحول إلى معنى الماضوية:

أَيا نَفْسُ، مهمــا لَمْ يَدُمْ فَذَريهِ وَلِلْمَوتِ رَأْى فيــكِ فَانتَظِريهِ

وكل ما أستطيع قوله فى تركيب "إمّا فَعَل..." هو أنى لا أتذكر عثورى به عند غير أ. طايل من الكتّاب والشعراء.

كذلك ألفيت هذه النصوص التى وردت فيها كلمة "ربما" فى غير موضعها المتوقع. ولا أقول هذا على سبيل التخطئة بل لأسجل سمة من سمات لغة الشاعر:

تُدينُ القتيلَ البرىءَ

وتجعلُه، ربّما، يعترِفْ!

فقد جاءت "ربما" هنا اعتراضية، وموضعها المتوقع هو بين "الواو" و"تجعله": "وربما تجعله يعترف". ومعلوم أن الشعر يقتضى أحيانا تراكيب غير منتظرة لأن الشاعر لا يرص الكلمات دائما براحته بل يضطر أحيانا إلى التقديم والتأخير كما هو الحال هنا. وكثيرا ما يكون هذا الاضطرار سببا فى الحصول على شىء منعش. إن الشاعر ليشبه فى بعض الحالات من يسير على

الحبل، وكثيرا ما تكون حركاته الفجائية التى يتقى بها السقوط ويحتفظ بتوازنه مثار إعجاب ودهشة بالغين. وهو ما ينطبق على النصوص التالية:

ومن حناجـرَ تبدو وهى ثـائرةٌ ولم تزلْ، ربما، أوهى من الزَّغَبِ

* * *

مـا مـرّ مـن عمريهمـا وضـاع، رُبّمـا، سُـدَى

* * *

وأنـا أشـكو لتُصْـغِى زمنًـا دونَ ضيـقٍ، ربما، أو مَـلَلِ

أما فى النص التالى فقد تكرر مجىء "ربما" فى أول جملة اسمية، وهو شىء يستحق التسجيل:

فغدًا إن شئنا قد لا نلتقى ربما أقـدارنا لم تُمهِـلِ!
وغدًا مـن بعدِ أن كُنّا معًـا ربما كلّ فـتًى فى مَنـزِلِ!

و"رب" متى أتت عارية عن "ما" دخلت على اسم نكرة تجرّه، وإن كان مبتدأ فى الحقيقة، أما إذا دخلت عليها "ما" فالرأى الغالب فى النحو أنها تختصّ بالجملة الفعلية. لكن شاعرنا أدخلها هنا على اسم. وهناك من فعل ذلك من الشعراء القدماء كما فى الأمثلة التالية:

ربمـا الجامـلُ المؤبَّـلُ فـيهم والعنـاجيجُ بيـنهن المِهَـارُ

* * *

ربمـا ضـربة بسـيف صـقيل بيـن بصرى وطعـنة نجلاء

* * *

ربما ظاعنٌ بها ومقيمُ

وأضيف إليها البيت التالى لعبد الغنى النابلسى، وسيأتى بعد قليل فى سياق مختلف:

ولربمـــــا حســــــراتُه لك أهلكته عـــلى الحكايا

وتثير لغة الديوان بعض المسائل اللغوية التى تحتاج إلى أخذ ورد وتدقيق وتحقيق، وأولها كلمة"حَكَايَا" جمعا لـ"حكاية": "وحَكَايَا من الزمن المخمليِّ الجميلِ"، "والحكايا كلها عن شهرزاد، والسهاد". ذلك أن صيغة الجمع هنا هى "فَعَالَى". وفى كتب الصرف نقرأ فى استعمالات هذا الوزن أن صيغة جمع التكسير: "فَعَالَى" تكون لما كان على وزن "فعلاء" اسما كـ"صحراء وصحارَى، أو صفة لمؤنث لا مذكر لها كعذراء وعذارَى"، وفى الألف المقصورة للتأنيث كـ"حُبْلَى، أو للإلحاق كـ"ذِفْرَى" و"عَلْقَى" فتقول فى جمعها: حَبَالَى، وذَفَارَى، وعَلَاقَى". كما تأتى "فعالَى" جمعا لما كان على وزن "فَعْلَان" كـ"عطشان- عَطَاشَى، وغضبان- غَضَابَى". ومع هذا فهناك أمثلة من أوزان أخرى سماعية تحفظ كما هى، مثل "يتيم- يتامى، وأَيِّم- أيامَى، وطاهِر- طَهارَى".

وعلى هذا فكيف جمعت "حكاية" على"حَكَايَا" أى على وزن "فَعَالَى"، وهى ليست اسما ولا صفة على وزن "فعلاء" كـ"صحراء" و"عذراء" ولا صفة على وزن "فعلان"، ولا تنتهى بألف تأنيث أو إلحاق كـ"حُبْلَى" و"ذِفْرَى" و"عَلْقَى" كما تقول القواعد الصرفية التى تنظم عملية جمع التكسير؟ ومع هذا فجمع "حكاية" على "حكايا" شائع فى كتاباتنا الحديثة. أما قبل ذلك فقد قابلته مرة واحدة فى بيت شعرى لعبد الغنى النابلسى (ق١٧-١٨م)، والقصيدة التى ورد فيها هذا البيت فى التحذير من الحسود:

اصبر على ضر البلايا ... فالصبر من إحدى العطايا

ودع الحسود فإنه ... متعرض بك للمنايا

فى قلبه نارٌ، وإن ... وافاك ضحّاكَ الثنايا

لا تغترر بكلامه ... لك فى جوانحه خبايا

ولربما حسراتُه ... لك أهلكته على الحكايا

زد فى علومك وارتفع ... عنه وكن حَسَن السجايا

واسكن مدينات العُلَا ... ودع الحواسد فى القرايا

ليس النفوس الكاسيا ... ت معارفًا مثل العرايا

والمستقيمات الطريـ ... ـقة ليس كالعُوج الحنايا

أهل النفاق مَضَوْا، ولَـ ... ـكن ها هنا منه بقايا

إن الذين رأوا القبيـ ... ـح بنا لهم كنا مرايا

حفروا ركايا مكرهم ... حسدا فماتوا فى الركايا

واستهزأوا لطهارة ... فينا، وهم خُبْثُ الطوايا

ولنا الأذى قد أكثروا ... ومن الأسى أبدَوْا خفايا

وكل كلمات القافية جاءت على وزن "فَعَالَى" دون أن يكون وزن مفردها واحدا من الأوزان المذكورة أعلاه، بل على وزن "فعيلة" اسما. ويمكن أن نضيف إلى تلك الكلمات "مزيّة- مزايا، ضحية- ضحايا، خليّة- خلايا، قضية- قضايا، عشية- عشايا، وصية- وصايا، سرية- سرايا، بريّة- برايا، شظية- شظايا، حشية- حشايا، منية- منايا". وهناك ما جُمِعَ على هذه الصيغة اسمًا من وزن "فاعلة" كـ"زاوية- زوايا، حاوية- حوايا، راوية- روايا"، ومن وزن "فُعْلَان" صفةً كـ"عُرْيان- عرايا".

ولم أجد معجما فى القديم أو فى الحديث مما فَرَرْتُه أثناء إعدادى هذه الدراسة كلمة "حكايا". ولكنى وجدت فى "المعجم العربى العام" "عَظَاية- عظايا"، وإن كان أول حرف فى "عظاية" مفتوحا بينما أول حرف فى "حكاية" مكسور، لكن هذا لا يقدم ولا يؤخر، فضلا عن وجدانى فى "جامع الدروس العربية" للغلاييني "هِرَاوة- هَرَاوَى"، وحالها حال "حكاية- حكايا" بالضبط. وكذلك وجدت فى بعض المعاجم "إِدَاوة- أَدَاوَى، عِلَاوة- عَلَاوَى".

وهذا قد يثير من جديد مقولة "خطأ شائع خير من صحيح مهجور"، إذ إن الجمع على "حكايات" أكثر انتشارا فيما أتصور من "حكايا"، لكننا من الناحية الأخرى قد وجدنا ثلاثة شواهد على هذا الجمع لأسماء على وزن "حكاية". كما أن هناك جموعا أتت على غير القياس، منها مثلا "أَرْض- أرَضون، أَهْل- أَهْلون، عِزَة- عِزَون، عِضَة- عِضُون" التى جمعت، كما نرى، جمعا مذكرا سالما رغم عدم توفر شروط هذا الجمع فى أى منها. وهناك "الأراضى والأهالى"، وجمعهما القياسى "آراض وآهال"، أو "أُرُوض وأُهُول". وفى جمع التكسير يصنفون صيغه إلى صيغ تدل على أن الجمع بها جمع قليل (من واحد إلى عشرة)، وصيغ تدل على أن الجمع بها كثير (من أحد عشر إلى ما شاء الله)، ثم يعودون فيقولون إن هذين الصنفين يتبادلان موقعيهما. وكثيرة هى الصيغ الشاذة فى جموع التكسير التى يحاول العلماء عبثا تعليل شذوذها محاولين ربطها بالقاعدة العامة بتعمل ساطع لا يقنع قطة.

وهناك أيضا كلمة "كاسة" ("كأسة"، ولكن بتسهيل الهمزة)، التى ليس لها وجود فى المعاجم:

لينفضا العناءَ والتَّعَبْ

ويشربا من كاسةٍ لذيذةٍ

لطالما

معينُها نَضَبْ

والتى لم يكتف بها مفردة بل جمَعها أيضا: "كاسات":

يطوِّقُنا بالعناقِ اللذيذِ

ونُغرقُهُ فى بحورِ الخليلِ

ويَملأُ كاساتِنا الظامئاتِ

بفيضٍ من الشّهدِ والسلسبيلِ

ومثلها كلمة "نجمة"، التى لا أظنها وردت فى أى معجم قديم، إذ قرأت مادة "ن ج م" فى عدد منها فلم أعثر على استعمالها بتاء التأنيث بمعنى الجرم السماوى المضىء، بل بمعنى النبات عديم الساق، وإن كانت قابلتنى على استحياء فى بعض الشعر السابق على العصر الحديث. يقول شاعرنا:

وتختفى

كنجمة فريدة

خلف السحب

* * *

وسافَرَا على جناحِ همسةٍ

وفوقَ متنِ قُبلَةٍ

إلى نُجَيْمَةٍ تهيمُ بالسُّحُبْ!

ونحن نعرف أن اللغة كثيرا ما تضيف تاء مربوطة فى آخر بعض الأسماء فيكون لها نفس مدلولها الأول لكن مع صغر حجم المدلول أو ضآلة مقداره كـ"دار- دارة، رمل- رملة، بحر- بحرة، مطر- مطرة، خبز- خبزة، قصيد- قصيدة، قرص- قرصة، كوب- كوبة". وفى العامية يقولون: "أَمَلَة" (من "أَمَل")، حطبة (من "حطب")، خشبة (من "خشب")، حديدة (من "حديد"). لا بل إننا قد نأتى إلى اسم جامد ليس فيه تأنيث فنؤنثه ونحصل على معنى جديد، مثل "عضو- عضوة (عضوة بلجنة المشتريات)، نجم- نجمة (نجمة سينمائية)". وظهر فى الفترة الأخيرة اتجاه نحو استعمال الألقاب الوظيفية المذكرة للرجال والإناث معا، فيقال: "الأستاذ الدكتور فلانة الفلانية"، و"الدكتور رئيس القسم فلانة"، و"الدكتور العميد علّانة"، وذلك على الرغم من انتشار الدعوة النسوية التى تعمل على إبراز العنصر النسائى فى كل شىء. ولكن النساء إنما يفعلن ذلك ليقلن: "إنه ليس هناك فرق بيننا وبين الرجال، فلهذا نستخدم نفس الكلمة لنا ولهم"، ناسيات أن استقلال المرأة عن الرجل حسب النزعة المنتشرة يقتضى أن تكون هناك صيغة للتأنيث مثلما هنالك صيغة للتذكير، فهكذا يتم استقلال المرأة عن الرجل لو تمعَّنّ فى الأمر. وفى اللغة الإنجليزية الحالية يستخدمون الألقاب فى كثير من الأحيان للجنسين كليهما فى بعض الوظائف والأعمال والمهن: " doctor, architect, professor, director, boss, manager, student, teacher, worker, dentist, researcher, writer, reader, driver, conductor, player, goal-keeper, thief, officer, ticket-collector, judge, lawyer, worker, soldier".

ومن الأشياء التى لفتت انتباهى فى لغة الديوان التركيب التالى: "بين كذا وبين كذا" بتكرير "بين" رغم أن طرفى البينية اسمان ظاهران:

وصدَى هَمساتٍ لشدوِ العصافيرِ

بين الغناءِ

وبين الطَرَبْ

* * *

إلامَ تعيثونَ فى العالمينَ فسادا

ولا تدركونَ الحدود التى شرَّعَ اللهُ

بينَ الحرامِ

وبينَ الحلالْ؟

* * *

تعانقنى وأنا بينَ صَحْوٍ

وبينَ سُباتِ

وتعبرُ ذاتى

وتوشِكُ أن تتغلغلَ عبرَ الحنايا

وتنفُذَ بين الضلوعِ

وبينَ الخلايا

وتسكُنَ بينَ العروقِ

وبينَ الدماءْ!

وأعرف أن هناك من يخطئون هذا التركيب ويؤكدون أن تكرير "بين" لا يصح ولا يُقْبَل إلا إذا كان كل من طرفى البينية أو أحدهما على الأقل ضميرا، وحجتهم فيما سمعت أن هذا هو الاستعمال القرآنى. والاستعمال القرآنى على العين وعلى الرأس لا مشاحة فى ذلك، ولكن ما لم يستخدمه القرآن من أساليب لغوية ليس بالضرورة خطأ.

ولهذا الموضوع عندى قصة طريفة وعجيبة مفعمة بالدروس. فقد دار بينى وبين أحد أساتذة اللغة المصريين المعروفين، فى النصف الأخير من ثمانينات القرن الماضى، مناقشة حول تكرير "بين" مع اسمين ظاهرين، وإذا به ينبرى مخطِّئا بكل قوةٍ وتحمسٍ هذا الاستعمال، ومستشهدا بالقرآن المجيد على صحة ما يقول. وقد رددت عليه بأن ما جاء فى القرآن هو قمة البلاغة، لكنْ ليس شرطا أن يكون غيره خطأ، إذ القرآن ليس كتاب نحو. وقلت أيضا ضمن ما قلت إن هناك تراكيب توجب تكرير "بين" مع الاسمين الظاهرين، مثل "نشبتْ مشادَّة بين سعد وأحمد وطارق وسالم وبين سيد وحافظ وعلى وخالد"، إذ لو حذفنا "بين" الثانية فلن نعرف كيف كان وضع المعركة، وبين من ومن بالضبط: أكانت بين فريقين؟ فما أسماء كل فريق منهم إذن؟ أم بين كل واحد منهم والآخرين؟ وهذا مجرد مثال، وإلا فالتراكيب التى تستلزم تكرير "بين" مع اسمين ظاهرين كثيرة، وبخاصة حين تطول الجملة أو تتعقد ويصعب على القارئ الربط بين طرفى البينية. لكن الأستاذ المذكور أصر على موقفه، فسكتُّ.

ثم حدث أن صادفت، فى بعض ما كنت أقرأ من كتب أيامئذ، بيتين شعريين أحدهما جاهلى والآخر مخضرم تكررت فيهما "بين" مع اسمين ظاهرين. ولما أخبرته أبدى سروره ولهفته فى أن أوافيه بالبيتين، وهو ما فعلته. ثم وجدت نصا فى كتاب آخر يقول إن تكرير "بين" مع اسمين ظاهرين صواب ولكنه غير حسن. فأعرب عن رغبته الشديدة فى أن أزوده بهذا النص، وهو ما فعلت أيضا. ثم مر نحو عامين، وكنت أحاضر طلابى فى قسم اللغة العربية وأثيرت مسألة هذا التركيب، فردوا جميعا تقريبا فى نفس واحد قائلين إنه خطأ. فسألتهم ضاحكا، وأنا أكاد أعرف الجواب سلفا: من قال لكم هذا؟ قالوا: فلان الفلانى. قلت لهم: ألم يذكرْ لكم ما دار بينى وبينه من مناقشات ويُشِرْ إلى ما أحضرته له من نصوص؟ قالوا: لا لم يتطرق إلى هذا الموضوع. قلت: كان أجدر به أن يطلعكم على الأمر كله لا أن يتجاهله على هذا النحو. فهكذا ينبغى أن يمضى العلم والبحث العلمى. ثم سكتت المسألة مرة أخرى عند هذا الحد، مع استغرابى الشديد لما وقع من الأستاذ الدكتور بعد أن زودته بنصين مهمين فى الموضوع.

ثم حدث أن سافرت للعمل فى جامعة أم القرى (فرع الطائف) من عام ١٩٨٩ إلى ١٩٩٥م، فكان من ضمن المقررات التى أُسْنِدَ إلَّى تدريسُها مقرَّر "المكتبة العربية"، فاخترت عشرة كتب متنوعة التخصص، ومن بينها كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموى. وكنت أكتب عن كل كتاب من هذه الكتب نحو ثلاثين صفحة. ولما انتهيت من كتابة الفصل الخاص بـ"معجم البلدان" وظننت أنى فرغت منه، وشرعت أتجهز لكتابة الفصل الذى يليه أشرقت فى ذهنى بغتةً وأنا أُخْلِد للنوم فى تلك الليلة فكرةٌ خطيرةٌ، وهى أن أعيد تفلية كتاب ياقوت بمجلداته الخمسة صفحة صفحة بحثا عن أبيات الشعر

التى تحدد الأمكنة بـ"بين الموضع الفلانى والموضع العلانى" كى أرى هل كرر الشعراء الجاهليون ومَنْ كانوا قريبى عهد بهم "بين" مع اسمين ظاهرين أو لا. وقضيت خمسة أيام بلياليها فى التفتيش والتنقير، فعثرت على أكثر من عشرين شاهدا على ذلك الاستعمال، وأثبتُّها فى الكتاب الذى ألفته للطلاب آنذاك بعنوان "من ذخائر المكتبة العربية".

ثم عدت من الإعارة بعد ست سنوات، ففتحت الموضوع مع الأستاذ الدكتور، وقلت له إننى وجدت فى "معجم البلدان" وحده أكثر من عشرين شاهدا، فباغتنى بقوله إن ياقوتا مشهور بتزييف الأشعار ونحلها للشعراء. فضحكت قائلا: أتراه كان يريد إغاظتك يا دكتور؟ ترى ما الذى يدفع ياقوتا إلى هذا الكذب والتدليس، ولم نسمع عنه شيئا من ذلك؟ فقال: كان ينبغى أن ترجع إلى دواوين الشعراء ذاتها. فتبين لى أن الرجل إنما يكابر دون داع، فأغلقت النقاش واشتريت دماغى. وهأنذا قد رجعت الآن إلى دواوين الشعراء وكتب الأدب، فوجدت شواهد أكثر على هذا الاستعمال، ولله الحمد والمنة.

وكنت قد قرأت فى تفسير الطبرسى للآية الخامسة من سورة "الفاتحة" أن تكرير "بين" فى هذا التركيب هو للتأكيد. وكان الطبرسى قد تعرض لتكرير "إياك" فى قوله تعالى: "إياك نعبدُ وإياك نستعين" عِوَضًا عن "إياك نعبد ونستعين"، فاستطرد قائلا: "قيل: إنه جُمِعَ بينهما للتأكيد كما يقال: "الدار بين زيد وبين عمرو"، ولو اقتصر على واحد فقيل: "بين زيد وعمرو" كان جائزا. قال عَدِىّ بن زيد:

وجَاعِــلُ الشَّــمْسَ مِصْــرًا لــلاَ   بَـيْنَ النَّهـارِ وبَـينَ اللَّيْـلِ قَـدْ فَصَـلا
خَفَــــــــاءَ بِــــــــهِ

وقال أَعْشَى هَمْدَان:

بيـــنَ الأَشَجِّ وبيـــنَ قَيْسٍ بـــاذِخ   بَخْ بَخْ لِوَالــــدِه وَلِلْمَوْلـــــودِ"

وقد رجعت أيضا إلى ما كتبه عباس حسن عن هذه الكلمة فى مبحث "الظروف" فى الجزء الثانى من كتابه: "النحو الوافى" فوجدته يقول فى الهامش إن "تكرارها بين المتعاطفين الضميرين واجب، أما بين المتعاطفين الظاهرين فجائز للتوكيد، فيصح أن يقال: "المال بين محمود وبين على" بزيادة "بين" الثانية للتأكيد كما قاله ابن برى وغيره، وبذلك يُرَدّ على منع الحريرى تكرارَها (راجع "حاشية ياسين على شرح التصريح"/ ج٢، وكذا "الصبان"/ أول باب عطف النسق فيها عند الكلام على واو العطف). ويؤيد ما سبق ورودُها مكررة فى بعض الأحاديث الشريفة التى نقلها وشرحها صاحب "المواهب الفتحية" (ج٢)، وفى كلامٍ آخرَ لعمر بن عبد العزيز، وهو ممن يحتج بكلامهم. وكذلك وردت فى شعر يحتج به نقله الطبرسى (فى كتابه: "مجمع البيان"/ ج١/ ص٤٥) ونصه: "قال عَدِىّ بن زيد:

وجَاعِلُ الشَّمْسَ مِصْرًا لاَ خَفَاءَ بِهِ   بَـيْنَ النَّهـارِ وبَـيْنَ اللَّيْـلِ قَـدْ فَصَـلا

(المصر: الحاجز)، وقال أعشى همدان:

بينَ الأَشَجِّ وبينَ قَيْسٍ باذِخ   بَخْ بَخْ لِوَالــدِه وَلِلْمَوْلــودِ"

وهو نفس ما قلته تقريبا قبل عدة عقود للأستاذ الدكتور، وبالذات البيتان الشعريان وكلام الطبرسى فيهما. إلا أن عباس حسن لم يورد سوى البيتين اللذين استشهد بهما الطبرسى، أما أنا فقد كان هذان البيتان بداية رحلة طويلة مع هذا التركيب انتهت باكتشافى عدة عشرات من الشواهد عليه من عصور الاحتجاج. وما دام الأمر كذلك، وما دامت كتب النحو قد

تعرضت منذ هذا الزمن البعيد لتلك النقطة وقالت نفس ما قلته، وإن كانت الشواهد التى أوردتُها أنا أكثر كثيرا جدا، فكيف غاب هذا عن الأستاذ الدكتور، وهذا تخصصه؟ ثم كيف ظل يكابر رغم ما رَفَدْتُه به من نصوص نظرية وشواهد تدل على صحة هذا الاستعمال؟ الحق إن هذا لأمر لعجيب!

ثم إنى، بعد الانتهاء من هذا المبحث، عَنَّ لى أن أراجع محمد العدنانى وما قاله فى "معجم الأخطاء اللغوية المعاصرة"، فألفيته يرفض تكريرها مع اسمين ظاهرين: ومن حججه أن "بين" معناها "وَسْطَ"، ولا يصح أن يقال مثلا إن سعيدا كان جالسا بين أحمد وبين صالح، لأنه لا يصح أن نقول إنه كان جالسا وسط أحمد ووسط صالح. والرد على هذا أن ذلك التعليل يسرى على قولنا: "كان جالسا بينى وبين صالح" وأمثالها، إذ لا نقول إنه لا يصلح أن نقول إنه كان جالسا وسطى ووسط صالح. وما دمنا لا نثير هذه النقطة هنا فلا ينبغى أن نثيرها هناك.

ومن حججه أيضا أن "القاموس المحيط" لم يستعملها سوى مرة واحدة على سبيل الخطإ المطبعى. فما قوله فى استعمال الثعالبى، وهو من هو، فى النص التالى من كتابه: "أبو الطيب المتنبي- ماله وما عليه": "كقوله فى الجمع بين مدح سيف الدولة وقد فارقه وبين مدح كافور وقد قصده"، وقول الدقيقى فى كتابه: "اتفاق المبانى وافتراق المعانى": "وذا فرق بين تاء "أرأيتم إنْ أَخَذَ اللهُ سمعكم؟" وبين هذه التاء"، وقول ابن الجوزى فى "أخبار الحمقى والمغفلين": "والله ما كان المقتدر يفرّق بين كفاءتى وبين أخسّ كتّابى مع المال الحاضر"، وقول أبى بكر الصولى فى "أخبار الراضى بالله والمتقى لله": "ووقع بين أصحابه وبين أهل الموصل حرب"، وهو كثير عنده، وقول عبد القاهر الجرجانى فى "أسرار البلاغة فى علم البيان": "ثم إن الفرق بين هذا الضرب وبين الأول أن

الاشتراك ها هنا فى صفة توجد فى جنسين مختلفين"، "فإن قلت: فإذَنْ لا فرق بين استعارة "طَار" للفرس وبين استعارة "الشَّفَة" للفرس..."، "بل القَصْدُ شَبَهٌ عقلى بين المرأة الحسناءِ فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدِّمْنة، وهو حُسْنُ الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن"، وهو عنده كثير، وقول ابن السِّكِّيت فى "إصلاح المنطق": "وفلج: موضع بين البصرة وضرية. ويقال: بين البصرة وبين مكة"، وقول ابن الأبار فى "إعتاب الكُتّاب": "وجرى بين ابن ثوابة وبين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل كلام فى دار صاعد بن مخلد الوزير"، وقول أبى الفرج الأصفهانى فى "الأغانى": "والنخل الذى عناه: نخلٌ كان لسعيد هناك بين قصره وبين الجماء"، "وجرى بين محمد خاصةً وبين أصحاب ابن الزبير فيه قولٌ كثير"، "كان بين عائشة بنت طلحة وبين زوجها عمر بن عبيد الله بن معمرٍ كلامٌ"، وقد تكرر هذا عنده كثيرا جدا، وقول أبى حيان التوحيدى فى"الإمتاع والمؤانسة": "وهذا لأن الإنسان صغير الجرم ضعيف الحول لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأَخْذ حظوظ بدنه وإدراك إرادته وبين السعى فى طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه والقيام بوظائفه"، "فانقسمت الأحداث بين ما هو على جديلة واحدة معروفة وبين نادر لا يدوم العهد به"، وهو كثير عنده، وقول أبى عبيدٍ القاسم بن سلام فى "الأمثال": "حتى وقعت الحرب بين قومه وبين قومها"، "وأصله أن يخلَّى بين الكلاب وبين بقر الوحش"، وقول الجاحظ فى "البخلاء": "ومن لا يفصل بين الشهىّ الغذىّ وبين الغليظ الزَّهِم؟"، "وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم"، وقول الجاحظ أيضا فى "البغال": "وكذلك الخلاسى من الكلاب الذى بين الكردى وبين السلوقى"، وقول الجاحظ كذلك فى "البيان والتبيين": "والعامّة وأكثرُ الخاصّة لا يَفْصِلون بين ذِكْر المطر وبين ذكر الغَيْث"، "فرِّقْ بينَ صدر خطبة النكاح وبين صَدْر خُطْبة العيد"، وهذا أيضا كثير عنده، وقول أبى هريرة:

"كانَ بينَ خالد وبينَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ بعضُ ما يكونُ بينَ النَّاسِ"، وقول عائشة عن النبى فى مرضه الأخير: "فَخَرَجَ وهو بيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاهُ فى الأرْضِ: بيْنَ عَبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ وبيْنَ رَجُلٍ آخَرَ"، وقول علىّ: "وهذه أخرى قد فعلتموها، إذ حُلْتُمْ بين الناس وبين الماء"؟ ولو مضيت فى جمع الأمثلة على هذا الاستعمال فى كتابات فحول الأدب العربى وأقوالهم ما انتهيت. ثم قبل ذلك كله هناك قول الرسول: "أتانى آتٍ من ربى فخيَّرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة"، "إن المؤمن بين مخافتين: بين أجلٍ قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ به وبين أجلٍ قد بَقِى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه".

والغريب أن العدنانى يرفض الاعتماد على استعمال الشعراء الجاهليين لهذا التركيب مُرْجِعًا هذا الاستعمال إلى الضرورات الشعرية، ناسيا أن الشواهد الشعرية فى النحو إنما تستقى من الشعر الجاهلى فى المقام الأول. كما أن الأبيات التى استشهدنا بها تخلو تماما من إكراه الضرورة الشعرية كما هو واضح. وهل يظن العدنانى أن حذف "بين" الثانية من تلك الأبيات يعجز الشعراء عن تداركه وصياغة أبياتهم بدونها صياغة جميلة؟ كذلك يظن العدنانى أن الأبيات الأربعة التى أوردها على هذا الاستعمال هى كل ما هنالك من شواهد، على حين أننى، كما وضحت قبلا، قد عثرت على بضع عشرات من تلك الشواهد. لهذا كله أرفض موقف الأستاذ العدنانى ولا ألتفت إليه.

وقبل مغادرة تلك النقطة أحب لفت الانتباه إلى أننى لم أقم بهذه الجولة التى جددت عهدى خلالها بأشياء دقيقة وهامة كنت درستها فى صباى لأقول إن الشاعر قد أخطأ بل لأدافع عن مثل تلك الاستعمالات اللغوية. ذلك أن اللغة بحرها واسع عميق ليس له قرار، ومن المستحيل أن يحيط أينا

بها علما. وليس من المنطقى أن ننتظر من كل كاتب أو شاعر أن يلم بكل شىء له صلة بالكلمات والجمل التى يستخدمها. كذلك ليس من المنطقى إعنات الشعراء والأدباء بمطالبتهم بالتنقير عما كان العرب قديما يقولونه أو يكتبونه فى كل عبارة والالتزام به لا يخرجون عنه لأن هذه مطالبة بما لا يسع البشر. والمهم أن يلتزم الكاتب بقواعد العربية ويحفظ أو يطالع على الأقل كثيرا من نصوصها التى أبدعها كبار رجالها، فترتسم فى صدره صورة لهذه اللغة تكون فى عونه عندما يبدع، وتطفو على سطح ذاكرته حين الحاجة إليها، فكأنها أتت من تلقاء نفسها بغريزة مغروسة فيها. إذن فاكتب يا عم عبد الجواد طايل "حكايا، وكاسة، ونجمة، وبين فلان وبين علان" على كيفك ولا تبال!

وهناك بعض الملاحظات الأخرى فى لغة الديوان منها مثلا قول شاعرنا: "وأنا أبحث عن عينى فى طولِ وفى عرضِ البلاد". وكثير جدا، وبالذات من المتحمسين للعربية من أبنائها، لا يستسيغون أبدا دخول مضافين على مضاف إليه واحد رغم ورود العبارة التالية الشهيرة: "قطع اللّٰه يد ورجل من قالها" ورغم انتشار هذا التركيب إلى حد ما فى الأساليب المعاصرة وبخاصة فى الصحف. وقد أرى أن هذا التركيب يمكن بكل بساطة أن يعد من التنازع، فكما يصح أن نقول: "اليوم قبضت وأنفقت فى الحال مرتبى" فلِمَ لا يمكن أن نقول: "تمَّ اليومَ قَبْضُ وإنفاقُ المرتَّب فى الحال"؟ وإن كنت من الناحية الواقعية لا أرى فى أى من هذين التركيبين تنازعا، إذ المرتب فى التركيب الأول مفعول به للفعلين: "قبضت" و"أنفقت"، ومضاف إليه لكلا المصدرين: "قبض" و"إنفاق". فمن أين يأتى التنازع، والفعلان والمصدران متفقان على المرتب؟ ثم لقد تبخر المرتب فى الحال وانتهى الأمر، فهل يفيد البكاء على اللبن المسكوب؟ لكن الجديد فى التركيب الطائلىّ هو أنه لم يتعاطف فيه المضافان

فقط بل أبى حرف الجر الذى رافق "طول" إلا أن يرافق أيضا "عرض" حتى لا يكون أحد أحسن من أحد، ونحن ما كدنا نصدق أننا نجحنا فى تمرير دخول مضافين على مضاف إليه واحد. ومعروف أن خبطتين فى الرأس توجع. ولكن ماذا نصنع للشعراء، والنحاة "من زمااااااااااااااااان" يفوّتون لهم مثل هذه الأشياء تحت بند الضرائر الشعرية؟

وهناك أيضا "استنفذ" فى قول شاعرنا:

يا من وقفتُ العمر خلفَ بابِها   وَكِدتُ أن أستنفـــذَ الرصيـــدا

ولا أخال الشاعر يجهل الفرق بين "نَفِدَ" (انتهى) و"نَفَذَ" (ثقب، اخترق، مر من بين...)، وأرجح أنها سهو مطبعى. وما أكثر سهوات الطباعين بل والمدققين ومصححى تجارب الطبع أيضا!

ومثل ذلك فى ميلى إلى إحالتها على السهو الطباعى كلمتى "العزل المعدمين" فى النص التالى:

وأنتم تدوسون كل مساء

وكل صباح

على جثث العُزَّل المعدَمين

إذ عوملت الكلمة الأولى على أنها جمع "عازل" (مثل "راكع- رُكَّع، راضع- رُضَّع، غازٍ- غُزَّى") فى حين أنها جمع "أعزل" (ليس معه سلاح)، فكان ينبغى أن تضبط هكذا: "عُزْل" مثل "أخضر- خُضْر، أعرج- عُرْج، أسمر- سُمْر"... وهلم جرا. أما "المعدَمين" فهم الذين أُعْدِموا، على حين أن

المقصود هنا هم الفقراء الذين لا يملكون سوى العدم، وهؤلاء "مُعْدِمون" بكسر الدال لا بفتحها.

كما لا أحسب استعمال الفعلين: "يحطّم" و"يجدّف" بتشديد عينيهما (الطاء والدال) فى النص التالى إلا خطأ طباعيا، فلست أظن الشاعر يمكن أن يفوته هذا النشاز العروضى فى سطريهما. على كل حال نرجو فى الطبعة التالية حذف الشدة من الفعلين واستخدام الصيغة الثلاثية المجردة منهما، وكفى الله النقاد وجع التنبيه:

كيفَ للشّعرِ أن يتَاهَى

وأن يتخطَّى

حدودَ المَدَى

ثُمَّ يَجتازُ هذى السُّبُلْ؟

ويَحْطِمُ أسوارَ هذى المدائنِ

حتّى يَصِلْ

ويَجْدِفُ والموجُ عاتٍ، عَسَى

تستَقِرُّ القوافى

على شاطئيكِ!

وفى النص التالى نراه يعامل "فرعون" معاملة اسم العلم فلا ينونه رغم أنه فى سياقه النحوى قد تحول إلى اسم جنس بمعنى"طاغية" ليس إلا، إذ تبعه نعتان منكران مع أن السياق التاريخى إنما يشير إلى فرعون موسى، وفرعون

موسى ليس أى فرعون من الفراعين بل هو فرعون معين، ومن ثم فالكلمة اسم علم. لكن ما أكثر ما يلجئ الوزنُ الشعراء إلى مثل تلك الهنات:

موسى كليم الله والأمواج تحملهُ

إلى فرعونَ جبارٍ عنيدْ

وهناك فى أسلوب الشاعر فى هذا الديوان أيضا دخول الباء على "أنْ" و"أنَّ" بعد فعل لا يستلزمها لأنه متعدٍّ:

فراشتى

فراشةٌ

تعوّدَت بأن تطيرَ فوق غابةٍ

من اللّهَبْ

* * *

بعدُ لم تستوعبى أن الهوى مُرٌّ

إذا حانَ الفراقْ

وبأنَّ الحبَّ شاقْ

وبأنّا حينما نحفرُ إسمينا

على وجه النّدى...

* * *

هلا علمتم

بأنّ ضمائِركم ومشاعركم أصبَحَتْ كالدُّمَى...؟

* * *

عيونُكِ تلك التى عَلَّمَتْنى

بأنْ أعشقَ الكونَ حتى إذا كان يبدو غريبًا

* * *

قتلوكَ دون هوادةٍ

متصورين بأنهم

قد شيعوك وأنت مغتبطٌ

لمثواك الأخيرْ

* * *

يـــا أيُّها الغَـــدُ لو تدرى بأنّ بنا تَعلُّقًـــا بكَ مثل الروح بالجَسَـــدِ

* * *

تحكى لكل من تجذبه

بأننا كنّا معا

* * *

وقد نسِينا بأنّ الضّادَ قِبلَتُنا

من كربلاءَ إلى وهرانَ أو حَلَبِ

* * *

وحينما تأكّدا

بأن شيئًا مُبهما...

* * *

تعاهدا

وأشهَدا

الليلَ والنهارَ والمَدَى

والأرضَ والسَّما

بأن يُشيِّدا

للعشق والغرامِ

مَعْبَدَا

* * *

وتأبى بأن يرحلَ الوقتُ حتّى وإن حانَ أو حلَّ وقتُ الرحيلْ

* * *

أمشى على الأشواكِ مُختالًا، فبي شـــوقٌ بأن أُقبِّـــلَ الورودا

وفى مناقشة الرسائل العلمية مثلا ندقق مع الطلاب فى استعمال حروف الجر ونوضح لهم أنه ينبغى اختيار الحرف الجرِّىّ المتوائم مع الفعل. ونلاحظ

أن استعمال حروف جر غير مناسبة للسياق قد فشا بين الطلاب والباحثين لعدم اطلاعهم الكافى على إبداعات الكتّاب والأدباء والشعراء، فهم فقراء فى اللغة فقرا ملحوظا إلا قليلا منهم. بيد أننا هنا فى الشعر، وللشعراء حق غير منكور فى الدلال اللغوى. وأذكر أننى حين قفشت نزار قبانى من "زمااااااااااان" وهو يقول على لسان فتاة كان حبيبها قد هجرها زمنا ثم عاد إليها وفى يده الزهور قد حملها إليها:

ليقول لى: إنى وحيدة دربه وبأننى الحب الوحيد لديه

فقد استقام له الأمر حين قال: ليقول إنى وحيدة دربه، لكنه ما إن عطف على "إنى" هذه "مصدرا مؤولا بالصريح حتى فاجأنا بالباء فتحولت "وإننى الحب الوحيد لديه" التى كنا نتوقعها إلى "وبأننى الحب الوحيد لديه" مستعيضا عن "إنى" بـ"أننى" بفتح همزة "إن" وزيادة نون الوقاية. وكنت أستغرب ذلك وأسكت، لكنى لما كبرت وعقلت صرت أنتشى كلما قرأت أو سمعت هذا البيت وأعده براعة من نزار باغتنا من خلالها بشىء طارف معجب. زد على ذلك روعة القصيدة وحلاوة موسيقاها وروعة التلحين وسحر صوت المغنية. ولا ننس أن هناك ما يدعى بـ"الضرورة الشعرية" وإشراب فعل معنى فعل آخر يتواءم مع حرف الجر المستعمل، وهو ما يدعونه: "التضمين". ولا أزيد على ذلك. ومن حقكم أن تضعوا هذا تحت أعينكم لدن قراءة أبيات شاعرنا الماضية.

كذلك نجد فى بعض المواضع فى الديوان تركيبا يتباعد فيه الفعل عن فاعله (أو المبتدأ أو الاسم المنسوخ عن الخبر أو العامل عن معموله... إلخ) تباعدا واضحا حيث يفصل بينهما صف من الألفاظ، فيقف القارئ حيران

بعض الحيرة إلى أن يأتى الفاعل فيريح القارئ من حيرته وتقع هذه الراحة من نفسه موقعا لذيذا كما فى المثال الآتى:

والكأس فارغةً

ما بها

غيرُ صبرٍ ومُرّ!

بعدَ أن مدَّ كفّيهِ لى

كى يباعدَ بينى وبين الجنونِ

القَدَرْ!

فلدينا هنا الفعل: "مَدَّ"، الذى يفصل بينه وبين فاعله: "القدر" كل الكلمات التالية: "كفيه لى كى يباعد بينى وبين الجنون"، وقد يلتبس الأمر على القارئ فيحسب أن الفاعل هو "صبر ومر"، وهما شىء واحد يمكن أن يعود الضمير عليهما مفردا، ليفاجأ بكلمة "القدر" فى نهاية المقطع فيعرف أنها الفاعل. ويزيد حيرة القارئ أن "القدر" تكمن فى قاع المقطع منفردة بنفسها فى سطر كامل لا يؤنس وحشتها فيه أحد فلا يلتفت إليها فى غمرة هذا الالتباس قارئ القصيدة.

وهناك أيضا هذا المثال:

إنَّ الزمــانَ الذى طالت خصومتُــه لو رَقّ والــدمعُ من عينيكِ ينحَدِرُ

مثل اللآلئ فى خديــكِ كل دُجًى لغــارَ منكِ ومن عينيــكِ يا قَمَرُ

الذى قد يتبادر إلى الذهن فيه أن خبر "إن" هو "مثل اللآلئ" بينما "مثل" حال، ليفاجأ بأن الخبر هو "لغار منك ومن عينيك يا قمر"، الذى هو جواب الشرط فى نفس الوقت لـ"لو"، التى قد تُظَنّ" مع فعلها جملة اعتراضية تفصل بين "إن الزمان الذى..." وبين "مثل اللآلئ...".

أما فى المثال التالى فالعكس، إذ يظن القارئ أن عبارة "لم نزل" هى بداية لجملة جديدة على حين أنها مجرد فعل معطوف على "كنا"، فهى تمثل نهاية جملة سابقة لا بداية جملة آتية، وهو ما لا يستوعبه القارئ فى بداءة أمره بل بعد انتهاء المقطع:

تحكى لكلّ من تجذِبُه

بأنّنا كُنّا معًا

كُنّا حبيبينِ هنا

ولم نزلْ

برغم قسوةِ الزمانِ

والمسافةِ البعيدة التى

تَفصِلُ بينَ النبَع.. والمصَبّْ

ولدينا أيضا هذان السطران:

فحتى متى يصبح القتل عمدًا

قضاءً؟

حيث يسرع الخاطر إلى تصور أن كلمة "عمدا" خبر لـ"يصبح"، ثم يفاجأ بعدما يستمر فى القراءة أن الخبر هو "قضاء" بينما "عمدا" نائب عن المفعول المطلق.

وفى المثال التالى يتصور القارئ أن الكلام انتهى بالسطر قبل الأخير ليفاجأ بأنه لم ينته بعد بل هناك كلمة أخرى لم يكن يتوقعها بسبب تركيب البيت حسبما سأشرحه فورا:

والليل ساهمٌ

ونائمٌ

بالعزف تارةً، وبالغناء تارةً

وبالطربْ

وسرّ تصور القارئ أن الكلام ق انتهى هو كلمة "تارة"، فعندنا "العزف تارة" و"الغناء تارة". فماذا ننتظر بعد ذلك؟ لكننا نفاجأ أنه لا يزال أمامنا "الطرب" المعطوف على "الغناء" والذى كان ينبغى أن يكون الكلام معه هكذا": "بالعزف تارة، وبالغناء والطرب تارة". فهذا هو ترتيب الألفاظ الاعتيادى فى جملتنا.

وهذا مثال آخر:

عيونُكِ

تِلكَ التى عذَبتنى كثيرًا

وتلكَ التى جَعلتنى أسيرًا

إلامَ

تطاردنى كلَّ صُبحٍ

وكلَّ مساءْ؟

إلامَ تُحدِّقُ فى لفَتاتى

وفى سَكَناتى

وتوقِظُ فيضَ المشاعرِ تلك التى

قد تناسيتُها

بالنداءْ؟

وسوف أتجاهل التباعد بين "عيونك" وجملة "إلام" الاستفهامية التى هى خبرها لأن هذا التباعد لا يسبب، فيما أرى، حيرة للقارئ. لكن تعالوا إلى جملة "وتوقظ فيض المشاعر تلك التى قد تناسيتها بالنداء" حيث يتصور القارئ للوهلة الأولى أن الجار ومجروره: "بالنداء" يتعلقان بالفعل: "تناسيتها" لا بالفعل: "توقظ" كما ينبغى أن يكون قصد المؤلف.

وهذا ينطبق إلى حد ما على المثال التالى:

سؤالٌ أخيرٌ يُلحُّ على خاطرى

مِنْ غريقٍ بعينيكِ

دونَ شِراعٍ

إلى شاعِرِ!

فهل المعنى: "هذا سؤال أوجهه إلى شاعر" أم "غريق متجه إلى شاعر"؟

ولدينا كذلك: "أنا الدهرُ مثلىَ لم ينجبِ"، التى تحتاج إلى فض اشتباك: فهل المقصود "أنا الدهر"؟ أم "أنا والدهر متماثلان فى أن كلا منا لم ينجب"؟ أم المقصود أن "الدهر لم ينجب مثلى"؟ إن تركيب الكلام يحتمل هذا وذاك وذلك. لكن المقصود هو الأخير. إننى لا أقصد أن القارئ يضيع وقتا قبل فهم المراد بل أقصد الربكة الضئيلة التى لا تكاد تحس قبل استقرار الذهن على المعنى الصحيح. فهذه الثُّوَيِّنَة (أى الجزء الضئيل من الثانية) هو سر هذه الحيرة التى تسرى فى نفس القارئ كالبرق حين يرتبك قليلا ثم سرعان ما يجد طريقه.

وللشاعر فى هذا الديوان صور طارفة جديدة، وقد يكون بعضها مسبوقا إليه لكن يبدو لى أنا طازجا على قدر علمى: "وشذى الأقحوان المسافر فوق جناح الحنين طابعا قبلة فوق ثغر الندى والزهَر"، "ودقّت على باب قلب خفقْ/ هو قلبى الذى ذاب شوقا ورقّْ/ وغدَا قطعة من ورقْ/ رسمتْ فوقها/ قلبها/ وكأنهما توأم ملتصقْ"، "ومغتربْ/ يفترش السهاد بالدجى/ ويمضع العذاب ليلةً/ وليلةً/ يفيض دمعه على هوامش الكتبْ"، "وأسند رأسى/ على حائط الذكريات الأثيرة"، "وكم كنت أرسمها فوق صدر الورق"، "عسى نلملم بعضا من مروءتنا"، "رطَّب الحب معا أكبادنا"،

"يا من وقفتُ العمرَ خلفَ بابِها   وَكِـــدتُ أن أســـتنفذَ الرصـــيدا
لِـــمَ اقتربـــتِ فجـــأةً، وفجـــأةً   أَقَمْـــتِ صـــوبَ عشـــقنا الســـدودا؟
كأنّنـــا واللّـــهَ لـــم نكـــنْ علـــى   عهـــد، فكيـــف نـــنقُضُ العهـــودا؟
ولـــم تُتـــوَّجى مَلِيكـــةً، ولـــمْ   تـــزلْ جميـــعُ أحرفـــى عبيـــدا

تجثو على أَعقابها قَصيدةً   تَوضّأَتْ.. وانتَوَتِ السجودا
وألهَبَتْ خيالَ كلّ العاشقينَ   فى المَدَى: حضارةً وبيدا
ولم تَدَعْ عذراءَ لا ولا فتًى   غِرًّا ويافعًا ولا رشيدا
إلّا وقد توسَّدَتْ دموعَه   ولامَسَتْ النبضَ والوريدا"،

"هل أنتِ يا جميلتى مثلى أنا

غريبَه؟

برغم أنّنى أعيش بين رفقتى

مُغرّدًا

ولى من المريدينَ الذينَ يغبِطوننى

كتيبه!

وأنتِ تَرفُلينَ فى الصِّبا

أميرةً

لكنَّ قلبَها مسافِرٌ

كدُرّةٍ نفيسَةٍ

تُحملُ فى

حقيبَهْ"

ومن ناحية الموسيقى نلحظ، فى شعر السطر بهذا الديوان، أن كثيرا من سطوره قصيرة على نحو لافت للنظر حتى ليقتصر السطر على كلمة واحدة أو كلمتين:

فراشتى

فراشةٌ

تعوّدَت بأن تطيرَ فوق غابةٍ

من اللّهَبْ!

تنأى، وتقترِبْ!

تحومُ حولَ شاعرٍ مُعَذّبِ

للحظةٍ

وتختفى

كنجمةٍ فريدةٍ

خلفَ السُّحُبْ

تشدُّنى من خافقى

تخطفُنى

من الزّحامِ، والصَّخَبْ!

وتحتوى مشاعرى

كالنارِ حينما تعانق الحطَبْ

ولم أزلْ مُغيّبًا

أرقص كالذبيحِ

من حلاوةِ التّعَبْ

و آهِ حينَ يجنحُ الخيال ما بدا

عن الطوقِ يَشُبّ

فلا أنا غفوتُ لحظةً

بلا ظما

ولا هى ارتوَتْ

برشفةٍ

أو استراحَ ثغرُها

على شفاهِ عاشقٍ

وصَبّ

ولم تزلْ فراشتى

ترفُّ فوقَ غابةٍ

من اللّهَبْ

وتنتشى

والليلُ ساهِمٌ

ونائِمٌ

بالعزفِ تارةً

وبالغناءِ تارةً

وبالطَّرَبْ

فصوتُها

ترنيمَةٌ عذريّةٌ إيقاعُها من الذّهَبْ!

ونبضُ قلبها يَدُقُ بابِيَ العصيَّ

خِلسَةً

وفجأةً تفتحهُ

بهمسَةٍ

لتحتمى بخاطرى

وتنتسِبْ!

وكلّما تألَّمَتْ

وأسهَبَتْ

تشكو من اغترابِها

تذكّرَتْ

بأنّها تشكو إلى مُسافرٍ

لآخرِ المدى

ومُغتَرِبْ

يفترِشُ السُّهادَ بالدُّجى

ويمضُغُ العذابَ ليلَةً

وليلَةً

يفيضُ دمعُهُ على

هوامشِ الكُتُبْ

يجترُّ ذكرياتِ عمرِهِ الذى

مَضَى سُدًى

فينتحِبْ

ويستديرُ خلفَهُ

ليسألَ المدى

لعلّهُ يجيبُهُ عن السَّبَبْ

ولم تزل فراشتى ترِفُّ

فوقَ غابةٍ من اللّهَبْ

تَغْبطُنِى على قصيدةٍ نقشتُها

على ملامِح الأثيرِ

علّها

تحكى لكلّ من تجذِبُهُ

بأننّا كُنّا معًا

كُنّا حبيبينِ هنا

ولم نزلْ

برغم قسوةِ الزمانِ

والمسافةِ البعيدة التى

تفَصِلُ بينَ النبَع والمصَبّْ!

لا أقول إن كل القصائد هكذا، ولا أقول إن للسطور القصيرة الغلبة على ما عداها، بل كل ما أسجله هو أن السطور القصيرة كثيرة فى حد ذاتها. وملحظ آخر هو أن الجملة الواحدة كثيرا ما تشتمل على كلمتين متساجعتين، وقد تكون تانك الكلمتان متعاقبتين. وكثيرا أيضا ما تعاقبت قافيتان موحدتان ثانيتهما تشكل سطرا واحدا مقصورا عليها. وهذا كله واضح فى القصيدة التى أوردتها لتوى هنا. وهذا يجعل النغم فى الشعر التفعيلى لشاعرنا متألقا ومنعشا أكثر مما نجده لدى كثيرين غيره.

والآن أحس برغبة شديدة فى أن أختم بالحديث عما يعكسه شعر الشاعر من أصداء تجاربه وقراءاته. وهى كثيرة ومتنوعة. وقد كثر الكلام فى العقود الأخيرة عن "التناصّ"، أى قيام ما يكتبه الأدباء والشعراء على أساس ما

كانوا قد قرأوه، ويصورون النص على أنه لوحة مكونة من فسيفساء قراءاته. لكن لا بد أن أعدل كلمتى "فسيفساء ولوحة" إلى إناء يتم فيه امتزاج هذه الأمشاج التى أخذها من هذا المقال أو من ذلك الكتّاب أو من تلك الندوة أو من تجارب الحياة ونصائح الآباء والأمهات والمدرسين أو من الأخبار الإذاعية والتلفازية أو من المشباك (من فيسبوك ويوتيوب وغيرهما) أو من الشارع أو من الطبيعة أو من الصحة والمرض أو من البيت أو من الدروس التى يلقيها على طلابه ويفيدهم ويستفيد خلالها منهم أو من الأحلام النومية وأحلام اليقظة ومن الخيالات، وكذلك من الآمال والمطامح ومن كتّابه المقدس ومن خطب الوعاظ والدعاة ومن المسرحيات وشرائط الخيالة والنزهات والتأملات والصراعات والخصامات والصداقات والعداوات والمنافسات والألعاب الرياضية والتسالى... إلخ. على أن هذا لا يكفى، إذ نحن لسنا مستقبلين فقط بل نضيف إلى قراءاتنا وسماعاتنا وتجاربنا ذوب نفوسنا وثمار عقولنا وبدائع أخيلتنا حيث يختلط كل ما ذكرته ويخرج من الناحية الأخرى إبداعا جديدا عليه طابعنا، وإن كان هذا لا يمنع المراقبين من لمح هذا العنصر أو ذاك مما أخذناه عن غيرنا سواء كان لفظة أو عبارة أو تركيبا نحويا أو اقتباسا أو آية قرآنية أو بيتا شعريا أو حديثا نبويا أو مثلا أو حكمة أو فكرة أو موقفا أو فلسفة، وسواء ظهر هذا العنصر كما هو أو خضع لعملية تطوير أو تحوير... وهكذا وهكذا. على أن ما يسمى بـ"التناص" ليس مقصورا على ما يقرؤه وينساه الأديب فقط بل يدخل فيها ما يقتبسه واعيا وعن قصد كبيت شعرى كامل أو نص من رواية أو عنوان مأخوذ من جملة سمعها فى الشارع أو أخذها من مقال صحفى أو كتاب، وقد يكون الاقتباس عبارة عن اقتراح اقترحه عليه أحد أصدقائه. كذلك فكثير مما يتسرب عن وعى أو لاوعى إلى الإبداع الأدبى لا يستطاع تتبعه إلى جذوره، وكثير مما يستطيع فلان من

النقاد التوصل إلى منبعه قد يعجز عنه علان الناقد، والعكس بالعكس. ولا شك أننا، حين نتوصل إلى رصد بعض الأصداء التى عكسها العمل الأدبى، نشعر بالنشوة لأننا قد تعمقنا فيه ولم نتوقف عند السطح مثل من يكتفى بالعوم قرب الشاطئ فلا يستمتع بالكنوز التى يخفيها البحر فى الأعماق.

وهذه أمثلة على ما نقول، وهو فى الديوان كثير: "ومن الحب ما قتل" (مثل عربى)، "ظل ظليل" ("وندخلهم ظلا ظليلا"- قرآن كريم)، "كإلفين يحتميان بشىء * * مثير بدا مثل ظل ظليلِ- فذوّب نهر الجليد الذى حَا * * لَ بينهما فى زمانٍ خجولِ" (واضح هنا صدى التعبير العصرى: "أذاب الجليدَ بينهما"، والمقصود تغلُّب شحص على الخجل أو التوتر القائم بينه وبين شخص آخر لا يعرفه من قبل. وفى الإنجليزية "break the ice to")، "متى أمطرت لؤلؤا قد همى * * كمثل النَّدَى فوق خدّ أسيلٍ" (قال الوأواء الدمشقى: "وأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ * * وَرْداً وَعَضَّت عَلَى العُنَّابِ بِالْبَرَدِ". ومع وجود تشابه واضح بين البيتين فإن بيت الشاعر العباسى مفعم بالصور البلاغية بخلاف بيت شاعرنا الذى لا يضم سوى صورة واحدة هى صورة الدموع التى تشبه اللؤلؤ، واللؤلؤ الذى يشبه الندى، فضلا عن وصف المطر بأنه يهمى، أى ينزل بغزارة وسرعة)، "والحَكَايَا كلها عن شهرزاد" (أهمّ شخصية فى "ألف ليلة وليلة"، إذ هى الفتاة التى استطعت ترويض الملك القاسى المتعطش لدماء النساء من خلال الاستيلاء على عقله وفضوله بحكاية قصة طويلة شائقة تقف دون إتمامها كل ليلة مؤجلةً حكاية باقيها إلى الليلة المقبلة كى يظل الملك محتاجا إليها لتنتهى من القصة، لكنها ظلت هكذا حتى صلح أمره وعاد إنسانا طبيعيا رحيما...)،

"كانَ لى بالأمسِ فى ليلِ العراقْ

ذكرياتٌ ورفاقْ

وصبيّاتٌ رِقاقْ

يتمايلنَ على الآهاتِ

فى بهْوِ الرواقْ

وكؤوسٌ مُترعاتٌ بالهوى المجنونِ

لكنْ مُرُّها حُلوُ المذاقْ!

كانت الأحلامُ، كالأيامِ

كالتاريخِ،

تعدو فى سباقْ"

(وأرجو أن يتنبه القارئ فى هذا النص إلى قافية القاف التى تسبقها ألف، وهى تذكرنا بفواصل الآيات القرآنية التالية من سورة "القيامة": "كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِى * وَقِيلَ: مَنْ رَاق؟ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاق * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذ الْمَسَاق" وببعض الفواصل المشابهة المتباعدة فى سورة "ص": "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاق... * وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاق... * رُدُّوهَا عَلَى فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاق". كما لا يسعنى أن أفكر هنا إلا فى نعت على محمود طه لـ"الأقداح" فى قصيدة "الجندول" بـ"رقاق". إن عبارة طه هذه تتميز بين مشاهير شعراء عصره، فيما أرجح، بهذه الصيغة الجمعية. إننا نجمع صفة "رقيقة" عادة، فيما يغلب على حسبانى، على "رقيقات"، أما هو فقال: "رقاق". نعم نحن كثيرا ما نقول: "فتيات حِسَان

وظِرَاف ولِطَاف ونِظَاف" لكن لا أظننى قد سمعت أو قرأت "فتياتٌ رِقَاق". وهذا جهدى فى تقرى أصداء قراءات شاعرنا بالنسبة إلى هذه العبارة)، "والعشاق قد هاموا دُجًى فى كل وادْ/ من سعادٍ لسعادْ" (يقول الله سبحانه فى قرآنه العظيم: "والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم ترَ أنهم فى كل واد يهيمون؟"، وإن كان الشاعر يتحدث عن "العشاق" لا "الشعراء"، فضلا عن أن الجملة القرآنية هى جملة استفهامية بخلاف جملة الشاعر الخبرية. كما أن ذكر "سعاد" هنا هو صدى لتشبيب عدد من شعراء العرب القدماء، وعلى قمتهم كعب بن زهير، بسعاد. بيد أن شاعرنا لم يكتف بسعاد واحدة بل عرف عددا منهن كان ينتقل بينهن من واحدة إلى أخرى مثلما كان يفعل عبد الله بن قيس الشاعر الأموى الذى كان يتغزل فى "رُقَيّات" متعددات لا رُقَيّة واحدة فلقبوه لهذا بـ"عبد الله بن قيس الرقيات"، وأقترح أن يسمى شاعرنا بـ"عبد الجواد طايل السُّعَادات")، "أين أنتِ الآن منى؟" (من الممكن أن تكون هذه الجملة، وهى من ذات القصيدة التى لا نزال نتحدث عنها، متأثرة بقول على محمود طه فى قصيدة "الجندول": "أين من عينىَّ هاتيك المجالى؟")، "يتشهى ثغرها الظمآن قُبْلَةْ" (تذكرنا هذه الجملة بقول على محمود طه فى "الجندول" أيضا: "بين كاسٍ يتشهى الكَرْمُ خمرَهْ * * وحبيب يتمنى الخمرُ ثغرهْ")، "يمتطى متن البُرَاق" (الدابة السماوية التى حملت الرسول من المدينة المنورة إلى بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج فى غير وقت. وقد وظفها الشاعر هنا فى السفر بها هنا وهناك أيام كان فى العراق واقعا فى العشق حتى رأسه)، "وما سعيتُ إلى عينيك يا قمرُ * * لكن هذا قضاء الله والقدر" (عبارة شائعة تعنى "الحب قضاء وقدر لا يد للإنسان فيه". ولا يعزبنّ عن بالنا أن الإيمان بالقضاء والقدر جزء من أركان ديننا، فالإيمان فى الإسلام هو أن تؤمن بالله وكتبه ورسله وملائكته والقدر خيره وشره)، "فالمبتدا بحياتى أنت والخبرُ" (عبارة

نحوية معناها أنت كل شىء فى حياتى باعتبار أن المبتدأ والخبر يشكلان جملة كاملة)، "إن الزمان الذى طالت خصومته * * لو رَقَّ والدمع من عينيك ينحدرُ- مثلَ اللآلئ فى خديك كل دجى * * لغار منكِ ومن عينيك يا قمرُ" (صدى لبيت ابن زيدون من نونيته العبقرية: "إن الزمان الذى قد كان يضحكنا * * أنسا بقربهمو قد عاد يبكينا"، فعبارة "إن الزمان الذى" هى هى عبارة ابن زيدون، علاوة على اتفاق الوزن فى القصيدتين، وإن كان شاعرنا قد عكس الأمر: فالزمان الأول عند ابن زيدون كان يُضْحِك العاشقَيْن: ابن زيدون وولادة، أما الزمان الأول عند شاعرنا فكان مخاصما له ولحبيبته، ثم استحال كلا الزمانين إلى عكس ما كان)، "فراشتى فراشة تعودت بأن تطير فوق غابة من اللهبْ" (يُضْرَب المثل بالفراش الذى يتهافت على النار للمرء الذى يلقى بنفسه فى المهالك وهو يراها بعينيه)، "أرقص كالذبيح من حلاوة التعبْ" (يُخْطِر فى بالنا فورا البيت الشهير: "لا تحسبوا أن رقصى بينكم طربٌ * * فالطير يرقص مذبوحا من الألمِ")، "يجتر ذكريات عمره" (عبارة عصرية نرددها فى كلامنا وكتاباتنا)، "الشاهدون على العصر" (اسم برنامج إذاعى مصرى شهير كان يقدَّم إلى وقت غير بعيد)، "وعن صرخة الأمهات الثكالى ولطم الخدود وشق الصدور" (يقول الحديث الشريف: "ليس منا من لطم الخدود وشق الصدور ودعا بدعوى الجاهلية"، لكن السياق مختلف كما هو واضح)، "فتأخذنى سِنَةٌ" ("لا تأخذه سنة ولا نوم": قرآن كريم)، "يبكى على الصمت الرهيب" ("بالهمس باللمس بالآهات بالنظرات باللفتات بالصمت الرهيب": من قصيدة "لا تكذبى" لكامل الشناوى)، "من المحيط إلى الخليج" (عبارة سياسية للدلالة على امتداد العالم العربى)، "يا أيها الملَك الصغير، نم واسترح فى حضرة الشهداء والأبرار والأطهار. ما أحلى الجوار" ("وتوفَّنا مع الأبرار"، "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقا": آيتان قرآنيتان لا يبعد سياقهما عن سياق النص المقتبس)، "تستفز أحاسيس قلبى المتيمة منذ الأزل بالعيون اللواتى بأحداقها حور وبأهدابها ألف سيف إذا جردت جردت فى حياء لتقتل عشاقها خلسة فى خجل" (يقول جرير: "إن العيون التى فى طرفها حورٌ * * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا". ويعكس النص بعض صدى من بيت جرير مع التصرف اللطيف فى الاقتباس والتأثر: فى بيت جرير "العيون التى"، وفى نص طايل: "العيون اللواتى"، وفى نص جرير: "فى طرفها حور"، وفى نص طايل: "بأحداقها حور"، ثم زاد طايل: "وبأهدابها ألف سيف..."، وفى بيت جرير يقول عن العيون: "قتلننا ثم لم يحيين قتلانا"، وفى نص طايل يجردن سيوفهن فى حياء ويقتلن بها فى خجل... إلخ)، "حتى تكون القصيدة فصل الخطاب ومسك الختام" (فأما "فصل الخطاب" فهى عبارة قرآنية يفسرها بعض العلماء بأن المقصود هو عبارة "أما بعد"، التى يقولون إن داود هو أول من أدخلها فى الخطب. ولا أظن هذا تفسيرا صحيحا، بل المقصود فيما أفهم هو إصدار أحكام بين المتخاصِمين المتعادِين تقضى على كل نزاع ولا يجدون بعدها مجالا للمراجعة أو لاستئناف الخلاف. وأما "مسك الختام" فهى عبارة مأخوذة من قوله تعالى: "ختامه مسك"، والمراد أن الكلام قد انتهى أحسن انتهاء)، "أم إذا أقبل الليل أقسمتُ ألا أطاوع شيطان شعرى" ("أقبل الليل" مطلع قصيدة لعبد الله الفيصل)، "أنا أخاف على عينيكِ من حسدى" (الحسد من خلال نظرات العين عقيدة متجذرة فى نفوس كثير من العرب والمسلمين)، "الصمت أصدق أنباء من الكتبِ * * ومن فصاحة أهل الضاد والخطبِ" (مطلع قصيدة لشاعرنا يعارض بها بائية أبى تمام فى حرق عمورية، التى تبدأ على النحو التالى: "السيف أصدق أنباء من الكتبِ * * فى حدّه الحدُّ بين الجِدّ واللعِبِ"، بيد أن قصيدة شاعرنا فى الحب، وقصيدة الشاعر العباسى الكبير فى الحرب

وانتصار المعتصم فى حربه ضد الروم. ومقصد أبى تمام تكذيب المنجمين الذين تنبأوا أن عمورية لا تفتح فى ذلك الوقت، فأكد أبو تمام أن كلام المنجمين كذب فى كذب، إذ العبرة بالسيف لا بكتب المنجمين. أما شاعرنا فالمقصود من كلامه أن صمت حكام العرب أفضل من جعجعاتهم الفارغة قبل المعارك واكتفائهم بالاستنكار بعد ضرب الأعداء لبلادهم وعدم التفكير فى الرد بالمثل)، "على صدر أمى وحجر أبى * * نهلتُ من المنبت الطيبِ" (مطلع قصيدة لعبد الجواد طايل عنوانها "أمى وأبى" تجرى على وزنِ وقافيةِ قصيدة شوقى: "ألا حبذا صحبة المكتبِ"، التى تتحدث عن الأطفال فى المدرسة، بينما تتحدث قصيدة شاعرنا عن التربية التى تلقاها على يد أبويه منذ كان يجلس على حجريهما حتى كبر وصار بلا أب وأم وعبر عن آلام حرمانه منهما ومن عطفهما وتوجيههما. فالقصيدتان، وإن دارتا حول الطفولة، فإن الطفولة هنا غيرها هناك كما وضحنا، "فأين هى الآن يا ويلتى * * وقد أصبحتْ أبدا مطلبى" ("يا ويلتى" تعبير عن الحزن والاستغاثة ورد فى قصيدة "لا تكذبى" لكامل الشناوى)، "ولا مَنْ فتحتُ لهم ألف باب * * مِنَ الجار بالجَنْب والصاحبِ" (تعكس صدى قوله تعالى: "والجارِ الجُنُبِ والصاحب بالجَنْب" مع الفرق بين سياق العبارة الشعرية ونظيرتها القرآنية: ففى عبارة القرآن يدعونا المولى سبحانه إلى الإحسان إلى من حولنا ومنهم الجار الجنب والصاحب بالجنب"، أما فى عبارة الشاعر فهو يؤكد أنه لم ينتفع بأحد سوى والديه بما فى ذلك الجار بالجَنْب والصاحب)، "قصْف الأجل" (تنويع على التعبير المصرى العامى "قصْف عمرك")، "قد سجا الليل" ("سجا الليل": مطلع قصيدة أحمد شوقى يصف فيها هيجان الشعر والهوى فى صدر قيس بينما سجو الليل هنا قد أتى فى سياق حديث الشاعر عن حزنه لوفاة شقيقه، الذى كان توأم روحه)، "يا من وقفتُ العمرَ خلف بابها * * وكدت أن أستنفد الرصيدا" (يقصد نفاد صبره على

هجران حبيبته له. والتعبير منقول من عالم المصارف المالية والهواتف الخلوية. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فالشاعر متخصص فى المحاسبة)، "لأجل هاجس بدا من السراب يمر كالسحاب" ("وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مَرَّ السحاب": تتحدث الآية القرآنية عن الجبال وما يحدث لها يوم القيامة. والشاعر يستعين بها للتعبير عن مرور هواجسه سريعا)، "كأن ذلك الذى أمعن فى البعاد والجفا وأسرفا قد صار فجأة وليّكِ الحميم" (مأخوذ من قوله تعالى يأمر رسوله بأن يدفع السيئة بالتى هى أحسن: "فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم"، وإن كان سياق القصيدة غير سياق الآية القرآنية، إذ القصيدة فى الهجران والمودة التى تأتى بعده، فضلا عن التصرف الذى دخل على الاقتباس القرآنى الكريم بما يناسب الوزن والموضوع والسياق والفكرة المبتغاة)، "وهل نظل هكذا ممزقين دون قبلة نولى شطرها وجوهنا" (يخاطب الشاعر هنا حبيبته، فى حين يأمر الله عز شأنه رسوله فى القرآن المجيد بالاتجاه نحو المسجد الحرام واتخاذه قبلة عند الصلاة: "فلَنولينَّكَ قبلةً ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام")، "هل أنتِ يا جميلتى مثلى أنا/ تنتفضينَ كُلَّمَا تثاءَبَ الشَّفَقْ/ وأدبَرَ النهارُ/ وأقبلَ الغَسَقْ.../ وفى عروقنا/ الشجن الممزوج بالقلقْ/ والسهد والأرقْ.../ وبسطة المدى الفسيح والأفقْ.../ عسى نقرّ بعد ألف عامْ/ من الغدوّ والرواح/ والجنوح والغرقْ... وأهجر النزقْ" (تقفز إلى خاطرى الفاصلة القرآنية المماثلة فى سورتى "الانشقاق" و"العلق" والفلق": "فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَق * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَق * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَق * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَق"، "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَق"، "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَق * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَب")، "سكن الليل بعد كَرٍّ وفرٍّ" ("سكن الليل" مطلع قصيدة مشهورة تغنيها فيروز لجبران من ألحان محمد عبد الوهاب، ونازك من ألحان فريد غصن).

ولو صبرت أكثر لاستطعت أن أجد تأثيرات أخرى خافية عنى الآن، أو لو كان الدارس أوسع منى قراءة وأشد حساسية وأقوى ذاكرة وأعرَف بالشاعر وقراءاته مثلا لوضع يده على ما لم أستطع أنا وضع يدى عليه... وهكذا. كذلك لو كانت قراءات الشاعر أكبر نطاقا وأغنى تنوعا، وكانت حافظته أقدر على التشرب وإمساك ما تشربته، وكان حرصه على حفظ ما يقرأ أقوى، لكانت تأثراته بما قرأ وسمع ولمس وشم وحضر من ندوات ومؤتمرات وخاض من تجارب ودخل فى مناقشات أَثْرَى. ومعلوم أنه ليس هناك فى الدنيا شىء يقوم على ما لديه فقط من عناصر فطرية خُلِقَ بها لم تأته من خارج نفسه ولا يستند من ثم إلى الأخذ من عناصر الأشياء الأخرى، بالإضافة إلى روحه هو التى تختلف عن أرواح الآخرين. ومن هنا يأتى التميز بين مبدع وآخر: فلا شك أن صانعى البيتزا مثلا أو طهاة الفاصولياء يحصلون على عناصر ما يريدون صنعه من بيتزا، أو طهيه من فاصوليا، من السوق المتاح لكل إنسان، لكن النتيجة المنجزة تختلف لذاذة وفائدة غذائية تبعا لعدد العناصر التى جهزها كل منهم وللطريقة التى اتبعها فى الخَبْز والطهى وللشخصية التى يمتلكها والذوق الذى يتمتع به والطموح الذى يدفعه إلى التفرد والتفوق. وكذلك الحال فى الإبداع. ولا ريب أنه قد استبان للقارئ الآن اتساع رقعة الأصداء التى تعكسها قصائد شاعرنا وتنوعها رغم أنى لم أتوقف لدى كل شىء بل اجتزأت بما عَنّ لى من تلقاء نفسه تقريبا ولم أُحِدّ النظر إلا فى مدى ضيق.

ولعله قد اتضح الآن مدى الوهم فى ما كان العرب القدماء يقولونه من أن الإبداع الشعرى هو من صنع الشياطين، الذين كانوا يعتقدون أنهم يسكنون وادى عبقر من بلادهم. فالشياطين لا علاقة لها بالإبداع الأدبى بل

بالعقيدة والأخلاق والسلوك، إذ تريد أن تضللنا وتخرجنا عن الصراط المستقيم. أما الإبداع فيأتى من الأحداث التى يمر بها الشخص قراءة وسماعا وشما ولمسا وذوقا وتجارب يخوضها بين الناس أو وحده فى البيت أو فى أحضان الطبيعة... إلخ، فضلا عن الموهبة بطبيعة الحال. ولا شىء من ذلك يأتى من الشياطين بل من الله سبحانه. فهو الذى خلقنا ووهبنا القدرة على الإبداع وهيأ لنا الثقافة ومصادرها المتنوعة واستطاعة تشرب عناصرها... وهلم جرا. وكان الإغريق يقولون بأن الإبداع هو وحى الآلهة: فإله للشعر، وإله للموسيقى... وهكذا. لكننا نحن المسلمين لا نؤمن بتعدد الآلهة بل برب واحد هو الله سبحانه وتعالى مصدر كل شىء، ومنه المبدأ، وإليه المصير. وهو لا يفعل شيئا إلا من خلال مخلوقاته ولا تمطر السماء ذهبا ولا فضة ولا إبداعا، إذ هو سبحانه قد أودع كل شىء خصائصه، بَيْدَ أنه يمارس قَيُّوميته طوال الوقت لا يترك عباده طرفة عين، لكنه يوجب عليهم العمل وإتقانه بما فيه الإبداع.

على أن عجائب الديوان لا تنقضى، فمعنا أيضا تعبير لم أقابله قبلا، وهو "إذ فجأة":

أو علَّهمْ

يتصدّقُون بألفِ نَفْسٍ كلَّ يومٍ

من رجالٍ

أو نساءٍ ثيّباتٍ

أو عذارى

أو جنودْ

حتىَّ يهابَهُمُ الصهاينةُ اليهودْ

والرابضونَ من الجوارح

والصقورْ

ومن الحشودْ

خلف المدائنِ والحدودْ!

أو علَّهم يستيقظونَ

و قد تحررتِ المدائنُ كلُّها

إذ فجْأةً

من أوّلِ الجولانِ حتّى أورشليمَ

كأنّهمْ باتوا طوال الليلِ يمتشقونَ

سيفَ بن الوليدْ!

* * *

فتـــارةً أتوانَى أو أسيرُ عَـــلَى شوْكٍ، وإذ فجْــأَةً أَنسَاقُ فى جَلَدِ

أترى الشاعر يريد تأكيد معنى المفاجأة؟ لعل الأمر كذلك. على كل حال لا بد من التصريح بأنى لم أُلْفِ لها فى نفسى نفورا كالذى أُلْفِيه عندما أسمع متكلما يقول: "وهناك ثمة شخص يقف وحده" مثلا.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض
من مواليد قرية كتامة الغابة - غربية - مصر فى ١٩٤٨/١/٦م
تخرج من آداب القاهرة عام١٩٧٠م
حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام١٩٨٢م
أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس
البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين
المتنبي- دراسة جديدة لحياته وشخصيته
لغة المتنبي- دراسة تحليلية
المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
المستشرقون والقرآن
ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
النابغة الجعدى وشعره
من ذخائر المكتبة العربية
السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
جمال الدين الأفغانى - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى
سورة طه - دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة
أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين – دراسة نقدية لرواية "العار"
مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى
نقد القصة فى مصر من بداياته حتى١٩٨٠م
د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
ثورة الإسلام - أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"
كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفى جمعة – قراءة فى فكره الإسلامى
إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق
سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
المرايا المشوِّهة - دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
فى الشعر الجاهلى - تحليل وتذوق
فى الشعر الإسلامى والأموى - تحليل وتذوق
فى الشعر العباسى- تحليل وتذوق
فى الشعر العربى الحديث - تحليل وتذوق
موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية
منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها
أدباء سعوديون
شعر عبد الله الفيصل - دراسة فنية تحليلية
دراسات فى المسرح
دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل
شعراء عباسيون
من الطبرى إلى سيد قطب - دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه
القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
محمد لطفى جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية
لكن محمدا لا بواكى له - الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
مناهج النقد العربى الحديث
دفاع عن النحو والفصحى- الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
الفرقان الحق - فضيحة العصر
لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
التذوق الأدبى
الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"

المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية
سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب - فصول مترجمة ومؤلفة
"تاريخ الأدب العربى" للدكتور خورشيد أحمد فارق - عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)
الأسلوب هو الرجل- شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه
فنون الأدب فى لغة العرب
الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)
فى الأدب المقارن - مباحث واجتهادات
مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)
فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام
بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)
دراسات فى النثر العربى الحديث
"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب- قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)
مسير التفسير - الضوابط والمناهج والاتجاهات
"الأدب العربى - نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)
بشار بن بُرْد - الشخصية والفن
الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ
فى التصوف والأدب الصوفى

النساء فى الإسلام - نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)
الإسلام الديمقراطى المدنى - الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة "تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم" عن الإنجليزية)
صعود الإسلام السياسى فى تركيا (من سلسلة تقارير مؤسسة راند الأمريكية عن الإسلام والمسلمين فى العالم- مترجم عن الإنجليزية)
بناء شبكات الاعتدال الإسلامى (من سلسلة تقارير مؤسسة راند الأمريكية عن الإسلام والمسلمين فى العالم- مترجم عن الإنجليزية)
محاضرات فى الأدب المقارن
من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة
ست روايات مصرية مثيرة للجدل
هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى
أفكار مارقة- قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب
الرد على ضلالات زكريا بطرس
موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين - مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا
"القرآن والمرأة" لأمينة ودود - النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية
عبد الحليم محمود - صوفى من زماننا
د. ثروت عكاشة - إطلالة على عالمه الفكرى
ثروت عكاشة بين العلم والفن

مَعَ روايتَىْ "عذراء الهند" لأحمد شوقى و"ربما يأتى القمر" للسعيد نجم (نقد قصصى)

جولة فى كتاب مصطفى محمود: "القرآن - محاولة لفهم عصرى"

قراءة فى كتابات ابن حزم وابن رشد وابن مضاء حول النحو والنحاة مع محاولة تيسير بعض المسائل النحوية

القرآن ونظرية القراءة فى نسختها العربية الإسلامية

فى النقد التطبيقى- حلمى القاعود روائيا (قراءة تكاملية)

مع "التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" للدكتور حسن حنفى (دراسة تحليلية تقييمية)

النقد الثقافى فى كتابات نقادنا القدماء، مع دراسة عن نسق الفحل عند د. الغذامى

دراسات جديدة فى الاستشراق والمستشرقين

خمس دراسات فى الأدب المصرى المعاصر

فى صالون سالمينا كانت لنا ندوات

دراسات عصرية فى الحديث النبوى الشريف

من أدب الأقطار العربية

مصطلحات ومفاهيم نقدية عصرية

دراسات نقدية متنوعة

مقتل ابن أبى الحقيق

مقتل كعب بن الأشرف

مقتل الأسود العنسى

علاوة على الدراسات المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست